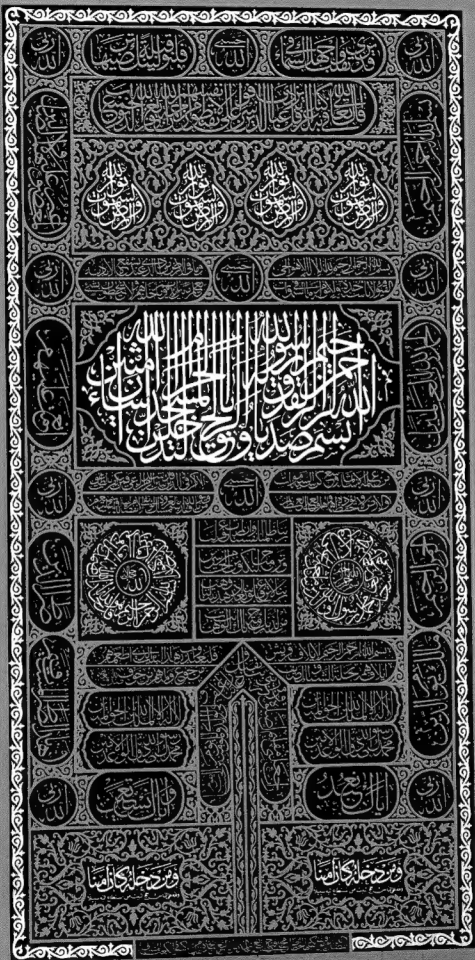


الجمهورية



العدد الثالث • السنة الثانية عشرة • ربيع الآخر ١٤٠٧هـ • ديسمبر ١٩٨٦م



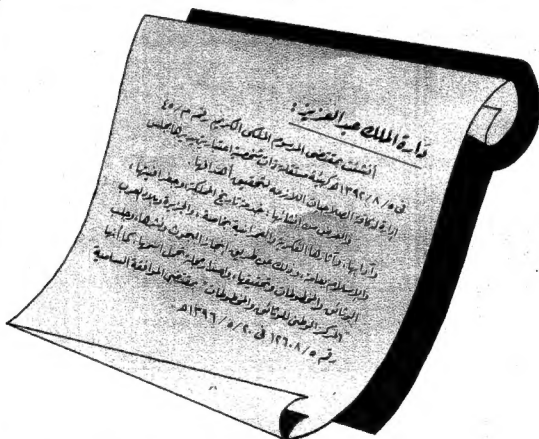


089,927



مجلة فصلية محكمة
تصدر عن دار الملك عبدالعزيز

العدد الثالث • السنة الثانية عشرة • ربيع الآخر ١٤٠٧هـ • ديسمبر ١٩٨٦م



رقم الفاكسيميلى : ۰۰/۹۶۶/۱/۴۴۱۷۰۲۰

المشرف العام .

معالي الشيخ حسن بن عبدالله آل الشيخ

وزير التعليم العالي . ورئيس مجلس إدارة دار الملك عبدالعزيز

○ ○ ○

أعضاء مجلس إدارة دار الملك عبدالعزيز :

معالي الأستاذ	عبد العزيز الرفاعي	وكيل وزارة التعليم العالي
سعادة الأستاذ	عبدالله بن خميس	وكيل جامعة الملك سعود
سعادة الدكتور	عبدالرحمن بن صالح الشبلي	وكيل وزارة المعارف المساعد للشؤون الثقافية
سعادة الدكتور	أحمد محمد الضبيب	وكيل وزارة الاعلام المساعد للاعلام الداخلي
سعادة الدكتور	عبدالله المصري	
سعادة الأستاذ	عبدالرحمن فهد الراشد	
سعادة الأستاذ	محمد حسين زيدان	
سعادة الأستاذ	عبدالله حمد الحجيل	الأمين العام للدارة

الإدارة والتحرير

٤٤١٢٣١٦ - ٤٤١٢٣١٧

مركز النشر
الأمين العام للدارة

٤٤١٤٦٨١



رئيس التحرير

محمد حسين زيدان

...

مدير التحرير

عبدالله حمد الحقييل

...

هيئت التحرير

د. منصور إبراهيم الحازمي

عبدالله بن عبدالعزيز بن إدريس

د. عبدالرحمن الطيب الأنصاري

د. عبدالله الصالح العثيمين

د. محمد سليمان السديس

○ ○ ○

سكرتير التحرير، «الفي»

مصطفى أمين جاهيم

مدير التحرير

٤٤١٤٦٨١ ☎

رئيس التحرير

٤٤١٧٠٢٠ ☎

آراء الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي المجلة .

* الاشتراكات السنوية *

- ٢٠ ريالاً للاشتراك السنوي داخل المملكة العربية السعودية .
- وفي البلاد العربية ما يعادل القيمة لأربعة أعداد في كل بلد .
- ٦ دولارات خارج البلاد العربية .

- ترتيب البحوث داخل العدد يتخضع لأسباب فنية لاعلاملة لها بمكتبة الكاتب ..
- لأثر البحوث إلى أصحابها سواء نشرت أم لم تنشر ..
- ترسل البحوث سرىا إلى عمكمن وبهم نشرها بعد النظر في صلاحيتها للنشر .

قيمة العدد

- السعودية : ثلاثة ريالاً - الإمارات العربية أربعة دراهم
- قطر : أربعة ريالاً - مصر ٣٥ قرشاً - المغرب خمسة دراهم - تونس ٤٠٠ مليم
- خارج البلاد العربية : دولار للعدد

الموزعون

- السعودية : مؤسسة الجريسي للتوزيع
- ص.ب ١٤٠٥ الرياض - ت ٤٠٢٢٥٦٤
- أبو ظبي : مكتبة المنهل
- ص.ب ٣٧٧٨ أبو ظبي - ت ٣٢٣٠١١
- دبي : مكتبة دار الحكمة
- ص.ب ٢٠٠٧ - ت ٢٢٨٥٥٢
- قطر : دار الثقافة
- ص.ب ٣٢٣ - ت ٤١٣١٨٠
- البحرين : مؤسسة الهلال للتوزيع
- ص.ب ٢٢٤ المنامة - ت ٢٦٢٠٢٦
- مصر : مؤسسة الأهرام للتوزيع
- شارع الجلاء - القاهرة ت ٧٥٥٥٠٠
- تونس : الشركة التونسية للتوزيع
- بنج قرطاج
- المغرب : الشركة الشرفية للتوزيع
- ص.ب ٦٨٣ الدار البيضاء .



صورة الغلاف

● المسجد النبوي الشريف
المدينة المنورة

فيس هذا العدد

- الافتتاحية رئيس التحرير ٦
- الوجه الفلكي للمؤرخ التجدي عثمان بن عبدالله بن بشر ٨
- جغرافية موقعة اليرموك د. طه بن عثمان الغزالي ٢٦
- التحليل الأيكولوجي للبلديات السعودية ٤٤
- مختصر شرح أمثلة سبويه للجواليلي (عرض وتحليل) د. دلع الله عبدالله سليمان ٧١
- كيف يمكن تعديل اتجاهات الشباب المسلم وفقاً للمنهج الإسلامي والمنهج العلمي د. عبدالرحمن محمد العيسوي ٩٩
- مفهوم العلم عند الإمام الغزالي د. محمد فاروق النبهان ١١٣
- من ثمرات المتابعة الدعوية للتراث العربي العريق أ. الغزالي حبيب ١٢٩
- الطبيب الأندلسي عبد الملك بن الفقيه محمد بن زهر أ. فاضل السباعي ١٤٣
- بعض ملامح الحياة الاجتماعية في مدينة مراكش في عصر المرابطين والموحدين د. سليمان عبدالغني مالكي ١٦٩
- في الأدب الجزائري العربي الحديث د. محمد لطفي الزايطي ١٩١
- علوم .. وفنون .. د. مصطفى أمين جابر ٢٠٧
- السورن والنشعر د. عثمان موالسي ٢٢١
- مجاز القرآن لأبي عبيدة (عرض كتاب) د. عباس أرحيلة ٢٣٥
- السعوديات للشاعر أديب الزهير ٢٤٧
- المك د. حسن جاد حسن ٢٥٠

الافتتاحية ..

المراد

وهي كلمة كتبناها من قبل ، عنوانها الموجز يتسع لإطنباب يحوي تاريخ أمة العرب ، أمة الإسلام ، كان العنوان (قواعد الفتح قواعد العلم) ، أفليس العرب بإسلامهم فتحة ؟ ومازال ومن كان إسلامهم علماً ؟ وإسلامهم على صورة تعبير العصر أرسل للدنيا كلها الحضارة الوسيط في الأمة الوسط ، ولم تكن إلا من تراث أمم ورثتها اللغة الشاعرة فأرسلتها إلى كل الدنيا بلسان عربي مبين . فلتن كان المصدر أعجمياً من كل اللغات ، فقد أمسكت به اللغة العربية مترجماً ومهندماً واضحاً . ولكن ماهو المصدر ؟ أو من هم الذين تصدروا يعلمون هؤلاء الذين ترجعوا ، الذين علموا ، الذين كانوا أئمة تلامذة أئمة ؟.

إن المصدر هو : المسجدان والمربدان ، المسجد الحرام ومسجد النبي في المدينة المنورة ، ومريد البصرة ومريد الكوفة .

لكن لنسأل : هل تمر البصرة أعطى علم البصرة اسم المريد ليكون القرين في الكوفة بهذا الاسم أم أن حصافة وثقافة الإمام في البصرة والكوفة أخذوا اسم المريد من ذلك الاسم ، ألا وهو المريد الذي كان ثم أصبح المسجد النبوي . كأنما المربدان في العراق قد استغرقا يرثان المريد في المدينة المنورة ؟.

وسؤال آخر : هل هناك كاتب حرف اتسعت ثقافته إلا وعليه بصمة المسجدين والمريدين ؟ وفطنت بغداد تقيم احتفالاً في ٢١ نوفمبر تحت اسم المريد ، كأنما بغداد وهي على حق أعلنت أنها الوارثة والمورثة للمراد الثلاثة ، المدينة ، البصرة ، الكوفة ، وهل كانت بغداد إلا واردة شع منها نور الحضارة الوسيط ، فإذا علم المراد ، أصبح



بقلم رئيس التحرير



العلم راية رفعتها العروبة على كل معهد، على كل من حفظ المعهد، لا ينكر على بغداد أنها كانت مشرق الحضارة، عربية مسلمة، ولقد قال شوقي عاشق الشام، من عشقه للإسلام والعروبة :

لولا دمشق لما كانت طليطلة .. ولا زهت بيني العباس بفيدان
واستدرت على شوقي أقول، لا ناقداً وإنما مستملاً :
لولا حراء لما كانت دمشقكم ..

وليكن النثر بعد ، فلولا دمشق لما تم زهور بغداد، ولولا بغداد لما ثبتت العروبة ثبات الامبراطورية في دمشق ، لأن بغداد - كدمشق - كانت عاصمة العاصمة، فما من عاصمة في أرض العرب إلا وهي العاصمة لكل العرب.
أمة واحدة من مرابدها انتشر العلم، فكيف تصل إلى القوقاز، تحرق المرید بيد مسلمة وسلاح عربي.

وأخيراً فالمرید في بغداد اليوم هو إعلان الوارثة وعمل التوريث، ليرث العرب ماضيهم عملاً لحاضرهم آملاً لمستقبلهم، فأی أمة لا تراث ماضيها ولا تعمل لحاضرها تحسر مستقبلها.

تحية لمرید بغداد أرسلها حيث عجزت أن أكون هناك ، فالتحية إكبار تحمل معنى الاعتذار .

● محمد حسين زيدان ●

التوجه الفلكي للمؤرخ النجدي عثمان بن عبد الله بن بشر

أ. عبد الرحمن حمد السنيدي



يجب الله جلّت قدرته العلم لأفئدة مريديه ويفتح لهم آفاق مساواته ويذلّل لهم مطايا ودروب أراضيه. وتحيط الخيرة ببال المطلع على حياة وسير أسلافنا الصلحاء الأجلاء لفزارة معارفهم وتعدد جوانب اهتمامهم ومشاربهم، ويزيد عجبه أن يكون هذا العطاء الثر الأصيل أحصى وأبغى في أرضية تلکم الظروف الشحيحة.

ومن أولئك العلماء الأجلاء الشيخ عثمان بن عبد الله بن عثمان بن أحمد بن بشر النجدي (١٢٩٠/١٢١٠هـ)^(١).

عرف الشيخ عثمان في عالم التأريخ بكتابه (عنوان المجد في تاريخ نجد)، ومعروف أنه من أهم وأصدق المصادر القليلة في تأريخ الجزيرة العربية، وبالأخص تاريخ الدولة السعودية الميمونة في دورها الأول والثاني. وذلك خلال ظلّم من الزمان ندر فيها التدوين. والحق أنه كنز لا يقدر بشمن نفع الله به هذه البلاد، فحفظ كثيراً من ماضيها وكفاحها المشرق.

وشهرة ابن بشر التاريخية صرفت أكثر عارفه عن جوانب معارفه واهتماماته الأخرى، فكان له إسهام واضح في علم الفلك (المهتة) وهو أحد المهتمين بالملاحظات والظواهر الفلكية، ومن المجيدين لحساب النجوم (البروج والأنواء). وسنعرض هذا الجانب الفلكي عند ابن بشر رحمه الله محاولين جلاءه وتأكيده. سيما وأن من ترجوا له لم يتعرضوا لهذا الجانب. وسيكون هذا العرض من منظورين :

المنظور الأول: الجانب الفلكي في الآثار التي تركها ابن بشر رحمه الله.
والمنظور الثاني: إبراز مافي كتابه التاريخي (عنوان المجد) من تقييدات وفقرات فلكية وتحليلها.

المنظور الأول: مؤلفات ابن بشر :

قال عبد العزيز بن عبيان ناسخ مخطوطة (عنوان المجد) الموجودة بالمتحف البريطاني بلندن وهي التي اعتمدها فضيلة الشيخ عبد الرحمن بن "تقيد اللطيف آل الشيخ" (٢) ما يلي: «صنف مصنفات عديدة ونسخ نسخاً مفيدة منها :

- هذا الكتاب (عنوان المجد في تاريخ نجد) جعله مجلدين.
- وصنف أيضاً كتاباً في الخيل سماه (سهيل في ذكر الخيل) في سبعة كراريس.
- وكتاب (الإشارة في معرفة منازل السبعة السيارة) في نحو أربعة كراريس (٣).
- ووضع ورقة في الحساب محتوية على الجداول سماها (بغية الحاسب).
- وكتاب (مرشد الخصايص ومبدي النقايص) في الطفيليين والثقلاء.
- وفهرس طبقات الختابة للحافظ ابن رجب جعل تراجمه على حروف المعجم.
- وله رسائل ونبد عجيبة. ١. هـ.

ومن خلال هذا السرد السريع لمؤلفات ابن بشر رحمه الله يتبين أن له أثرين خاصين بعلم الفلك، والثالث (سهيل في ذكر الخيل) ويلمح في هذه التسمية أثر الميل الفلكي. وأن له رسائل ونبداً لم تعرف مضامينها ولعل منها أشياء فلكية.

● والأثر الأول (الإشارة في معرفة منازل السبعة السيارة) واضح من عنوانه أنه في الفلك وفي

فرع (الحساب الفلكي ومعرفة المنازل والبروج والأنواء). ولا أعلم مصير هذا الكتاب الثمين.
والكواكب السبعة تسمية قديمة لألح الأجرام السماوية المتحركة، وذلك قبل اختراع المنظار
المقرب، وهي على ترتيب الرؤية الظاهرية في الوضوح للعين المجردة: الشمس، القمر،
الزُهرة، المشتري، المريخ، عطارد، زحل.

وهي تتحرك عكس اتجاه دوران الكرة الأرضية حركة ظاهرة (ليست حقيقية) على الدائرة
الكسوفية وتسمى دائرة البروج. وقد قسمت دائرة البروج إلى اثني عشر برجاً (وجعلوها منازل
للشمس) وقسمت هذه البروج إلى ثمان وعشرين منزلة (جعلوها منازل للقمر).

وعدد أيام كل منزلة ثلاثة عشر يوماً فيكون حاصل ضرب عدد المنازل في عدد أيامها
($28 \times 13 = 364$) ثلاثمائة وأربعة وستون يوماً ويزاد يوم في منزلة المنازل، في منزلة القلب
عند أكثر أهل الحساب. فيصبح المجموع (365 يوماً) وهي مجموع أيام السنة الشمسية
تقريباً^(٤)، ويتضح هذا الحساب في الأشهر العربية الهجرية الشمسية :

الحمل - الثور - الجوزاء - السرطان - الأسد - السنبلة - الميزان - العقرب - القوس -
الجدي - الدلو - الحوت - .

● والأثر الثاني (بُغية الحساب) :

وأكثر من ترجموا لابن بشر جعلوها رسالة في الحساب أي علم الرياضيات، ورسموها بزيادة
ميم قبل الحاء (المحاسب) هكذا. وقد يكون هذا الرسم سبب جعلهم إياها في الحساب. كما
في طبقات مكتبة الرياض الحديثة، والأعلام للزركلي (ص ٢٠٩ ط: ٥).

وأرجح، بل أكاد أجزم، أنها جداول (أزياج)^(٥) في الحساب الفلكي (حساب المنازل
والبروج) لا حساب المسائل الرياضية. وذلك لما يلي :

أ - أن ابن عيَّان رسمها في مخطوطة لندن (الحاسب)^(٦) وهذه النسخة فرغ من خطها سنة
[١٢٧٠هـ] قبل وفاة ابن بشر بعشرين عاماً^(٧).

ب - أن ابن عيَّان نص على أنها في ورقة، وأنها محتوية على الجداول ويدهي أن ابن بشر أو



غيره لن يعطي بنيةً من علم الرياضيات في ورقة، أما أن تكون جداول لحساب الفصول والأنواء (زيج فلكي) فأمر ممكن، ومعظمنا يحمل في جيبه جدولاً صغيراً جداً لتقويم سنوي كامل.

جـ - الاتجاه للحساب الفلكي عند ابن بشر في تأريخه عنوان المجد، وكذلك وجود مؤلف كامل له مستقل في هذا الفن (الإشارة في معرفة منازل السبعة السيارة).

د - ما يُعرف إلى اليوم لدى كبار السن من الحسّابين بحساب ابن بشر وقد أخبرني الشيخ محمد بن عبدالله بن مقرن متع الله به، وهو من أهل هذا الفن: أن من جملة الحسابات التي يعتمد عليها حساب عثمان بن بشر، وسألته هل هذا الحساب موجود بدون فلم يتذكر، وظن أنها تلك الرسالة، وقد يكون أثر آخر لابن بشر عفت عليه الأيام، يتداوله الناس مشافهة.

المطور الثاني : إبراز واستعراض ماورد في كتاب (عنوان المجد في تأريخ نجد) من الفقرات والتقبيدات والرصدات الفلكية :

مع أن كتاب عنوان المجد تأريخي في موضوعه ومنهجه وأساس وضعه، فقد قصد به ابن بشر رحمه الله تدوين الحوادث السياسية والاجتماعية^(٨). إلا أنه قد احتوى بحكم ميل المؤلف ومعرفته على تقبيدات ونقولات ورصدات فلكية مهمة جداً لذوي الاختصاص الفلكي وهي جديرة بالدراسة والتحليل.

وماجود هذه الفقرات الفلكية بهذه الكثرة وهذه الدقة والتفصيل إلا مؤشر يؤكد اهتمام هذا العالم المؤرخ، وميله القوي لعلم الفلك وحساب الأنواء وتمكنه من ذلك.

وقبل هذا الاستعراض يحسن بنا أن أضع بعض الملاحظات أمام القارئ الكريم.

●● تركت نصوص ابن بشر كما هي، من الناحية التعبيرية والنحوية.

●● تتبع ماورد في عنوان المجد من التقبيدات والفقرات الفلكية فألفيتها، وهي مشورة في حوادث السنين، يمكن أن تنسق على خمسة أنواع :

□ النوع الأول: يتعلق بظاهري الكسوف والخسوف.

□ النوع الثاني: يتعلق بالغيارات السايوة.

□ النوع الثالث: يتعلق بالشهب والنيازك.

□ النوع الرابع: يتعلق بالمذنبات.

□ النوع الخامس: يتعلق بالأنواء وحساب البروج والمنازل.

وقد فصلت كل نوع على حدة زيادة في الإبراز والإيضاح.

●● راعيت في عرض هذه التقييدات التسلسل الزمني التصاعدي حتى تتبين تواريخ تلك الظواهر الفلكية بصورة زمنية واضحة بالتاريخين الهجري والقمرى والميلادى الشمسى^(٩) حتى تسهل دراستها ومقارنتها بغيرها من التقييدات الفلكية والمناخية في كتب الفلك والتأريخ وغير ذلك من كتب التراث لدى علمائنا المسلمين الأجلاء.

●● اعتمدت في هذا الاستعراض الحصري النسخة التي طبعتها وزارة المعارف الجليلية على نفقتها، وأحسن تحقيقها فضيلة الشيخ: عبدالرحمن بن عبداللطيف آل الشيخ أثابه الله جزاء خدمته للعلم والعلماء، ذلك أن هذه النسخة أوفى وأصح النسخ المطبوعة حسب علمي.

□ النوع الأول «الكسوف والخسوف» :

١ - ١٠٩٦هـ = ١٦٨٤م - «وفيها كسف^(١٠) القمر مرتين» العنوان ج ٢ / ٢١٦.

٢ - ربيع الآخر ١١٠٧هـ = ١٦٩٥م - «وفيها خسف القمر والشمس في شهر واحد وهو ربيع الآخر» العنوان ج ٢ / ٢٢٢.

٣ - لية الخميس ١٤ محرم ١٢٠٨هـ = ١٧٩٣م - «وفيها خسف القمر ليلة الخميس أربع عشر المحرم».

٤ - يوم الخميس آخر محرم ١٢٠٨هـ = ١٧٩٣م - «.. وكسفت الشمس آخر الشهر [محرم] يوم الخميس [٢٨ محرم]..» العنوان ج ١ / ١٣٣.

٥ - عصر رمضان ١٢٢٣هـ = ١٨٠٨م - «وفيها كسفت الشمس في شهر رمضان عصرًا»
العنوان ج ١ / ١٩٢.

٦ - الاثنين آخر المحرم ١٢٢٧هـ = ١٨١٢م - «.. كسفت الشمس يوم الاثنين آخر
المحرم» العنوان ج ١ / ٢١٤.

٧ - الضحى ٢٩ رجب ١٢٢٩هـ = ١٨١٣م - «.. وفي ٢٩ رجب كسفت الشمس وقت
الضحى كسوفًا لم يعهد وانظمت بالكلية وأظلمت الأرض وظهرت النجوم..» العنوان
ج ١ / ٢٤٢.

٨ - ١٢٣٠هـ = ١٨١٤م - «.. وفيها خسف القمر خسوفًا شديدًا ولم يبق منه إلا مثل
النجم» العنوان ج ١ / ٢٥٢.

□ النوع الثاني : «الغِيَارَات السَّامِيَّة» :

ويقصد بها ابن بشر رحمه الله ما يعرض لأديم السماء وآفاقها من التقلبات.

١ - ليلة الجمعة ٢٢ عاشوراء (محرم) ١٠٥١هـ = ١٦٤٢م - «.. وقع ظلمة عظيمة مع
حرمة لثمان بقين من عاشوراء، ظن الناس أن الشمس غابت ولم تغب..» العنوان ج ٢ /
٢٠٦.

٢ - ليلة ٢٥ آخر صفر ١٢٤٧هـ = ١٨٣١م - «.. وفي هذه السنة حصل في السماء غيارات
عند طلوع الشمس وعند غروبها ففي آخر صفر ليلة خمس وعشرين منه صار في السماء
والأرض نور قريب من نور القمر واستمر ذلك إلى آخر الشهر وعجب الناس من ذلك»
العنوان ج ٢ / ٥٣.

٣ - ربيع الأول ١٢٤٧هـ = ١٨٣١م - «.. وفي هذا الشهر صار في الأفق حرمة زائدة بعد
غروب الشمس وقبل طلوعها واستمر أيامًا وشوهد قبل انفجار الصبح حرمة بادية من
جهة الشمال ليس هي من جهة الفجر نحو ثلاثة أيام» العنوان ج ٢ / ٥٣.

٤ - بعد صلاة المغرب، ١٥ ربيع الأول ١٢٤٧هـ = ١٨٣١م - «.. وفي النصف من هذا

الشهر بعد صلاة المغرب ظهر من الأفق حمرة عظيمة من جهة الجدي ثم سارت إلى المغرب وأضاءت الأرض والجدران واخضرت ثم احمرت حتى ظن الناس أن الشمس لم تغب» العنوان ج ٢ / ٥٣ .

٥ - ٧ ربيع الأول ١٢٤٧هـ = ١٨٣١م - «.. صار قتر في السماء وتغيرت الشمس» العنوان ج ٢ / ٥٣ .

٦ - ٢١ ربيع الأول ١٢٤٧هـ = ١٨٣١م - «.. وأول العشر الأواخر من هذا الشهر ظهرت الشمس من الشرق خضراء كأنها قطعة زجاج وصارت تلك الخضرة في الأرض والجدران وحسبها أكثر الناس كسوفاً» العنوان ج ٢ / ٥٣ .

٧ - ١٢٤٨هـ = ١٨٣٢م - «.. وفيها ظهر في الشرق والغرب أيضاً صفرة وحمرة بعد الغروب ودامت أشهر» العنوان ج ٢ / ٥٦ .

□ النوع الثالث: «الشهب والنيازك»:

والشهب أجرام ساوية صلبة تسبح في الفضاء لا تحصى عدداً. تتفاوت أحجامها بين حبات الرمال وبين كتل هائلة تزن مئات الأطنان تتأثر بجاذبيات الكواكب فتسقط عليها. ولا نستطيع رؤية هذه الأجسام إلا إذا دخلت غلافنا الجوي ليلاً فنراها كشهب تمرق وامضة وبعضها ينفجر ويتناثر محدثاً دويماً وفرقة. وإذا وصل إلى سطح الأرض من مادتها شيء سمي نيزكاً أو حجراً سماوياً. فالنيزك مادة الشهاب المرتطمة بالأرض. ومن نعم الله الكبرى علينا وجود الغلاف الجوي الذي يحمينا.

ومصدر الشهب، الأجرام السماوية كالمذنبات المتفتتة والكويكبات المتحطمة.

«الشهب والنيازك»

١ - ٢٤١هـ = ٨٥٥م - «.. وذكر القطب الحنقي في تاريخ مكة المكرمة في ترجمة المتوكل بن المعتصم قال: (وفي أيامه وقع عجائب منها: أن النجوم ماجت في السماء وتناثرت الكواكب ورميت قرية السويداء بأحجار من السماء فلو وزن حجر منها لكان عشرة

أرطال) .. العنوان ج ٢ / ٥٦ .

٢ - سلخ محرم ٥٩٩ هـ = ١٢٠٢ م - « .. وذكر الياضي في تأريخه والسيوطي في تأريخ الخلفاء وصاحب تأريخ الخميس ، أنه في سنة تسع وتسعين وخمسة سلخ المحرم ماجت النجوم وتطارت تطاير الجراد ورام ذلك إلى الفجر وانزعج الخلق وضجوا بالابتهاال إلى الله .. » العنوان ج ٢ / ٥٦ .

٣ - نصف الليل ١٢٤٨ هـ = ١٨٣٢ م - « .. بعدما مضى نصف الليل تطارت النجوم في السماء وكأنها الجراد أو كأنها شعل النار، وقدح الزند من جميع جهات السماء كلها، شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً وصار فيها شهب عظيمة تنقض وتضيء بالأرض، ويبقى موضع الشهاب ساعة لا يزول وانزعج الناس لذلك واستمر بعد اسفرار الصبح . وأخبرني من أثق به أنه رأى شهباً تنقض بعدما طلقت الشمس يراها كأنها الدخان » العنوان ج ٢ / ٥٦ .

□ النوع الرابع : «المذنبات» :

المذنبات من آيات الله عز وجل الكونية الكثيرة، المثيرة للدهشة والباعثة على التأمل والإيمان .

وهن أجرام مضيئة لها ذيول طويلة لامعة كأنصال السيوف، وقد تستمر روية المذنب في السماء عدة أسابيع ينتقل في السماء ببطء نظراً لبعده . ويتكون المذنب من : نواة صلبة كمواد الشهب والنيازك وغلاف لهذه النواة من الثلج، وذيل مادته خفيفة جداً ومخلخلة حتى أنها لا تحجب رؤية النجوم التي وراءها، ويكون ذيل المذنب في الاتجاه المضاد للشمس دائماً ويطول كلما اقترب المذنب من الشمس ويقصر كلما ابتعد عنها . والمذنبات تفوق الحصر وقد زار كوكبنا الأرضي من كبارها أعداد كثيرة سميت بأسماء الفلكيين الذين رصدوها ودرسوها منها : مذنب دوناتي عام ١٨٥٨ م، مذنب موهارس عام (١٩٠٨ م)، مذنب مركس ١٩٥٧ م، مذنب كهوتيك عام ١٩٧٣ م .. الخ ومذنب آدموند هالي من أشهرها يتم دورته خلف فلك الكوكب (نبتون) كل ٧٥ سنة و١١ شهراً .

● المذنبات ●

١ - أول ١٠٢٧هـ = ١٦١٧م - «وذكر الشيخ مرعي بن يوسف في تاريخه قال: وفي أول سنة ١٠٢٧ ظهر في الشرق عمود أبيض مستطيل كطول المنارة فأرجف المنجمون بأراجيف وظنوا وقوع أمور مهولة وكذبوا والله. وصدق القائل:

أطلاب النجوم أحلمتونا على خير أرق من الهباء
كنوز الأرض لم تصلو إليها فكيف وصلتمو خبر السماء

ولم ير المسلمون إلا خيراً» العنوان ج ٢ / ١٣٧.

٢ - قبيل الفجر آخر ١٠٢٧هـ = ١٦١٧م - «... قال مرعي بن يوسف في تاريخه: وفي آخر سنة ١٠٢٧ طلع نجم في السماء قبيل الفجر عمود أبيض مستطيل كطول المنارة عدة ليال» العنوان ج ٢ / ١٩٦.

٣ - ١٠٢٧هـ = ١٦١٧م - «... [وكلام مرعي السابق متصل] ثم طلع نجم بعده له ذنب يضيء مستطيلاً جداً فأرجف المنجمون» العنوان ج ٢ / ١٩٦.

٤ - ١٨ جمادى الآخرة ١٠٩١هـ = ١٦٨٠م - «... وفيها طلع نجم له ذنب في القبلة» العنوان ج ٢ / ٢١٤.

وهذه سنة سابقة لم يصرح فيها بمصور النقل وقد يكون نقله عبد العصامي لأن الكلام السابق له.

٥ - طلوع الفجر ١٢٥١هـ = ١٨٣٥م - «... وفيها ظهر نجم له ذنب طويل مع بنات نعش وقت طلوع الفجر، وكان يسير كل يوم أكثر من منزلة. وسار إلى جهة الجنوب ثم توسط القبلة عند العشاء الآخرة ثم غاب وأقام أكثر من شهر، وكان طلوعه لاثنتي عشر بقيتاً من جمادى الآخرة...» العنوان ج ٢ / ٨٧.

٦ - بعد صلاة المغرب صفر ١٢٥٩هـ = ١٨٤٣م - «... وفي أول هذه السنة ظهر أول يوم من صفر بعد صلاة المغرب في وسط القبلة عمود أبيض مستطيل من الأفق إلى وسط

السماء مثل المغارة في رأي العين. وانزعج الناس وكثر التنافس في طلوع هذه الآية وذام ذلك إلى طلوع صفر ولازل يضمحل شيئاً فشيئاً. «. العنوان ج ٢ / ١٣٧.

□ النوع الخامس: «الأنواء وحساب المنازل والبروج» :

وهو حساب دخول وخروج الأنواء والأوقات والفصول، وما يصاحبها بتدبير الحي القيوم وحكمته من الاختلافات المناخية كالرياح والأمطار والبرد والحر والقر وما يتبع ذلك من خصب وجذب. . الخ.

وهذا النوع يلحظ بكثرة ووضوح في تاريخ ابن بشر لاهتمامه بالحساب الفلكي من جهة، ولأن هذا النوع على مدار السنة من جهة أخرى وهذا الحساب معروف في نجد (وسائر أقطار الجزيرة العربية)^(١١) وله أساطينه وأهل الفلاحة عموماً يعرفون ما يتعلق بأوقات البذور والسقي والحصاد. وحساب الحرات، والراعي، والخلاوى، وحساب أهل البحر كلها أمور مشهورة. ويتضح ميل ابن بشر لهذا الفرع الهام النافع من علم الفلك. ويتبين من تفصيله لكثير من هذه الأمور أنه حيسوب ماهر لدخول وخروج البروج والطوالع والأنواء والقرانات ومنازل الشمس والقمر. وقد أسلفت أن الشيخ محمد بن عبدالله المقرن حدثني عن ابن بشر، أن له حساباً معروفاً لدى حسابي الفلك التجديدين وأنه هو يعتمد حساب ابن بشر ضمن الحسابات الفلكية التي يجريها وهذا يعني أن لابن بشر طريقة حسابية معروفة.

ويتضح من إمعان النظر فيما أورده ابن بشر من حساب المنازل والأنواء (وجملة ماقيده من أمور فلكية) أنه رحمه الله يقوم فعلاً برصد ومتابعة متأنية لحركات الأجرام السماوية وكل هذا يرجح أن رسالته (بغية الحاسب) تقويم حسابي فلكي وليست مسائل حسابية رياضية.

الأنواء (أو الأحوال المناخية عامة وما يتعلق بها من حساب الفصول والمنازل).

١ - ١٠٩١ هـ = ١٦٨٠ م - «. وقع بمكة سيل عظيم أغرق الناس. قال العصامي في تاريخه :

وأضر الدور وأتلف من الأموال مالا يحصى، وأغرق نحو مائة شخص وهدم نحو ألف بيت، وعلا على مقام إبراهيم وعلا قفل باب الكعبة وشاهدت وأنا على باب المسجد النافذ على البيت الشريف والماء يملأ الطريق وهو يكون في المسجد وأقطار من الجبال عليها الركبان دهمها السيل ورأيت الماء وصل من الجمل وهو قائم إلى منخره، ثم زاد واقتلع القطار بما عليه وسبح بعض الجبال حتى أتى المنبر فارتفع عليه وصارت يدها وعنقه مرتفعان» العنوان ج ٢ / ٢١٤.

٢ - ١١٠٠ هـ = ١٦٨٨ م - «وفي هذه السنة نزل مطر دقيق وبرّد شديد وجد المطر فوق أعصاب النخيل وغيرها، حتى على أهداب عيون الإبل وسميت سنه سليس» العنوان ج ٢ / ٢٢٠.

٣ - ١١٠٨ هـ = ١٦٩٦ م - «وفيها تأخر نضاج الرطب في النخل ولم، يشبع الناس إلا بعد سبعة عشرة يوماً من ظهور سهيل»^(١٢) العنوان ج ٢ / ٢٢٣.

٤ - ١١٢٢ هـ = ١٧١٠ م - «وفيها أنزل الله برّداً، بفتح الراء، وأذهب زرع ملهم، وهب ريح شديدة تكسر منها نخيل كثيرة في البلدان وهدمت قصر رغبة» العنوان ج ٢ / ٢٣٠.

٥ - ١١٢٣ هـ = ١٧١١ م - «وفيها أنزل الله سيلاً وسيماً أغرق منزلة أهل حريملاء وهدم البيوت والمساجد وأوقع الله برّداً، بإسكان الراء، أهلك من الزرع ما كان في سنبله. ثم أنزل الله في الصيف غيثاً أعظم من الأول وأصلح الله الزرع وحصلت بركة عظيمة، قيل إن محصول الغرب في بلد ضرماء أكثر من ألفي صاع وأرخص الله الأسعار» العنوان ج ٢ / ٢٣٠.

٦ - محرم ١١٢٧ هـ = ١٧١٥ م - «وفي أولها في المحرم حصل برّد، بإسكان الراء، أخذ بالنخيل وكسر الصهاريج الخالية من الماء وجد الماء في أقاصي البيوت الكينية وذلك من

الخوارق» العنوان ج ٢ / ٢٣٢.

٧ - ١١٥٥ هـ = ١٧٤٢ م - «صار في نجد حطب، وجاء الخرج سيل أخرجه وهي سنة خيران المشهورة كثر فيها الأمطار والسيول حتى أن بعض بلدان نجد قاموا قريب شهر ماطلعت عليهم الشمس» العنوان ج ٢ / ٢٤١.

٨ - ١١٦٢ هـ = ١٧٤٨ م - «.. وفيها وقع بَرْدٌ، بإسكان الراء، أهلك غالب الزروع وهي مبدأ الغلاء والقحط المسمى شيته..» العنوان ج ١ / ٣٧.

٩ - ١١٩٧ هـ = ١٧٨٢ م - «وهذه السنة هي أول القحط المسمى دالوب قل فيه الأمطار وغلت الأسعار واشتد الغلاء والقحط والجوع في السنة التي بعد هذه واستمر إلى تمام إلى المائة [أي إلى سنة ١٢٠٠] وبلغ سعر الذرة والخنطة مدين بالمحمدية والتمر وزنة ونصف ومات أناس جوع من النساء والرجال والأطفال والبهائم فأمر عبدالعزيز بصدقات للضعفاء من أهل البلدان نرق عليهم شيئاً كثيراً رحمه الله» العنوان ج ١ / ٩٦.

١٠ - ١٢٠٠ هـ = ١٧٨٥ م - «وفيها رجعان الوقت المشهور دولاب^(١٣) وكثر فيها الحطب ورخص الطعام» العنوان ج ١ / ٩٧.

١١ - ١٢١١ هـ = ١٢٩٦ م - «وفيها أنزل الله سبحانه سيلاً عظيماً أشفق منه كثير من أهل البلدان وغرق منه حلة بلد الولم ومحاها ولم يبق من بيوتها إلا القليل وذهب لهم أموال كثيرة من الطعام والأمتعة ونزل على بلد حرمللاء بَرْدٌ لم يعرف له نظير وخَفَسَ السطوح وقتل بهائم وكسر عسبان النخل والأشجار وهدم الجدران حتى أشرفوا على الهلاك ورحمهم الله .

ثم جاء في الصيف سيل عظيم أشفق منه أهل البلدان وهدم بعض حوطة بن تميم وذهب بزروع كثيرة محصورة وجاء في وادي حنيفة سيل عظيم هدم في الدرعية بيوتاً وارتفع على الدكاكين والبيوت ولم يعلم أنه قبل ذلك وصلها وهدم في العينة بيوتاً كثيرة وسمى أهل

الدرعية هذا السيل مَوْصَه .. ج ١ / ١٤٧.

١٢- ١٢٢٤هـ = ١٨٠٩م - «وفيها أنشأ الله سبحانه سحاباً أَرعد وأبرق وأمطر وسال منه نواح وشعاب وبلدان كثيرة منها: حكر^(١٤) العيينة المعروف امتلاً بالسيل، وسال ماحوله من الشعاب، وسال بعض نخيل سدوس وحريملاء، وعم السيل نخيل بلد الصفرة وجرى وادي ثادق المعروف ببعيثران وسال الحريق والحوطة في ناحية الجنوب وسال الخرج سيلاً غزيراً وعم جميع نخيله وَعَبُرَتْ حتى أن بعضهم أشفقوا على الحلل والمنازل من الخراب والفرق وكذا الأفلاج.

ووقع هذا السيل مستهل جمادى الثانية في جمرة القيظ عند ظهور الحقعة التي يسميها العامة زابن الجوزا الشمالي التي نوّوها المرزم في حساب أهل الحرث وهو وقت حلول الشمس برج السرطان - وهذا لم يعهد في هذه الناحية من أزمان» ج ١ / ١٩٣.

والأسطر الأخيرة في هذه الفقرة من قوله: «ووقع السيل مستهل جمادى الثانية.. الخ تشير بوضوح لمعرفة ابن بشر للحساب الفلكي، ومصطلحاته. وقوله: «زابن الجوزا الشمالي»:

الرَّابِن^(١٥): على زنة، فاعَل، واحد الرّوابِن: كلمة معروفة في نجد لخشبتيّن توضعان على طرفي الدَّرَاجَة (دَرَّاجَة السّانية وهي تحت المحالة. بكرة خشبية مستطيلة) لمنع الريح (خيّط من جلود الجمال) من الانزلاق عن الدَّرَاجَة يميناً أو شمالاً وقد شبه عوام نجد كوكبة الجوزاء (وتسمى أيضاً الجبار Orion) في شكلها العام بهيئة آل السّانية على البشر، وشبهوا النجوم الثلاث المتعامدات رأسياً (والعامة تسمى هذه الثلاث النّظيم وقد يطلق الاسم على الكوكبة كلها. وهن مع النجوم الباهتة تحتهن يسمين سيف الجبار أو حزام الجبار). شبهوا هذه النجوم الثلاث بالدراجة وجعلوا (الهنعة، رِجْل الجبار) زابنها الأيمن الجنوبي، وجعلوا (الحقعة، وهي إبط الجوزاء، منكب الجوزاء) زابنها الشمالي وهذا رسم إيضاحي لكوكبة الجبار (Orion) المعروفة بالجوزاء أو الصياد من واقع رؤيتها في الأفق الشرقي قبل استقلالها في قبة السماء، الساعة الثامنة ليلة الخميس ٢١/٤/١٤٠٦هـ ١٢ الجدي ١٣٦٤هـ شمسي ٢/يناير/١٩٨٦م

أ - رجل الجبار (الهقعة) وهي زابن الجوزاء الجنوبي عند العوام.

ب - منكب الجوزاء، ابط الجوزاء (الهقعة) وهي زابن الجوزاء الشمالي عند العوام.

١٣- ٨ شوال ١٢٣٤هـ = ١٨١٨م - «وفيها في ثامن شوال أنزل الله سبحانه سيلاً عظيماً سالت منه غالب بلدان نجد وتدارك الغيث والسيول أياماً وذلك في شهر تموز الرومي وهو وقت اصفرار الثمار واحمرارها فلم يقع منه ضرر عليها وجعل الله فيه بركة» العنوان ج ١ / ٢٩٣.

١٤- العشاء الآخرة ١٢٣٦هـ = ١٨٢٠م - «وفي تلك الليلة... هب ريح عاصف وقت العشاء الآخرة ورؤيت فيها النار، وقيل إنها أحرقت زرعاً محصوداً...» العنوان ج ١ / ٣٠٣.

١٥- ١٢٤٣هـ = ١٨٢٧م - «وفيها أرخص الله الأسعار وكثرت الأمطار وفاضت الآبار. فأول منازل الغيث الوسمي زرع عليه الناس فلما حصد الزرع ونقل في بياديه تابع الله سبحانه الغيث على عباده فأعطنت الزروع، فلم يكن للناس شغل إلا نشرها وجمعها، واسود التبن وتغير الحب وأقام الناس على ذلك نحو من عشرين يوماً كل يوم ينزل الحيا والسيول في آخر النهار وأوله صحو لم ير عليه قرعة»^(١٦) العنوان ج ٢ / ٣٧.

١٦- العشاء الآخرة، آخر ذي القعدة ١٤٠٦هـ = ١٨٣٠م - «وفيها في آخر ذي القعدة هب ريح عاصف وقت العشاء الآخر ورمي نخيلاً كثيرة في سدير وغيره، وأحصى الذي طاح من قرينتنا^(١٧) أربعائة نخلة، ومن تقدير العزيز العليم أن أكثر الانكسار في النخلة الشابة الخيسة^(١٨) والنخل الكبار العيذان^(١٩) هو السالم في الغالب، وهذه من الآيات وخوارق العادات التي طمت فعمت حتى قيل إنها كذلك في الأقطار شمالاً وجنوباً وشرقاً وغرباً» العنوان ج ٢ / ٥١.

١٧- أول ربيع الثاني ١٢٤٧هـ = ١٨٣١م - «... وفي أول ربيع الثاني اجتمع من السيارات خمسة في برج الأسد: الشمس والقمر والمريخ وزحل وعطارد» العنوان ج ٢ / ٥٣.

١٨- ١٢٤٨هـ = ١٨٣٢م - .. وفيها حدث بَرْدٌ أضر بالنخيل وقطرت العيسان ديساً من شدة البرد.

فلما جاء فصل الصيف بأن الخلل في النخيل ويست أكثر عسبانياً، وأما الزرع والقت والنباتات فضرره قليل» العنوان ج ٢ / ٥٨.

١٩- ١٢٤٩هـ = ١٨٣٣م - «ثم حصل بَرْدٌ أعظم من الأول بحيث أن الماء الذي يقطر من الغروب على الدَّرَاج يعترض على حافة البئر كأنه العامود ويحمد الماء في السواقي والزرور، وبين الميزاب والأرض وأضر على النخيل مثل الأول.» العنوان ج ٢ / ٥٨.

٢٠- الوسمي ليلة ٢٧ رمضان ٧ برج العقرب ١٢٥٨هـ = ١٨٤٢م - .. وفي هذه السنة ليلة سبع وعشرين من رمضان أنزل الله الغيث العظيم على نجد فسالت منه الوديان وضائق من جور سيله الشعبان، وعم جميع الأوطان، وكل أهل بلد أشفقوا من الغرق وتضرعوا إلى الله من الخوف والغرق، فكان رحمة من الله للعباد والبلدان ونَقْذاً من بعد السنين الشداد فأجرى به كل واد وكان قد مضى على وادي سدير نحو أربعة عشر سنة ماعم بلدانه سيله وغارت آباره وهلك كثير من نخله. فأخذ وادي منيخ أكثر من خمسة أيام وجرت الأودية كلها بسيل لم يعرف له نظير منذ ثلاثين سنة حتى قيل إن وادي بلد القراين^(٢٠) شال صخرة عظيمة في مجراه ولايدري أين رماها. وجرى وادي حنيقة وخرب العامر. وخرب السيل في الفرع والخرج والجنوب وجعل كل عامر دامر، وعم الضراب والآكام وابتهج به الأنام وهذه المنة الجسيمة كلها في هذه الليلة العظيمة وذلك في الوسمي لسبع مضين من حلول الشمسى ببرج العقرب. وكان الناس في غاية الضعف من قلة البذر وقلة العوامل والرجال بعد سنين القحط وتفرق الناس. وأنزل الله لهم مع ذلك البركة العظيمة التي ماظنتا ببعضها...» العنوان ج ٢ / ١٢٦.

٢١- ١٢٥٩هـ = ١٨٤٣م - «وفيها حصل بَرْدٌ عظيم في آخر الحميم، على أول دخول الزراع مع طلوع المؤخر، فبات كل زرع لم يشتد في سنبلة وما اشتد في سنبله سلم منه.

وهذا لم يعهد في مثل هذا الوقت. « العنوان ج ٢ / ١٣٧ .

٢٢- ليلة الجمعة ١٤ صفر ١٢٦٤هـ = ١٨٤٧م - «وفيها، ومقابل أولها، منع الله الغيث بحكمته فلم يقع في الأرض حياً في بلدان نجد ولا غيم ولا مطر كثير ولا قليل من أولها إلى آخر الشتاء وقت حلول الشمس برج الحوت، فقطت الناس قنوطاً عظيماً لأن الناس يقولون: مانعهم أن السماء عدم فيها الغيم مثل هذه السنة. فلما كان رابع عشر صفر أنشأ الله الغيم في السماء وقت العصر ولا صار فيه مطر إلا وقت العشاء الآخرة فصب الله الغيث على خلقه فامتلاً كل واد بما فيه وضاعت مجاريه، وخرب السيل في البلدان كثير، فلم يجيء آخر الليل إلا وكل إنسان يستغيث ربه أن يرفعه عنهم. وذلك في الليلة الفاضلة ليلة الجمعة.

ثم عاودهم السيل في رابع عشر ربيع الآخر ليلة الثلاثاء ويومها على أول حلول الشمس ببرج الحمل. فجاء سيل ضاقت منه الوديان وخرب البلدان في نجد. ثم عاد الحيا على أول دخول جمادى الآخرة واستمر على جميع البلدان المطر نحو أربعة عشر يوماً لم تطلع الشمس وكل يوم معه سيل يجري مصار الماء في وسط منازل البلدان حتى أنه ظهر في مسجد الجامع في بلد المجمع وسقط أكثر من ثلثه، وظهر الماء في المجالس وبطون النخيل وأعشبت الأرض عشباً لم يعرف له مثيل» العنوان ج ١ / ١٥٦ .

● «خاتمة» ●

يتضح من هذا الاستعراض الفلكي السريع لكتاب (عنوان المجد في تاريخ نجد) للشيخ عثمان بن بشر جملة محصلات.

١ - أن سكان الجزيرة العربية يعتمدون على الله سبحانه، ثم على ماء المطر في كل حياتهم (السقي والزراعة والرعي .. الخ). وأنهم كانوا يعانون الوبلات والغلاء والجوع أوقات الحذب والقحط والجفاف وحين الكوارث كالبرد الشديد والبرد والسيول الجارفة. وكل ذلك خف بل كاد يزول تماماً بفضل الله الكريم وما أنعم به على هذه البلاد من الخيرات

والأرزاق.

٢ - أن عامة أهل نجد الأوائل (وبقية كثيرة من الشيوخ الموجودين على قيد الحياة يعرفون حساب الأنواء أو على الأقل مايتعلق منها بمصالحهم المعيشية. وأنه يوجد أناس بين أولئك العامة حذاق وذوو خبرة ومعرفة في الحساب الفلكي الدقيق.

٣ - أن حساب الأنواء ومعرفة الأوقات بمطالع الأنجم ومغاريها ضرورة، فرضتها طبيعة الجو الصحراوي المتقلب المكشوف الصافي أغلب أيام السنة من جهة، ومن جهة أخرى معيشة أهله التي تعتمد الزراعة والرعي والصيد وهي أمور تتأثر مباشرة بالأنواء، وتقلب الأوقات والمناخ عامة.

٤ - كثير من مؤرخي نجد وعلمائها يحسنون الحساب الفلكي، وإن تفاوتوا قدرة وفي تواريخهم وكتبهم فقر كثيرة وهامة في هذا الموضوع.

٥ - أن الشيخ عثمان بن بشر، وهذا مرتكز هذا الاستعراض، من أولئك المهتمين بعلم الفلك، وخاصة بالحساب الفلكي، وأن له فيه باعاً طويلاً، وما حصلت عليه وحصرته له في هذا المجال يثبت ذلك، ولكنه لايعطي تصوراً كاملاً للوجه الفلكي لهذا العالم، ولا بد أن العثور على آثاره المفقودة (كالإشارة في معرفة منازل السبعة السيارة) (وبقية الحاسب) وغيرها مما ضاع من رسائله ونبذه سيجلو هذه الصورة العلمية المشرقة لدى هذا العالم المؤرخ الفذ، الذي أنقذ أجزاء لا يستهان بها من تاريخ بلادنا السياسي والاجتماعي والعلمي والمناخي والاقتصادي... الخ.



الهامش :

- (١) ينظر لترجمة المؤرخ عثمان بن بشر:
- علماء نجد خلال ستة قرون للشيخ عبدالله عبدالرحمن البسام ج ٣ ص ٧٠١ مطبعة النهضة بمكة.
 - ترجمته في (عنوان الجدد) طبعة وزارة المعارف ج ١ ص ١١.

- الأعلام لخبر الدين الزركلي الطبعة الخامسة ج ٤ ص ٢٠٩.
- (٢) صورة المخطوطة مابين صفحتي ١٦ و١٧ في عنوان المجلد ج ١.
- (٣) «سبعة كرايس» و«أربعة كرايس» المقتضى سبع وأربع بتأنيث العدد للمعدود ويحتمل أن ابن عريان اعتبر كلمة كرايس جمعاً مذكراً لكرايس لا لكراصة.
- (٤) وهو الوقت الذي تستغرقه الأرض لإكمال دورتها من نفس النقطة إليها ثانية حول الشمس. وقلنا تقريباً لأن مدتها المعتبرة (٣٦٥ ١/٤) واسمها الصحيح (السنة المدارية الموسمية، أو السنة المدارية الاستوائية) لأن السنة الشمسية هي: مدة دورة الشمس من نجم ما إلى نفس النجم مرة أخرى ومقدارها [٣٦٥ يوماً و٦ ساعات و٤ دقائق و٩ ثوانٍ].
- (٥) الأزياج: جمع يزوج جداول حسابية لمعرفة حركات الكواكب والنجوم من سرعة وبطء واستقامة وميول ورجوع وأوج وحضيض... الخ.
- (٦) صورة المخطوطة في عنوان المجلد ج ١ بعد ص ١٦. وكذا رسمت بدون ميم في: عنوان المجلد (ترجمة ابن بشر) ج ١ ص ١١ وفي علماء نجد خلال ستة قرون (ترجمة ابن بشر) ج ٣ ص ٧٠١.
- (٧) عنوان المجلد مقدمة التحقيق ج ١ ص ٩.
- (٨) كما أشار ابن بشر إلى هذا الهدف في عنوان المجلد ج ١ ص ١٤، ١٥.
- (٩) اعتمدت في تحاميل السنين الهجرية القمرية إلى السنين الميلادية الشمسية على جدول (المقارنة بين التاريخين الهجري والميلادي) الموجود بكتاب تقويم الأوقات للفلكي السعودي النجدي الشيخ عبدالله بن إبراهيم السليم مد الله في عمره.
- (١٠) «زبر ابن بشر في هذه التقييدة فقط بكلمة (كسف) للقمر بدلاً من خسف العامة في نجد لا يستعملون كلمة (خسف) أبداً بل يعبرون بكسف للقمر والشمس على حد سواء وفي القاموس المحيط مادة كسف ج ٣ ص ١٣٢ (دار الفكر): «... والقمر كسف. أو كسف للشمس وخسف للقمر أو الخسوف إذا ذهب بعضها والكسوف كلها».
- (١١) أقصد عند العامة في نجد في وقت المؤرخ ابن بشر وحتى وقتنا وإلا فالحساب الفلكي، كما هو معلوم، معروف لدى كل الحضارات.
- (١٢) والعامة عندنا في نجد يقولون: (إن ظهر سهل فتلمس التمر في الليل) كناية عن تكاثر بضوجه في عذوق النخل بعد طلوع سهل.
- (١٣) يلاحظ القارئ الكريم أن ابن بشر عبر عن هذا الوقت بلفظين سمي واحد (دالوب، دولاب).
- (١٤) حَكَّر: حاجز لصد مياه الأمطار وتجميعها بمعنى (سد).
- (١٥) والكلمة عربية سليمة مأخوذة من الزين وهو الدفع قال صاحب القاموس المحيط (دار الفكر ج ٤ ص ٣٣٠ مادة زين): «الزَيْنُ كالضرب الدفع وناقعة زيون دفع وحرب زيون يدفع بعضها بعضاً وزابنه دافعه». ١. هـ وهاتان الخشتان وصفتا لمداغة خيط الجلد (السرير) الذي يمر على الدراجة عند الانزلاق ذات اليمين وذات الشمال.
- (١٦) قرعة قطعة القيم الصغيرة عربية سليمة قال الفيروز آبادي في القاموس (ج ٣ ص ٦٨ مادة قرع): «... والقرع حركة قطع من السحاب الواحدة جهه. وفي كلام علي رضي الله عنه: كان يجتمع قرعُ الحريف». ١. هـ.
- (١٧) قرية ابن بشر هي (جلال) بسدير.
- (١٨) الخيسة: جمعها خيس وهي فراخ النخل وصغارها بقدر قامة الرجل فأقصر وهي عربية الأصل جاء في القاموس (ج ٢ ص ٢١٣ مادة خيس): «... الخيس بالكسر الشجر الملتص». ١. هـ وعادة يكون الخيس متكاثراً ملتصاً حول أمهاته.
- (١٩) العُيْدَان: جمع عُيْدَانه عربية سليمة وفي القاموس ج ١ ص ٣١٩ «والعيْدَان بالفتح الطوال من النخل واحداً جاء». ١. هـ.
- (٢٠) وادي بلد القرابين: العنبري نسبة لبني العنبر من تميم.
- (٢١) الفرع: قال محقق عنوان المجلد في الحاشية ج ٢ ص ٣٧: «الفرع قرى وادي بريك وهي: حوطة بن تميم والحريق ونعام والحلوة وبقر والقويح والعليطان والصدر».

جغرافية موقعة اليرموك

إعداد/ د. طه بن عثمان الفراء

مقدمة :

ولاشك أن مثل هذه الظواهر من تضاريس ومناخ وسكان وطرق ومناطق سكنية وغيرها من الظواهر الموجودة في مناطق التحام الجيوش المتحاربة تعتبر سلاحاً ذا حدين ، يمكن لمن يجيد استغلالها أكثر من غيره الاستفادة منها على الوجه الأكمل .

إن استغلال الظواهر الجغرافية في سبيل إحراز النصر في ميادين الحرب لا يمكن اعتباره حالياً مجرد اجتهد شخصي يختلف من محارب لآخر . فقد أصبح حسن استغلال تلك الظواهر علماً له أصوله ويستند إلى دراسات

تلعب الظواهر الجغرافية دوراً مهماً في سير الممارك الحربية ونتائجها . ومن المعروف أن أي جيش يدخل المعركة تضع له قيادته خطة مرسومة يتقيد بعناصرها قلباً وقالياً مادام ذلك يرمي إلى مصلحة الوطن وكلما استطاع إلى ذلك سبيلاً . وهذه الخطة لاتوضع ارتجالاً بل تأخذ في اعتباراتها أموراً شتى ، من أهمها الظواهر الطبيعية والبشرية لمسرح العمليات والمناطق الملاصقة له أو المحيطة به .



رأى المسلمون أن طبيعة الأرض وطول خطوط مواصلاتهم التي تربطهم بجزيرتهم تحتم عليهم الاتجاه جنوباً إلى درعا (أذرعات) وذلك جرياً على المبدأ العسكري السائد عند العرب: (أعطِ ظهرك للصحرَاء تسلّم). وبذلك أسهموا بطريق غير مباشر في اختيار الروم لأرض المعركة التي تحولت في نهاية الأمر إلى مقبرة لهم على الرغم من أن الروم كانوا يرغبون في جرّ المسلمين إلى الساحل، لتدور المعركة بالقرب من البحر، وذلك جرياً على المبدأ الحربي السائد عند الروم: (اقترب من البحر تأمن).

لماذا حرص المسلمون على فتح بلاد الشام ؟

لقد كان زحف الجيوش الإسلامية إلى بلاد الشام ، وتخليصها فيما بعد من الروم ، مكملاً لرسالة الإسلام . ولاغرو أن نرى أن الرسول ﷺ يبعث سراياه ويجهز حملاته إلى بلاد الشام ثم يأتي الخلفاء الراشدون فيحملون الأمانة في أعناقهم ويذهب جيش أسامة بن زيد حسب وصية الرسول عليه الصلاة والسلام إلى هناك . ثم يتلو جيش أسامة

علمية وعمليات ميدانية خاضتها الجيوش والشعوب ودفعت أثاثها غالية من دماء وأرواح أبنائها ومواردها المختلفة . والجدير بالذكر أن الجغرافيا العسكرية تعطي جل اهتمامها لدراسة الظواهر الجغرافية في ضوء التغيرات السياسية والأحداث التاريخية .

إن المتتبع للعمليات الحربية التي خاضت غمارها الجيوش الإسلامية عبر التاريخ بوجه عام ، وفي عهد الرسول عليه الصلاة والسلام والخلفاء الراشدين بوجه خاص ، يجدها قد أولت اهتماماً كبيراً للتعرف على جغرافية ميادين المعارك قبل أن تدور رحى الحروب على أديمها . وكثيراً ماكان المسلمون أنفسهم يختارون أرض المعركة ، ويجبرون عدوهم على ملاقاتهم فيها . كما حدث في موقعة دومة الجندل عندما جعل خالد بن الوليد (. . . دومة وحصنها بينه وبين عياض ، ففرض بذلك على عدوه ساحة القتال دون أن يكون لهذا العدو رأي في اختيارها^(١) .

أما بالنسبة إلى معركة اليرموك ، فإنه بعد أن توغلت جيوش المسلمين في بلاد الشام واحتلت حصص ودمشق وبعليبك بدأ الروم يعدّون لهجوم معاكس . وهنا

زحف شامل لجيوش المسلمين لرفع راية الإسلام خفاقة في تلك الديار .

وعلى الرغم من أن أبا بكر الصديق قد أمر جيوش المسلمين بفتح بلاد الفرس فإن ذلك لا يعني أن رغبته في فتح بلاد الشام كانت أقل من رغبته في فتح غيرها من البلاد . وكيف لا وهو القائل : «لَفَتَحُ قَرْيَةً فِي الشَّامِ أَفْضَلَ عِنْدِي مِنْ فَتْحِ بَلَدٍ فِي الْعِرَاقِ» . ومن المعروف أن خالد بن الوليد عندما كان يقود جنود المسلمين في بلاد فارس من نصر إلى نصر أمره أبو بكر رضي الله عنه بالتوجّه في مفرزة استطلاعية إلى بلاد الشام ليصيب من أخبار جيوش الروم هناك . ولقد قام خالد بهذه المهمة ووصل إلى منطقة حوران وكاد أن يقضي عليه أحد قادة الروم لولا نجدة عكرمة ابن أبي جهل له .

«وكانت خطة أبي بكر أن يبدأ بغزو العراق ، وكانت فارس أسهل مثلاً وأقل بأساً من الروم ، حتى إذا ما استقر الأمر لجيوشه في العراق نقل ميدان القتال إلى أرض الشام ليعارك عليها أكبر امبراطوريات الشرق وأعظمها بأساً في ذلك العصر»^(٢).

إن من أهم الأسباب التي وجهت أنظار المسلمين إلى فتح بلاد الشام ما بين بعض أهلها وبين عرب الجزيرة من روابط عرقية وروحية ودينية تكتمل به شريعة الإسلام . أن تلك البلاد مهد اليهودية والنصرانية ومهبط كثير من الأنبياء والرسل ومنها قدسها مسرى هادى الأمم عليه الصلاة والسلام حيث عرج إلى السماء . ولقد لعبت هذه الأسباب دوراً بارزاً ليس في انتصار المسلمين في معركة اليرموك فحسب ولكن في مصير التاريخ الإسلامي في بلاد الشام بأسرها بعد دخولها إلى حوزة الإسلام .

ما قبل اليرموك :

لم يهدأ للروم بال بعد إغارة أسامة بن زيد على بلادهم . فأمر هرقل امبراطور الروم بجمع جيوش كثيرة العدة والعدد لتعسكر على مقربة من بلاد العرب . وكانت الجيوش الإسلامية آنذاك تقارع جيوش الفرس في أرض العراق تحت قيادة خالد بن الوليد والثني بن حارثة^(٣) . وتحسباً لأي هجوم مفاجيء أو توغل لجيش الروم في جزيرة العرب طلب أبو بكر الصديق الصحابة

فأمره عليهم كما سنرى^(٦).

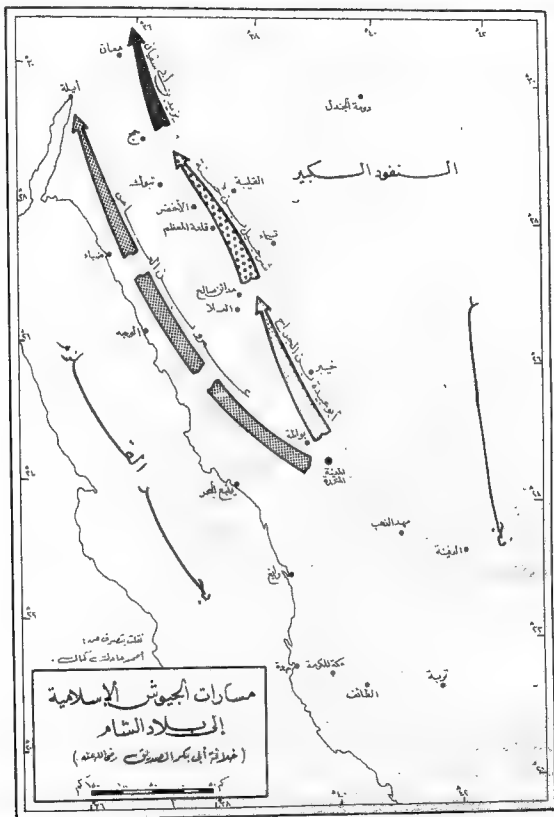
مسيره الجيوش :

خرج يزيد بجيش قوامه ثلاثة آلاف محارب وكان ذلك في الثلث الأخير من شهر رجب من السنة الثانية عشرة الهجرية (أكتوبر سنة ٦٣٣ م). ثم زاد عدد الجيش فيما بعد إلى أن وصل إلى حوالي ٧٥٠٠ محارب. ولقد صادف آنذاك أن كان خالد ابن الوليد وعباس ابن غنم يحكمان الحصار على دومة الجندل التي مالبثت أن فتحت أبوابها لهذين القائدين. وكانت عملية الحصار هذه في نطاق الأعمال الحربية التي قام بها خالد في أثناء فتحه للعراق. وعلى الرغم من أن دومة كانت محاصرة... منذ أوائل ذلك العام الهجري... فإنه لاشك أن استسلامها قد كان له أطيّب الأثر في تأمين الطريق لجيوش المسلمين المتجهة من المدينة إلى بلاد الشام^(٧). وتوجه الجيش الزاحف من المدينة إلى مدائن صالح ثم إلى تبوك فالبلقاء في بلاد الشام (شكل ١).

وبعد ثلاثة أيام من مسيرة جيش يزيد انطلق شرحبيل بن حسنة بجيشه عبر الطريق التي سارها الجيش الأول.

وشاورهم في الأمر. ثم أمر الصديق بالنداء إلى الجهاد ومحاربة الروم في عقر دارهم. وسرعان ما لبّى المسلمون النداء وانخرطوا في صفوف المجاهدين طمعاً في نيل الشهادة أو الظفر بسعادة الدارين. وعندما تجمعت حشود المسلمين في المدينة المنورة، وعقد أبو بكر رضي الله عنه اللواء لأربعة من الأمراء هم أبو عبيدة ابن عبدالله الجراح، وعمرو بن العاص، ويزيد بن أبي سفيان، وشرحبيل بن حسنة، متخذاً من أبي عبيدة بن عبدالله الجراح قائداً عاماً للجيوش الأربعة^(٨). ويبدو أن الصديق بتعدد الجيوش كان يرمي إلى إرباك عدوه... من حيث تجهيل مقصد كل جيش عليه، ويشتت تخطيطه من حيث توزيع قواته لملاقاة كل جيش منها...^(٩). وانطلقت الجيوش.

والجدير بالذكر أن الطبري لم يذكر في خبر اليرموك شيئاً عن تأمير أبي عبيدة على أمراء الجيوش الأربعة وإنما ذكر أنه عندما قدم خالد بن الوليد إلى حيث عسكرت تلك الجيوش بأرض اليرموك وجدهم وكأنهم لا يوجد تنسيق بينهم وأن في نيّتهم دخول الحرب تحت أكثر من راية. فلم يوافقهم الرأي ويبنّ لهم مغبة ذلك



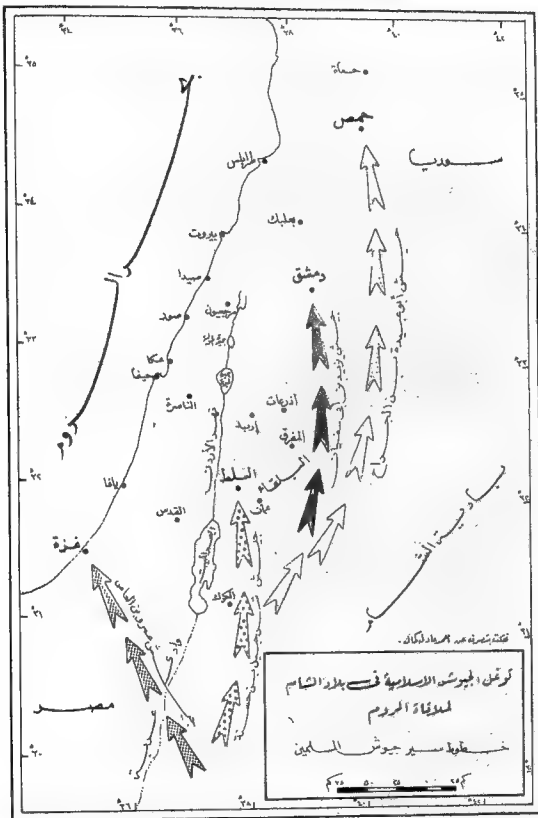
مشورة هرقل لقومه :

عندما علم الروم بأمر جيوش المسلمين وأيقنوا أن المعركة الفاصلة بينهم وبين المسلمين قادمة لا محالة ، كتبوا إلى هرقل ، وكان آنذاك في القدس ، فقال : «أرى أن تصالحوا المسلمين ، فوالله لأن تصالحوهم على نصف ما يحصل من الشام ويبقى لكم نصفه مع بلاد الروم أحب إليكم من أن يغلبوكم على الشام ونصف بلاد الروم»^(٨) . ولكن قومه لم يأبهوا بنصيحته ولم يقيموا لمشورته أي وزن وتفرقوا عنه وعصوا أمره . ولكن هرقل جمعهم وبدأ يعد العدة لملاقاة جيوش المسلمين كل على انفراد . ولكن المسلمين قبلوا تحدي الروم ، وأجمعوا رأيهم على أن تتمركز جيوشهم مجتمعة في منطقة اليرموك ، ويستدرجوا الروم لملاقاتهم على أرض المعركة هناك . ولقد تم لهم ذلك بعد أن رحلت قواتهم عن حمص ودمشق متجهة إلى جنوب اليرموك . وما يذكر أن هرقل بعد مغادرته لأرض فلسطين يَم وجهه شطر دمشق ثم غادرها قاصداً حمص ومنها انطلق إلى انطاكية . وبدأ ملك الروم من انطاكية يستنصر أهل ملته لقتال

ويكمن جزء من حكمة تأخير الجيش الثاني هذه الأيام الثلاثة في عدم استنزاف آبار المياه في أثناء مسيرة عدد كبير من الناس في وقت واحد ، وتجنب عملية اكتظاظ الطرق بالافراد .

وبعد أن توافد المتطوعون للجهاد من أرجاء جزيرة العرب على المدينة المنورة ، وكلهم عزم وتصميم على حرب الروم واللاحق بإخوانهم الذين سبقوهم إلى ساحات الوغي ، وبعد أن توفرت المؤن والأرزاق اللازمة لهم ، أمرهم أبو بكر بالتوجه تحت إمرة أبي عبيدة إلى بلاد الشام ، في أثر الجيشين الأول والثاني إلى أن وصل إلى مؤاب التي عقدت معه صلحاً . وكانت مؤاب أول مدينة في بلاد الشام يعقد أهلها صلحاً مع المسلمين . وبعد ذلك انطلق أبو عبيدة وجنوده إلى الجابية .

أما عمرو بن العاص فإنه قد سار بمحاذاة ساحل البحر الأحمر ماراً بالوجه ومدين وحقل والعقبة حتى بلغ وادي العربية . واشتبكت الجيوش الإسلامية مع الروم في اجنادين وانتصرت عليهم ثم توغلت في بلاد الشام (شكل ٢) .



شكل (٢)

اتصالهم مع جزيرتهم آمنة ، وبذلك يكون وصول العون والمدد من بلاد العرب مضموناً . وعمل المسلمون بمشورة أبي سفيان ونزلوا في أذرعات (شكل ٣) .

ولقد كانت البقعة التي اختارتها جيوش الروم للمركز فيها ، قبل التعامل مع جيوش المسلمين ، من أهم المظاهر الطبيعية التي أثرت بصورة مباشرة على سير ونتائج موقع اليرموك . واليرموك نهر صغير الحجم يجري قادماً من مرتفعات حوران عبر واد ضيق متعرج يشق هضبة رسوبية تملؤها طبقة من الصخور البازلتية ، ثم يرفد نهر الأردن على بعد يزيد على ستة كيلو مترات جنوبي بحيرة طبرية . وتوجد مجموعة من الجداول والأودية نهر اليرموك في مجراه الأعلى ، من أهمها وادي الرقاد (الواقوسة) . ويرجع السبب في عمق أودية المجارى هنا إلى التكوينات الرسوبية التي تتألف منها الهضبة ، وشدة انحدار السطح ما بين متابعها وغور الأردن الذي تفرغ مياهها فيه .

كان المسلمون في أذرعات ، وجاء الروم وتمركزوا في سهل على هيئة شبه

المسلمين ، فجاءته قوات كثيرة العدة كبيرة العدد ، ومعها القساوسة والرهبان يحشون القوم على القتال . وكان جيش الروم مؤلفاً من جنسيات وأقوام مختلفة ، منهم الروم والأرمن والعرب المنتصرة وغيرهم ، بعضهم انخرط في سلك الجيش طوعاً بينا أجبر الآخرون على الإنخراط . والجدير بالذكر أن القائد العام للروم في اليرموك كان أرمينياً يدعى باهان . ولقد بدت للروم سلبات هذه الأمور قبل أن تدور رحى المعركة فيها بعد ، إذ قاموا بربط جزء من جنودهم في مجموعات صغيرة حتى لا يفر منهم الذي أجبر على الإنخراط في الجيش ، أو الذي تسول له نفسه الفرار في أثناء احتدام القتال .

ومن المعروف أن من أهم أسباب الفرار من المعارك الحربية «... ضعف الشعور الوطني في النفوس»^(٩) .

عندما علم المسلمون بجموع الروم جمعوا جيوشهم التي كانت متشرة في بلاد الشام وعسكروا في الجابية . ولكن أبا سفيان ، وهو الخير بأرض الشام منذ تردده عليها أيام تجارته ، أشار على المسلمين أن يختاروا مكان معسكرهم بالقرب من أذرعات لتكون خطوط

عدد جيش الروم أكبر بكثير من جيش المسلمين ، فكتب المسلمون لأبي بكر يخبرونه بذلك ويطلبون منه المدد والعون . وسرعان ما أرسل الصديق كتاباً إلى خالد بن الوليد ليسير من العراق لكي يرفد المسلمين في اليرموك بنصف الجيوش التي كانت تحت إمرته ، ويؤمر على النصف الباقي المثنى ابن حارثة الشيباني ، وأوصاه بأن لا «... يأخذن من فيه نجدة إلا ويترك عند المثنى مثله ، وإذا فتح الله عليهم رجع خالد وأصحابه إلى العراق»^(١٢).

وفي مغامرة جريئة تمكّن خالد بن الوليد أن يقطع بادية السهولة في خمسة أيام بلياليها وهو يغيّد السير إلى أن وصل إلى جيوش المسلمين المرابطة في اليرموك في ربيع الآخر من سنة ١٣ هجرية . ولقد عمد خالد إلى أن يكون وقت استراحة جنده من عناء السير في ساعات النهار في مأمن من غائلة الظروف الصحراوية السائدة في البوادي التي كانوا يقطعونها من جهة ، ولكي لا يستنفدوا طاقات خيولهم وجباهم وزادهم وشراهم من جهة أخرى .

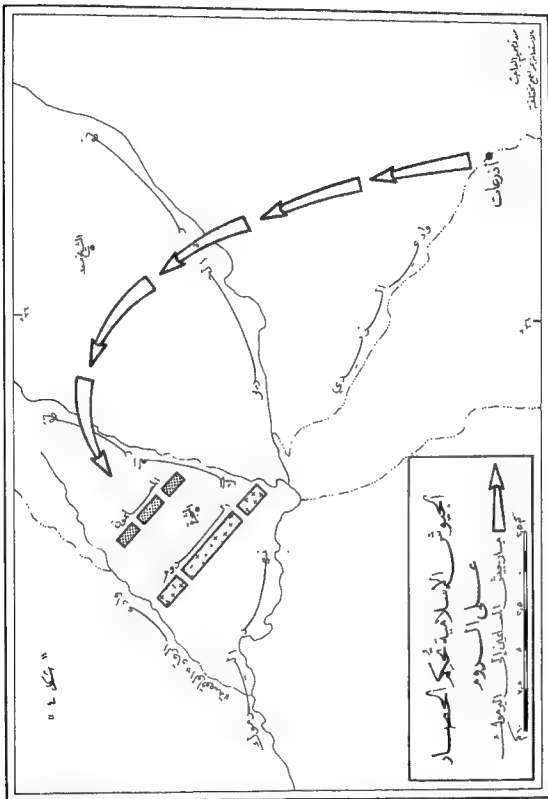
وكان خالد يسرى بالقوم ليلاً

مثلث يتكون ضلعاه من وادي الرقاد شمالاً ونهر اليرموك جنوباً . أما رأس شبه المثلث فكان يتمثل في التقاء ذلك الوادي مع هذا النهر (شكل ٤) .

ولقد كان قصد قادة الروم ورجال حريهم أن تستفيد جيوشهم من وادي اليرموك كحاجز طبيعي يستترون به من جهة ويحول دون وصول المسلمين إليهم من جهة أخرى . بالإضافة إلى ذلك فإنهم كانوا يرمون إلى أن «... تستفيق الروم ويأتسوا بالمسلمين وترجع إليهم أفئدتهم عن طيرتها»^(١٣) . وأن يكون الواقصة حماية لهم من الخلف .

وبعد أن استقر جيش الروم في البقعة المشار إليها تحول المسلمون من أذرعات - مكان تجمع جيوشهم - ونزلوا في مكان آخر بمحاذاة أعدائهم وسدّوا على الروم طريقهم التي لم يكن لهم سواها . ولقد صوّر عمرو بن العاص موقف الروم آنذاك بعبارة الخالدة . «أيها الناس ، أبشروا ، حصرت والله الروم ، وقلبا جاء محصور بخير»^(١٤) .

حاول الروم أن يشتبكوا مع المسلمين ، ولكنهم في كل مرة كانوا يرتدّون على أعقابهم خاسرين . وكان



شكل (٤)

بأعلى صوته قائلاً: «أيما رجل أقبل
إليكن منهزماً فاقتلته»^(١٤).

الكيف أم الكم في الحرب؟

على الرغم من أن كثرة أعداد الجيوش في الماضي كان لها وزنها في إحراز النصر فإن نوعية المحاربين وصدق عزمهم على التضحية كانت ومازالت تفوق من حيث أهميتها كل العناصر الواجب توفرها من أجل الحصول على ذلك النصر. وهذه المقولة تنطبق تماماً على الجيوش التي خاضت غمار معركة اليرموك. وما يؤكد هذا الرأي أن جيوش المسلمين بلغت حوالي سبعة وعشرين ألفاً عندما اجتمعت بأرض اليرموك. ثم قدم عليهم خالد بن الوليد بحوالي تسعة آلاف مقاتل فأصبح عددهم يناهز الستة وثلاثين ألفاً. وكان من بين هؤلاء ألف من أصحاب رسول الله - ﷺ - مائة منهم حاربوا في صفوف المسلمين يوم بدر^(١٥). ولقد أسهم هؤلاء في رفع الروح المعنوية عند المجاهدين. أضف إلى ذلك أن وجود النساء المسلمات خلف جيش المسلمين قد أثار روح القتال وأيقظ روح الحمية لدى المسلمين.

«... مهتديا بكوكب الصبح جاعلاً إياه
على حاجبه الأيمن...»^(١٦).

وما تجدر الإشارة إليه أنه تصادف وصول خالد وقواته إلى معسكر المسلمين مع وصول «باهان» الأرمني إلى معسكر الروم.

نساء المسلمين وأطفالهن:

حرص المسلمون أن تكون نساؤهم وأطفالهم في الخطوط الخلفية للجيش. ولقد اختير لمعسكرهم مكان فوق تل توفرت فيه أسباب الحماية الكافية، يعتقد بأنه تل شهاب الحالي. وعلى الرغم من بعد النساء عن ساحة المعركة فإنهن قد قمن بأعمال جليلة عندما دارت رحاها حيث قمن بمواساة المرضى وتضميد جراح المصابين من المسلمين وسقاية المجاهدين وإثارة روح الحماس والعزيمة بين المحاربين، والضرب على أيدي الهاربين من الحرب أو المتخاذلين من المسلمين لكي يعودوا إلى محاربة الأعداء من جديد. ولقد اشتركت بعض النساء أحياناً في القتال. وما يذكر عن ابن الوليد أنه عندما رأى جمحافل الروم تتوجه صوب رجاله نادى النساء

ويجب ألا ننسى بالإضافة إلى ماتقدم أن الجنود المسلمين ، وهم أبناء الصحراء الأشداء ، لم يخرجوا من بلادهم لحرب الروم إلا طوعاً وعن طيب خاطر ، وكلهم ثقة بالله ثم بأنفسهم أن يرفعوا راية الإسلام خفاقة في تلك الديار .

ويقول ابن الأثير أن جيوش الروم قد كان عددها «... مائتي ألف وأربعين ألف مقاتل ، منهم ثمانون ألف مقيد وأربعون ألف مسلسل للموت وأربعون ألفاً مربطون بالعمائم لئلا يفروا وثمانون ألف راجل...»^(١٦).

وإذا ما عرفنا أن جنود الروم كما سبق أن ذكرنا قد جاءوا من جنسيات وأقوام مختلفة وانهم وحالتهم تلك قد ربطوا بالسلاسل والعمائم بعضهم ببعض خشية الفرار فإنه يسهل علينا أن ندرك أن نوعيتهم قد كانت متدنية إذا قورنت بنوعية المجاهدين المسلمين .

سبب الله السلطان هو القائد العام

بعد أن وصل خالد بن الوليد بجيشه إلى أرض اليرموك قادماً من العراق وجد أن القوم قد عزموا على ملاقاته الروم متساندين . وكان يعني ذلك أن يقابل

كل قائد بجيشه جيش الروم دون تنسيق مع القادة الآخرين . ولقد كانت عادة العرب أن يفعلوا ذلك في الحروب من أجل إثارة الحماس ونشر روح الاستماتة في الحرب بين الجنود ، حتى لا تعير بالهزيمة القبيلة التي جاء المحاربون من بين ظهرانيها إذا لم يثبتوا في ساحة الوغى . ومن المعروف أن كلاً من الجيوش الإسلامية التي ذهبت إلى اليرموك آنذاك كان في جله مؤلفاً من أفراد قبيلة أو أكثر تربط بينهم أواصر القرى والدم أو النسب . وهذا مادعاهم إلى التفكير في مقابلة الروم متساندين طمعاً في أن يلهب الخوف من الهزيمة والعار روح الحماس فيبقى عزيمة المسلمين فينتصروا .

ولكن خالد بن الوليد بثاقب بصره أراد أن يقابل الروم بنفس النظام المتبع عندهم ويحاول في الوقت نفسه استغلال مقومات النصر الأخرى من شجاعة وثقة بالله وصبر وجلد ووحدة الهدف التي توفرت عند المسلمين . ومن هذا المنطلق فإن خالداً قد وقف فيهم خطيباً وقال لهم : «... ولاتقاتلوا قوماً على نظام وتعبية ، على تساند وانتشار...»

الأزور أما القاضي فقد كان أبا الدرداء
«... وكان القاضي سفيان بن حرب ،
وعلى الطلائع قبات بن أشيم ، وعلى
الأقباض عبدالله بن مسعود»^(١٨).

وزع الروم قواتهم على أن تكون
رماثهم في مقدمة الجيش لكي يبدأوا
جيوش المسلمين بالمبادرة في القتال ثم
يتراجعوا ويأخذوا أماكنهم خلف
الجناحين . ولقد تألف الجناحان من
الخيالة الذين انحصرت مهمتهم في بداية
الأمر في الحماية إلى أن ينسحبوا إلى
ما وراء الجناحين . أما القلب ، وهو
القوة الضاربة في الجيش عند الروم
آنذاك ، فقد كان مكونا من فرق
«كراديس» وقد انحصرت مهمتهم في
التعامل مع المسلمين بهدف تدميرهم أو
دحرهم .

وتقابل الجمعان ، وإذا برجل من
جيش المسلمين يقول لخالد : «مأكثر
الروم وأقل المسلمين ...» ولكن خالد
لم يقبل منه ذلك لما في ذلك القول من
تشبيط للعزيمة وخفض للروح المعنوية عند
السامعين وقال له خالد : «مأقل الروم
وأكثر المسلمين ! إنما تكثر الجنود بالنصر
وتقل بالخذلان»^(١٩).

فأمره عليهم «... فخرجت الروم في
تعبية لم ير الراعون مثلها قط ، وخرج
خالد في تعبية لم تعبها العرب قبل
ذلك»^(١٧).

وعلى الباغي تدور الدوائر

بقي كل من الجيشين في موقعه ،
وكان موقع الروم أكثر تحصينا من
الوجهة الطبيعية من موقع المسلمين .
لقد كان وادي الواقوصة يوفر لهم الحماية
من الخلف في حين أن وادي اليرموك
كان يحول دون وصول المسلمين إليهم .
وعندما وصل إليهم خالد بن الوليد قدر
بثاقب بصره معطيات الموقف ، وقسم
الجيش الإسلامي إلى فرق (كراديس)
ووضع على رأس كل فرقة أحد قادته
البارزين . وكان من نصيب أبي عبيدة
أن يكون أميراً على فرق قلب الجيش ،
أما عمرو بن العاص وشرحبيل بن
حسنة فقد توليا إمارة كراديس الميمنة ،
وتولى يزيد بن أبي سفيان أمر كراديس
الميسرة . ولقد عفى ابن الوليد باختيار
أمير لكل فرقة من أبطال المسلمين
المشهورين ، أمثال القعقاع بن عمرو
وعكرمة بن أبي جهل ، وضرار بن

تسد باب السهل . أمر خالد بن الوليد رجاله بأن لا يصدوهم عن الفرار لكيلا يمحلوهم على التضحية والاستماتة في القتال من جهة وحق يسهل على قواته تحطيم قوة المشاة من جهة أخرى .

وأدى فرار فرسان الروم من أرض المعركة إلى كشف المشاة أمام المسلمين بخيلهم ورجلهم . وعاد ابن الوليد ضغطة من جديد عليهم فلم يتمكنوا من الصمود وأسلموا ظهورهم للمسلمين وانطلقوا نحو الواقوصة واليرموك يطلبون النجاة . ولكنهم كانوا كالمستجير من الرمضاء بالنار . هوى في الأودية والخنادق «... المقترون وغيرهم ثمانون ألفاً من المقتزين وأربعون ألف مطلق سوى من قتل في المعركة...» (٢٠) . وتم النصر لجيش المسلمين وكان ذلك بفضل الله سبحانه وتعالى ثم بفضل سلامة وفعالية «... تنظيماتهم ، واستغلال طبيعة الأرض خير استغلال ، واستخدام نظام الكرايس على خير وجه» (٢١) .



وبينما القوم كذلك إذ بالبريد يصل من المدينة إلى معسكر المسلمين يحمل خبر وفاة الصديق رضي الله عنه ، وأمر عمر بن الخطاب رضي الله عنه بتولية أبي عبيدة أميراً على جيوش المسلمين في اليرموك بدلاً من خالد . وكتب ابن الوليد أمر ابن الخطاب الخاص بتولية القيادة إلى أبي عبيدة ، وبدأ كل من المسلمين والروم في تنظيم قواتهم للمعركة الفاصلة .

وجه خالد أمره إلى عكرمة والقعقاع بالتعامل مع العدو فكان ذلك ودارت المعركة وحمى الوطيس ، وتقدم المحاربون كل يرمي إلى تحطيم خصمه . ولم يجد الروم بدا من الخروج من خنادقهم . ودارت المعركة على أشدها والمسلمون قد أحكموا سد المنفذ السهلي الوحيد أمام عساكر الروم . انقض خالد بقلب الجيش على جيش الروم في حركة بارعة ترمي إلى قطع عناصر الإتصال بين فرسان الروم ومشاتهم محكماً الحصار على الفرسان . وسرعان ما أدرك الأعداء خطورة الذي آلوا إليه . فانطلق فرسانهم ينشدون السلامة في الفرار من المعركة عبر قوات المسلمين التي كانت

خاتمة

على الرغم من أن كاتب البحث قد حاول إبراز أهمية الدور الذي لعبته الظواهرات الجغرافية في الإعداد لمعركة اليرموك وسيرها ونتائجها فإنه لم يغفل الجانب التاريخي في هذا البحث نظراً لأن الجغرافيا السياسية والجغرافيا العسكرية ترتكزان بوضوح على التاريخ في جوهر دراستهما . ولقد أبرز البحث أنه مع عدم وفرة الموارد الطبيعية الكافية لتزويد جيوش ضخمة في بلاد العرب، فإن أبا بكر الصديق قد تمكن من إعداد جيوش إلى بلاد فارس والشام لمنازلة أقوى دولتين في العالم في ذاك الزمان وهما دولتا الفرس والروم . لقد خرج المسلمون من كل أرجاء الجزيرة مشحونة قلوبهم بالإيمان ولديهم كميات محدودة جداً من الزاد والعتاد واتجهوا صوب بيئات جغرافية تختلف في مظهرها وجوهرها وعادات أهلها عن بيئتهم التي نشأوا في كنفها وألفوها . خرجوا وهم يالْفون نظاماً قتالياً تقليدياً لا يجدي ولا ينفع إذا ما استخدموه ضد جيوش نظامية ، ولكنهم سرعان ما طوروا ذلك النظام فبهروا أعداءهم بهم وبسرعة تبنيهم لكل

جديد وتفوقوا بذلك النظام على الجيوش النظامية التي ابتكرته .

لقد كان حسن استغلال المسلمين لعناصر البيئة التي حاربوا على أرضها ، وحسن استئثار طاقاتهم البشرية من أهم الأشياء التي جعلت منهم سادة ميادين المعارك عند منازلة الأعداء . وعندما كانت للمسلمين جيوش تحارب في بلاد فارس تحت قيادة خالد بن الوليد والمثنى ابن حارثة ، واستدعى الموقف الاستعانة بجزء من تلك القوات في بلاد الشام ، صدرت أوامر أبي بكر رضي الله عنه إلى ابن الوليد أن يتحرك بجزء من الجيش الإسلامي إلى هناك فتحرك . ونظراً لتمرس العرب على البيئة الصحراوية فقد استطاع ابن الوليد بجيش قوامه حوالي أربعة آلاف مقاتل أن يقطعوا بادية السهولة في أقصر فترة ممكنة وبأقل كمية من الزاد والشراب لم تكن لتكفي أبداً غيرهم لو وضعوا في الظروف نفسها .

وأما بالنسبة للظواهرات الجيومورفولوجية والظروف المناخية لميدان معركة اليرموك فإن المسلمين قد استفلواهما لمصلحتهم أحسن استغلال .

إلى مزيد من الدراسة والبحث لكي تبرز
جغرافية هذه المعركة المهمة على أمل
إمكانية الاستفادة منها في نطاق الجغرافيا
العسكرية .

□ □ □

الهوامش .

- * قدم هذا البحث إلى ندوة اللقاء الجغرافي الثاني، التي عقدتها جامعة الملك سعود ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م .
- (١) سويد ، المقدم ياسين ، معارك خالد بن الوليد (بيروت : المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، ١٩٧٣م) ، ص ٢٠٥ .
- (٢) المرجع السابق ، ص ٢١٤ .
- (٣) حسن ، حسن إبراهيم ، تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي ، المجلد الأول (القاهرة : مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٦٧م) ، ص ٢٢٤ .
- (٤) المرجع السابق ، ص ٢٢٤ .
- (٥) كمال ، أحمد عادل ، الطريق إلى دمشق (بيروت : دار النفائس ، ١٩٨٠م) ، ص ٢٣٣ .
- (٦) الطبري ، أبو جعفر محمد بن جرير ، تاريخ الطبري جـ ٣ ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم (القاهرة : دار المعارف بمصر ، ١٩٦٢م) ، ص ٣٩٦ - ٣٩٧ .
- (٧) كمال ، مرجع سبق ذكره ، ص ١٨٢ .
- (٨) ابن الأثير ، محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني ، الكامل في التاريخ ، المجلد الثاني (بيروت : دار صادر للطباعة والنشر ، دار بيروت للطباعة والنشر ، ١٩٦٥م) ، ص ٤٠٦ .
- (٩) عون ، عبد الرؤوف ، الفن الحربي في صدر

ويكفي أن نعرف أن الأودية والخوانق التي اعتقد الروم أنها ستكون لهم نعم السائر ساعة المعركة قد فقدت مزاياها لأن المسلمين قد حرموهم من تلك المزايا وأحالوا تلك الظاهرات إلى مقابر للروم . وأما فيما يختص بتنوعية المجاهدين المسلمين وثقتهم بالله ثم بأنفسهم وبقادتهم فقد كان لها أكبر الأثر في أن يتزعموا النصر من أيدي أعدائهم على الرغم من أن عدد الروم كان يعادل حوالي ستة أمثال عدد المسلمين . بالإضافة إلى ذلك فإن وجود نساء المسلمين بالقرب من ميدان المعركة عندما تركوهم على جزء مرتفع من الأرض بقصد الحماية كان له الأثر الأكبر في إلهاب حماس المسلمين في الحرب وإثارة النخوة والحمية في صفوف المسلمين .

أما عن الخطة التي استخدمها خالد ابن الوليد إذ أمر بإخلاء الطريق أمام فرسان الروم عندما عزموا على الإفلات من الحصار فقد كان لها أثرها في أن يكون النصر من نصيب المسلمين . بالإضافة إلى ما تقدم فإن هناك ظاهرات جغرافية بشرية وطبيعية لاتزال في حاجة

- النعمي ، محمد بن أحمد بن عثمان ، تاريخ الإسلام وطبقات مشاهير الإعلام (القاهرة : مطبعة المني ، ١٩٧٤م) .
- سويد ، للمقدم ياسين ، معارك خالد بن الوليد (بيروت : المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، ١٩٧٣م) .
- الطبري ، أبو جعفر محمد بن جرير ، تاريخ الطبري ، ح ٣ تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم (القاهرة : دار المعارف بمصر ، ١٩٦٢م) .
- عرجون ، صادق إبراهيم ، خالد بن الوليد ، ط ٣ (الرياض : الدار السعودية للنشر والتوزيع ١٤٠١هـ - ١٩٨١م) .
- ابن عسكار ، أبو القاسم علي بن الحسين بن هبة الله بن عبدالله بن الحسين ، تهذيب ابن عسكار (دمشق : ١٣٢٩هـ) .
- العلي ، بسام ، خالد بن الوليد ، ط ثانية (بيروت : دار النفائس ، ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م) .
- العقاد ، عباس محمود ، صقيرة خالد (القاهرة - غضة مصر للطبع والنشر بالفجالة ، بدون تاريخ) .
- عون ، عبد الرؤوف ، الفن الحربي في صدر الإسلام (القاهرة : دار المعارف بمصر ، ١٩٦١م) .
- القرماني ، أبو العباس أحمد بن يوسف بن أحمد الدمشقي ، أخبار الدول وآثار الأول في التاريخ (بيروت : عالم الكتب بدون تاريخ) .
- ابن كثير ، عماد الدين أبو الفدا إسماعيل بن عمر القرشي الدمشقي ، البداية والنهاية ، ج ٧ (بيروت : مكتبة المعارف ، بدون تاريخ) .
- كمال ، أحمد عادل ، الطريق إلى دمشق (بيروت : دار النفائس ، ١٩٨٠م) .
- يعقوبي ، أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر بن وهب ، تاريخ يعقوبي ، المجلد الثاني (بيروت : دار بيروت للطباعة والنشر ، ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م) .

- الإسلام (القاهرة : دار المعارف بمصر ، ١٩٦١م) ، ص ٨٥ .
- (١٠) الطبري ، مرجع سبق ذكره ، ص ٣٩٣ .
- (١١) المرجع السابق .
- (١٢) ابن الأثير ، مرجع سبق ذكره ، ص ٤٠٧ .
- (١٣) سويد ، مرجع سبق ذكره ، ص ٢٣٦ .
- (١٤) المرجع السابق .
- (١٥) ابن الأثير ، مرجع سبق ذكره ، ص ٤١٠ .
- (١٦) المرجع السابق .
- (١٧) الطبري ، مرجع سبق ذكره ، ص ٣٩٦ .
- (١٨) ابن الأثير ، مرجع سبق ذكره ، ص ٤١٢ - ٤١١ .
- (١٩) المرجع السابق ، ص ٣٩٧ - ٣٩٨ .
- (٢٠) ابن الأثير ، مرجع سبق ذكره ، ص ٤١٣ .
- (٢١) عون ، مرجع سبق ذكره ، ص ٢٢٨ .



مصادر ومراجع البحث

- ابن الأثير ، محمد بن محمد بن عبدالكريم بن عبد الواحد الشيباني ، الكامل في التاريخ ، المجلد الثاني (بيروت : دار صاد للطباعة والنشر ، دار بيروت للطباعة والنشر ، ١٩٦٥م) .
- البلاذري ، أحمد بن يحيى ، فتوح البلدان (القاهرة : مكتبة النهضة المصرية ١٩٥٦م) .
- حسن ، حسن إبراهيم ، تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي ، المجلد الأول (القاهرة : مكتبة النهضة المصرية ١٩٦٧م) .
- خطاب ، محمود شيت ، خالد بن الوليد المخزومي ، ط ٣ (الاسكندرية : المكتب المصري الحديث للطباعة والنشر ، ١٣٩٠هـ - ١٩٧٠م) .

(التحليل الإيكولوجي)

للبلد يات السعودية

محمد نور الدين محمد حسين

للأستاذ

مقدمة البحث:

الفصل الأول - تحليل الإيكولوجي السياسي :

المبحث الأول - مدى استقرار الوضع السياسي

المبحث الثاني - نوعية الفكر السياسي السائد

الفصل الثاني - تحليل الإيكولوجي الاجتماعي :

المبحث الأول - العمق التاريخي لأهالي الدولة

المبحث الثاني - النمط الثقافي عند أهالي الدولة

الفصل الثالث - تحليل الإيكولوجي الاقتصادي :

المبحث الأول - تعدد أو توحيد الأجناس السكانية في الدولة

المبحث الثاني - تركيز أو عدم تركيز السكان في الدولة

المبحث الثالث - جغرافية أرض الدولة

المبحث الرابع - نزوة الوسائل المتاحة للإنقال والانتقال

خاتمة البحث



خصص الباحث هذه المقدمة لتوضيح معالم المنهج الإيكولوجي في الدراسات الإدارية عموماً، وإطار التحليل الذي سيستخدم في اعداد هذا البحث بخاصة. وذلك فضلاً على بيان المشكلة الرئيسة التي يدور حولها على النحو التالي :

* المفهوم العام للمنهج الإيكولوجي

إن كلمة «إيكولوجي – Ecology» مشتقة من الأصل اللاتيني الذي يتكون من شقين : Ecos ومعناها المحيط الذي تعيش فيه ظاهرة معينة. أما كلمة «Logy» فمعناها علم. ومن هنا يعني هذا المصطلح كل مايمكن اعتباره من الظروف والعوامل البيئية التي تحيط بظاهرة الإدارة في المجتمع .

ومن هذا المنطلق، يمكن القول ان النظم الإدارية والتنظيمات الإدارية ماهي إلا مفرزات للعوامل البيئية: السياسية والاجتماعية والاقتصادية والجغرافية والعرف... الخ والتي تكونت وتأصلت في أحد المجتمعات بمرور السنين. ويكون من نتيجة ذلك أن تتميز صفات هذا المجتمع وخصائصه البيئية عن غيره من المجتمعات إلى الحد الذي لايملك عنده إلا أن يتجاوب مع هذه الصفات والخصائص البيئية في إتجاهي التأثير والتأثر^(١-٢) ولعل هذه السمة هي التي تجعل بعض النظم الإدارية أو التنظيمات الإدارية التي حققت نجاحاً في مجتمع



ما قد لا تحقق نفس النجاح في مجتمع آخر إن لم تكن بالفشل ! .

ومما يؤكد هذه السمة في الواقع التطبيقي، أن انجلترا قد حققت إخفاقاً ملحوظاً في إدارة شئون مستعمراتها الهندية بنفس الأسلوب الإنجليزي. ولا شك أن مرجع ذلك الإخفاق كان إلى تباين البيئة - ثقافياً واجتماعياً وسياسياً... الخ - بين المجتمعين الإنجليزي والهندي^(٦-١٠٠).

هذا ويعتبر العالم جون جاوس John Gaus من أولئك الرواد الأوائل في هذا العصر الحديث الذين نادوا باستخدام التحليل الإيكولوجي في الدراسات الإدارية. وذلك على أساس أن الإيكولوجية تعبر عن العوامل البيئية المؤثرة والتي من أمثلتها: المساحة الجغرافية وطبيعتها والتركيب السكاني ومستوى التقدم الفني الصناعي السائد، وكذلك القيم والعادات والتقاليد والأفكار والمحن التي يمر بها مجتمع ما، وأيضاً الآمال التي يتطلع إليها^(٧-٩٩).

* طبيعة التحليل الإيكولوجي المستخدم في هذا البحث

ومن أهم معالم الإيكولوجية التي يسير عليها تنفيذ هذا البحث، أن دراسة العوامل البيئية المختلفة لاتزيد على أن تمثل شقين: المبادئ العامة للإدارة البلدية وتفاعلها مع العوامل البيئية بحيث ينتج عن ذلك تطبيق متميز. ولذلك يتطرق البحث إلى دراسة أهم الخصائص العامة للنظام الإداري السعودي وعلاقته بهذه العوامل ونوعية تفاعله معها .

ومن هذه المعالم أيضاً أنه بالرغم من قابلية هذه العوامل للتغير تبعاً لحركة المجتمع وتأثره بالمجتمعات الأخرى، إلا أن التغير الجذري لهذه العوامل لا يقع بين يوم وليلة وإنما عادة تستغرق مثل هذه التغيرات على مستوى الدول زمناً طويلاً. وبالتالي يكون المجال متسعاً أمام الدراسات والتحليلات الإيكولوجية للمنظم الإدارية .

وعلى هذا الأساس يلجأ الباحث إلى المنهج التحليلي الوصفي، حتى يتسنى له بعد تحليل العوامل البيئية ووصف الواقع البلدي السعودي المرتبط بها، إبراز مدى ونوعية التفاعل المتبادل بينهما. وقد تركز هذا البحث التحليلي الوصفي على أهم الجوانب المتعلقة بالعوامل البيئية المؤثرة السياسية والاجتماعية والاقتصادية .

* إطار المشكلة التي يدور حولها البحث :

في عام ١٣٤٤ هجري تم توحيد أقاليم المملكة العربية السعودية، ويعتبر هذا التاريخ نقطة تحول جوهرية في التاريخ الحديث للمملكة. . إذ بعد أن كانت أقاليم متعددة يحظى كل منها بالاستقلال إندمجت وتوحدت في شكل دولة جديدة وليدة ناشئة قد ورثت أوضاعاً سياسية متباينة، فكان على الدولة الجديدة أن تعمل على انصهار هذه الأوضاع وتلاشي تأثيرها الضار. ولم يكن ليتم ذلك إلا على مراحل زمنية متعاقبة.

كذلك صارت المساحة الجغرافية التي تضمها الدولة الجديدة مساحة بعضها ذو طبيعة رعوية وبعضها ذو طبيعة زراعية والآخر له طبيعة تجارية. . . وهكذا. ولاشك أن ذلك قد أثر على النمط السلوكي للسكان وشكل الأعراف السائدة الآن .

كذلك فإن إنتقال الدولة الجديدة — خاصة بعد اكتشاف واستخراج البترول في بعض المناطق بكميات اقتصادية — إلى مصاف الدول الغنية أنشأ أوضاعاً جديدة لم تكن موجودة من قبل، إذ صار العائد من البترول يمثل الدخل الرئيسي للبلاد ككل، مما فرض على الدولة مثلاً أن تقدم مزيداً من التعاون المالي لمختلف المناطق لكي تنهض هذه المناطق بأعباء التنمية الشاملة بمعدلات مقبولة، تتناسب مع طموحات الدول النامية عموماً .

وفي هذا الإطار كان لا بد أن يلعب النظام البلدي والتنظيمات البلدية دوراً واضحاً يساعد على تثبيت دعائم وأركان الدولة الجديدة، ويعمل على تنمية وجودها في المجالات السياسية والاجتماعية والاقتصادية.

ومن هنا يأمل الباحث أن تعطي هذه الدراسة رؤية معينة لعملية ترشيد التفاعل المتبادل بين كل نوع معين من الإيكولوجي والنظام البلدي والتنظيمات البلدية السعودية، بحيث تساهم في تطوير هذا التفاعل لصالح العمل البلدي العام. وتطبيقاً لهذا الأمل، فإن معالجة كل نوع من الإيكولوجي جاءت على نحو يبين تحديد مفهوم هذا الإيكولوجي وتأثيره على البلديات عموماً والبلديات السعودية بخاصة، فضلاً على الإشارة إلى بعض اتجاهات التطوير المرغوب فيها .

* الفرض العلمي لمشكلة البحث :

إن تطوير نط الإدارة البلدية السعودي في الإتجاه المرغوب فيه يمكن أن يتم كنتيجة لترشيد عملية التأثير والتفاعل المتبادلين بين الواقع البلدي القائم والعوامل البيئية المحيطة.

* هيكل البحث وتقسيماته الرئيسة :

رغبة في تحديد وتركيز إطار التحليل الإيكولوجي للبلديات السعودية تم تقسيم هذا البحث إلى : مقدمة وثلاثة فصول وخاتمة . تُخصّص الفصل الأول لبيان تحليل الإيكولوجي السياسي ، والفصل الثاني لبيان تحليل الإيكولوجي الإجتماعي والثالث لتحليل الإيكولوجي الإقتصادي . وجُعِلت الخاتمة لإعطاء موجز عن ملخص البحث وبيان أهم النتائج .

● الفصل الأول - تحليل الإيكولوجي السياسي ●

١ - الإيكولوجي السياسي هو المحيط السياسي الذي تعمل فيه البلديات بكل مايعنيه من واقع تعيشه وآمال تطمح إليها وآلام تعانيتها . فمع أن نظام البلديات نظام لإدارة الخدمات البلدية ، إلا أنه في نفس الوقت تحوطه بصبات السياسة من كل جانب . وتلك السمة هي المعروفة بتسييس الإدارة البلدية(١-٨٢٤).

وتوضيحاً لهذه الفكرة يمكن القول بأن نظام البلديات ذاته حين يصدر بموجب دستور أو مرسوم ملكي أو قانون ، إنما يصدره نواب الشعب أو أي جهة سياسية أخرى تختص بإصدار النظم أو القواعد اللائحية الملزمة . كذلك يمكن القول بأن البعد الشعبي الجماهيري في العمل البلدي يطبعه بطابع سياسي أصيل من باب أنه يعني باشتراك أهالي كل مجتمع بلدي في إدارة شؤونه .

وتزداد هذه الفكرة وضوحاً عندما نقف على حقيقة التنازع بين تغليب الطابع الإداري على الطابع السياسي أو العكس في شؤون إدارة الدولة . فعندما يستقر الوضع السياسي وتتضح معالم الفكر السياسي السائد وذلك على مستوى الدولة ، يكون هناك ميل إلى تدعيم وجود وزيادة فاعلية النظام البلدي . أما عندما يكون الإتجاه إلى تدعيم الوطنية مثلاً - خاصة في الدول حديثة الإستقلال - نجد الميل إلى المركزية الإدارية يكون واضحاً في تقييد حرية

البلديات في المبادرة بإتخاذ القرار .

٢ - ولما كان عنصري الإستقرار والفكر السياسيين هما أهم عناصر تحليل الإيكولوجي السياسي، لذلك فسوف نتناولها بالدراسة، بحيث يكون كل عنصر في مبحث مستقل.

● المبحث الأول - مدى إستقرار الوضع السياسي ●

في هذا المبحث نتناول تحليل هذا العنصر في ثلاث نقاط على النحو التالي :

النقطة الأولى - تأثيره على البلديات :

٣ - خذ مثلاً تصارع القوى الحاكمة فيما بينها على السلطة، وكيف يتفاعل هذا الصراع مع العمل البلدي . فبسبب تعاقب القادة السياسيين على مقاليد الحكم لا يستقر الوضع السياسي . إذ حينئذ تتغير التوجهات والبرامج والسياسات التي يتبناها كل قائد جديد - عن سلفه - على المستوى العام الذي يشمل ضمن مايشمل ماينخص البلديات منها .

ثم إن حالة التوتر السياسي الناشئة من تصارع القوى، غالباً ما تؤدي إلى تبني اتجاه الإعتدال على أهل الثقة من دون أهل الخبرة والكفاءة على المستوى البلدي، فضلاً على المستوى المركزي . وهو اتجاه كثيراً مايوصل إلى حالة من الإرتباك في العمل البلدي تنخفض معها جودة الخدمات البلدية المقدمة أو المتاحة لأهالي المجتمع البلدي، وتقل أيضاً معها فعالية النظام البلدي .

٥ - ومن ناحية أخرى، فإن استقرار الوضع السياسي في البلاد أو عدمه يتوقف عليه إتجاه تغليب الجانب السياسي أو الجانب الإداري في مجال العمل البلدي (٢٦-٣٦) . فحين يكون الوضع السياسي غير مستقر تميل القيادة السياسية إلى إحكام قبضة الحكومة المركزية على البلديات بما يضيق من حريتها في إتخاذ القرار النهائي . أما حين يكون مستقراً يتدعم النظام البلدي وتتوطد أركانه .

النقطة الثانية - تفاعله مع البلديات السعودية :

٦ - إذا كان حاكم اليوم غير حاكم الأمس وحاكم الغد غير حاكم اليوم، فالنتيجة هي

عدم إطراد السياسة العامة للدولة - بما فيها ما يتعلق بالبلديات - في اتجاه واحد واضح المعالم. بل إن السياسة البلدية يتزعزع استقرارها ولا يكون نجاحها ملموساً فيما يتعلق بتنمية المجتمعات البلدية.

٧ - ومن هذا المنطلق يمكن القول إنه لما كانت المملكة العربية السعودية تحظى بدرجة عالية في الاستقرار السياسي، فإن الواقع البلدي قد تطور في الاتجاه السليم نحو تأكيد الوجود وتطوير الفاعلية. ومن الأدلة القوية على هذا الاستقرار أنه منذ عام ١٩٦٧م وعلى امتداد خمسة عشر عاماً تعاقبت على الحكم أربع وزارات فقط (٣-١٠٢). وذلك يعني أنه كل أربع سنوات في المتوسط تلي الحكم وزارة جديدة. ولاشك أن هذه الفترة تعتبر مناسبة لكي تتبنى حكومة معينة سياسة ما وتعمل على تنفيذها.

٨ - إن مرور دولة معينة بظروف خاصة، كظروف الإستقلال الجديد أو ظروف إنشقاق بعض أقاليمها أو إنضمام أقاليم إلى دولة ما أو اندماج وتوحيد أقاليم عديدة في شكل دولة جديدة... الخ، غالباً ما يجعل من الأنسب الإعتماد - في تولية الولايات على البلديات على أهل الولاء للقيادة السياسية بالدرجة الأولى لإمكان السيطرة على الظروف الجديدة.

وفياً يتصل بتفاعل هذا المعنى مع البلديات السعودية، فإن المملكة حسب ذاكرة التاريخ قد مرت بظروف خاصة إبان وأعقاب توحيد كافة أقاليمها في عام ١٣٤٤ هجري، جعل القيادة السياسية ترجح الإعتماد على أهل الثقة والولاء من أمثال الأمير - آنذاك - سعود الذي ولى مقاليد الحكم البلدي في إقليم نجد، والأمير عبدالله بن جلوى الذي ولى مقاليد في إقليم الإحساء، يساعدهما في ذلك أمراء المدن والقرى ومشايخ القبائل وبعض القضاة (٤-٦٤).

إلا أن الأوضاع السياسية لم تلبث أن اتخذت لنفسها وضعاً مستقراً، فأعطيت الفرصة كاملة لشاركة أهل العلم والخبرة والاختصاص في العمل الإداري البلدي.

٩ - ولقد مر النظام البلدي السعودي بمراحل متعددة لكل منها صفة بلدية متميزة حتى وصل إلى ما هو عليه الآن. فمنذ البداية أسس «المجلس الأهلي» (٤-٦٥) في مدينة مكة ل مباشر الصلاحيات البلدية كلها عدا العسكرية والخارجية بطبيعة الحال: كصورة من صور الإدارة البلدية المتقدمة وفي نهاية المطاف استقر الوضع على وجود نظامين: أحدهما للمقاطعات ويتم

تعيين رئيسه من جهة الحكومة المركزية، وآخر للبلديات ويتم انتخاب رئيسه من جهة أعضاء المجلس البلدي أنفسهم.

النقطة الثالثة - اتجاه في التطوير

١٠ - ولكي تتعمق الممارسة البلدية في ظل الإستقرار السياسي الذي تنعم به المملكة، فإنه يصير من الضروري تنفيذ برامج تدريبية تثقيفية على نطاق واسع يشمل - على الأقل - أعضاء المجالس البلدية الكبرى. على أن تتنوع هذه البرامج بين مالية وإدارية وسياسية، وبرامج عملية على مباشرة العمل الاجتماعي العام في مختلف المجالات خاصة العمل التطوعي.

● المبحث الثاني - نوعية الفكر السياسي السائد ●

في هذا المبحث نتناول تحليل هذا العنصر في ثلاث نقاط على النحو التالي:

النقطة الأولى - تأثيره على البلديات

١١ - يشير الفكر السياسي إلى مجموعة من المعتقدات والمبادئ والأعراف التي تتكون على امتداد حياة شعب من الشعوب، فتشكل حركته العامة في الحاضر والمستقبل. وهذه التشكيلة إما جعلته شعباً محافظاً يفضل أن يسير على القديم ويستمسك به. وإما جعلته شعباً متطوراً على استعداد لقبول نزعات التغيير والابتكار ولاشك أن هذا المنحى أو ذاك ينعكس أثره على النظام البلدي من حيث المدى الذي يسمح به عند إرادة التطوير من خلال تغيير الأوضاع البلدية والعلاقات الحكومية البلدية.

١٢ - فعندما تسود القيم التشاورية مجال العمل السياسي يمكن مثلاً أن تنبع الخطة العامة للدولة من مجمع الخطط الفرعية للبلديات. أما عندما تسود قيم التوجيه والتسخير المركزي للموارد البشرية والاقتصادية، فإن نصيب البلديات يقسم لها من فوق، أي من سلطة التخطيط العامة المركزية.

ومعنى ذلك أن الفكر السياسي للصقوة الحاكمة إذا كان ذا أصول تشاورية كان إنعكاسه في تدعيم النظام البلدي وتأكيد الممارسة البلدية. فهذا هو المظهر العملي الواضح لهذه الأصول. بينما هو حين يكون ذا أصول مركزية تقوم خطته العامة في إدارة البلاد وبالذات الخدمات، على

التخطيط والتوجيه، فليسوف تكون النتيجة غالباً أن يتقلص الدور البلدي ليصبح في بعض الأحيان مجرد صورة لعدم التركيز الإداري فيمثل حيثثد فروعاً إقليمية للوزارات لاتزيد على ذلك .

١٣ - وفي الواقع العملي يلاحظ أن الفكر السياسي للشعب، والفكر السياسي للصفوة الحاكمة، أحياناً قد يتوافقا وأحياناً أخرى قد لا يحصل ذلك التوافق خاصة في الأحوال غير العادية، مثلما يحدث بعد قيام الانقلابات الدموية الموالية لجهات خارجية أو كما يحدث بعد الاحتلال الأجنبي لشعب دولة ما وخلاصة هذه الملاحظة أن مراكز القوى الخفية أو المعارضة السياسية المشروعة حين تتبنى فكراً سياسياً مستقلاً عن الفكر السياسي للحكومة القائمة، فإن ذلك يؤدي إلى الميل لتقليص حقيقة الإستقلال البلدي تغلياً للطابع المركزي على إدارة شئون البلاد. هذا بينما الحرية البلدية في صنع واتخاذ القرارات تزداد كلما كانت المعارضة المشروعة - أو مراكز القوى الخفية - ضعيفة ولا تستقل بفكر سياسي يغير الفكر السياسي للحكومة القائمة.

النقطة الثانية - تفاعله مع البلديات السعودية :

١٤ - نظراً لسيادة القيم التشاورية، فإن حكومة المملكة العربية السعودية لا تلجأ إلى الإستبداد بوضع خطة تفرضها على البلديات من خلال الوزارة المختصة وهي وزارة الشؤون البلدية والقروية، بل تترك الخطط البلدية تنبع من البلديات ذاتها بما يفي بحاجة أهالي كل مجتمع بلدي على حدة، من الخدمات. إذ يسمح نظام البلديات والقرى في مادته الثالثة والعشرين للبلديات أن تعد كل منها مشروع خطتها. ثم ترفع هذه الخطط الفرعية إلى الحكومة المركزية لتصاغ منها الخطة المتكاملة للبلديات ويصادق عليها من جهة الإختصاص بالمصادقة .

١٥ - إن الصراع والتناحر على الصعيد السياسي - بسبب التوجهات السياسية المتعارضة - لا يلبث أن يتسحب إلى الصعيد الإداري حيث تصير المجالس البلدية مجالاً خصباً لتياراته التي تعمق دائماً إعداد أو تنفيذ خطة بلدية فعالة. والواقع أنه لما كان مجتمع المملكة العربية السعودية يتصف بالتجانس الساحق وتسوده عقيدة إسلامية، توجد التوجهات السياسية على المستويين العام والبلدي، ويحظى مؤسس المملكة وموحد أقاليمها - ومن بعده أبنائه -



● قصر المربع - الرياض ●

بالتقدير والعرفان بدوره الكبير، من جانب المسؤولين، فإننا لانجد مثل ذلك التصارع والتناحر بل نجد الإستقرار والإزدهار في النمو والعمران والتقدم. وقد ساعد هذا على أن يتحقق للبلديات دفعة قوية في تعظيم الخدمات التي تقدمها سواء في مجال الصحة أو التعليم أو المرافق الأساسية الأخرى.

النقطة الثالثة - إتجاه في التطوير :

١٦ - جمعاً لمزايا التخطيط المركزي والتخطيط اللامركزي يفضل أن تصنع الحكومة المركزية ضوابط عامة تتناسب مع متطلبات المرحلة التي تمر بها البلاد كالإسراع بالتنمية أو ظروف ضرورة ضغط الإنفاق مثلاً. بحيث يكون على المجالس البلدية أن تهتدي بهذه الضوابط عندما تصيغ خططها فمثل هذا المسلك يقلل إلى حد كبير من فرصة التعديل الحكومي في الخطط البلدية كما أنه يوفر على الحكومة جهداً كبيراً يضيع في كثرة التعديلات التي تجريها في هذه الخطط .

● الفصل الثاني - تحليل الإيكولوجي الإجتماعي ●

١٧ - الإيكولوجي الإجتماعي هو المحيط المجتمعي الذي عملت فيه البلديات - وما زالت تعمل - ويشتمل على التاريخ الزمني العام للجنس البشري الذي عاش في مختلف البلديات

التي تكون إقليم الدولة. ولا نقصد هنا مجرد السرد النظري للتاريخ الزمني، وإنما نقصد الوقائع التاريخية وانعكاساتها على تشكيل المعتقدات والسلوكيات الخاصة بهذا الجنس البشري .

كذلك يشتمل هذا المحيط المجتمعي على النمط المعيشي الذي يزاوِل الحياة به أولئك الناس. ولاشك أن هذا النمط يتأثر بمستوى الثقافة والتعليم السائد وبدرجة تركيزه أو انتشاره وسائر مايتعلق به .

١٨ - ونحن إذا ذهبنا نوضح وجه العلاقة والارتباط بين المحيط الاجتماعي وطبيعة عمل البلديات لوجدنا المهمة سهلة. فمن البدايات أن الأصل في نشأة البلدية هو وجود مجموعة من الناس لها مصالح وحاجات متميزة عن مصالح وحاجات سكان الدولة ككل. فأهالي المجتمع البلدي هم شريحة متميزة من أهالي مجتمع الدولة. وهذه الشريحة تفاعل أفرادها بعضهم مع بعض على إمتداد التاريخ الزمني البعيد في بوتقة واحدة حتى توافقت معتقداتهم وتشابهت سلوكياتهم فصاروا مجتمعاً متجانساً .

١٩ - وفيما يلي نلقي بعض الضوء على تحليل الإيكولوجي الاجتماعي من خلال التركيز على أهم عناصره ومكوناته المتمثلة في تاريخ أهالي الدولة وتركيبهم الثقافية، وذلك في مبحثين مستقلين.

● المبحث الأول - العمق التاريخي لأهالي الدولة ●

في هذا المبحث نتناول تحليل هذا العنصر في ثلاث نقاط، على النحو التالي :

الخطوة الأولى - تأثيره على البلديات

٢٠ - الواقع أن بعض النظم البلدية تنشأ مع نشأة الدولة قدماً بقدوم وساقاً بساق، إن لم تسبقها. ولذلك تتميز بالأصالة والعمق التاريخي. وخير مثال على هذه النظم نظام الحكم الإنجليزي. هذا، في الوقت الذي ينشأ بعضها الآخر بموجب قانون أو مرسوم تعبيراً عن إرادة الحكومة المركزية. ولذلك تتميز بالحدأة التاريخية. وليس من شك في أن العلاقة بين استيفاء مكونات نشأة الدولة، وظروف نشأة النظام البلدي علاقة جديرة بالإهتمام - خاصة في.



● برج مياه الرياض ●

الدراسات الإيكولوجية - وذلك نظراً للطابع الخاص الذي تطبع به نظاماً بلدياً ما فتجعله متميزاً عن غيره من النظم.

٢١ - إننا قد نجد أنفسنا بصدد دولة ظهرت إلى حيز الوجود كنتيجة لإتحاد عدد من الدول التي كانت متفرقة. والغالب على مثل هذه الدول أن تكون الإدارة البلدية فيها حديثة النشأة لا تتمتع بعراقة تاريخية^(٢٠-٢).

ومن الملاحظ على هذه النظم أنها تنشأ بموجب قانون أو مرسوم تعبيراً عن إرادة الحكومة المركزية وبالتالي تكون الإختصاصات الإدارية البلدية عبارة عن فائض اختصاصات الوزارات والهيئات العامة المركزية، أي مايزيد عن طاقة إحتياها من مسئولية إدارية، فتكلها إلى البلديات وكثيراً مايكون هذا الإيكال بناء على تفويض من الوزارات. وفي هذه الحالة يمكنها أن تتوسع فيه أو تضيق منه تبعاً لإرادتها هي. فهذا منها بمثابة قيد مرن على حرية البلديات.

كما يلاحظ على هذه النظم أيضاً أن أي تعديل ولو كان جوهرياً - كتعديل الحدود الجغرافية للمجتمعات البلدية - في شؤون البلديات يمكن إحداثه دون مقاومة، ويرجع السبب في ذلك إلى عدم ترسخ المفاهيم البلدية والمكاسب البلدية في نفوس الأهالي بدرجة تجعلهم يدافعون عنها قدر المستطاع.

٢٢ - ومن ناحية أخرى ، قد نجد أنفسنا بصدد دولة تظهر إلى حيز الوجود كنتيجة لاتحاد

أقاليم متعددة . والغالب على مثل هذه الدول أن تكون الإدارة البلدية فيها عريقة عراقية تاريخية ذات جذور عميقة وقديمة (٢-١٩) .

ولاشك أن مثل هذه النظم البلدية، تنشأ نشأة طبيعية وتستغرق وقتاً أطول في التكوين والتطبيق والممارسة العملية . الحال الذي يجعلها أكثر ثباتاً واستقراراً ويتيح (قديراً أعظم من السلطات والصلاحيات . كما يوفر لها قدراً ملموساً من الإستقلال في مواجهة السلطات المركزية وفضلاً عن ذلك فإن نفوس الأهالي تكون قد تشربت بالفعل الممارسات البلدية .

ويضاف أيضاً إلى خصائص هذه النظم أنه لما كان القانون أو المرسوم ليس هو المنشئ لها وإنما فقط ينظمها . . . لذا فإن أي تعديل في الشؤون البلدية يقابل من جهة الأهالي بمقاومة يتفاوت عنفها تبعاً لمدى عراقية هذه النظم تاريخياً، ونوعية التعديل، ودرجة تأثيره على التقاليد البلدية . ولذلك فإن الجهات المركزية كثيراً ما تعتمد - قبل إجراء هذا التعديل - إلى تهيئة الإيكولوجي الاجتماعي .

٢٣ - وعلى العموم نستنتج مما سبق أن دراسة وفهم نظام بلديات قائمة يتطلبان الرجوع إلى جذوره التاريخية لتتبع مراحل تطوره . وهذا الاستنتاج يقودنا إلى آخر هو أن الدول التي تشابه ظروفها التاريخية تشابه نظمها البلدية والعكس صحيح . ثم إنه كلما كان النظام البلدي ضارباً بجذوره التاريخية كان من الصعب إحداث تغييرات جوهرية فيه قبل دراسة مدى تقبل التغييرات على المستوى الشعبي وتهيئة المناخ المناسب لتطبيقها .

النقطة الثانية - تفاعله مع البلديات السعودية :

٢٤ - لقد بذل آل سعود جهوداً جبارة في سبيل توحيد أقاليم الجزيرة تحت اسم «مملكة الحجاز ونجد وملحقاتها» عام ١٣٤٤ هجري . ثم تغير الاسم بعد ذلك فصار «المملكة العربية السعودية» وكان ذلك في عام ١٣٥٢ هجري . ومع ذلك فإن القيادة السياسية لم تصدر مرسوماً ملكياً خاصاً بالنظام البلدي ككل ، بقدر ما كان إصدار مثل هذه المراسيم مجرد تنظيم للواقع القائم آنذاك .

ففي البداية تم تشكيل المجالس الأهلية في كل من مدن: جدة ومكة والمدينة، وذلك من ممثلين عن الأهالي في كل مدينة على أن ينتخب كل مجلس رئيسه من بين أعضائه وأيضاً نائبه .

وإن كان هذا لم يمنع من أن يعين بعض الأشخاص في هذه المجالس بحكم خبراتهم وكفاءاتهم^(٤-٦٥) ثم مالبث أن أصدر نظام أمراء المناطق والمجالس الإدارية في ١٣/١/١٣٥٩ هجري. وترتب عليه أن يمارس المجلس الإداري (برئاسة أمير) كافة الأنشطة المركزية منها والبلدية في حيز منطقته. فاتسع المفهوم التطبيقي للإدارة البلدية ليذهب قريباً من الحكم البلدي.

٢٥ - وهكذا لم يكن النظام البلدي من إنشاء الدولة في أول أمره. وإنما كان قريباً من إقرار الواقع القائم. ثم بالتدريج أخذت عملية التطوير مداها فانتقلت من أسلوب إدارة الحاكم كافة شئون منطقته بنفسه إلى أسلوب إدارته لها بواسطة الأجهزة البلدية المختصة، إلى إصدار نظام المقاطعات والبلديات بالمرسوم الملكي رقم (١٢) بتاريخ ٢١/٥/١٣٨٣ هجري.

النقطة الثالثة - اتجاه في التطوير :

٢٦ - ترتباً على كون النظام البلدي السعودي حديث النشأة في مجمله، فإنه يفضل إعادة تخطيط المساحة الجغرافية للبلديات من حين لآخر بسبب التمدد العمراني المتواصل لغزو الصحراء وتطويعها والذي تشهد المملكة مؤخراً. ولعل هذا يساعد على زيادة موارد المجتمعات البلدية من الثروة - وعلى الأقل البشرية منها - لما لذلك من مزايا تخفيض تكلفة الوحدة من أي خدمة بلدية تقدم إلى المواطنين.

● حديقة عامة في الرياض ●



● المبحث الثاني - النمط الثقافي عند أهالي الدولة ●

في هذا المبحث نتناول تحليل هذا العنصر في الثلاث نقاط التالية :

النقطة الأولى - تأثير على البلديات :

٢٧ - تتأثر النظم البلدية في تكوينها وحركتها بالثقافة السائدة داخل الدولة، وكذلك تتأثر بالثقافة الواردة عليها من الدول الأخرى. ولعل هذه الإزدواجية هي التي أكسبت هذا العنصر أهميته في تحليل الإيكولوجي الاجتماعي في حقل البلديات (١-٨٣٥).

٢٨ - فبالنسبة لتأثير الثقافة الوافدة على الفكر البلدي أو الواقع البلدي توجد عدة ملاحظات. فافتداء الدول الصغيرة بالدول الكبرى يجعل الأولى تفكر وهي بصدد تطوير وتحديث نفسها في الاستفادة من الخبرات والتجارب لتلك الدول في إدارة البلديات من حيث الثقافة والفلسفة والفكر وأنماط الإدارة والعلاقة بين الوحدات الإدارية سواء الرئاسية أو المتعاونة وغير ذلك .

ثم إن جمالية بعض اللغات كاللغة الإنجليزية واللغة الفرنسية يتيح الفرصة لانتشار ثقافتها وأفكارها خارج دولتها. وبالتالي تنتقل وتنتشر مع الثقافة، الأفكار والاتجاهات والأنماط الحياتية ومنها النظم الإدارية المتعلقة بالبلديات (٢-٢٨).

وفضلاً على ذلك فإن ظاهرة استعمار دولة لأخرى أتاح فرصة لفرض ثقافة الدولة المستعمرة ونظمها في السياسة والإدارة جميعاً ومنها الإدارة البلدية فكراً وعملاً. بل إن التبعية الثقافية والفكرية ظلت سائدة بدرجات متفاوتة حتى بعد الإستقلال عن الدول المستعمرة.

٢٩ - أما بالنسبة للثقافة السائدة داخل الدولة، فإن لها تأثيرات شتى على البلديات. فإرتفاع معدل الأمية الثقافية والاجتماعية والسياسية، يؤثر تأثيراً سلبياً على مدى استقلال المجالس البلدية - عن الحكومة المركزية - في شؤون المجتمعات البلدية .

ثم إن هناك التأثير السلبي على الإتجاه السياسي نحو اشتراك العنصر الشعبي من أهالي كل مجتمع بلدي في الأعمال الإدارية. وأيضاً تأثيره السلبي على مدى كفاءة وجودة الخدمات التي تقدم، بسبب نقص التخصصات والكفايات المطلوبة .

النقطة الثانية - تفاعله مع البلديات السعودية :

٣٠ - تعتبر المملكة العربية السعودية - أو بالأحرى شبه الجزيرة العربية - كلها - موطن اللغة العربية وآدابها وثقافتها. حتى من قبل أن يأتي الإسلام فيها وإن كان الإسلام قد أكدها واعتمدها لغة له. ثم لما قامت دولة النبوة فدولة الخلافة الراشدة، اعتنق الناس ثقافة الإسلام. ثم أخذت هذه الثقافة تتأصل جذورها إلى اليوم في المملكة. ولعل هذا هو السبب الذي لم يدع للغات العالمية ولا لثقافتها أن تترك بصمات واضحة على النظام السياسي أو النظام الإداري مركزياً أو بلدياً في المملكة. وإن كانت المملكة قد بدأت تتقي من النظم الأخرى أكفاً أساليبها لتدفع عجلة التنمية قدماً إلى الأمام .

٣١ - هذا ولم تخضع المملكة لأي شكل من أشكال الإستعمار الثقافي على امتداد تاريخها الطويل الأمر الذي أضفى على العوامل الثقافية السائدة فيها صفة الأصالة. وقللت إلى أبعد مدى من تغلغل ثقافات أجنبية إليها، مما جعل النظم البلدية فيها تنبع من أعماق ثقافات وعادات الأهالي في الحرية والإستقلال والإعتداد على النفس والخضوع دائماً للكبير مع تقديره واحترامه .

٣٢ - ومع أن إرتفاع نسبة الأمية يؤدي إلى نقص في الكفاءات الإدارية والفنية، الأمر الذي يجعل من الصعب فتح الباب على مصراعيه أمام البلديات لكي تدير شؤونها بإستقلال



مناسب إلا أن ذلك لم يمثل أمام المملكة عائقاً حاسماً دون تطبيق كثير من المفاهيم البلدية المتطورة، عن طريق استقدام واستخدم عمالة أجنبية على درجة كبيرة من الكفاءة.

النقطة الثالثة - اتجاه في التطوير :

٣٣- لاشك أن عملية تعميم الثقافة والتعليم على نطاق واسع في الدولة يحتاج إلى خطط تمتد إلى سنوات متتالية. لذلك فإن الحل الفوري يتمثل في تنفيذ خطط عاجلة لتدريب أعضاء المجالس البلدية في النواحي الإدارية والمالية والسياسية لكي يستطيعوا القيام بأعمالهم بشكل مرغوب فيه .



● نفق بشارع المطار القديم ●

● الفصل الثالث - تحليل الإيكولوجي الإقتصادي ●

٣٤- الإيكولوجي الإقتصادي هو الموارد البيئية القيمة المعتمدة، والمتاحة في مختلف المجتمعات البلدية. وهي تشمل على طبيعة أرض المجتمع البلدي من حيث الوديان والنجاد والوهاد وصلاحيته ليكون مشق أو مصيفاً وغير ذلك. كما يشمل على نوعية السكان في الدولة هل هم من جنس واحد أم لا ؟.

كذلك يشمل هذا المزيج من الموارد البيئية القيمة بعداً آخر لعنصر السكان وهو دراسة توزيع فئاتهم وكثافتهم بصفة عامة في المجتمعات البلدية ودرجة الميل إلى الهجرة للعاصمة والمدن الكبرى. زد على هذا مستوى التكنولوجيا السائد كاستخدام الآلات الضخمة الكمبيوترية ونوعية وسائل المواصلات والإنصالات المتاحة .

٣٥- وفيما يلي نلقي ضوءاً على فكرة تحليل الإيكولوجي الإقتصادي من خلال التركيز على أهم عناصره التي تتمثل في مدى التجانس السكاني ومدى تركيزهم من عدمه داخل المجتمعات البلدية. فضلاً عن نوعية أراضيها ووسائل المواصلات والإنصالات المتاحة أو المستخدمة وذلك في أربعة مباحث مستقلة على التوالي .

● المبحث الأول - تعدد أو توحيد الأجناس السكانية في الدولة ●

في هذا المبحث نتناول تحليل هذا العنصر في ثلاث نقاط متتالية على النحو التالي :

النقطة الأولى - تأثيره على البلديات

٣٦- إن دراسة الجماعة البشرية التي تسكن إقليم الدولة، من حيث الأجناس التي تدخل في تركيبها، ترجع أهميتها إلى كونها عظيمة التأثير في النظام البلدي فلسفة وبناء وتطبيقاً. وإنطلاقاً من هذه القاعدة، فإنه عند تصميم نظام بلدي معين يجب أن تمتد الدراسة التحليلية إلى بعض الأمور التي لها أهمية خاصة هنا.

فهل سكان الدولة يعيشون حياة قَبَلِيَّة أم حياة مدنية ؟ ذلك لأنه في ظل الحياة القبلية يميل السكان إلى تطبيق مبدأ وجوب الطاعة لشيخ القبيلة وكبيرها . ومن ثم نجد مركز السلطة العامة الأدنى على استعداد للخضوع لمن هو أعلى في هيكل تنظيم الدولة وتقبل التوجيه منه .

ومن آثار ذلك أن الوحدات البلدية لا تمانع في مزيد من الرقابة المركزية عليها، ولا تطالب بغير ذلك. بينما الحال في الحياة المدنية أن تميل الأجهزة البلدية إلى المطالبة بنصيب أكبر من الإستقلال الأمر الذي يخفف العبء الإداري عن الحكومة المركزية.

وهل تشتمل الدولة على أجناس بشرية ؟ ذلك لأن هذه الأجناس قد تتباعد من حيث اللغة والثقافة والعادات والتقاليد والأديان والتطلعات السياسية وغير ذلك. وحينئذ قد تفضل الدولة أن تتخذ شكل الدولة المركبة على أن يتمتع أهالي كل جنس بالحكم البلدي. وهو درجة أعلى كثيراً من درجة الإدارة البلدية التي نتكلم عنها في هذا البحث. ففي صورة الحكم تتوزع وظائف الدولة تشريعية وإدارية وقضائية بين الحكومة الاتحادية والهيئات البلدية في الولايات التابعة لهذه الحكومة. بينما في الصورة الإدارية تتوزع الوظيفة الإدارية العامة فقط، بين الحكومة المركزية والهيئات البلدية.

ثم هل توجد في الدولة أقلية وأغلبية؟ لأنه كلما كانت الأقلية قوية الشوكة ومتناسكة ومتميزة، تخرجت على المطالبة أن تستقل عن الحكومة المركزية استقلالاً ذاتياً^(١-٢٦٨). ولعل هذا ماحدث بالنسبة للأقلية التي تسكن جنوب السودان.

٣٧ - وصفوة القول هنا أن تعدد الأجناس البشرية التي تكون الدولة الواحدة، لا بد أن تنعكس آثاره على تنوع أو تباين الفلسفة البلدية التي تتبناها الدولة. فيكون للإدارة البلدية داخل الدولة الواحدة أنماطاً شتى. فإلم تعط الدولة إهتماماً معقولاً لأوضاع الأجناس البشرية التي تعيش على أرضها وأثر ذلك على النظام البلدي الأمثل، فإنها ستواجه كثيراً من المصاعب والقلقل من جانب هذه الأجناس التي ستحاول أن تنعم بحرية أكبر في ممارسة شؤونها الدينية والثقافية وأحوالها الشخصية.

القطعة الثانية - تقاعد مع البلديات السعودية

٣٨ - إن تعدد الأجناس السكانية قد يؤدي في النهاية إلى أن تتخذ الدولة الشكل المركب على أن يتمتع أهل كل جنس بمقومات الدولة. وهذه صورة الحكم البلدي. إلا أنه في المملكة لا تسير الأمور على هذا النحو. بل إن التجانس الكبير يبدو واضحاً في التركيبة الاجتماعية للسكان وضوحاً يجعل الوضع مهياً لإرساء قواعد متائلة للممارسة البلدية^(٢٩).

أما مسألة العاملين بعقود في المملكة، فإن الجزء من عدم التجانس الذي يترتب على وجودهم فذو تأثير محدود. لأنهم ومن البداية يأتون المملكة ولديهم الإستعداد أن يعملوا فقط في الحدود التي ترسمها لهم الإدارة فضلاً على أن عقودهم دائماً موقوتة.

٣٩ - ولعل الإنتهاءات القبلية - القائمة في المملكة - من جانب العاملين في البلديات بما تحمله في طياتها من معاني الخضوع الكامل لكبير القبيلة، قد جعل البلديات خاصة التي تدير مجتمعات قبلية أصلاً، لا تمانع في أن تفرض الحكومة المركزية صوراً شديدة من الرقابة سواء على الهيئة البلدية أو أعمالها.

النقطة الثالثة - إجماع في التطوير :

٤٠ - إن الواجب خاصة في المجتمعات القبلية البحتة تنمية الإعتماد على النفس وتنمية مهارة المبادأة باتخاذ القرار البلدي، لكي تتخفف الحكومة من أعباء الخدمات البلدية المتناثرة في أنحاء البلاد وتتفرغ للخدمات المركزية الضخمة، وإلا فسوف يكون النظام البلدي غير فعال بالقدر المناسب. ولا بأس أن يكون لجهاز الخطط والبرامج بوزارة الشؤون البلدية والقروية ومعهد الإدارة العامة نصيب أكبر في تنمية المهارة الإدارية للعاملين في حقل البلديات.

● المبحث الثاني - تركيز أو عدم تركيز السكان في الدولة ●

في هذا المبحث نتناول تحليل هذا العنصر في النقاط الثلاث الآتية :

النقطة الأولى - تأثيره على البلديات :

٤١ - يجمع هذا العنصر بين درجة التركيز ونوعيته. وتأثيره على النظام البلدي متنوع الأبعاد. فالنسب الإجمالية السنوية لتزايد السكان أو تناقصهم في مجتمع بلدي مانتخذ كمؤشر للتعرف على ماهية الحجم الأمثل لإقليم هذا المجتمع^(٦٣-٥). والقاعدة هنا أنه كلما تزايد معدل النمو السكاني في مجتمع ما فالأنسب أن تضيق مساحته، وكلما تناقص هذا المعدل كان الأنسب أن تسع مساحته لإمكان تدبير الموارد البشرية اللازمة لإدارة وتشغيل مختلف الخدمات البلدية .

٤٢ - ومن تأثيره أيضاً على الممارسة البلدية أن شدة التركيز في حالة العواصم والمدن الكبرى التي تليها تؤدي إلى تقسيمها إلى عدة مستويات تنظيمية لإمكان تقديم الخدمات المطلوبة نوعاً وجودة، على أن الشرط هنا إعطاء البلدية الأم كافة مقومات وجودها واستقلالها مثل الشخصية الاعتبارية، أما المستويات التنظيمية الأخرى داخلها فتجرد من مثل هذه الدرجة من الاستقلال .

٤٣ - ومن المظاهر والأبعاد الأخرى لتأثير هذا العنصر، أنه يتدخل في تحديد العدد الأمثل لسكان مجتمع بلدي ما . إذ من الضروري تقسيم السكان إلى شريحة عاملة وشريحة عالة حيث يتم التركيز على توفير حجم ونوعية معقولين من الشريحة العاملة التي تقع أعمارها بين العشرين والستين عاماً . فعلى هؤلاء يقع عبء المساهمة بالجهود الذاتية وعبء دفع الضرائب والرسوم البلدية التي تستخدم في تغطية تكلفة تقديم الخدمات للأهالي .

النقطة الثانية - تفاعله مع البلديات السعودية :

٤٤ - الحقيقة أن المملكة العربية السعودية تتمتع بمساحة مترامية الأطراف تضم أقاليم يتميز بعضها بتركز سكاني شديد نسبياً وبعضها الآخر بعدم التركيز السكاني^(٥-٦٣) . وهو ما له انعكاس خطير في الحالتين . كما يزيد من هذه الخطورة المد السكاني المتزايد للهجرة من الأرياف والهجرة إلى المدن الكبرى فضلاً على العاصمة .

ففي الحالة الأولى تضطلع البلدية بمسئولية تقديم كم كبير ومتنوع من الخدمات الصحية والتعليمية والإسكانية وغيرها . ولاشك أن إدارة مثل هذا الحجم من الخدمات يتطلب عمليات إدارية معقدة .

وفي الحالة الثانية تضطلع البلدية بمسئولية تقديم كم يسير غير متنوع من الخدمات ولكن تكلفته عالية جداً ، بالنسبة إلى أن مساحة المجتمع غير المتمتع بتركز سكاني مناسب غالباً ما تكون شاسعة تتطلب تمديد شبكات كهرباء ومياه واتصالات تليفونية وبرقية . . الخ مع أن المستفيدين منها يكونون قليلي العدد مما يرفع تكلفة الخدمة للفرد الواحد .

النقطة الثالثة - اتجاه في التطوير

٤٥ - يفضل وضع بعض الضوابط لتنظيم الهجرة السكانية إلى العاصمة. ومن ناحية أخرى تنظيم الهجرة من سائر الأقاليم إلى بعضها. والغرض من ذلك حفظ حالة توازن سكاني في أقاليم الدولة لتفادي مشاكل إدارة المدن كثيفة السكان وتلك التي تعاني من نقص السكان .

● المبحث الثالث - جغرافية أرض الدولة ●

في هذا المبحث نتناول تحليل هذا العنصر في النقاط الثلاث الآتية :

النقطة الأولى - تأثيره على البلديات

٤٦ - يعتبر هذا العنصر ذا تأثير حاسم في تحليل الإيكولوجي الإقتصادي. فعليه يتوقف القرار الخاص بوجود نظام إدارة بلدية من عدمه. إذ أن لإنحسار أرض الدولة وضيقها ومحدوديتها يؤدي إلى انعدام الحاجة لوجود نظام بلدي، خاصة إذا بلغت الدولة في هذا مبلغاً بعيداً كما هو الحال في دولة الفاتيكان مثلاً^(٢٣-٢٢).

وفي المقابل فإن الدولة التي تتمتع بأراضي واسعة المساحة تصبح أمام اختيار وحيد وهو إقامة تنظيم بلدي قوي. وبالذات عندما تكون وسائل الإتصال والمواصلات غير فعالة أو غير متوافرة^(٥٥-٥٠) خاصة إذا بلغت الدولة في هذا مبلغاً كبيراً كما هو الحال في الولايات الأمريكية والاتحاد السوفياتي والمملكة .

٤٧ - وسواء أكانت أرض الدولة متسعة أو ضيقة، فإن العبرة تكون بالطبيعة الجغرافية لهذه الأرض. فإنها إذا كانت صحراوية وسكانها رحل يتنقلون في جماعات صغيرة، يصعب وضعهم في بناء تنظيمي بلدي فعال. في حين أنه إذا اشتملت أرض الدولة على أنهار وسلاسل جبال وماشابه فإننا نجد أنفسنا أمام بعض الأقاليم شبه المعزولة عن سائر أرض الدولة. وقد تشجع هذه الحال أو تفرض قيام تنظيم بلدي خاص بهذه الأقاليم ليمنحها كثيراً من مظاهر الإستقلال البلدي .

أما إذا كانت أرض الدولة من الناحية الجغرافية تكاد تكون أطلسية مسطحة. لاهي صحراوية، ولاهي تشمل موانع ربانية... فإنه في هذه الحال تنهياً الفرصة لتنظيم بلدي تتمتع فيه الحكومة المركزية بقدر أكبر من الرقابة على البلديات يحد - كثيراً أو قليلاً - من استقلال الأخيرة.

النقطة الثانية - تفاعل مع البلديات السعودية

٤٨ - وتستغرق المملكة العربية السعودية من الأرض مساحة شاسعة جداً تكاد تمثل قارة بذاتها. إذ تبلغ المساحة الكلية مئات الآلاف من الكيلومترات (٢٤٠,٠٠٠ تقريباً) (٢٩-٤).

وليس من شك أن هذه الحال تفرض على الحكومة أن تتبنى تنظيماً بلدياً مناسباً، لثلا تشغيلها الأمور المركزية عن الإهتمام الواجب بنوعية وكمية الخدمات التي تخص كل مجتمع بلدي خاصة المجتمعات الصغرى.

٤٩ - ثم إن المعوقات والموانع الموجودة ربانياً في المملكة والمتمثلة في السلاسل الجبلية الشاهقة في الغرب (ارتفاع من ٣٠٠٠ : ٩٠٠٠ قدم عن سطح البحر) والأخرى التي في الشرق، فضلاً عن المرتفعات (كمرتفعات نجد التي تتراوح بين ٢٠٠٠ : ٣٠٠٠ قدم) والصحاري الرملية التي لاتصلح فيها الحياة (كصحراء الربع الخالي) والأراضي شبه المستوية (٢٩-٤)... كل هذا التنوع جعل من الأنسب إقامة تنظيم بلدي لتفادي صعوبة إدارة مثل هذه المناطق شبه المعزولة بواسطة الحكومة المركزية.

النقطة الثالثة - اتجاه في التطوير

٥٠ - لاشك أن هذا الإمتداد الجغرافي الضخم يتطلب مزيداً من الأشخاص والأجهزة ذات الصبغة البلدية، لذلك فإنه من المناسب تقليل مستويات التنظيم البلدي وتدريب أكبر عدد من الأشخاص على فنون العمل البلدي.



● المبحث الرابع - مرونة الوسائل المتاحة للانتقال والإتصال ●

في هذا المبحث الأخير نتناول تحليل هذا العنصر في ثلاث نقاط أيضاً على النحو التالي :

النقطة الأولى - تأثيره على البلديات

٥١ - يؤثر مدى التقدم الفني - والذي عبرنا عنه بالمرونة - الذي وصلت إليه الوسائل المختلفة التي تستخدمها الدولة في إنتقال الأشخاص والأشياء من مجتمع بلدي إلى آخر ، أو الإتصال بين الأجهزة والأخرى^(١-٢٧٨). وذلك في عملية تحليل الإيكولوجي الإقتصادي ، نظراً للآثار التي تترتب عليها فيما يتعلق بالنظم البلدية خاصة حديث النشأة منها أو الذي يتطور من هذه الزاوية على شكل قفزات واسعة ، فضلاً عن العزلة تاريخياً التي نشأت في ظل غمط حياة متخلف نسبياً .

٥٢ - ونقصد بهذه الوسائل : الطيران المدني ومدى الإعتماد عليه والقطارات ودرجة سرعتها وانتشار شبكتها في البلاد وكذلك سيارات النقل الجماعي التي تعمل بين الأقاليم وشبكة الطرق الممتدة بين مختلف المجتمعات البلدية الكبيرة والصغيرة سواء ، والسفن من حيث نوعيتها وحداثتها وشبكة الممرات المائية المنتشرة في الدولة . كما نقصد بها : خطوط التليفون والتلغراف والتلكس وغيرها . ومن ناحية أخرى نقصد بالمرونة امكانية تطوير وتحديث هذه الوسائل في المستقبل القريب والبعيد .

٥٣ - والواقع أن لهذه الوسائل إنعكاسات تأثيرية على بناء النظام البلدي المناسب وعلى حركيته الديناميكية ، تتخذ لنفسها صوراً شتى . فالمرونة العالية لوسائل الإنتقال كثيراً ما يترتب عليها تزايد الهجرة السكانية من البلديات القروية إلى تلك الأكثر مدنية وخاصة بلدية العاصمة نظراً لما تحتويه من أجهزة الخدمات المركزية والمصالح الحكومية الأخرى . حتى صارت إدارة البلديات الكبرى عملية شاقة . وكثيراً ما تلجأ الدول إلى إدارتها بأسلوب المستويين التنظيميين . وفي نظام المحليات المصري قسمت بلدية العاصمة التي تتمتع بالشخصية الاعتبارية إلى خمسة أحياء (وسط وشمال وجنوب وشرق وغرب) لا تتمتع بهذه الشخصية وإن كانت تمثل مستوى تنظيمياً ثانياً .

ثم إن المرونة العالية لوسائل الإتصال كثيراً ما يترتب عليها توسيع الإطار الجغرافي

للمجتمعات البلدية بسبب ما تعبر عنه هذه الوسائل من إمكانية التغلب والسيطرة على اتساع المساحات وطول المسافات وكذلك المرتفعات الجبلية والممرات المائية. وينعكس تأثير هذه المرونة في صورة دمج مجتمعات قروية في مجتمع بلدي تحت إدارة مجلس بلدي واحد يستطيع إدارة المساحة الواسعة للمجتمع بسبب مرونة الإتصال بين هيئة المجلس والوحدات الإدارية التنفيذية العاملة في ذلك المجتمع. ولاشك أن هذه المزية تغري بتقليل مستويات التنظيم البلدي لأنه لا مجال حينئذ للمجتمعات المتناهية في الصغر.

النقطة الثانية - تفاعله مع البلديات السعودية

٥٤ - وفي المملكة العربية السعودية، واعتاداً على مرونة وسائل الإتصال والإنقال العالية تم توسيع نطاقات المجتمعات البلدية على أساس علمي رشيد وذلك في شكل ست مناطق أم^(٥-٢٢) فضمت المنطقة الوسطى كل من مقاطعة الرياض وحائل. وضمت الغربية مقاطعات: مكة والمدينة، وضمت الشرقية بلدية الشرقية نظراً لإتساعها وأهميتها البترولية الإستراتيجية. وضمت الجنوبية مقاطعات: عسير وجيزان ونجران والباحة. وضمت الشمالية مقاطعات: الجوف وتبوك والحدود الشمالية والقريات. واقتصرت منطقة القصيم على مقاطعة القصيم.

النقطة الثالثة - إتجاه في التطوير

٥٥ - لا بأس في أن تتجه فلسفة التنظيم البلدي في المملكة - بل من المفضل - إلى اختزال العدد الكبير من القرويات والبالغ قرابة العشرة آلاف^(٤-٢١) بإعادة صياغتها في شكل مجتمعات قروية مأمكن، إلى جوار تنظيم الهجرة التوطنية من تلك القرويات إلى البلديات والإمارات الأكثر مدنية.



خاتمة البحث

خصص الباحث هذه الخاتمة لتلخيص محتوى البحث وإظهار أهم نتائجه.
* ملخص موجز لمحتوى البحث :

لقد جم هذا البحث بين: توضيح العلاقة التفاعلية المتبادلة بين الواقع البلدي والبيئة

المحيطة به من الناحية النظرية، وبين تركيز الاهتمام على تلك العوامل البيئية الأكثر تفاعلاً مع واقع البلديات السعودية وهي العوامل: السياسية والاجتماعية والاقتصادية. وكان الاستناد في ذلك إلى أهمية المنهج الإيكولوجي التي تتمثل في أنه يشترط لتقييم أو تصميم نظام بلدي معين، إجراء التحليلات الإيكولوجية اللازمة لمعرفة طبيعة العلاقة التفاعلية المتبادلة بينه وبين بيئته.

ومن أهم ما تناولوه هذا البحث موضوع استقرار الأوضاع السياسية ومدى انضاح معالم الفكر السياسي السائد وذلك على مستوى الدولة وكيف أنه من العوامل التي تشجع على تدعيم وجود النظام البلدي وزيادة فاعليته. في حين أنه عندما تستهدف القيادة السياسية للدولة تدعيم الوحدة الوطنية وإعطائها الأولوية، يكون ذلك على حساب حرية البلديات في المبادرة بإلتخاذ قرار.

كذلك تناول هذا البحث حقيقة إجتماعية هامة هي أنه مادام أهالي أي مجتمع بلدي يمثلون شريحة متميزة من أهالي مجتمع الدولة الكبير، وقد تفاعل أفراد هذه الشريحة مع بعضهم طوال فترات زمنية متعاقبة بشكل جعلهم مجتمعاً متجانساً، فإنه لا بد من تحليل الوقائع الإجتماعية التي تتبادل التأثير مع المجتمع البلدي.

ولما كانت البيئة الإقتصادية المحيطة بعمل البلديات من مقومات المجتمع البلدي المناسب، فقد عالج هذا البحث التركيبة السكانية كمأ ونوعاً وتضاريس تلك المجتمعات البلدية ومرونة الإلتصال والإنتقال بين أقاليم الدولة.

• أهم نتائج البحث

أما عن أهم ما توصل إليه هذا البحث من نتائج فإن بعضها قد تعلق بالإيكولوجي السياسي مثل واجب الحكومة المركزية في أن تضع بعض الضوابط العامة التي تهتدي بها البلديات في عمل موازاناتها. ومنها ضغط الاتفاق العام بنسبة مئوية معينة. ومن هنا تضعف فرصة التعديل الحكومي لتلك الموازنات، وبهذا يساهم في تدعيم الوجود البلدي المستقل.

كما أن بعضها قد تعلق بالإيكولوجي الإجتماعي مثل اعداد وتنفيذ برامج تدريبية عاجلة لإعداد الكوادر الفنية التي تتعرف على فنون العمل البلدي الذي يقوم جانب كبير منه على العمل التطوعي .

ثم إن بعضها الآخر تعلق بالإيكولوجي الإقتصادي مثل تنظيم الهجرة السكانية إلى المدن الكبرى خصوصاً العاصمة لتفادي مشاكل إدارة المدن كثيفة السكان ، والتي تتطلب تعقيداً في أداء الخدمات ورفع مستوى معيشة السكان في المجتمع البلدي . وأيضاً مثل تفضيل جعل الوحدة البلدية الأدنى على نطاق مجتمع قروي بدلاً منه على نطاق قرية ، لزيادة الإمكانيات والقدرات لكل وحدة بلدية.



المراجع والمواش

- * اتبعت في الإشارة إلى المواش طريقة مختصرة بأن أكتب بين قوسين رقم المرجع كما هو موضح في قائمة المراجع والمواش. ثم بجانبه أكتب رقم الصفحة.
- ١ - مصطفى فهمي، صبحي عزم، موسوعة الحكم المحلي - الأساسيات النظرية للحكم المحلي، المنظمة العربية للعلوم الإدارية، الجزء الأول، ١٩٧٧م.
- ٢ - د. ظريف بطرس، موسوعة الحكم المحلي - الأساسيات النظرية للحكم المحلي، المنظمة العربية للعلوم الإدارية، الجزء الأول، ١٩٧٧م.
- ٣ - د. عبد المعطي عساف، النموذج المتكامل لدراسة الإدارة العامة - إطار عام مقارن، (الأردن - الزرقاء، شركة القاهرة التجارية، ١٩٨٢م).
- ٤ - د. عبد المعطي عساف، التنظيم الإداري في المملكة العربية السعودية (السعودية، الرياض، دار العلوم، ١٩٨٨م).
- ٥ - د. أحمد رشيد، الإدارة المحلية في المملكة العربية السعودية، (السعودية، الرياض، عكاظ، ١٩٨١م).
- ٦ - د. علي شريف، الإدارة العامة - مدخل الأنظمة، (لبنان، بيروت، دار النهضة العربية، ١٩٨٠م).
- ٧ - د. عبد الكريم درويش، د. ليلا تكلّا، أصول الإدارة العامة، (القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٨٣م).
- ٨ - د. أمين ساعني، الإدارة العامة في المملكة العربية السعودية (القاهرة: مطبعة نضرة مصر، ١٩٨٤م) ص ١٨٠ - ٢٠٢.
- ٩ - د. علي الجهمي ونخبة من علماء الإدارة العامة بجامعة الملك عبدالعزيز بجدة، قراءات في الإدارة العامة (القاهرة: مطبعة المدني، ١٩٨٢/٨١).
- ١٠ - د. علي الحسيبي، الإدارة العامة (القاهرة: مكتبة عين شمس، ١٩٨٣م). ص ٦٢ - ص ٨٠.
- ١١ - محمد توفيق صادق، تطور الحكم والإدارة في المملكة العربية السعودية، (الرياض: معهد الإدارة العامة، ١٩٦٥) ص ٢٢ - ٢٦.
- ١٢ - نظام المقاطعات والبلديات السعودي، مرسوم ملكي رقم ١٢ بتاريخ ١٣٨٣/٥/٢١ هجري للمادة رقم ١٣ فقرة ب .

مختصر شرح أمثلة سيويه للجواليقي

«عرض وتحليل»

د. / دفع الله عبدالله سليمان

أولاً/ تعريف موجز بمصر المؤلف :

إن مؤلف هذه المخطوطة هو أبو منصور موهوب الجواليقي ، الذي عاصر الدولة السلجوقية ، التي تقلدت زمام الأمور في بغداد بعد الدولة البويهية عام ١٠٥٥هـ / ١٠٥٥م .



وقد أسس السلالة المدارس لنشر الدين الإسلامي ، ومن تلك المدارس المدرسة النظامية التي بناها نظام الملك السلجوقي .

وبالإضافة إلى هذه المدارس كانت هناك المساجد التي ساعدت في نشر الثقافة ، إذ كانت ملتقى لكثير من الطلاب والعلماء الذين كانوا يقومون بتدريس العلوم المختلفة من أدب ونحو ولغة وحديث وفقه كما كان للمكتبات العامة والخاصة أثر في نشر الثقافة أيضاً^(١) . وقد أدى ذلك كله إلى ظهور كثير من العلماء في العلوم المختلفة^(٢) .

ومن علماء ذلك العصر أبو منصور موهوب الجواليقي الذي برز في ميدان اللغة ، وتناولت مؤلفاته قضايا لغوية مهمة .

هو أبو منصور موهوب بن أحمد بن محمد الخضر الجوالقي^(٣)، يتسبب إلى أسرة مشهورة بتدنيها، ومن هنا جاء تمسكه بالدين ومحافظة على التقاليد. ويبدو أن بعضاً من أجداده كان يصنع أو يبيع الجواليق، ولهذا لُقّب بالجوالقي^(٤).

وقد ولد بمدينة بغداد سنة خمس وستين وأربعمائة من الهجرة^(٥) وقيل سنة ست وستين وأربعمائة من الهجرة^(٦).

وقد اختلف المؤرخون في السنة التي توفي فيها، كما اختلفوا في السنة التي ولد فيها، فمنهم من يرى أنه توفي سنة تسع وثلاثين وخمسمائة من الهجرة^(٧)، ومنهم من يرى أنه توفي في سنة أربعين وخمسمائة من الهجرة^(٨).

كان أبو منصور الجوالقي يرى رأي الخنابلة وقد اشتهر بالتواضع وكثرة الفضل^(٩)، وكان ثقة صدوقاً محبوباً لدى الناس في عصره، لما كان يتمتع به من أخلاق عالية وسيرة حسنة، وعلى الرغم من ذكائه وتوقد ذهنه وحضور بديته فقد اشتهر بعدم طلاقة اللسان إذ كان فيه لكمة^(١٠).

كان الجوالقي منذ نعومة أظفاره قد انصرف إلى العلم وإلى الإلتقاء بعلماء عصره يجالسهم ويواظب على حلقاتهم ويعبّ من منهلهم العذب. وقد أخذ عنهم علوم اللغة العربيّة وأتقنها حتى اكتملت شخصيته، وأصبحت ثقافته اللغوية والأدبية واسعة الأمر الذي جعل المؤرخين يثنون عليه ثناء عاطراً، فمنهم من عدّه من كبار أهل العلم^(١١)، ومنهم من أشار إلى أنه^(١٢) (كان إماماً في فنون الأدب وهو من مفاخر بغداد، ومنهم من أضاف إلى ذلك أنه^(١٣) إمام في اللغة والنحو والأدب).

ومنهم من قال: (كان من مفاخر بغداد بل العراق، وانتشر ذكره وشاع في الآفاق، وقرأ عليه أكثر فضلاء بغداد) إلى غير ذلك من الآراء التي تدلّ على منزلة الجوالقي العلمية الرفيعة وتشير إلى ثقافته الواسعة، وإلى إلمامه بكثير من العلوم، وإن كان الميدان الذي برز فيه وفاق فيه أقرانه هو ميدان اللغة، ولهذا قال عنه ابن تغري بردي^(١٤) «وانتهى إليه علم اللغة، وكان غزير العلم».

وبالإضافة إلى ذلك كان ينظم — على قلة — الشعر ، قال ابن خلكان^(١٧) : «وينسب إليه بعض من الشعر قليل ، فمن ذلك ما رأيت منسوباً إليه في بعض المجميع ولم أتحققه له ، وهو :
ورَدَ الورى سلسالَ جودِك فارتووا ووقفت خلفَ الورِدِ وقفةَ حائم
حيرانَ أطلُبُ غفلةً من واري والوردُ لايزدادُ غيرَ تزاحم
كما كان حسن الخط ، قال عنه ابن خلكان^(١٨) :

«وخطّه مرغوب فيه ، يتنافس النَّاسُ في تحصيله والمغالاة فيه» ، وقال عنه ياقوت في هذا الصدد^(١٩) : «كان مليح الخط يتنافس النَّاسُ في تحصيله والمغالاة به» .

كما حفلت مجالسه بالمتناظرات ومناقشة المسائل ذات الفائدة القصوى ، والتي توضح مدى ماكان يتمتع به الجوالقي من علم غزير وأدب جم .

وما يدلّ على منزلة الجوالقي العلميّة الرفيعة إسناد ولاية الأمور إليه التدريس بالمدرسة النظاميّة^(٢٠) التي لا يقوم بالتدريس بها إلا من وصل مرحلة علمية معينة ، وفاق أقرانه في العلم والأدب . ولهذا وجد التقدير اللائق به من بعض الخلقاء وبوجه خاص من المفتي الخليفة العباسي ، الذي قرّبه وخصّه بإمامته في الصلاة ، كما كان يقرأ عليه بعض الكتب^(٢١) ، وكان المفتي يفضّله على غيره .

وما يدلّ على علم الجوالقي الغزير أنّ الحريري — عندما قدم إلى بغداد قرأ عليه بعضاً من مقاماته .

ولم تكن ثقافة الجوالقي منحصرة في اللّغة ، وإنّما كانت ثقافته واسعة شملت جميع العلوم . ومن تلك العلوم علم النّحو الذي ألّف فيه كتاباً سمّاه «المختصر في علم النّحو»^(٢٢) . كما كانت إجاباته عن الأسئلة النّحوية التي كانت تعرض له في مجالسه تدلّ على حذقه لهذا العلم^(٢٣) .

ونجده في شرحه لكتاب أدب الكاتب لابن قتيبة يهتمّ بالإعراب ويتحدّث عن عمل بعض الحروف والأدوات ، كما نجده يتعرّض لبعض المسائل الصرفيّة كالتّصغير والميزان الصرفي ، والإعلال والإبدال . من ذلك قوله عن كلمة زكاة «أصلها زَكوةٌ على : فَعَلَة ، فقلبت الواو ألفاً لتحريكها وانفتاح ما قبلها»^(٢٤) .

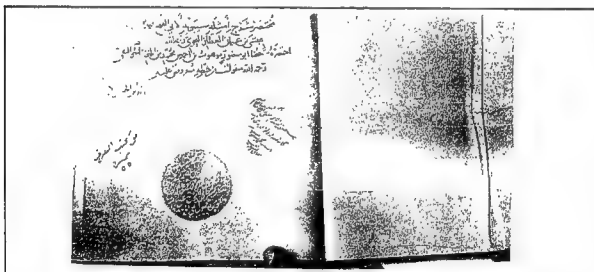
والجوالقي وإن كان بصريّ المذهب نجده يقف أحياناً مع الكوفيين ، من ذلك مساندته لتعلب الكوفي في المحاوراة التي جرت بينه وبين الرّجاج البصري ، كما كان يذهب إلى أنّ الاسم بعد (لولا) يرتفع بها موافقاً بذلك مذهب إليه الكوفيون^(٢٥) . كما كان يرى أنّ الألف واللام في (نعم الرجل) للعهد على خلاف مذهب إليه الجماعة من أنّها للجنس لا للعهد^(٢٦) .

وليس معنى ذلك أنّه تخلّى عن مذهبه البصري ، وإنّما نجده يقف مؤيداً له في معظم الأحوال ، فمثلاً في الاختلاف الذي حدث بين البصريين والكوفيين في (الواو والألف والياء) في باب التثنية والجمع : هل هي حروف إعراب أم هي تنوب عن الضمة والفتحة والكسرة ، نجده يساند البصريين في أنّها علامات إعراب .

كما نجده يؤيّدهم في أنّ المبتدأ مرفوع بالإبتداء بخلاف ذلك الكوفيّين الذين يرون أنّ المبتدأ مرفوع بالخبر .

ومهما يكن فإنّ هذا كله يدل على تمكّن الجوالقي في علم النحو ومعرفته بأسراره .

كما كان الجوالقي كثير العناية بالرواية وله إلمام واسع بالقراءات ولهذا نجده يستشهد ببعضها في مؤلفاته . من ذلك استشهاده بقراءة أبي عمرو (لاجرم أنّ لهم النار) على وزن



الوحة الأولى من المخطوطة (مختصر شرح الأمثلة) - وعليها الآتي :

- ١ - اسم المخطوطة وهو: مختصر شرح أمثلة سيويه.
- ٢ - اسم مؤلفها وهو: أبو منصور موهوب الجوالقي.
- ٣ - اسم ناسخها وهو: زيد بن الحسن الكندي الذي كان تلميذاً للجوالقي، وقد توفي سنة ٦١٣هـ (أنظر ترجمته في بنية الوعاة للسيوطي ج ١ - ٥٧٠ - ٥٧١).

«لاكرّم» ومن ذلك استشهاده بقراءة عروة بن الزبير في قوله تعالى: (ماودّعك ربك) بتخفيف الدال (٢٧).

كلّ هذا وغيره يوضح مدى ماوصل إليه الجواليقي من ثقافة واسعة وإلمام كبير بالعلوم المختلفة ، الأمر الذي جعله يجالس علماء عصره ، ويناقشهم ويردّ على أسئلتهم في ثقة تامة ، وإجابات مقنعة .

التقى الجواليقي

التقى الجواليقي بكثير من علماء عصره وأخذ عنهم ، منهم :

١ - أبو الفرج محمد بن الحسن بن الحسين ، القاضي البصري وكان الأدب من العلوم التي أخذها عنه الجواليقي (٢٨).

٢ - التبريزي : أبو زكريا يحيى بن محمد الشيباني - تتلمذ على أبي العلا المعري ، وكان إماماً في اللغة والأدب ، قام بشرح المعلقات والمفضليات والحجاسة وسقط الزند - وديوان المتنبي ومقصورة ابن دريد .

٣ - أبو سعد العلاء بن الحسن بن وهب - كان من الكتاب المشهورين المشهود لهم بالفصاحة والبلاغة (٢٩).

٤ - أبو طاهر بن أبي الصقر الأنباري ، واسمه محمد بن أحمد بن محمد بن إسماعيل اللخمي الخطيب ، يقال : إن الخطيب البغدادي روى عنه (٣٠).

اشتهر الجواليقي

اشتهر الجواليقي بعلمه الغزير وأدبه الجم ، لذا أقبل الطلاب على دروسه ومجالسه ، أخذ عنه بعض من كبار العلماء منهم :

١ - أبو البركات بن الأنباري كمال الدين عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله (٣١) مؤلف كتاب «الإنصاف في مسائل الخلاف» وكتاب «نزهة الألباء في طبقات الأدباء» .

٢ - أبو سعد السمعاني الحافظ عبد الكريم بن محمد بن منصور صاحب كتاب الأنساب .

٣- أبو الفرج الحافظ عبد الرحمن بن علي بن محمد المعروف بابن الجوزي (٣٢٧).

مؤلفاته

أشار كثير من المؤرخين إلى أن ذكر الجواليقي قد انتشر وشاع في الآفاق، وذلك لأنه ترك مصنفات مهمة تميّزت بالدراسات العميقة الجادة، منها ما وصل إلينا وطبع، ومنها الذي مازال مخطوطاً ومن مؤلفاته مايلي :-

١- العرب من الكلام الأعجمي على حروف المعجم (٣٣٧).

٢- شرح أدب الكاتب لابن قتيبة (٣٤٤).

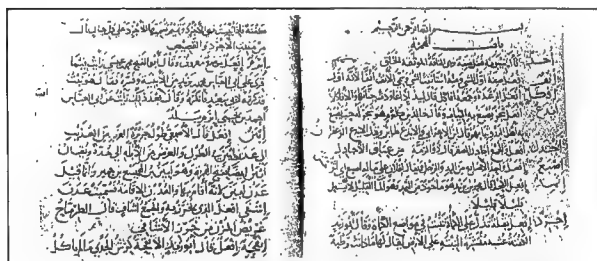
٣- تكملة ماتغلط فيه العامة (٣٥٥).

٤- ماجاء على فعلت وأفعلت بمعنى واحد (٣٦١).

٥- كتاب مختصر النحو (٣٧٧).

٦- شرح مقصورة ابن دريد (٣٨٨).

٧- مختصر صحاح اللغة للجوهري (٣٩٩).



اللوحة الثانية تمثل بداية المخطوطة (باب المصروف) ويبدأ بكلمة (أجد).

ويلاحظ أن ترتيب المؤلف للكلمات كان على أوائل الكلمات، ولكنه لم يراع في ترتيبه الحرف الثاني ولا الثالث ولا الرابع الخ. وبمعنى آخر: لم يراع ترتيب الكلمة الدخالي. ويبدو أن ترتيبه هذا كان على ترتيب ذكر الكلمة في كتاب سيبويه.

٨ - غلط الضعفاء من الفقهاء^(٤٠).

٩ - مختصر شرح أمثلة سيبويه . وهي المخطوطة التي نحن بصدد الحديث عنها .

باللغة / التعريف بالمخطوطة

أ/ اسمها : ورد اسم المخطوطة في اللوحة الأولى كما يلي :

«مختصر شرح أمثلة سيبويه لأبي الفتح محمد بن عيسى عثمان العطار النحوي رحمه الله - اختصره شيخنا أبو منصور موهوب بن أحمد بن محمد بن الخضر الجواليقي - رحمه الله منقول من خطه ، معروض عليه» .

يتضح من هذا أنّ هذه المخطوطة مختصر لكتاب آخر يُسمّى شرح أمثلة سيبويه لأبي الفتح محمد بن عيسى عثمان العطار ، ولكنني لم أعثر على هذا الشرح ، كما لم أجد المصادر التي أشارت إليه ، ولم أجد كتب التراجم ترجمت لمؤلف هذا الشرح اللهم إلا السيوطي في كتابه «بغية الوعاة»^(٤١) فقد كتب عنه مالا يربو على سطرين أشار فيهما إلى اسمه وإلى أنّه أخذ عن السيرافي .

أما المخطوطة التي تعتبر مختصراً لهذا الشرح فهي للجواليقي لم أجد - أيضاً - ذكراً لهذه المخطوطة في كتب التراجم التي ترجمت للجواليقي ، كما لم أجد إشارة لها في المصادر التي أرّخت للكتب والفنون .

ومن هنا جاءت أهمية المخطوطة (مختصر شرح أمثلة سيبويه) لأنّها لم تكن معروفة لدى كثير من العلماء .

ب / وصفها

١ - عثرت على نسخة من هذه المخطوطة بمكتبة جامعة الملك سعود قسم المخطوطات (رقم ١٧٢ ص) - كما حصلت على نسخة مصوّرة من النسخة الأصلية بمكتبة عارف حكمت بالمدينة المنورة (رقم ٥٢ صفحة) ، ولكنني لم أعثر على نسخة أخرى مغايرة للأولى بالكتابات الأخرى ، ولهذا فهي تعتبر النسخة الوحيدة ، ومن هنا جاءت أهميتها .

٢ - كتبت المخطوطة بخط نسخي حسن ، وورقها جيّد وتحتوي على ثلاث وخمسين لوحة ، واللّوحة عبارة عن صفحتين ، وطول الصّفحة - تقريباً - ثلاثة وعشرون ستمتراً ونصف ستمتر وعرضها ثمانية عشر ستمتراً ، وبالصّفحة حوالي ثلاثة عشر سطرًا .

٣ - تبدأ الصّفحة الأولى من المخطوطة بذكر العنوان ، يلي ذلك البدء بباب الهمة فباب الباء فباب التاء إلى باب الباء الذي يعقبه بقوله^(٤٢) : «تَمَّ شرح الأبنية بحمد الله ومنه» .

ثمّ يلي ذلك : «ذكر مازعموا أنّه فات سيويه من الأبنية» ، ويبدأ ذلك من اللّوحة رقم (٥١) إلى اللّوحة رقم (٥٣) إلى أن تنتهي المخطوطة بقوله^(٤٣) :

«والحمد لله ربّ العالمين وصلواته على سيدنا محمد وعلى آله الطاهرين - قوبلت بالأصل» .

٤ - ليس بالمخطوطة هامش .

٥ - المخطوطة ضمن مجموعة مخطوطات ثلاث بمكتبة عارف حكمت بالمدينة المنورة .

أما المخطوطة الثّانية فهي كتاب : تفسير غريب الأبنية من كتاب سيويه ، رواية أبي محمد عبدالله بن محمد بن قتيبة المتوفى سنة ٢٧٦هـ بالبصرة .

وأما الثّالثة فهي بعنوان : كتاب أبنية الأسماء والأفعال والحروف ، تأليف أبي بكر محمّد بن الحسن الزبيدي .

أما المخطوطة التي نحن بصدها فهي : مختصر شرح أمثلة سيويه فلا يوجد في أولها أو آخرها ما يشير إلى تاريخ نسخها وإنما جاء في عنوانها أنّها منقولة من خط الجواليقي نفسه ومقروءة عليه وقد ورد في الصفحات (١٠ ، ٢٠ ، ٣٠ ، ٤٠ ، ٥٠ ، ٥٣) أنّها قوبلت بالأصل ، كما ورد بعد عنوانها اسم شخص هو : زيد بن الحسن الكندي ، ويبدو أنّه هو الذي نقلها من خط الجواليقي نفسه ، لأنّه كان - كما أشار السيوطي^(٤٤) - تلميذاً للجواليقي ، وقد توفى سنة ثلاث عشرة وستائة . ويتضح من هذا أنّها كتبت في القرن السابع الهجري .

١ - إنّ الكلمات التي حوتها هذه المخطوطة تزيد على ثمانمائة كلمة ، قسمت إلى أبواب ،

ونلاحظ أنَّ عدد الكلمات المنصوية تحت كل باب تختلف عدداً من باب إلى آخر ، فمثلاً عدد الكلمات تحت باب (الهمزة) خمس وثلاثون كلمة ، بينما نجدها في باب الراء مثلاً واحداً ، وفي باب الظاء نجدها كلمتين وفي باب الباء نجدها ثلاثين كلمة ، بينما في باب الواو ست كلمات وهكذا .

وبالطبع هذه ليست كل الكلمات التي مثل بها سيويو في كتابه في موضوع الأبنية ، ولا أدري ما الذي نقله العطار صاحب الشرح ، لأن شرحه لم يصل إلينا . ويبدو أنَّ الجواليقي اختصرها واختار منها هذه الكلمات الموجودة بالمخطوطة ، ولكن لا أدري كيف تمَّ اختياره لهذه الكلمات هل لغرابتها ؟ أم لشيء آخر ؟ .

وقد رتب هذه الكلمات حسب الحروف الهجائية ، ووضع لها أبواباً سماها : باب الهمزة ، وباب الباء ، والراء والثاء ، والجيم ، والحاء والهاء ، وهكذا إلى الباء . ولكنَّ الملاحظ أنَّ ترتيبه كان على أوائل الكلمات فقط ، فلم يراع في ترتيبه الحرف الثاني ولا الثالث ولا الرابع كغيره من أصحاب المعجمات ، فمثلاً في باب الذال نجده رتب الكلمات هكذا^(٤٥) :
ذَرَّاحُ — ذَفَّارِي — ذُبَّيَان — ذَهِيَّوْط .

بينما الترتيب المتبع في كتب المعاجم هكذا :
ذُبَّيَان ، ذَرَّاحُ ، ذَفَّارِي ، ذَهِيَّوْط .

وإذا نظرنا إلى باب الغين مثلاً نجده رتب كلماته على النحو التالي^(٤٦) :
غَرَّائِر ، غَيْلِم ، غَطَّشِي ، غَعْدَاق ، غُمَدَان ، غُسْلِين ، غُرْنِيْق ، غَلْفَقِيْق ، غَلْفَق ، غَطْمَش ،
بينما الترتيب المتبع في كتب المعاجم هكذا :
غَرَّائِر ، غُرْنِيْق ، غُسْلِين ، غَطَّشِي ، غَطْمَش ، غَلْفَق ، غَلْفَقِيْق ، غمدان ، غَيْلِم ، غَعْدَاق .

وهكذا في جميع الأبواب نجده يتقيد بترتيب الحرف الأول ولم يراع ترتيب الكلمة الداخلي ، وقد ظهر لي أنَّ ترتيبه في داخل الباب هذا كان على ترتيب ذِكْرِ الكلمة في كتاب سيويو .

٢ — وبعد أن يضع الكلمة في بابها نجده يُعَنِّي بوزنها ، والأوزان التي ذكرها كثيرة منها الثلاثي

ومنها الرباعي ومنها الخراسي ومنها السداسي ، فمثلاً من الأوزان التي وردت في باب
الهمزة الأوزان الآتية :

١/ فَعَلَ ، نحو أَجُدْ ، وَأُفْ ، ٢/ وَأَفْعَلْ ، نحو أَفْكَلْ وَأَيْدَعْ وَأَجْدَلْ . ٣/ وإِفْعَالٌ ،
نحو إِعْصَارٌ وَإِسْنَامٌ وَإِسْلَامٌ وَإِسْكَافٌ .

٤/ إِفْعِيلٌ ، نحو إِسْلِيحٌ وَإِخْرِيطٌ وَإِكْلِيلٌ وَإِصْلِيَّتٌ وَإِجْفِيلٌ .

٥/ أَفْعُولٌ ، نحو أَشْلُوبٌ وَأَخْذُودٌ وَأَرْكُوبٌ وَأَمْلُودٌ وَأُسْكُوبٌ وَأَفْتُونٌ .

٦/ أَفَاعِلٌ ، نحو أَذَابِرٌ وَأَجَارِدٌ وَأَبَاتِرٌ ..

٧/ أَفَاعِيلٌ ، نحو أَفَاطِيحٌ . ٨/ أَفْعَلٌ ، نحو أَلْتَجِحُ وَأَلْتَذِدُ .

٩/ أَفْعَلِيٌّ ، نحو أَجْفَلِيٌّ . ١٠/ أَفْعَلَةٌ ، نحو أَسْطَمَةٌ .

١١/ إِفْعَلَةٌ ، نحو إِزْفَلَةٌ . ١٢/ أَفْعِلَاءٌ ، نحو أَرْبِعَاءٌ .

١٣/ فَعَلٌ ، نحو أَرْطَى . ١٤/ أَفْعِلَانٌ ، نحو أَرْوَانٌ .

١٥/ فَعَلٌ ، نحن أَجَلٌ . ١٦/ فَعُلٌ ، نحو أَرَى وَأُدْمَى .

١٧/ فِعْلَةٌ ، نحو إِمْعَةٌ . ١٨/ إِفْعَالٌ ، نحو إِشْهَابٌ .

١٩/ أَفْعَوْعَلٌ ، نحو أَغْدُوْدَنٌ وَادْلُولِي . ٢٠/ أَفْعُولٌ ، نحو أَغْلُوْطٌ .

٢١/ أَفْعَنْلٌ ، نحو إِفْعَنْسَسَ . ٢٢/ أَفْعَنْلِيٌّ ، نحو اسْلَنْقِي وَاحْرَنْبِي .

وهكذا نجده يذكر الكلمة ووزنها ، ويتبع ذلك في جميع الأبواب . هناك بعض الكلمات
يحتاج وزنها إلى توضيح ، فربما — يكون في الكلمة إعلال يحتاج إلى توضيح ولكننا نجده لا
يفعل ذلك ، مثل كلمة «أَيٌّ» أنظر إليه حين يقول عنها^(٤٧) :

«أَيٌّ» : فُعُولٌ ، قال الجريمي : الأَيُّ : فعول ، مجرى الماء وقال بعضهم بفتح الهمزة ، وهما
لغتان ، وقال الأصمعي : الأَيُّ : الرجل يكون في القوم ليس منهم «نجد الجواليقي في النص
السابق ينقل وزن سيبويه لكلمة (أَيٌّ) وهو فعول دون أن يوضح ماحدث في الكلمة من
إعلال ، لأن (أَيٌّ) أصلها (أَتَوَى) فحدث في الكلمة إعلال ، فيقولون : اجتمعت الواو والياء

في كلمة وسبقت إحداهما بالسكون فقلبت الواو ياء وأدغمت الياء في الياء فصارت (أَيَّ).
ومثل كلمة (تَتَرَى) يزنها بقوله^(٤٨): «فَعَلَى من الوتر دون أن يشير إلى أَنَّ الواو تقلب تاء إذا كانت فاء .

وقد وضح شارح الشافية هذا بقوله^(٤٩): «اعلم أَنَّ التاء قريبة من الواو في المخرج ، لكون التاء في أصول الثنايا والواو من الشفتين ويجمعهما الهمس ، فتقع التاء بدلاً منها كثيراً لكنه مع ذلك غير مطرد إلا في (افتعل) لما يجيء نحو ثرات وتولج وتترى من المواترة . . » كما نجد بعض الكلمات لها أكثر من وزن فنجدها يذكر أوزانها دون أن يوضح الأساس الذي أدى إلى اختلاف أوزانها ، فمثلاً كلمة «أَثْفِيَّة» يذكر لها وزنين: أحدهما فُعْلِيَّة والثاني أَفْعُولَةٌ ، ولا يوضح ذلك ، ويذكر لجمعها (أَثَافٍ ، وزنين كذلك هما «أَفَاعِل ، وفعال»^(٥٠) ولا يوضح ذلك .

أنظر إلى البطليوسي في كتابه «الحلل في شرح أبيات الجمل» كيف وضح وزن هذه الكلمة حين قال^(٥١):

«وأصل (أَثَافٍ) التشديد ، ولكن استعمالها خففة أكثر على السنة العرب . ويروى بيت زهير مشدداً وخففاً :

أَثَافِي سُفْعاً في معرّس مِرْجَل ونُؤْيَا كجِذم الحوض لم يَتَلَم
ويقال للواحد من (الأثافي): أَثْفِيَّة بضم الهمزة وإثفية بكسرهما واختلف النحويون في وزنها :

فقال بعضهم: وزنها (أفعولة) أصلها: إثفوية ، ثم قلبت الواو ياء ، وأدغمت في الياء ، وكسرت الفاء من أجل الياء ، واستدلوا بأن الهمزة زائدة بقول العرب: ثَفَيْتُ القدر إذا جعلتها فوق الأثافي ويقولهم: امرأة مثفاة: وهي التي كان لها ثلاثة أزواج شبهوها بالأثافي ، ويقول الكميت :

«وما استنزلت في غيرنا قدر جارنا ولا تُفَيْتُ إلا بنا حين تَنْصَب
وقال بعضهم : وزنها (فعلية) ، والهمزة أصلية ، واستدلوا على ذلك بقول النابغة :

لا تقصِدُني بركن لاكفاء له وإن تأثَّفَكَ الأعداء بالرفد
 فوزن (تأثَّفَكَ) : تفعلك ، ولو كان من (ثفيت) لقال أثَّفاك ، ومن حجتهم أنه يقال :
 أثَّفَت الرجل أثفاً إذا ابتغيته ، وهي من مسائل البصريين المشكلة وتقتضي كلاماً أكثر من هذا
 ولكن ليس هذا موضعه) .

ومن تلك الكلمات كلمة (أَوَّلَقُ) فقد مرَّ عليها الجواليقي سريعاً حين قال (٥٢) :
 «أَوَّلَقُ : قَوَّلَ صَرَبٌ مِنَ الْجُنُونِ» .

أما ابن جني في كتابه الخصائص فنجدّه يفضِّل الأمر حين قال (٥٣) :
 «الرابع (ولق) قالوا : وَلَقِيَ يَلْقَى ، إذا أسرع .

قال : جاءت به عنس من الشام تلقى . أي تخف وتسرع «وقرى» إذ تلقونه بالسنتكم «أي
 تخفون وتسرعون ، وعلى هذا فقد يمكن أن يكون الأولق (فوعلا) من هذا اللَّفْظ ، وأن يكون
 أيضاً أفعال منه . فإذا كان (أفعل) فأمره ظاهر ، وإن سميت به لم تصرفه معرفة ، وإن كان
 (فوعلا) فاصله : «وولق ، فلما التقت الواوان في أول الكلمة أبدلت الأولى همزة ، لاستثاقها
 أولاً كقولك في تحقير واصل : أو يصل ، ولو سميت بأولق على هذا لصرفته . والذي حملته
 الجماعة عليه أنه «فوعل» من تالق البرق إذ خفق ، وذلك لأنَّ الخفوق مما يصحبه الانزعاج
 والاضطراب . على أن أبا إسحاق قد كان يميز فيه أن يكون «أفعل» من ولق يلقى .
 والوجه ماعليه الكافة : من كونه فوعلا من (أ ل ق) وهو قولهم (ألقى الرجل فهو مألوق) ألا
 ترى إلى إنشاد أبي يزيد فيه :

تراقب عيناها القطيعَ كأنما يُخَالِطُهَا مِنْ مَسِّهِ مَنْ أَوْلَقِ
 وقد تكون في الكلمة زيادة ، فيحتاج الأمر إلى توضيحها : هل الزيادة للإلحاق أم لغيره ،
 مثل ذلك كلمة (ألندد) فنجد صاحب المخطوطة يقول عنها (٥٤) :

«الْأَنْدَدُ : أَفْتَعَلَ صفة : الرَّجُلُ الشَّدِيدُ الْخُصُومَةِ يُقَالُ : لَدَدْتُه أَلَدَهُ لَدًّا : غَلَبْتُهُ
 بِالْخُصُومَةِ» ، فالجواليقي لم يوضح نوع هذه الزيادة ولكننا نجد ابن جني فصل ذلك (٥٥) .

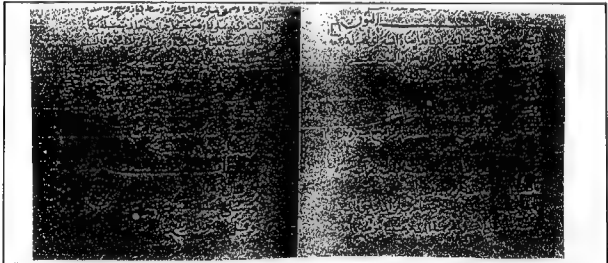
وهناك كلمات كثيرة يذكر وزنها دون أن يوضح حروف الزيادة فيها ، ودون أن يوضح

ماحدث بها من إعلال أو إبدال ، ودون أن يوضح ما إذا كان هناك وزن آخر للكلمة اللهم إلا في بعض الكلمات فيوضح ذلك كما في كلمة (عناكب) حين يقول عنها^(٥٦) :

«عَنَّاكِب : ذَكَرَهُ سَبِيوِيه فِي مَوْضِعَيْن ، فَقَالَ عَنَّاكِب : فَنَاعِل — وَقَالَ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ : فَعَالِل ، وَالتَّحْوِيُونَ كُلَّهُمْ يَقُولُونَ : عَنَكَبُوتُ فَعَلَّلُوت . فَعَلَّ الْقَوْلُ الْأَوَّلُ تَكُونُ النُّونُ زَائِدَةً فَيَكُونُ اسْتِقَافُهُ مِنَ الْغَلْظِ ، يَقَالُ أَمَةُ عَنَكَبَاءُ ، وَرَجُلٌ عَنَكَب : غَلِيظُ الشَّفَتَيْنِ ، يَقَالُ الْعَنَكَبُوتُ وَالْعَنَكَبَاءُ وَالْعَنَكَبُ .»

٣ — وبعد أن يذكر وزن الكلمة نجده يشير إلى أنها اسم أو صفة ولكنه لا يتقيد بذلك تقيداً تاماً ، على الرغم من أن سيبويه تقيد بذلك .

٤ — شرح الكلمة : بعد أن يذكر وزن الكلمة وهل هي اسم أم صفة نجده يشرح الكلمة شرحاً موجزاً ، وهو بذلك يختلف عن أصحاب المعاجم الذين يفيضون في شرح الكلمة ، ويوضحون معانيها ، ونجده يدعم المعنى الذي يأتي به بالقرآن وبالشعر وبأقوال اللغويين وبالأمثال . وهكذا ينهج نهجاً علمياً صحيحاً ، ونضرب لذلك بأمثلة من شرحه للكلمات :



اللوحه رقم ٤٧ تمثل الآتي :

(١) باب النون .

(٢) بداية باب الواو .

ويلاحظ أن المؤلف ذكر باب الواو قبل باب الهاء .

أُبَاتِرُ^(٥٧): أَفَاعِلٌ، صفة: الْقَصِيرُ عن الجَرْمَى، وَقَالَ غَيْرُهُ: الَّذِي يَبْتَزُّ رَحِمَهُ - يَقْطَعُهَا
وَقَالَ أَبُو الْعَبَّاسِ: أَبَاتَرُ: مَكَانٌ، قَالَ ابْنُ مَقْبِلٍ:

جَزَى اللَّهُ سَعْدًا بِالْأَبَاتِرِ نِعْمَةً وَحَيًّا يَهُودَ جَزَى اللَّهُ أَسْعَدًا
أَجْفَلَى^(٥٨): أَفْعَلَى: الْجَمَاعَاتُ، يُقَالُ أَجْفَلَى وَجَفَلَى، قَالَ طَرَفَةُ:

نَحْنُ فِي الْمَشْتَاتِ نَدْعُو الْجَفَلَى

اِزْمُولُ^(٥٩): إِفْعُولٌ، صفة، قَالَ الْجَرْمَى: اِإِزْمُولُ الضَّعِيفُ، وَحَكَى ذَلِكَ عَنْ أَبِي
عَبِيدَةَ وَالْأَصْمَعِيِّ، وَقَالَ غَيْرُهُ: اِالِزْمُولُ: الضَّخْمُ، وَحَكَى أَبُو عَمْرٍو الشَّيْبَانِي: اِالْزَمُولَةُ:
بِضْمِ الْهَمْزَةِ، وَفَسَّرَهُ الْمَصَوِّتُ مِنَ الْوُعُولِ وَغَيْرِهَا.

تَبَرَّبَرُ^(٦٠): فَعْلَلٌ، قَالَ أَبُو عَبِيدَةَ يَقُولُونَ: مَا أَصَبْتُ مِنْهُ حَبْرَبَرًا وَلَا تَبَرَبَرًا وَلَا
حَوْرَوْرًا، أَيُ لَمْ أَصَبْ مِنْهُ شَيْئًا.

شَامِلُ^(٦١): فَاعِلٌ، وَشَمَالٌ: فِعَالٌ، صفة: الرِّيحُ الشَّمَالُ. قَالَ اامِرُؤُ الْقَيْسِ:

«..... مِنْ جَنُوبٍ وَشَمَالٍ»

وَرَبَّمَا يَكُونُ فِي الْكَلِمَةِ أَكْثَرُ مِنْ لُغَةٍ وَاحِدَةٍ فَنَجِدُهُ يَوْضَحُ ذَلِكَ أَنْظِرْ إِلَيْهِ كَيْفَ عَالَجَ ذَلِكَ فِي
الْكَلِمَاتِ الْآتِيَةِ:

اِنْتَبَهَ^(٦٢): اِفْعَلٌ: الْعَوْدُ الَّذِي يُتَبَخَّرُ بِهِ، وَفِيهِ أَرْبَعُ لُغَاتٍ: اِنْتَجَحَ، وَيَلْتَجِحُ،
وَالْتَجُوجُ، قَالَ أَبُو الْفَتْحِ، وَفِيهِ لُغَةٌ خَامِسَةٌ لِّلْجُوجِ.

اِنْفَحَ^(٦٤): اِفْعَلٌ، قَالَ أَبُو زَيْدٍ: اِلْاِنْفَحَةُ: كَرَشُ الْجَدْيِ مَا لَمْ يَأْكُلْ، فَلِذَا أَكَلَ فِيهَا
اِلْكَرْشُ، وَحَكَى فِيهَا: اِلْنَفْحَةُ، وَاِنْفِخَةُ وَاِنْفِخَةُ بِكَسْرِ الْفَاءِ وَفَتْحُهَا وَالتَّخْفِيفِ وَالتَّشْدِيدِ.
وَيُقَالُ: مِئْفَحَةٌ.

تُبِعَ^(٦٥): فُعِلَ، الظَّلَّ، وَفِيهِ لُغَتَانِ: تُبِعَ، وَتُبِعَ.

تُحْلَبَةُ^(٦٦): تَفْعَلَةٌ، صفة الناقاة، والعنقا، التي تُحْلَبُ قَبْلَ أَنْ يَضْرِبَهَا الْفَحْلُ، وَفِيهَا
لُغَاتٌ - تُحْلَبَةٌ وَتُحْلَبَةٌ وَتُحْلِبَةٌ وَتُحْلِبَةٌ.

ذَرَّاح^(٦٧) : فَعَاعِل ، جَمْعُ ذَرَحٍ = وَهِيَ دَوِّيَّةٌ لَهَا سُمْ قَاتِلٌ وَفِيهَا لُغَاتٌ : ذَرُوح ، وَذَرَح ، وَذُرْنُوح ، وَذُرْخَرَح .

عَرَّتْنِ^(٦٨) : فَعَنْلَلْ وَعُرَّتْنِ مَحْذُوفٌ مِنْهُ . قَالَ أَبُو حَنِيفَةَ الدِّينَوْرِيُّ هُوَ شَجَرٌ يُدْبِغُ بِعُرُوقِهِ وَتَسْمَى عُرُوقُهُ الْعِرَّةُ . وَفِيهِ لُغَاتٌ : عَرَّتْنِ وَعَرَّتْنُ ، وَعَرَّتْنِ ، وَعَرَّتْنِ .

٥ / إسناد الأقوال إلى أصحابها

قلنا إنَّ الجوالقي يعتمد في شرحه للكلمات على أقوال العلماء الذين سبقوه ، وقد كان نزيهاً في ذلك حيث نجده ينسب هذه الأقوال إلى أصحابها .

ومن علماء اللغة الذين أخذ عنهم : ابن الأعرابي وابن الأنباري ، وابن دريد ، وأبو حاتم السجستاني ، وأبو زيد الأنصاري وأبو عبيدة وأبو عمرو الشيباني . وأبو عمرو بن العلاء . والأصمعي ويعقوب بن السكيب ويونس بن حبيب .

ومن علماء النحو الذين ورد ذكرهم في المخطوطة : ابن السراج ، أبو بكر مبرمان أبو سعيد السيرافي ، أبو علي الفارسي ثعلب ، الجرمي ، الخليل ، سيبويه ، المازني ، المبرد .

وهذا يدلُّ على أمانة الجوالقي واعتماده على العلماء الذين يوثق بهم ، كما يشير إلى نزاهته العلمية وعدم تعصُّبه لمذهبه البصري ، إذ نجده ينقل عن البصريين كما نقل عن الكوفيين . ويأتي أحياناً بأكثر من رأي في شرح الكلمة وفي وزنها - أنظر إليه حين شرح الكلمات السابقة ، وحين يشرح هذه الكلمات وغيرها :

إِبْرَم^(٦٩) : إِفْعَل ، موضع معروف ، وقال أبو الفتح محمد بن عيسى : رأيت فيما قرئ على ابن العباس محمد بن يزيد من الأبنية وفسره فقال : هو بُت ، فذكرته لأبي سعيد فأنكره وقال : بعد ذلك رأيت عن أبي العباس أحمد بن يحيى : إِبْرَم بلد .

تَنَوُّط^(٧٠) : تَفْعَل ، قال أبو حاتم : والتَنَوُّط : التاء مضمومة والواو مكسورة : من طَيْرِ الْبَرِّ هنية سوداء وربما سموها الضوعة ، تعلق عشها في الشجرة الطويلة ، قال أبو عمرو بن العلاء : التَنَوُّط بفتح التاء وضم الواو كما حكى سيبويه ، وقال أبو زيد : التَنَوُّط بضم التاء وكسر الواو .

سُرْحُوبٌ^(٧١): فُقُولُ ، صفة السَّرِيع ، وقيل : الطَّوِيل ، وروى عن الأصمعي قال : سمعت بعض العرب يقول : السرعوب اسم ابن عرس واسم ابن آوى : السَّرْحُوب . طَرِيمٌ^(٧٢) : فَعِيلٌ : صفة ، الطَّوِيلُ ، والطَّرِيمُ : العَمَلُ وجعله رُؤية السَّحاب المَّتْرَاكِمَ . وليس معنى ذلك أَنَّ شخصيته تذوب في أقوال هؤلاء العلماء وإنما نجده أحياناً يفضّل رأياً على رأي ، كما نجده يرجع إلى قول سيبويه مؤيداً له أو معارضاً له ، يتّضح ذلك في شرحه لهذه الكلمات وغيرها :

أَدَابِرُ^(٧٣) ، قال الجواليقي في شرحها : «أَدَابِرُ : أَفَاعِلُ ، الرجل الذي لا يصل رحمه ولا يصل أحدًا ، وعلى هذا التفسير هو صفة وجعله سيبويه اسماً» .

قال سيبويه^(٧٤) : ويكون على أَفَاعِلٍ فيهما ، فالأسماء نحو أَدَابِرٍ وَأَجَارِدٍ وَأَحَامِرٍ وهو في الصفة قليل قالوا رجل أَدَابِرٍ وهو القاطع لرحمه ولا نعلمه جاء وصفاً إلّا هذا .

يتّضح من هذا أَنَّ سيبويه يرى أن (أَدَابِرٍ) لا تكون إلا اسماً وأنّ الجواليقي استنبط من معنى الكلمة أنّها يمكن أن تكون صفة وهو يعترض على سيبويه بذلك .

«ويروى أبو بكر الزبيدي أنّ (أدابر) التي ذكرها سيبويه على أنّها اسم جاءت صفة^(٧٥)» كما جاء في لسان العرب أن الغالب فيها أن تكون صفة وربما تكون اسم موضع . قال السيرافي^(٧٦) : وحكى سيبويه أَدَابِرًا في الأسماء ، ولم يفسره أحد على أنه اسم ، لكنه قد قرنه بأحمار وأجارد وهما موضعان ، فعسى أن يكون أدابر موضعاً «بَلَنْغُنُ : قال سيبويه^(٧٧) : ويكون على (فَعْلُنُ) في الإسم والصفة ، وهذا قليل ، فالإسم نحو : العرضة ، ورجل ذو خلفنة ، والبلغن ، وأما الصفة فقولهم : هذا رجل خلفنة «لم يُشِرْ سيبويه في قوله هذا إلى أن (بلغن) يمكن أن تكون صفة بينما وجدنا الجواليقي أشار إلى ذلك في قوله^(٧٨) :

«بَلَنْغُنُ : فَعْلُنُ : اسمٌ للبلاغة ، وقال محمد الحسن : رجل بَلَنْغُنُ يبلّغ الناس أحاديثَ بعضهم عن بعض ، وهذا صفة وسيبويه جعله اسماً» .

بَلَنْصَى^(٧٩) : جاء في المخطوطة : بَلَنْصَى : فَعَنْلَى طَائِرٌ ، الواحد بَلَنْصُوصٌ ، وقال أبو حاتم : البَلَنْصُ طَائِرٌ أَغْبَرُ طَوِيلُ الذنب قصير المنقار والرجلين ، كثير الصياح صليت الصوت

وجماهه البَلْصُوصُ» .

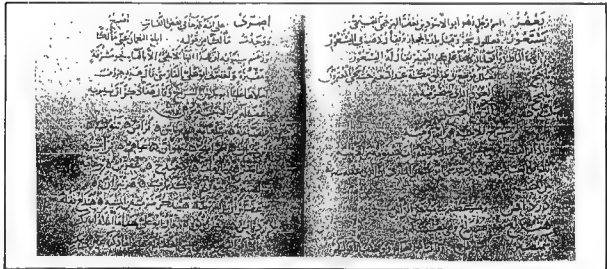
نجد الجوابي نقل قول أبي حاتم ولكنه رد عليه بقوله :

«وهذا خلاف ما حكاه سيبويه لأن سيبويه جعل البَلْصُوصَ جمعاً والواحد بَلْصُوصٌ» . أنظر إلى سيبويه حين يقول ^(٨٠) «ويكون على فَعْلُولَ فيهما فالإسم نحو البَلْصُوصُ والبَعْكُوكُ...» كما قال ^(٨١) «ومن ذلك البَلْصُوصُ لأنك تقول للواحد البَلْصُوصُ» وقد أشار ابن خالديه إلى ذلك بقوله ^(٨٢) : «والبلص : طائر ويقال له : البَلْصُوصُ وينشد :

كالبَلْصُوصِ يَتَّبِعُ البَلْصُوصِ

وبالإضافة إلى عرضه لأراء اللغويين حول معنى الكلمة ، لا ينسى كذلك أن يوضح لنا اختلافهم حول نوعية الكلمة هل هي اسم أو صفة ونجده ينقل ذلك بأمانة ودقة . أنظر إليه حين يشرح الكلمات الآتية :

حَئَائِلُ ^(٨٣) ، فَعَائِلٌ ، جمع حَيْثِلٌ وهو شَجَرٌ ، ورجل حَيْثِلٌ قَصِيرٌ ابن الأعرابي رجلٌ حَيْثِلٌ ضخم الجنتين ، وذكر سيبويه أن هذا البناء لم يجيء في الصفة .



اللّوحة رقم ٥١ تمثل ما يلي :

- ١ - نهاية الأبواب : (باب الياء) وينتهي بكلمة (يَلْتَذُّ).
- ٢ - ثم قوله : ثُمَّ شرح الأبنية بحمد الله ومنه .
- ٣ - البدء في ذكر ما زعموا أنه فلات سيبويه من الأبنية .

عِرْقَان^(٨٤) : فِعْلَان ، قال الجَرْمَى : سمعتُ الأصمعى يقول هو اسمُ رجل ، وقال أبو العباس ثعلب : العِرْقَان : الرجل إذا اعترف بالشئ ودلَّ عليه ، وهذا صفة ، وذكر سيبويه أنه لا يعلم وصفاً .

فَدَوْكُس^(٨٥) : فَعَوَّل ، اسمُ رَجُل ، وقال أبو حاتم الفَدَوْكُس الشديدُ وهذا صفةٌ ، وذكره سيبويه اسماً .

شواهد

تدل كلمة الشاهد على معاني مختلفة ، نجدها في اللغة تعني اللسان ، يقال : لفلان شاهد حسن أي لسان مبين وتعبير حسن . والشاهد — كما قال ابن سيده — العالم الذي يبين ما علمه ، وهو في النحو^(٨٦) «ما يُذكرُ لإثباتِ القاعدة كآية من التنزيل أو قول من أقوال العرب الموثوق بعربيَّتِهِمْ ، والمثال ما يذكر لإيضاح القاعدة وإيصالها إلى فهم المستفيد ، ولو بمثال مصنوع» .

أما شواهد المخطوطة فمن القرآن الكريم والحديث والشعر والأمثال ومن أقوال العلماء ، وإذا تأملنا هذه الشواهد نجد الشواهد الشعرية هي الأكثر .

ومن الشعراء الذين استشهد بهم في هذه المخطوطة : ابن أحرر وابن مقبل ، وأبو النجم ، والأعشى ، وأمرؤ القيس ، وحيد بن ثور ، وذو الرمة ، والراعي ، ورؤبة ، وزهير ، والشماخ ، وطرفة ، والطرماح ، والعجاج ، وعدى بن يزيد ، والفلاخ ، ولبيد ، والناطقة الديباني ، ونصيب ..

وقد كان أميناً في نقله من هؤلاء الشعراء . اللهم إلا في مكان واحد فقد أسند صدر بيت لطرفة . ولم أجدّه في ديوانه ، وذلك في شرحه لكلمة أترج حين قال :

«أُتْرَج^(٨٧) : أَفْعَلٌ : معروف ، وحكى أبو زيد : تُرْنَجَة ، وتُرْنَج ، قال طرفة :

«يَحْمِلُنْ أَتْرَجَةً نَضَحُ الْعَبِيرُ بِهَا»

وتمام البيت هكذا : «كَأَنَّ تَطْلِيهَا فِي الْأَنْفِ مَشْمُومٌ»

ولمعرفة الكيفية التي كانت ترد بها هذه الشواهد في شرح الكلمات تأتي بهذه الأمثلة :

أَجْفَلَى^(٨٨) : أَفْعَلَى ، الجماعات ، يقال أَجْفَلَى وَجَفَلَى ، وقال طرفة :

نحنُ في المَشْتَاتِ نَدْعُو الجَفَلَ

إِسْحَمَان^(٨٩) : إِفْعَلَان ، جبل بعينه ، قال العجاج :

وبين حزم الإسحمان الأطول

أَفْكَل^(٩٠) : أَفْعَل ، الرَّعْدَةُ وجمعه : أَفَاكِل : قال لبيد :

إذا عاودت جنانها والأفَاكِلا

عُنْب^(٩١) : قال الجرمي : وادٍ ، قال نُصَيْب :

ألا أيها الرِّبْعُ الخلاءُ يُعُنَّب

كنهبل^(٩٢) : فنعلل ، شجر قال امرؤ القيس :

يَكْبُ على الأذقانِ دَوْحُ الكَنْهَبِلِ

والملاحظ أنه في معظم الأحوال لا يذكر البيت كاملاً ، وإنما نجده يكتفى بذكر الشطرة التي وردت فيها الكلمة المراد شرحها ، كما يلاحظ أنه استشهد بشعر الشعراء الجاهليين والإسلاميين والأمويين ، وعلى هذا فالشعراء الذين استشهد بهم لا يتعدون العصر الأموي ، وهذا يعني أنه يجوز الاستشهاد بالطبقة الثالثة ، لأن العلماء قَسَمُوا الشعراء إلى أربع طبقات .

فالطبقتان الأوليان يستشهد بشعرهما إجماعاً ، وأما الثالثة فقد ذهب عبد القادر البغدادي صاحب الخزانة إلى جواز الاستشهاد بها^(٩٣) . وصاحب المخطوطة يذهب مذهب البغدادي لأننا نجده استشهد بشعر شعراء عاشوا في العصر الأموي ، كما نجده لا يفرق بين من عاشوا في البداية ومن عاشوا في الحضر ، ولهذا نجده يستشهد بشعر عدى بن يزيد مع أن الأصمعي لا يحتاج بشعره لأن ألفاظه ليست بنجدية ، كما أن صاحب المخطوطة يستشهد بشعر الطرماح على الرغم من أن الأصمعي قال عنه^(٩٤) : «الكميت بن زيد ليس بحجة لأنه مؤلّد وكذلك الطرماح» .

وقال أيضاً^(٩٥): «الكميت تعلّم النحو وليس بحجة ، وكذلك الطرمّاح وكانا يقولان ماقد سمعاه ولم يفهما» .

كما نجده يستشدّ بشعر ذي الرمة ونصيب على الرغم من الاختلاف في الاستشهاد بشعرهما .

وبالإضافة إلى استشهاده بالشعر نجده استشهد بالقرآن الكريم . وليس ذلك كثيراً . ومن الآيات التي استشهد بها مايلى :

أ / «سِيَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ»^(٩٦) في معرض الحديث عن كلمة (سيمياء) .

ب / «كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ»^(٩٧) : في معرض شرحه للكلمة (تَرْقُوة) .

ج / «فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ»^(٩٨) : في معرض الحديث عن كلمة (قَسَاوِر) .

أضف إلى ذلك أنه استشهد بأمثال العرب وأقوالهم ، ومن الأمثال التي استشهد بها مايلى :

أ / «أَرَاهَا أَجَلٌ أَنْى شَاءَتْ»^(٩٩) ، استشهد به في معرض الحديث عن كلمة (أجل) حين

قال : «أَجَلٌ : فَعَلَى ، أَرْض ، قال الأصمعي : أَجَلِي بِلَاد طَيِّبَةٍ مَرِيَّة .

تَنْبُتُ الْجَلَى وَالصُّلَيَان ، قال أبو عبيدة : أَجَلِي قَارَة ، وقال في أمثالهم أَرَاهَا أَجَلِي أَنْى شَاءَتْ ، يقول كل ماحولها ذو كَلَأ فَأَيْن وقعت فهو مرتع» .

وقد شرح الميداني المثل بقوله : (أجل مرعى معروف ، وهذا من كلام حنيف الخناتم لما سئل عن أفضل مرعى ، وكان من آبل الناس فقال كذا وكذا ، فعَدّ مواضع ثم قال بعد هذا : أَرَاهَا – يعني الإبل – أَجَلِي أَنْى شَت ، يعني متى شئت أي أعرض عليها ، ويروى أَرَاهَا أَجَلِي – يضرب مثلاً للشيء بلغ العناية في الجودة) .

ب / «أَجْوَعُ مِنْ كَلْبَةِ حَوْمَلٍ» مثل آخر أشار إليه إشارة عندما شرح كلمة (حومل)

بقوله^(١٠١) : «حومل : فوعل ، ذكره سيويه في الصفحات وذكر الجرمي حوقل وهو

الذي يدبر عن النساء – ويقال الحوقل الضعيف الكبير السنّ ويقال : قد حوقل إذا أعيا

– وحومل مكان ، وحومل امرأة يضرب بكليتها المثل» .

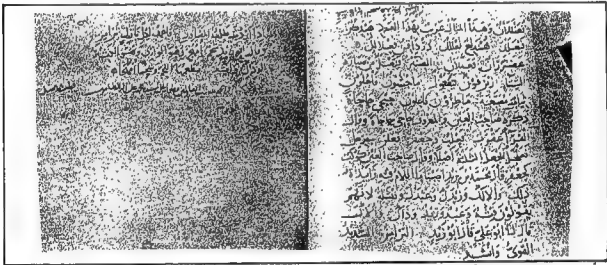
جـ / «أطرق كرا يحلب لك»^(١٠٦) استشهد به في معرض شرحه لكلمة (كروان) حين قال^(١٠٧):

«كروان : فعلان ، قال أبو حاتم : الكروان بعظم الدجاجة غير أنه أبسط وأطول عنقا وأطول رجلين ، ورأسه بعظم رأس الدجاجة وزمكاه قصيرة ، وعينه زرقاوان ، وزعموا أنّ فراخه الحجل وهو أحق طائر يقال له : أطرق كرا يحلب لك : وهو مثل للعرب . فإذا قيل له هذا لبد بالأرض حتى يرمى .»

وجاء في مجمع الأمثال للميداني أنّ المثل «يضرب للأحمق تنبيه الباطل فيصدق»^(١٠٨) . وبالإضافة إلى استشهاده بما ذكر نجده استشهد بحديث واحد هو^(١٠٩): «مالي أراك واجما» في معرض الحديث عن كلمة (وجم) حين قال^(١١٠): «وَجَمٌ : يَجْمُ إذا أَظْهَرَ حُرْنًا وَكِرْبًا فَهُوَ وَاجِمٌ ، وفي الحديث : مالي أراك واجما ؟ .»

والحديث مذكور في لسان العرب (مادة وجم) وفي غريب الحديث لأبي عبيد القاسم بن سلام في حديث أبي بكر أنّه لقى طلحة بن عبيد الله . فقال : مالي أراك واجما ، «قال كلمة سمعتها من رسول الله ﷺ موجبة لم أسأله عنها ، فقال أبو بكر أنا أعلم ماهي : لا إله إلا الله .»

وعلى الرغم من أنه استشهد بحديث واحد غريب إلا أنّ ذلك يدل على مبدئه بجواز



اللوحه رقم ٥٣ وهي الأخيرة عليها ما يلي:

- ١ - آخر ما زعموا أنّه فات سيويه من الأثنية. ٢ - ذكر قوله: «والحمد لله رب العالمين وصلواته على سيدنا محمد وعلى آله الطاهرين». ٣ - قول الناسخ: «وقيل بالأصل».

الاستشهاد بالحديث الشريف مخالفاً في ذلك كثيراً من اللغويين والنحاة .

ومؤلف المخطوطة بالإضافة إلى أنه يعتمد السماع فيروى عن أصحاب اللغة الثقات ويأخذ عن الشعراء ويستشهد بالقرآن وبأمثال العرب ، فهو كذلك لا ينسى القياس ، نجده يشير إليه في شرحه لبعض الكلمات منها :

أ / أَفَاطِيع^(١٠٧) : «أَفَاعِيلُ جَمْعُ قَطِيعٍ عَلَى غَيْرِ قِيَاسٍ» .

ب / زَرَّاقِي^(١٠٨) : فَعَالَى ، جَمْعُ زَرَّافَةٍ وَقِيَاسُ جَمْعِ زَرَّافَةٍ زَرَّافٌ ، وَلَكِنَّهُ جَاءَ عَلَى تَقْدِيمِ الْفَاءِ عَلَى الْآلِفِ فِي الْجَمْعِ ، فَكَأَنَّهُ جَمْعُ زَرَّافَةٍ وَالزَّرَّافَةُ الْجَمَاعَةُ مِنَ النَّاسِ ، وَالزَّرَّافَةُ بضم الزاي وفتحها دَابَّةٌ مَعْرُوفَةٌ .

أهمية :

وخلاصة القول ، يمكننا أن نلخص أهمية هذه المخطوطة فيما يلي :

١ - إن هذه المخطوطة ترتبط بشخصية كبيرة في مجال الدراسات النحوية واللغوية ، هي شخصية سيبويه ، الذي قيل عنه^(١٠٩) :

«كان أعلم المتقدمين والمتأخرين بالنحو» .

وقيل عن كتابه^(١١٠) «إنه قرآن النحو» وقال عنه الجاحظ^(١١١) : «لم يكتب الناس في النحو كتاباً مثله ، وجميع كتب الناس عيال عليه» .

وقال عنه المازني^(١١٢) «من أراد أن يعمل كتاباً كبيراً في النحو بعد كتاب سيبويه فليستح» .

وقال عنه ابن النديم^(١١٣) : «وعمل كتابه الذي لم يسبقه إلى مثله أحد قبله ولم يلحق أحد بعده» .

والمخطوطة تتناول جانباً مهماً من جوانب كتاب سيبويه هو الأبنية التي تدخل في نطاق علم الصرف .

وأبنية الكتاب كثيرة ومتشعبة تحتاج إلى التمثيل لها بمفردات ، وقد فعل سيبويه

ذلك ، ولكنه لم يشرح تلك المفردات فجاءت هذه المخطوطة فوضحت معاني تلك المفردات ، ولم تنف عند ذلك بل ذكرت أوزانها ، ووضحت ما إذا كانت هي صفات أو أسماء ، فسهلت بذكر الأمر للدارسين والباحثين ، الأمر الذي نفقده في معظم المؤلفات الصرفية والنحوية .

٢ - معروف أن التصريف كان يسير جنباً إلى جنب مع النحو ، ولم يكن منفصلاً عنه ، إلى أن جاء المازني فكتب فيه كتاباً مستقلاً هو كتاب «التصريف» الذي شرحه فيما بعد ابن جني ، وسمى شرحه (النصف) وهكذا سار الأمر إلى أن ظهرت مؤلفات تعالج الأبنية في كتاب سيبويه .

ومن الذين كتبوا في ذلك : ثعلب (ت ٢٩١) ، والسجستاني (ت ٢٥٥) والجرمي (ت ٢٢٥) والزبيدي ، والجوالقي .

وأهمية مخطوطة الجوالقي في هذا الجانب تنحصر في أنها جمعت بين علمي الصرف والدلالة ، فهي لم تعالج معاني الكلمات فقط ، وإنما شملت بالإضافة إلى ذلك وزنها ، وهل هي أسماء أم صفات ، فحلت محل كتب الصرف من جهة ، وكتب المعاجم من جهة أخرى .

٣ - شرحت هذه المخطوطة أمثلة سيبويه ، ووضعتها في أبواب حسب الحروف الهجائية من باب الهمزة إلى باب الياء ، وبالإضافة إلى ذلك ورد في آخرها : «ذكر مازعموا أنه فات سيبويه من الأبنية» ، فأضافت شيئاً جديداً نفقده في كثير من المؤلفات الصرفية والنحوية والمعجمية .

٤ - هذه المخطوطة مختصر لكتاب آخر هو : شرح أمثلة سيبويه لأبي الفتح محمد بن عيسى عثمان العطار ، الذي لم يذكر لنا شيء ذو قيمة عنه ، كما لم يصل إلينا الشرح نفسه . وإنما وصل إلينا مختصر هذا الشرح ، وهو هذه المخطوطة . ومن هنا جاءت أهمية هذه المخطوطة من هذه الناحية ولأنها الوحيدة من ناحية أخرى .

٥ - تنسب هذه المخطوطة للجوالقي ، ومعلوم لدينا أهمية هذا الرجل ومكانته الرفيعة في مجال الدراسات اللغوية . وهذه المخطوطة تنفي ما شيع عنه من أنه اقتصر بمجهوده في

اللغة فقط ، ومن هذه الزاوية جاءت أهميتها فأثبتت أنّ الجواليقي صاحب ثقافة واسعة ، له إلمام بعلم الصّرف والنحو ، وله إلمام بالشعر وله معرفة بالأمثال وأسماء القبائل ، وبالأمكنة وأسماء البلدان .

وبعد : فلا يمكن للمكتبة المريّة الاستغناء عن هذه المخطوطة .



الهوامش والملاحظات

- (١) تاريخ العراق في العصر السلجوقي - أمين حسين ، مطبعة الإرشاد عام ١٩٦٥ ، راجع الصفحات : ٥٧ - ٢٢١ - ٢١٨ - ٢٨٠
- (٢) من هؤلاء العلماء : الشيرازي (ت ٤٧٦هـ) ، والجويني (٤٧٨هـ) . والشهرستاني (٥٤٨هـ) ، والغزالي (ت ٥٠٥هـ) والقشيري (ت ٤٦٥هـ) والجويني (٤٧٨هـ) ، والزرغزري (ت ٥٣٨هـ) ، وابن الشجري (ت ٥٤٢هـ) وابن الأنباري (ت ٥٧٧هـ) والوزني (ت ٤٩٦هـ) ، وعبد القاهر الجرجاني (ت ٤١٧هـ) ، والمباني (ت ٥١٨هـ) ، والعياد الاصفهاني (ت ٥٩٨هـ) ، والخطيب البغدادي (ت ٤٦٣هـ) ، وابن الجوزي (ت ٥٩٧هـ) إلى غير ذلك من العلماء الذين أسهموا في تطور الثقافة في ذلك العصر .
- (٣) إنباء الرواة في أنباء النحاة للقفطي ٣/٣٣٥ ، وفيات الأعيان لابن خلكان ٥/٣٤٢ ، معجم الأدباء لياقوت الحموي ١٩/٢٠٥ .
- (٤) الأنساب للسمعاني ٣/٣٦٨ .
- (٥) شذرات الذهب لابن العماد ، ٤/١٢٧ - المنتظم لابن الجوزي ١٠/١١٨ .
- (٦) إنباء الرواة ، ٣/٣٣٦ ، وفيات الأعيان ٥/٣٤٤ .
- (٧) نزعة الألباء في طبقات الأدباء لابن الأنباري ص ٣٩٨ ، إنباء الرواة ٣/٣٣٦ .
- (٨) مقدمة محقق كتاب المرب ، ص ٣٨ ، ٣٩ .
- (٩) شذرات الذهب لابن العماد ٤/١٢٧ (أنظر وفيات سنة أربعين وخمسة) .
- (١٠) شذرات الذهب ٤/١٢٧ .
- (١١) المنتظم ١٠/١١٨ ، وفيات الأعيان ٥/٣٤٢ .
- (١٢) البداية والنهاية لابن كثير ٢/٢٢٠ .
- (١٣) نزعة الألباء ، ص ٣٩٦ .
- (١٤) الوفيات ، ٥/٣٤٢ ، وشذرات الذهب ٤/١٢٧ .
- (١٥) إنباء الرواة ، ٣/٣٣٥ .
- (١٦) الأنساب ، ٣/٣٧٠ .
- (١٧) المنتظم ١٠/١١٨ .
- (١٨) وفيات الأعيان ٥/٣٤٢ .
- (١٩) نفسه ٥/٣٤٢ ، إنباء الرواة ٣/٣٣٦ .
- (٢٠) معجم الأدباء ١٩/٢٠٥ .
- (٢١) المنتظم ١٠/١١٨ - البداية والنهاية ١٢/٢٢٠ .

- (٢١) ذيل طبقات الحنابلة ٢٤٤/١ ، شذرات الذهب ١٢٧/٤ ، نزهة الألباء ص ٣٩٦ .
- (٢٢) تاريخ الأدب العربي لبروكليان ١٦٤/٥ .
- (٢٣) الأمانى الشجرية ١١٩/٢ .
- (٢٤) شرح أدب الكاتب لابن الجوالقي ، ص ٢١ .
- (٢٥) نزهة الألباء ، ص ٣٩٦ - معجم الأدباء ٢٢٠/١٩ .
- (٢٦) نزهة الألباء ٣٩٦ - ٣٩٧ ، معجم الأدباء ٢٠٥/١٩ .
- (٢٧) شرح أدب الكاتب ، ص ١٠٠ .
- (٢٨) الأنساب ٣٧٠/٣ .
- (٢٩) العرب من الكلام الأعجمي للجوالقي ص ٢٧ .
- (٣٠) نفسه ص ٢٧ .
- (٣١) معجم الأدباء ٤٨/١ .
- (٣٢) وفيات الأعيان ٣٢١/٢ .
- (٣٣) مطبوع حققه أحمد محمد شاكر ، ورد ذكره في كثير من المؤلفات منها : ذيل طبقات الحنابلة ص ٢٤٤ وانباء الرواه ٣٣٥/٣ ، ومعجم الأدباء ٢٠٧/١٩ .
- (٣٤) مطبوع - مكتبة القلوس بالقاهرة سنة ١٣٥٠هـ - ذكره ياقوت ٢٠٧/١٩ .
- (٣٥) ذكره ياقوت في معجم الأدباء ٢٠٧/١٩ .
- (٣٦) هو مؤلف على حروف ، مطبوع ، حققه وشرحه وعلق عليه ماجد الذهبي نشرته دار الفكر بدمشق سنة ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م .
- (٣٧) ذكره بروكليان - تاريخ الأدب العربي ١٦٤/٥ .
- (٣٨) ذكره بروكليان ١٨٠/٥ .
- (٣٩) ورد في مقدمة محقق : (ما جاء على فعلت وأفعلت بمعنى واحد) ص ٢٣ .
- (٤٠) ورد في مقدمة محقق : (ما جاء على فعلت وأفعلت بمعنى واحد) ص ٢٣ .
- (٤١) بغية الوعاة للسيوطي ٢٠٦/١ .
- (٤٢) المخطوطة لوحة رقم ٥١ .
- (٤٣) نفسه لوحة رقم ٥٣ .
- (٤٤) بغية الوعاة ٥٧٠/١ - ٥٧١ .
- (٤٥) المخطوطة لوحة رقم ٢٣ - ٢٤ .
- (٤٦) نفسه : لوحة رقم ٣٨ - ٣٩ .
- (٤٧) نفسه : لوحة رقم ٧ .
- (٤٨) نفسه : لوحة رقم ١٠ .
- (٤٩) شرح الشافية للرضي ٨٠/٣ - ٨١ - ٨٢ .
- (٥٠) المخطوطة ، لوحة رقم ٦ .
- (٥١) كتاب الحلل في شرح الجمل للبطلوسي - تحقيق د/مصطفى إمام ، ص ١٧٣ - ١٧٤ .
- (٥٢) المخطوطة لوحة رقم ٧ .
- (٥٣) الخصائص لابن جني ٩/١ .
- (٥٤) المخطوطة ، لوحة رقم ٥ .
- (٥٥) الخصائص ٢٢٨/١ .
- (٥٦) المخطوطة ، لوحة رقم ٣٣ .

- (٥٧) المخطوطة ، لوحة رقم ٤ .
 (٥٨) المخطوطة ، لوحة رقم ٥ .
 (٥٩) المخطوطة ، لوحة رقم ٤ .
 (٦٠) المخطوطة ، لوحة رقم ١٢ .
 (٦١) المخطوطة ، لوحة رقم ٢٨ .
 (٦٢) المخطوطة ، لوحة رقم ٥ .
 (٦٣) المخطوطة ، لوحة رقم ٥ .
 (٦٤) المخطوطة ، لوحة رقم ٢ .
 (٦٥) المخطوطة ، لوحة رقم ١١ .
 (٦٦) المخطوطة ، لوحة رقم ١٠ .
 (٦٧) المخطوطة ، لوحة رقم ٢٣ .
 (٦٨) المخطوطة ، لوحة رقم ٣٦ .
 (٦٩) المخطوطة ، لوحة رقم ٢ .
 (٧٠) المخطوطة ، لوحة رقم ١١ .
 (٧١) المخطوطة ، لوحة رقم ٢٧ .
 (٧٢) المخطوطة ، لوحة رقم ٣٢ .
 (٧٣) المخطوطة ، لوحة رقم ٤ .
 (٧٤) الكتاب (تحقيق عبد السلام هارون) ٢٦٤/٤ .
 (٧٥) الاستدراك ص ٩ .
 (٧٦) لسان العرب لابن منظور مادة (دير) .
 (٧٧) الكتاب (تحقيق هارون) ٢٧٠/٤ .
 (٧٨) المخطوطة لوحة رقم ٩ .
 (٧٩) المخطوطة لوحة رقم ٩ .
 (٨٠) الكتاب (تحقيق هارون) ٣٢٠/٤ .
 (٨١) نفسه ٣٢٠/٤ .
 (٨٢) ليس في كلام العرب ص ٩٦-٩٧ .
 (٨٣) المخطوطة ، لوحة رقم ١٦ .
 (٨٤) نفسه ، لوحة رقم ٣٥ .
 (٨٥) نفسه ، لوحة رقم ٣٩ .
 (٨٦) الشواهد والاستشهاد في النحو- عبد الجبار حلوان ص ٢١ .
 (٨٧) المخطوطة ، لوحة رقم ٥ .
 (٨٨) المخطوطة ، لوحة رقم ٥ .
 (٨٩) المخطوطة ، لوحة رقم ٦ .
 (٩٠) المخطوطة ، لوحة رقم ٢ .
 (٩١) المخطوطة ، لوحة رقم ٣٦ .
 (٩٢) المخطوطة ، لوحة رقم ٤٤ .
 (٩٣) الخزانة ٢٠/١ .
 (٩٤) الموشع للمزنيان ص ٣٢١ .

- (٩٥) نفسه ٣٢٦-٣٢٧.
- (٩٦) سورة الفتح، آية رقم ٢٩ - انظر المخطوطة لوحة رقم ٢٦.
- (٩٧) سورة القيامة، آية رقم ٢٦، انظر المخطوطة، لوحة رقم ١١.
- (٩٨) سورة المدثر، آية رقم ٥١، انظر المخطوطة، لوحة رقم ٤٠.
- (٩٩) مجمع الأمثال للميداني ٣٠١/١.
- (١٠٠) المخطوطة، لوحة رقم ٦.
- (١٠١) المخطوطة، لوحة رقم ١٧.
- (١٠٢) مجمع الأمثال، ٤٤٦/١.
- (١٠٣) المخطوطة لوحة رقم ٤٣.
- (١٠٤) مجمع الأمثال، ٤٣٢/١.
- (١٠٥) غريب الحديث لأبي عبيد القاسم بن سلام ٢٣١/٣ - لسان العرب - مادة (وجم).
- (١٠٦) المخطوطة، لوحة رقم ٤٨.
- (١٠٧) المخطوطة، لوحة رقم ٥.
- (١٠٨) المخطوطة، لوحة رقم ٢٤.
- (١٠٩) نزهة الألباء، ص ١٨٥.
- (١١٠) نزهة الألباء، ص ١٨٥.
- (١١١) أخبار النحويين البصريين للسمر أفي ٤٨.
- (١١٢) نفسه، ص ٥٠.
- (١١٣) الفهرست، ص ٧٦.

مراجع البحث

- (١) أخبار النحويين البصريين - أبو سعيد الحسن بن عبد الله السمراني - تحقيق: طه الزبيدي - محمد عبد المنعم خفاجي - مطبعة مصطفى البابي الحلبي بمصر - الطبعة الأولى ١٣٧٤هـ/١٩٥٥م.
- (٢) الأمانى الشجرية - لابن الشجرى - الطبعة الأولى - مطبعة دائرة المعارف ببيدر اباد.
- (٣) إنباء الرواة في أنباء النحاة - جمال الدين أبو الحسن علي بن يوسف القفطى، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم - القاهرة. ١٩٥٥م/١٩٥٥م.
- (٤) الأنساب، للسمعاني - الطبعة الأولى - مطبعة دائرة المعارف ببيدر اباد سنة ١٣٨٣هـ.
- (٥) البداية والنهاية - لابن كثير، الطبعة الأولى سنة ١٩٦٦م مكتبة المعارف بيروت - مكتبة النصر - الرياض ١٩٧٩م.
- (٦) بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة - للحافظ جلال الدين عبد الرحمن السيوطي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم (مجلدان)، دار الفكر - الطبعة الثانية ١٣٩٩هـ.
- (٧) تاريخ العراق في العصر السلجوقي، أمين حسين - مطبعة الإرشاد ١٣٨٥هـ/١٩٦٥م.
- (٨) تفسير غريب مائى كتاب سيويه من الأينية - أبو حاتم السجستاني، مخطوط رقم ٢٤٤ ص - قسم المخطوطات - مكتبة جامعة الملك سعود بالرياض.
- (٩) خزائن الأدب - للبغدادى - تحقيق عبد السلام هارون - دار الكتاب العربي للطباعة والنشر - القاهرة ١٣٨٩هـ/١٩٦٩م.

- (١٠) الخصائص - أبو الفتح عثمان (ابن جني) - تحقيق: محمد علي النجار (ج١) - الطبعة الثانية - دار الهدى للطباعة والنشر - بيروت - لبنان.
- (١١) ديوان امرئ القيس - تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم - دار المعارف - ١٩٦٩م.
- (١٢) ديوان طرفة - تحقيق: كرم البستاني - صادر بيروت.
- (١٣) ديوان ليلى بن أبي ربيعة - دالر صادر - بيروت ١٩٦٦م.
- (١٤) طبقات الخنابلة - أبو الفرج عبد الرحمن شهاب الدين البغدادى، مطبعة دمشق ١٣٧٠هـ.
- (١٥) شذرات الذهب فى أخبار من ذهب - لابن العماد - المكتب التجارى للطباعة والنشر - لبنان.
- (١٦) شرح أدب الكاتب للجوالقي - عن نسخة دار الكتب المصرية، الناشر: مكتبة القدسي بالقاهرة ١٣٥٠هـ.
- (١٧) شرح شافية ابن الحاجب - لرضي الدين محمد بن الحسن الاسترأباضى تحقيق: محمد نورالحسن ومحمد الرزاف ومحمد عي الدين عبد الحميد (جز ٣) - دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان ١٣٩٥هـ/١٩٧٥م.
- (١٨) شرح للعلاقات السبع - أبو عبد الله الحسين أحمد الزوزنى - دار الثقافة - بيروت ١٣٨٨هـ/١٩٦٩م.
- (١٩) الشعر والشعراء لابن قتيبة - نشر وتحقيق أحمد محمد شاكر - القاهرة ١٩٦٦م.
- (٢٠) السواهد والاستشهاد فى النحو - عبد الجبار علوان - الطبعة الأولى ١٣٩٦هـ/١٩٧٦م، مطبعة الزهراء - بغداد.
- (٢١) طبقات الخنابلة - محمد بن الحسين بن محمد بن بطل - القاهرة مطبعة السنة المحمدية ١٩٥٣م.
- (٢٢) طبقات فحول الشعراء - لابن سلام الجمحي - شرح محمد شاكر - دار المعارف للطباعة والنشر ١٩٥٢م.
- (٢٣) طبقات النحويين واللغويين - أبو بكر محمد بن الحسن الزبيدي - تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم - دار المعارف بمصر.
- (٢٤) غريب الحديث لأبي عبد القاسم بن سلام - ط١، حيدر آباد الدكن - مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية ١٩٦٧/١٩٦٤م.
- (٢٥) الفهرست - لابن النديم - دار المعرفة للطباعة والنشر - بيروت.
- (٢٦) القرآن الكريم.
- (٢٧) كتاب الحلال فى شرح أبيات الجمل لابن السيد البطيوسى - دراسة وتحقيق: د. مصطفى إمام - الطبعة الأولى - مطبعة الدار المصرية - القاهرة ١٩٧٩م.
- (٢٨) كتاب سيبويه (جزء ٤) - تحقيق عبدالسلام هارون - عالم الكتب للطباعة والنشر، بيروت.
- (٢٩) كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون - حاجي خليفة (مصطفى بن عبدالله) - طهران - ١٣٨٧هـ.
- (٣٠) كتاب مجمع الأمثال للميداني (أبي الفضل أحمد بن محمد) - تحقيق محمد عي الدين عبد الحميد - القاهرة ١٩٥٥م.
- (٣١) لسان العرب - لابن منظور - طبعة المعارف بمصر.
- (٣٢) ليس فى كلام العرب - لابن خالديه - تحقيق أحمد عبدالغفور عطار، مكة المكرمة - ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م.
- (٣٣) ماجاه على فملت وأقلمت معنى واحد - مؤلف على حروف الهجاء لأبي منصور الجوالقي - حققه وشرحه وعلق عليه - ماجد الذهبي - دار الفكر ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م.
- (٣٤) مختصر شرح أمثلة سيبويه الجوالقي - مخطوط رقم ١٧٢ص. قسم المخطوطات مكتبة جامعة الملك سعود، ورقم ٥٢ صرف - مكتبة عارف حكمت بالمدينة المنورة.
- (٣٥) معجم الألفاظ - ج ١٩ - لياقوت الحموى - الطبعة الأخيرة - مطبعة دار المأمون ١٩٣٦م.
- (٣٦) المعجم للفهرس لألفاظ القرآن الكريم - وضعه محمد فؤاد عبالباقي - دار العلم بيروت.
- (٣٧) العرب من الكلام الأعجمى على حروف المعجم، للجوالقي، تحقيق: أحمد محمد شاكر - مطبعة دار الكتب المصرية، سنة ١٣٦١هـ - القاهرة.
- (٣٨) الموشع فى مأخذ العلماء على الشعراء - للمرزباني - القاهرة - جمعية نشر الكتب العربية، سنة ١٣٤٢هـ.
- (٣٩) وفيات الأعيان لابن خلكان (أحمد بن على) ج ٢، ٥، تحقيق: محمد عي الدين عبد الحميد - القاهرة - سنة ١٩٤٨م.

كيف يمكن تعديل اتجاهات الشباب المسلم وفقاً للمنهج الإسلامي والمنهج العلمي

د/ عبدالرحمن محمد العيسوي

أهم الاتجاهات المعاصرة



من القضايا التي تشغل بال المجتمعات، منذ أقدم العصور، قضية تشكيل عقول الشباب وصقلها وتنقية محتوياتها كالمقائد والآراء والأفكار والميول والاتجاهات العقلية Mental attitudes والمعارف والحقائق والمعلومات، بغية أن تتماشى هذه الاتجاهات مع فلسفة المجتمع وثقافته أو حضارته أو مايمبر عنه بلغة العصر «إيدولوجيته» أي أفكاره وآرائه ومعتقداته ووجهة نظره لقضاياها وأمور الحياة الأخرى^(١).

ولا بد أن تتفق اتجاهات الأفراد مع اتجاهات المجتمع، حتى لا ينسلخوا أو ينفصلوا، وجدانياً، عن المجتمع الأم. ويصبح وجودهم إلى جوار بعض مجرد تجمع لأجسادهم فقط. ومؤدى ذلك أن الاتجاهات العقلية من أدوات اللحم المعنوي والالتصاق والتوحد بين أفراد المجتمع. وإذا حدث وشذ أحدهم واعتنق اتجاهًا معارضاً لما أجمع عليه المجتمع، فإنه يعاني من الطرد والنبذ وعدم القبول الاجتماعي، ومن ثم لا يتمتع بالتكيف النفسي ويخفق في إقامة علاقات اجتماعية إيجابية مع غيره من أبناء المجتمع^(٢).

ونظراً لأهمية الاتجاهات العقلية، فإن المجتمعات المختلفة تحرص على دراستها والتعرف على طبيعتها وعلى كيفية تكوينها، وعلى العوامل التي تؤثر في نموها وتعديلها. ولقد وضعت لذلك وسائل كثيرة لقياس هذه الاتجاهات وتحديدتها، ومعرفة ما إذا كان الفرد أو الأفراد يمتلكون اتجاهاً مؤيداً أو معارضاً أو محايداً بالنسبة لكل قضية من القضايا التي تهم المجتمع في كل عصر من العصور.

ولقد كان لإسلامنا الحنيف فضل السبق في الاهتمام بقضايا الناس وأفكارهم وآرائهم، وما يمكن أن يسمى اليوم باتجاهاتهم العقلية نحو دينهم الإسلامي الأغر، ودعوته المباركة، ونحو رسولنا الكريم ورسالته الإنسانية، ونحو الحاكم ونحو المرأة، ونحو العلم والعلماء، ونحو الأولاد، والجيران، ونحو كبار السن في المجتمع، ونحو موضوعات أخرى في الحياة اليومية كالنظافة والطهارة، والعفة، ونحو المسجد، ونحو الأم والأب، والجار، ونحو الحرب والسلام، والتجارة، ونحو العمل، ونحو العبادة، ونحو الزواج، وشتى أمور الحياة الدنيا والآخرة^(٣).

وفي المجتمعات الغربية يدرسون اتجاهات الشباب حيال أمور مثل :-

تنظيم النسل، المخدرات، أعضاء حزب من الأحزاب السياسية، التعليم العالي، السامية، التعليم المختلط، السوق الأوروبية المشتركة، سباق الفضاء، التسليح النووي، وما إلى ذلك من الموضوعات ونحو علم كعلم النفس .

ويفترض علماء النفس أن لاتجاه الفرد تأثيراً كبيراً على سلوكه الفعلي الواقعي . فاتجاهات الفرد العقلية تؤثر في طريقة استجابته أو رد فعله للعالم وأحداثه، حيث تؤثر الاتجاهات في أدواقنا، وفي اختيار أصدقائنا وفي انتخاباتنا وفيما نضع من أهداف نسعى لتحقيقها، وفي كل مانفضل أو نكره^(٤).

طبيعة الاتجاهات

وقبل أن نسوق الأدلة التجريبية على صحة هذا الفرض، وأعني به أن سلوكنا يتأثر بما نحمل من اتجاهات عقلية، لتأمل، مع القاريء الكريم، المعنى الحقيقي للاتجاه العقلي. ذلك لأنه لا بد لنا من معرفة طبيعة الاتجاه، وكيف يتكون، وكيف يقاس أو يقدر؟. الاتجاه عبارة عن

استعداد لكي يستجيب الفرد نحو الناس أو الأشياء أو المؤسسات أو الموضوعات أو العقائد والأفكار أو النظريات أو الشعارات والنداءات أو الفلسفات أو الأحزاب أو المجتمعات يستجيب نحو أي من هذه الموضوعات بطريقة خاصة: إما أن تكون إستجابة إيجابية حيث يؤيد الفرد الفكرة أو يعضد ويساند الموضوع، أو تكون سلبية فيعارض الموضوع ويرفضه ويقف ضده، وإما أن تكون استجابة محايدة حيث لا يكون الفرد مؤيداً ولا معارضاً وكأن الأمر لا يعنيه.

وهنا نساءل وهل مثل هذه الاتجاهات فطرية، أي يولد الفرد مزوداً بها عند الميلاد، أم أنها مكتسبة ومتعلمة من البيئة الاجتماعية والمادية التي يعيش الفرد في كنفها؟ تؤكد الدراسات النفسية الحديثة أن الاتجاهات متعلمة ومكتسبة وليست فطرية أو موروثية. فالإنسان لا يولد مؤيداً ولا معارضاً للنادي الأهلي مثلاً أو لسياسة التعليم العالي من البلاد، ولكنه يكون هذا الاتجاه من خلال خبرته بهذا التعليم ومعلوماته عنه وتفاعله مع مؤسساته. وهكذا فالاتجاهات متعلمة ومكتسبة⁽⁵⁾. ويفتح هذا الباب واسعاً أمام رجال الوعظ والارشاد، وأمام القادة والمصلحين والمفكرين والكتاب ورجال التربية والاعلام لكي يحسنوا تكوين اتجاهات شبابهم وأجيالهم الصاعدة ويغرسوا فيها مبادئ إسلامنا الخفيف من الإيمان والتقوى والورع والخشوع والبر والإحسان والصدق والعدل والإخاء والمساواة... إلخ.

الاتجاه العقل بوجه السلوك

وما يضاعف من أهمية الاتجاهات العقلية لدينا أنها تلخص كل خبرات الفرد الماضية وتجاربه مع الحياة والمواقف التي مر بها، والتي تمخضت عن تكوين اتجاهه على هذا النحو أو ذاك. وفي نفس الوقت تساعد على التنبؤ بسلوك الفرد في المستقبل وتوجه هذا السلوك، فالشخص الذي يحمل اتجاهاً معارضاً للصهيونية نجده في سلوكه يقف ضد تأييدها ويضحي من أجل القضاء عليها كحركة عنصرية استعمارية، ويتبرع أو يتطوع من أجل هذا الهدف. وبالمثل الشخص الذي يحمل اتجاهاً مؤيداً لفكرة التضامن العربي نجده يساعد كل ما يؤدي إلى هذا التضامن، وقد يحضر المحاضرات حول هذا الموضوع أو يقرأ الكتب والمراجع فيه أو يتطوع للدفاع عن الوحدة العربية، ويسعى لتحقيقها ويناصرها في حوارها ونقاشه مع الغير.

فالاتجاه وسيلة لتوجيه السلوك ودفعه، وهو وسيلة للتنبؤ بسلوك الأفراد وفي نفس الوقت هو عبارة عن تلخيص مخبرات الفرد الماضية.

ولكن ما الدليل على صحة هذا الفرض ؟

لقد قام أحد علماء النفس في العصر الحديث (١٩٧٧م) ويدعى هاويت Hawitt بإجراء دراسة ميدانية أطلق عليها «دراسة الخطاب الموجه توجيهاً خاطئاً» The misdirected letter أو الرسالة المعنونة خطأً بقصد التحقق من مدى تمثي السلوك الفعلي أو رد الفعل الحقيقي لدى الفرد مع اتجاهه العقلي. ففي أثناء إنتشار موجة العنف المعروفة التي قام بها (ويقوم حتى الآن) الايرلنديون Irish قام مجموعة من علماء النفس بدراسة الاتجاه نحو الايرلنديين لدى عينة من المجتمع الانجليزي وكان هذا العنف بالطبع موجهاً نحو الانجليز بغية طلب الاستقلال عن انجلترا. وتم معرفة أصحاب الاتجاه المؤيد والمعارض للايرلنديين. وبعد ذلك بفترة أرسل هؤلاء الباحثون خطابات (طريق الخطأ) إلى هؤلاء الناس وكتب الباحثون على مجموعة من الخطابات أسماء ايرلندية، وعلى المجموعة الأخرى أسماء لأشخاص انجليز. وسلم رجال البريد هذه الخطابات لأفراد عينة البحث. فإذا كانت النتيجة ؟ هل أعاد الناس الموالون للايرلنديين توجيه الخطابات إليهم ؟ وهل قذف الناس المعارضون الايرلنديين بالخطابات فس سلة المهملات ؟

لقد حدث ذلك بالفعل، وأيدت هذه التجربة أن السلوك الفعلي لهذه العينة يتمشى مع الاتجاه المؤيد أو المعارض للايرلنديين^(٦). وفي مجتمعنا يمكن إجراء مثل هذه الدراسة بقياس اتجاه الناس نحو ناديبهم الأدي أو الرياضي مثلاً ثم قياس عدد المرات التي يذهبون فيها إلى هذا النادي كمؤشر للسلوك الفعلي. ويمكن قياس الاتجاه الفعلي نحو الصلاة وقيمتها الروحية والخلقية والإيمانية ومقدار أداء الفرد لفريضة الصلاة.

هذا هو مضمون الاتجاه وأثره على السلوك. ولكن كيف يمكن تحليل الاتجاهات ؟

تحليل الاتجاهات

كيف يعبر اتجاهنا عن نفسه ؟ أو بعبارة أخرى مما يتكون الاتجاه ؟ أو ماهي العناصر الأولية التي يتكون منها الاتجاه؟ المعروف أن الاتجاه ليس حالة بسيطة، ولكنه حالة معقدة تتضمن

العديد من العناصر وهو أيضاً ليس السلوك أو ليس معادلاً للسلوك وإنما هو أحد محركات السلوك. فإذا تأملنا في اتجاهنا مثلاً نحو تعليم المرأة. أو اشتغالها، أو نحو الوحدة العربية أو نحو العقيدة الإسلامية، أو نحو خطة التنمية، أو نحو كرة القدم لوجدنا أن كلاً منها يتضمن — على الأقل — العناصر الآتية :

أ — عنصر عقائدي أو معرفي يتمثل في المعلومات والمعارف والحقائق والأفكار والعقائد المتعلقة بالوحدة العربية مثلاً .

ب — عنصر نفسي أو انفعالي في مقدار الحب والتعاطف والتجاوب والسعادة حيال موضوع الوحدة .

ج — عنصر سلوكي أو عملي : ويتمثل في كل ما يقوم به الفرد في سبيل الوحدة ودفاعاً عنها — وإذا طبقنا هذا التحليل على اتجاهنا نحو منع انتشار الأسلحة النارية بين الناس في المجتمع وضرورة وضع ضوابط لذلك، لوجدنا أن لدينا آراء وأفكار ومعتقدات حول أثر ضبط التسليح في زيادة أو نقص معدلات الجريمة والعنف في المجتمع . ولابد أنك تستجيب إستجابة انفعالية معينة نحو الأسلحة ، على أساس أنك إما أن تعتبرها جذابة ، أو مدمرة وأداة تخريب ، أو أداة تهديد ، وعلى ذلك فسوف تسعى إما لاقتناء الأسلحة أو تتحاشى ذلك . وسوف يتضمن سلوكك تأييداً أو معارضة للمنظمات التي تعارض أو تؤيد انتشار الأسلحة بين الناس .

وإذا ماحللنا اتجاهنا نحن العرب نحو الوحدة العربية لوجدناه يتضمن عنصراً عقلياً معرفياً ، يتمثل فيما لدينا من معلومات وحقائق حول مقومات الوحدة العربية : السياسية والفكرية والاقتصادية واللغوية والدينية والجغرافية والتاريخية والسلالية وما إلى ذلك . ولوجدنا كذلك عنصراً وجدانياً أو انفعالياً أو نفسياً هو الذي يجعلنا نشعر بالسعادة والرضا والأمل والتفاؤل كلما خطت أمتنا العربية خطوة نحو الوحدة والاتحاد والتماسك والتضامن والتآخي ، وكلما تصافت الأجواء العربية . أما الجانب السلوكي فيتمثل في الآتيان بأنماط السلوك المؤيد لهذه الفكرة من الدعوة لها والدفاع عنها والاحسان إلى أخوتنا في العروبة في كل مكان ، والسعي لفض ما بينهم من منازعات ، وتوعيتهم بما يحكيه لهم الأعداء ، وهكذا من ضروب السلوك العلمي . . وهنا يجدر بنا أن نتساءل عن كيفية تكوين الاتجاهات ؟ Attitude formation

كهدف تتكون الإتجاهات ؟ :

تتكون إتجاهاتنا منذ وقت مبكر من حياتنا، ولكننا نستمر في تكوين اتجاهات جديدة طوال رحلة الحياة، ونستمر في تعديل مالدنا من اتجاهات وتطورها وتتكون هذه الإتجاهات بعدة طرق منها :

أ - الاتصال المباشر أو الاحتكاك أو التفاعل المباشر مع موضوع الاتجاه كما يحدث عندما نكون إتجاهاً مضاداً لحركة تلوث البيئة Pollution عندما يلوث المصنع أو العمل المجاور لك ذلك النهر الجميل الذي كنت تسعد برؤيته. ونكون إتجاهاً مؤيداً للوحدة العربية عندما نجني إحدى ثمارها الطيبة كالقوة العسكرية أو النمو الاقتصادي مثلاً. ويجب الطفل الدين الإسلامي كلما شاهد والديه يصليان، وعامة المسلمين يحسنون إلى بعضهم البعض، وكلما عطفوا عليه هو شخصياً .

ب - عن طريق التفاعل مع الآخرين Interaction with others فإذا عاشرت إناساً يجوبون الوحدة العربية ويؤمنون بجداولها فأغلب الظن أنك تصبح من مؤيدي فكرة الوحدة بين أقطار الأمة العربية. ومن هنا كانت أهمية توفر القدوة الحسنة والمثال الطيب الذي يقتدي به، وكذلك كانت أهمية توفير أقران الخير لا أقران السوء أمام شبابنا وأطفالنا، وذلك لمساعدتهم في تكوين الإتجاهات العقلية الصالحة.

ج - تتكون الإتجاهات العقلية عبر العمليات المطولة المتضمنة في تربية الطفل Child rearing وفي تلك العملية الهامة التي يطلق عليها عملية التنشئة الاجتماعية للفرد. ففي الغالب ما يعتنق الأطفال نفس الإتجاهات التي يعتنقها الآباء . فإذا كان الآباء والأمهات من الذين يجوبون الدين، فإن أطفالهم في أغلب الأحوال يشبون يجوبونه مثلهم. وبما يؤيد ذلك ما وجده العلماء في أمريكا من أن معظم الأطفال يتعلمون الاتجاه المضاد للزواج هناك من خلال تجاربهم مع الآباء والأمهات. ومن هنا أيضاً كانت أهمية خبرات الطفولة وأهمية دور الأسرة في تكوين عقول النشء . الأمر الذي يدعونا لضرورة الاهتمام بالأمر المسلمة وتدعيمها وتأييدها وتعريضها مادياً وفكرياً وأدبياً وحل ما يجابهها من مشكلات حتى تتمكن من القيام برسالتها الإنسانية العظيمة في تكوين الأجيال المسلمة الصاعدة .

تأثير الجماعة على الفرد

وفي بداية الحوار وجه الأعضاء كل تعليقاتهم نحوه، ولكنه تثبت برأيه وتمسك به، ولذلك تم استبعاده من الحوار، وبعد ذلك أصبح منبوذاً طريداً من قبل الجماعة. وهكذا انضح، من خلال هذه التجربة الصعوبات التي يواجهها من يحمل اتجاه شاذاً من أجل الاحتفاظ باتجاهه هذا. فالجماعة الصالحة تؤثر تأثيراً صالحاً في أفرادها.

هـ - تتأثر الاتجاهات كثيراً بوسائل الاتصال الجماهيرية أو أدوات التثقيف الجماهيرية Mass media، وتتضمن الصحف والمجلات والكتب والنشرات والاذاعات والبث التلفزيوني وما إلى ذلك من وسائل التوعية والتوجيه والإرشاد والتثقيف والتعبئة الوطنية كالمهرجانات والمتاحف والمعارض والمؤتمرات فهذه الوسائل قد تجعلنا نشعر بالتهديد والخوف والقلق، كما أنها قد تشجعنا وتحثنا وتعزينا وتثرينا وتدفعنا نحو عمل الأشياء المطلوبة وتقنعنا بقيمة أشياء كثيرة ويجدواها. وقد تكون هذه الوسائل مضللة وخادعة إذا كانت تابعة للأعداء. فنحن نسمع ما يقال عن الصحف المأجورة أو العميلة.

ولبيان مدى تأثير أداة كالتلفزيون في مجتمع كالمجتمع الأمريكي، فلقد وجد في أحصاء آخر أن هناك ٩٨ ٪ من مجموع السكان يمتلكون جهازاً يعمل في المتوسط لمدة سبع ساعات يومياً. ويعطى معلومات تؤثر في كيفية إدراك الناس، أو في كيف يرون أو يسمعون الأشياء، وكيف يفكرون، وكيف يستجيبون لموضوعات العالم^(٨) وأحداثه الجارية. فالعروض التي تتضمن القوة والعنف لها تأثير بالقطع في المشاهدين وخاصة الأطفال والشباب. ومن هنا كانت ضرورة الدعوة لاختصاص المواد التلفزيونية عندنا لاشراف رجال الدين وعلماء التربية والنفس والاجتماع والأخلاق لاستبعاد العروض ذات الآثار الضارة والابقاء على العروض الهادفة والمفيدة ذات الطابع الإسلامي الرفيع والأصيل^(٩).

و — قد تؤدي الصدفة لتكوين اتجاه مؤيد أو معارض، فالناس بالصدفة البحتة قد يتعرضون لخبرات مواتية وجيدة مع موضوع ما، وقد يحدث العكس تماماً. فلقد يزور الإنسان محلاً للطعام ويحدث أن تقدم له خدمات جيدة، فيكون إيجابياً إيجابياً نحو هذا المحل. وبالنسبة للأمريكي الأبيض الذي يحمل اتجاهها سلبياً نحو الزواج، قد يتعدل اتجاهه فجأة إذا ما أشرف على الغرق وهو يستحم ولم يتقدم لنجدة أو إنقاذه إلا شخص زنجي. فالأحداث الفردية ذات الشحنة الانفعالية القوية وعوامل الصدفة تلعب دوراً في تكوين الاتجاهات وتعديلها. فقد يجب الإنسان زعيماً أو قائداً لمجرد أن الظروف سمحت له أن يصفاحه أو يستقبله ولو مرة واحدة. إن مراعاة مشاعر الناس تجعلهم يميلون إلى من يحترم هذه المشاعر، ويقدر إنسانيتهم، ولذلك كان يحرص كثير من أمراء الإسلام وقادته على استقبال عامة الناس في قصورهم وكانوا يتفقدون أحوال الرعية في الأسواق والمتاجر وغيرها.

ورغم مالاتجاه العقلي الذي يدين به الفرد من تأثير على سلوكه إلا أن هناك بعض الحالات التي لا يتمشى فيها السلوك الفعلي مع الاتجاه العقلي الذي يؤمن به الفرد من ذلك ما يلاحظ من أن كثيراً من الأشخاص يعتقدون في أضرار التدخين ومع ذلك يمارسونه، ويعتقدون بأضرار تلوث الهواء من عادم السيارات ومع ذلك يستمرون في قيادة السيارات. وقد يرجع ذلك إلى خضوع الإنسان لسيطرة العادة التي تكونت عنده من قديم الزمان ولا يستطيع التخلص منها^(١٠). وقد يرجع ذلك إلى أننا لا نحس بالآثار الضارة مباشرة وفي الحال لكل من التدخين والتلوث أو الإفراط في تناول الطعام الدسم.

على كل حال لابد من اتخاذ إجراءات عملية حاسمة ودقيقة لكي يتمشى الاتجاه الإيجابي الذي يحمله الفرد مع سلوكه، ولا ينبغي أن يظل الاتجاه، في حيز المعرفة النظرية فقط. ومن هنا كانت حكمة إسلامنا الخفيف في تحديد الإيمان بأنه ما قر في القلب وما ظهر من سلوك تأتبه الجوارح. فلا بد من إقتران العلم بالعمل والقول بالفعل. ويتطلب ذلك تضافر الجهود، وتوفر القدوة، وحسن التربية والتوجيه وغير ذلك من الوسائل التي تخلص الفرد من عاداته السلبية وتحوره منها وتغرس فيه غيرها من العادات الإيجابية.

كيف يمكن تعديل الاتجاهات؟

في ضوء الدراسات النفسية الحديثة، يمكن تعديل اتجاهات الفرد، على الرغم من أن القوى المؤثرة في تعديل اتجاهات الفرد ما يعرف باسم «جماعته المرجعية» Reference group وهي تلك الجماعة التي يعتبرها الفرد مثله لقيمه ومثله ومعايير وعاداته وتقاليده واتجاهاته، وتعتبر هذه القيم وتلك المعايير ملائمة له. وتؤثر هذه الجماعات في اتجاهات الفرد بحيث يعتنق نفس الاتجاهات التي تؤمن بها هذه الجماعة.

وبإلى جانب تأثير الجماعات البشرية المختلفة على الفرد، وعلى وجه الخصوص جماعة المرجعية كالأُسرة وجماعة المدرسة أو النادي أو الجامعة أو زملاء العمل، فإن وسائل الاعلام تلعب دوراً هاماً في تغيير اتجاهات الناس. وبما يؤكد ذلك أن المجتمع الأمريكي وحده أنفق مبلغ خمسة بلايين من الدولارات في عام ١٩٧٨ وحدة على الاعلانات التليفزيونية التي استهدفت تغيير اتجاهات الناس نحو أشياء وموضوعات مختلفة. ويمكن تعديل الاتجاهات عن طريق تطبيق ما يعرف باسم «تقنيات الاقتناع» Techniques of persuasion تلك التقنيات التي تعتمد على شخصية من يقوم بالاقتناع. فالأشخاص الذين يتمتعون بحب الجماعة أو تقديرهم، واحترامهم، وتشعر الجماعة بالثقة نحوهم، وتعتقد في أمانتهم وصدقهم، والذين يتمتعون بحسن المظهر والهندام يكون لثل هؤلاء قدرة أكبر على التأثير في اتجاهات الناس وإقناعهم. ومن هنا كان استخدام مشاهير رجال الدين والعلم والحكم في إقناع الناس، كذلك يتوقف الاقتناع على طريقة العرض التي يستخدمها من يقوم بالاقتناع. ويمكن إيجاز العوامل التي تؤدي لنجاح الإقناع فيما يلي :

- أ - تمتع القائد أو الرائد الذي يقوم بالإقناع بالحب والثقة، والخبرة في الموضوع.
- ب - يجب أن يشبه القائد الاتباع في بعض الصفات، فلا يكون غريباً عنهم كلية.
- ج - يجب أن يثير موضوع الإقناع انفعالات الناس كالخوف أو القلق أو الحماس والتفاؤل.
- د - يجب أن يتضمن الموضوع نوعاً من العمل الذي يؤدي إلى خفض مشاعر الخوف هذه.
- هـ - يجب تكرار الموضوع أو اعطائه أكبر قدر ممكن من التكرار مع تنوع أساليب العرض.

فلقد أجريت تجربة أدت إلى إثارة الخوف والهلع في نفوس جماعة من المشاهدين، وكانوا من مدمني التدخين حيث شاهدوا سيدة على خشبة المسرح يفحصها الطبيب ويكتشف أنها مصابة بسرطان الرئة، وأن حالتها جد خطيرة وتحتاج فوراً لاجراء جراحة كبيرة. وأخذت المريضة في التساؤل عن أخطار العملية وظروفها. وبعد المشاهدة أقلعت نسبة كبيرة من المشاهدين عن التدخين.

من الوسائل التي يمكن استخدامها في تعديل الاتجاهات وضع أفكار تتعارض وتتصادم مع الأفكار القديمة التي نريد تغييرها، ووجود مثل هذه الأفكار المتعارضة يجعل الفرد، تلقائياً، يبحث عن وسيلة تخلّصه من الشعور بعدم الراحة الناتج من تناقص أفكاره مع بعضها البعض، فيحذف الفكرة الغير مرغوب فيها.

كذلك من وسائل تعديل الاتجاهات، بالقوة، عملية غسيل المخ، وعملية الاعتراف. ولقد تم استخدام وسائل غسيل المخ مع كبار المجرمين ومع أسرى الحرب لانتزاع اعترافات مزيفة منهم أو لتحويلهم إلى المعسكر المعادي. حيث تتمكن جهة الأسر من عزل الضحية تماماً بعيداً عن المؤثرات المؤيدة لعقائدها القديمة، ومن ثم تسقط عليها مؤثراتها من جانب واحد. ولذلك من الخطورة بمكان تأثير الجماعات التي تتمكن من عزل أعضائها عن بقية المجتمع وغرس مآشئ في عقولهم^(٣).

هذه بعض مناهج الغرب في تعديل اتجاهات الناس وتكوينها، ولا تخلو هذه المناهج من استخدام القوة والتعذيب والحرمان من النوم والراحة كما هو الحال في حالة غسيل مخ الأسرى. ولا تخلو من التضليل والخداع وتعمية الناس عن الحقيقة. وتخضع هذه الأساليب

للمصالح النفعية لمن يستهدف تعديل الاتجاهات. أما الأسلوب الإسلامي في صياغة اتجاهات الناس وتعديلها فيختلف باختلاف كبيراً، حيث يعتمد على الالتزام بالقيم الخلقية في هذه العملية وعلى الإقناع العقلي وسرد الأدلة والشواهد والبراهين واستخدام القياس العقلي لاستنباط الأحكام العامة والاستعانة بالأمثلة الحسية لبيان صحة القضايا المعنوية... إلخ.

الأسلوب الإسلامي في تعديل الاتجاهات

يتميز هذا الأسلوب بالالتزام الخلقي، والإعتدال على الحقائق الواقعية البعيدة عن الأوهام والأباطيل، وعلاوة على ذلك، فلقد استعمل إسلامنا الحنيف الأساليب الجيدة لإقناع الناس قبل أن يبتدي إليها الغرب وينسبها خطأ إلى علمائه.

ومن سمات هذا الأسلوب الإسلامي الأساسية الإعتماد على الموعظة الحسنة في إقناع الناس، وتكوين اتجاهاتهم العقلية، والإعتدال على الحكمة والروية واللطف واللين، وليس العنف أو القوة أو الغلظة أو الإكراه، فلا إكراه في الدين مصداقاً لقوله تعالى: «أدع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة»^(١٣) النحل ١٢٥.

ويقوم الإقناع والجدال من أجل الوصول إلى الحقيقة بالدفع بالتي هي أحسن «أدفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم» فصلت/٣٤. فالإنجاء الذي يتسم بالمودة والصداقة الحميمة والمواولة يتكون من جراء هذا النهج الإسلامي الرفيع القائم على أساس الدفع بالتي هي أحسن. وإذا كان الجدال أحد سبل الإقناع وتعديل الاتجاهات، فإنه يتصف، في الإسلام بالحسنى أيضاً «وجادلهم بالتي هي أحسن» النحل/١٢٥. فالمجادلة هي قرع الحجج بالحجة وهي منهج عقلائي يقره الإسلام الحنيف.

ويدعو الإسلام أبناءه، تأسياً برسولنا الكريم، للتخلي برقة القلب والعطف والرحمة والمودة والحلم والتواضع «ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك» آل عمران/١٥٩. وفي هذا المعنى البليغ سبق الإسلام في إدراك ما يقرره علماء النفس من ضرورة تمتع الداعية بحب الجماعة وتقديرهم وإعجابهم. ويؤكد الإسلام أن رسولنا الكريم وقدوة المسلمين جميعاً إنما هو بشر مثلاً، وفي ذلك إدراك للفكرة الحديثة التي تحتم أن يشبه الداعية الأتباع في بعض

الصفات والخصائص حتى يلتفتوا حوله ويتوحدون وإياه ويتجاوبون معه «قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إليّ أنما ألهمكم الله واحده» الكهف/ ١١٠.

وتمتاز الدعوة الإسلامية في أن ماتدعوا إليه الناس ليس من وضع البشر وإنما هو من صنع الله تعالى وهو الأقدر على فهم طبيعتهم البشرية والأعرف بمصالحهم وخيرهم . ولذلك تكون التعاليم الإسلامية محل ثقة الناس، لأنها صادرة عن الله تعالى الصادق الصدوق .

ويعتمد الأسلوب الإسلامي في الدعوة على توفر القدوة الحسنة والمثال الطيب الذي يحتذى وهو رسولنا الكريم الذي وصفه الله تعالى بالخلق العظيم «وإنك لعل خلق عظيم» القلم/ ٦٨ . والقدوة الحسنة هي التي يلتف الناس حولها ويصدقون ماجاءت به «لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة» الأحزاب/ ٢١ . وفي الإسلام يمثل دائماً الرسول الكريم وصحابته البررة والأئمة الصالحين قدوة أمام الشباب المسلم في كل العصور^(١٤) . ويرتبط القول بالعمل الصالح «أثمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم» البقرة/ ٤٤ .

ويدعو الإسلام الناس لاستخدام عقولهم وأبصارهم لأخذ العظات والعبر والاستدلال بأنفسهم على عظمة الخالق من آيات خلقه «إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى لألباب» آل عمران/ ١٩ . فالاستشهاد بالظواهر الكونية وبكافة مخلوقات الله تعالى سبيل من سبل الإقناع العقلي في الإسلام . والإسلام يشجع أصحابه على طلب العلم، والتفقه في الدين، ولذلك ينزل العلم والعلماء منزلة خاصة «قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون» الزمر/ ٩ . وطلب العلم، في التصور الإسلامي، فريضة على كل مسلم، وهو نوع من الجهاد في سبيل الله ، ولذلك حثنا الإسلام على طلبه من المهد إلى اللحد، والسعي إليه ولو كان في أقصى بلاد العالم . ولذلك كان أعظم طلب يطلبه الله تعالى من رسوله الكريم هو طلب العلم والقراءة والكتابة «اقرأ باسم ربك الذي خلق» العلق/ ١ .

والإسلام يدعونا للتأمل والتدبر والتعقل والتفكير والادراك والتبصر في مخلوقات الله تعالى حتى نكون الاتجاهات الصحيحة نحوها ونحو خالقها العظيم جل شأنه .

وتقوم الدعوة في الإسلام على طلب الخير والتعاون وتحقيق النفع للناس، وليس على أساس التعصب ضد الناس أو التحيز أو الانتقام «وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم

والعدوان» المائدة/٢^(١٥). ولذلك فتعديل اتجاهات الناس لتسير في اتجاه الخير والبر والإحسان والتعاون والتضامن والتكافل والإصلاح والبعد عن الاثم والشر والعدوان. فالإسلام دائماً في كافة أساليبه، يتوخى الحرص الدقيق على المثل العليا في الأخلاق والسلوك. وذلك اهتمام بقوله تعالى «كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر» البقرة/ ١١٠. فأساس أسلوب تعديل الاتجاهات العقلية أساس خلقي يتمثل في الدعوة إلى المعروف والنهي عن المنكر.

وأساس تجميع عقول الناس وأفكارهم المحبة والألفة، وليس العداء أو الخصام «وذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم» آل عمران/ ١٠٣. وتقوم الدعوة كذلك على أساس من العفو والتسامح والرضا والانفاق في سبيل الله تعالى «الذين ينفقون في السراء والضراء والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس» آل عمران/ ١٣٤.

ويستنكر الإسلام السمات الذميمة كالكذب والغش والخداع والضلال والبغي والظلم والعدوان والاثم والكبر والتعالى والغرور وما إلى ذلك «ولهم عذاب أليم بما كانوا يكذبون» البقرة/ ١٠.

ولقد كان لإسلامنا الحنيف فضل السبق في إدراك فائدة انتهاج منهج الترغيب والترهيب في تعديل اتجاهات الناس وتخليصهم من عادات الوثنية والشرك والكفر والصراع والتطاحن والقتال وواد البنات وشرب الخمر ولعب الميسر، ودعاهم إلى الإجماع، ودعا إلى عقاب من يشق عصا الطاعة ويخرج عن دين الله «إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فساداً أن يقتلوا» المائدة/ ٣٣. وهي فكرة إثارة الخوف والقلق في نفوس الناس التي يدعى علماء النفس ابتكارها لإلزام الناس بتغيير اتجاهاتهم. والإسلام يدعوهم إلى الطاعة «ومن يطع الله ورسوله يدخله جنات تجري من تحتها الأنهار» النساء/ ١٣. فالجنة جزاء حسن، لمن يطع الله ورسوله، ولن يعمل عملاً صالحاً، بينما جهنم وعذاب النار مصير العصاة المحتوم. ويحذر الإسلام من انتشار التنازع والاختلاف الفكري أو الطائفي «وأطيعوا الله ورسوله ولا تنازعوا فتفشلوا» الأنفال/ ٤٦. والإسلام يدعو الناس لطريق الهدى «فمن اتبع هداي فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون» البقرة/ ٣٨.

ويتخذ الإسلام من الشورى أساساً لإقناع الناس ولاتخاذ القرارات ولإدارة المجتمع «فأعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم في الأمر» آل عمران/ ١٥٩ . ومع الإعتماد على العقل والدعوة للعقل والتأمل والتدبر والتفكير في مخلوقات الله ، ولكن للعقل حدوداً لا يستطيع أن يتعداها . ومع إباحة الجدل بالحسنى إلا أنه ليس مطلقاً فلا جدال في الحجج كي لا ينال ذلك من وحدة المسلمين الغفيرة «فلا رفث ولا فسوق ولا جدال في الحجج» البقرة/ ١٩٧ . وتنسم الحياة الإسلامية باليسر وليس بالعسر مما يجب الناس فيها «يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر» البقرة/ ١٨٥ .

وهكذا يتضح ، للقارئ الكريم ، مبلغ إدراك إسلامنا الأغفر للأساليب الجيدة في تعديل اتجاهات الناس ، وكيف اتسم أسلوبه بالطابع الخلقي وتوخي الأمانة والصدق والإعتماد على النقاش الحر ودعوة العقل للتأمل والتدبر ، والقياس والاستدلال والاستشهاد بالأمور المعروفة على الأمور الخفية أو بالأمور الحسية على الأمور المعنوية ودعوة الناس باللطف واللين والحسنى والتعاطف معهم وتوفير المثل الأعلى أمامهم دائماً .



هوامش البحث

- (١) عبد الرحمن العيسوي، دكتور، دراسات في علم النفس الاجتماعي، دار المعرفة الجامعية بالاسكندرية .
- (٢) أحمد عزت رابع، دكتور، أصول علم النفس، المكتب العربي الحديث، الاسكندرية .
- (٣) يحيى بن شرف الدين النووي، الإمام، مختصر كتاب رياض الصالحين، دار القلم، بيروت، ٩٨٣ .
- (٤) Coon, D., Essentials of psychology, West publishing Co-New York 1982.
- (٥) مرجعه السابق Coon, D.
- (٦) المرجع السابق .
- (٧) عبد الرحمن العيسوي، دكتور، مرجعه السابق .
- (٨) مرجعه السابق Coon, D.
- (٩) عبد الرحمن العيسوي، دكتور، الآثار النفسية والاجتماعية للتلفزيون العربي، دار النهضة العربية بيروت، لبنان .
- (١٠) مرجعه السابق Coon, D.
- (١١) المرجع السابق .
- (١٢) عبد الرحمن العيسوي، دكتور، اتجاهات جديدة في علم النفس الحديث، دار النهضة العربية، بيروت .
- (١٣) القرآن الكريم .
- (١٤) بريكان بريكي القرشي، القدوة ودورها في تربية النشء، المكتبة الفصيلية، مكة المكرمة/١٤٠٥هـ .
- (١٥) محمد فؤاد عبد الباقي، المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، دار الفكر، لبنان، بيروت، ١٤٠١هـ .



د. محمد فاروق النبهان

مفهوم العلم عند الإمام الغزالي

من الشخصيات العلمية التي تركت أثراً بارزاً في عصرها وفي العصور التي تلتها الإمام أبو حامد محمد بن محمد الغزالي، المتوفي في طوس عام ٥٠٥هـ وكان الغزالي من أبرز علماء عصره وأكثرهم شهرة، فقد كانت حياته حافلة بالعطاء الفكري، وصاحب منهج فكري متميز بالخصائص، عميق الرؤية، لا يتوقف عند حدود النظرة السطحية التي ترى في ظواهر الأشياء ما يغنيها، وإنما يتوغل في أعماق النفس، فيستوحي منها رؤاه الفكرية، ويطرحها من خلال كتاباته وكتبه، معتمداً في ذلك على ما يملكه من ملكة في التفكير والتقييم والتحليل، مستنداً في ذلك إلى نصوص نقلية من القرآن الكريم والسنة الشريفة، وأقوال السلف الصالح...

ولا غرابة في أن تلقى كتبه وآراؤه عناية خاصة من علماء الإسلام قديماً وحديثاً، وأن يقع الاختلاف في تقويم تلك الآراء، من حيث ملاءمتها للمنهج الإسلامي الصحيح، وبخاصة فيما يتعلق بالسلوك والمجاهدة والانصراف إلى تربية النفس، وفق منهج خاص يقوم على أساس مغالبة النفس والابتعاد عن الناس والزهد في الدنيا.

والمنعطف البارز في حياة الغزالي هو تلك العزلة التي فرضها على نفسه، بعد حياة علمية كانت مشاركته فيها قوية وراسخة، واستطاع بفضل منهجه العلمي أن يكون موطن التقدير والاحترام لدى الأوساط العلمية، التي عرفت فضله وعلمه، واعترفت له بسعة الاطلاع والتفوق على الأقران، وبخاصة في الفترة التي لازم فيها إمام الحرمين في نيسابور، ولما سمع به الوزير نظام الملك أحضره مجلسه، وناظر علماء عصره، وظهر عليهم بقوة حجته، وعمق فكرته، وسعة اطلاعه، وتمكنه من الفلسفة والحكمة، إلى أن أصبح أستاذاً في المدرسة النظامية في بغداد، وكانت هذه المدرسة من أهم مدارس ذلك العصر وأكثرها شهرة...

إلا أن الإمام الغزالي لم يأنس بتلك المكانة والشهرة، وتطلعت نفسه إلى عالم جديد مختلف في قيمه، يعيد إلى الإنسان هدوءه النفسي واستقراره الروحي، فانصرف إلى علم جديد، وابتدأ بمخالطة رجاله، وتتبع مقاصده، والاهتمام بالعمل والسلوك، والنظر إلى الآخرة والزهد في الدنيا، والانصراف إلى الله تعالى عن طريق الإعراض عن المال والجاه والشواغل والعوائق...

كتاب إحياء علوم الدين

ويعتبر هذا الكتاب من أهم كتب الغزالي وأكثرها شهرة، وقد كتبه في أواخر حياته بعد أن اعتزل الناس، وقال في مقدمته مبيناً رأيه في علماء زمنه، مندداً بجهلهم والذي استحوذ عليه الشيطان واستغواهم الطغيان، وأصبح كل واحد يعاجل حظه شغوفاً، فصّار يرى المعروف منكراً والمنكر معروفاً، حتى ظل علم الدين مندرساً، وبنار الهدى في أقطار الأرض منطمساً، ولقد خيلوا إلى الخلق أن لا علم إلا فتوى حكومة تستعين به القضاة على فصل الخصام عند تناوش الطعام، أو جدل يتذرع به طالب المباهة إلى الغلبة والافحام أو سجع مزخرف يتوسل به الواعظ إلى استدراج العوام^(١).

ثم يبين أن الذي دفعه إلى الاشتغال بتحرير كتاب الإحياء هو انصراف علماء عصره عن علم الآخرة وما درج عليه السلف الصالح، للكشف عن مناهج الأئمة المتقدمين...

وقد قسم كتابه إحياء علوم الدين إلى أربعة أرباع^(١):

– **الربع الأول:** ربيع العبادات: ويشتمل على عشرة كتب، كتاب العلم، وكتاب قواعد العقائد، وكتاب أسرار الطهارة، وكتاب أسرار الصلاة، وكتاب أسرار الصيام، وكتاب أسرار الحج، وكتاب آداب تلاوة القرآن القرآن، الأذكار والدعوات، وكتاب ترتيب الأوراد في الأوقات...

– **الربع الثاني:** ربيع العادات: ويشتمل على عشرة كتب، وتتعلق بآداب الأكل والنكاح وأحكام الكسب والحلال والحرام، وآداب الصحبة والمعاشرة، والعزلة، وآداب السفر، والسماع والوجد، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وآداب المعيشة، وأخلاق النبوة...

– **الربع الثالث:** ربيع المهلكات: وقد ذكر فيه كل خلق مذموم ورد القرآن بإحاطته وتزكية النفس عنه وتطهير القلب منه، وذكر كل واحد من تلك الأخلاق على حده وحقيقته وذكر سببه الذي يتولد منه والآفات التي تتولد عنها، وطرق معالجة تلك الآفات وقد اشتمل هذا الربع على عشرة كتب: منها كتاب شرح عجائب القلب، ورياضة النفس وآفات الشهوتين، وآفات اللسان، وآفات الغضب والحقد والحسد، وذم الدنيا والمال والجاه والرياء والكبر والغرور والعجب...

– **الربع الرابع:** ربيع المنجيات: وقد ذكر فيه كل خلق محمود وخصلة مرغوب فيها من خصال المقربين والصديقين التي يتقرب بها العبد إلى ربه، وذكر في كل خصلة حدها وحقيقتها وسببها وثمرتها وعلامتها، وقد اشتمل هذا الربع على عشرة كتب أيضاً: التوبة، والصبر والشكر، والخوف والرجاء، والفقر والزهد، والتوحيد والتوكل، والمحبة، والشوق، والنية والصدق والاخلاص، والمراقبة والمحاسبة، والتفكير، وذكر الموت...

اهتمام الغزالي بالعلم

ومن الملاحظات الدالة على اهتمام الإمام الغزالي بالعلم اختياره لكي يكون كتاب العلم هو الكتاب الأول من الربع الأول من كتابه الإحياء، وقسمه إلى سبعة أبواب، تحدث فيها عن

فضل العلم والتعليم والتعلم وشواهد من النقل والعقل، وفرض العين والكفاية من العلوم وما يعتبر من علوم الدين وما لا يعتبر من العلم المذموم، وآداب المناظرة وآداب المعلم والمتعلم، وآفات العلم والعلماء، والعقل وفضله وأقسامه وما جاء فيه من الأخبار^(٣).

وقد علل ذلك التصدير بالعلم للكشف عن العلم الذي تعبد الله على لسان رسوله ﷺ الأعيان بطلبه، في قوله طلب العلم فريضة على كل مسلم، وللتمييز بين العلم النافع والعلم الضار، ولانخداع أهل العصر بلامع السراب، واقتناعهم من العلوم بالقشر عن اللباب^(٤).

مفهوم الفصل عند الغزالي :

والعلم عند الغزالي^(٥) فضيلة في حد ذاته من غير اضافة، لأنه وصف كمال الله تعالى، ولا تستعمل الفضيلة إلا في حالة تشارك شيئين في أمر واختصاص أحدهما بمزيد على الآخر، فيما يؤدي إلى كمال ذلك الشيء، ولهذا تختلف الزيادة باختلاف أهميتها بالنسبة للشيء، ولا تطلق كلمة الفضل ما لم تكن الزيادة دالة على الكمال، كشدة العدو بالنسبة للفرس يعتبر فضيلة، وليست فضيلة بالنسبة لغيرها...

وإذا كانت الأشياء النفيسة المرغوب فيها مطلوبة، فإن بعضها مطلوب لذاته، وبعضها لغيره، فإن العلم مطلوب لذاته ولغيره معاً^(٦)، فهو لذاته وهو وسيلة إلى السعادة في الآخرة، لأن ذلك الهدف لا يتحقق إلا عن طريق العمل والعلم...

معار الشرف عند الغزالي :

ويرى الغزالي أن العلم من أشرف الصناعات، لأن شرف الصناعة يعرف بثلاثة أمور^(٧):

● **الغريزة:** ويتوصل بها إلى معرفة فضل العلوم العقلية على اللغوية، لأن الحكمة تدرك بالعقل، واللغة تدرك بالسمع، والعقل أشرف من السمع.

● النفع: الزراعة أفضل من الصياغة، لأن نفع الزراعة للإنسان أكبر وأوسع، لأنها من الضروريات.

● المحل: الصياغة أفضل من الدباغة، لأن محل الصياغة الذهب، ومحل الدباغة جلد الميتة...

وتعتبر العلوم الدينية من أشرف الصناعات، لأنها تدرك بطريق العقل، والعقل أشرف صفات الإنسان، لأن به تقبل أمانة الله، ولا يستراب بمحوم نفع العلوم الدينية لأن ثمرتها ونفعها سعادة الآخرة، أما شرف محلها فهو غير خاف لأن المعلم ينصرف إلى قلوب البشر ونفوسهم، والإنسان أشرف موجود على الأرض وقلبه أشرف جزء من جواهر الإنسان، ومهمة المعلم تتمثل في تجلية القلب وتطهيره^(٨)...

وهذا التحليل المنطقي والعقلي لفضل العلم وشرفه يؤكد لنا منهج الإمام الغزالي في التفكير العلمي الذي يعتمد القياس والتدرج من الفروع إلى الأصول، ومن الجزئيات إلى الكليات، وهو منهج رياضي فلسفي يعتمد على الانتقال المنطقي من جزئية مسلم بها إلى جزئية أخرى، لكي يصل الإنسان إلى الحقيقة...

ومن هنا تبرز أهمية «الغزالي» كمفكر إسلامي أثري الفكر الإسلامي بمنهج متميز المعالم.

ولا شك أن ما طرحه الغزالي في موطن تعريفه بفضل العلم من أن الفضل لا يعني الزيادة بالمفهوم الكمي، وإنما يعني الزيادة الدالة على الكمال، أو بصورة أدق الاختصاص الذي يتميز به أحد الطرفين على الآخر، بما يدل على أهمية ذلك الاختصاص بالنسبة للشيء، كالعدو بالنسبة للفرس، والجمال بالنسبة للمرأة، والشجاعة بالنسبة للرجل، والخصوبة بالنسبة للأرض، والرائحة بالنسبة للورد، والشمرة بالنسبة للشجرة، وهكذا يكون مفهوم الفضل مرتبطاً بالاختصاص والتميز الذي يفيد معنى الكمال...

وفي مجال الحديث عن شرف العلم يطرح الغزالي رأيه المنطقي، بأسباب الشرف بالنسبة للصناعات، وهي الغريزة والنفع والمحل، ومن البدهي أن يكون العقل أشرف من السمع،

وينتج عنه أن ما يدركه العقل أشرف مما يدركه السمع، ولما كانت الحكمة تدرك بالعقل فهي أشرف من اللغة التي تدرك بالسمع...

ثم يضع معياراً آخر وهو «عموم النفع»، فما اشتد نفعه وقويت الحاجة إليه، يكون أفضل مما قل نفعه وضعفت الحاجة إليه، وهكذا تكون الزراعة أفضل من الصياغة، لأن الناس قد تستغني عن الصياغة ولكنها لا يمكن أن تستغني عن الزراعة، لأن استمرار حياة الإنسان ترتبط باستمرار الزراعة، ويمكننا أن نضع معياراً منطلقاً من هذا المنطق العقلي، نحدد من خلاله شرف الصناعات من حيث الحاجة إليها، وكلما قويت الحاجة وعمت الفائدة اتسع مفهوم الشرف، وأعطى بعده الانساني من حيث الربط المحكم بين الشرف وحاجة الناس، وهذه النظرة تدفعنا إلى إعادة النظر في كثير من القيم الإجتماعية السائدة التي ترتب الصناعات بحسب مردودها المادي، فتمتنع أحياناً بعض الصناعات الضرورية للإنسان لأن مردودها ضعيف، وتضع اعتباراً خاصاً لمن أخرى لا يحتاج إليها الإنسان ولا يشعر بأهميتها في حياته...

ثم ينتقل إلى معيار ثالث وهو المحل، فما كان محله الذهب أفضل مما كان محله جلد الميتة، وبالتالي فإن ما كان محله الإنسان لا يمكن أن يكون مماثلاً لما كان محله الحيوان.

وأخيراً يصل إلى النتيجة التي يقرها منذ البداية وهي أن العلوم الدينية أشرف الصناعات لأن العلم موطنه العقل، والعقل أشرف صفات الإنسان، والإنسان أشرف المخلوقات، وتنصرف مهمة العلوم الدينية إلى تطهير القلب، والقلب أشرف جزء من جسم الإنسان، وبهذا الاعتبار يصبح العلم الذي ينصرف إلى تطهير النفس والقلب من أشرف العلوم الأخرى، والعلوم من أشرف الصناعات لعموم نفعها من حيث السعادة الآخروية، ولشرف محلها الذي هو القلب والعقل...

حكم تعلم العلم

يرى الغزالي أن العلم إذا كان أفضل الأمور كان تعلمه طلباً للأفضل، وتعليمه إفادة للأفضل، وذلك لأن أعظم الأشياء بالنسبة للآدمي السعادة الأبدية، وأفضل الأشياء ما هو وسيلة إليها، ولا يتوصل إليها إلا بالعلم والعمل، ولا يتوصل إلى العمل إلا بالعلم بكيفية العمل، وهكذا يصبح العلم واجباً على كل آدمي...

ويكون العلم فرض عين أو فرض كفاية بحسب أهميته بالنسبة للإنسان، ومدى الحاجة إليه، ونظراً إلى أن الإنسان البالغ العاقل مكلف بالعمل، فإن من واجبه أن يتعلم ما هو مكلف به من اعتقاد وفعل وترك، ويعتبر هذا العلم فرض عين...

فإذا بلغ الإنسان العاقل فأول ما يجب عليه تعلم كلمتي الشهادة وفهم معناهما، ولا يجب عليه كشف ذلك لنفسه بالنظر والبحث وتحرير الأدلة، وكفيه أن يصدق به ويعتقده جزءاً من غير اختلاج ريب واضطراب نفس، ويحصل ذلك بمجرد التقليد والسماع من غير بحث ولا برهان...

أما الفعل فإن المكلف إذا دخل عليه الوقت وجب عليه تعلم ما يجب عليه أدائه، فإذا كان الوقت لا يتسع لتمام التعلم والعمل لخروج الوقت فالظاهر أنه يجب عليه تقديم التعلم على الوقت، وقيل لا يجب العلم إلا بعد وجوب العمل...

وأما الترك فيجب تعلم ذلك بحسب ما يتجدد في الحال، ولا يجب على الأيكم تعلم ما يحرم من الكلام، ولا على الأعمى تعلم ما يحرم من النظر.

كما يجب عليه تعلم ما يتوصل به إلى إزالة الشك فيما يخطر له من الاعتقادات، أو فيما يمكن أن يلقي إليه عن طريق تلقينه الحق، بحيث يكون متمكناً من دفع الباطل...

أما العلم الذي يعتبر فرض كفاية فهو كل علم لا يستغنى عنه في قوام أمور الدنيا، كالطب فهو ضروري في حاجة بقاء الأبدان، والحساب فإنه ضروري في المعاملات وقسمة الوصايا ويدخل ضمن هذا الواجب الكفائي تعلم كل العلوم التي يحتاج إليها المجتمع، ويدخل فيها تعلم أصول الصناعات، ولو خلا البلد عن من يقوم ببعض ما يحتاج إليه أهل ذلك البلد أثم الجميع^(٩).

ومن الملاحظ أن العلم الذي يعتبره «الغزالي» فرض عين: يتعلق بالعلم الذي يمكن صاحبه من أداء واجباته الدينية، في مجال الاعتقاد والعمل، وذلك لأن العمل لا يتوصل إليه إلا بالعلم بكيفية ذلك العلم، بحيث يكون أداؤه صحيحاً، إذ لا يمكن تبرير الخطأ في العمل بالجهل، لأن الجهل لا يعتبر في نظر الإسلام عذراً مبيحاً للانحراف، ولهذا فإنه يعتبر القدر الضروري من العلم فرض عين على كل مكلف، لأن التكليف بالعمل يوجب العلم به، ولا يقصد «الغزالي» من هذا العلم وبخاصة في مجال الاعتقاد التمكن من البحث والنظر وتحرير الأدلة، فذلك مما يخرج عن دائرة الامكان، لأنه يحتاج إلى قدرة لا تتوفر لدى الإنسان الذي لم يتفرغ للعلم...

ونقل الإمام «الغزالي» بعد ذكر العلم الذي يعتبره فرض عين اختلاف العلماء فيه^(١٠) فقال المتكلمون: هو علم الكلام لأن به يدرك التوحيد، وقال الفقهاء: هو علم الفقه لأن به تعرف العبادات والحلال والحرام، وما يحرم في المعاملات وما يحل، وقال المفسرون والمحدثون: هو علم الكتاب والسنة لأن بهما يتوصل إلى العلوم كلها.

ويبدو أن «الغزالي» لا يأخذ بهذه الأقوال، لأنه يرى أن العلم الذي يعتبر فرض عين هو علم المعاملة التي كلف العبد العمل بها في مجال الاعتقاد والفعل والترك. لأن من المستحيل أن يكون العلم الذي يعتبر فرض عين هو معرفة علم الكلام أو علم الفقه أو علم التفسير أو الحديث، لأن ذلك يخرج عن حدود الطاقة البشرية، إلا إذا كان القدر المطلوب لا يتجاوز

مقدار معرفة الكليات الأساسية في مجال العقيدة والمعاملة، وهذا القدر كاف لمعرفة كيفية العمل...

العلوم المحمودة والعلوم المذمومة

يرى «الغزالي» أن العلوم إما أن تكون محمودة أو مذمومة أو مباحة، ويرتبط ذلك بحسب ارتباط تلك العلوم بالمجتمع، ويأثرها فيه من حيث مساهمتها في تحقيق مصالحه، أو في إلحاق أضرار به، أو من حيث انعدام الفائدة منها...

ويقدم «الغزالي» في هذا المجال معياراً موضوعياً للحكم على العلم من حيث كونه محموداً أو مذموماً، وهذا الحكم لا ينطلق من صفة ذاتية في العلم الذي يعتبر ضمن العلوم المذمومة، لأن العلم لا يمكن أن يكون مذموماً بأي حال من الأحوال، لأنه معرفة الشيء على ما هو عليه، والعلم بهذه الصفة من صفات الله تعالى، ولذلك لا يمكن للعلم بهذا الاعتبار أن يكون مذموماً لعينه، وإنما تلحقه صفة الذم من حيث أثره في العباد...

والعلوم المحمودة قسمان :

الأول: العلوم الشرعية: وهي العلوم التي استفيدت من الأنبياء مما لا يرشد العقل إليه أو التجربة، أو السماع، وتشمل أربعة أقسام:

١ - الأصول :

الأصول أربعة: كتاب الله وسنة رسوله، وإجماع الأمة وآثار الصحابة، ويستدرك «الغزالي» موضعاً موقع الإجماع والآثار من الأصول بأنها أصل من حيث دلالتها على السنة لأن الصحابة شاهدوا الوحي والتنزيل وأدركوا بقرائن الأحوال ما غاب عن غيرهم، لذلك رأى العلماء الاقتداء بهم والتمسك بآثارهم...

٢ - الفروع :

وتشمل ما فهم من تلك الأصول لا بموجب ألفاظها بل بمعان تنبّهت لها العقول فأتسع بسببها الفهم، حتى فهم من اللفظ به غيره، ولعل الغزالي يقصد بالفروع ما استنبط عن طريق المصادر الاجتهادية عن طريق القياس والاستحسان ووفق منهج الدلالات اللفظية التي تدخل ضمن اختصاص علماء أصول الفقه.

٣ - المقدمات :

وتشمل العلوم غير الشرعية التي تجري مجرى الآلات التي لا يمكن فهم النصوص الشرعية إلا عن طريقها، كعلم اللغة والنحو، وهما آلة لعلم كتاب الله وسنة رسوله، لأن القرآن نزل بلغة عربية، ولا يمكن فهم القرآن إلا عن طريق فهم اللغة العربية، فاللغة ليست من العلوم الشرعية، ولكنها آلة لفهم كتاب الله، ولعل هذا الفهم الدقيق لمدى ارتباط اللغة والنحو بالقرآن والسنة من أهم أسباب اهتمام علماء المسلمين بعلم اللغة والنحو لكي يتمكنوا من فهم كتاب الله، لأن الحركة العلمية التي شهدناها فجر تاريخنا الإسلامي خلال القرون الهجرية الأولى كان منطلقها الأساسي وباعثها الحقيقي هو التمكن من فهم أحكام الشريعة، أصولاً وفروعاً، مصادر وإحكاماً...

٤ - المتممات :

ويشمل هذا القسم جميع العلوم التي تمكن المسلم من معرفة القرآن من حيث اللفظ كعلم القراءات ومخارج الحروف، أو المعنى كال تفسير، أو الحكم كمعرفة الناسخ والمنسوخ والخاص والعام والنص والظاهر، كما يدخل ضمن هذا القسم علوم السنة المتعلقة بمعرفة الرواة، وأسمائهم وأنسابهم وصفاتهم وأحوالهم، لأن ذلك يمكن المسلم من التأكد من سلامة الحديث من حيث صحة الإسناد، وعدالة الرواة، ودقتهم فيما يروون من أحاديث وآثار...

يرى «الغزالي» أن العلم لا يمكن أن يكون مذموماً لذاته، وإنما يذم في حق العباد لما يمكن أن يؤدي إليه من ضرر لصاحبه أو لغيره، ويعرض أمثلة للعلوم المذمومة: كعلم السحر والطلسيات وعلم النجوم...

وأسابب اطلاق صفة العلوم المذمومة ما يلي: (١)

أولاً: لأنه يؤدي إلى ضرر بصاحبه: ويدخل ضمن هذا النوع علم النجوم، فهو غير مذموم لذاته، وهو قسمان: قسم حسابي، وقد نطق القرآن بأن مسير الشمس والقمر محسوب قال تعالى: ﴿الشمس والقمر بحسبان﴾، أما القسم الثاني فيعتمد على الاستدلال على الحوادث بالأسباب، وهو معرفة لجاري سنة الله تعالى وعاداته في خلقه، وأما ضرره فهو أن بعض الناس إذا ربطت الحوادث بالنجوم اعتقدت أن الكواكب مؤثرة ومدبرة، لأنها كواكب سبأوية، وعندئذ يرجون الخير والشر منها، فيؤدي ذلك إلى الانحراف في العقيدة.

ثانياً: لأنه يؤدي إلى ضرر بالغير: ويدخل ضمن هذا القسم علم السحر، ويرى «الغزالي» أن السحر حق لأن القرآن شهد له، وهو نوع يستفاد من العلم بخواص الجواهر وبأموار حسابية في مطالع النجوم، فيتخذ من تلك الجواهر هيكل على صورة الشخص المسحور ويُرصد به وقت مخصوص من المطالع، وتُقرن به كلمات يتلفظ بها في الكفر والفحش المخالف للشرع، وهذه الوسيلة لا تصلح إلا للإضرار بالناس، والوسيلة إلى الشر... .

ثالثاً: لأنه يعتمد على التخمين المطلق: مثل علم النجوم، والحكم به حكم بالجهل لأنه قد يصادف معرفة بعض الأسباب، إلا أن النتائج لا يمكن أن تكون صحيحة، لأن الإنسان لا يمكنه أن يطلع على حقائق الأمور...

رابعاً: لعدم الفائدة منه: والبحث في مثل تلك العلوم يعتبر خوصاً في فضول لا يغني، ويضيع عمر الإنسان في غير فائدة، ويقول «الغزالي» في موضوع الخوض في النجوم: إنه

اقتحام خطر وخوض في جهالة من غير فائدة، فإن ما قدر كائن، والاحتراز منه غير ممكن»^(١٣). ويرى «الغزالي» أن من العلوم المذمومة الخوض في علم لا يستفيد منه الخائض فائدة علم، كالبحث عن الأسرار الالهية^(١٤)، التي يتطلع الفلاسفة والمتكلمون إليها، ولم يستقلوها بها ولذلك يجب كف الناس عن البحث عنها، وردهم إلى ما نطق الشرع به، ثم يقول في مجال توجيه النصح^(١٥).

واقصر على اتباع السنة، فالسلامة في الاتباع، والخطر في البحث عن الأشياء والاستقلال، ولا تكثر اللجج برأيك ومقولك ودليلك وبرهانك وزعمك أني أبحت عن الأشياء لأعرفها على ما هي عليه... وكم من شيء تطلع عليه فيضرك اطلاعك عليه ضرراً يكاد يهلكك في الآخرة ان لم يتداركك الله برحمته... .

وان هذا المعيار الذي وضعه «الغزالي» للعلوم المحمودة والعلوم المذمومة جدير بالاهتمام والدراسة، لأن العلم الذي يؤدي إلى الحاق الضرر بصاحبه أو بالمجتمع جدير بأن يكون علماً مذموماً، وإذا ثبت الضرر بصاحبه أو بالمجتمع ثبتت الحرمة، لأن الحرمة مرتبطة بالضرر، إذ لا يمكن للعلم أن يكون مباحاً، لما يترتب عليه من ضرر، وهو هنا محرم لما يترتب عليه من أضرار، سواء كانت تلك الأضرار مادية كالحاق الضرر بمصالح المجتمع، أو كان الضرر مرتبطاً بتشجيع الانحراف العقائدي، فإذا ثبت أن علماً من العلوم يؤدي - كما يقول الغزالي - إلى أن يعتقد الجهلة والعوام بأن الكواكب مؤثرة ومدبرة يرجى الخير منها فإن ذلك مما يدخل ضمن الضرر المؤدي إلى الحرمة... .

وكذلك الأمر فيما يتعلق بالمعيار الآخر وهو «الفائدة»، فإن العلم له غاية، فإذا ثبت أن تلك الغاية غير مفيدة، فإن ذلك العلم يعتبر مذموماً، لأنه يسهم في ضياع الوقت والانصراف إليه عبث، ويخلص «الغزالي» من هذا إلى القول بأن البحث عن الأسرار الالهية مما يختص به الفلاسفة والمتكلمون يدخل ضمن العلم المذموم، لانعدام الفائدة منه، فضلاً عما يؤدي إليه من ضرر في العقيدة^(١٥).

أسباب التباس العلوم المذمومة بالعلوم الشرعية

يرى «الغزالي» أن منشأ التباس العلوم المذمومة بالعلوم الشرعية تحريف الأسماء المحمودة وتبديلها ونقلها بالأعراض الفاسدة إلى معان غير ما أَرادَه السلف الصالح، ونقل جملة ألفاظ هي أسماء محمودة، ولكنها نقلت إلى معان مذمومة، تنفر القلوب منها... ومن تلك الألفاظ: الفقه، والعلم، والتوحيد، والتذكير^(١٦)...

ففي مجال «الفقه» فقد تصرفوا فيه بالتخصيص، وخصصوه بمعرفة الفروع في الفتاوي والوقوف على دقائق عللها، وحفظ المقالات المتعلقة بها، وكان اسم الفقه يطلق في العصر الأول على علم طريق الآخرة ومعرفة دقائق آفات النفوس ومفسدات الأعمال...

وفي مجال «العلم» فقد كان يطلق على العلم بالله وبآياته وأفعاله، وقد تصرفوا فيه بالتخصيص حتى أصبح يطلق على من يشتغل بالمناظرة مع الخصوم في المسائل الفقهية.

وفي مجال «التوحيد» فقد كان العلم بالقرآن هو العلم، وكان التوحيد هو أن يرى الأمور كلها من الله تعالى رؤية تقطع التفاته عن الأسباب والوسائط، وأصبح فيما بعد عبارة عن صناعة الكلام ومعرفة طريق المجادلة والإحاطة بطريق مناقضات الخصوم، والقدرة على التشديق فيها بتكثير الأسئلة وإثارة الشبهات، مع أن منهج السلف كان قائماً على أساس الإنكار على من يستعمل أسلوب الجدل...

وفي مجال «الذكر»^(١٧) فقد ورد الثناء على مجالس الذكر، وقال تعالى: ﴿وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين﴾، إلا أن لفظ الذكر قد بدل وغير من ذلك المعنى المراد بالقرآن، إلى معاني جديدة تطلق على ما يقوم به الوعاظ من قصص وأشعار وشطح وطامات...

والقصص بدعة وقد ورد النهي عن الجلوس إلى القصصين، لأنهم ينقلون القصص التي تخرج عن نطاق القصص الواردة في القرآن، مما يضر ولا ينفع، وبعض تلك القصص من القصص الموضوعة التي يستجيز بعضهم وضعها ترغيباً في الطاعات، مع أن في الصدق مندوحة عن الكذب...

أما الشعر فإن أكثر ما اعتاده الوعاظ ما يتعلق بالتواصف في العشق وجمال المعشوق وروح الوصال وألم الفراق، مما يؤدي بالعوام المشحونة بواطنهم بالشهوات إلى استعمال نيران الشهوات، وهذا يؤدي إلى الفساد...

وأما الشطح^(١٨) فيطلق على ما يدعيه العوام من العشق مع الله والوصال المغني عن الأعمال الظاهرة، مما يستلذه الطبع، وتألف إليه النفس الضعيفة ويؤدي إلى القول بتزكية النفس والوصول إلى المقامات والأحوال، وأحياناً يكون الشطح عن طريق صدور كلمات غير مفهومة، ناتجة عن تحبط في العقل وتشويش في الخيال، قد يفهمها صاحبها ولكنه لا يملك القدرة على تفهيمها وإيرادها، ولا فائدة لهذا الجنس من الكلام إلا أن يشوش القلب ويدهش العقول وبحير الأذهان...

وأخيراً يتحدث «الغزالي» عن الطامات^(١٩) التي يراد بها صرف الفاظ الشرع عن ظواهرها المفهومة إلى أمور باطنة، كما يفعل الباطنية في التأويلات، وهذا حرام وضرره عظيم، لأن الألفاظ «إذا صرفت عن مقتضى ظواهرها بغير اعتصام فيه بنقل عن صاحب الشرع، ومن غير ضرورة تدعو إليه من دليل العقل اقتضى ذلك بطلان الثقة بالألفاظ، وسقط به منفعة كلام الله وكلام رسوله ﷺ»، وبهذا الطريق الذي تألفه النفوس وتستلذه توصل الباطنية إلى هدم جميع الشريعة...

واللفظ الخامس الذي يرى «الغزالي» أن معناه قد تغير «لفظ الحكمة»، وكانت الحكمة هي التي اثني الله عز وجل عليها فقال تعالى: ﴿يُؤْتِي الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً﴾، ثم أصبحت الحكمة تطلق على الطبيب والشاعر والمنجم، ثم يدعو في نهاية هذا البحث إلى أهمية الاقتداء بالسلف لرفع الالتباس الذي وقع بالنسبة لألفاظ العلوم ويصف ما أكب الناس عليه بأن أكثره مبتدع ومحدث...

والامام «الغزالي» من خلال هذه الرؤية الموضوعية يقدم نفسه كإمام مجدد للفكر

الإسلامي، مصحح لكثير مما التبس على المجتمع الإسلامي من مفاهيم وألفاظ، تغيرت دلالتها مع تغير الزمن، وتبدلت طبيعتها مع طبيعة ممارسة المجتمع لتلك المفاهيم، حتى أصبحت صورة ما عليه المجتمع مغايرة كل المغايرة لما كان عليه السلف، من التزام رصين بالمفاهيم الصحيحة للدلالات الألفاظ والمصطلحات، ومن حرص واضح على أن تكون تلك الدلالات منسجمة مع عقيدة الإسلام وتعاليمه...

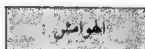
«فالغزالي» لا ينظر لمصطلحات الألفاظ من خلال ما شاع في المجتمع من مفاهيم مرتبطة بها، ولا يريد لتلك الأسماء الدالة على آفاق تتجاوز حدود النظرة الضيقة أن تكون أسيرة مفاهيم اجتماعية سائدة...

إن «العلم» في رأي الغزالي ليس هو المناظرة مع الخصوم في مسائل فقهية، والفقه ليس هو معرفة الفروع، والتوحيد ليس هو علم الكلام ومعرفة طريق المجادلة والتشديق بالأسئلة، ومجالس الذكر ليست هي مجالس القصاصين والشعراء وأصحاب الشطحات الذين يتشدقون بكلمات العشق الإلهي والوصال والتلاعب الجاهل بمعاني الألفاظ، وصرفها عن ظواهرها إلى معان باطنية تفتح الأبواب أمام الانحراف والضلال، كل ذلك يعرضه «الامام الغزالي» وبينه إلى خطره، ويؤكد أن هذا المنهج يخالف كل المخالفة لمنهج السلف الصالح في القرن الأول...

ولا شك أن «الامام الغزالي» الذي حسب بعض المتصوفة المنحرفين أن نقده للمنهج العقلي الذي يعتمد عليه علماء الكلام، ونقضه لأدلة الفلاسفة، ومناصرته لمذهب المهتمين بعلوم الآخرة، وبفضايا السلوك، سوف تكون دعماً لمنهجهم في الانحراف، وتأكيداً لسلامة ما يقدمونه من مفاهيم، إلا أن «الغزالي» المتمكن من الرؤية السليمة لمنهج الاسلام في التفكير، وقف مندداً بتلك الانحرافات، محذراً من خطورة تلك الظواهر الطافية التي تشوه صفاء الفكر الاسلامي ونقاء العقيدة الإسلامية...

وبهذا المنهج يؤكد «الامام الغزالي» أنه لا يتناسب العقل العداء، ولا يتحالف مع أعداء

المعرفة والعلم من الجهلة والمنحرفين، وإنما يعيد الأمر إلى نصابه ويقدم المنهج الإسلامي في صورته النقية الصافية التي تقوم على أساس الاعتراف بخصائص النفس الإنسانية، وبكامل تطلعاتها وامكاناتها الوجدانية.



- (١) انظر إحياء علوم الدين الجزء الأول ص ٢.
- (٢) انظر إحياء علوم الدين الجزء الأول ص ٢-٣.
- (٣) انظر إحياء علوم الدين الجزء الأول ص ٤.
- (٤) انظر إحياء علوم الدين الجزء الأول ص ٢.
- (٥) انظر إحياء علوم الدين الجزء الأول ص ١٢.
- (٦) انظر إحياء علوم الدين الجزء الأول ص ١٢.
- (٧) انظر إحياء علوم الدين الجزء الأول ص ١٣.
- (٧) انظر إحياء علوم الدين الجزء الأول ص ١٣.
- (٩) الإحياء ج ١ ص ١٢.
- (١٠) الإحياء ج ١ ص ١٤.
- (١١) انظر الإحياء ج ١ ص ٢٩-٣٠.
- (١٢) انظر إحياء علوم الدين ج ١ ص ٣٠.
- (١٣) انظر إحياء علوم الدين ج ١ ص ٣٠.
- (١٤) انظر إحياء علوم الدين ج ١ ص ٣١.
- (١٥) الإحياء ج ١ ص ٣١-٣٢.
- (١٦) الإحياء ج ١ ص ٣٢.
- (١٧) الإحياء ج ١ ص ٣٤.
- (١٨) الإحياء ج ١ ص ٣٦.
- (١٩) الإحياء ج ١ ص ٣٧.



من عمرات

المتابعة الدعوب للتراث العربي العريق

للأستاذ / الغزالي حرب

من أعظم ثمرات المتابعة الدعوب، للتراث العربي العريق، الثمرات الأربع
الآتيات:



- أ - ثمرة التصحيح لاسم القائل، بإزالة اللبس بينه وبين اسم آخر قريب منه في حروفه.
- ب - وثمره تصويب الخطأ الشائع بين الأدباء والمتأدين: الأصلاء منهم والأدعاء.
- ج - وثمره الإنصاف لصاحب القول المأثور بتصويب ما فيه من خطأ مقصود أو غير مقصود.

د - وثمره إثراء المعجمات اللغوية بكلمات وردت في هذا التراث، وإن لم ترد في تلك المعجمات اللغوية قديماً أو حديثاً، وهذه هي أهم الثمرات التي نجنيها من العكوف على المتابعة الدعوب لتراثنا العربي العريق، ومن هنا سنذكر لها أمثلة كثيرة وشواهد مختلفة، على حين أننا سنكتفي لكل ثمرة من الثمرات الثلاث الأولى بمثال أو شاهد واحد «وحسبك من القلادة ما أحاط بالعنق»:

أما ثمرة التصحيح لاسم القائل الملتبس باسم آخر، فحسبنا من أمثلتها المثال الآتي:
بعض شراح الشواهد الأدبية، وبعض الأدباء القدامى، نسبوا البيتين الآتين في وصف
رجل مصلوب إلى الأخطل التغلبي، الشاعر الأموي المشهور وما هما كما حقق المتابعون للتراث
الأدبي إلا للشاعر الأخطل الأهوازي وهذان البيتان هما قوله:

كأنه عاشق قد مد صفحته * يوم الوداع إلى توديع مرتحل
أو قائم من نعاس فيه لوثته * مواصل لتمطيه من الكسل^(١)
ومن نسبها إلى الأخطل التغلبي: أبو العباس المبرد، وبعض شراح ونقاد الشواهد الأدبية،
ولكن أبا الحسن الأخفش، حقق أن المبرد كان يدلس بنسبتها إلى الأخطل، أي يوهم من
يحدثه أنها للأخطل التغلبي، لا للأخطل الأهوازي، الذي هو القائل الحقيقي لهذين
البيتين^(٢).

وأما ثمرة التصويب للخطأ الشائع، فيكفيها من أمثلتها مثال الأبيات الجميلة الآتية في
وصف روض أريض طليل:

وقانا لفحة الرُمضاء واد * سقاه مضاعف الغيث العميم
حللنا دوحة فَحَنّا علينا * حنو المرضعات على الفطيم
وأرشفنا - على ظمأ - زلالا * ألد من المدامة للنديم
يصد الشمس أن واجهتنا * فيحجبها ويأذن للنسيم
تروغ حصاه حالية العذارى * فتلمس جانب العقد النظيم

وهذه الأبيات المشهورة، نسبها أدباء المغاربة، ومن تبعهم من أدباء المشاركة أو متأديهم
قديماً وحديثاً، إلى الأديبة الشاعرة القديمة: حمدة أو حمدونة بنت زياد بن تقي العوفي التي
لقبها بعضهم بخنساء المغرب، ومن القائلين بهذه النسبة: أبو جعفر الغرناطي المعروف
بالرعيني، وتبعه في ذلك ياقوت^(٣) الحموي في «معجم الأدباء» والمقرئ في «نفع الطيب»^(٤)
وغيرهما قديماً^(٥) وحديثاً معتمدين في نسبتها إلى «حمدونة الأندلسية» - كما قالوا - على ما فيها

من الخصائص أو الملامح النسوية، ولا سيما الرضاع والزينة والحنان. . ولكن المحققين من أدباء المشاركة نسبوا هذه الأبيات إلى أبي نصر أحمد بن يوسف المنازي الذي كان كاتباً وشاعراً ووزيراً لأحمد بن مروان الكردي صاحب «ميفارقين» و«دياربكر» وفيه يقول ابن خلكان - فيما يقول^(٦) - : ان أبا نصر المنازي مر بوادي قرية «بزاعا» قريباً من حلب فراقه ما فيها من عيون مائية، ومناظر خلابة، ومساقط مائية رائعة، ففاضت قريحته بهذه الأبيات الجميلة في وصف هذه الطبيعة، ونحن نرجح نسبة هذه الأبيات إلى المنازي، غير عابئين باشتهار نسبتها إلى حمدونة الأندلسية لأن المنازي توفي سنة ٤٣٧هـ = ١٠٤٥م - وكانت هذه الأبيات تنسب إليه، قبل أن تنسب بعد ذلك إلى حمدونة الأندلسية التي توفيت سنة ٦٠٠هـ / ١٢٠٤م ويبدو أن ما فيها من ملامح الأنوثة أو الأمومة هو الذي جعلهم ينسبونها إلى حمدونة، وما أشبههم في ذلك بمن ينسبون البيت الآتي لأبي العباس ابن الرومي في وصف بعض القيان والمغنيات إلى شاعرة أنثى، لا شيء إلا لما فيه من ملامح الأنوثة:

وقيان كأنها أمهات عاطفات على بنيتها حوان

جـ - وأما ثمرة الإنصاف لصاحب القول المأثور، بتصويب ما فيه من خطأ مقصود أو غير مقصود، فلها أمثلة وشواهد أخضعها النحاة ظلماً وعدواناً للقاعدة التي يريدون الاستشهاد لها وحسبنا المثال الآتي:

جميع النحاة أو معظمهم في أثناء شرحهم لبيت أبي مالك في باب «تعدى الفعل ولزومه» وهما قوله:

وعد لازماً بحرف جر ؕ وان حذف فالتصب للمنجر
نقلاً وفي «أن» و«أن» يطرد ؕ مع أمن لبس كعجت أن يدوا

أقول: جميع النحاة أو معظمهم، ينسبون هنا إلى جرير بن عطية الشاعر الأموي المشهور بيتاً تجري به ألسنتنا كثيراً هكذا:

تمرون الديار ولم تعوجوا ؕ كلامكم عليّ إذا حرام

فكلمة «الديار» في هذا البيت، منصوبة على نزع الخافض — كما قالوا — غير أن العاكفين على متابعة التراث العربي، يروقههم أن بلالا حفيد جرير بن عطية يقسم قائلاً — كما في ترجمة جرير بالأغاني — : والله . ! . ما قال جدي هذا البيت هكذا ! فسألوه : وماذا قال جدك يا بلال ؟ فقال بلال : إنما قال جدي جرير بن عطية :

أتسنى إذ تودعنا سليماً ۞ بعود بشامة سقى البشام
مضى كان الخيام بذى طلوح ۞ سقى الغيث أيتها الخيام
بنفسى من تودعه عزيز ۞ عليّ ومن زيارته لم
ومن يمسى ويصبح لا أراه ۞ ويطرقني إذا رقد النيام
مررت بالديار ولم تعوجوا ۞ كلامكم على إذا حرام

د — وأما ثمرة إثراء معجمات اللغة، بكلمات وردت في التراث العربي الأصيل وإن لم ترد في تلك المعجمات، فما أكثر أمثلتها وشواهدا التي تدل — أول ما تدل — على أن تراثنا العربي هو الحجة على المعجمات اللغوية، وليست هذه المعجمات بالحجة عليه — كائنة ما كانت — وسبحان من أحاط بكل شيء علماً، ومن هذه الكلمات التي اهتمت إليها في ضوء متابعتي الدعوى للتراث العربي الحبيب ما يأتي :

١ — عديّ بن الرقاع العاملي، الشاعر الأموي، قال يمدح عبد الملك بن مروان، ويهجو مصعب بن الزبر من قصيدة له، اختلفت مراجع الأدب القديم في تعدادها، ولكنها لم تختلف في إيراد البيت الآتي في مدح عبد الملك بالبسالة والإقدام في الحرب :

تظل القنابل يكسونه ۞ رواقاً من النقع لم يطنب

ومعنى هذا البيت أن القنابل — وهي هنا طوائف الناس والخيال في الحرب كست الممدوح البطل المقدام سترًا من الغبار الساطع الذي لم يطنب (بالنون المخففة المفتوحة)، أي لم يشد بالطنب التي هي حبال الخباء، والمعروف في معجمات اللغة : «طنب الخباء» (بالنون المشددة المفتوحة) أي : شده بالخيال إلى الأرض، ولكن شاعرنا العاملي استعمل هذا الفعل ثلاثياً^(٧) متعدياً مبنياً للمجهول.

٢ - بشامة بن الغدير الغطفاني، الشاعر الجاهلي، وخال زهير بن أبي سلمى قال من قصيدة له يصف الإبل التي كانت تسير حاملة النساء في الهوادج - ويسمونهن حينذاك: الظعن أو الظعائن:

تذرى الحصى رثماً من تحت منسهما^(٨) * كما يرض سوادي القرى حجر
والمعنى أن هذه الظعائن، كانت تطرح وتثر الحصى متكرراً من تحت مناسمها، تكسر التمر العراقي الصغير تحت وطأة الحجر الذي يدهقه دقاً ويصيره جريشاً وهكذا استعمل هذا الشاعر كلمة «رثم» (بالثاء المفتوحة) بمعنى الكسر والتحطيم، والمعروف أن معجمات اللغة لا تستعملها بهذا المعنى إلا بالثاء الساكنة.

٣ - وبشامة بن الغدير أيضاً في قصيدة له أخرى، فخر بقومه الأبطال الأشاوس الذين استجابوا للقائد العربي: لقيط بن زرارة في محاربة بني عامر بن صعصعة وبني عبس، على الرغم مما أصابه هو وقومه من جراح الهزيمة وآلامها قائلاً:

نحن الفوارس يوم الشعب ضاحية * والضاربون على ماكان من ألم
والمعلمون وعظم الخيل لاقحه * مبثوثة كعجيم ترعن جرم
يريد أن قومه كانوا أبطالاً معلمين في الحرب يجعل الواحد منهم لنفسه علامة في الحرب يعرف بها، ولم ينزلوا ميدان الوغى، إلا ومعظم الخيل منتشرة في أنحائه انتشار «العجيم» وهو نوى التمر المتطاير من البؤرة التي كانوا يدقون فيها النوى دقاً . . . وهكذا استعمل هذا الشاعر كلمة «العجيم» بهذا المعنى وهي كلمة لم ترد في معجمات اللغة، التي لم تذكر إلا كلمة «العجام» (بضم العين) وكلمة «العجم» (بفتح العين والجيم) بمعنى نوى التمر أو نوى كل شيء «أي كل ماكان في جوف مأكول كالزبيب وما أشبهه والواحدة عجمة يقال: «ليس لهذا الرمان عجم».

٤ - وبشامة بن الغدير كذلك، قال من هذه القصيدة نفسها، يصور الخيل المخيرة القوية، التي كان فرسان غيظ بن مرة يمتطونها ليغيروا بها على أعدائهم كالغبية أي السيل المنهمر، والمطر

المندفع الذي بَرَكَ فيهم وألَحَّ عليهم:

مالت عليهم لفيظ غيبة بركت فيهم أحاديثهم في الناس كالحلم
وهكذا استعمل هذا الشاعر كلمة «بركت» فعلاً ثلاثياً... على حين أن معجمات اللغة لم
يرد فيها إلا الفعلان: «أبرك»، و«ابترك» الحساب أي اشتد نزول مطره ملحاً متدفقاً.

٥ - وشبيب بن البرصاء^(٩) الشاعر الجاهلي أو المخضرم يقول في تصوير شدة الروع والفرع
التي أصابت ابنة العذرى، فإذا هي «روعي» مفزعة بوادي القرى:

كأن ابنة العذرى يوم بدت لنا في بوادي القرى روعي الجنان سليب
وهكذا وصف الأثنى المروعة التي اشتد فزعها بأنها: روعي - على وزن فعل - مثل
عطشان وعطشى... على حين أن معجمات اللغة لم يرد فيها إلا «الروعاء» و«الرائعة» وصفين
للأثنى.

٦ - وأبو النجم العجلي الشاعر الأموي، قال من قصيدة له يعترف فيها بعجزه الجنسي أمام
عبد الملك بن مروان، تحت وطأة الشيخوخة ويصف فيها نفسه بالندامة والسدامة، قائلاً:
ان الندامة والسدامة فاعلمن في لو قد صبرتك للمواسي خالياً
على حين أن كتب اللغة ومعجماتها جمعت بين السدم والندم أو بين نادم وسادم، أو بين
ندمان وسدمان....

أما الندامة والسدامة فلم يجمع بينهما إلا التراث العربي العريق ماثلاً في هذا البيت لأبي
النجم العجلي، وهذا اتباع للتوكيد.

٧ - ورؤبة بن العجاج الرجاز المشهور قال يصف كتيبة حربية، لها خبراتها العسكرية،
وتجاربها الحربية، وقوتها المهيبة المروعة:

إذا صبحتهم فيلق رجوس في ملمومة ذفراء درديس

وهذا بيت وصف هذه الكتيبة بأنها «فيلق» جيش عظيم يخلق حد العدو وأنها «رجوس» :
قوية الصوت مرعبة، وكأنها الرعد الرجاس، وأنها «ذفراء» منتنة الرائحة من جراء الصدأ
المتراكم عليها للحديد الذي لبسته طويلاً في الحرب دون أن تخلعه، وأنها «دردبيس» أي جبارة
في الانتقام من أعدائها. . وهذا الوصف الأخير لم يرد في معجمات اللغة بهذا المعنى، وإنما ورد
بمعنى الشيخ الكبير أو العجوز أو الداهية أو الباقعة.

٨ - ورؤية بن العجاج أيضاً استعمل في رجزه كلمة «ملطيس» بمعنى المعول الذي تكسره به
الحجارة تكسيراً قاتلاً من هذه القصيدة نفسها:

فصباحتهم برحاً ملطيس * فلا يحس منهم حسيس
وهذه كلمة لم أرها في أي معجم من معجمات اللغة التي تسرت لي قراءتها مطلقاً: لا بهذا
المعنى أو غيره.

٩ - ورؤية بن العجاج كذلك أتى في هذه القصيدة أيضاً بصيغة مبالغة من القس: بمعنى
تتبع الشيء واستقصائه، وهي صيغة «قيس» قاتلاً:

قد علم العالم والقيس * أن أمراً حاربكم ممسوس
ومعجمات اللغة لم تأت بهذه الكلمة صيغة مبالغة بهذا المعنى.

١٠ - وأبو الحارث غيلان بن عقبة الشاعر المشهور بذى الرمة، كان يهوي «مية» هوى
ملك عليه فؤاده ومشاعره، فلما تزوج منها ابن عمته «عاصم» قال ذو الرمة^(١١) يتمنى على
الموت أن يهلك عاصماً فتعود إليه «مية» الحبيبة دون أن تفرق المنية بينها وبينه:

ألا ليت شعري هل يموتن عاصم * ولم تشتعبنى للمنايا شعوبها
وهكذا استعمل هذا الشاعر الفعل «تشتعب» بمعنى تفرق على حين أن معجمات اللغة
استعملت هذا الفعل ثلاثياً فقالت: «شعب» بمعنى فرق، ومن ذلك سميت المنية «شعوباً»،
لأنها تشعب الناس وتفرقهم هنا وهناك، وتنزع الإنسان من بين أهله وأصحابه وقالت أيضاً:

شعب الشيء بمعنى جمعه كما استعملته رباعياً بصيغة «أشعب» الرجل أي مات أو صيغة «شاعت نفسه» أي مات أو صيغة شعب عنه أي فارقه إلى الأبد . . . واستعملته كذلك خماسياً بصيغة «تشعب» القوم: أي تفرقوا وبصيغة «انشعب» الرجل أي مات وانشعب الشيء انصلح أما كلمة «اشتعب» الخماسي المتعدي فلم ترد إلا في التراث العربي من طراز قول ذي الرمة هذا.

١١ - والشاعر الأموي: عمر بن لجأ، استعمل كلمة «استبعت» بمعنى أثار وهيج قائلاً من هجائه لجرير بن عطية بعد أن هجاه جرير^(١٢) مايكفينا منه البيتان الآتيان: -

أنبت كلب كليب قد عوى جزعاً * وكل عاو بفيه الترب والحجر
هبت الفرزدق واستبعثني عبثاً * للموت تعمد والموت الذي تذر

ومعجمات اللغة لم تستعمل هذا الفعل بهذه الصيغة في هذا المعنى وإنما استعملت الصيغ الآتية للفعل «بعث» بعثه، وبعثه على الشيء، وتبعث الشيء، بمعنى اندفع. وتباعثوا على الشيء بمعنى: حمل بعضهم بعضاً على صنعه، وفي (الأساس) للزخشي: «تواصوا بالخير وتباعثوا عليه» وانبعث مطاوع بعث، وابتعته أي بعثه وفي الحديث الشريف: «أتاني الليلة آتيان فابتعثاني» أي أيقظاني من نومي..

١٢ - وهذا الشاعر الأموي عمر بن لجأ أيضاً استعمل الفعل «التشم» بمعنى قبل أشد التقبيل حتى يمتزج الريقان قائلاً:

مذاقتها إذا ما بينتها * سواد الزوج والتشم الرضابا

ومعجمات اللغة لم تستعمل «التشم» بهذا المعنى وإنما استعملت «التثمت» المرأة «وتلثمت المرأة» فعلين لازمين بمعنى: شدد اللثام على فمها. . . كما استعملت «لثم فم المرأة: أي قبلها، ولائثما: أي قبلها فم لفم.

١٣ - وأبو زيد الطائي الشاعر النصراني الذي كان معاصراً ومجالساً للخليفة الراشد:

عثمان بن عفان - رضي الله عنه - استعمل كلمة «صد» بمعنى قصد وتصدى وتعرض قائلاً من قصيدته السينية الرائعة التي وصف فيها الأسد:

ينصل السيف ليس له مجن * فصد ولم يصادفه حبيس^(١٣)
ومعجمات اللغة تقول: صد عنه: أعرض ومال، أودفع عنه، وصد السبيل: أي اعترض دونه، وصد الرجل صديداً، أي ضج، وتصدى له: أي تعرض....
١٤ - والأقشر التميمي سأله خالد بن عبدالله القسري^(١٤) قائلاً:

أي الناس أسرع بديها؟ وهذه الكلمة بمعنى البديهة: أي المفاجأة، وردت في قول أبي الطيب المتنبي أيضاً:
أتنكر مانطقت به بديها * وليس بمنكر سبق الجواد؟
ومعجمات اللغة لم ترد فيها كلمة «بديه» كما وردت كلمتا: بداهة وبديهة.

١٥ - وجميل بن معمر استعمل الفعل «جحف» الثلاثي بمعنى أجحف به أي ذهب به كما استعمل «تعيف» بمعنى «عاف» قائلاً:^(١٥)

وكنا إذا مامعشر جحفوا بنا * ومرت جوارى خيرهم وتعيفوا
وضعنا لهم صاع القصاص رهينة * وسوف نوفيها إذا الناس طففوا
ومعجمات اللغة لم يرد فيها الفعل الثلاثي «جحف» بمعنى «أجحف» ولا الفعل الثلاثي «عاف» بمعنى «تعيف» وإن ورد فيها المتعيف: بمعنى المتكهن، والذي يعمل العيافة، وهي زجر الطير.

١٦ - والشاعر نصيب مولى عبد العزيز بن مروان وردت في شعره كلمة «اجتنى ذنباً» بمعنى «جنى ذنباً» وكلمة «اجترم ذنباً» بمعنى «أجرم ذنباً»^(١٦) - كما في قوله:

فما ذاك من ذنب أكون اجتنيته * إليها فتجزيني به حيث أعلم

ورواية الأغاني تقول:

فما ذاك من ذنب أكون اجترمته ❖ إليها فتجزيني به حيث أعلم
ومعجمات اللغة لا تقول: اجتني بهذا المعنى، وإنما تقول: اجتني الثمرة: أي تناولها من
شجرتها، وتقول: اجترم زيد: بمعنى أذنب، ولكنها لا تقول اجترم ذنباً وإن قالت: اجترم فلان
النخل أي جزه.. واجترم لأهله: كسب لهم..

١٧ - والمتوكل الليثي الشاعر الكوفي الذي كان معاصراً لمعاوية بن أبي سفيان استعمل
كلمة «قؤوم» بمعنى قَئِم، أو مستقيم قائلاً: (١٧)

وأتم لمن صافيت وجهاً واحداً ❖ وخليفة إن الكريم قؤوم
لاتنه عن خلق وتأتي مثله ❖ عار عليك إذا فعلت عظيم

ومعجمات اللغة لم ترد فيها هذه الكلمة بهذا المعنى...

١٨ - والشاعر الأموي: الحكم بن معمر الحضري، قرأنا له في وصف امرأة فاتنة بيتاً
يقول:

تساهم ثوبها في الدرع عادة ❖ وفي المرط لفا وإن ردفها عبل

ومعجمات اللغة العربية تقول: إن كلمة «ساهم» لا معنى لها إلا المقارعة - كما في الآية
القرآنية الكريمة: «فساهم فكان من المدحضين» فهي لا تفيد معنى المشاركة الذي تعبر عنه
كلمة «أسهم» لا كلمة «ساهم» وبناء على ذلك لا تصح عبارة «شركة مساهمة» كما صحت عبارة
«شركة مسهمة» ومن هنا اعتبر المعجم الوسيط الذي أصدره المجمع اللغوي بمصر عام
١٣٨٠هـ/ ١٩٦٠م كلمة «شركة المساهمة» كلمة محدثة لا كلمة عربية أصيلة، والكلمة المحدثة
- كما عرفها هذا المعجم الوسيط في الجزء الأول: اللفظ الذي استعمله المحدثون في العصر
الحديث وشاع في لغة الحياة العامة.

١٩ - وقال الشاعر الأموي زياد الأعجم - كما في طبقات الشعراء لابن سلام وغيره - في الهجاء :

نبأتني أن عبدالله منتزع * من عطاياء لكاع ابن لكاع
ومعجمات اللغة لم تستعمل هذه الصيغة (بضم اللام وفتح الكاف المشددة) وإنما
استعملت: الألكع واللكاع (بفتح اللام وفتح الكاف المخففة، كما استعملت «لكع» على وزن
«عمر».

٢٠ - ويزيد بن الطثري كان محباً لامرأة، ومعجباً بها، فساءه أنه كان هنالك من يشاركه في
حبها والإعجاب بها، فقال لها من قصيد له - وقد انقطع عنها^(١٨) :

وكوني على الواشين لداء شعبة * كما أنا للواشي الد شغوب
ومعجمات اللغة لم تستعمل وصفاً للمؤنث «شعبة» بسكون الغين، ولا وصفاً للمذكر
«شغوب» بصيغة «المبالغة» كما استعملها هذا الشاعر الذي يعتز به تراثنا العربي.

٢١ - وأبو داود الرؤاسي أورد في شعره كلمة «تشلال» بمعنى الشل وهو الطرد - قائلاً :
جعلنا حجرنا حجراً عليهم * فحلوا بعد تشلال وسير
ويروي هذا البيت هكذا :

حويننا حجرنا لهم فحلوا * إلينا بعد تظمان وسير
وعلى الرواية الأولى نرى كلمة «تشلال» التي لم ترد في معجمات اللغة وإنما الذي ورد فيها
هنا: شل السائق إليه: «شلا»: أي طردها.

٢٢ - وأبو داود الرؤاسي أيضاً أورد في شعره جمعاً للخيال على أخیال قائلاً:

فإن ذهب العمى وأمتهم * فلا تستبدلوا أخیال طير

والخيال هنا: خشبة توضع ويلقى عليها الثياب للغنم أو في وسط المزارع، تخويفاً للذئب أو الطير حتى يظنه إنساناً، ويسمونه عندنا في مصر «خيال الماتة» ومعجمات اللغة لم يرد فيها جمع لخيال إلا على أخيله وخیلان..

٢٣ - وأبو داود الرؤاسي كذلك جمع كلمة «شرح» - وهي مجرى الماء من الحرة إلى السهل - على «أشرح» مثل «فلس وأفلس» «وضرب وأضرب» وهذا جمع لم يرد في معجمات اللغة التي أوردت جمع هذه الكلمة على: أشراج وشراج، وشروج أما «أشرح» فقد وردت في شعر للرؤاسي هذا قائلاً في معرض الحديث عن الإقامة في موضع اسمه «فجيرة» وماء لبني قشير اسمه «المريز»^(١٩).

تظل بأجزاء المريز مربة * وسال عليها من فجيرة أشرح

٢٤ - ومحمد بن سلام (١٣٩ - ٢٣١هـ) في مطلع كتابه: «طبقات الشعراء» يقول ما نصه: «فكان من الشعراء من تأله في جاهليته، ويتعفف في شعره ولا يستبهر بالفواحش» أي يتبجح بذكرها، وكشف ما حقه أن يكتنم. ولكة استبهر بهذا المعنى لم ترد في معجمات اللغة، وإنما وردت بمعان آخر مثل: استبهر الليل: تراكت ظلماته.

٢٥ - والأشهب بن رميلة الشاعر الأموي، وردت في شعره كلمة الاستعراض بمعنى الإقدام على قطع عرض الصحاري، دون ما مبالاة بما هنالك من أهوال، ولنستمع له وهو يحدثنا: كيف صعد إلى ناقه ضامرة صلبة مدربة على السير، وكأنها حرف جبل، وإن أضربها وبينها (شحما) السير في الصحاري ليلاً:

غميت إلى حرف أضرب بنيها * سري البيد واستعراضها البلد القفرا

ومعجمات اللغة لم تستعمل الاستعراض بهذا المعنى، وإنما استعملته في معان أخرى لاداعي لتفصيلها هنا.

٢٦ - والأشهب بن رميلة أيضاً أورد كلمة «تحلل» قائلاً:

ألم يأتته أني تحلل ناعتي * بنعمان أطراف الأراك القوائم
ويريد أن ناقتة رعت الخلة - وهو خبز الإبل - ولم تورد المعجمات للتعبير عن هذا المعنى
إلا: خل الرجل إبله: حولها إلى الخلة، وخل الفصيل: شق لسانه فأدخل فيه الحلال لئلا
يرتضع ويقدر على المص... وأخل القوم إخلالاً: رعت إبلهم الخلة، واختلت الإبل:
احتبست في الخلة.

٢٧ - والكميت بن زيد الشاعر حبسه خالد بن عبدالله القسري لأنه قال بيته الذي تعنيها
منه كلمة «التمداح» بمعنى المدح وهو:

فاني وتمداحي يزيد وخالدا * ضلالا لكا الحادي وليس له إبل
ومعجمات اللغة لم تورد هذه الكلمة: «التمداح» بمعنى المدح.

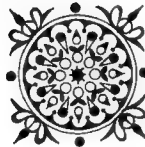
٢٨ - والفرزدق قال من مدحه سليمان بن عبد الملك:

وكم أطلقت كفاك من قيد بائس * ومن عقدة ماكان يرجى انحلالها
كثيراً من الأيدي التي قد تكتعت * وفككت أعناقاً عليها غلالها

وهكذا جمع الشاعر الأموي كلمة «غل» بمعنى الجامعة التي توضع في العنق واليد مثل القيد
على «غلال» مثل خف وخفاف، ومعجمات اللغة لم تجمع هذه الكلمة إلا على «أغلل»
و«غلول» ومن الممكن أن نضيف إلى هذين الجمعين الجمع الثالث المذكور آنفاً في شعر
الفرزدق، وأن ننتفع قدر المستطاع بترائنا العربي العريق في إثراء معجماتنا اللغوية، التي لم
تستطع - على جلالة قدرها - أن تحيط بلغتنا الفصحى علماً... ورحم الله شاعر النيل
حافظ إبراهيم إذا يقول بلسانه متسائلاً:

أنا البحر في أحشائه الدر كامن * فهل سألوا الغواص عن صدفاتي؟

- (١) رغبة الأمل شرح الكامل للمبرج ص ١٧٢.
- (٢) معاهد التنصيص ج ١: ١٥٠، ومعجم الشعراء ص ٣٧٦، وتاريخ بغداد ج ٥ ص ٤٢٢.
- (٣) معجم الأدباء ج ١٠ ص ٢٧٤.
- (٤) نفع الطيب ج ٢ ص ٤٩١، ٤٩٢.
- (٥) شاعرات العرب ص ٢١٤، والأدب المقارن لعبد الرزاق حميدة ص ٢٠، ٢١، والأعلام ج ١ ص ٨٦، ١٧١.
- (٦) وفيات الأعيان لابن خلكان ج ١ ص ٣١٢، والوفائي بالوفيات ج ٤ قسم ٣ ومعجم البلدان ج ٢ ص ١٦٢.
- (٧) الأغاني: سامي ١٧: ١٦٥، ومروج الذهب: ٣: ٥٢ وأنساب الأشراف: ٥: ٣٤٢، ١١: ٩.
- (٨) الحفاصة لابن الشجري ص ٢٠٦.
- (٩) الفضليات: ٣٣٦، والأغاني: ١٢: ٢٧١، «والبرصانة» للمجاط ص ٩٦.
- (١٠) ديوان رؤية: ٧٤.
- (١١) ديوان ذي الرمة: ٦٧.
- (١٢) النقاظ: ٤٨٩.
- (١٣) شعر أبي زيد: ٩٤-٩٩.
- (١٤) طبقات الشعراء
لابن سلام، وديوان المتنبي.
- (١٥) ديوان جميل بن مضر: ١٣١-١٣٩.
- (١٦) الأغاني: ١٥: ١٧٢، وديوان نصيب ص ١٣٢.
- (١٧) ديوان المتوكل اللبي: ٧٤-١٠٩.
- (١٨) الأغاني: ٢: ١٧٥-١٧٦.
- (١٩) المؤتلف والمختلف للأمني ص ١١٦.
- (٢٠) طبقات الشعراء لابن سلام، والأغاني ج ١ ص ١١٨.



الطبيب الأندلسي

عبد الملك بن الفقيه محمد بن عازم

للاستاذ

فاصل السباحي

مقدمة

ليس يُجادل أحدٌ في ما حَقَّ به تاريخ أمتنا من أعداد لا تحصى من الشعراء والعلماء ، على اختلاف منازلهم ومذاهبهم ، في الآداب وفي مختلف فروع العلوم . وقد وقَّف كثيرٌ من الكتاب والمصنِّفين ، على مرِّ العصور ، جهودهم لرصد الأعلام من المبدعين والأفذاذ والعباقرة ، في كتب ألفوها ، ترجوا فيها لهم وحدثونا عنهم الأحاديث المستفيضة أو الموجزة حسبما توافرت لهم المعلومات . وقلَّما سقط اسمٌ واحدٌ من هؤلاء الأعلام في وهدة النسيان والعدم ، فإن مصنِّفينا ، المتتبعين ، لم يكونوا يَعدِّمون معلومةً ما ، مهما ضوَّل شأنها ، عن هذا العلم أو ذاك ، يتصيَّدونها في تصانيف الكتب التي سبقت أو من أفواه الرواة والمحدثين ، فيُودِعونها في مصنِّفاتهم مطمئنِّين لتبقى للأجيال ، لنا ، نقطة مضيئة في طريق عَبرناه .



ومن عَثَرَ حظُّهم من الأعلام فلم نعرف عنهم إلا النزر اليسير ، الطبيب الأندلسي «عبد الملك بن الفقيه محمد» ، الذي ينتمي إلى قبيلة «إياد» التي كان أفراداً منها قد هاجروا إلى الأندلس بعد الفتح الإسلامي . وقد عاش طبيبنا عبد الملك ، المكنى بـ «أبي مروان» ، في القرن الخامس الهجري ، الذي شهد مطلعه سقوط الدولة الأموية المروانية في قرطبة وقيام دول الطوائف في عديد من الحواضر الأندلسية .

ولقد أشار عددٌ من المصادر التاريخية القديمة ، إلى «أبي مروان عبد الملك بن محمد» هذا ، بصفته طبيباً ذائع الصيت في عصره . ولكن أياً من تلك المصادر لم يُحدِّثنا عنه إلا لأسطر معدودات . وكان هذا الحديث المختضب ، الذي تناقلته المصادر بعضها عن بعض ، يُشيد بعظمة الرجل دون أن تبيِّن مظاهر هذه العظمة ، وتُثني ، هذه المصادر ، على علمه دون أن تُفصح لنا عن أنه أَلَّف في الطب الذي نبع فيه كتاباً أو مقالة واحدة ترك لنا فيها بصمة من بصمات عبقريته !

وكان جديراً بهذا العَلم أن يُطوى ذكره ، لولا أنه خلَّف ابناً لقَّنه الطب في حياته فغدا من أشهر أطباء الأندلس هو «زُهر بن عبد الملك» المكِّي بـ «أبي العلاء» ؛ وخلَّف هذا بدوره ابناً طبيباً هو سَمِيُّ الجَد «عبد الملك» وكنيته «أبو مروان» ، الذي اشتهر في عصره وفي الأعصر التالية بكتابه «التيسير في المداواة والتدبير» ؛ ثم خلَّف ، هو الآخر ، ابناً طبيباً وشاعراً هو أبو بكر محمد بن عبد الملك ؛ وخلَّف هذا ابناً هو الطبيب «عبد الله بن محمد» ؛ وأعقب الأخير ابنه الطبيب «محمد بن عبد الله» !

أجل ، ستة أطباء في ستة أجيال متتابعة ، تُضاف إليهما طبيبتان أنثيان : «أم عمرو» بنت عبد الملك بن زُهر ، وابنتها . . . وذلك كلُّه ما عزَّز مكانة الطبيب الأول «عبد الملك بن محمد» ، فما برح اسمه يتردَّد في سماع التاريخ . ولكن ظلَّت في النفس غُصَّة : أننا لا نملك نصوصاً من وضعه تُوقفنا على مدى علمه في الطب وتجربته في الحياة !

وهكذا فإن المبادرة إلى تناول هذا الطبيب العَلم في دراسة ، يتجاوزها حاملان متناقضان :

الأول : أنه طبيب قد اشتهر في مدينته دانية وبالتقدم في صناعة الطب ، وطار ذكره منها إلى أقطار الأندلس ، وأنه كان رأساً لأسرة توارثت الطب أجيالاً ستة ، على مدى قرنين من الزمان .

والعامل الثاني سلمي : أنه لم يترك لنا كتباً من تأليفه ، ولا ذكرت المصادر الواصلة إلينا شيئاً من علمه ومعرفته ، إلا رأياً له واحداً في الطب^(١) ، وذلك مالا يُنقع صدَى ولا يُشفي غليلاً . . . لولا !

أقول : لولا . . . وأمامي المؤلَّف الكبير الذي وضعه حفيده «عبد الملك بن زُهر» : «كتاب

التيسير في مداواة والتدبير» ، الذي اغتنى بعلم صاحبه وتجربته العلمية ، وهو الذي لم يمارس مهنة أو هواية سوى الطب . إن هذا الكتاب ليكتسب ، في دراستنا هذه ، أهمية قصوى ، تتبدى في الذكريات ، الشخصية والعلمية ، التي كانت تساب عبر قلم مؤلفه ، فيحدثنا عن أبيه الطبيب «أبي العلاء زهر» ، وعن جده الطبيب «أبي مروان عبد الملك»^(٢) ، كلما أمدته الوقائع وأسعفته الذاكرة ، وهو يشرح لنا العلل والأمراض ويصف الأدوية والعلاجات . وقد كان حديثاً شيقاً عبر لنا به عن حبه لأبويه العظميين وتقديره لهما وبهروا وافتخاره . وسوف يكون ذلك معيئاً لنا في رسم ملامح لشخص الجدة عبد الملك ، موضوع دراستنا ، وفي تقديمنا قياسات من علمه وتجربته في صناعة الطب ، مُعَوِّلِينَ ، في الوقت ذاته ، على تلك اللُحْم الصغيرة التي أَلْت بها بعض المصادر التاريخية^(٣) .

٢- «بنو زهر» في الأندلس

يُنسب بنو زهر الأندلسيون إلى قبيلة «إياد بن نزار» إحدى قبائل العرب العدنانية ، التي كان لها ، في القرن الثالث الميلادي ، شرف في أهل «تهامة» وعز ومِنَعَة ، وذلك قبل أن تهاجر إلى العراق ، وتنزل بنواحي سواد الكوفة حيث أقامت زمناً ، ثم انتشرت على نهر الفرات حتى بلغت أرض الجزيرة . وهناك حارب الإياديون الأعاجم ، فهزموهم مرةً ولقوا على أيديهم القتل والنفي مرّات . وأما ديانتهم ، فقد كانت لهم كعبة خاصة بهم في «سنداد» في سواد الكوفة تُدعى «كعبة شدّاد» يعبدونها ، ثم اعتنقوا النصرانية ، وأخيراً الإسلام . وبعد الفتح هاجر عددٌ من الإياديين ، مع من هاجر من إخوانهم العرب ، إلى الأندلس ، فنزلوا أولاً في مدينة «شاطبة» شرقيّ البلاد ، ثم ما لبث أحفادهم أن تفرّقوا في أنحاء الأندلس^(٤) .

وقد نُسب «بنو زهر» (بضم الزاي وسكون الهاء) إلى «زهر» الجد الأعلى للفرع الأندلسي ، الذي كان حيّاً في القرن الثالث الهجري (التاسع الميلادي) ، ومنه تفرّع بنو زهر الأندلسيون ، ومنهم هذه السُلالة الطّبيّة الطّيبة .

ولسنا ندري متى انتقل أفراد هذه الأسرة الزهرية إلى إشبيلية ، الحاضرة الزاهرة في جنوب غربيّ الأندلس . ولكننا نقرأ أن «الفقيه محمداً بن مروان» - وهو والد الطبيب الزهري الأول - عُرف ، بعد أن تلقى تعليمه في عاصمة الدولة الأموية قرطبة ، «فقيهاً ، حافظاً

للراي ، حاذقاً بالفنوى ، مقدِّماً في الشورى ، من أهل الرواية والدراية ، سمع الناس منه كثيراً ، وحَدَّث عنه جماعة من العلماء^(٥).

وبدا أن الفقيه أبا بكر محمد بن مروان هذا ، الذي عُمِّر طويلاً (٣٣٦ - ٤٢٢ هـ) . قد لقي ، في أواخر عمره ، متاعب على يد بني عبَّاد الذين وثبوا إلى السلطة في إشبيلية بعد سقوط دولة الخلافة مطلع القرن الخامس الهجري والتمزق الذي حلَّ بأقطار الأندلس . فإنَّ أول ملوك إشبيلية من هذه الأسرة ، «أبا القاسم محمد بن عبَّاد»^(٦) ، عمد ، بعد أن آل إليه أمرها من أبيه القاضي «إسماعيل بن عبَّاد» سنة ٤١٤ هـ ، إلى إقصاء شريكَي الأب في إدارة شؤون المدينة ، وشدَّد قبضته على منائيه . وفي ذلك تردُّ إشارة في المصادر التاريخية إلى أن الفقيه محمدًا قد «ضاعت الدولة العبَّادية عن مكانه ، وأخرج من بلده ، واستُصفيت أمواله»^(٧).

ويقول أحد وزراء طليطلة ، وهو الطبيب «أبو المطرّف بن وافد» ، في كتاب له سُمي فيه الرجال الذين لقيهم في حياته ، أن الفقيه أبا بكر محمد بن مروان بن زُهر الإيادي الإشبيلي ، «قَدِم علينا»^(٨) من إشبيلية سنة سبع عشرة وأربعمائة ، ويصفه بأنه «كان شيخاً وسيماً فاضلاً ، عالماً بالمسائل والآثار ، متفناً في العلوم ، وقوراً ، أصيلاً يَألم في جلوسه ، فقيل له في ذلك ، فأنشأ يقول :

سَمْتُ تكاليف الحياة ، ومن يعش ثمانين حَولاً ، لا أباك ، يسام»^(٩)

وبدا أن أبا بكر قد تنقَّل بين حواضر «الثغر الأعلى»^(١٠) في الأندلس ، فإنَّ أحدهم كتب يقول : «توفي أبو بكر بن زُهر في سنة اثنتين وعشرين وأربعمئة بطلْيرة»^(١١) ، وبها دُفن رحمه الله ، وهو ابن ست وثلاثين سنة ، بعد قدومه من وَشَقَّة^(١٢) من الثغر الأعلى»^(١٣).

٣ - الطبيب عبد الملك بن الفقيه محمد

لم تُبَيَّن المصادر التاريخية السَنَةَ التي ولد فيها عبد الملك بن محمد بن مروان بن زُهر ، وإن ذكرت لنا سنة وفاته : ٤٧٠ هـ (١٠٧٧ - ١٠٧٨ م) . ولأننا نفترض أن عبد الملك كان يافعاً ، أو شاباً ، عام نزع أبوه عن إشبيلية^(١٤) . ولكن يبدو أن الابن لم يقطع صلته بمسقط رأسه ، فالمصادر تُحرص على تسميته بـ «الطبيب الإشبيلي» .

لم يتلقَ عبدُ الملك بن الفقيه محمد مبادئ الطب في الأندلس . ولكنه ، في رحلته الكبرى إلى المشرق لأداء فريضة الحج ، «دخل القيروان ومصر ، وتطبَّب (١٥) هناك زماناً طويلاً» (١٦) ، ثم قفل إلى الأندلس ، وقصد مدينة «دانية» ، المطلة على البحر الأبيض المتوسط (البحر الشامي) والقريبة من «شاطبة» ، البلد الذي كان قد نزل فيه أجداده الأولون القادمون من الجزيرة العربية أيام الفتح ، كما أسلفنا .

في تلك الحقبة ، كانت دانية في يد أحد ملوك الطوائف : «مجاهد العامري» (١٧) . فلما قدم إليها الطبيب عبد الملك بن محمد أكرمه ملكها «إكراماً كثيراً ، وأمره أن يقيم عنده ، ففعل ، وحظي في أيامه ، واشتهر في دانية بالتقدم في صناعة الطب ، وطار ذكره منها إلى أقطار الأندلس» (١٨) .

ولم تكن المعلومات ، التي تلقيناها عن طبِّ عبد الملك ، بأوسع مما وصل إلينا عن حياته . فثمة إشارتان اثنتان إلى طَبِّه :

الأولى عند ابن الأثير : «ومال إلى التفنن في أنواع التعاليم» (١٩)

والثانية أوردها صاعد الأندلسي : «وله في الطب آراء شاذة ، منها منعه من الحجام واعتقاده أنه يُعفنُ الأجسام ويُفسد تركيب الأمزجة . وهذا رأي يخالفه فيه الأوائل والأواخر ويشهد بخطئه العوام والخواص ، بل إذا استعمل على الترتيب الذي يجب ، بالتدرج الذي ينبغي ، يكون رياضة فاضلة ومهنة نافعة ، لفتحيه المسام وتطريته للفضول وتلطيفه لما غلظ من الكيموسات» (٢٠) .

وإذا كان مما يدعو إلى الإعجاب بطبيينا عبد الملك أنه كان «يتفنن في أنواع التعاليم» ، التي تُرجَّح أنها تعاليمُ تتعلَّق بـ «الطب» لا بغيره من العلوم (٢١) ، فإن ما يدعو إلى العجب أن «يمنع من الحجام» ! ولكن يلاحظ أن «المنع» — إن صحَّت هذه الرواية من «معاصره» القاضي صاعد ، ونحن نعرف ما للمعاصرة من محاذير في الحكم والتقويم — يرد على الدخول إلى الحجام وليس على «الاستحمام والنظافة» بطبيعة الحال (٢٢) !

إشارتان فقط ، إيجابية وسلبية ، وردتا في المصادر القديمة عن طبيب عظيم علا شأنه حيث كان يقيم ، حتى طار ذكره إلى أقطار الأندلس (٢٣) ، وما كان لهما — لهاتين الإشارتين — أن

تُسَمِّعُ البَاحِثِينَ والِدَارِسِينَ فِي تَنَاوُلِ عِلْمِ الرَّجُلِ وَتَجَرِبَتِهِ فِي الطَّبِّ . . . لَوْلَا «كِتَابُ التَّيْسِيرِ فِي الْمَدَاوِةِ وَالتَّنْذِيرِ» ، الَّذِي أَلْفَهُ ، بَعْدَ رَحِيلِهِ بِنَحْوِ ثَمَانِينَ عَامًا ، حَفِيدُهُ عَبْدُ الْمَلِكِ بْنُ زُهْرَ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ !

٤- الطَّبِيبُ «الابن» عَبْدُ الْمَلِكِ بْنُ زُهْرٍ وَكِتَابُهُ «التَّيْسِيرُ»

عُمَرُ الطَّبِيبُ «أَبُو مَرْوَانَ عَبْدُ الْمَلِكِ بْنُ زُهْرٍ» ، الَّذِي ذَرَجَتْ الْمَصَادِرُ التَّارِيخِيَّةُ عَلَى تَسْمِيَّتِهِ بِ«الْأَبْنِ»^(٢٤) ، نَحْوًا مِنْ سَبْعِينَ سَنَةً ، أَوْ تَسْعِينَ^(٢٥) ، وَتُوفِيَ سَنَةَ ٥٥٧ هـ . وَقَدْ تَتَلَمَّذَ عَلَى يَدَيْ أَبِيهِ الطَّبِيبِ أَبِي الْعَلَاءِ زُهْرٍ ، وَعَاشَ عُمُرُهُ فِي إِسْطَبْلِيَّةٍ ، وَتَرَدَّدَ عَلَى مَرَاكِشِ عَاصِمَةِ الدَّوْلَةِ الْمُرَابِطِيَّةِ عَهْدَ «عَلِيِّ بْنِ يُوْسُفَ بْنِ تَاشْفِينٍ» (٥٠٠ - ٤٣٧ هـ) ، الَّذِي اعْتَقَلَهُ سَنَوَاتٍ نَجْهَلٍ عَدَدُهَا كَمَا نَجْهَلُ أَسْبَابَ الْإِعْتِقَالِ ! وَكَانَ طَبِيبَ الْأُمَرَاءِ وَالْمُلُوكِ مِثْلَمَا كَانَ طَبِيبَ الشَّعْبِ . وَخَدِمَ «عَبْدُ الْمُؤْمَنِ بْنِ عَلِيٍّ» (حُكْمُهُ : ٥٤٢ - ٥٥٨ هـ) أَوَّلَ أُمَرَاءِ دَوْلَةِ الْمُوحِدِينَ ، فَكَانَ طَبِيبًا لَهُ وَوَزِيرًا . وَأَلَفَ ثَمَانِيَةَ كُتُبٍ فِي صِنَاعَةِ الطَّبِّ ، الَّتِي لَمْ يَمَارَسْ سِوَاهَا ، عَلَى غَيْرِ عَادَةِ الْعُلَمَاءِ وَالْأَدْبَاءِ الْعَرَبِ وَالْمُسْلِمِينَ ، وَصَلْنَا مِنْهَا ثَلَاثَةً ، أَهْمُهَا : «التَّيْسِيرُ فِي الْمَدَاوِةِ وَالتَّنْذِيرِ»^(٢٦) .

وَلَقَدْ جَمَعَ هَذَا الْكِتَابُ ، الَّذِي تَمَّ تَأْلِيفُهُ عَلَى الْأَرْجَحِ فِي مَتْنِصِفِ الْقَرْنِ السَّادِسِ الْهَجْرِيِّ ، خِلَاصَةً عِلْمِ صَاحِبِهِ وَتَجَرِبَتِهِ فِي صِنَاعَةِ الطَّبِّ . وَإِنْ قَارَنَهُ لِيُحْصَ - وَإِنْ لَمْ يَكُنْ طَبِيبًا - مَتْعَةً فِي قِرَائَتِهِ وَبَاعَثًا عَلَى مِتَابَعَتِهَا حَتَّى النِّهَايَةِ ، وَمَا ذَلِكَ إِلَّا أَنَّ أَبَا مَرْوَانَ قَدْ كَتَبَهُ بِتَجَرِبَةٍ الْعَالَمِ وَبِإِحْسَاسِ الْأَدِيبِ مَعًا ، فَأَنْتَ تَجِدُ فِيهِ عَقْلَهُ وَقَلْبَهُ مَنشُورِينَ أَمَامَ نَاضِرِيكَ ، فَتَرَوْكَ سِلَاسَةً فِي أَسْلُوبِهِ ، وَصِدْقًا فِي قَوْلِهِ ، وَتَدَقُّقًا فِي عَرْضِهِ لِتَجَارِبِهِ وَابْتِكَارَاتِهِ ، وَتَلَفُّحًا حَرَارَةً فِي دِفَاعِهِ عَنْ آرَائِهِ حَتَّى بَعْدَ أَنْ يُدْرِكُهُ مَا يُدْرِكُ كُلَّ كَائِنٍ حَيٍّ ، الْمَوْتُ ! يَقُولُ : «كُلُّ مَا ذَكَرْتُهُ فِي كِتَابِي هَذَا وَأَثْبَتُهُ ، لِأَشْكُ أَنَّهُ سَيُرومُ مِنْ يَتَعَسَّفُ تَزْيِيفَهُ بِالْكَلَامِ ! وَأَنَا أَحْكَمُهُمْ - كُنْتُ حَيًّا أَوْ مَيِّتًا - إِلَى التَّجَرِبَةِ ، فَإِنَّ الْكَلَامَ يَدْخُلُهُ الصَّدَقُ وَالْكَذِبُ (. . .) وَالتَّجَرِبَةُ وَحْدَهَا هِيَ الَّتِي تُثَبِّتُ الْحَقَائِقَ وَتُذْهِبُ الْبُوَاطِلَ»^(٢٧) !

وَلَسَوْفَ يُمَكِّنُكَ الطَّبِيبُ الْإِبْنُ ، أَبُو مَرْوَانَ عَبْدُ الْمَلِكِ ، مِنْ أَنْ تَتَعَرَّفَ مَزَاجَهُ وَتَسْتَشْفَتْ أَنْفَقَةً فِيهِ ، وَذَلِكَ - نَدْمًا بِحَدِّثِكَ أَنَّ عَلَى الطَّبِيبِ أَنْ يَمْتَنَعَ عَنْ مَعَارَسَةِ مَا يُسَمِّيهِ : «أَعْمَالُ الْيَدِ» ،

تلك التي - وإن كانت متعلّقة بالطب - جديرٌ بها أن تؤدّى من قبل فئة من العاملين في المجال الطبي هم «صُنّاع اليد»^(٢٨) ! . ولنستمع إليه وهو يُدلي لنا بهذا «الاعتراف» إزاء التشريح والأعمال الجراحية ، يقول :

«... وأما الطريق العملي ، فإنّي لا أعرف أجزاءه ولا باطشْتُ^(٢٩) شيئاً من ذلك ، ولا عانيتُ تشريحاً ولا وجدت في نفسي مُعيناً على ذلك ، فإنّي متى رأيت الجراحات ضعفتُ نفسي حتى أكاد يُغشى عليّ ، ولا رأيتُ مِدَّةً^(٣٠) إلا تهوّت معدتي وربما تقيأتُ !»^(٣١) .
ولنر إلى أسلوبه في وصف العلل ... يقول في ذكر «داء الشقيقة» وتصنيف أوجاعه :

«وتُعَرِّضُ «الشقيقة» ، وهو اسم جرت عوائدُ الناس أن يُجروه على ألسنتهم ، وذلك وجعٌ في قسم من الرأس ، والعليل قد يحس بأنه غائر في الرأس . فلننظر أي موضع يكون الوجع فيه ، فليس إلا : إما الغشاء الذي خارج القحف ؛ وإما أن يكون في الغشاء الذي تحت القحف ؛ وإما أن يكون في الغشاء الرقيق المحيط بالدماغ . وإنما خالف هذا الداء الداء المعروف بـ «البيضة»^(٣٢) ، أن هذا يكون في قسم واحد خاصة...»^(٣٣) .

وفي موضوعيّة عبد الملك بن زُهر العلمية ، وتقديره لما كان قد أخذ من أبيه الطبيب أبي العلاء زُهر، ولما تلقّى عنه أيضاً من علم جدّه عبد الملك ، يقول شارحاً كيف يعالج من أصيب بجرح غائر في رأسه بلغ العظم وتخلّفت عنه مِدَّةٌ وتبعته حمى ، وحينئذ يجب «استفراغ البدن بالقُصْد في «القيفال»^(٣٤) من الذراع اليمنى ، اللهم إلا أن يكون الجرح من الجهة اليمنى ، فإن رأيي أن يكون القُصْد من الجهة المخالفة في مثل ذلك» ، ويتابع ، شارحاً ومنتقداً :

«وأما الأطباء النابتة^(٣٥) ، فإنهم قد اتّمموا بشيخ كان طبيباً بإشبيلية عُرف بـ «ابن قُضَيْل» ، كان يرى في القُصْد الاكتفاءً بأيسر مخالفة في الموضع^(٣٦) ، فكان يقصّد ، في مثل هذا ، في «الأكل»^(٣٧) من تلك الجهة بعينها ، ويكتفي بأن الآفة فوق وبأن يستفرغ من أسفل . وكان الرجل قد أدركته ، وهذا رأيه ولم يكن لينصرف عنه . وأما أبي رحمه الله ، فكان لا يكتفي في المخالفة حتى تجتمع من جهات مختلفات ، وكذلك كان رأي جدي الأقرب عبد الملك رحمه الله ، وهو رأيي الذي أعتقده ولا أنصرف عنه ، ولم تزل التجربة تزيدني بصيرة فيه...»^(٣٨) .

وأخيراً ، هاهوذا يذكر أباه زُهرًا ، في وَصَافَات طَية كان يُقَرُّها ، تتعلَّق بـ «ترياق إذا شربه الإنسان ، وقد سقي السمَّ والسم في معدته ، قِيَّاه ، حتى يتقيَّاه السم»... يقول :

«هذه النُسَخُ»^(٣٩) التي كان يُعوِّل أبي عليها وِقيَمِها ، وعليها كان وَقَعَ اختِياره ، وأقَمَها بين يديه ، ومن بعده ، رحمه الله ، ثم يضيف : «وكان يُقيم معجوناً يؤثِّره ويُفْضِله ، وجَرَّبه مراراً في تسكين الأوجاع التي تكون في القولنجات»^(٤٠) ، وكان يُطلق به من به قولنج الريح ، وقولنج يُيسُّ الثقل ، وقولنج ضعف الحركة الطبيعية التي في المَعَى للدفع ولم يذكره جالينوس^(٤١)»^(٤٢).

كيف تحدَّث صاحب «التيسير» عن جده ؟

وما الموضوعات التي ذكره في أثنائها ؟

وما الآراء الطبية التي تلقَّاهَا «الابن» ، نقلاً عن أبيه ، الدالَّة على علم «الجد» فتنَّها ووضعها موضع التطبيق ، ونوَّه بها في كتابه ، هذا الذي حوى خلاصَةً علمه وتجربته ؟

٥ - الدَّهْنُ «البَشَامِي» وتفتت الحصى

قلنا إن الجد عبد الملك توجَّه ، في شبابه ، إلى المشرق لأداء فريضة الحج وللتطبُّب معاً ، فلما عاد لم يكن بدُّ من أن يحمل معه ، من التعاليم الطَّيِّبة ومن الأدوية ، ما يُتَّسَم بالجدَّة والطرافة في المجتمع الطَّبي الأندلسي .

ومَّا جاء به من دواء ناجع كان ما سَمَّاه «الابن» : البَشَامِي ، الذي يقول في صفته إنه «دهنٌ أصفر اللون ، رقيق القوام ، عطر الرائحة حادُّها ، لطيف الجوهر»^(٤٣) ينفع في تفتت الحصى التي تُلَمُّ بالكلى والمثانة .

ويقول في وصف الأوجاع التي تُحدِّثها الحصى في كل من هذين العضوين : إن «وجع حِصاة الكلى إنما يشتدُّ منذ ابتداء تكوُّنها ، متزيِّداً إلى أن تندفع فيبقى الفقر ! وأما وجع حِصاة المثانة ، فقليلاً ما يُحس بشدة وجعها حتى تتحرَّك !» ؛ ثم يصف الحصاتين ، قواماً وحجماً : «وهما أيضاً تختلفان : فإن حِصاة الكلى أضعفُ تحجراً وتلزُّزاً ويُسَّ ، وحِصاة المثانة أَصلب وأشدُّ تحجراً بكثير ، وصغير حصى المثانة كأكبر حجارة الكلى» ، وفي قابليتها للتفتُّت :

«وحجارة الكلى يُسرع التفتُّ إليها ، ويعسرُ تفتُّ حجارة المثانة»^(٤٤).

وفي أعراض حصاة الكلية ، يقول : «وكثيراً ما تحرق ، في حال اندفاع الحصى من موضعها من الكلى ، خرقاً فيها ، فإن صادف عرقاً غير ضارب وانقطع خرج دمٌ كثير مع البول ووحده ؛ وإن كانت الحصاة غائرة ، فربما - عندما تندفع من الموضع - ينقطع شريانٌ ، فيكون الدم أشرق حمرة وأرقّ جوهرأ وأكثر كميةً بكثير جدأ ، حتى إنه ربما نزع العليل ، ثم يتبع بعد ذلك بولٌ المدة مدّة متصلةً والوجع دائم ، حتى يبرأ العليل أو يموت...»^(٤٥).

وأما حصى المثانة ، فإنما «يشتد وجعها ويتفاقم أمرها عندما تندفع فتضرّ وتسُلخُ بمرورها ، وخاصة إن كان الحصى كذائياً»^(٤٦) فيعقر في طريقه . وأما إذا سدّ المنفذ ووقف في وجه إراقة الماء ، فإن الوجع حينئذ يتفاقم ، لأنه يعقر بخشائنه في طريقه ولأنه يمنع الإراقة . وبسبب عقره تكون إراقة الدم...»^(٤٧).

وفي العلاجات الكثيرة التي وصفها ابن زهر ، على مدى صفحات طوال ، لأمراض الكلى والمثانة : من حصى تتكون فيها ، ومن أورام ، ومن تلك العلة التي سبها «البركار»^(٤٨) ، ومن خروج البول بغير إرادة... يأتي أخيراً على ذكر دواء لتفتيت الحصى خارق للعادة ، يقول :

«ولم أجد بالتجربة شيئاً أسرع فعلاً في ذلك من دهن كان جدي عبد الملك ، الحاج رحمه الله^(٤٩) ، جلبه من المشرق ، وكان يعرفه بـ «البشامي»^(٥٠) ، وهو دهنٌ أصفر اللون ، رقيق القوام ، عطر الرائحة حادها ، لطيف الجوهر ، قد شاهدتُ مراراً خلقاً فتت به حصاهم في أربع وعشرين ساعة ، هذا أسرع ما رأيته وأعجبه ! والشربة منه كما هو من ربع درهم إلى ما حول ذلك ، غير أنه إن كان في الموضع عَقْرٌ ، فاخلط إليه مثيله من دهن اللوز الحلو ، فإن لم يمكنك هذا الدهن فإن معجون الأنيسون بمثل زنته من لعوق الكثيرة نافع ؛ وإن أمكنك دهن البلسان الخالص فهو أيضاً يفتتها إذا شرب»^(٥١).

ثم يحرص ابن زهر على أن يستشهد بحالةٍ عالٍج فيها ، وهو سجينٌ بمراكش بأمر علي بن يوسف بن تاشفين أمير دولة المرابطين ، رجلاً من خاصته يشغل عنده منصب «خطيب» كان يشكو من حصاة... يقول :

«وأذكر ، عندما كنت في اعتقال الشقيّ علي ، وجّه إليّ خطيبه - وقدر الشهادة قدر الشهود

— وبه حصاةً وهو في أسباب الهلاك ، فأفتيته بشرب ثلث واحد من درهم واحد من دهن البلسان ، فلم يلبث أن بالها بعد يوم ، أو أزيد من يوم . فاستغرب ذلك المعالجون والمختصون به وبالسقي صاحبه ، فسألني حيث ذكر؟ فقلت : قد ذكر^(٥١).

٦ . ما في زهر «النيلوفر» من خاصية مسهلة :

وفي شأن ما عَرَفَ «الجلد» في زهر النيلوفر من خاصية كان يجهلها معاصروه من أطباء الأندلس ، يحسن أن نشير إلى مدى شغف أطباء زمانه بالأدوية المفردة ، تلك التي تتألف خاصة من الأعشاب والحشائش والأزهار . وما كنا ، في ذلك ، لتتجاوز الحديث عن فرحة أطباء القرن الماضي (الرابع الهجري) بوفود «الراهب نقولا» عليهم بقرطة مبعوثاً من قبل إمبراطور بيزنطة «قسطنطين السابع»^(٥٢) ، وذلك بعد أن كان قد قدم إلى صاحب الأندلس «عبد الرحمن الثالث»^(٥٣) هدايا ملكية ، منها كتاب ديسقوريدس الشهير «المادة الطبية Meteria Medica»^(٥٤) باللغة الإغريقية ، فجاءهم هذا الراهب ، العالم باللغتين الإغريقية واللاتينية ، ليُعلمَ منهم مَنْ يُتَوَقَّعُ أن ينهض بفهم محتوى هذا الكتاب^(٥٥).

وكان ، يومئذ ، بقرطة ، كما يقول الطبيب «ابن جلجل» ، «من الأطباء ، قومٌ لهم بحثٌ وتفتيشٌ وحرصٌ على استخراج ما جهل من أساء عقاقير كتاب ديسقوريدس إلى العربية»^(٥٦) . وهؤلاء الأطباء هم : حسداي بن شبروط الإسرائيلي ، ومحمد المعروف بالشُّجَّار^(٥٧) ، والبسباسي ، وأبو عثمان الجزَّار الملقَّب باليابسة ، ومحمد بن سعيد الطبيب ، وعبد الرحمن بن إسحق بن هيثم ، وأبو عبدالله الصقلي الذي كان يتكلَّم الإغريقية . فتعاونوا جميعاً في «تفسير» ما كان مجهولاً لديهم من أساء عقاقير الكتاب ، و«تصحيح» الوقوف على أشخاصها بمدينة قرطبة خاصة بناحية الأندلس ، وما أزال الشكُّ فيها عن القلوب ، وأوجب المعرفة بها بالوقوف على أشخاصها ، وتصحيح النطق بأسمائها بلا تصحيف ، إلا القليل منها الذي لا بال له ولا خطر له ، وذلك يكون في مثل عشرة أودية...»^(٥٨).

ويُفهم من عبارة ابن جلجل أن الأطباء الأندلسيين لم ينقلوا الكتاب إلى العربية نقلاً جديداً ، بل هم أكملوا النقل «البغدادي» بالشرح والتفسير^(٥٩) ، وبما وضعه علماء الأندلس : «تفسير أساء الأدوية المفردة من كتاب ديسقوريدس» لابن جلجل (٣٣٢ — بعد ٣٧٧هـ) ،

و«الأدوية المفردة» لابن وافد (المتوفى ٤٦٧هـ) (٦١).

لقد وقفنا عند التطبيب بالأعشاب والنباتات وقفةً مستأنية ، وذكرنا الطبيب العشاب الشهير «أبا المطرف بن وافد» (٦١)، الذي كان معاصراً لعبد الملك الجد . ومع أن ابن وافد كان وزيراً في بلاط طليطلة ، التي تبعد مسافةً عن دانية حيث يقيم الطبيب الوزير عبد الملك ، إلا أن هذا الطبيب النطاسي ، الذي بدا توافقاً إلى الاستزادة من المعرفة بالطب النبائي ، لم يكن يكف عن تتبع التجارب التي تقع أمامه أو تلك التي يسمع بها ، ولا يتردد في تسقط أخبارها حيثما تكون . فكان لا بد من أن يتم اتصال ، أو تلاقٍ ، بين الطبيب الوزيرين يكون محوره : الطب ، وعلى وجه التحديد : الجانب النبائي منه !

فعند ذكر صاحب «التيسير» لمعالجة كسر العظام ، يتحدث عن ضرورة أن يُعَدَّل الطبيب مزاج العليل بأن يستفرغ بالإسهال الخلط الممرض . وههنا ينصح طبيبه بأن يُكسَّب «الدواء قوةً مقويةً فتكسر من إكراهه ومن إخلاله بالقوى» بأدوية عينها . . . ويقول ، آتياً على ذكر زهر «النيلوفر» :

«ولب الفستق حجاب فاصل من إكراه الحنظل ومن إكراه سائر الأدوية المكربة . وأما مايكون حجاباً ، بحسب الكيفيات الأولى ، فأقرب من هذا بأن تحجب الحدة من شحم الحنظل بلب اللوز ، ومثل أن تحجب يئس الخربق بالنيلوفر ، وإن كان النيلوفر ، مع ما يحجب من الكيفيات الأولى ، هو أيضاً يحجب من الإكراه ومن الإخلال بالقوى من حيث إنه عطر ، ويعين المسهلات من حيث إن فيه قوةً مسهلة ليست بالضعيفة» (٦٢).

ثم يذكر «الابن» ما حدث به أبوه عن «وصفة» كان الجد كتبها في أحد المجالس العامة ، أورد فيها زهر النيلوفر ، قال :

«وكان أبي ، رحمه الله ، يُخبر عن أبيه جدي الأقرب ، رحمه الله ، أنه كتب في مجلس أحد الملوك في وقته عند وروده من المشرق ، دواءً مسهلاً ، وكان حاضراً المجلس الطبيب المشهور أبو المطرف بن وافد رحمه الله ، فنظر الطبيب المشهور ، فلحقه ، بموقع النيلوفر من الأدوية ، أريحيةً عظيمة وأفرط في ذلك وتناهى استحساناً وطرباً !» (٦٣).

وما كان إفراط ابن وافد في إعجابه وتناهيه في استحسانه وطربه ، من موقع زهر النيلوفر في تلك «الوصفة الطبية» التي كتبها الطبيب العائد حديثاً من المشرق ، إلا لبالغ اهتمامه بالأدوية المفردة . . . وهو الذي كان له في الطب - كما قال معاصره القاضي صاعد - «منزغ ومذهب نبيل» ، وذلك أنه لا يرى التداوي بالأدوية ما أمكن التداوي بالأغذية أو ماكان قريباً منها ، فإذا دعت الضرورة إلى الأدوية فلا يرى التداوي بمركبها ما وصل إلى التداوي بمفردها ، فإن اضطر إلى المركب لم يكثر التركيب بل اقتصر على أقل ما يمكن منه . . .» (٦٤).

٧. وجبات من خوخ تزيء من حمى الربيع

ومما عرّض له صاحب «التيسر» أيضاً ، من معالجات «الجد» النّبانية ، تلك المعالجة الطريفة^(٦٥) ، التي سمع بها ، على البعد هذه المرة ، الطبيب ابن وافد ، وأبدى بها من الاهتمام ما حله على أن يكتب ، من طليطة ، أبا مروان حيث كان ، ويستفسره حقيقة تلك المعالجة وما الذي دعاه إلى فعلها ؟

ففي ذكر عبد الملك بن زهر للحمّيات ، من حيث معاودتها العليل وطول مدتها ، يُعَدُّ أنواعها . . . فهي :

«حمى يوم» ، تحدث في يوم ، وقد تتمدى أياماً ثلاثة ، ثم لا تُعاود العليل . «وأكثر ما تكون هذه الحمى عن سبب من الأسباب البادية التي تطرأ على الإنسان من خارج . والأسباب الطارئة من خارج : إما غضب شديد ، وإما هم مُفرط ، وإما سهر زائد ، وإما تعب خارج عن المعتاد ، وإما طول إقامة في الشمس ، وإما أن يصيب الإنسان برد مُفرط ، أو يكون الإنسان يستحمّ بواحد من المياه الرديّة . . .» (٦٦).

وربما انتقلت حمى اليوم إلى «حمى غيب» ، تلك التي «يكون إقلاعها ، متى أقلعت ، ليس إقلاعاً صحيحاً ، بل يكون كأنه خِفة من المرض ، ويبقى كذلك مدة الإغباب ثم يبدأ بالشدة . . .» (٦٧) وقليلاً تكون إلا في الفتيان المحروري الأبدان ، وفي وقت الصيف . وغاية طول نوبتها اثنتا عشرة ساعة ، وتغيب مثل ذلك ، ثم تنوب ، ولا تزال كذلك حتى تغلب قوة البدن فتتضح الخلط الممرض وتستأصل شافته بالبرء الصحيح (٦٨) . ويتقدم يوم البرء يوم آخر يكون يوم إنذار وبشرى بالبرء تظهر في يوم الإنذار^(٦٩).

وربما انتقلت ، كذلك ، حمى اليوم إلى «حمى بلغمية» ، وهي «التي تنوب وِرداً» (. . .) وتكون عن تعفن في بلغم . وهي حمى تكون طويلة ، ونوبتها أطول من نوبة حمى الغب ، وحركتها على سبيل الصّلاح تكون أبطأ (. . .) وهذه الحمى تطول مدتها ، وأقل مدتها عشرون يوماً أو أحد وعشرون يوماً ، وربما زادت إلى الأربعين ، وربما طُفقت إلى الستين»^(٦٨).

وربما انتقلت حمى اليوم ، ثالثاً ، إلى «حمى دموية» ، وهذه الحمى الدّميّة إنما تكون نوبة واحدة من أولها إلى آخرها ، فإما أن يبرأ العليل وإما أن يموت . وهذه الحمى قلما تكون إلا في الشبان ممن لم يتخطّ الثلاثين عاماً . وعلاجها بالفصد حتى يُغشى على المريض . . . »^(٦٩) !

وربما انتقلت حمى اليوم ، أخيراً ، إلى «حمى ربيع» ، وهذه الحمى «أعسرُ نُضجاً من حمى الورد بكثير ، وليست في الحبث على مثل تلك ، وإنما شرّها كلّها في عُسر نُضجها ، ولا يكون البرء منها إلا في زمن الربيع . وهي تنوب في الرابع وتَغيب يومين . وأما طول نوبتها ، فلست أقول إنها أطول من نوبة حمى الورد . وأما طول مدة المرض ، فقد رأينا مَنْ بدأت به هذه الحمى في الصيف ولم تزل تنوب إلى الربيع ، وربما تُمادت عامين . وقلما تكون إلا في الكهول وفي الشيوخ ، وفيمن يكون كثيراً ما يأكل اللحوم المتناهية الغلظ والجبن الجاف ولحوم الإبل (. . .) وهذه الحمى إنما يُحسّ المحموم فيها تكسراً وكأنه يُرمى بالحجارة من بعد . . . »^(٧٠).

وبعد استطراد المؤلف إلى ذكر البُحرائات والإنذارات^(٧١) ، يعود إلى حمى الرّبيع ، العسرة النّضج الطويلة المدة ، فيقول : «إن علامات النضج فيها بالأشهر ، وليس يأتي فيها إنذار يوم معلوم ، والغاية أن يكون الإنذار في شهر بشهر معلوم ، وقلما يكون انقضاؤها باستفراغ بل على طريق التحلل» . . . ويقول : «وهذه الحمى يجب أن يكون الطبيب لا يُخلّي أدويته من الترطيب ، وإذا علم أنها قد نضجت فلا يتكل فيها على استفراغ من تلقاء الطبيعة ، بل يسقي العليل الدواء المسهل لهذا الخلط . . . »^(٧٢).

إلى أن يقول :

«واسع في الترطيب كما تسعى في الإنضاج والتلطيف . وقد كان جدي الأقرب ، عبد الملك رحمه الله ، استصعب عليه علاج حمى ربيع ، فأمر العليل أن يأكل كل يوم ثلاث حبات من

الخوخ النَّضِجَ أياماً نحو العشرة ، ثم سقاه ، رحمه الله ، دواءً مسهلاً ، فبرئ من مرضه
برءاً كلياً !^(٧٣).

ويتابع :

«وعجب أطباء وقته من ذلك حينئذ ، ووقعت في ذلك رسائل كثيرة بينه وبين الشيخ
الوزير أبي المطرف بن وافد رحمه الله ، فإن أبا المطرف كتب إليه يتعرف حقيقة ذلك ؟ وما
دعاه إلى فعله ؟ فكتب إليه [جدي] بما فعل ، وبما ظهر إليه ، وبمقصده في ذلك ، فأعظم الأمر
استحساناً ! والرسائل في أيدي الناس موجودة !»^(٧٤).

ولا غرابة في أن يُعجب بهذا الإجهاد ابنُ وافد ، صاحبُ ذلك «المنزِع اللطيف والمذهب
النبيل» في الإبتعاد ما أمكن عن التداوي بالأدوية ، وأن يسعى ، بعدما بلغه الخبر ، إلى
استجلاء حقيقة ما سمع ، وإلى تعرف الدوافع التي حملت عبد الملك بن محمد على أن يصف
للمحموم في حمى الربيع ، بعد أن استعصى عليه علاجها ، أن يأكل حبات من الخوخ النَّضِج
ثلاثاً في اليوم ليس إلا ، وعلى مدى أيام عشرة ، قبل أن يسقيه الدواء المسهل ، فبرأ العليل
من مرضه «برءاً كلياً» !

وليت الرسائل ، التي تبودلت حول ذلك ، باقيةً إلى يوم الناس هذا ، لنرى كيف يتحاور
الأطباء العلماء ، الوزراء ، في مثل هذا الابتكار الطبي أيام الأندلس العربية .

٨ - وبالحيز وحده ، مع مربي الورد ، قد يزول الهلاوس .

وفي معزل عن الطبيب الوزير أبي المطرف بن وافد ، يحدثننا صاحب «التيسير» عما يعرض في
الرئة من أورام . . . فإن الرئة - يقول - متى وَرِمَتْ «تبعَ وَرَمُها ضيقُ نفسٍ ملازم شديد ،
وحُمى حادة بسبب مجاورة الرئة للقلب»^(٧٥) ، وسعالٌ مُلِحٌ ، وحمرةٌ في الوجه ، وحرارةٌ في
النفس ، ويكون التنفس سريعاً متواتراً (. . .) وأما النبض فيكون سريعاً متواتراً (. . .)
فعندما ترى^(٧٦) حمى حادة وسعالاً ملحاً ولا يكون مع السعال نفث^(٧٧) ، فلتعلم أن في الرئة
شيئاً من الأورام (. . .) فاقصد العليل بحسب سنّه ، ومزاجه ، والوقت الحاضر من
السنة ، وبحسب البلد . . . ؛ فإن لم يرتدع الورم بعد القصد ، وقَاحٌ ، فإن في الـ

«انتقاض اتصال»، وهذا تُعَقِّبُهُ «حَمَى الدَّقِّ»^(٧٨)، ثم السُّلُّ، وبأخَرَةٍ تورُّمُ القدمين... ثم الموت ا»^(٧٩).

ويُقدَّر، في ثقة، مدة المرض التي تسبق موت العليل، استناداً إلى لون المِدَّة التي ينفثها: «فمضى آل ذلك إلى التقيُّح، فإن المِدَّة إذا كانت سوداء أو خضراء فإن الأمر يتعجَّل في العليل ولا يجاوز العشرين يوماً وهي النهاية، وأما متى كانت المِدَّة بيضاء فإن مُدَّتَهُ تطول جداً. وأما العلة فإنها لا تَبْرَأُ أصلاً — فيما رأوا — ويحدث به حينئذ العلة المعروفة بـ «السُّلِّ»، ويعرِّض له حَمَى الدَّقِّ وتلازمه كذلك، وينفث دائماً ولا يسكُن سعاله»^(٨٠).

ثم يصف حال العليل، الذي «يقلُّ لحمه شيئاً فشيئاً ويذبل، حتى يصير جلده شبيهاً بالجلود المَكْرُشَة، وتغور عيناه، ويحْدُثُ أنفه، وتتقوَّس أظفاره، وفي آخر الأمر تراه لا يمكنه أن يفتح أشفاهه إلا بكَدٍّ (...). وفي تلك الحال لا يمُهِلُهُ بعدُ الموت. وليس ينتهي إلى هذه الحال إلا بعد أن ينفث دماً كثيراً في الأغلب بعَقَبِ مِدَّةٍ ثم ينفث مِدَّةً بعَقَبِ الدم، هكذا يتعاقبان فيه حتى ينتهي أمره فيَهْلِكُ، وكل شيء بقدر»^(٨١).

وبعد أن يتحدث عمّا يتوجب على الطبيب أن يتَّخذه من تدبير ويُعدُّ الأدوية المناسبة، يضيف أن «المجموع من هذه الأدوية نافع لمن قاحت رثته إن استعملت مشروبة أجزاءً سواء، وتُخْلِطُ إلى صَفْوِهَا أحدُ الأشربة المحمودة كشراب الشريس وشراب الورد الحديث»^(٨٢).

وفي تأكيد ضرورة تلطيف غذاء العليل، يقول:

«أَفْضَلُ الأَغذية له الخَبِيزُ المَخْتَمَر من البُرِّ بِمَرِّ الورد السُّكْرِي»، ويتابع: «وكان أبي رحمه الله، يُخَبِّرُ أن رجلاً في شرق الأندلس أصابته هذه العلة العظيمة حتى ذهب معظم لحمه، فحمَلَهُ أبوه جدي الأقرب عبد الملك، رحمه الله، على التزام هذا الغذاء، وعلى أكل الخَبِيزِ المَخْتَمَر بالزبيب، وبقي على ذلك مِدَّةً طويَلة جداً، فارتفع سَعَالُهُ وهَلَسَ»^(٨٣) وَخَصِبَ بدنه، وبقي يحيا ليس به شيء من السوء، وطال عمره إلى أن مات جدي المذكور، رحمه الله، وبقي معاصراً لابنه — أبي — مِدَّةً طويَلة، وأظنه، رحمه الله، أخبر أنه، بعد مدة طويَلة، مات الرجل من علة أخرى»^(٨٤).

ولا يفوت ابنُ زُهر أن يروي لنا قصةً عن حالة مماثلة ممَّا وقع له في تجاربه الطبية...

يقول :

«ورأيت رجلاً ، وأنا في حديث السن ، من القريتين^(٨٥) أصابته هذه العلة ، فألزمتُه مشروباً على نحو هذه السبيل وأن يغتذي بما رسمته ، فارتفع سعاله ، وعاش وخصب جسمه وعاد إلى عمله وأشغاله ، وبقي كذلك أعواماً ، إلى أن عرض هواء وبائي وكثر الموتان^(٨٦) في الناس ، فمات الرجل من حمى عظيمة أصابته»^(٨٧).

٩ عندما يصفو شراب الصيدلاني

وبعيداً عن وصف الأمراض والأعراض ، وداخل عالم الصيدلانيين الذين يبيعون الأدوية المفردة ويحضرون المركب منها ، نجد أن للجدّ عبد الملك رايًا ، في الصيدلاني الذي يَغشُ ، تمكيمياً لاذعاً ، أوحى إليه به غيرُ الطبيب العالم وما يتمنّع به من خُلق ديني قويم .

وفي التفاتة نحو الماضي ، نرى أن أجدادنا العرب كانوا قد نظّموا صناعة الطب تنظيمًا دقيقاً غرّقوا فيه بما للأطباء من الحقوق وما عليهم من الواجبات ، ووكّلوا الإشراف على ذلك إلى ديوان الحسبة ، فكان المحتسب ينظّم اختبار الأطباء وفحص معلوماتهم ويشرف على امتحانهم ويتعرّف على مقدرتهم للعمل ، فإذا رأى من أحدهم عجزاً أو تقصيراً منعه من امتحان الطب وحمله مسؤولية ما قام به من أعمال...^(٨٨).

ولقد عُني أجدادنا كذلك ، ولا سيّما الأندلسيون ، بالصيدليات ، «فإنهم كانوا يتفحصون أدويتها تفادياً من وقوع الفش فيها وحدوث الضرر لمتخذها ، ويسعّرها بأسعار معتدلة رفقا بالفقير ، ووضعوا قانوناً للأقرباذين^(٨٩) يحتم على إجازة الحكومة بالتراكيب الخاصة من الأدوية ، مثل السموم وغيرها»^(٩٠).

ومع تلك الرقابة ، التي تمرّس بها الأندلسيون ، كان الفش يتسرّب إلى عمل الصيدلانيين . وفي حديث صاحب «التيسير» عن أنواع من الأدوية سيّما «المعاجن الصغار» التي تشيع بين الناس وتتوافر حتى في القرى^(٩١) ، وذكر منها :

«ترياق الأربع»^(٩٢) و«ترياق الثوم»^(٩٣)... يقول : «وهذه سهلة خفيفة ، يُقيمها الإنسان حيثما كان ، ولأن أدويتها موجودة في كل موضع ، ولا تعتاص على من أراد إقامتها .

وكذلك الأشربة المعروفة المعهودة ، فإنها موجودة في أكثر القرى ، وأكثر الناس يعرفون إقامتها وتركيبها»^(٩٤).

وهنا يتوقف صاحب «التيسير» ، ليتحدث بضمير الطبيب اليقظ :

«غير أني أقول واحدة : إن الناس إنما يبيعون الأسماء ، مثل شراب الورد ! فإنهم إذا أقاموه ، إن أقيم بحيث ينفع جاء لونه إلى السواد ، فهم لا يضعون فيه من الورد إلا ما لا يغيره»^(٩٥). فإذا أفنى الطبيب ، مثلاً ، بأوقية من شراب الورد ، أعطاه الصيدلاني سكرًا عُقد منه بالماء شرابًا لا طعم للورد فيه ! وكذلك يفعلون بشراب الأسطوخدوس^(٩٦) وغيره ! فيكون المريض يحسب أنه يشرب شراب الورد ، أو شراب الأسطوخدوس ، وهو إنما يشرب السكر والعسل قد أزيلت رغوتهما ، فلا ينتفع المريض بشيء ! وكذلك يفعلون في الأدهان – إلا نفرًا سيرًا – فإننا نسمع دهن الورد أو دهن البنفسج ، ولا رائحة لواحد منها في واحد من الدهنين»^(٩٧).

ثم يستدرك ، متحدثًا بضمير الإنسان :

«وليس هذا حادثًا في هذا الزمان ، بل كان ذلك منذ دهر طويل . ولذلك أخبرني أبي ، رحمه الله ، أن والده كان يقول : إذا صفا شراب الصيدلاني كِدَر دِئنه !» . فلذلك يجب أن تُختبر الأدوية بطعمها»^(٩٨).

١ وفاة الطبيب الجليل في «دانيه»

هذه ملامح لابن زُهر الجدد ، عبد الملك بن الفقيه محمد ، الذي نال ، بعد رجوعه من المشرق ، الحظوة عند صاحب دانية التي استوطنها ، وفيها «اشتهر بالتقدم في علم الطب حتى يَدُّ أهل زمانه . ومات بدانية»^(٩٩).

وفي شأن وفاته ، المكان والزمان ، يقول ابن الأثير :

«واستوطن دانية ، وفيها توفي ، وبها قبره وقبر أبي الوليد الوُثَشي بلزاء الجامع القديم ، إلا أنها لا يُعرفان . وقد بحثت عن ذلك ، أيام اشتغالي بالقضاء فيها سنة ٦٣٣ ، فلم أجد وقفًا عليها . ذكره السالمي ولم يذكر تاريخ وفاته ، وأحسبها في نحو السبعين وأربع مائة»^(١٠٠).

لقد كانت حياة حافلة ، حقاً ، تلك التي عاشها عبد الملك بن الفقيه محمد ، منذ خرج من إشبيلية صغيراً ، برفقة أبيه الذي استُصِفَت أمواله فيها : فرحل الأب إلى شرقي الأندلس ، أو تنقّل بين مدن الشجر الأعلى ؛ على حين توجّه ابنه إلى المشرق ، ليعود طبيباً عظيماً ويصبح وزيراً في بلاط دانية ، فيملا عصره علماً ومهابةً ، ويطيّر ذكره إلى سائر الأقطار .

فهل استطعتُ ، مع ضلالة المعلومات التي أَلَمْتُ بها المصادر التاريخية ، أن أرسم ملامح لشخص هذا الرجل ، وأقدّم قبساتٍ من علمه ؟

وما أغنى تاريخنا بالرجال !

الهوامش والتعليقات

- (١) وكان رأياً شاعراً ، ومتنبّئاً من المصادر ذاتها ! وسيرد تفصيل ذلك عمّا قريب .
- (٢) كان الحديث عن الأخير نقلًا عن الأب ، لأن الابن لم يعاصر الجدا
- (٣) أحسب أن أنوه بأن ما في كتاب التيسير من معلومات شخصية عن مؤلفه ، قد حفّزني إلى إعداد دراسة بعنوان الطبيب الأندلسي عبد الملك بن زهر من خلال كتابه التيسير ، ألفتها في المؤتمر السنوي التاسع لتاريخ العلوم عند العرب الذي أقامه معهد التراث العلمي العربي بجامعة حلب يومي ٢٤ و ٢٥ نيسان (أبريل) ١٩٨٥ ، وقد نُشرت الدراسة في مجلة «الدائرة» ، العدد الثاني ، السنة الحادية عشرة ، المحرم ١٤٠٦ ، سبتمبر (أيلول) ١٩٨٥ .
- (٤) عمر رضا كحالة : «ابن زهر وأسرته» ، أسبوع العلم الثالث عشر (الجمهورية العربية السورية سنة ١٩٧٢) الكتاب الأول : كلمات الافتتاح والمحاضرات العامة ، ص ٢٧٣ و ٧٤ .
- (٥) كتاب «الصلة» لابن بشكّوّل ٢ : ٥١٤ ، القاهرة ١٩٦٦ .
- (٦) الذي خَلَفَه ، فيما بعد ، أبنته «المعتضد بن عبيد» ، ثم «المعتضد» .
- (٧) المقرئ : «فتح الطبيب» ٣ : ٤٣٢ ، تحقيق الدكتور إحسان عباس ، دار صادر بيروت ١٣٨٨هـ / ١٩٦٨ .
- (٨) يعني إلى طليطلة .
- (٩) كتاب «الصلة» ٢ : ٥١٥ .
- (١٠) ما يُعرف اليوم في إسبانيا ببلاد «الباسك» .
- (١١) مدينة تقع على مقربة دانية من طليطلة غرباً .
- (١٢) تقع «وشقة» في أقصى الشجر الأعلى . وما يُروى عن هذه المدينة أن المسلمين حاصروها ومنذ فتح الأندلس حصاراً طويلاً ، حتى بنّوا عليها المساكن ، وغرسوا الغرس ، وحرثوا لماعيشهم ، واتصل ذلك من فعلهم سبعة أعوام ، والنصارى في القسبة القديمة محصورون . فلما طال عليهم الحصار استامنوا لأنفسهم وذرارهم ، فتمّ دخل في الإسلام ملك نفسه وماله وحرمة ، ومن أقام على النصرانية أدّى الجزية ، فليس في وشقة من أهلها المتأصلين رجلٌ ينتهي إلى أصل صحيح من العرب ، الحميري : «صفة جزيرة الأندلس» : ١٩٥ (منتخب من كتاب «الروض المعطار في خبر الأقطار») ، نُشر بعناية المستعرب لامي بروقتال (طبع ؟ تاريخ ؟) .
- (١٣) «الصلة» ٢ : ٥١٥ .

وهذا يخالف ما أورده المقرئ ، فيما بعد ، من أن أبابكر ، بعد أن استُصِفَت أمواله في إشبيلية ، ولحق بشرق الأندلس ،

- وأقام فيه بقية عمره»، «فتح الطبيب» ٣: ٤٣٧.
- وما يحسن ذكره هنا أن حفيد الفقيه، الطبيب أبا العلاء زهر (ابن الطبيب عبد الملك)، لم يزل مقيماً بشرق الأندلس إلى أن كان حور سلطان المرابطين «يوسف بن تاشفين» بجيوشه من العدو المغربي إلى الأندلس وانضمام الجيوش الأندلسية إليه ثم خوض الجميع سنة ٤٧٩هـ (١٠٨٦م) حرباً ضد «أدقونش» (الفونس السادس ملك قشتالة) وانتصارهم على جيوشه في معركة «الزلاقة» الشهيرة... وقد شخّص أبو العلاء معهم، فلقبه للمتمدّد بن عباد (ملك إشبيلية)، واستناله واستهواه وكاد يغبلة على هواء، وصرف عليه أملاكه، أملاك جده التي كان قد صادرها جدّ المعتدّد! «فتح الطبيب» ٣: ٤٣٧.
- (١٤) وذلك ما بين ٤١٤هـ سنة استنار إسماعيل بن عباد بحكم إشبيلية، وبين ٤١٧ السنة التي يقول ابن واهد إن الفقيه محمداً جاء فيها طليطلة قادماً من إشبيلية.
- (١٥) أي تمكّن الطب.
- (١٦) القاضي صاعد الأندلسي، الطليطلي (٤٢٠ - ٤٦٢هـ)، «طبقات الأمم» ١٢٩، مطبعة السعادة بمصر. وتزيّد، فيا بعد، «ابن دحية» (٥٤٤ - ٦٣٣هـ)، فيقول: إن عبد الملك «تولى رئاسة الطب ببغداد، ثم بمصر، ثم بالقبروان»، «المطرب في أشعار أهل المغرب» ١٨٥، ط مصر - الخرطوم، ١٩٥٤.
- (١٧) مؤسس الدولة العاصرية في دانية وميورقة. وكان واحداً من قواد المنصور بن أبي عامر أواخر عهد الدولة الأموية في الأندلس، وقد خرج من قرطبة ببعض جيش الأندلس، ودخل به دانية فاستقلّ بها سنة ٤١٢هـ. وغزا مجاهد الإفرنج بأساطيله في جزيرة سردينيا. وكان حازماً يفتأ شجاعاً، عارفاً بالأدب وعلوم القرآن. توفي سنة ٤٣٦هـ، فخلفه ولده وعليه. «الأعلام» ٥: ٢٧٨، ط بيروت. ١٩٨.
- (١٨) ابن أبي أصيبعة: «عيون الأنباء في طبقات الأطباء» ٥١٧، تحقيق الدكتور نزار رضا، دار مكتبة الحياة ببيروت، ١٩٦٥.
- (١٩) كتاب «التكملة لكتاب الصلة» ٦٠٦، ط مجرط ١٨٨٦ (عن كتاب «الطبيب العربي الأندلسي عبد الملك بن زهر» أسبوع العلم الثالث عشر ١٩٧٢، دمشق).
- (٢٠) «طبقات الأمم» ١٢٩، وحنه أخذ ابن أبي أصيبعة في «طبقاته».
- (٢١) نقول هذا لأن عبارة ابن الأبار جاءت في سياق يدعو إلى التأمل: كان عبد الملك «من أهل العلم والفقه، سالكا طريقة أبيه أبي بكر في ذلك، ومال إلى التفتن في أنواع التعاليم. ورحل إلى الشرق لأداء الفريضة، ودخل القبروان، بعد ذلك، ثم قفل إلى الأندلس...». وقد نقل هذه العبارة المقرري فيها بعد، فقال: «ومال إلى التفتن في أنواع التعاليم، من الطب وغيره»، «فتح الطبيب» ٢: ٤٣٢.
- (٢٢) في مناقشة هذا الرأي «الشاذة والتلطّف بتغيّده، نقرأ ما كتبه الدكتور عبد الكريم الباني، عضو مجمع اللغة العربية بدمشق، يقول: «وفهم من هذا أنه (عبد الملك) لم يكن راضياً عن الإختلاف إلى الحمايات، في ذلك الوقت، التي قد تعكّر المزاج وتزعج الأنفاس وتعرض لفتاوت الحرارة والبرودة، لا عن الاستحمام والنظافة اللذين هما ركن مهم من حضارة العرب والإسلام يعتمدان على الغسل والوضوء»، «وقال فكرية في تاريخ الحضارة العربية الإسلامية» ١١٧، الشركة المتحدة للتوزيع، بيروت، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢.
- أقول: إن لحفيده وسميه، الطبيب عبد الملك، رأياً في الحمايات يختلف عن هذا الرأي المنسوب إلى الجد، معتدلاً ولكن متحفظاً، ساقه في مطلع كتابه في جملة نصائح عامة قدمها بين يدي الطبيب، يقول: «إن الحمايات إذا دخل بمقدار معتدل على ما ينبغي، وذلك كلّ عاشر من الأيام، على خلّو من المعدة من غير احتياج قاض إلى الطعام، معيّن على دوام الصحة، ما لم يكن حرّ الزمان مفرطاً! «التيسير في المداواة والتدبير» ٩ و ١٠.
- (٢٣) ويضيف ابن دحية: «... والمغرب، واشتهر بالتقدّم في علم الطب حتى بدّ أهل زمانه! وقد انفرد ابن دحية، دون سائر القدامى، بأن خلع على الطبيب لقب «الوزير الكبير»، «المطرب» ١٨٥، وجاراه في ذلك، بعد أربعة قرون، صاحب «فتح الطبيب» ٢: ٢٤٤، ٤٣٧.

- (٢٤) تميزاً له عن «الأب» أبيه الطبيب أبي العلاء زهر ، وعن الجدّه جده الطبيب أبي مروان عبد الملك بن الفقيه عمه ، وعن والحفيده ابنه الطبيب أبي بكر عمه بن عبد الملك ... وذلك فضلاً عن ابن الأخير : الطبيب أبي عمه عبد الله ، وابن هذا الطبيب أبي العلاء محمد بن عبدالله !
- (٢٥) ولا يزال عامٌ مولد طبيبنا عبد الملك بن زهر مجهولاً . وقد قدّر المستعرب الفرنسي الطبيب غابريل كولان أن يكون مولده في عام ٤٨٤هـ (١٩٠١م) أو بعد ذلك بثلاثة أعوام ، على حين رجّح معجم لا روس الكبير عام ٤٦٤هـ (١٠٧٢م) ، وهو التقدير الذي اعتمدته المجلس الأعلى للعلوم في الجمهورية العربية السورية كي يتسنى له أن يحتفل بالذكرى التسمّائة لمولده عام ١٩٧٢ فاضل السباحي : «مناقشة ابن أبي أصيبعة في مقلوته عمّن دفع ابن زهر لتأليف كتاب التيسير» ، «المجلة العربية للثقافة» (نصف سنوية ، تصدر عن المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ، تونس) ، للعدد السابع : ٥٨ ، الحاشية ٢ ، ذو الحجة ١٤٠٤ ، سبتمبر (أيلول) ١٩٨٤ .
- (٢٦) عُني بتحقيقه الدكتور ميشيل الحفوري ، عضو مجمع اللغة العربية بدمشق ، وتولّت نشره المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم بتونس ، وتمّ طبعه في دار الفكر بدمشق ١٤٠٣هـ/١٩٨٣ .
- ونجد الإشارة إلى أن وكتاب التيسير كان قد تُرجم إلى اللغة العربية ، التي كان يهود الأندلس ينقلون إليها أمهات الكتب العلمية العربية . وعبر هذه القناة تمت ترجمة والتيسير إلى اللغة اللاتينية ، وأصبح يُدرّس في بعض الجامعات الأوروبية طوال القرون الوسطى . ثم طبع ، في عصر الطباعة ، مراتٍ عديدة كاملاً ، وطُبعت كذلك أجزاءً منه مراتٍ تكاد لا تحصى . ولم يُطبع نصه العربي للمرة الأولى إلا أخيراً !
- (٢٧) «التيسير» : ٤٦٦ و ٢٧٠ .
- (٢٨) وبعضهم من نُسبهم ، في مصطلحنا الحديث ، بالجرّاحين ، وبعضهم بالمساعدين والمرضين والخدم ... مجلة «الدّواء» ، مرجع سبق الإشارة إليه : ١١٤ ، حاشية ١٩ .
- (٢٩) المِياطشة : المعالجة .
- (٣٠) المُلّة : الفصح للمجتمع في الجرح .
- (٣١) «التيسير» : ٧٠ .
- هذا ما صرّح به الطبيب عبد الملك بن زهر بلفظه في كتابه . لذلك كان غريباً أن يعلن أحدُ الأطباء المعاصرين ، المعنيين بتاريخ الطب العربي ، أنّ وظيفة ابن زهر كمدير للمستشفى ، أتاحَتْ له فرصة العثور على كثير من جثث الموتى لتشرّيحها !! أنظر : دكتور عبدالله محمد المراني : «الطب الأندلسي نظرياته وتطبيقاته» ، نشرة «الطب الإسلامي» ، العدد الثاني ، ٢ : ٣٦٧ ، الكويت ، جمادى الآخرة ١٤٠٢هـ ، مارس ١٩٨٢ .
- هذا إلى أني لم أقم ، في كل ما قرأت عن عبد الملك بن زهر ، على أنه قد شغلَ «وظيفة» مدير مستشفى . ولعل الباحث الفاضل قصد في ذلك الطبيب الجرائحي الأندلسي الأشهر أبا القاسم خلف الزُّهراوي (المتوفى ٤٢٧هـ) صاحب الكتاب الذائع الصيت «التصريف لمن عجز عن التأليف» !
- وأمر آخر لاحظته في هذا البحث ، أن الأستاذ الباحث ، في تعداده أطباء أسرة زهر ، قد أغفل ذكر سادسهم : أبي العلاء محمد بن عبدالله ، وكذلك الإشارة إلى الطبيبتين الزُّهريتين : دَامَ حمروُ ابنة عبد الملك بن زهر (ابن عبد الملك المراكشي : «الذيل والتكملة» ٨ : ٤٨٣ ، تحقيق الدكتور محمد بن شريفة ، أكاديمية المملكة المغربية ، ١٩٨٤) وابنتها (ابن أبي أصيبعة : ٥٢٤) .
- (٣٢) وكان قد عُرِف ، قبل ذلك ، بداء البهضة ، فقال إنه «وجع شديد يتقدّمه ، في أكثر الأحوال ، صداعٌ مزمن . وهذا الوجع يكون بأدوار ، في أكثر الأحوال ، لا يتعدّاها . ويبلغ من شدة الوجع أن لا يحتمل العليل أن يسمع صوتاً شديداً ، وإنما ذلك بسبب الحصة الآتية بحسّ السمع إلى الأذن ...» ، «التيسير» : ١١٧ .
- (٣٣) «التيسير» : ١٢٣ .
- (٣٤) الفصد : شقّ العرق ، وعند الأطباء : تفريق اتصال يتعمّه استفراغٌ كليٌّ من العروق وبواسطتها من جميع البدن . والقيقال : عرق في الذراع ، كان القدماء يفصلونه لأمراض الرأس وسواها ، لأنه ذو صلة بالرأس أو أنه متجه إلى

الرأس .

(٣٥) يعني : صفار الأطباء !

(٣٦) المخالفة في الفصد ، عند قدماء الأطباء ، هي أن يتم الفصد في الجانب المقابل للعوض المريض ... كان تكون العين اليمنى رمداً ، فيفصدونه من اليد اليسرى .

(٣٧) «الأكل» : عرق في الذراع ، ويُعرف أيضاً بـ «عرق الحيلة» .

(٣٨) «التيسير» : ٢٦ .

(٣٩) أي الوصفات الطبية ، في مصطلحنا اليوم .

(٤٠) يقول الدكتور صحي محمود حماني : «تغير مدلول كلمة «القولنج» عبر العصور . فقد دلت خلال قرون عديدة على مرض أعراضه الرئيسية الألم البطني واحتباس الثفل ، واليوم تعني فقط الألم البطني المتناوب الشدة . وأما دلالتها كمرض ، فقد حل عليها اليوم جميع الملل التي يجتس الثفل فيها ، وهي كثيرة منها : الفتق المحتقن ، والأورام البطنية على اختلاف أنواعها ، التهابات القولون ، والانفتال المعوي ، وأمراض أخرى ... » ، مقدمته في تحقيقه «كتاب القولنج» لأبي بكر الرازي : ٧٨٠ ، معهد التراث العلمي العربي بجامعة حلب بالتعاون مع معهد المخطوطات العربية (الكويت) ، ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣ .

(٤١) «جالينوس» هو أعظم أطباء الإغريق (١٣٠ - ٢٠٠م) بعد «أبقراط» (٤٤٦ - ٣٥١ ق م) ، صَفَّ العديد من كتب الطب ، التي نقل كثيرٌ منها إلى العربية في القرن الثالث الهجري (التاسع الميلادي) ، فاعتمدها الأطباء العرب والمسلمون ، ويمكن القول إن الطب القديم قام على ما دونه أبقراط وجالينوس اليونانيان . ويُعد ابن زهر وأبوهُ من السائرين على خطا جالينوس ، هذا إلى أن لابن في كتابه «التيسير» إضافاتٍ وابتكارات قد توقف عندها طويلاً العلماء العرب والغربيون .

(٤٢) «التيسير» : ٤٨٠ .

(٤٣) «التيسير» : ٢٧٧ .

(٤٤) «التيسير» : ٢٥٦ .

(٤٥) «التيسير» : ٢٥٧ .

(٤٦) الكُدَّان : حجارة هشة كاللدر ، الواحدة كُدَّانة .

(٤٧) «التيسير» : ٣٦٢ .

(٤٨) وهي إفراط الكلى في إفراز البول ، الذي قد يكون «سُكْرِيًّا» فهو ما يُعرف اليوم بـ «الداء السُكْرِي» .

(٤٩) لم يكتب لصاحب «التيسير» ، كما لاحظنا ، أن ينجح إلى بيت الله الحرام ، ولا عرفنا أن أباً من أطباء الأسرة الزُّهْرِيَّة قد أتى الفريضة ، بعد الجَدِّ عبد الملك . ولا يُفَوِّت «الابن» هنا أن يشير إلى هذه «الميزة» التي تُنْعَم بها جده .

(٥٠) ويستطرد : «وكذلك لم أجد شيئاً ، في نَفْع المغلوج إذاذخن به مؤخر رأسه مع فُقَّاره ، مثله» ، «التيسير» : ٢٧٧ .

(٥١) «التيسير» : ٢٧٧ .

وقد ورد في «قاموس الأطباء» في مادة «بَشْم» : «البَشَام ، كَسَحَاب ، شجر كثير بأراضي مكة ، له ساقٌ ، واثنان سبعة ، وورق صفار أكبر من ورق الصنوبر ، وزهر دقيق يميل إلى الصفرة والبياض ، وثمر في عناقيد كثمر المحلب» ، ويضيف : «وهذا الثمر هو المعروف عند جميع الناس بـ «حَبِّ البَشَام» ، لأن المسمى بالبلسان لا حبَّ له ، ودُفِّن هذه الشجرة (أي البشام) هو المسمى عند الناس في زماننا بـ «دُهْن البَشَام» ، وهذه الشجرة (البشام) بالحقيقة نوعٌ منه (من البَشَام)» ، القروصوني المصري : «قاموس الأطباء» وقاموس الألباء ٥٥:٢ ، مصوِّرات بجميع اللغة العربية بد مشق ، ١٣٩٩هـ / ١٩٧٩ .

أقول : وبسبب ما يتبدى لنا من تباهي ابن زهر بهذا الدواء ، فإني أسمح لنفسي بالا سترسال في بيان أن دهنه ويؤخذ بأن يُشْرَط (شجره) بحديدة ، بعد طلوع الشعري ، ويُجمَع ما يَرشَح منه بقطنة ، وامتناعه : إجماده اللبن وانفساله عن القطننة وانحلاله في الماء ، وينقع دهنه «وين شَرَب السموم ونَحْشِ المَواِم شَرَباً ، وتَبَثَّ الحَصَاة ، ويؤمن على الحبل احتمالاً ، وينفع من استرخاء الذكر تديكياً ، ومن الرعشة والقوة ، ويحلل الإعياء ، وهو أحد أركان الترياق الفاروق ...

والشرية من درهم إلى درهمين، «قاموس الأطباء» (مادة بلس : البلسان)، ٢١٠:١ .
وأما القوصوني المصري، «مُذَنِّب بن عبد الرحمن»، فهو من أعلام الطب في القرن الحادي عشر الهجري، وكان رئيس
الأطباء في «دار الشفاء» بمصر (البليارستان الكبير المنصوري).

(٥١) «التيسير»: ٢٧٧ و ٧٨ .
(٥٢) الملقب بـ «الأرجواني» (توفي ٩٥٩هـ = ٣٤٨هـ)، وهو ليس «أرمانيوس» (رومانوس الثاني) كما ذكر أبخن أبي أصيبعة
نقلًا عن ابن جليل الأندلسي، فالثاني جاء إلى الحكم خَلْفًا لذاك (حكمه ٩٥٩ - ٩٦٣هـ = ٣٤٨ - ٣٥٢هـ). وهذا
التصحيح مستمد من بحث الدكتور عبد الله محمد العمراي، نشرة «الطب الإسلامي»، مرجع سبقَت الإشارة إليه،
العدد الثاني، ٣: ٣٧٠.

(٥٣) الملقب بـ «الناصر لدين الله»، وقد استمر حكمه نصف قرن (حتى ٥٣٠هـ). وهو الذي أعلن «الحلافة» في أسرته الأموية
المروانية مُبَيِّهاً بذلك عهد الإمارة. وكان حازماً وعادلاً وشجاعاً ومحباً للإصلاح حريصاً عليه. ويقال إنه وجد بخط يده ما
معناه أنه عُدَّ في حياته أيام السرور التي صفت له دون تكدير وفككت أربعة عشر يوماً، «نفع الطبيب» ١: ٣٧٩.

(٥٤) أو «الأدوية المفردة» .
(٥٥) كان كتاب ديسقوريدوس هذا قد تم نقله إلى العربية ببغداد، أيام الخليفة العباسي «المعتز» (المُتَوَكِّل) (المُتَوَكِّل ٢٤٧هـ)، على يد
«أصطف بن باسيل» ويتصحح وإجازة من «حنين بن اسحق». ووصلت إلى الأندلس هذه الترجمة التي لم تكن كاملة، ذلك
أن أصطف ترك إلخافاً كثيرة باليونانية لم يستطع أن يجد ما يقابلها بالعربية «اتكالا منه على أن يمت الله بعده من يعرف
ذلك ويفسره باللسان العربي»، «طبقات الأطباء»: ٤٩٣ .

(٥٦) ابن أبي أصيبعة (نقلًا عن ابن جليل)، «طبقات أطباء»: ٤٩٤ .
(٥٧) «الشُّجَار» و «النباتي» و «الحشائش»، القالب مترادفة كان يُعرف بها الأطباء المعنويون بالتطبيب بالنباتات .
(٥٨) «طبقات الأطباء»: ٤٩٤ .

(٥٩) في ما قام به هؤلاء الأطباء في هذا المضمار، يتصور الدكتور العمراي دقائق عملهم ويؤبر عنها تعبراً حسناً، فيقول إن
«اللجنة» المؤلفة منهم قد «بحثت عن مقابل الاسم الإغريقي في اللغة العربية أو اللهجة الأندلسية . وكان لزاماً أن تسقط
اللجنة من اعتبارها النباتات التي لا تنمو بالأندلس، وأن تترجم فقط تلك التي تنمو بها، مع إضافة النباتات الخاصة
بالأندلس والتي لا توجد في الأصل الإغريقي . ولأجل هذا الهدف، كان لا بد من الطواف بأنحاء المملكة، في رحلات
استكشافية تجول في السهل والجبل، في الداخل والساحل، بغية جمع النباتات، وجمع الملاحظات، والموازنة .
ومباراة أخرى: إنجاز مهمة الدراسة والبحث على خير وجه ممكن، في ميادين علوم النباتات والصيدلة والطب»، نشرة
«الطب الإسلامي»، العدد الثاني، ٣: ٣٥٩ .

وأقول: أحسب أن الباحث الفاضل قد جانب الصواب عند ما استهلَّ قوله هذا بعبارة: «وتمَّ تعريب الكتاب»، إلا
إذا كان يقصد بها: تصحيح التعريب!
(٦١) الدكتور صلاح الدين المنجد: «مقدمة كتاب الحشائش والأدوية لديسقوريدوس»: ٨، مطبوعات مجمع اللغة العربية
بدمشق، ١٣٨٥هـ/١٩٦٥ .

ويعُدُّ المؤلف أسماء أطباء أندلسيين ومغاربة آخرين تابعوا المهمة، هم: أمية بن عبد العزيز والشريف الإدريسي
والغافقي وابن الرومي وابن البيطار، نضرب صفحاً عنهم لأن زمنهم يتجاوز عصر طبيبتنا عبد الملك الجند .
ثم يعلن، في كتابه، كشفه عن أن هناك ترجمة ثانية لكتاب ديسقوريدوس، لاحقة للأولى زمنياً (يمدها بأكثر من
ثلاثمائة سنة)، قد نقلها عن اللغة السريانية «وهو» بن منصور بن مهران (من النسخة التي كان قد وضعها حنين بن
اسحق نقلًا عن اليونانية)، بتكليف من السلطان «ألي بن ترمش» (٥٤٧ - ٥٧٥هـ) أحد ملوك الأرتقيين التركانيين (في
ديار بكر وماردين وميافارقين) .

وقد عثر الدكتور المنجد على هذه الترجمة في مكتبة الإمام علي بن الرضا بإيران، المذكورة في الكتاب، بالألوان . وعده

النسخة من أجل ما وقعت عيناي عليه من مخطوطات : جمال خط ، وتزويق ، وتصوير : والترجمة تدل على أن صاحبها كان فصيح العبارة ، سلس اللغة ، قوي التركيب ، وذلك خلافا لترجمة اصطفى التي هي ، وركيكة العبارة . وللمتوسع في هذا الموضوع ، اقرأ : الدكتور غنار هاشم : «ديسكورينس وكتابه» ، مجلة «التراث العربي» (فصلية تصدر عن اتحاد الكتاب العرب بدمشق) : ص ص ١٥٠ - ١٦٤ ، العدد المزدوج ١٣ و ١٤ ، محرم - ربيع الثاني ١٤٠٤ هـ / تشرين الأول - كانون الثاني ١٩٨٤ . وقد بذل الباحث جهداً مجدياً لا يثبات أن ديسكوريدس من هو «طبيب شامي يوناني [للغة] من «عين زري» ، وهي بلدة واقعة في شمالي سورية وتقع في يومنا هذا في الجمهورية التركية» . هو «عبد الرحمن بن محمد بن عبد الكبير بن يحيى بن وافد بن مهتد البخمي» (٣٩٨ - ٤٦٧ هـ) ، سواه صاحب الأعلام : «ابن مهتد» (٣/ ٣٢٦) ، وقد استوزر في عهد «يحيى بن ذي النون» ، الملقب بـ «المأمون» ، الذي تملك طليطلة ما بين ٤٣٥ - ٤٦٧ هـ .

يقول معاصره القاضي «صاعد» الطليطلي (٤٢٠ - ٤٦٧ هـ) «إن الوزير أبا المطرف «تقهر في علوم الأدوية المفردة (...) وألف فيها كتاباً جليلاً لا نظير له جمع فيه ما تضمنته كتاب ديسكوريدوس وكتاب جالينوس المؤلفين في الأدوية المفردة ورتبه أحسن ترتيب (...) ، وأخبرني عنه أنه عاني جمعه ، وحاول ترتيبه وتصحيح ما ضمنه من أساء الأدوية وصفاتها وأودعه إياه ، من تفصيل قواها وتحديد درجاتها ، من عشرين سنة ، حتى كمل موافقاً لغرضه مطابقاً لبقيته» ، «طبقات الأمم» : ١٢٨ ، وعن صاعد نقل ابن أبي أصيبعة .

(٦٢) «التيسير» : ٣٢١ - ٢٥ .

وقد عرّف القوسوني ، في «قاموسه» ، بعد انقضاء ستمة سنة ، بزهر النيلوفر ، قال : «النيلوفر ، بالكسر ، اسم فارسي معناه : التبلّ الأجنحة (...) وهو ريحان معروف ينبت في المياه الراكمة ، وله بزر أسود وأصل كالجزر ، وألوانه مختلفة منها الأزرق والأحمر والأصفر والأخضر (...) ، وهو وشرايه مرّ ، ملينٌ للطبيعة ، صالح للسعال(١) ، ولأوجاع الجنب والرية والصدر الحارة (...) ، «قاموس الأطباء» : ٢٠٠:١ .

(٦٣) «التيسير» : ٣٢٥ . ويُرجّح أن يكون الملك ، المشار إلى مجلسه في النص ، هو «عجاده العامري» صاحب دانية .

(٦٤) «طبقات الأمم» : ١٢٨ .

(٦٥) ألم يُريد في المصادر التاريخية أنه مال إلى «التفنن» في أنواع التعاليم؟

(٦٦) «التيسير» : ٣٩٠ .

وفي «فهرس المصطلحات» ، الملحق بكتاب «التيسير» والذي أعده الباحث الدكتور غنار هاشم ، وأضعا إزاء كل مصطلح مقابله باللغة الفرنسية ومشيراً إلى أن «الاصطلاح القديم لا ينطبق دائماً على الاصطلاح الحديث» ... ورد ، في الصفحة ٥٠١ : «هي يوم Fievre ephemere» .

(٦٨) «التيسير» : ٣٩٣ و ٩٤ .

وفي «قاموس الأطباء» : «القيّ» ، بالكسر ، من الحمى ، التي تأخذ يوماً وتترك يوماً» ، ٥٠:١ . وفي «فهرس المصطلحات» : «من غيب Fievre Tierce» ، «التيسير» : ٥٠١ .

(٦٨) «التيسير» : ٣٩٤ و ٩٥ .

وفي «قاموس الأطباء» : «الورد» ، بالكسر ، من أساء الحمى . وعن الأصمعي : هو يوم الحمى إذا أخذت صاحبها» ، ١٤٦:١ . وفي «الفهرس ...» : «هي حُمى حَفَوْتِيَة Fievre Septique, Putride» ، «التيسير» : ٥٠١ .

(٦٩) «التيسير» : ٣٩٥ .

(٧٠) «التيسير» : ٣٩٦ .

وفي «قاموس الأطباء» : «الربع» ، بالكسر ، من الحمى : أن تأخذ يوماً ، وتدع يومين ، ثم تحمى في اليوم الرابع» ، ٢٥٥:١ . وفي «الفهرس ...» : «هي ربع Fievre quarte» ، «الربع» : ٥٠١ .

(٧١) يقول ابن زهر : «وقولاً بـ «بحران» ، إنما نريد حركة عظيمة تكون من قوى البدن في دفع الجلطة الممرض بقدرته الله (...) . ولا بد لكل خبيران من يوم إنذار تتحرك فيه القوى حركة أشد من المعتاد (...) . فيعلم الطبيب أن البحران قد

قُرْب ... ، «التيسير» : ٤١٠ .

وفي «قاموس الأطباء» : «البُحْران ، بالضم ، لفظ يوناني معناه : الحكم الفاصل (. . .) ، وعند الأطباء : هو تفرُّع عظيم يحدث في المرض لدفع : إما إلى الصحة وإما إلى العطب ، وسببه انتهاز الطبيعة المدبرة للبدن لدفع الموجب للمرض : فإن كان الدافع قوياً والمندفع مواتياً للدفع كان جيداً ، وإن كان بالعكس كان ردياً ، وإن كان الأمر متوسطاً كان ناقصاً ، ١٥٢:١ .

وفي «الجدول ...» : «بُحْران Crise» ، «التيسير» : ٤٩٦ .

(٧٢) «التيسير» : ٤١٥ .

(٧٣) «التيسير» : ٤١٥ .

الخوخ Pecher : «الخوخ تستعمل في مصر ، والدراخن في الشام (. . .) ، أما الخوخ في الشام فيطلقونها اليوم غلطا على الشجر المسمى Prunier (. . . د) هذا الشجر الثمر من الفصيلة الوردية» ، الأمير مصطفى الشهابي : «معجم الألفاظ الزراعية» : ٣٨٥ ، ط مصر ١٩٥٧ . ومن منافعه ، التي ذكرها «قاموس الأطباء» : «الفتح منه قابض ، والحلولين صالح للمعدة يشهي الطعام» ، ١٢٠:١ .

(٧٤) «التيسير» : ٤١٦ .

(٧٥) يقول ابن زهر في موضع آخر : «بسبب قربها [أي الرلة] من القاب تكون شدة الحمى عند توَرَمها ، وتكون المدافعة والمناضلة ، من التبويع بقدرية الله ، عنها» ، «التيسير» : ١٦٣ .

(٧٦) غاطياً الطيب الممالج .

(٧٧) «الثَّث ، بالفتح : شبه بالفتح ، وأقل من الثفل ، أو هو الثفل بعينه . والثَّثاة ، بالضم : ما يفثه المصدور من فيه» ، «قاموس الأطباء» : ٧٩:١ .

(٧٨) الحمى الدائمة ، الطويلة الأمد . وفي «الجدول ...» : «حمى اللَّق Fievre hectique» ، «التيسير» : ٥٠١ .

(٧٩) «التيسير» : ١٦٠ - ٤٦ .

(٨٠) «التيسير» : ١٦٥ .

(٨١) «التيسير» : ١٦٥ .

(٨٢) «التيسير» : ١٦٩ .

ويقول ابن زهر : إن دَمًا يَنْتَفِع به مَنْ وَقَعَ في هذه العملة العظيمة ، أن تُحمى قطعة من «الإنجبار» (فَخَار كان يصنع ، في الأندلس ، من طين أخضر اللون طيب الرائحة) ، ثم توضع القطعة في عصب يكون غطاءه مفتوحاً نقياً يسع فيه الجَنْصَر ، ويُصب على القطعة ما يعمها من ماء الورد ليصعد بخارها ، ويكون الليل واضعاً فمه بإزاء الثقب عن بعد معتدل ليصل (إليه) ذلك البخار بما فيه من قوة مجففة وقوة عطرية . يستعمل ذلك مراراً في النهار ، «التيسير» : ١٦٩ . (٨٣) في «لسان العرب» : «... رجل مهلوس ، وعَلَسَه الداء يَلْسُهُ عُلْسًا : خامر . . . الجوهري : الهلاس : السَّل [بالكسر] . ورجل مهلوس المقل : ذاهبه . ويقال السلاس في المقل والهلاس في البدن» .

(٨٤) «التيسير» : ١٦٩ .

أقول : أنَّ يكون هذا العليل ، الذي عاجله الجد ، مَن كانوا «في شرق الأندلس» ، وأن يبقى «معاصراً» للأب بعده مدة طويلة ، كما بين النص . . . ذلك يدل على أن الجد أقام في «دانية» عمره ، وأن الأب ليث فيها بعده مدَّةً يؤمِّر بغادرها إلى إشبيلية سريعاً .

(٨٥) القرويين ، بلغه أهل الأندلس .

(٨٦) المَوْتَان بضم الجيم وفتح الواو : الهواء اليوائي ، وهذا المعنى هو المستعمل عند الأطباء ، «قاموس الأطباء» : ٧٤:١ .

(٨٧) «التيسير» : ١٧٠ .

(٨٨) الدكتور أحمد شوكت الشطي : «تاريخ الطب وآدابه وأعلامه» : ٣٥٨ ، جامعة حاب ١٩٨٢ . وقد كان يتم ، بأشراف

المحتسب ، استحقاق الطبيب الأستاذ لتلميذه الطبيب الجديد القسم الطبي : «برئت من قابض أنفس الحكماء ، قَبَض

عقول المغلاء... إن خبأت نصيحاً أو بللت ضرّاً... ويقول الدكتور الشطي: إن مما كان يعهد به إلى المحتسب، أيضاً، أنه يمنع الخمر والبغاء، ويحذر الناس من تصديق الكهان والمنجمين، ويقوم بمنع القوالب من إسقاط أجنة الحوامل، ومنع الجراحين من الجلب والخصاء في الناس المرجع ذاته: ٣٥٨، حاشية ١.

(٨٩) الأقرباذين: كلمة يونانية الأصل، انتقلت إلى اللغة العربية عن طريق اللغة السريانية، في عهود الدولة العباسية، ويقصد بها: الكتاب الذي تطلق عليه في الوقت الحاضر اسم دستور الأدوية Pharmacopoe أو كتاب الصيغ الدوائية Formulaire، ويضم كلا الكتابين الأدوية المركبة، إلا أن الكتاب الأول يمتاز بوجود طرق تحضير العقاقير والأدوية المركبة مع طرق فحصها ومعاييرها وحفظها ومقاديرها الدوائية، الدكتور أحمد زهير البابا: «أقرباذين القلاسي» لابن بهرام القلاسي الرقندي، مقدمة المحقق: ٥، جامعة حلب معهد التراث العلمي العربي، ١٩٨٣/١٤٠٣.

(٩٠) الشطي: ٤٢٩، حاشية ١.

(٩١) خلافاً لما كان أطلق عليه: «الملاجم الكبار»، تلك والتي لا توجد إذا طُلبت! «التيسير»: ٤٨١.

(٩٢) وهو ينفع من الأجاع»، «التيسير»: ٤٨١.

(٩٣) «فهو خير من هذا بكثير في قطع السموم»، «التيسير»: ٤٨١.

(٩٤) «التيسير»: ٤٨٢.

وينضح من ذلك أن ابن زهر يبدو طبيب الفقراء، مثلاً هو طبيب الملوك والسلاطين والحلفاء.

(٩٥) وبعبارة أوضح: إن شراب الورد، إن أقيم بحيث ينفع، جاء لونه ضارباً إلى السواد، ولكنهم لا يضمنون فيه من الورد إلا ما لا يغير لونه!

(٩٦) ذكر ابن زهر الأسطوخودوس غير مرة في تعداده للمفردات التي تُخضّر منها بعض الأدوية، و«الاسطوخودوس، بالضم: اسم يوناني ثبات معناه حافظ الأرواح، أو اسم الجزيرة التي يُجلب منها، وهو نبات له عيدان ذواق، يميل إلى السواد، وورق صغار يميل إلى الغيرة، وزهر يميل إلى البياض، وحُب دقيق صغير، وهو حريف مع مرارة يسيرة... خاصيته تنقية الدم ماغ وتفرج القلب... وشرابه، والمرئيا من زهره، من أنفع الأشياء لأمراض العصب الباردة... وقاموس الأطباء: ٢٠٩: ١. ويقول الشهاهي: «يزرع وينبت برياً قس ونحاء كثيرة من لبنان، ينسى: شعنية»، «معجم الفاظ الزراعة»: ٣٨٥.

(٩٧) «التيسير»: ٤٨٢.

(٩٨) «التيسير»: ٤٨٢ و ٨٣.

(٩٩) ابن ربيعة: ١٨٥، ولم يذكر سنة وفاته. ومنه نقل المقرئ عبارته.

(١٠٠) «التكملة لكتاب الصلوة» (عن كتاب «الطبيب العربي» أونديسي: ٤٠٠، مرجع سبق الإشارة إليه: ٢٢ و ٢٣).

وعلى هذا يصح مستبعداً ما أورده ابن أبي أصيبعة (الدمشقي: ٩٥٦ - ٦٦٨هـ: من انتقال الجدة من دانية إلى مدينة إشبيلية، ولم يزل بها إلى أن توفي، وخلف أموالاً جزيلة، وكان غني إشبيلية...، فذلك ما لم يقله أحد من المؤرخين الأندلسيين أو المغاربة اللاحقين بمصر الجدة.



المصادر والمراجع

أولاً: المصادر

- (١) طبقات الأمم، للقاضي صاعد الأندلسي (توفي سنة ٤٦٢هـ)، مطبعة السعادة بمصر (سنة ٩).
- (٢) كتاب التيسير في المداواة والتدبير، لأبي مروان عبد الملك بن زهر (ت ٥٥٧هـ)، تحقيق الدكتور ميشال الخوري، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم (اليسكس) تونس، ١٩٨٣/١٤٠٣.

- (٣) كتب الصلة ، لابن بَشْكُوَال (ت ٥٧٨هـ) ، القاهرة ١٩٦٦ .
- (٤) كتاب القولنج ، لأبي بكر الرازي (ت ٦٠٦هـ) ، تحقيق الدكتور صبحي محمود حماني ، معهد التراث العلمي العربي بجامعة حلب بالتعاون مع معهد المخطوطات العربية بالكويت ، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣ .
- (٥) أفراباذن الفلاني ، لابن هروم الفلاني السمرقندي (ت ٦١٩هـ) ، تحقيق الدكتور أحمد زهير البابا ، معهد التراث العلمي العربي بجامعة حلب ، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣ .
- (٦) المطرب في أشعار أهل المغرب ، لابن دحية الكلبي (ت ٦٣٣هـ) ، طبعة مصر - الخرطوم ، ١٩٥٤ .
- (٧) عيون الأنبياء في طبقات الأطباء ، لابن أبي أصيبعة (ت ٦٦٨هـ) ، تحقيق الدكتور نزار رضا ، دار مكتبة الحياة بيروت ، ١٩٦٥ .
- (٨) الدليل والتكملة ، لابن عبد الملك المراكشي (ت ٧٠٣هـ) ، السفر الثامن ، تحقيق الدكتور محمد بن شريفة ، أكاديمية المملكة المغربية الرباط ، ١٩٨٤ .
- (٩) نفع الطيب في غصن الأندلس الرطيب ، للمَقْرِي (ت ١٠٤٠هـ) ، تحقيق الدكتور إحسان عباس ، دار صادر بيروت ، ١٣٨٨هـ/١٩٦٨ ، الجزءان : ٢ و ٣ .
- (١٠) قاموس الأطباء وناموس الألب ، تأليف مَثْنَيْن القوصوني المصري (كان حياً سنة ١٠٤٤هـ) ، مصوَّرات مجمع اللغة العربية بدمشق ، ١٣٦٩هـ/١٩٧٦ .

ثانياً : مراجع ودوريات

- (١١) معجم الألفاظ الزراعية ، للأمير مصطفى الشهابي ، مصر ١٩٥٧ .
- (١٢) مقدمة كتاب الحشائش والأدوية لديسفوريديس ، للدكتور صلاح الدين المنجد ، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق ، ١٣٨٥هـ/١٩٦٥ .
- (١٣) كتاب الطيب العربي الأندلسي عبد الملك بن زُهْر ، أسبوع العلم الثالث عشر ، دمشق ، ١٩٧٢ .
- (١٤) كتاب أسبوع العلم الثالث عشر [الجمهورية العربية السورية سنة ١٩٧٢] الكتاب الأول : كلمات الافتتاح والمحاضرات العامة .
- (١٥) التاريخ الأندلسي ، للدكتور عبد الرحمن علي الحجي ، دار القلم دمشق - بيروت ، الطبعة الثانية ١٤٠٢هـ/١٩٨١ .
- (١٦) معالم فكرية في تاريخ الحضارة العربية الإسلامية ، للدكتور عبد الكريم اليافي ، الشركة المتحدة للتوزيع بيروت ، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢ .
- (١٧) تاريخ الطب وآدابه وأعلامه ، للدكتور أحمد شوكت الشطي ، جامعة حلب ، ١٩٨٢ .
- (١٨) نفرة الطب الإسلامي ، العدد الثاني : الأبحاث وأعمال المؤتمر العالمي الثاني عن الطب الإسلامي ، الجزء الثالث ، الكويت جمادى الآخرة ١٤٠٢هـ/مارس ١٩٨٢م .
- (١٩) مجلة التراث العربي ، فصلية تصدر عن اتحاد الكتاب العرب بدمشق ، العدد الزوج ١٣ و ١٤ ، محرم وبيع الثاني ١٤٠٤/تشرين الأول وكانون الثاني ١٩٨٤ .
- (٢٠) المجلة العربية للثقافة ، نصف سنوية تصدر عن المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم تونس ، السنة الرابعة ، العدد السابع ، ذو الحجة ١٤٠٤هـ/سبتمبر (أيلول) ١٩٨٤ .
- (٢١) مجلة الدائرة ، فصلية تصدر عن دائرة الملك عبد العزيز بالرياض ، السنة الحادية عشرة ، العدد الثاني ، المحرم ١٤٠٦هـ/سبتمبر ١٩٨٥م .

بعض ملامح الحياة الاجتماعية

في مدينة مراكش

في عصر المرابطين والموحدين

د. / سليمان عبد الغني مالكي

تمهيد



شهد المغرب الأقصى نشأة عدة مدن خلال حكم المرابطين والموحدين، وقامت هذه المدن بدورها الحضاري في تقدم المنطقة، وفي مقدمة هذه المدن مدينة مراكش التي اتخذها المرابطون ومن جاء بعدهم من الموحدين عاصمة لهم^(١)، وذلك منذ نشأتها حتى انقراض دولة الموحدين، فانتقل مقر الملك إلى فاس^(٢).

وحرص المرابطون على اختيار موقع مراكش بعناية شديدة بحيث يحقق أهدافهم، وجاء اختيارهم لموقع المدينة في مفرق الطرق بين الأطلس والصحراء، بحيث تكون المدينة قريبة من مواطن المصامدة الذين يشكلون غالبية السكان لمراقبة تحركاتهم، وفي نفس الوقت تكون المدينة قريبة من صحراء المرابطين ومواطن لمتونة حيث الإمدادات العسكرية تصلها في سهولة ويسر، ويؤكد المراكشي هذه الحقيقة بقوله: «ولم تتخذ لمتونة مدينة مراكش وطناً ولا جعلوها دار مملكة لأنها خیر من مدينة فاس في شيء من الأشياء، ولكن لقرب مراكش من جبال المصامدة وصحراء لمتونة، فلهذا السبب كانت مراكش المملكة»^(٣).

وقد اختلف المؤرخون في تحديد السنة التي بدأ المرابطون فيها تأسيس مدينتهم^(٤)، كما اختلفوا في سبب تسميتها بمراكش^(٥)، والأرجح أن يوسف بن تاشفين هو الذي بدأ البناء سنة ٤٥٤هـ/١٠٦٢م، بعد أن اتجه أبو بكر بن عمر إلى الصحراء^(٦).

ومهما يكن من أمر فقد بدأ بناء المدينة متواضعاً؛ فيذكر ابن أبي زرع عن يوسف بن تاشفين أنه «سكن الموضع بخيام الشعر، وبنى فيه مسجداً للصلاة، وقصبة صغيرة لاختزان أمواله وسلاحه، ولم يبن على ذلك سوراً، وكان رحمه الله لما شرع في بناء المسجد يحترم ويعمل في الطين والبناء بيده مع الخدمة تواضعاً منه وتورعاً، غفر الله له ونفعه بقصده، والذي بناه يوسف من ذلك هو الموضع المعروف الآن بسور الحجر من مدينة مراكش... ولم يكن بها ماء، فحفر الناس بها آباراً فخرج لهم الماء على قرب، فاستوطنها الناس»^(٧).

وبذلك تأسست المدينة في وقت قصير، وظلت على هذا الحال حتى ولي أمر المرابطين على بن يوسف، فبنى فيها قصره المعروف بدار الحجر، وأدار عليها الأسوار وذلك سنة ٥٢٦هـ/١١٣١م^(٨).

وشهدت مراكش في عهد الموحدين تقدماً وازدهاراً كبيراً، فقد اهتم الموحدون بها اهتماماً كبيراً، وأقاموا فيها الكثير من المنشآت، وقصدها الناس من كل مكان، ليعيشوا في العاصمة ولينعيموا بما تحفل به من ازدهار حتى اكتظت المدينة بسكانها، واضطر الخليفة يوسف ابن عبد المؤمن إلى العمل على توسعة المدينة، وذلك في عام ٥٧٩هـ/١١٨٣م، وذلك بهدم سورها الأول وإقامة سور آخر، ثم واصل ابنه المنصور مشروع أبيه بتوسعة مراكش وحشد من أجل ذلك الخبراء والصناع والآلات^(٩)، حتى وصفها صاحب الاستبصار بقوله: «ومدينة مراكش اليوم من أعظم مدن الدنيا بهجة وجمالاً بما زاد فيها الخليفة الإمام وخليفته أمير المؤمنين أبو يعقوب وخليفتهما أبو يوسف رضي الله عنهم»^(١٠).

عناصر السكان في مدينة مراكش :

أولاً: البربر :

يعد البربر العنصر الأغلب من عناصر السكان في بلاد المغرب، ومنهم وعلى أكتافهم تأسست دولة المرابطين، ثم دولة الموحدين، ومن ثم فمن الطبيعي أن يشكل البربر أهم عناصر السكان في مدينة مراكش، وبخاصة قبائل صنهاجة، وقبائل المصامدة، فقد تبادل الفريقان المواقع في عهد كل من المرابطين والموحدين، فعلى أكتاف قبائل صنهاجة قامت دولة المرابطين وعلى أكتاف قبائل المصامدة قامت دولة الموحدين.

قبائل صنهاجة : لم تكن صنهاجة مجرد قبيلة بل كانت شعباً عظيماً^(١١)، فقد ضمت مجموعة كبيرة من القبائل بلغت السبعين قبيلة^(١٢)، يهنا منها القبائل التي انتقلت بجموعها من جنوب الصحراء إلى المغرب الأقصى، حيث شاركت في بناء الدولة المرابطية، وأصبح لها مكانة متميزة في مجتمع مدينة مراكش بسبب انتهاء الطبقة الحاكمة لها، وأعني بها أسرة بني تاشفين، وهذه القبائل هي: لمتونة، وجدالة، ومسوفة، ولطة.

وكانت الزعامة والسيطرة لقبيلة لمتونة، تنازعها فيها جدالة، إلى أن دخلت لمتونة في طاعة عبدالله بن ياسين، والذي نقل زعامة المرابطين من جدالة إلى المتونة، فظلت الزعامة في لمتونة متمثلة في أسرة يوسف بن تاشفين حتى سقطت دولة المرابطين^(١٣).

وإذ كان أبناء لمتونة في الأصل رحلا طواعن، فإن انتقلهم إلى المغرب الأقصى أتاح لهم الفرصة للإقامة في المدن وبخاصة مراكش، واحتلوا أرفع المناصب، فقد حرص أمراء المرابطين على تولية أبناء القبائل المؤسسة، وعلى رأسها لمتونة، مناصب الدولة، فشاركوا في الحياة الاجتماعية، وزاولوا أنواعاً مختلفة من النشاط سواء كان زراعياً أم صناعياً أم تجارياً^(١٤)، فضلاً عن قيامهم بعبء كبير في النشاط العسكري.

أما قبيلة جدالة فقد تحملت عبء الدعوة المرابطية في مراحلها الأولى، وظلت تحتفظ بمكانتها بين القبائل المؤسسة لدولة المرابطين، ومن ثم شارك أبنائها بنصيب كبير في مجتمع مدينة مراكش، وبخاصة أنهم احتلوا وظائف ومراكز هامة في الدولة، كما تحملوا أيضاً عبئاً

كبيراً في النشاط العسكري^(١٥).

كذلك انضمت قبيلة مسوفة إلى دعوة عبدالله بن ياسين، وشاركت في جهاد المرابطين، ومن ثم شغل أبنائها بعض المناصب القيادية في الدولة^(١٦).
ومن القبائل المؤسسة أيضاً قبيلة لمطة، وكان أبنائها من العناصر الأساسية المكونة لمجتمع مدينة مراكش.

وقد حرص بنو تاشفين على استدعاء أبناء هذه القبائل من مواطنها الأصلية إلى المغرب الأقصى، ونجحوا في صهر القبائل الوافدة مع غيرها من القبائل المقيمة بالمغرب الأقصى، ومن أهمها قبائل مكناسة ومغراوة وبنو يفرن، ومن هذا الخليط تكون العنصر الأساسي للسكان في مدينة مراكش الناشئة. وأشار ابن الخطيب إلى ذلك بقوله: «وبعث - أي يوسف بن تاشفين - إلى الصحراء للمتونة ومسوفة وجدالة وغيرهم... يؤكد عليهم في القُدوم فوفد إليه منهم جموع كثيرة ولأهم الأعمال وصرف أعيانهم من مهمات الأشغال، فاكتسبوا الأموال وملكوا رقاب الرجال، وكثروا بكل مكان، وساعدهم الوقت والزمان، وكثرت جموعهم، وتوفرت عساكرهم»^(١٧).

قبائل المصامدة: من أكبر قبائل البربر، فهي قبائل موفورة العدد، ويقول ابن خلدون عنهم «أمم لا يحصيهم إلا خالقهم»^(١٨)، وكانوا يكونون كتلة بشرية مستقلة لها ظروفها ومقوماتها^(١٩)، وكانت لهم السيادة على المغرب الأقصى في صدر الإسلام^(٢٠)، ولذلك حرص المرابطون منذ اللحظة الأولى لبدء دعوتهم على كسب ود المصامدة، ولذلك لم يقاوم المصامدة جيوش المرابطين القادمة من الجنوب، بل أيدهم وحالفوهم ضد حكام المنطقة من الزناتيين^(٢١)، كما نجح يوسف بن تاشفين في ضم مجموعة كبيرة منهم لجيشه^(٢٢)، وأتاح لهم الفرصة في الاشتراك في تأسيس الدولة، كما أن بناء مدينة مراكش كان بالقرب من ديارهم توددًا إليهم من ناحية، ومراقبة لتحركاتهم - خوفاً من انقلابهم على الدولة - من ناحية أخرى^(٢٣)، ومن هذا المفهوم أوصى يوسف بن تاشفين - عندما قرب وفاته - ابنه وولي عهده علياً بثلاث وصايا إحداها ألا يهيج أهل جبل درن ومن وراءه من المصامدة^(٢٤).

وهكذا كان للمصامدة مكانة في دولة المرابطين، وفي مدينة مراكش، حتى أن يوسف بن تاشفين أشركهم في فرق الحشم التي كونها بمراكش، ولكن هذه المكانة كانت في الدرجة الثانية بالنسبة لقبائل صنهاجة وعلى رأسها قبيلة لمتونة.

وعندما سقطت دولة المرابطين على يد الموحيدين احتلت قبائل المصامدة مركز الصدارة بالمغرب الأقصى، وبمدينة مراكش، باعتبارها من القبائل المؤسسة للعهد الجديد، فعندما بدأ ابن تومرت بنشر دعوته في بلاد المغرب استجابت له بعض قبائل المصامدة من قومه وقدموا له النصرة والتأييد فكان من البديهي أن يكون لهذه القبائل منزلة سامية لدى صاحب الدعوة وقد أطلق على هذه القبائل اسم أهل السابقة^(٢٥). وعلى أكتافها قامت دولة الموحيدين.

وقد ذكر ابن خلدون أن أهل السابقة من القبائل كانوا ثمانية: سبعة من المصامدة هم: هرغة، هتانة، جنفيسة، هرزة، كدميو، وريكة وثامنة قبائل الموحيدين كومية قبيلة عبد المؤمن بن علي^(٢٦). أما المراكشي فلم يذكر هرزة ووريكة ضمن أهل السابقة بل أضاف إليهم بعض قبائل صنهاجة وهسكورة^(٢٧). وإذا ألقينا نظرة على هذه القبائل نجد أن قبيلة هرغة^(٢٨) في طبيعة القبائل التي تمتعت بمكانة ممتازة بين أهل السابقة لانتساب المهدي بن تومرت إليها ومسارعتها بالدخول في دعوته^(٢٩).

أما قبيلة هتانة فكانت من أكبر قبائل مصمودة في العصر الوسيط ولها السيادة في الدهر القديم والتي كانت تتخذ الجبال خلف مراكش سكناً لها^(٣٠). وازدادت مكانتها حين انضمت إلى دعوة الموحيدين وأصبح بذلك ابن حفص عمر بن يحيى شيخها ومن العشرة الذين سموا بأهل الجماعة^(٣١). وبذلك كان صاحب الحق الأول في الخلافة بعد عبد المؤمن بن علي لولا أن حول الأخير الخلافة إلى ملكية وراثية في بنيه حيث أسسوا الدولة الحفصية^(٣٢). وكان لأهل تينمل^(٣٣) سبق بدخولهم في دعوة ابن تومرت فارتفعت مكانتهم بين قبائل المصامدة، وخاصة بعد إقامة المهدي بن تومرت داره ومسجده في مدينتهم^(٣٤) وبين ظهرائهم والتي شاركت المهدي حروبه بعد أن انخرطت في دعوته قبيلة جنفيسة وهي قبيلة ذات منعة وعزة^(٣٥). والتي سكنت الجنوب الغربي لمراكش هي قبيلة كدميرة^(٣٦) وأيضاً قبيلة وريكة التي كانت مضاربها بجوار هتانة وقامت بينها حروب كانت الغلبة فيها لهتانة^(٣٧).

وقبيلة كومية إحدى بطون بني فاتن لم تكن من المصامدة، ويتنسب إلى هذه القبيلة عبد المؤمن ابن علي ومن المعلوم أن هذه القبيلة تجتمع مع قبيلة زناته في ضرى بن يزيك من سلسلة البربر البتر^(٣٨) - ومواطنهم في المغرب الأوسط تنحصر في وسط مدينة جبلية غنية بغاباتها بين البحر المتوسط ومدينة ارشوك وتلمسان^(٣٩). وأهالي كومية أصحاب فلاحه ورعاة غنم وبهجرتهم إلى المغرب الأقصى ساءت أحوالهم لانخراطهم في خدمة الخلفاء الموحيدين^(٤٠). وبعد أن رأى الخليفة عبد المؤمن بن علي القبائل الموحدية تنظر إليه بعين الغدر ولكونه غريباً بين قبائلهم وليس له عشيرة يستند إليها ولا قبيلة يعتمد عليها^(٤١) استدعاهم لحماية نفسه وتأمين ملكه وذلك بعد أن قريهم وجعلهم بطانته ووضعهم في مرتبة ممتازة بين قبائل الموحيدين إذ رتبهم في الطبقة الثانية^(٤٢).

وهكذا نرى أن البربر بقبائلهم المتعددة شكلوا الغالبة العظمى لسكان مدينة مراكش، وان اختلفت أوضاع القبائل تبعاً لاختلاف السلطة الحاكمة.

ثانياً: العرب :

يمثل العرب العنصر الثاني من سكان المغرب الأقصى، فقد توافد العرب على البلاد منذ القرن الأول الهجري أفراداً وجماعات تزايدت على مر السنين، ومع بداية القرن الخامس الهجري شهدت بلاد المغرب هجرة عربية كبرى هي الهجرة الحلالية التي ضمت عدداً من القبائل العربية، وقد أشارت بعض المصادر إلى اشتراك العرب في جهاد المرابطين بالاندلس^(٤٣)، ورغم ذلك لم تشر المصادر لدور العنصر العربي في مدينة مراكش، وإن كنا لا نتصور خلو مدينة مراكش من العنصر العربي في ذلك العهد، إذ يبدو أن أعداد العرب بمدينة مراكش كانت قليلة، وبخاصة أنه منذ عهد يوسف بن تاشفين أقيمت حامية قوية في تلمسان تتحكم في الطريق إلى المغرب الأقصى، ولم تدع مجالاً للعناصر العربية لكي تنفذ إلى المغرب الأقصى، وبالتالي يتزايد وجودها هناك في ذلك العهد^(٤٤).

واختلف الوضع في عصر الموحدين، فقد بدأت صلة الموحدين بالعرب منذ عهد عبد المؤمن حين أذاع بين الناس نسبة العربي^(٤٥)، ويبدو أن ذلك كان لاستمالة العرب الموجودين في أفريقية، وقد حرص الموحدون على تهجير العرب من إفريقية إلى المغرب الأقصى، وتحديد مناطق إقاماتهم هناك تخلصاً من ثوراتهم، وللإفادة منهم في حركة الجهاد الإسلامي في الأندلس^(٤٦).

كذلك تم ترحيل جماعة من عرب رياح إلى مراكش سنة ٥٧٤هـ/١١٧٨م، بعد انهزامهم أمام الموحدين في قصبة.

وهكذا استقر العرب حول مراكش وشاركوا في الحياة الاجتماعية بالمغرب الأقصى، ومدينة مراكش أيضاً، مثلهم في ذلك مثل باقي المواطنين كما تمتعوا بما يتمتع به غيرهم من جند الموحدين، فقد أقطعهم الموحدون بعض الأراضي، وأنفقوا عليهم النفقات الواسعة^(٤٨).

ثالثاً: أجناس أخرى :

وجدت في بلاد المغرب الأقصى، وبالتالي في مدينة مراكش أقليات صغيرة من السودانيين والروم والصقالبة والغز.

فقد استخدم المرابطون والموحدون بعض السودانيين في جيوشهم، وقد بدأ ذلك الإجراء الأمير يوسف بن تاشفين الذي اشترى جملة من العبيد السودان نحو ألفين وجعلهم حرسه الخاص^(٤٩).

كذلك شاركت الجوارى السودانيات في الحياة الاجتماعية في مدينة مراكش، إذ كثر استخدامهن لما عرف عنهن من مهارات في طبخ الطعام، فيقول عنهم صاحب كتاب

الاستبصار: «يُحَسِّنُ عمل الأطعمة ولاسيما أصناف الحلوات . . . فلا يوجد أحذق بصنعها منهن»^(٥١).

كذلك كان يوسف بن تاشفين أول من استخدم الروم والصقالبة في مدينة مراكش، فقد عمد إلى شراء جماعة منهم بلغت مائتين وخمسين فارساً ليكونوا حرساً خاصاً له^(٥٢)، ثم ازدادت أعدادهم نتيجة للحروب التي أسفرت عن كثير من الأسرى استخدمهم ولاة الأمر في خدمتهم بمراكش، كما أن يوسف بن تاشفين اتخذ منهم الجوارى والإماء حتى أن إحداهن صارت أم ولده وولى عهده على بن يوسف^(٥٣).

ثم توسع على بن يوسف في استخدام الروم، فيقول عنه ابن عذارى «وهو أول من استعمل الروم وأركبهم في المغرب»^(٥٤)، ولعله يقصد أول من توسع في استخدامهم على نطاق كبير. ولم يقتصر استخدام الروم على الحراسة والجيش وإنما تعدى ذلك إلى الوظائف المدنية، فقد استخدمهم علي بن يوسف في جباية الأموال^(٥٥).

ومن العناصر التي سكنت مدينة مراكش أيضاً الأتراك الغز، وبخاصة بعد انتصار المنصور الموحيدي على الثوار بإفريقية سنة ٥٨٣هـ/١١٨٧م فقد انضم الغز للثوار، ووقعوا في أسر المنصور فنقلهم إلى العاصمة مراكش^(٥٦)، ثم انضم هؤلاء الغز إلى جيش الموحدين، وصارت لهم الأعطيات، والمرتببات الشهرية، بل والإقطاعات أيضاً^(٥٧).

كانت هذه هي أهم عناصر السكان التي كونت مجتمع مدينة مراكش في عهد المرابطين والموحدين، وتشير بعض المراجع إلى أن سكان مدينة مراكش بلغ في عصر علي بن يوسف نحو المليون^(٥٨)، بينما تروى مراجع أخرى أن عددهم لم يزد في ذلك العهد عن مائة ألف^(٥٩).

ومهما يكن من أمر فإن الاستقرار، والازدهار الاقتصادي أدى إلى نمو سكان العاصمة مراكش حتى أنها احتوت في عهد الخليفة عبد المؤمن على مائة قبيلة^(٦٠).

فئات المجتمع في مدينة مراكش :

انقسم مجتمع مدينة مراكش في عهد المرابطين والموحدين إلى ثلاث فئات رئيسية: الفئة الحاكمة، وفئة الفقهاء ورجال الدين، وفئة العامة.

١ - الفئة الحاكمة :

انحصرت السلطة في دولة المرابطين في يوسف بن تاشفين وأولاده، بينما انحصرت في دولة الموحدين في عبد المؤمن وأولاده، وبذلك تمتعت الأستراتان بالرئاسة والسيادة ليس في مجتمع مدينة مراكش، بل في أنحاء المجتمع المغربي أيضاً.

ولما كانت الدولة المرابطية قد قامت على أكتاف قبائل صنهاجة، فقد استأثر أفراد هذه القبائل، وعلى رأسهم قبيلة لمتونة، بالمناصب الهامة، بعد أن استدعاهم يوسف بن تاشفين «وولاهم الأعمال، وصرف أعيانهم في مهمات الأشغال، فاكسبوا الأموال، وملكوا رقاب الرجال، وكثروا بكل مكان، وساعدهم الوقت والزمان»^(٦٠).

اتبع الموحدون نفس السياسة، فاستأثر بنو عبد المؤمن بالخلافة، وشغل بعض أفراد الأسرة منصب الوزارة^(٦١)، كما كان لقبيلة كومية، وهي التي ينتسب إليها عبد المؤمن، مكانتها في مجتمع مدينة مراكش باعتبارها قبيلة الخلافة.

واستحدث الموحدون في فئات السلطة الحاكمة سلماً اجتماعياً جديداً، أرسى قواعده المهدي بن تومرت، فقد اختص من استجاب لدعوته بكان الصدارة وقد أشار ابن القطان إلى ذلك بقوله: (اختص هذه القبائل بكثير من الاختصاص وعقد لهم من البر والتكرمة مانهمهم)^(٦٢) والقبائل المقصودة بذلك هي هرغة وهناتة وتينمل وجنيسية وهزرجة ووريكة وكومية^(٦٣). ويستطرد المراكشي قائلاً: (فهذه جملة قبائل الموحدين المستحقين لهذا الاسم

عندهم والذين يأخذون العطاء وتجمعهم الجيوش وينفرون في البعوث وغير هؤلاء القبائل من المصامدة رعية^(٦٤). ويتبين لنا من هذا النص أن الشعب في عهد الموحيدين طبقتان إحداهما طبقة الموحيدين والأخرى طبقة الرعية. وكانت طبقة الموحيدين لها السيادة والسلطان وتستأثر بأكبر قسط من النفوذ وتحتل معظم المناصب الكبرى من الوزارة والولاية والقيادة، وتغذي الجيوش الجرارة بحشودها الزاخرة المدربة على القتال^(٦٥).

وقد قسم المهدي بن تومرت الموحيدين إلى طبقات مراعيةً أسبقية القبائل التي استجابت لدعوته، وقد أشار ابن القطان إلى أن هذا النظام يتألف من أربع عشرة طبقة^(٦٦). وهي على التوالي أهل الجماعة، أهل الخمسين، أهل السبعين، الطلبة (علماء الموحيدين)، الحفاظ (صغار الطلبة)، أهل الدار (أفراد بيت الإمام المهدي)، أهل هرغة (قبيلة ابن تومرت)، أهل تينمل، قبيلة كدميرة، أهل جنفيسة، أهل هتانة، قبائل ناصرت المهدي وليست من قبيلة مصمودة^(٦٧)، الجند، الثغرات (وهن الموالي)^(٦٨).

وقد وضع المهدي بن تومرت لهذه الطبقات السالف ذكرها نظاماً خاصاً يسيرون عليه، وقد أشار صاحب الحلل الموشية إلى ذلك بقوله: «ولكل صنف من هذه الأصناف مرتبة لا يتعداها غيرهم لا في سفر ولا في حضر لا ينزل كل صنف إلا في موضعه لا يتعداه، فانضبط مراده وأقاموا ذلك مدة حياته»^(٦٩).

أما في عهد عبد المؤمن بن علي فقد صنف الموحدون إلى طائفتين:

الطائفة الأولى :

وهي طائفة السابقين الأولين من صحابة المهدي الذين مازالوا على قيد الحياة من أهل الخمسين والسبعين الذين بايعوه أو صحبوه أو غزوا معه أو صلوا خلفه والذين اشتركوا في موقعة البحيرة الفاصلة.

الطائفة الثانية :

هي طائفة الموحدين ممن دخلوا في زمرة التوحيد منذ موقعة البحيرة سنة ٥٢٤هـ / ١١٣٩م حتى فتح وهران سنة ٥٣٩هـ / ١١٥٤م.

٢ - الفقهاء والعلماء :

قامت كل من الدولتين المرابطية والموحدية على أساس ديني، ودعوة إصلاحية.

وكان المبدأ الديني هو الأساس الذي قامت عليه دولة المرابطين، وبالتالي تمتع القائمون على شئون الدين والمستغلون بعلومه بمكانة عالية، فضلاً عن الاحترام والتقدير من جانب أمراء المرابطين، فيقول ابن أبي زرع عن يوسف بن تاشفين: إنه كان «حجاً في الفقهاء والعلماء والصلحاء مقرباً لهم صادراً عن رأيهم متكرماً لهم، أجرى عليهم الأرزاق من بيت المال طول أيامه»^(٧٠) فسارع الفقهاء والعلماء إلى مراكش عاصمة المرابطين ليكونوا في ظل ورعاية أمير المسلمين^(٧١).

واتبع نفس السياسة الأمير علي بن يوسف، فيقول عنه المراكشي: «واشدت إثاره لأهل الفقه والدين»^(٧٢).

وهذه المكانة الخاصة التي أولاها أمراء المرابطين للفقهاء والعلماء، جعلت منهم فئة مرهوبة الجانب مسموعة الكلمة في العاصمة وفي خارجها أيضاً، وأصبح لهم دور بارز في السياسة العامة للدولة المرابطية، ولعل سيطرتهم على مقاليد الأمور في الدولة المرابطية هي التي جعلت ابن تومرت يهاجمهم ويحارب جمودهم الفكري.

واختلف وضع الفقهاء والعلماء في عهد الموحدين، فقد عمد ابن تومرت إلى محاربة تسلط الفقهاء، كما أنه عمد منذ البداية إلى توزيع السلطات والمسئوليات على هيئة الطبقات التي ابتكرها، ولم يدع فرصة للعلماء أو لغيرهم للسيطرة على الدعوة الموحدية^(٧٣).

ولكن لما كانت الدولة الموحدية قد قامت على أكتاف داعية ديني، وهو المهدي بن تومرت، وأن البرامج الدينية والمبادئ الموحدية كان لها دور بارز في حياة الموحدين، فقد تمتع المشتغلون بمذهب الدولة بمكانة رفيعة وهم الذين عرفوا في سلم الفئات أو الطبقات الحاكمة باسم «الطلبة».

وعلى أي حال فإن المصادر تشير إلى أن خلفاء الموحدين كانوا يسبقون رعايتهم على علماء الموحدين وينزلونهم منزلة اللائقة بهم، فيقول ابن أبي زرع عن المنصور يعقوب بن يوسف إنه كان «محبا في العلماء، معظما لهم، صادرا عن رأيهم... يشهد جنائز الفقهاء والصلحاء ويزورهم ويترك بهم»^(٧٤).

ويتصل بفئة الفقهاء والعلماء فئة القضاة إذ كانوا يختارون من العلماء ورجال الدين، ولكنهم كانوا فئة متميزة ولهم كلمة مسموعة، وفيما يتعلق بمدينة مراكش بالذات نجد أن الأمير علي بن يوسف استمع إلى القاضي ابن رشد عندما أشار عليه بتسوير مدينة مراكش، وأسرع بتنفيذ نصيحته^(٧٥).

كذلك عفا الخليفة عبد المؤمن الموحي عن القاضي عياض، وأسكنه مدينة مراكش، رغم أن القاضي عياض كان قد تزعم مدينة سبتة ضد الموحدين، ولكن عندما سقطت المدينة، ونظراً لمكانة القاضي عياض عفا عنه عبد المؤمن^(٧٦).

٣ - العامة (أصحاب المهن) :

تشكلت طبقة العامة من جميع القبائل القاطنة بدولة المرابطين والموحدين من غير قبائل الصدارة أو الرئاسة في عهد كل منهم.

ولعل التجارة هي أهم المهن التي وجدت في مدينة مراكش، فقد زخرت المدينة بالمشتغلين بالتجارة، سواء كان منهم تجار الجملة الذين يعملون بالاستيراد أو التصدير إلى الدول والأقاليم

المجاورة، أم تجار التجزئة الذين يبيعون بضائعهم في متاجرهم أو عن طريق التجول لسد حاجة السكان.

ومع ازدهار مدينة مراكش، وازدياد أعداد سكانها زادت أهمية التجار والتجارة بها، ومن الشواهد التي تدل على ذلك ماورد بالمصادر عن الكارثة التي ألمت بتجار مدينة مراكش نتيجة للحريق الضخم الذي وقع بسوق مراكش سنة ٦٠٧هـ/١٢١٠م، فيقول ابن عذارى عنه «وذهب في هذه الكارثة للتجار الواردين والقاطنين والقاصين والدانين من الأموال الجسيمة مالا يحصى، وافتقر فيها أمة من ذوي اليسار»^(٧٧).

كما وجد بمدينة مراكش العديد من أصحاب الحرف والصناع، الذين كونوا فيها بينهم عدة طوائف، وفي خلال المدايح التي حلت بسكان مدينة مراكش أثناء استيلاء الموحدين عليها، حرص الخليفة عبد المؤمن على الإبقاء على حياة الصناع لاحتياج الدولة لهم^(٧٨).

٤ - المرأة :

صحب قيام دولة المرابطين ظهور المرأة الصنهاجية في مجتمع مدينة مراكش، ومشاركتها في الحياة العامة، فالسيدة زينب زوجة يوسف بن تاشفين كانت تتمتع بمكانة عظيمة وتشارك في مختلف شئون الدولة، ويستمتع لنصحها يوسف بن تاشفين^(٧٩)، كذلك كانت تميمة بنت يوسف بن تاشفين تطلب العلم، وتحفظ الشعر، وتتخذ الكتاب وتبرز إليهم في غير حياء أو خجل^(٨٠).

كذلك ظهرت المرأة المرابطية سافرة في أسواق مدينة مراكش، ويروي لنا النويري ماوجده ابن تومرت من سفور في مدينة مراكش فيقول: «إذ رأى أخت أمير المسلمين في موكبها ومعها عدة من الجوارى الحسنان، وهن مسفرات وكانت هذه من عادتهن، فحين رأى النساء كذلك أنكر عليهن وأمرهن بستر وجوههن، وضرب هو وأصحابه دوابهن، فسقطت أخت أمير المسلمين عن دابتها»^(٨١).

أما عن العصر الموحدى، فقد امتنع اختلاط النساء بالرجال، كما منع سفورهن في الطرقات العامة، إلا أن هذا لم يمنع من إظهار الموحدين احترامهم وتقديرهم للمرأة، وكانت بنات الأمراء قدوة صالحة لبنات الشعب في الإقبال على العلم، والأدب، مثال ذلك بنتا عبد المؤمن «المرأتان المكرمتان صفية وعائشة»^(٨٢) والأميرة زينب بنت يوسف بن عبد المؤمن، التي درست علم الأصول^(٨٣). كما كانت النساء تحضر مجالس ابن تومرت وتستمع إلى نصائحه ووعظه^(٨٤).

٥ - أهل الذمة :

وجدت جماعات متفرقة من النصارى واليهود ببلاد المغرب الأقصى في عهد المرابطين والموحدين، وعاشوا في ظل التسامح الدينى يباشرون أعمالهم المختلفة وبخاصة في مجال التجارة والصناعة، إلا في الحالات التي غدروا فيها بالمسلمين، وقد اتخذ أمير المسلمين علي بن يوسف إجراء وقائياً عندما حرم على اليهود المبيت في مدينة مراكش، فسمح لهم بالعمل بها نهائياً والانصراف منها ليلاً^(٨٥).

مظاهر العمران في مدينة مراكش :

اهتم المرابطون والموحدون بتوفير سبل الحياة لسكان المدن، وبصفة خاصة مدينة مراكش، العاصمة، ومن ذلك توفير المياه اللازمة ليشرب منها الناس والدواب، وغير ذلك، إذ ارتبط ازدهار المدينة وإقبال الناس على سكنها بوفرة المياه بها، فيقول ابن أبي زرع «ولم يكن بها ماء فحفر الناس بها آباراً فخرج لهم الماء عن قرب فاستوطنها الناس»^(٨٦). ثم وفد على المدينة رجل يدعى عبدالله بن يونس، استطاع بمهارته أن يوفر الماء لسقي البساتين «حتى كثرت البساتين والجنان»^(٨٧).

كما تم توفير المياه للمدينة عن طريق جلب الماء إليها من خارج المدينة من بعض

العيون^(٨٨)، وإنشاء الصهاريج الكبيرة، والسقايات داخل المدينة^(٨٩).

ويرتبط بمظاهر العمران بمدينة مراكش شق الطرق وتعييدها، فيقول الإدريسي عن طرق مدينة مراكش «وأزقتها واسعة ورحابها فسيحة»^(٩٠). وهذا الاتساع في الطرقات يتناسب مع مراكش كعاصمة للبلاد تحفل بالاستقبالات، والمواكب والاحتفالات.

ومن مظاهر ازدهار عمران مدينة مراكش بناء القصور للأمراء وكبار رجال الدولة، فيقول الإدريسي عن مراكش في عهد المرابطين «ومدينة مراكش في هذا الوقت من أكبر مدن المغرب الأقصى لأنها كانت دار إمارة لمثونة ومدار ملكهم وسلك جمعهم، وكان بها أعداد قصور لكثير من الأمراء والقواد وخدام الدولة»^(٩١).

ومن أشهر قصور مدينة مراكش قصر الحجر الذي بناه علي بن يوسف^(٩٢) وقصر الخليفة عبد المؤمن^(٩٣)، فضلاً عن القصور التي بناها يوسف عبد المؤمن والمنصور^(٩٤).

وشهدت مدينة مراكش إنشاء العديد من المنشآت العامة مثل المساجد ومنها المسجد الكبير الذي أنشأه يوسف بن تاشفين، وزاد فيه علي بن يوسف^(٩٥) والمسجد الجامع الذي أنشأه الخليفة عبد المؤمن سنة ٥٥٣هـ/١١٥٧م والمعروف بجامع الكتبيين^(٩٦).

ومن المنشآت العامة: المدارس، ومنها المدرسة التي ألحقها الخليفة عبد المؤمن بقصره لتخريج الحفاظ، ومنها البيمارستانات منها البيمارستان الذي أنشأه المنصور الموحدي بمدينة مراكش^(٩٧)، والحمامات والفنادق والأسواق^(٩٨).

الحياة العامة في مدينة مراكش :

المجالس :

حرص أمراء المسلمين من المرابطين والموحدين على عقد مجالس للعلم يحضرها الخلفاء والأمراء، وتضم العلماء والأدباء ورجال الدولة، وكان لهذه المجالس في عهد الموحدين نظام

خاص، إذ يتصدر الخليفة المجلس، ثم خطيب الجماعة، ثم قاضي الجماعة بمراكش، فريش الأطباء، فأكبر علماء الحضرة، فباقي الأعلام الحاضرين على اختلاف مراتبهم، ثم تدار المناقشة حول مسألة علمية يلقيها الخليفة بنفسه، أو أحد العلماء الحاضرين، ويناقش الحاضرون المسألة، ثم تختم الجلسة بالدعاء للخليفة^(٩٩).

وإلى جانب المجالس العلمية، كانت هناك مجالس أخرى لبحث مشكلات الدولة، ومشاكل الحياة اليومية التي يواجهها الناس^(١٠٠).

وهناك أيضاً مجالس الوعظ، التي نظمت على طريقة ابن تومرت، فكان العلماء يجلسون في أمكنة الجلوس من الأسواق والطرقات، وغيرها للوعظ، وكان بعض العلماء يحدد موعداً ثابتاً في الأسبوع لمجالس وعظه^(١٠١).

وهناك أيضاً مجالس العامة التي يعقدها الأمراء وكبار رجال الدولة في قصورهم وبحضرها الأدباء والشعراء.

الاحتفالات :

الاحتفالات الدينية: ومن أهم مناسباتها صلاة الجمعة، إذ يخرج الخليفة في موكب من كبار رجال الدولة إلى المسجد الكبير بالعاصمة، فيخرج الناس لمشاهدة الموكب والمشاركة في الصلاة^(١٠٢). والاحتفال بشهر رمضان في المساجد، والحلقات الدينية، والاحتفال بالأعياد الدينية من خروج لصلاة العيد، والجلوس لتهنئة الخليفة^(١٠٣).

الاحتفالات العسكرية: فقد تعود الخلفاء استعراض جنودهم قبل الخروج إلى المعارك على مرأى من الناس، وكان الناس يخرجون لمشاهدة مواكب الجند وحشودهم، وقد استمر العرض العسكري بمراكش سنة ٥٧٩هـ/١١٨٣م شهر^(١٠٤).

ويرتبط بالاحتفالات العسكرية مواكب الخليفة للخروج للحرب، واحتفالات النصر بمعركة من المعارك^(١٠٥).

الاحتفالات المتنوعة: والتي كانت تقام بالعاصمة بسبب حدث هام، أو مجيء وفد، أو تشييد إحدى المنشآت، ومن أمثلتها الاحتفالات التي تقام بمناسبة تولي أحد الخلفاء لمنصبه، وما يصاحب ذلك من توزيع للأموال، والعفو عن المسجونين^(١٠٦)، ومنها استقبال الخليفة لوفد من الوفود مثال ذلك استقبال الخليفة يوسف بن عبد المؤمن لوفود العرب القادمة لمبايعته سنة ٥٦٦هـ/١١٧٠م^(١٠٧).

وسائل التسلية:

كان من وسائل التسلية في مدينة مراكش ارتياد الحدائق والمتنزهات وفي مقدمتها الحديقة الكبيرة التي أنشأها الخليفة عبد المؤمن، وتمهدها الخلفاء من بعده^(١٠٨)، وكان المنصور الموحدي كثيراً ما يترىض في البستان الكبير بمراكش^(١٠٩)، كما أشار صاحب كتاب الاستبصار إلى البرك التي أنشئت في المتنزهات للسباحة، وكان هو نفسه يسبح فيها فقال: «وبنى فيها - أي عبد المؤمن بن علي - وخارجها صهريجين عظيمين كنا في تلك المدة نعويم فيها فلا يكاد القوى منا يقطع الصهريج إلا عن مشقة، وكنا نتفاخر بذلك»^(١١٠).

ومن وسائل التسلية في مدينة مراكش الغناء والموسيقى، فبالرغم من أن مؤسسي دولة المرابطين والموحدين يوسف بن تاشفين، وعبد المؤمن بن علي كانا من العزوفين عن متع الحياة، إلا أن الناس جميعاً على اختلاف فئاتهم بمراكش شغفوا بالغناء والموسيقى^(١١١)، وتأثروا في ذلك بالحياة الأندلسية، فأصبحت مجالس الغناء والموسيقى تعقد في قصور الحكام والأمراء^(١١٢)، مما دفع الخليفة عبد المؤمن بن علي إلى إصدار منشور سنة ٥٦٦هـ/١١٦٠م يتضمن عدة أوامر لمحاربة أصحاب الملاهي ومصادرة الآتهم^(١١٣).



الهوامش

- (١) العمري: مسالك الأبحار ج ٣ ورقة ١٤١، ابن سعيد: بسط الأرض ص ٥٩.
- (٢) ابن أبي زرع: الأنيس (الرباط) ص ١٣٩.
- (٣) المراكشي: المعجب ص ٣٥٨.

- (٤) حمد ابن الخطيب تاريخ بناء مراکش سنة ٤٠٢هـ/١٠١١م، كما حله ابن أبي زرع وابن خلدون بسنة ١٥٤هـ/١٠٦٢م، كما حله صاحب كتاب الإستبصار سنة ٤٥٩هـ/١٠٦٧، وحله ابن عذارى سنة ٤٦١هـ/١٠٦٩م - أنظر الحلل الموشية ٦، الأنيس ص ١٣٨، المبرج ٢ ص ١٨٤، الإستبصار ص ٢٠٨، البيان المغرب ج ٤ ص ١٩.
- (٥) أنظر السلاوي: الاستقصا ج ٢ ص ٢٤، المراكشي للمعجب ص ١٠٠.
- (٦) أنظر ابن الخطيب: أعمال الاعلام ق ٣ ص ٢٣١.
- (٧) ابن أبي زرع: الأنيس ص ١٣٨ - ١٣٩.
- (٨) نفس المصدر ص ١٣٩، الإستبصار ص ٣٠٩.
- (٩) ابن عذارى: البيان المغرب ج ٤ ص ٥٠، ٥١، ٨٢.
- (١٠) الإستبصار ص ٢١٠.
- (١١) د. حسن محمود: قيام دولة المرابطين ص ٣٦.
- (١٢) ابن الخطيب: أعمال الاعلام - ق ٣ ص ٢٣٥.
- (١٣) ابن أبي زرع: الأنيس المطرب ص ١٢٦ - ١٢٧.
- (١٤) د. حسن محمود: قيام دولة المرابطين ص ٤١٣.
- (١٥) د. حسن محمود، ص ٤٦، ص ٣٧٧.
- (١٦) د. شعيرة: المرابطون ص ٣٠.
- (١٧) ابن الخطيب: الحلل الموشية ص ٢٠.
- (١٨) ابن خلدون: المبرج ٦ ص ٢٢٣.
- (١٩) حسن أحمد محمود: قيام دولة المرابطين ص ٣٤، ٣٥.
- (٢٠) ابن خلدون: المبرج ٦ ص ٤٦٢.
- (٢١) حسن أحمد محمود: قيام دولة المرابطين ص ١٩٥، حسن علي حسن: الحضارة الإسلامية ص ٣٠٠.
- (٢٢) ابن الخطيب: الحلل الموشية ص ٢٠٠.
- (٢٣) ابن خلدون: المبرج ٦ ص ٤٦٤، حسن علي حسن: الحضارة الإسلامية ص ٣٠٠.
- (٢٤) يشير صاحب الحلل الموشية إلى هذه الوصية بقوله: «فلما قريت وفاته - يقصد يوسف بن تاشفين - أوصى ابنه وولى عهده بعده أبا الحسن عليا بثلاث وصايا: الوصية الأولى ألا يبيع أهل جبل درن ومن وراءه من المصامدة وأهل القبلة، الثانية أن يبادن بني هود وأن يتركهم حائلًا بينه وبين الروم، الثالثة أن يقتل من أحسن من قرطبة ويجاوز عن مستهم» الحلل الموشية ص ٦٧.
- (٢٥) أهل السابقة: يعرفهم ابن خلدون بقوله: «وخص بالزمية من دخل في دعوتهم قبل تمكنها وبعد علامة تمكنها فتح مراکش فكان إذا انخص بهذا اللقب أهل السابقة قبل ذلك الفتح». ابن خلدون: المبرج ٦ ص ٥٦.
- (٢٦) نفس المصدر ج ٦ ص ٥٦٠.
- (٢٧) المراكشي: للمعجب ص ٣٤٠.
- (٢٨) وهي قبيلة مصمودية أسماها البربري أرغن تشتمل في الوقت الراهن على البطون التالية بني عثمان وبني تاموادان وأوان والجرف (هامش البيلق: أخبار المهدي ص ٣٣).
- (٢٩) المراكشي: للمعجب ص ٣٣٩.
- (٣٠) هامش البيلق: أخبار المهدي ص ٣٧.
- (٣١) البيلق: أخبار المهدي ص ٣٧.

- (٣٢) الناصري: الاستقصا ج ٢ ص ٢٢٥، ١٢٦.
- (٣٣) وهم قبائل شق يجمعهم اسم هذا الموضع المراكش: المعجب ص ٣٤٠.
- وتنمل أو تينمل أو تينمل، قلعة متينة في أعلى جبال الأطلس وهي التي اختارها المهدي بن تومرت مركزاً لدعوته وتقع الآن على بعد ١٠١ كم من الطريق من مراكش إلى تارودنت عبر الأطلس وبها الآن قبره.
- (٣٤) ابن خلدون: المعرج ٦ ص ٥٦١، ٥٦٢.
- (٣٥) المراكشي: للمعجب ص ٣٤٠.
- ويطلق عليها المراكشي اسم حنفة.
- (٣٦) البليق: أخبار المهدي ص ٣٧.
- (٣٧) ابن خلدون: المعرج ٦ ص ٥٧٠.
- (٣٨) ابن خلدون: المعرج ٦ ص ٢٣٩.
- الناصرى: الاستقصا ج ٢ ص ٩٩.
- (٣٩) ابن خلدون: المعرج ٦ ص ٢٥٧.
- (٤٠) حسن علي حسن: الحياة الإدارية ص ٣٤٣.
- (٤١) ابن أبي زرع: الأئیس المطرب ص ٢٠١.
- (٤٢) نفس المرجع السابق ص ٢٠١، ٢١٢.
- (٤٣) ابن عذاري: نظم الجمان ص ٩، ١٠، السلاوي: الاستقصا ج ٢ ص ٦٧.
- (٤٤) ابن عذاري: البيان المغرب ج ٤ ص ٤٨، السلاوي: الاستقصا ج ٢ ص ٦٦، حسن محمود: قيام دولة المرابطين ص ٣٢٨، ٣٢٩.
- (٤٥) البليق: أخبار المهدي ص ٢١، ٢٢، ابن أبي زرع: الأئیس ص ١٨٣.
- (٤٦) البليق: أخبار المهدي ص ٢١، المراكشي: المعجب ص ١٩٦، ابن خلدون: المعرج ٦ ص ٥٦٠.
- (٤٧) عبد العزيز بن عبد الله تاريخ المغرب ج ١ ص ١٢٠، حسن علي حسن: الحضارة الإسلامية ص ٣١١.
- (٤٨) ابن عذاري: البيان المغرب ج ٤ ص ١٥٢، النويري: نهاية الأرب ج ٢٤ ص ٣١٥ وما بعدها.
- (٤٩) ابن عذاري: البيان المغرب ج ٤ ص ٢٣، الناصري: الاستقصا ج ٢ ص ٢٢، ابن الخطيب: الحلل الموشية ص ١٣.
- (٥٠) الإستبصار ص ٢١٦.
- (٥١) ابن الخطيب: الحلل الموشية ص ١٣.
- (٥٢) ابن أبي زرع: الأئیس ص ١٥٧.
- (٥٣) ابن عذاري: البيان المغرب ج ٤ ص ١٠٢.
- (٥٤) ابن الأثير: الكامل ج ٨ ص ٢٩٦، ابن الخطيب: الحلل الموشية ص ٦٨.
- (٥٥) المراكشي: للمعجب ص ٣٤١، ابن أبي زرع: الأئیس ص ٢١٨، ابن الأثير: الكامل ج ٩ ص ١٧١.
- (٥٦) المراكشي: للمعجب ص ٣٤٢، ابن عذاري: البيان المغرب ج ٤ ص ١٨٧.
- (٥٧) شعيرة: المرابطون ص ٦٨.
- (٥٨) عبد العزيز بن عبد الله: مظاهر الحضارة المغربية ج ١ ص ١٠٤.
- (٥٩) حسن علي حسن: الحضارة الإسلامية ص ٣٢٧.
- (٦٠) ابن الخطيب: الحلل الموشية ص ٢٠، ابن عذاري: البيان المغرب ج ٤ ص ٢٥، النويري: نهاية الأرب ج ٢٤ ص ٢٦٣.
- (٦١) ابن صاحب الصلاة: تاريخ المن ص ٢٢٤.

- (٦٢) ابن القطان: نظم الجبان ص ١٥٦.
- (٦٣) المراكشي: المعجب ص ٣٤٠.
- (٦٤) نفس المرجع السابق ص ٣٤٠.
- (٦٥) عتات: عصر المرابطين والموحدين ج ٢ ص ٦١٧.
- (٦٦) ابن القطان: نظم الجبان ص ١٥٦.
- صف صاحب الحلل الموشية هذه الطبقات إلى ثلاث عشرة طبقة ص ٨٩ والطبقة التي أسقطها هي الطبقة الثانية عشرة وهي القبائل التي ناصرت المهدي وليست من قبيلة مصمودة.
- (٦٧) هناك اختلاف بين ابن القطان وصاحب الحلل الموشية فيما يخص هذه الطبقة فبينما يذكر ابن القطان أن هذه الطبقة تخص قبائل ناصرت المهدي وليست من قبيلة مصمودة يذكر صاحب الحلل الموشية أنها طبقة الجند. الحلل الموشية ص ٨٩.
- (٦٨) الغُرَات: جمع غره (بضم الغين) وكلمة غره من أسماء الأضداد، فتطلق على السيد والعبد، فيقال غرة القوم أي سيدهم كما تطلق هذه الكلمة على العبد والأمة.
- علام: الدولة الموحدية ص ٢٥٨.
- ويطلق عليهم صاحب الحلل الموشية (الغزوات والرماة) ويصفهم في الطبقة الثالثة عشرة صاحب الحلل الموشية ص ٨٩.
- (٦٩) الحلل الموشية ص ٨٩.
- (٧٠) الأنيس المطرب ص ١٣٧.
- (٧١) المراكشي: المعجب ص ١٦٣.
- (٧٢) نفس المصدر ص ١٧١.
- (٧٣) البليق: أخبار المهدي بن تومرت ص ١٠، المراكشي: المعجب ص ٢٤٠.
- (٧٤) ابن أبي زرع: الأنيس ص ٢١٦.
- (٧٥) السلاوي: الاستقصا ج ٢ ص ٥٩، حسن علي حسن: الحضارة الإسلامية ص ٣٤٢.
- (٧٦) السلاوي: مصدر سابق ج ٢ صفحات ١١٣-١١٥.
- (٧٧) ابن حذارى: البيان المغرب ج ٤ ص ٢٣١.
- (٧٨) ابن الأثير: الكامل ج ٨ ص ٣٠١، حسن علي حسن: الحضارة الإسلامية ص ٣٤٧.
- (٧٩) ابن حذارى: البيان المغرب ج ٤ ص ٢٣.
- (٨٠) ابن القاضي: جذوة الاقتباس ص ١٠٦.
- (٨١) التنوير: نهاية الأرب ج ٢٤ ص ٢٧٩، وفي رواية العمري أن التي قابلها ابن تومرت هي ابنة علي بن يوسف وليست أخته، مسالك الأبحار ج ١٥ ورقة ٣٩، وانظر أيضا ابن خلدون: المعبر ج ٦ ص ٢٢٧، السلاوي: الاستقصا ج ٢ ص ٨٢.
- (٨٢) ابن القطان: نظم الجبان ص ١٧٣.
- (٨٣) المراكشي: للمعجب ص ٣٦٥، عبد العزيز بن عبد الله: المرأة المراكشية ص ٢٧٢.
- (٨٤) ابن القطان: نظم الجبان ص ١٢٦.
- (٨٥) الأديبي: وصف المغرب الأتليسي ص ٦٩.
- (٨٦) ابن أبي زرع: الأنيس ص ١٣٨-١٣٩.
- (٨٧) الأديبي: وصف المغرب ص ٦٧-٦٨.
- (٨٨) نفس المصدر ص ٦٩.
- (٨٩) الاستبصار ص ٢٠٩.

- (٩٠) الإدريسي: مصدر سابق ص ٦٨.
 (٩١) الإدريسي: مصدر سابق ص ٦٨.
 (٩٢) الإدريسي: مصدر سابق ص ٦٨.
 (٩٣) العمري: مسالك الأبصار ج ١٦ ق ٢ ورقة ٢٦٩، المراكشي: المعجب ص ٢٠٧.
 (٩٤) ابن صاحب الصلاة: المن ص ٣٤٧، المراكشي: المعجب ص ٢٩٢.
 (٩٥) الإدريسي: وصف المغرب ج ٦٨.
 (٩٦) القلقشندي: صبح الأعشى ج ٥ ص ١٦٢، المقرئ: نفع الطيب ج ٢ ص ١٤٥.
 (٩٧) المراكشي: المعجب ص ٢٨٧.
 (٩٨) الاستبصار ص ٢١٠.
 (٩٩) ابن صاحب الصلاة: المن ص ٢٧٥، السلاوي: الاستقصا ج ٢ ص ٢٠٢، ابن سعيد: المغرب ج ١ ص ٢١٣، ٣٣٦، المراكشي: المعجب ص ٣٤٢.
 (١٠٠) ابن حذاري: البيان المغرب ج ٤ ص ٣٠، المراكشي: المعجب ص ١٦٢.
 (١٠١) ابن القطان: نظم الجيآن ص ٩٤، حسن علي حسن: الحضارة الإسلامية ص ٤١٧.
 (١٠٢) المراكشي: المعجب ص ٣٤٣.
 (١٠٣) ابن الأثير: الكامل ج ٨ ص ٢٩٩، العمري: مسالك الأبصار ج ١٦ ق ٢ ص ٢٦٨.
 (١٠٤) ابن حذاري: البيان المغرب ج ٤ ص ٥٤.
 (١٠٥) أنظر وصف موكب الخليفة يوسف بن عبد المؤمن حين عزم العبور إلى الأندلس سنة ٥٦٦هـ/١١٧٧م في ابن صاحب الصلاة: تاريخ المن ص ٤٣٨-٤٤١.
 (١٠٦) نفس المصدر ص ٣٤٧، ٣٥٣.
 (١٠٧) نفس المصدر ص ٤٣٠، ٤٣٣.
 (١٠٨) الاستبصار ص ٢٠٩.
 ج ١٠ نفس المصدر ص ١٤١.
 (١١٠) نفس المصدر ص ٢٠٩-٢١٠.
 (١١١) عبدالله علام: الدولة الموحدية ص ٢٦٦، محمد عبدالله عنان: عصر المرابطين والموحدين ص ٣٩٨-٤٠٠.
 (١١٢) البليدق: أخبار المهدي ص ٦٥، ابن القطان: نظم الجيآن ص ٤٠، ٤١.
 (١١٣) ابن القطان: نظم الجيآن ص ١٣٥-١٣٧.



مصادر ومراجع البحث

المصادر :

- ١- ابن الأثير: (أبو الحسن علي ت ٦٣٠هـ): - الكامل في التاريخ - ١٢ جزء - بيروت ١٩٦٦.
- ٢- الإدريسي: (محمد بن عبد العزيز ت ٦٤٩هـ): - وصف المغرب والأندلس - من كتاب نزهة المشتاق - ليدن ١٨٦٦م.
- ٣- البليدق: (أبو بكر بن علي الصنهاجي القرن ٦هـ): - أخبار المهدي بن تومرت وابتداء دولة الموحدين - باريس ١٩٢٨.

- ٤- ابن الخطيب: (محمد بن عبدالله ت ٧٧٦هـ): - المغرب العربي - الدار البيضاء ١٩٦٤م
- أحوال الاعلام - الدار البيضاء ١٩٦٤م
- الحلل الموشية - تونس ١٣٢٩هـ
- مشاهدات لسان الدين بن الخطيب - الاسكندرية ١٩٥٨.
- ٥- ابن خلدون: (عبد الرحمن بن محمد ت ٨٠٨هـ): - كتاب المعر ٦ أجزاء - بيروت ١٩٦٧م.
- ٦- ابن أبي زرع: (علي بن محمد قبل سنة ٧٢٦هـ): - الأنيس المطرب بروض القوطاس، الرباط ١٩٧٣م.
- ٧- الزركشي: (محمد بن إبراهيم ت ٨٩٤هـ): - تاريخ الدولتين الموحدة والحفصية - تونس ١٢٨٩م.
- ٨- ابن سعيد: (علي بن موسى ت ٦٨٥هـ) - المغرب في حل المغرب ج ١ القاهرة ١٩٦٤م.
- ٩- ابن صاحب الصلاة: (عبدالله بن محمد - أواخر القرن ٦هـ): - تاريخ المن بالإمامة - بيروت ١٩٦٤م.
- ١٠- ابن عذارى: (أبو العباس أحمد ٧١٢هـ) - البيان المغرب في أخبار المغرب - تطوان ١٩٥٦ - الجزء الرابع - بيروت ١٩٦٧م.
- ١١- العمري: (أحمد بن يحيى ت ٧٤٩هـ): - مسالك الأبصار في ممالك الأمصار مخطوط بدار الكتب رقم ٥٥٩ معارف عامة - ج ١٦ ق ٢.
- ١٢- ابن القطان: (علي بن محمد ت ٦٢٨هـ): - نظم الجيان - الرباط.
- ١٣- القلقشندي: (أحمد بن علي ت ٨٢١هـ): - صبح الأعشى في صناعة الانشاء - ١٤ جزء - القاهرة ١٩١٥ - ١٩١٩م.
- ١٤- مجهول: الاستبصار في عجائب الأمصار - الاسكندرية ١٩٥٨م.
- ١٥- المراكشي: (محمد بن محمد ت ٧٠٣هـ): - المعجب في تلخيص أخبار المغرب القاهرة ١٩٤٩م.
- ١٦- المقرئ: (أحمد بن محمد ت ١٠٤١هـ): - نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب.
- ١٧- الناصري السلاوي: (أحمد بن خالد): - الإستبصار لأخبار دول المغرب الأقصى - الدار البيضاء - ١٩٥٤م.
- ١٨- التويري: (أحمد بن عبد الوهاب ت ٧٣٣هـ): - نهاية الأرب في فنون الأدب ج ٢٤ - القاهرة ١٩٨٠م.

المراجع :

- ١- أحمد غنار العبادي: دراسات في تاريخ المغرب والأندلس - الاسكندرية ١٩٦٨م.
- ٢- السيد عبد العزيز سالم: تاريخ المغرب الكبير - الاسكندرية ١٩٦٦م.
- ٣- حسن أحمد عمود: قيام دولة المرابطين - القاهرة ١٩٥٧م.
- ٤- حسن علي حسن: الحضارة الإسلامية في المغرب والأندلس - القاهرة ١٩٨٠م.
- ٥- عبد العزيز بن عبدالله: تاريخ الحضارة المغربية - الدار البيضاء ١٩٦٢م.
- ٦- مظاهر الحضارة المغربية - الدار البيضاء ١٩٥٧م.
- ٧- عبدالله علام: الدعوة الموحدة بالمغرب - القاهرة ١٩٦٤م.
- ٨- محمد عبدالله عنان: عصر المرابطين والموحدين في المغرب والأندلس - القاهرة ١٩٦٤م.
- ٩- محمد عباداهاذي شميرة: المرابطون - تاريخهم السياسي القاهرة ١٩٦٩م.
- ٩- يوسف أشباح: تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين القاهرة ١٩٤١م.

في الأدب الجزائري العربي

د. محمد لطفي الزيتوني



يمثل الأدب الجزائري صفحة هامة من الأدب العربي لا يمكن التغاضي عنها ، وجزءاً منه يحمل من المقومات والخصائص المميزة ما يجعله أدباً جديراً بالدرس والتمحيص . وتقصّد بالأدب الجزائري هنا خاصة الأدب الجزائري الذي اتخذ من اللغة العربية أداة له ، وهو أدب وإن لم يصل إلى المستوى الأعلى من الجودة والكمال إلا أنه ذو أهمية بالغة إذ يقدم للباحث مادة غنية ، متنوعة ، دسمة ظلت مع ذلك وللأسف الشديد متروكة لم يلتفت إليها إلا القليل من الباحثين . ومهما تكن مسؤولية التاريخ والعواقب التي وضعها وحال بها دون إلقاء الضوء على هذا الأدب الجزائري العربي ، فإن مسؤولية الباحثين تظل هي الأخرى مع ذلك كبيرة في إهمال هذا الجانب من الأدب العربي وبقيائه غامضاً مهضوم الحق في عيني القارئ العربي . ولعل ذلك الأمر نفسه هو الذي أدّى بكثير من الباحثين العرب إلى أن يصدرُوا في مواقفهم من الأدب الجزائري باللغة العربية عن آراء تكشف بحق عن مدى سطحية اطلاعهم على هذا الأدب . وهي سطحية تؤدي بهم إلى اتخاذ مواقف فيها كثير من التعسف وغير قليل من الإجحاف والتسرع في إلقاء الأحكام .

ذلك في نظري ماصدر عنه رأي الدكتور «سعاد محمد خضر» في موقفها من الأدب الجزائري العربي ، الذي أبانت عنه في كتابها حول «الأدب الجزائري المعاصر»^(١) . وهي في

موقفها هذا صدى لكل الآراء التي شاعت حول «الأدب الجزائري» - العربي منه بالخصوص - ومشكلة التعريب التي أجبرته ظروف تاريخية موضوعية معينة على أن يخوضها ، والصراع القائم لديه بين لغة عربية قومية أصيلة ولغة فرنسية دخيلة ، حاول الاستعمار الفرنسي تأصيلها لدى الجزائريين بكل الوسائل ، ونجح في ذلك إلى حد ما .

والدكتورة سعاد محمد خضر تدرّك حق الإدراك هذه الظروف الموضوعية التي أدت إلى قيام مشكلة التعبير في الأدب الجزائري الحديث ، فهي في فصل من كتابها المذكور بعنوان «مشكلة التعبير في الأدب الجزائري الحديث» تقوم بعرض دقيق شيق لخصائص العملية الأدبية في المستعمرات ، قبل وبعد الاستقلال ، وعوامل تطورها ونموها بتطور المجتمع ونمو ثقافته وتأثير من الموقع الجغرافي لهذه المستعمرة أو تلك ، وسياسة المستعمر فيها . وهي تقصد بهذا العرض والتحليل إلى التدليل على أن العملية الأدبية في الجزائر تجربة فريدة في تاريخ الآداب القومية المعاصرة ، وأنها غنية بالتجارب ، زاخرة بما تقدمه لنا من خصائص وصفات مميزة ذاتية ، تكشف لنا بحق عن «مدى تطور العلاقات الاجتماعية والتاريخية التي كانت تعيشها الجزائر منذ أجيال وقبل الاحتلال»^(٢) وتبين للباحث المدقق «ما يمكن أن يسير إليه التطور الاجتماعي إذا ما ساعدت الظروف الموضوعية التي تعيشها الجزائر المستقلة على مسيرة ذلك التطور»^(٣) والجدير بالملاحظة أن الدكتورة سعاد خضر تقصد بالعملية الأدبية في الجزائر الأدب الجزائري الذي اتخذ من اللغة الفرنسية ، لغة العدو المستعمر ، أداة له في التعبير . وهي خلال كل هذا الفصل تركز بحثها وتحليلها على هذا الأدب المكتوب بالفرنسية بالذات ، وتبحث في ظروف نشأة هذا الأدب ، فتري أن «الظروف الخاصة التي فرضتها فرنسا بمحاربتها اللغة العربية ، وبفرضها تلك اللغة الفرنسية ، والثقافة الفرنسية ، قد دفعت بالجزائريين لدراسة تلك اللغة والاعتراف من مناهل تلك الثقافة ، مما ساعدهم على إغناء تقاليدهم وتراثهم وخلق أدب إنساني يقف في مصاف الآداب العالمية»^(٤) ، ألا وهو الأدب الجزائري الحديث المكتوب بالفرنسية . وواضح من نظرتها هذه ما تحمله إلى هذا الأدب من تقدير واحترام وإعجاب . وهو شعور نقاسمها إياه بلا شك . فبلوغ أدباء الجزائر الذين يكتبون بالفرنسية هذه المرتبة التي تجعلهم في مستوى كبار الكتاب العالمين ، ومواكبة انتاجهم لأبرز الأعمال الأدبية العالمية ، كل ذلك يعد مفعرة لا للجزائريين والأدب الجزائري فحسب ، بل للعالم العربي كله والأدب

العربي بأكمله . ولكم نتمنى لو يتعدد مثل هؤلاء فيخرج أدبنا إلى مجال الأدب العالمي والإنساني ويساهم بذلك في الرفع من شأن العرب والأدب العربي على حد سواء .

إلا أننا نجد الدكتورة سعاد خضر تنظر إلى الأدب الجزائري الحديث على أنه مقتصر على الفرنسية فقط ، وأن الحركة الأدبية في الجزائر قائمة فحسب على ما يقوم به الكتاب الجزائريون بالفرنسية من تأليف ونظم في القصة والشعر وغيرهما من الفنون الأدبية . وهي ، وإن ذكرت أن هناك أدباً جزائرياً كتب بالعربية إلى جانب الذي كتب بالفرنسية والبربرية ، إلا أنها مرت عليه دون أن تعيره ما يستحق من الرعاية والبحث والتحصيل . بل إنها تدلي قبيحاً شأنه بأحكام فيها كثير من التعسف . فهي ترميه أحياناً بالمحافظة الشديدة والتعصب ، وتصفه أحياناً بالرجعية التي تحاول أن توقف مسيرة الثورة الظافرة ، والتي تسعى إلى شد الجزائريين إلى الماضي و التقاليد الراضية كل تجديد وكل تطور . وهي تقابل بين هذا الأدب الجزائري المكتوب بالعربية و بين الأدب الجزائري الآخر الذي كتب بالفرنسية وموقف كل منهما تجاه حركة التطور فتقول : « وتميز العملية الأدبية في الجزائر باتجاهين رئيسيين في صراع مستمر : المحافظة التي تتوقف عند حد الاعتراف من كنوز الماضي رافضة كل تجديد وكل انفتاح على ثقافة غربية ما دامت تدين بإيديولوجية لا تتفق والإسلام ، مدعية أنها إنما هي أفكار ومبادئ مستوردة يجب التغاضي عنها . وهذا الاتجاه بالطبع يلتزم جانب الرجعية التي تحاول أن توقف مسيرة الثورة الظافرة ، يناقض هذا الاتجاه اتجاه آخر يستمد قوته من وقوفه إلى جانب الشعب ، ويستمد خصائصه من الواقعية والتقدمية الغنية بخبرات وتجارب شعب منتصر ، وتجارب وخبرات أدب فرنسي تقدمي يقيم معه علاقات خصبة ، بل وغنية بخبرات شعوب تبني الاشتراكية ، وتدعو إلى السلم . إنه اتجاه يستمد طاقاته من كل ذلك ليخلق أدباً يستجيب لتطلبات الثورة الجزائرية ولتطلبات شعب يحاول أن يبني حياته الجديدة بعد النصر»^(٥) .

والذي يطالع هذه الفقرة يتبين له جلياً ما وقعت فيه الدكتورة سعاد خضر من الخطأ في نظرتها إلى الأدب الجزائري المكتوب بالعربية . فهي أولاً ترميه بالرجعية والمحافظة والدعوة الملحة إلى الاعتراف من كنوز الماضي . كان ذلك فعلاً أثناء البدايات الأولى للنهضة الأدبية الجزائرية الحديثة ، وهو شأن كل نهضة تحوّلها أمة من الأمم ، فهي بحاجة أولاً وقبل كل

شيء إلى إحياء تراثها و الالتفات إلى ماضيها ، والبحث في غبار التاريخ عن أخص مقوماتها الحضارية وأخص خصائصها القومية لتقيم عليها أسس نهضتها الحديثة ، وتنطلق بالاعتماد على هذه الأسس الركيزة المتينة نحو آفاق التطور والرفي . وذلك الأمر نفسه هو ما كانت النهضة العربية الحديثة قد مرت به . وطبيعي ما نراه في مثل هذه الحركة من دعوات إلى الماضي وتحريض على الالتفات إلى التراث والتشبث به ، وطبيعي كذلك ما نسمعه من قم هذا الزعيم أو ذلك من زعماء النهضة من دعوات ملحة إلى الأجداد العريقة والمقومات الأصيلة للشخصية العربية .

إلا أن هذه الدعوة لم تكن كلها متجهة إلى الماضي ولم تنصب كلية نحو التراث تنادي إلى التمسك به دون الالتفات إلى منابع الحضارة وموارد التطور والمدنية . فالأدب الجزائري الحديث المكتوب بالعربية لم يكن أبداً وفي أي وقت من أوقاته أدباً رجعيّاً ولا رافضاً للتجديد والتحول والتطور . وإلا فكيف نفسر ما نراه لدى شعراء الجزائر المحدثين من دعوات إلى الإصلاح والتعليم والتثقف والتجرد من قيود الماضي والتقاليد البالية ؟ وكيف نبرر موقف شاعر كخبشاش من السفرور ؟ وإلى أي اتجاه نعوذ دعواتهم إلى الاستفادة من مظاهر المدنية الغربية ومزاياها— هذا من حيث المضامين الشعرية . أما من حيث الأشكال ، فكيف نفسر مواقف رمضان حمود من الوزن والقافية ؟ أليست سمة من سمات التجديد والتطوير والخروج عن التقليد العقيم ؟ ثم كيف نفسر تجارب سعد الله وغيره من الشعراء الجزائريين المحدثين والمعاصرين في الشعر الحر ؟ أليست كلها دليلاً على أن الأدب الجزائري المكتوب بالعربية لم يكن أبداً أدباً رجعيّاً رافضاً لأي مظهر من مظاهر التجديد والتطور ؟

يقول الدكتور سعد الله في تجربة له قيمة في الشعر الحر بعنوان «طريقي» قام بها سنة ١٩٥٥م :

سوف تدرى راهبات واد عبقر
كيف عانقت شعاع المجد أحمر
وسكنت الخمر بين العالمين

خمر حب وانطلاق وحنين
ومسحت أعين الفجر الوضية
وشدوت لنسور الوطنية
إن هذا هو ديني
فاتبعوني أو دعوني
في مروقي
فقد اخترت طريقي
يارفيقي^(٦)

ألا تراها تجمع إلى طرافة المضمون وتقدميته ، تلك الثورة على الشكل الشعري الصارم
وذلك الخروج عن قواعد النظم العربي العتيق ؟

ثم إن الدكتور سعاد خضر ، تبني على رأيها هذا في الأدب الجزائري المكتوب بالعربية رأياً
آخر لا يقل عن الأول خطورة وإجحافاً ، كما لا يقل عنه خطأ . فهي تتحدث عنه ، أي عن
الأدب الجزائري المكتوب بالعربية ، كأدب منفصل تماماً عن الثورة الجزائرية والنهضة الوطنية
بالجزائر ، أدب لم يكن له في الحركة التحريرية باع ولا ذراع ، أدب كان منفصلاً عن الشعب
تماماً بعيداً عنه ، متغاضباً عن خبراته الغنية وتجاربه الجمة الوافرة . يظهر هذا خصوصاً في
مقابلتها بين هذا الجانب العربي من الأدب الجزائري الحديث وبين الجانب الآخر منه الذي
كتب بالفرنسية . فهي تسم هذا الأخير في الفقرة التي أوردتها سابقاً^(٧) بأنه أدب يستمد قوته
ودعائمه من وقوفه إلى جانب الشعب ، ويستقي مقوماته من تأثيراته المختلفة بالأدب الفرنسي
الواقعي ، وتجاربه التقدمية المتطلعة نحو التطور والرقى ، بل ومن تأثيراته بالمبادئ الاشتراكية
والدعوات إلى السلم والأمن والاستقرار . وكل ذلك حوّل له أن يعبر عن تطلعات الجزائريين
ومتطلبات ثورتهم وآمالهم وآلامهم ، وأن يكون سلاحاً من أسلحة الثورة الفعالة . وواضح ما
في هذا الموقف من بخس لفضل الأدب الجزائري المكتوب بالعربية هو الآخر على الثورة ،
وإنكار لدوره الهام الذي قام به خلال الحركة التحريرية الجزائرية . وتكفيينا التفاتة إلى التاريخ
غير بعيدة لتبرهن لنا على أن هذه الحركة قد اندلعت بصفة جذية وخطى ثابتة رصينة ولسانها

الشعراء والأدباء والخطباء والمصلحون والساسة ورجال الدين الجزائريون الذين اتخذوا من العربية أداة لهم في التعبير عن أهداف الثورة ، وتطلعات الشعب ومطالبه ، وتصوير ظروفه الاليمية ، وأوضاعه البائسة في ظل الاستعمار الغاشم . لم يكن الأدب الجزائري المكتوب بالعربية أبداً منفصلاً عن الثورة والشعب ، بل كان أدباً واقعياً بأتم معنى الكلمة . لقد بدأ الشعر الجزائري العربي الحديث شعراً منبرياً خطابياً أساسه الوعظ والإرشاد ، وأصباغه دينية محضة ، تكثر فيها الدعوة إلى اليقظة والالتفات إلى الدين والرجوع إلى سيرة السلف الصالح والنهج على طريقهم . وكان هذا الشعر لسان حال الحركة الإصلاحية ينادي بمبادئها ويدعو إلى تحقيق أهدافها ومسايعها . ولقد سمى الدكتور سعد الله هذا النوع الأول الذي اتسم به الشعر الجزائري بين نهاية القرن الماضي إلى غضون سنة ١٩٢٥م «شعر المنابر» وعنه يقول : «إن أساسه الوعظ والإرشاد وأصباغه دينية يكثر فيها لفظ الإسلام والإصلاح والسلف وما شاكلها . كما أن أهدافه إصلاحية ترمي إلى إلغاء الوعي الشعبي عن طريق الدين والمبادئ الخلقية . وقد سبقت الإشارة إلى أن الشعر الجزائري عامة كان ينتسب إلى الحركة الإصلاحية ولذلك فقد كان على شعر المنابر أن يوضح أغراض هذه الحركة ويصوغها في أثواب دينية تستميل الشعب وتبعث فيه الحماسة واليقظة كما تفعل الكلمات المنبرية البحتة»^(٨) . وذلك يقوم بحق دليلاً على أن هذا الشعر لم يكن منفصلاً عن الشعب ، بل كان بالعكس يحس إحساساً عميقاً بالأزمة التي كان يتخبط فيها هذا الشعب من جهل واستكانة وعبودية للأفكار الزائفة والخرافات الواهية والتقاليد الجامدة ، فحاول أن يوقظه من غفلته هذه علّه يفتح عينيه ليرى ما هو عليه من تأخر وركود .

وإذا تقدمنا قليلاً إلى الشعر الجزائري فيما بين ١٩٢٥م و١٩٣٦م والذي سمّاه الدكتور سعد الله «شعر الأجراس» نجد هذه الحقيقة نفسها تتأكد أكثر فأكثر فالشعب في هذه الفترة قد بدأت روح الحياة تعاوده بعد طول سبات ، ونفسه بدأت تحركها دعوات الحركة الإصلاحية المتمثلة في حركة جمعية العلماء الفتية ، وفي دعوات الحزبين الاشتراكي والشيوعي ، وفي منشورات الصحف والمجلات العربية اللسان ، من أمثال البصائر والشباب والشهاب والمنتقد وغيرها . وأصبحت تحس في شعر هذه الفترة إحساساً قوياً بذلك التيار الحيوي الحاد الذي أصبح يتدفق في روح الشعب إلى جانب روح القلق والاضطراب ، وبعض ملامح التشاؤم واليأس التي

كانت تعتّوره من حين لآخر . وللشاعر محمد العيد أبيات أوردها له الدكتور سعد الله في كتابه المذكور تصور بحق هذا الواقع الذي كان يعيشه شعب جزائري يتقاذفه الأمل العريض والحيرة القاتلة فيوقعانه في اضطراب شديد مقيت . يقول :

أيها الشعب فيم توسع قهراً ليت شعري لأي أمر تقاد؟
ليت شعري متى تصير عتيداً و لأهلك بالنفوس اعتداد؟
ليت شعري متى تمد لك الأيدي و تغري بحبك الأكباد؟
إن خير البلاد في وسع أهلها إذا أبدأوا بها و أعادوا^(٩)

ونفس الشاعر يقول من قصيدة له بعنوان «أسطر الكون» نظمها سنة ١٩٢٥ أبياتاً تصوّر لنا مرة أخرى حقيقة الواقع الجزائري الأليم الذي تتجاذبه الآمال إليها تارة والحيرة واليأس الشديد إليهما تارة أخرى . يقول :

وأقرأ من أي الشقاوة أسطراً فسطر عياييل أمضهم الطوى
وسطر أيامي يصطرخن توجعا وسطر يتامى مرهقين تكبهم
وسطر مشائيم غرار أذلة وفوقهم سطر من الخلق كله
فهل كان هذا الكون سيفاً مشطباً ستمت وإن كنت ابن عشرين حجة
أردد طرفي سابرا كنه غورها تبارك رب العرش لست بملحد
ولكن وجداني ينم بحسرة على صفحات الكون مرسمات
عراة على لفح الأثير حفاة من البؤس لا يفتأن مكتبات
على جرف البلوى يد العثرات يسامون بالآرزاء والنكبات
جناة لعمر الحق فوق جناة يمثل بالأراوح والمهجات
حوادث لا تنفك مستمرات فيرجع طرفي خاسيء النظرات
يحاول طمس الحق بالشبهات إلى القلب أو يوحي له بشكاة^(١٠)

ألا ترى في هذه الأبيات مسحة من السوداوية القائمة واليأس العميق تطبق على روح الشاعر

فتزيد في حيرته وتجعل مسلكه إلى الخروج منها مسلماً وعراً مستحيلاً ؟ إن يأسه هذا هو يأس كل الجزائريين في عصره ، وقلقه قلقهم كلهم ، وحيرته حيرتهم جميعاً ، وهو في ذلك خير مصور لحياة الجزائر ، وأوضح صدى لمارتها وتخبطها بين الأمل والنير واليأس المظلم الأسود .

وإذا ما طوينا هذه الصفحة من صفحات الشعر الجزائري إلى صفحة أخرى تليه وجدناه أكثر استجابة لمطالبات الثورة الجزائرية والشعب الجزائري ، على خلاف ما تراه الدكتور سعاد خضر ، ورأيناه ينادي بشعارات الوحدة الشعبية والوطنية وينود التحرر من قيود الماضي للفتح على الحاضر والمستقبل ومجابهة المستعمر الفاشم ، مصوراً مرحلة جديدة من مراحل الثورة الجزائرية ، مرحلة بدأت الجزائر تخوض فيها معركة حاسمة نحو التحرر والانطلاق من قيود العبودية والهوان . حتى إذا اندلعت الثورة رسمياً ، حرّكت قرائح الشعراء والخطباء الجزائريين وأطلقت لجراح أعلامهم العنان «فتفجرت عواطف الشعراء بشعر ثوري عارم يسجل انتصارات الثورة ويشر بالاستقلال والغد الحرّ ، ويتغنى بالوطن والحرية ، ويشارك المحزونين والمثالمين ويضمّد الجراح ويكفكف الدموع ويخلد الشهداء والأبطال والوقائع»^(١١) .

من هذا العرض الموجز لمختلف مراحل الشعر الجزائري الحديث المكتوب بالعربية ، يتبين أن هذا الشعر بصفة خاصة وإلى جانبه أيضاً الخطب والقصص القصيرة والمسرحيات وغيرها من إنتاج الأدب الجزائري العربي الحديث ، كان دائماً صدى لحياة الجزائريين في شتى مراحل الثورة منذ مطلعها حتى الاستقلال . كما يتبين أن الأدب الجزائري المكتوب بالفرنسية لم يكن وحده كما زعمت الدكتورة سعاد خضر يستمد مقوماته وخصائصه من واقع الشعب وحياته ليستجيب لمطالبه ويكون صدى له في كل أحواله ، ولم يكن هو وحده الذي واكب الثورة وعزّز جانبها وساهم في تسديد خطاها وتحقيق مساعيها . كلا ، بل إن الأدب الجزائري المكتوب بالعربية سار إلى جانبه في هذه المهمة وقام معه بها خير قيام . وليس الغرض هنا الاقلاص من فضل الأدب الجزائري المكتوب بالفرنسية على الثورة الجزائرية كما فعل الدكتور عبد الملك مرتاض في كتابه «نهضة الأدب العربي المعاصر في الجزائر» حين قال : «ولو أردت أن أقول ما أعتقد لقررت بأن هذا الأدب - يعني الأدب الجزائري المكتوب الفرنسية - غريب في نفسه ومنفي من وطنه الذي كتب فيه ، ولم يستطع أن يلعب دوراً كبيراً في نهضة الأدب المعاصر

بالجزائر ، فضلاً عن أن يلعب دوراً كبيراً في إذكاء نار الثورة التي قبضت للشعب الجزائري أن يكسر قيود الاستعمار الثقيلة . وقد قرنا ... بأن حرمان معظم الجزائريين من التعليم الرسمي الفرنسي ، أدى إلى نتيجة عكسية خطيرة بالقياس إلى وجود الفرنسيين في الجزائر . وإنما يدل هذا على أن الجزائريين الذين لم يتعلموا الفرنسية ، أو تعلموها إلى جانب تعلمهم العربية ظلوا ينظرون إلى هذه اللغة الاستعمارية نظرة حذرة فيها كثير من الخوف والإشفاق فكان ذلك ممّا باعد الشقة بين الجانبين ، وعسر التفاهم بين الفرنسيين كمستعمرين وبين الجزائريين ، كمواطنين ووطنين^(١٢) .

وواضح من هذا الرأي أن صاحبه يريد أن ينفي تماماً دور الكتاب الجزائريين بالفرنسية في نهضة الأدب المعاصر بالجزائر وفي إذكاء نار الثورة . بل هو يذهب إلى أبعد من هذا تماماً ، فيجعل جهلهم بالعربية عاملاً من العوامل التي تحول بينهم وبين القيام بهذا الدور الدعائي المعاصر للثورة الجزائرية والمساعد على نهضة الأدب بالجزائر فيقول : «وقد ظلّ هؤلاء الكتاب الجزائريون ، في معظمهم ، بالفرنسية ، معجبين كل الإعجاب بالحضارة الفرنسية بوجه خاص ، والحضارة الغربية بوجه عام ، جاهلين بالتاريخ العربي ، غير ملمين بمعالم الحضارة الإسلامية . إذ أنى لهم أن يدركوا شيئاً من ذلك وهم محرومون من الإلمام الكافي بلغتهم التي بواسطتها يطلعون على التراث العربي وكنوز حضارته الغنية بمعطياتها الإنسانية اطلاعاً حقيقياً خالياً من كل الشوائب والشورور؟

فقد كانت هذه الحضارة العربية ومعطياتها ، بالقياس إلى كتابنا بالفرنسية ، في بيت مغلق وهم لا يملكون مفتاحه ، ولم يكن لهم سبيل ليملكوه . لسنا نتهمهم بغير هذا فلم تكن تنقصهم الوطنية ، ولم يكن ينقصهم الشعور بالمسؤولية كما يقال ، وإنما كان ينقصهم شيء واحد فقط ، ولكنه عظيم الأهمية وهو الإلمام بالعربية التي كان شعبهم يتحدثها ، فحرموا كل شيء»^(١٣) .

ويبدو الدكتور عبد الملك مرتاض قاسياً في حكمه على الأدب الجزائري بالفرنسية كما كانت الدكتوراة سعاد خضر قاسية في حكمها على الأدب الجزائري بالعربية . فهذا الأدب المكتوب

بالفرنسية ، وإن لم يكن له صدى مباشر في إذكاء نار الثورة الجزائرية لجهل أغلبية الجزائريين ، حسب رأيه ، بالفرنسية ، فإن هذا الأدب لا محالة قد صوّر الواقع الجزائري الأليم وعكس للجميع حياة الجزائريين أيام ثورتهم وبينّ للعيان شرعية هذه الحركة وعدلها ، فساهم بذلك في الدعاية إلى القضية الجزائرية في الخارج وفي جلب المؤيدين لها . وعلى كل فكلأهما أدى لهذه القضية خدمة جليلة ، وكلاهما واكبها في مختلف مراحلها وساهم في الدعاية لها وتسديد خطاها متخذاً من الواقع الجزائري منبعاً لمقوماته وخصائصه يلقي عليه الأضواء المنيرة فيكشفه كل بطريقته إلى القارئ العربي ، والغربي على حد سواء .

أعود الآن إلى مناقشة بقية آراء الدكتور سعاد خضر حول الأدب الجزائري المكتوب بالعربية . فهي ترى أن الفرنسية قد تعمقت جذورها في الجزائر في عهد الاحتلال حتى أنه تحتم عليها «أن تلعب نفس الدور الذي كان على العربية أن تقوم به وأصبحت لغة التعبير في ميدان التعليم ، وهي لغة الثقافة والسياسة والتاريخ والأدب إلى جانب كونها لغة طيّعة ناجعة لميدان الأدب»^(١٤) . ولنا أن نسألها هنا : هل كان ابن باديس يسوق خطبه السياسية والوطنية القيمة بالفرنسية ؟ وهل كان الشيخ الإبراهيمي ينشر «البصائر» بالفرنسية ؟ وهل كانت الشهاب والمنتقد والمؤيد والشباب وغيرها من الصحف والمجلات تصدر بالفرنسية أم بالعربية ؟ وهل كان زعماء جمعية العلماء يتنقلون في أنحاء الجزائر ويخاطبون الأهالي بالفرنسية ؟ وكيف لهم ذلك وأغلبية الجزائريين يجهلون الفرنسية ، اللهم إلا بعض كبار المدن كوهراة وبلعباس والجزائر العاصمة مثلاً ؟

يقول الدكتور عبد الملك مرتاض : «إن الثقافة الفرنسية لم تتمكن تمكناً عميقاً إلا من نسبة من الجزائريين الذين أتيت لهم أن يدرسوا في المدارس الفرنسية على نحو واسع ، مما جعل عامة الشعب الجزائري يظل جاهلاً بالأدب الفرنسي والفكر الفرنسي في عمقه وأصالته»^(١٥) .

ويستنتج الدكتور من رأيه هذا رأياً آخر فيه كثير من الصحة مع كونه يستند قليلاً إلى الهوى ويعول على العاطفة ، فيقول : «وإذن فأصالة الشعب الجزائري وحنينه إلى عرويته وإيمال الإنسان الجزائري في البادية إهمالاً كلياً وإغلاق أبواب المعرفة في وجهه ، كل هذه العوامل

تجعل الباحث يقرر بحق بأن الجزائر كانت مستقلة من الناحية الاجتماعية ، عن الاستعمار الفرنسي استقلالاً يكاد يكون تاماً . . . وأن البادية والقرى الجزائرية لم تفد من وجود الاستعمار الفرنسي الذي كان طويل العمر في هذه الأرض ، لا اقتصادياً ولا حضارياً ولا ثقافياً ولا اجتماعياً ولا لغوياً ، بل ظل المجتمع الجزائري ، في البوادي والقرى النائية ، على ما كان عليه قبل الاحتلال الفرنسي : لم يتقدم ولم يتأخر ، ولم يتبدل ولم يتغير^(١٦) . وعلى هذا النحو ، أمكن للعربية ، ولجماة العلماء الجزائريين وعلى رأسهم ابن باديس والإبراهيمي ، وكذلك للصحف والمجلات والمنشورات الجزائرية العربية ، وأمكن هؤلاء جميعاً أن يجدوا لأنفسهم طريقاً بين جماهير الشعب الجزائري ، وأذناً صاغية وقلوباً واعية تستجيب لدعواتهم وصرخاتهم ، وأمكن للثقافة العربية أن تحتل مكانها في الثورة الجزائرية وتقوم بدورها تجاهها كاملاً كما أمكن للعربية أن تبقى لسان الدعوة والتثقيف والتعليم وإنارة العقول . وما المدارس العربية الحديثة التي أنشأتها جمعية العلماء إلا دليل قاطع على أن العربية قد ظلت - بالرغم من وجود الفرنسية والفرنسيين - سلاحاً من أسلحة الثورة في شتى مظاهرها وأهدافها . وهذا خلافاً لما رآته الدكتوروة سعاد خضر في رأيها عن الأدب العربي واللغة العربية بالجزائر.

وهي تضيف إلى هذا الرأي الخاطيء رأياً آخر لا يقل عنه خطأ حين تقول : «فاللغة العربية الكلاسيكية مقتصرة على ميادين خاصة من ميادين الثقافة وأغلبها دينية إلى جانب المنشورات السياسية وأشعار المقاومة . ولم تستطع نظراً للظروف التي فرضتها فرنسا وشلت تطورها ، لم تستطع أن تعبر عن أنواع أدبية جديدة أو أن تتخطى هذه الحدود التي فرضت عليها^(١٧) . والذي يمحس النظر في الجانب الأول من رأيها هذا ، يرى أنها تعتبر أن ميادين الثقافة والأدب تغاير السياسة والخطب الإصلاحية وأشعار المقاومة ، وأن هذا الضرب من الإنتاج وما ينحو نحوه مما يدخل في أسلحة الثورة الدعائية ، ينافي الأدب ومخالفه . وكأنما الأدب مقصور على التعبير عن الوجدان والمشاعر والعواطف الذاتية لهذا الأديب أو ذلك . في حين أن الأدب يشمل كل هذه الميادين وكل هذه الأصناف من الإنتاج إذا صيغت في قالب فني معبر يستوفي شروط الخلق المبدع وقواعد الفن الأصيل . والذي يفكر في هذا الرأي وما يمكن أن يقوم عليه من استنتاجات خطيرة ، يفهم منه بلا شك أن أشعار حافظ إبراهيم الإصلاحية ، ومؤلفات محمد عبده والأفغاني من قبله في الدعوة الإصلاحية أيضاً ، وخطب علي بن أبي طالب ، بل

وحتى أحاديث الرسول والقرآن الكريم نفسه يجب أن نخرجها عن الأدب العربي ولا نعدّها من الإنتاج الأدبي . إذن لكان ذلك خسارة علينا وعلى أدبنا أي خسارة . ويصدر الدكتور مرتاض عن هذا الرأي ذاته حين يقول : «إن العنصر السياسي أو الديني أو الاجتماعي أو الاقتصادي أو الإصلاحي ، إذا سيطر على حركة أدبية ، ليس معناه أن هذا الأدب دين أو سياسة أو نحوهما ولكن معناه أنه أدب حي ملتزم يهتم بالفرد من حيث ماضيه مضطرب في مختلف مناهج الحياة .

وكان هؤلاء يابون أن يطلقوا لفظ الأدب إلا على كل أدب عاطفي أو كل أدب يعنى بالذاتية الشخصية كالأدب الرمزي المريض»^(١٨) . وأما الجانب الثاني من رأيها الأخير ، والذي تزعم فيه أن اللغة العربية لم تتمكن من التعبير عن أنواع أدبية جديدة أو أن تتخطى الحدود التي فرضت عليها من قبل الإستعمار والفرنسية فرضاً ، ولا أن تسير خطوة نحو التطور والتجديد ، فذلك أيضاً رأي فيه نظر . فاللغة العربية ، إلى جانب كونها لغة شعر جزائري تقليدي اتسم في مختلف مراحل تطوره بروح الثورة والنغمة الخطابية الإصلاحية ، قد اتخذت كذلك أداة للتأليف في الرواية والقصة القصيرة والمسرح ، وكلها أنواع أدبية حديثة لم تدخل الأدب العربي الحديث بصورة مكتملة واضحة إلا في مطلع هذا القرن ، ودخلت الأدب الجزائري الحديث وانضمت إلى جانب الخطابة والاشعار لتكون سلاحاً من أسلحة المقاومة ، تعتمد على الواقع الحالي كما تعتمد على التاريخ لتستقي منها موضوعاتها وأحداثها . وما رواية رضا حوحو «غادة أم القرى» (١٩٤٧) إلا دليل على ما قدمت . كما أن تجارب محمد العابد الجليلي في القصة القصيرة^(١٩) وأقاصيص حوحو العديدة ، ومسرحية محمد العيد الشعرية «بلال» ومسرحية توفيق المدني «حنبل» ، وغيرها إنما تقوم دليلاً على أن اللغة العربية الكلاسيكية ، على حدّ قول الدكتور سعاد خضر ، لم تقتصر على الجانب الديني وبعض الخطب وأشعار المقاومة فحسب بل تعدت كل ذلك إلى ميدان التجديد والتطوير ، وتبنت أنواعاً أدبية حديثة . صحيح أن هذه الأعمال التي لدينا من الأدب العربي الجزائري في الرواية والقصة والمسرح محاولات لم تكتمل كل عناصر هذه الفنون ولم تتوفر فيها كل المقومات الفنية المشترطة في هذه الأنواع الأدبية ، وصحيح أن هذه المحاولات لم تبلغ أوج الكمال والإبداع الفني الراقى ، ولا هي وصلت إلى المستوى الفني والعالمي الذي بلغته أعمال الأدباء الجزائريين الذين يكتبون

بالفرنسية . كل ذلك صحيح ولا يمكن إنكاره . إلا أن هذا لا يمنع كون اللغة العربية كانت أداة لتجارب أدبية جديدة مهما قيل عنها فإنها قد نجحت إلى حد كبير في تصوير الواقع الجزائري والاستجابة لأهداف الجزائر الثائرة والمكافحة .

ولم تقف العربية عند هذا الحد في محاولاتها التجديدية ، بل كانت منذ العشرينات من هذا القرن أداة للدعوة إلى الخروج من قيود القديم والتحرر من أغلال العمود الشعري التقليدي ، وترك الصور الممجوجة المتكلفة التي طال اجترارها ، وأن لها أن تختفي وتعوّض بأكثر منها ملاءمة لروح العصر . يقول الشاعر رمضان حمود داعياً إلى الثورة على الوزن والقافية :

ألا جددوا عصراً منيراً لشعركم فسلسلة التقليد حطمها العصر
وسيروا به نحو الكمال ورموا معالهُ حتى يصافحه البدر^(٢٠)

ويقول أيضاً في الدعوة إلى الخروج على القالب التقليدي المنبوذ متهمكاً على من ينحو هذا النحو في شعره :

أتوا بكلام لا يحرك سامعاً عجوز له شطر وشرط هو الصدر
وقد حشروا أجزائه تحت خيمة كعظم رميم ناخر ضمّه القبر
وزين بالوزن الذي صار مقتنى بقافية للشط يقذفها البحر
وقالوا : وضعنا الشعر للناس هادياً وما هو شعر لا ولانثر
ولكنه نظم وقول مبمثر وكذب و تمويه يموت به الفكر^(٢١)

ولرمضان حمود زيادة على هذه الأشعار الداعية إلى التجديد أفكار وآراء في الشعر والوزن والقافية تكشف لنا عن شعوره الدقيق وإحساسه العميق بحقيقة الشعر ودوره والمراد منه ، وبوظيفة هذه العناصر في تجميله وتحسينه وتقريبه إلى الذوق ، يقول : « الشعر تيار كهربائي مركزه الروح ، وخيال لطيف تقذفه النفس ، لا دخل للوزن ولا للقافية في ماهيته . وغاية أمرها أنها تحسينات بديعة لفظية اقتضاها الذوق والجمال والتركيب في المعنى ، كالماء لا يزيده الإناء الجميل عذوبة وملوحة ، وإنما حفظاً وصيانة من التلاشي والسيلان »^(٢٢) . ولم يقف به

التجديد عند هذه الحدود النظرية البحتة ، بل تعدّاه إلى الجانب العملي ، فجذّد في شعره وأوزانه وقوافيه ، ونجح في تجربته هذه إلى حدّ كبير . ثمّ إنّ التجديد في الشعر العربي الجزائري لم يقف عند رمضان حمود ، بل تعدّاه إلى غيره من الشعراء الجزائريين وظلّت محاولات التجديد في الشعر العربي ممتدة إلى يومنا هذا في الجزائر . والأدب الجزائري العربي ، وإن كان حذراً في تبنيّه لهذا المذهب أو ذلك من المذاهب الأدبية الحديثة ، واتباعه لهذا الاتجاه أو ذلك من الاتجاهات الفنية المعاصرة ، إلا أنه قدّم لنا تجارب في مجال التجديد والتطوير تسمح لنا بملاحظة التطوّرات والتحوّلات التي يعيشها في أجلى مظاهرها وأبرزها . ولعلّ تجربة الدكتور سعدالله في الشعر الحرّ وكذلك محاولات الشعراء الجزائريين الشباب في يومنا هذا تقف في طليعة هذه المحاولات التجديدية وتبرهن على أنها نجحت إلى حد كبير .

من هذا العرض يتبيّن لنا أنّ الأدب الجزائري المكتوب بالعربية قد اتسع مجاله فشمل الأنواع الأدبية الحديثة ، وأنّ العربية لم تقتصر ، حسب مآرائه الدكتور خضر ، على الجوانب الدينية والإصلاحية وأشعار المقاومة ، بل كانت كذلك أداة لكثير من المحاولات التجديدية سواء في الشعر أو في المسرح أو في الرواية ، وهي محاولات ناجحة إلى حدّ كبير ، وإن كانت لم تستوف جميعها كل مقومات هذه الفنون ولم تستكمل مجمل خصائص الحداثة والتجديد .

تلك هي بعض الخواطر أثارها في نفسي موقف الدكتور سعد خضر من الأدب الجزائري المكتوب بالعربية . وهو موقف نموذجي نجده لدى جل الباحثين المشاركة ، إن لم أقلّ كلهم ، تجاه هذا الأدب . وهو موقف أملتّه عليهم إمّا نظرة عاجلة سريعة على ما ينشر أو يكتب في المجلات والصحف والجرائد والكتب العربية في أغلبها والجزائرية في أقلها — كما هو الحال مع الدكتور سعد خضر^(٢٣) — وإمّا أملتّها عليهم زيارة خاطفة إلى مكتبة الجزائر وتصفّح سريع لما فيها من كتب ودواوين جزائرية ، كما هو الحال بالدكتور لويس عوض أثناء زيارته للجزائر إثر دعوته إليها بمناسبة ذكرى الاستقلال . فقد أقام بالجزائر أسبوعاً كما يقول في كتابه — «دراسات عربية وغربية» — وحاول الالتقاء بأعلام الأدب فيها ، ولما لم يتمكن من مقابلتهم مباشرة والتحدّث إليهم حول قضية الأدب في بلادهم ، أراد أن يتصل بهم من خلال كتبهم ودواوينهم . يقول في ذلك : «... قلت حسناً ، إن كنت لم أوفق في لقاء أدباء الجزائر

بأشخاصهم ، فلا أقل من أن ألتقي بهم في مؤلفات هؤلاء الكتاب . عشرين قصة من قصصهم ومسرحية من مسرحياتهم وديواناً من دواوينهم كلها بالفرنسية ، وليس فيها كلمة واحدة خطت بالعربية . . . فالجزائر قد أنجب جيلاً من كبار الأدباء الذين لا يشئون إلا بالفرنسية ، ومنهم من لا يقرأ العربية ، بل منهم من لا يعرف كيف يتكلمها بتأتا مثل مالك الحذاد وحتى من كان منهم يقرأها ويكتبها ، مثل مصطفى الأشرف ، تجده لا يعبر عن نفسه أدبياً إلا بالفرنسية» (٢٤) .

ويمضي متسائلاً : «كيف ومتى يتاح للجزائر العربية أن تعبر عن نفسها أدبياً وفنياً باللغة العربية ؟ وكيف ومتى يكون للأدب العربي نصيب في أدباء الجزائر ؟ وكيف ومتى يبلغ أدباء الجزائر هذه المرتبة العالمية التي بلغوها من خلال لغتهم العربية لا من خلال لسان أجنبي ؟ » (٢٥) . ويتساءل على هذا النحو وكأنه لم يكن للجزائر أدب عربي ، وكأن التراث الأدبي الجزائري مقتصر على الكتب والقصص والدواوين العشرين التي سمحت له زيارته الحظيفة لمكتبة الجزائر أن يتصفحها ويستتج منها مثل هذه الأحكام . وهكذا ، وعلى هذا النحو ، يمضي اخواننا المشاركة من أدباء كبار ونقاد لامعين يحكمون على أدب الجزائر خاصة وأدب المغرب العربي عامة بمثل هذه القساوة وهذا التسرع ، فيقعون بالضبط في ما وقع فيه الدكتور لويس عوض والدكتورة سعاد محمد خضر وغيرهما . وعلى كل ، فالحقيقة التي يجب أن نقال ويهاجر بها ، هي أن مسؤولية هذا الاجحاف تقع على الجزائريين والأدباء الجزائريين أنفسهم ، كما تقع علينا نحن المغاربة جميعاً . فقد أخللنا إلى حد كبير بواجبنا نحو أدبنا العربي ولم نتح له فرص الشهرة والانتشار ، كما لم نتمكن من التعريف بنفسه في شتى أنحاء العالم العربي . فمن الطبيعي إذن أن نتحمل تبعه ذلك ، ومن الطبيعي أن ترسخ في ذهن الأدباء والنقاد العرب مثل هذه الأحكام التي رأينا ، ومازلنا نرى إن لم نتلاف ذلك ، حول أدبنا العربي . فهم لم يظلموا من كل أدبنا إلا على ما نشر من قصص كتابنا بالفرنسية ورواياتهم وأشعارهم ، وما كتب عنها من طرف الأدباء الأجانب ، ولا يمكننا بأي حال من الأحوال أن ندعي لأنفسنا الفضل في نشرها أو توزيعها أو التعريف بها . بينما ظلت أعمال أدبائنا وكتابنا بالعربية مغمورة في جملها متفرقة بين مكتبائنا ، ولم نجد لنفسها سبيلاً للخروج إلى النور والبروز إلى الشهرة والانتشار . لقد آن لنا ، نحن المغاربة ، أن نعرف بأدبنا وإنتاجنا ،

ونبرهن على أنه جزء لا يتجزأ من الأدب العربي ، وأن مساهمته في إحياء هذا الأدب وإغناء هذا التراث المجيد مساهمة لا يمكن التغاضي عنها أو الغضّ من قدرها . عندئذ فقط ، يمكن لهذه الآراء التي نراها أن تندثر وتحجى ولا يبقى لها مبرر للوجود .



هوامش

- (١) أنظر : سعاد محمد خضر : الأدب الجزائري المعاصر - المكتبة العصرية صيدا - بيروت ١٩٦٧م .
- (٢) المرجع السابق ص ٨٣ .
- (٣) المرجع السابق ص ٨٣ .
- (٤) المرجع السابق ص ٨٢ .
- (٥) المرجع السابق ص ٨٤ .
- (٦) من كتابه دراسات في الأدب الجزائري الحديث ، دار الأدب - بيروت - ط . الأولى - نوفمبر ١٩٦٦ ، ص ٤٨ - ٤٩ .
- (٧) أنظر سعاد خضر ، ص ٨٤ .
- (٨) د . سعاد الله : نفس المرجع ، ص ٣٤ .
- (٩) المرجع السابق ص ٣٦ .
- (١٠) صالح خرفي : شعراء من الجزائر (الحلقة الأولى) - معهد البحوث والدراسات العربية - ١٩٦٩م - ص ١٦٠ - ١٦١ .
- (١١) د . سعاد الله : المرجع نفسه ، ص ٢٤ .
- (١٢) د . عبد الملك مرتاض : نهضة الأدب العربي المعاصر في الجزائر : ١٩٢٦ - ١٩٥٤م الجزائر - بدون تاريخ - ص ٢٠ .
- (١٣) المرجع السابق . نفس الصفحة .
- (١٤) د . سعاد خضر : المرجع نفسه ، ص ٨٦ .
- (١٥) عبد الملك مرتاض : المرجع نفسه ص.ص ٢٢ - ٢٣ .
- (١٦) عبد الملك مرتاض : المرجع نفسه ، ص ٢٣ .
- (١٧) سعاد خضر المرجع نفسه ، ص ٨٧ - ٨٨ .
- (١٨) عبد الملك مرتاض : نهضة الأدب . المقدمة ص ٧ .
- (١٩) وتعود أولها إلى سنة ١٩٣٥م ، الصائد في الفخ .
- (٢٠) شعراء من الجزائر ص ٨١٢٣ .
- (٢١) شعراء من الجزائر ص ١٣٢ - ١٣٣ .
- (٢٢) شعراء من الجزائر ، ص ١٣٣ .
- (٢٣) ويكفي الرجوع إلى قائمة المصادر والمراجع التي أعمدت عليها وأثبتتها في آخر كتابها المذكور لتثبت من ذلك .
- (٢٤) لويس عوض : دراسات عربية وغربية ، دار المعارف بمصر ، ١٩٦٥م - ص ٤٨ .
- (٢٥) المرجع السابق ص.ص ٤٨ - ٤٩ .

بيوت
الله



توسيعات

المسجد النبوي الشريف في العهد السعودي

المدينة المنورة، ثاني المدن الإسلامية المقدسة، تبعد عن البحر الأحمر بحوالي ١٧٥ كم، يربطها بجدة طريق معبد طوله ١٥٠ كم. ويتفرع منه عند بدر، طريق إلى مينائها «ينبع» طوله ٩٠ كم وعن مكة نحو ١٢٥ كم. وكان يربطها بدمشق خط حليدي غُطِل في الحرب العالمية الأولى.

تقع المدينة المنورة على خط طول ٣٩° ١٧' شرقاً، وخط عرض ٢٤° ٢٨' شمالاً، ويحدها من الشمال جبل أحد، ومن الشمال الغربي جبل سلع، ومن الجنوب البحر الأحمر. وتبلغ مساحتها ٥٠٠ كم^٢ تقريباً. وهي من أهم المدن الإسلامية في العالم. وفي العهد السعودي، تم توسيع المسجد النبوي الشريف وتحويله إلى أكبر مسجد في العالم. وتم إنشاء العديد من المرافق والخدمات للمدينة، مما جعلها واحدة من أكثر المدن تطوراً في المنطقة.



● مشروع توسعة الحرم النبوي الشريف في عهد خادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبدالعزيز المفدى

وللمدينة أكثر من خمسة وتسعين اسماً منها «يثرب - المؤمنة - المحبوبة - المقدسة - البارة - أرض الله - دار الأبرار - دار السلام - المحرمة - المحروسة - الجبارة - الفاضحة - ذات الحرار - المعصومة - ولكن أشهر أسائها: المدينة المنورة - يثرب - طيبة - طابة - الدار» .

ويحتل المسجد النبوي الشريف بها مكانة خاصة بين المساجد الكبرى في العالم كله، وهو يضم جثمان رسول الله ﷺ وجثمان صاحبيه الراشدين الصديق، والفاروق، رضي الله عنهما .

وهو المسجد الذي قال فيه المصطفى ﷺ «لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد.. المسجد الحرام، ومسجدي هذا، والمسجد الأقصى».

ومن هذا المنطلق الديني تطورت عمارة الحرم المدني وبنات موضع الاهتمام والعناية من قبل الخلفاء والملوك والأمراء الذين تعاقبوا على حكم الدولة الإسلامية كلها أو بعضها.

ومنذ قيام العهد السعودي والمسجد النبوي الشريف في ازدهار معماري منقطع النظير.. ففي عهد الملك عبدالعزيز «طيب الله ثراه» أجريت إصلاحات في أرضية الأروقة المحيطة بالصحن، كان ذلك عام ١٣٤٨هـ، وفي عام ١٣٥٠هـ تم إصلاح بعض الأعمدة بالأروقة الشرقية والغربية، وفي ١٢ شعبان ١٣٦٨هـ، أعلن الملك عبدالعزيز «رحمه الله» عن عزمه على توسعة المسجد النبوي الشريف، وشرع في هدم المباني المحيطة به يوم ٥ شوال ١٣٧٠هـ ووضع حجر الأساس يوم ١٣ ربيع الأول ١٣٧٢هـ.

وقد افتتح المسجد بعد التوسعة في ١٣/٥/١٣٧٥هـ تلك هي العمارة السعودية الأولى وقد



أضيفت إلى مسطح المسجد (٦٠٣٣ متراً مربعاً) ، فأصبح مسطحه الإجمالي (١٦٣٣٦ متراً مربعاً) ، وبقي جناح القبلة على عمارته العثمانية.

ثم كانت التوسعة السعودية الثانية للمسجد النبوي الشريف في عهد الملك فيصل «طيب الله ثراه» ، حيث تم هدم وإزالة الأماكن الواقعة على يمين الواقف أمام المسجد النبوي الشريف ، وتم رصفها وتغطيتها بالمظلات ، وأصبحت مصلى للمواطنين والحجاج والزوار ، وقد بلغت مساحة هذه التوسعة (٣٥٠٠٠ متر مربع).

وفي عهد الملك خالد «رحمه الله» ، تم إيصال هذه المظلات إلى شارع المناعة ، وقد أُنيرت بالكامل ، وركبت بها المراوح ومكبرات الصوت ، وبلغت المساحة الإجمالية (٤٥٠٠٠ متر مربع).

وفي ١٤٠٦/١/١٩ هـ ، بدأت أعمال التوسعة السعودية الرابعة للمسجد النبوي الشريف بأمر خادم الحرمين الشريفين الملك «فهد بن عبدالعزيز» حفظه الله ، فنزعت الملكيات





● مكتبة الملك عبدالعزيز في المدينة المنورة ●

وهدمت المباني القائمة في مناطق الرومية، والسنبلية، وقد تم بفضل الله تعالى، تنظيف المنطقة لتنفيذ مباني هذه التوسعة .

وللحرم النبوي الشريف حالياً ، أربع مآذن ، اثنتان منها حديثتان ، تم بناؤهما في التوسعة السعودية الأولى، ارتفاع كل واحدة منها (٧٢ متراً)، ويخطط حالياً لإقامة ست مآذن ، ارتفاع كل منها (٩٢ متراً)، ليصبح المجموع عشر مآذن ، بعد استكمال التوسعة .

ومداخل الحرم النبوي ثمانية، بها ستة عشر باباً ، وبعد التوسعة سيصبح له (٢٥ مدخلاً)

بها (٦٥ باباً) ، كما سيتم انشاء (١٨ سُلمًا) تؤدي إلى سطح مباني التوسعة لتسهيل وصول المصلين إلى السطح ، وسيتم أيضاً تركيب ستة سلام كهربائية متحركة ، وسيبسط سطحه الذي ستبلغ مساحته (٦٧٠٠٠ متر مربع) تتسع لتسعين ألف مُصل .

وقد تضمن مشروع التوسعة الأخيرة توفير الخدمات اللازمة للحرم النبوي الشريف ، فسينفذ طابق بدروم كامل أسفل مباني التوسعة الحالية بمساحة (٧٨٠٠٠ متر مربع) للتجهيزات ولسائر الخدمات ، بما في ذلك وسائل تلطيف الجو ، وسيكون لهذا البدروم ثمانية مداخل رئيسية تسهل عمليات التشغيل والصيانة اللازمة .

كما شمل المشروع تطوير المنطقة المحيطة بالمسجد النبوي الشريف ، بحيث يكون هناك طابق أرضي وطابق سفلي . ويشتمل الطابق الأرضي على مساحات للمصلين في حدود (٢٤٠٠٠٠ متر مربع) ، كما تشتمل على (٤٤٤ محلاً تجارياً) تبلغ مساحة المحل الواحد منها خمسين متراً مربعاً ، إلى جانب مواقف لسيارات كبار الزوار ، تتسع لأكثر من ٢٧٠ سيارة .

أما الطابق السفلي ، فسيتم توسيع لحوالي ٣٧٢٥ سيارة وسيشتمل على ٤٥٢٠ وحدة للضوء ، ١٨٠٨ وحدة مغاسل ، ٤٥٢ مرحاض ، ١١٣ مرش ، كما سيتم تأمين ٣٤ سُلمًا كبيراً لتسهيل حركة الزوار في الصعود والنزول ، ٩٦ سُلمًا صغيراً .

إن مشروع خادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبدالعزيز المفدى ، لتوسعة وعمارة المسجد النبوي الشريف ، الذي يجري العمل في تنفيذه الآن ، يعتبر من أضخم وأهم المشروعات في المدينة المنورة ، باعتباره أكبر توسعة يشهدها الحرم النبوي عبر تاريخه ، حيث ستتضاعف مساحته أربعة أمثال المساحة الحالية ، وستألفق مدينة الرسول عليه الصلاة والسلام حضارياً بما يسر كل مسلم ويفرح كل مؤمن يخفق قلبه بحب هذه الرحاب الطاهرة .





المدينة

المنورة

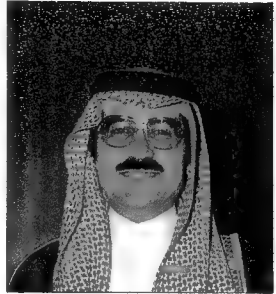






عقد اجتماع لرؤساء مراكز الأبحاث في الدول الإسلامية لبحث امكانية التعاون بينها. فقد طلبت المؤسسة الإسلامية للعلوم والتكنولوجيا والتنمية عقد هذا الاجتماع في المملكة العربية السعودية.

وإيماناً من المملكة بأهمية مثل تلك الاجتماعات في المساهمة في تقدم الأمة الإسلامية وتطورها فقد رحبت بعقدته في عاصمتها الرياض واستضافة مدينة الملك عبدالعزيز للعلوم والتقنية له بالتعاون مع المؤسسة الإسلامية للعلوم والتكنولوجيا والتنمية (افستاد).



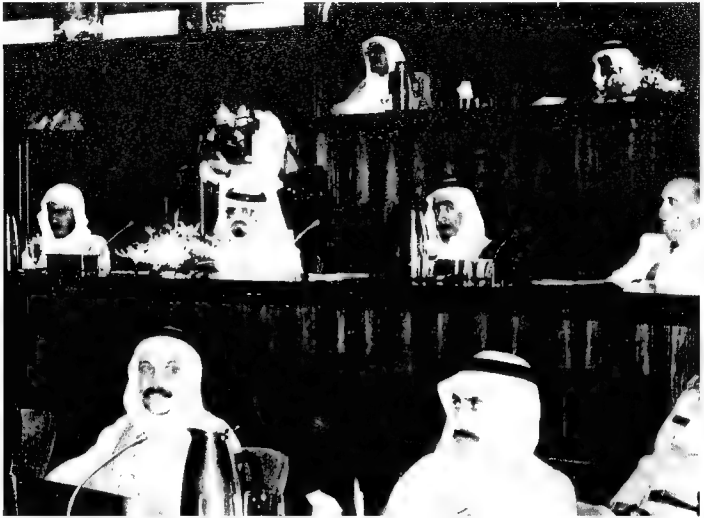
سمو الأمير سلطان بن عبدالعزيز نائب أمير منطقة الرياض.

وقد تم عقد هذا الاجتماع خلال الفترة ٢٣ - ٢٥ محرم ١٤٠٧هـ الموافق ٢٧ - ٢٩ سبتمبر ١٩٨٦م والذي يهدف إلى إيجاد أرضية راسخة لأوجه التعاون في مجالات البحوث العلمية ومتطلباتها ووضع تصور واضح في كافة قضايا البحث العلمي التي تهم الدول الأعضاء في منظمة المؤتمر الإسلامي بما يكفل عدم الازدواجية في المواضيع ذات الاهتمام المشترك توفيراً للجهد والوقت والمال.

وقد اشتمل برنامج الاجتماع الأول

الاجتماع الأول لرؤساء مراكز الأبحاث في الدول الإسلامية

بناء على القرار الصادر عن اللجنة الدائمة للتعاون العلمي والتكنولوجي المنبثقة عن منظمة المؤتمر الإسلامي بشأن



● جانب من ضيوف الندوة. ●

٢ - مناقشة توصيات المؤتمر الأول «المؤتمر
تنسيق التكنولوجيا في البلدان الإسلامية»
(CCT-1) وقرارات الاجتماع الأول للجنة
المتابعة.

٣ - مراجعة ودراسة سياسات وأهداف

لرؤساء مراكز الأبحاث في الدول الإسلامية
على ما يلي:

١ - طرق ووسائل تنفيذ برامج منظمة
المؤتمر الإسلامي - لجنة التعاون العلمي
والتكنولوجي (كومستك) (COMSTECH).

المؤسسة الإسلامية للعلوم والتكنولوجيا والتنمية (افستاد).

٤ - الطرق النظامية للتعاون بين مراكز الأبحاث في الأقطار الإسلامية. هذا وقد اختتم الاجتماع جدول أعماله في يوم الاثنين ١٤٠٧/١/٢٥هـ والذي دام لمدة ثلاثة أيام وأصدر التوصيات التالية:

١ - ربط المؤسسة الإسلامية للعلوم والتكنولوجيا والتنمية (افستاد) باللجنة الوزارية الدائمة للتعاون العلمي والتكنولوجي ويتكون مجلسها العلمي من ممثلين رسميين للدول الأعضاء.

٢ - زيادة التفاعل وخاصة على مستوى مراكز الأبحاث بالدول الأعضاء بمنظمة المؤتمر الإسلامي وذلك بأن يضم اتحاد مراكز الأبحاث العالمية للدول الإسلامية كافة المؤسسات الأعضاء المشتركين في الشبكة المتخصصة التي يتم انشائها تحت مظلة اللجنة الوزارية الدائمة للتعاون العلمي والتكنولوجي المنبثقة عن منظمة المؤتمر الإسلامي.

٣ - عقد اجتماع لرؤساء مراكز الأبحاث في الدول الأعضاء بمنظمة المؤتمر الإسلامي

مرة كل عامين.

٤ - تقوم المؤسسة الإسلامية للعلوم والتكنولوجيا والتنمية بإعداد ورقة عمل بالمعايير التي يتم على أساسها إنشاء مكاتب إقليمية للمؤسسة. وتقديم تقرير إلى الاجتماع القادم لرؤساء مراكز الأبحاث في الدول الإسلامية حول هذا الموضوع.

هذا ومن الجدير ذكره أن جميع هذه التوصيات سترفع إلى اللجنة الوزارية الدائمة للتعاون العلمي والتكنولوجي والتي يرأسها فخامة الرئيس محمد ضياء الحق رئيس جمهورية باكستان الإسلامية في اجتماعها القادم خلال شهر نوفمبر ١٩٨٦م في اسلام اباد واللجنة بدورها سترفع مريثاتها إلى مؤتمر قمة منظمة المؤتمر الإسلامي والذي سيعقد في دولة الكويت خلال شهر يناير ١٩٨٧م لاتخاذ ما يراه مناسباً.

- الأستاذ عبدالله حمد الحقييل الأمين العام للدارة.

- الأستاذ حمد عبدالرحمن العمرو مدير الوثائق بالدارة.

- الأستاذ عبدالله ابراهيم الحقييل مدير العلاقات العامة بالدارة.



● صاحب السمو الملكي الأمير سلمان بن عبدالعزيز وأعضاء لجنة مؤسسة الملك عبدالعزيز الإسلامية . ●

الرياض، والأمين العام للجنة التحضيرية المكلفة بوضع مشروع النظام الأساسي للمؤسسة لاستكمال مناقشة وصياغة النظام الذي سيرفع إلى اللجنة العليا للمؤسسة برئاسة صاحب السمو الملكي الأمير

● الثلاثاء (١١ صفر ١٤٠٧هـ - ١٤/١٠/١٩٨٦م) اختتمت اللجنة الفرعية لمؤسسة الملك عبدالعزيز الإسلامية، اجتماعاتها برئاسة صاحب السمو الملكي الأمير «سلمان بن عبدالعزيز»، أمير منطقة



- معالي الدكتور/ عبدالله بن عبدالمحسن
التركي مدير جامعة الامام محمد بن سعود
الإسلامية.

- معالي الشيخ/ صالح الحصين.
- معالي الدكتور/ أحمد محمد علي .
- سعادة الأستاذ/ محمد حسين زيدان .
- سعادة الأستاذ الدكتور/ عبدالله الصالح
العثمينة .

- وسكرتارية الأستاذ محمد بن عبدالله
الحمدان .

«سلطان بن عبدالعزيز» النائب الثاني
لرئيس مجلس الوزراء ووزير الدفاع
والطيران والمفتش العام، ومن ثم يرفع هذا
التقرير للعاهل السعودي خادم الحرمين
الشريفين الملك فهد بن عبدالعزيز «حفظه
الله» لاقراره.

وقد حضر الاجتماع أعضاء اللجنة
وهم :

- سمو الأمير الدكتور/ تركي بن محمد بن
سعود الكبير .

الوزن والشعر

د. عثمان مواني

وهذا لا يتحقق بين عشية وضحاها، ولكنه يستغرق وقتاً وزمناً ليس بالقليل. فمن المعروف أن التطور الحضاري، الذي يمر الجانِب المادي من الحياة أسرع خطى من التطور الوجداني.

ومن ثم فليس من الصواب أن نتهم فنّاء أديباً كالشعر مثلاً بالتخلف لأنه تأخر عن اللحاق بركب التطور الحضاري والإجتماعي في عصر من العصور^(١). وليس من المعقول أن نتهمه كذلك بالجمود^(٢) لأنه حافظ على بعض الأسس

يبدو أن كثيراً من الانتكاسات التي تصيب حركة تطور الفنون الأدبية وتجديدها، مردها غالباً إلى سوء فهم بعض دعاة التطور والتجديد، لطبيعة هذا التطور وحدوده.

والتأمل الفطن لتاريخ الأمم والشعوب، وتطورها الحضاري والاجتماعي، يلحظ أن تطور الفنون الأدبية، مرتبط أوثق ارتباط بتطور الذوق العام، وما يمس وجدان الأمة، من تغير وتكيف مع الظواهر الحضارية الجديدة.

والمقومات الفنية، التي ورثها، من عصور بعيدة، ولا يزال مستمسكاً بها حتى الآن.

لأن هذا يدل في الواقع على عراقتها، كما يعد شاهداً على أصالة هذا الفن لا على جوده.

وعلى أية حال فمع إيماننا بتطور الفنون الأدبية وتجديدها، تبعاً لتطور ذوق العصر ووجدانه، فإننا نرى أن لكل تطور حداً لا ينبغي أن يتجاوزه وإطاراً لا ينبغي أن يجيد عنه.

فإذا أدى التطور أو التجديد، إلى هدم مقوم أساسي من مقومات فن أدبي ما، أو طمس معالنه، فلا يعقل أن يعد هذا تطوراً، بل مسخاً وتشويهاً لشخصية هذا الفن، وإفساداً للذوق أصحابه.

أقول هذا بعد أن كثر حديث الأدباء والنقاد في أيامنا هذه، عما أفرزه الشعر المعاصر، من نوع من الشعر متحلل من الوزن والقافية يطلق عليه اسم قصيدة النثر^(٣).

والواقع أن محاولة كتابة الشعر في شكل

فني متحرر من الوزن والقافية ليست جديدة على حياتنا الأدبية المعاصرة، فقد سبقتها محاولات في مطلع القرن العشرين، مثل محاولة أمين الريحاني وبعض شعراء المهجر كتابة الشعر المشور^(٤).

وقد تزامنت مع هذه المحاولة دعوة بعض الأدباء ورواد النهضة الأدبية الحديثة، إلى التحرر من الوزن والقافية.

ويتضح هذا من قول صاحب ثروة الأدب (ليس القصد من الشعر في رأينا هو هذه الأبيات الفذة، وليس هو محاكاة الأقدمين).

وإنما القصد من الشعر، إبراز فكرة، أو صورة، أو احساس، أو عاطفة يفيض بها القلب في صيغة متسقة من اللفظ تخاطب النفس^(٥).

ودعوة ميخائيل نعيمة إلى النظر إلى الوزن، على أنه شيء ثانوي، يلي من حيث الأهمية المضمون الشعري، وصلته بوجودان قائله.

(فلا الأوزان ولا القوافي من ضرورة

لا إلغائه، وتوزيع الإيقاع الصوقي داخل القصيدة توزيعاً جديداً، يقوم أساساً على وحدة التفعيلة، لا على وحدة البيت، مع تعدد القوافي أحياناً أو التزام قافية واحدة^(٩). ولو أمعنا في النظر إلى حركات التجديد، التي تناولت الشعر العربي قبل حركة شعراء مدرسة الشعر الحر، منذ العباسيين والأندلسيين، وانتهاء بحركة البعث في العصر الحديث على يد البارودي وتلاميذته، وما تلاها من حركات أخرى مثل حركة شعراء مدرسة الديوان، لأدركنا أن ما أحدثته من تجديد في موسيقى الشعر، لم يؤد إلى إلغاء الوزن تماماً، حيث انحصر غالباً في تنويع القافية مع الإبقاء على الوزن.

وعلى أية حال، فإذا كانت حركات التجديد في الشعر العربي، عبر تاريخه الطويل قد وقفت من الوزن هذا الموقف، ولم يحاول روادها إسقاطه فهل هناك من تحليل أو تفسير لذلك؟؟

إن أوجز ما يقال هنا، هو أن هذا الموقف يدل دلالة واضحة على أن الوزن شيء ضروري للشعر.

الشعر، كما أن المعابد والطقوس ليست من ضرورة الصلاة والعبادة.

قرب عبارة نثرية جميلة التنسيق موسيقية الرنة، كان فيها من الشعر أكثر مما في قصيدة من مائة بيت^(١٠).

وشبيه هذا قول جميل صدقي الزهاوي، ملمحاً إلى هذه الناحية (ولا أرى للشعر قواعد، بل هو فوق القواعد، حر لا يتقيد بالسلاسل والأغلال، وهو أشبه بالأحياء في اتباعه سنة النشوء والارتقاء)^(١١).

والواقع أن الذوق العام، لم يسغ آنذاك مثل هذا اللون من الشعر، ويبدو هذا بشكل واضح من موقف ذوي الأصالة من النقاد آنذاك، من قضية إسقاط الوزن من الشعر، وتفنيدهم مزاعم أولئك الذين يدعون إلى إسقاط هذا العنصر الموسيقي الأصيل من الشعر^(١٢).

يضاف إلى ذلك أن بعض ذوي الفطنة من رواد الشعر الحر، مثل نازك وصلاح والسياب، لم يغفلوا هذا العنصر الموسيقي في أشعارهم، فأنحصر تجديدهم في تطويره

وهلة، فإن كثيراً من أشعار الأمم تكتسب صفتها الفنية بمصاحبة فن آخر كالغناء والرقص والحركة على الإيقاع.

ولكن النظم العربي، فن معروف المقاييس والأقسام، بعد استقلاله عن الغناء والرقص والحركة الموقعة، فلا يصعب تميزه شطرة شطرة بمقياسه الفني من البحور والأعاريض إلى الأوتاد والأسباب^(١٣).

ويرجع العقاد أصالة الوزن في الشعر العربي إلى عاملين، هما: الغناء المنفرد، وبناء اللغة العربية على الأوزان^(١٤).

وإن التأمل الواعي لوجهات نظر النقاد العرب القدامى في تحديد مفهوم الشعر، منذ قدامة بن جعفر في القرن الرابع الهجري، حتى ابن خلدون في القرن الثامن، يدرك أنهم يؤكدون في تعريفهم له، هذه الناحية الموسيقية^(١٥).

ويكاد يتفق معهم في ذلك بعض ذوي الأصالة من النقاد العرب المعاصرين وبنوع خاص، أولئك الذين حملوا لواء النهضة الأدبية في مطلع القرن العشرين الميلادي، يستوي في ذلك المجددون منهم،

فهو عنصر من عناصره الأصلية، التي لا تستقيم حياة هذا الفن بدونها.

ويؤكد هذه الحقيقة قول ابن رشيق القيرواني (الوزن أعظم أركان الشعر وأولها به خصوصية)^(١٦).

وقول ابن سنان الخفاجي مشيراً، إلى أن الوزن هو صفة الشعر الأصلية التي تميزه من غيره من الفنون الأدبية الأخرى كالنثر مثلاً (فالفرق بين الشعر والنثر بالوزن على كل حال، وبالتقفية، إن لم يكن المنشور مسجوعاً على طريق القوافي الشعرية)^(١٧).

وإلى هذا يذهب ابن خلدون^(١٨).

ويرى بعض رواد الحركة الأدبية والنقدية الحديثة «كالعقاد» أن الوزن أخص خصائص الشعر العربي بالذات، وألزم لزومياته لارتباطه به منذ نشأته.

ويبدو هذا واضحاً من قوله (نظم الشعر فن مستقل بذاته بين الفنون التي عرفت في العصر الحديث بالفنون الجميلة، وتلك مزية نادرة جداً بين أشعار الأمم الشرقية والغربية، خلافاً لما يبدر إلى الخاطر لأول

والمحافظون^(١٦).

العاطفة الثائرة، وذلك عن طريق فرض نظام عليها، أو وحدة موسيقية تتكرر بشيء من النظام^(٢٠) ويرى أن الوزن يؤثر على السامع تأثير المخدر أو المنوم، إذ يبدو أحياناً منوماً أو مخدراً له^(٢١).

ومن اللافت للنظر أن «أرسطو» الذي يعد أول من وضع نظرية في نقد الشعر أكد هذا، وهو بصدد عرض نظريته المحاكاة، وذكر أن أخص ما يميز الشعر صفتان، هما الوزن والمحاكاة^(١٧).

ويتفق الناقد الانجليزي ريشاردز مع كولردج في موقفه من الوزن وأهميته للشعر، ويرى أن أهميته تتعدى هذه الناحية، وكذا التلذذ الصوتي، إلى ناحية أبعد من هذا كله، وذلك لأنه يعكس شخصية الشاعر، ويصور انفعاله وحالته النفسية والشعورية.

ومع أن الأدب الأوروبية، تخلو بعض فنونها الشعرية من هذا العنصر الموسيقي، حتى إن بعض نقادهم يسقطه من تعريفه للشعر^(١٨)، فإن بعض ذوي الفطنة من نقادهم المحدثين، يعد الوزن عنصراً هاماً من عناصر الشعر، وضرورة من ضروراته.

يقول (فليس الايقاع مجرد تلاعب بالمقاطع وإنما هو يعكس الشخصية بطريق مباشر، وهو لا يمكن فصله عن الألفاظ التي تكونه، والنغم المؤثر في الشعر، لا يصدر إلا عن دوافع قد انفعلت انفعالاً صادقاً)^(٢٢).

ويبدو هذا واضحاً من قول «كولردج» (إن الوزن هو الشكل المميز للشعر وصفته الجوهرية)^(١٩).

ويكاد يتفق مع رتشاردز في هذا بعض ذوي الحسن المرهف من نقادنا المعاصرين، مثل مندور، إذ يرى أن موسيقى الشعر، تعد وسيلة من وسائل التعبير والابحاء.

ويرجع ذلك إلى ناحية نفسية وشعورية، تتعلق بعملية الابداع الفني، إذ أنه يحدث نوعاً من التوازن بين جموح العاطفة ومحاولة السيطرة عليها. فهو «ينبع من حالة التوازن في النفس التي توجد نتيجة الصراع بين نزعتين متضابرتين أولاهما: إطلاق العاطفة المشبوبة. والثانية : هي السيطرة على هذه

ويبدو هذا واضحاً من قوله (وموسيقى الشعر، ليست تطريباً فحسب بل هي

والإفاضة، أحد نقادنا المتأخرين، وهو حازم القرطاجني الذي لاحظ أن أغراض الشعر تتباين حسب مقاصدها، فمنها ما يقصد به الجدد، ومنها ما يقصد به الهزل، ومنها ما يقصد به التعظيم، ومنها ما يقصد به التحقير.

وقد أدى به هذا إلى دراسة الخصائص الصوتية لأوزان الشعر، وإلى تصنيفها حسب شدتها ولينها، وضعفها وقوتها إلى أصناف، ويلخص هذا قوله (ومن تتبع كلام الشعراء في جميع الأعراب، وجد الكلام الواقع فيها، تختلف أنماطه بحسب اختلاف مجاريها من الأوزان، ووجد الافتتان في بعضها أعم من بعض فأعلاها درجة في ذلك الطويل والبسيط، ويتلوها الوافر والكامل ويتلو الوافر والكامل عند الناس الخفيف).

فأما المديد والرمل، ففيهما لين وضعف.

فأما المنسرح ففي أطراد الكلام على بعض اضطراب وتقلقل، وإن كان الكلام فيه جزلاً. فأما السريع والرجز ففيهما

وسيلة من وسائل التعبير والإيحاء، لا تقل أهمية عن التعبير اللفظي بل لعلها تفوقه.

ذلك لأن موسيقى الشعر هي التي تخلق الجو، وهي التي توحى بالظلال الفكرية والعاطفية بكل معنى، وقد تكون تلك الظلال، أكثر فاعلية في النفس من المعنى المجرد، بحيث يعتبر ضعف الموسيقى في الشعر انقاصاً شديداً من قدرته على التعبير والإيحاء^(٢٣).

وعلى أية حال، فإن تنبه هؤلاء النقاد المعاصرين إلى ارتباط الوزن بالحالة النفسية والشعورية للشاعر، يعد ملاحظة جديدة بالاعتبار وإن كان هذا ليس وليد الفكر النقدي في العصر الحديث، بل يرجع إلى أزمان بعيدة.

فقد سبق أن لاحظ أرسطو هذا، وأشار إليه وهو بصدد الحديث عن نظريته المحاكاة^(٢٤)، ونقل هذا عنه بعض شراحه من الفلاسفة المسلمين مثل الفارابي، وابن سينا، وابن رشد^(٢٥):

وقد تناول هذا الموضوع بشيء من البسط

الايقاع. وهي لا تعد ضابط ايقاع في البيت وحده، بل في القصيدة كلها. وذلك لأنها تعد عنصراً موحداً لأجزاء الايقاع، في القصيدة الموحدة القافية بنوع خاص.

ومن المعروف أن القصيدة العربية القديمة تبنى غالباً على قافية موحدة. وهذا يفسر لنا سر استهجان الذوق العربي خروج القافية في أي بيت شعري على التناسب النغمي والصوتي للوزن والإيقاع.

ونظر إلى ذلك على أنه عيب من العيوب التي يؤاخذ عليها الشاعر.

وقد حظيت هذه الظاهرة بدراسات كثيرة من نقادنا القدماء، ومن كثير من العرويين.

ومن يراجع مثلاً، دراساتهم حول الأقواء والسناد والإبطاء والزحاف... يتضح له صدق ذلك^(٣٠).

وعلى أية حال، فما دامت القافية مرتبطة بالوزن أوثق ارتباط على النحو الذي رأيناه فلا شك أنها تتأثر بما يتأثر به الوزن من

كزازة، فأما المتقارب فالكلام فيه حسن الاطراد، إلا أنه من الأعاريض الساذجة المتكررة الأجزاء^(٣١).

ومهما يكن من أمر، فإن الوزن الشعري، لا يتحقق له أداء وظيفته على الوجه الأكمل، إلا بحدوث نوع من الانسجام الصوتي بين أجزاء الايقاع، التي يتألف منها الوزن الشعري^(٣٢).

ولذا فإن أي خلل، يعترى أي جزء من الايقاع، يؤدي لامحالة إلى اختلال الوزن وانكساره.

ولقد أدرك النقاد العرب القدماء، أن القافية جزء أساسي من الوزن فهي شريكته في الاختصاص كما يقول بعضهم.

وهو الجالب لها ضرورة ومشمئل عليها^(٣٣).

وذلك لأنها تتحكم في ضبط الايقاع واتزانه في آخر كل بيت شعري، ولذا أطلقوا عليها اسم حافر الشعر^(٣٤).

وإن كنت أميل إلى تسميتها بضابط

انفعال الشاعر وحالته النفسية والشعورية.

ولكي تتضح لنا هذه الحقيقة علينا أن نأخذ نصين من غرضين مختلفين ولشاعرين متباينين زمنياً، أحدهما عباسي مثلاً، والآخر من العصر الحديث.

والنص العباسي لأبي تمام، من رائيته في مدح المعتصم، والتي استهلها بوصف مقدم الربيع قائلاً :

رقت حواشي الدهر فهي تمرمر
وغدا الثرى في حليه يتكسر
نزلت مقدمة المصيف حميدة
ويد الشتاء جديدة لا تكفر
لولا الذي غرس الشتاء بكفه
لاقى المصيف هشائماً لا تثمر
أضحت تصوغ بطونها لظهورها
نورا تكاد له القلوب تنور^(٣١)

أما النص الثاني، فهو لأبي القاسم الشابي من قصيدته النبی المجهول والتي استهلها بقوله :

أيما الشعب ليتني كنت حطاً
با فأهوى على الجملوع بفأسي

ليتني كنت كالسيول إذا ساء
لت تهد القبور رسماً برمس
ليتني كنت كالرياح فأطوى
كل ما يثقت الزهور بنحى
ليتني كنت كالشتا أغشى
كل ما أذبل الحريف بفربي
ليت لي قوة العواصف ياشم
بها فالتقى إليك ثورة نفسي
ليت لي قوة الأعاصير لكن
أنت حي يقضى الحياة برمس^(٣٢)

وبتأملنا النص العباسي جيداً، نلاحظ أن الشاعر يبدو من خلال مطلعته فرحاً بقدم الربيع، ومبتهجاً بجمال الطبيعة من حوله.

إذ يحس أن كل شيء يبدو في الطبيعة رطباً، ورقيقاً ناعم الملمس، حتى النبات يكاد لما أصابه من رقة الجوى يتكسر في الثرى الرطب.

ولذا فهو يثني ويتأيل، وتبدو الحياة أمام الشاعر رقيقة على هذا النحو. ويجب أن نضع في الاعتبار، أن مطلع القصيدة عند ذوى الصدق الفني من الشعراء الأفاضل، هو المفتاح الحقيقي لفهم تجربة الشاعر في

الوزن والشعر

عن الحالة النفسية، التي يسودها الفرح والانطلاق.

أما عن القافية فقد جاءت الراء المضمومة حرف روى لها، معبرة عما انطبع في مخيلة الشاعر من صور لبعض مظاهر الطبيعة في هذه الفترة من السنة كهذا التمايل والتثنى، الذي يبدو على النباتات والأغصان، وكأنه يرسم حرف راء.

ويبدو أن تأثيره الشديد بهذه الصورة، دفعه لاشعورياً إلى استعمال الراء في أول بيت أربع مرات.

أما عن حركة الضم التي فوق الراء فيبدو أنها لم تأت عفواً، بل جاءت منسجمة مع ما يحس الشاعر، وما انطبع في مخيلته من صور، لتثنى النباتات وتقوسها ويظهر هذا جلياً من استدارة الفمّ حال نطقه لهذه الحركة، وكأنه يرسم راءين متصلتين.

وما هو جدير بالملاحظة، أن أثر هذه الحالة النفسية، التي انتابت هذا الشاعر، تعدى هذه الناحية الموسيقية، إلى شكل هذه القصيدة وإلى بنائها الفني.

فقد بدأ هذه القصيدة بداية مخالفة لبداية

القصيدة، والاحساس الذي يغلب عليها^(٣٣).

وإذا كان مطلع هذه القصيدة يوحي، بأن الاحساس الذي يستحوذ على الشاعر هنا، هو الفرح لمقدم الربيع، وجمال الطبيعة في هذه الفترة من السنة، الذي مبعثه رقة الجو والطبيعة بل الحياة.

فهل لهذا أثر على وزن الشاعر وقافيته؟؟

في الحقيقة إن هذا الشعور، قد انعكس على وزن الشاعر وقافيته كذلك فجاء الوزن لدينا ناعم الملمس.

فهو من بحر الكامل، الذي يوصف من ناحية خصائصه الصوتية باللدونة والسباطة^(٣٤)، أي النعومة والرفقة، وذلك لكثرة متحركاته.

وهو من الأوزان البسيطة المكونة من تفعيلة واحدة^(٣٥)، وهي متفاعلة متكررة ثلاث مرات، فهو سهل التأليف والنطق.

ويعد من أنسب البحور الشعرية تعبيراً

عند نهاية كل بيت، وكأن مبعث هذا،
احساس الشاعر باليأس، وذهاب جهوده
من أجل ايقاظ شعبه من سباته العميق،
أدراج الرياح.

ولذا نجده، يعلن بعد ذلك بأبيات عن
يأسه، واعتزامه الحرب إلى الغاب، متمنياً
قضاء مابقى من عمره هناك، بعيداً عن
شعبه.

ويبدو أن حالة الشاعر النفسية، بما
يعترتها من اضطراب، وغضب ويأس قد
انعكست على وزنه وقافيته.

فجاء الوزن من بحر الخفيف، الذي
يتألف من ثلاث تفعيلات، أولاهما:
خماسية - فاعلاتن -، وثانيهما: سباعية -
مستفعلن -، أما الثالثة فهي تكرار للأولى
- فاعلاتن -.

وهذا البحر لا يلتزم نمطاً ايقاعياً واحداً،
كنمط البحر الكامل في النص السابق. وإنما
يلتزم نمطاً ايقاعياً متنوعاً، يجمع بين التغير
في الوسط والتناثر في نهاية الشطر.

القصيد القديمة، التي كانت تبدأ غالباً
بمقدمة طللية أو غزلية، إذ بدأها بوصف
الربيع، واستغرق الوصف جزءاً كبيراً من
القصيد، ويبدو أن اعجابه بجمال الطبيعة،
هو الذي دفعه إلى هذا، وكاد يطغى على
الغرض الرئيسي وهو مدح الخليفة، ويظهر
أن الشاعر أحس بهذا، فانتقل من الوصف
إلى المدح انتقالاً لطيفاً. حيث ربط بين خلق
الربيع، وخلق الخليفة، وازدهار الطبيعة
وازدهار عدل الخليفة^(٣٦).

هذا عن النص العباسي، أما عن النص
الحديث، فيظهر من مطلعه، احساس
شاعره بالحسرة والألم، نظراً لتنكر شعبه
لشعره وشاعريته ولذا نجده يثور على
شعبه، ويتوعده بالويل والدمار، متمنياً أن
يصبح حطاباً كي يتمكن من اقتلاع شجرة
الفساد، التي ضربت بجذورها في أرض
شعبه.

وانفعال الشاعر يعلو شيئاً فشيئاً، للدرجة
أننا نشعر أحياناً أنه يضغط على أسنانه
متوعداً ومهدداً.

ولكن سرعان ما نجد هذا الانفعال يخفت

الوزن والشعر

أما عن حركة الكسر التي تحت السين، فيبدو أنها قد جاءت هي الأخرى مصورة هذا الانكسار النفسي، الذي يتتاب الشاعر.

ومهما يكن من أمر، فهذا يدلنا دلالة قاطعة، على أن أهمية القافية، لاتقل عن أهمية الوزن في الصياغة الشعرية.

ومن ثم، فإن اسقاطها يخل اختلالاً كبيراً بوظيفة الوزن. وهذا يفسر لنا، سر تراجع بعض رواد الشعر الحر عن دعوتهم إلى اغفال القافية، التي نادوا في بداية حياتهم الشعرية بالتححرر منها ثم عادوا بعد ذلك، وطالبوا بالتمسك بها.

ويتضح هذا من موقف نازك الملائكة إزاء هذه القضية. ففي أول عهدها بكتابة الشعر الحر، كانت تدعو إلى التخلص من القافية ومصادقا لهذا قولها آنذاك (إن هذه القافية تضيء على القصيدة لونا رتيلاً، فضلاً عما تثيره في النفس من شعور بتكلف الشاعر وتصيد له للقافية)^(٣٩).

ولكنها عدلت عن هذا الرأي بعد

وهذا التنوع الایقاعي، يلائم في رأي، تنوع درجات انفعال الشاعر وغضبه، بين الارتفاع والانخفاض.

يضاف إلى ذلك تضمن هذا البحر، سواكن متوالية في بعض تفاعيله مما يضفي عليه مسحة من الكزازة والحدة^(٣٧).

وهذا يتلاءم وحالة الشاعر النفسية، التي تحدثنا عنها آنفاً. أما عن القافية فقد جاءت السين المكسورة حرف روى لهذه القصيدة. ومن المعروف أن حرف السين من حروف الصفير، التي تنسل من الفم هاربة وهو شبه مغلق.

وهذا يحدث غالباً لأولئك الذين يحسون بشيء من الاعياء الجسدي أو النفسي، فقد يتعذر عليهم نطق بعض الكلمات أو الحروف، التي تحتاج لجهد عضلي^(٣٨).

أما التي لا تحتاج لمثل هذا الجهد، كبعض حروف الصفير، فقد ينسل بعضها هارباً، مع التهذات والآهات، التي تخرج بكثرة من أفواه أولئك الذين يشعرون بهذه الحالة النفسية.

تغير الاستجابة الشعورية وهذا لا يحدث بسرعة، بل يحتاج لوقت.

ولذا فقد يتغير الإيقاع، وتأخر الاستجابة الشعورية عن اللحاق به إذ عندما تنهياً لذلك، تجد نفسها أمام إيقاع جديد.

ومن ثم، يحدث انفصام شعوري، بين السامع أو المتلقى، وبين النص الشعري. أما القافية الموحدة لأنها تؤدي مع وحدة الوزن، إلى وحدة نغمية عامة في النص كله.

وتشد انتباه السامع أو المتلقى، فيظل متجاوباً معها حتى النهاية. وأعتقد أن هذا، هو سر إحساسنا بجمال موسيقى شعرنا العربي ذي الوزن الواحد، والقافية الموحدة، الذي ظل محافظاً على هذا العنصر الموسيقي، طوال هذه القرون الكثيرة.

وهذا خير شاهد على عراقة وأصالته.



مارستها الطويلة لكتابة الشعر الحر واكتشافها أن القافية ركن أساسي من أركان موسيقى الشعر. ويبدو هذا جلياً من قولها (والحقيقة أن القافية ركن مهم في موسيقى الشعر الحر لأنها تحدث رنيناً، وتثير في النفس أنغماً وأصداء، وهي فوق ذلك فاصلة قوية بين الشطر والشطر. والشعر الحر، أحوج ما يكون إلى الفواصل بعد أن أغرقوه بالنثرية الباردة)^(٤٠) وعلى أية حال، فمما هو جدير بالملاحظة، أن أهمية القافية الموسيقية، على النحو الذي رأيناه لاتتأنى من القافية المتعددة، بل تتأنى من القافية الموحدة.

وذلك لأن تعدد القافية على مافيه من طرافة وتنوع، لا يترك سوى أثر موسيقى محدود في نفوس السامعين أو المتلقين.

ومرد هذا في رأي، إلى أن تنوع القافية وتغيرها، يؤدي إلى تنوع الإيقاع وتغييره، وهذا يتطلب تغير الاستجابة الشعورية للمتلقى أو السامع.

أي أنه كلما تغير الإيقاع استدعى هذا

- (٢٠) المرجع السابق ص ١٩٨.
- (٢١) مبادئ النقد الأدبي، لرتشاردز ص ١٩٨ - ١٩٩.
- (٢٢) العلم والشعر ص ٤٨ - ٤٩.
- (٢٣) الشعر المصري بعد شوقي ج ٣ ص ٣٨٥.
- (٢٤) فن الشعر، ترجمة عبد الرحمن بدوي ص ٣ - ١٣.
- (٢٥) فن الشعر لابن سينا ص ١٦٨.
- (٢٦) منهاج البلغاء ص ١٦٨.
- (٢٧) يختلف مفهوم الإيقاع عن مفهوم الوزن، فالمقصود بالإيقاع توالي المتحركات والسواكن في التفعيلة الواحدة، أما الوزن، فهو مجموعة من التفاعيل أو الإيقاعات المركبة معاً، راجع النقد الأدبي الحديث، لغنيمي هلال ص ٤٦٢.
- (٢٨) راجع العمدة ح ١ ص ١٢٤، ١٥١، ١٥٥، ١٥٩.
- (٢٩) راجع مفتاح العلوم ص ٢٣٨، العمدة ح ١ ص ١٥١ - ١٥٢، منهاج البلغاء ص ٢٧١.
- (٣٠) راجع طبقات فحول الشعراء ص ٦٠، والعمدة ح ١ ص ١٧٠، ومقدمة الموشح للمرزباني.
- (٣١) راجع ديوان أي تمام ص ٢ ص ١٩٤ - ١٩٥ ط: دار المعارف بمصر.
- (٣٢) راجع أغاني الحياة ص ١٠٢، الناشر، دار الكتب الشرقية بتونس.
- (٣٣) يراجع في قضية المطالع، المثل السائر لابن الأثير ج ٣ ص ٩٦، والعمدة ج ١ ص ٢١٤ - ٢١٧ وكتابتنا الخسومة بين القدماء والمحدثين ص ٢٤٦ - ٢٤٩.
- (٣٥) يقسم بعض النقاد المتأخرين أوزان الشعر العربي على قسمين، بسيطة ومركبة والبسيطة هي التي تتكون من تفعيلة واحدة - تكرر عدة مرات، أما المركبة فهي التي تتكون من تفعيلتين مختلفتين من ناحية الكم الصوتي - راجع منهاج البلغاء ص ٢٢٧ - ٢٣٠.
- (٣٦) راجع القصيدة كاملة في الديوان ج ٢.
- (٣٧) يرى بعض نقادنا المتأخرين أن توالي السواكن في أي وزن شعري يؤدي إلى الكثرة والجحود، راجع منهاج البلغاء ص ٢٦٧.
- (٣٨) راجع موسيقى الشعر ص ٣٢ - ٣٣.

- (١) يحزى هذا الاهتمام لبعض رواد الحركة الأدبية في مطلع القرن العشرين راجع ثورة الأدب ص ٥ هيكل.
- (٢) لمرجع السابق والصحيفة.
- (٣) من يروج هذا اللون من الشعر في الصحف والمجلات الأدبية، الشاعر المعاصر أدونيس.
- (٤) الاتجاهات الأدبية لأنيس المقدسي ص ٤٢١.
- (٥) ثورة الأدب هيكل ص ٥٢.
- (٦) الغرغال ص ٤٢٢.
- (٧) ديوان الزهاوي ط ص ٣.
- (٨) راجع حياة قلم للعقاد ص ٣١٦.
- (٩) راجع قضايا الشعر المعاصر لنازك ص ٩٨، وموسيقى الشعر لإبراهيم أنيس ص ١٥٣ وحركات التجسيد في موسيقى الشعر المصري ص ١٢٩ - ١٣٢.
- (١٠) العمدة ح ١ ص ١٣٤.
- (١١) سر الفصاحة ص ٢٧١.
- (١٢) المقدمة ص ٥٣٢.
- (١٣) حياة قلم ص ٢٧٤.
- (١٤) المرجع السابق ص ٢٨٤.
- (١٥) عرضت هذا الموضوع بإضافة في كتابي من قضايا الشعر والنثر في النقد العربي القديم راجع الفصل الأول، ماهية الشعر وماهية النثر ص ٢٢ - ٢٣ ط: الثانية.
- (١٦) راجع الفصل الأول من كتابي من قضايا الشعر والنثر في النقد العربي الحديث ص ٣٠٢ - ٣٣٢ ط: الثانية.
- (١٧) فن الشعر لأرسطو، ترجمة عبد الرحمن بدوي ص ١٢ - ١٣.
- (١٨) Encyclopaedia Britanica, Poetry.
- (١٩) كولردج لمصطفى يهودي ص ١٨.

(١٤) العملة في محاسن الشعر وآدابه ونقده ابن رشيق القيرواني/ تحقيق محي الدين الناصر: التجارية بالقاهرة.

(١٥) الغربال/ ميخائيل نعيمة (ضمن مجموعته الكاملة) ص ٣ ط: بيروت.

(١٦) فن الشعر/ أرسطو/ ترجمة عبد الرحمن بدوي/ الناشر: نهضة مصر بالقاهرة.

(١٧) قضايا الشعر المعاصر/ نازك الملائكة/ الناشر: دار الآداب بيروت ١٩٦٢م.

(١٨) كولريج/ مصطفى بدوي/ الناشر: دار المعارف بمصر.

(١٩) مبادئ النقد الأدبي/ ريتشاردز/ ترجمة: مصطفى بدوي/ الناشر: المؤسسة المصرية للتأليف والترجمة والنشر.

(٢٠) مفتاح العلوم/ السكاكي/ ط: التقدم بمصر.

(٢١) المثل السائر/ ابن الأثير/ ط: بولاق بالقاهرة.

(٢٢) مقدمته كتاب العرب/ ابن خلدون/ الناشر: دار الشعب بالقاهرة.

(٢٣) من قضايا الشعر والنشر في النقد العربي القديم/ د. عثمان مواني/ ط: الثانية: دار المعرفة الجامعية بالاسكندرية.

(٢٤) من قضايا الشعر والنشر في النقد العربي الحديث/ د. عثمان مواني/ ط: الثانية: دار المعرفة الجامعية بالاسكندرية.

(٢٥) منهج البلاغ/ حازم القرطاجني/ تحقيق أمين الخوجه/ الناشر: دار الكتب الشرقية بتونس.

(٢٦) موسيقى الشعر العربي/ د. ابراهيم أنيس/ ط: الأولى.

(٢٧) الموشح في مآخذ العلماء على الشعراء/ المرزباني/ ط: السلفية بالقاهرة.

(٢٨) النقد الأدبي الحديث/ د. محمد غنيمي هلال/ الناشر: دار نهضة مصر.

(٢٩) Encycloepdia Britanica Poetry

(٣٩) مقدمته شظايا ورماد ص ١٦.
(٤٠) قضايا الشعر المعاصر، لنازك الملائكة ص ١٦٣.

(مراجع البحث)

(١) أغاني الحياة لأبي القاسم الشابي/ ديوان شعر/ الناشر: دار الكتب الشرقية بتونس.

(٢) الاتجاهات الأدبية في العالم العربي المعاصر/ أنيس المقدسي/ الناشر: دار العلم ببيروت.

(٣) ثورة الأدب/ د. محمد حسين هيكل/ الناشر: النهضة المصرية، القاهرة ١٩٦٥م.

(٤) حركات التجديد في موسيقى الشعر العربي/ موريه/ ترجمة: سعد مصلوح، الناشر: عالم الكتب القاهرة ١٩٦٥م.

(٥) حياة قلم/ العقاد/ الناشر: دار الكتاب العربي بيروت ١٩٦٩م.

(٦) الخصومة بين القدماء والمحدثين في النقد العربي القديم/ د. عثمان مواني/ ط: الثانية، دار المعرفة الجامعية بالاسكندرية.

(٧) ديوان أي تمام/ تحقيق عبده عزام/ الناشر: دار المعارف بمصر.

(٨) ديوان الزهاوي، الناشر: دار العودة، بيروت ١٩٧٢م.

(٩) سر الفصاحة/ ابن سنان الخفاجي/ الناشر: الجانجي بمصر.

(١٠) شظايا ورماد/ ديوان شعر/ نازك الملائكة، الناشر: دار العودة، بيروت ١٩٧١م.

(١١) الشعر المصري بعد شوقي/ د. محمد مندور/ الناشر: دار نهضة مصر بالقاهرة.

(١٢) طبقات فنون الشعراء/ ابن سلام الجمحي/ تحقيق عمود شاكر/ ط: الثانية للنق بالقاهرة.

(١٣) العلم والشعر/ تأليف ريتشاردز/ ترجمة: محمد مصطفى بدوي/ الناشر: الاغلب المصرية.

« مجاز القرآن » لأبي عبيدة محاولة رائدة في مرحلة التأسيس

د. عباس أرحيلة

تمهيد :



أراد كل من النحو والبلاغة والتفسير أن يحتسب موضوع هذا الكتاب لنفسه. ولحق أن التنازع فيه نابع من عتواه، ومن طبيعة العصر الذي وضعت فيه أسس العلوم الإسلامية ودونت، ومن مكانة صاحبه في عصر شيوع التدوين. وهو عصر حرص على حفظ اللغة، والإحاطة بمسالكها في التعبير، حتى تواكب انصهار الأجناس غير العربية في بوتقة الشعب العربي: خاصة وأن الإسلام جعل اللغة العربية وسيلة عالمية لتبادل الفكر. ومع أن كتاب «مجاز القرآن» يستجيب للنحو والبلاغة والتفسير وغيرها من المعارف، وبرغم أنه لا يتوسّع في تشقيق البحوث البيانية؛ إلا أنه يُعدُّ مرحلة

أولى في الكشف عن إعجاز القرآن وبيان بلاغته، كما أنه شكل الاتجاه العام الذي كان يسيطر على الباحثين في النص الديني المعجز ليبيان مافيه من وجوه التجوُّز في نهاية القرن الثاني.

١ - صاحب كتاب «مجاز القرآن» :

أثير جدل كثير حول أبي عبيدة (معمربن المثني) قديماً وحديثاً لما تميّزت به شخصيته من أصالة وخطورة، انطلاقاً من مساهمته في مجال الدرس القرآني. وإن المتمعن في سيرة الرجل تنكشف له خلفيات هذا الجدل: أ- فأبو عبيدة فارسي الأصل، تعصّب لأعجميته، وكان أحد زعماء الحركة الشيعية، استخدم ثقافته في الطعن على العرب وفضح مثالبهم بطرق عدّة. فقد

أورد له ابن النديم في الفهرست من الدراسات القرآنية: مجاز القرآن، وغريب القرآن، ومعاني القرآن، ولم يبق منها إلا مجاز القرآن الذي نشر منه جزء سنة ١٩٥٤م وظل باقيه مخطوطاً. وقد حققه د. فؤاد سزكين.

٢- كتاب «مجاز القرآن»

ظروف تأليف الكتاب :

استقدم الفضل بن الربيع، والي البصرة، أبا عبيدة سنة ثمان وثمانين ومائة للاستفادة من علمه. وفي مجلسه، سأله إبراهيم بن إسماعيل الكاتب عن قوله تعالى: «طلعها كأنه رؤوس الشياطين». وقال: إنما يقع الوعد والإيعاد بما عُرف مثله. وهذا لم يُعرف. فقال أبو عبيدة: إنما كَلَّمَ الله تعالى العرب على قدر كلامهم، أما سمعت قول امرئ القيس :

اَيْقَنْتَلِي وَالْمَقْرُئُ مُضَاجِمِي
وَمَسْنُونَةُ رُزْقٍ، كَانِيَابِ أَضْوَالِ
وهم لم يَرَوْا الغول قط. ولكن لما كان
أمر الغول يهولهم أوعدوا به. فاستحسن
الفضل ذلك، واستحسنه السائل.

أَلَّفَ كِتَابًا فِي فُضَائِلِ الْفَرَسِ يَفْخَرُ بِهَا عَلَى
الْعَرَبِ كَمَا أَلَّفَ «لِصُوصِ الْعَرَبِ» وَ«أَدْعِيَاءِ
الْعَرَبِ» وَكَانَ مِنْ طُرُقِهِ فِي ثَلَبِ الْعَرَبِ أَنَّهُ
كَانَ يُعْلَنُ فُضَائِلَ الْفَرَسِ، وَيَتَهَكَّمُ بِمَا تَفْخَرُ
بِهِ الْعَرَبُ، مَعَ اخْتِلَاقِ قِصَصٍ لِلتَّشْنِيعِ
عَلَيْهِمْ.

ب- كان يهوديَّ الأجداد، وإن كانت
عناصر الثقافة اليهودية غير واردة في
مؤلفاته، ولا أثر للأسرائيليات في كتابه
المجاز^(١).

ج- نُسِبَ إِلَيْهِ الْمِيلُ إِلَى مَذْهَبِ الْخَوَارِجِ
الْإِبَاحِيَّةِ، كَمَا نَسَبَ إِلَيْهِ الْقَوْلُ بِالْقَدَرِ.

د- جَمَعَ صِفَاتٍ نَفَرَتِ النَّاسُ مِنْهُ، فَهُوَ
شَتَّامٌ بِذِيءِ اللِّسَانِ (على دراية بالنسب)
وَسَبَّخٌ، مَدْخُولُ الدِّينِ، إِذَا قَرَأَ الْقُرْآنَ قَرَأَهُ
نَظْرًا. وَلَمَّا مَاتَ لَمْ يَحْضُرْ جَنَازَتُهُ أَحَدٌ
لِشَرَّاسَةِ طَبْعِهِ^(٢).

هـ- ويزيد من خطورة الرجل إلمامه الواسع
بعلوم العربية في البيئة البصرية، وهو إلمام
يُقَرَّبُهُ الْأَصْدِقَاءُ وَالْخُصُومُ عَلَى السَّوَاءِ،
وَيُؤَهِّلُهُ لِلْبَحْثِ الْمَوْضُوعِيِّ فِي كِتَابِ اللَّهِ
تَعَالَى: إِلَّا أَنَّ كِتَابَهُ أَثَارَ نَقْدِ مَعَاصِرِهِ إِذْ
ظَنُّوا أَنَّ فِيهِ لَوْنًا مِنَ التَّفْسِيرِ بِالرَّأْيِ^(٣). وَقَدْ

المجاز، يتضح في ضوء ما تقدّم، أن أبا عبيدة عالج كيفية التوصل إلى فهم المعاني القرآنية باحتذاء أساليب العرب في الكلام، وسنتهم في وسائل الإبانة عن المعاني؛ حين أحسّ بحاجة الناس إلى وصل حاضر اللغة بسالفها^(٦).

فالعامل الديني كان من أهم البواعث في حفز العزائم على البحث في متصرفات الخطاب في كتاب الله تعالى. فغاية أبي عبيدة هي الكشف عمّا أشكل من معاني القرآن بمعرفة طرق أداء المعنى^(٧).

وكلما ابتعدنا عن صدر الإسلام وعظم الاتصال بالأعاجم اشتدّ طلب المعنى القرآني والسؤال عنه، ولذا كثّر التأليف في معاني القرآن وغريبه في القرنين الثاني والثالث. فالدراسات اللغوية في مرحلة ازدهار التدوين كان من بين أسباب وجودها، العناية بالنص القرآني أداءً وفهماً حيث ترى العقول على معانيه وتتجاوب الأذواق مع جمالياته.

٣- المراد بالمجاز^(٨) :

هو العدول عن الطريق الطبيعي للألفاظ في معانيها ونظمها إلى طريق آخر

وعزم أبو عبيدة من ذلك اليوم أن يضع كتاباً في القرآن في مثل هذا، وأشباهه. فلما رجع إلى البصرة عمل كتابه الذي سماه «مجاز القرآن». ونستفيد من هذه الرواية^(٩) مايلي :

أ- خفاء بعض المعاني القرآنية على أهل العصر نظراً لتباعد الزمن عن صدر الإسلام. ولعل أبا عبيدة أحسّ أن الكتاب من حوله أنشأوا ينظرون في القرآن وإليه نظرة أخرى، فهم يسألون عن أشياء كانوا يظنونها بما تركته الجاهلية في نفوس الناس وأفئدتهم، كحديث القرآن عن النار وتشبيهه لطلعها بأنه كرؤوس الشياطين^(١٠).

ب- أدرك أبو عبيدة خطورة الجهل بمذاهب العرب في القول، على تحريف مدلول النص وفهم معاني القرآن، فبادر إلى تأليف المجاز.

ج- ويلاحظ أن السائل كاتب من أهل صناعة البيان استوقفه من التشبيه القرآني أن المشبه به غير محسوس. وأن أبا عبيدة أحال ذلك السائل على بيت شعر جاهلي ليؤكد أن التصوير فيه من جنس التصوير القرآني.

د- وإلى جانب الإشارة إلى تاريخ تأليف

ومصادق ذلك في آية من القرآن. . . «وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه»^(٩). فلم يحتاج السلف ولا الذين أدرکوا الوحي إلى النبي ﷺ أن يسألوا عن معانيه، لأنهم كانوا عرب الألسن، فاستغنوا بعلمهم به عن المسألة عن معانيه، وعمّا فيه ممّا في كلام العرب من وجوه الإعراب ومن الغريب والمعاني»^(١٠).

وبعد المقدمة يبدأ بشرح غريب القرآن من بداية المصحف، مشيراً إلى الحديث النبوي المناسب، ثم يأتي بالشاهد من مآثور الشعر أو النثر.

لقد تميّز منهجه بسعة الثقافة والحرية في فهم النصوص، فاعتمد حسّه اللغويّ في استقراءه لمناحي المجاز دون أن يلتزم بقواعد لغوية ناشئة على عهده تصطدم بالنص القرآني، فلم يخضع لقيود مدرستي الكوفة والبصرة لفهم النصوص العربية. وعني في ضوء هذا التحرر بالناحية اللغوية في القرآن، وأكثر من الاستشهاد على الآيات بالشعر العربي ممّا صرّفه عن الاشتغال بالقصص القرآني^(١١).

وفي مجال كشف دقائق التعبير القرآني توسع في تصوير الخصائص التعبيرية من

فيه مجاوزة وتجاوز. وإن الوقوف عند دوران كلمة مجاز في الكتاب، وإن تعددت في بعض المواضع دلالتها، فإن السعة اللغوية يقصد بها أبو عبيدة «المعبر» إلى الفنون الأسلوبية في القرآن. فالمجاز طُرُق يسلكها القرآن في تعبيراته. وإن الكلمة لا علاقة لها بالمصطلح البلاغي بقدر ما تعنى الدلالة الدقيقة لصيغ التعبير القرآنية المختلفة مستشهداً عليها بما يشبهها من أنماط أساليب العرب. ولعل الإحساس بضرورة التعرف على وجوه الحسن في أساليب القرآن والواردة في كلام العرب، جعل لموضوع المجاز مكانة خاصة في الدراسات القرآنية والبحوث البلاغية.

٤ - منهج الكتاب، ومناحي المجاز فيه :

يبدأ الكتاب بمقدمة عامة يحدّد فيها أبو عبيدة منهجه، ومجال كلمة «مجاز» فيه، مؤكداً أن فنون التعبير في القرآن لا تخرج عن المآثور من أساليب العرب وفنونهم. ثم يسوق أمثلة مفصلة للبيان العربي. يقول في المقدمة:

قالوا إنما أنزل القرآن بلسان عربي مبين،

إعجاب بليغ وحسن دقيق بروعة النص^(١٣). على أن الاتجاه العام الذي كان يسيطر على المتصدين للنص القرآني المعجز، لبيان ما فيه من وجوه التجوز وأساليبه، وكونه أمراً ملحوظاً في هذه الفترة، نجد هذا عند الشافعي (٢٠٤هـ) وأبي عبيدة والقراء (٢٠٧هـ)^(١٤).

ومناحي المجاز الماثلة في الكتاب تطوف بقضايا أسلوب القرآن، مشيرة إلى مذاهب العرب التعبيرية، وكيف جرى البيان القرآني وفاقها. ويمكن تقسيم مناحي مدلول المجاز الواردة في الكتاب إلى الوجوه التالية :

أولاً: ما يطرأ على اللفظ من تحول لغوي حسب السياق:

— تحول مدلول الفاعل إلى المفعول أو العكس. يقول أبو عبيدة عن قوله تعالى: «والنهار مبصر» [يونس: ٦٧]، له مجازان: أحدهما؛ أن العرب وضعوا أشياء من كلامهم في موضع الفاعل والمعنى أنه مفعول، لأنه ظرف يفعل في غيره، ولأن النهار لا يُبصر. ولكنه يُبصرُ فيه الذي ينظر. وفي القرآن «في عيشة راضية» وإنما

استعارة وتشبيه وكناية وتقدير وتأخير وحذف وإضمار وتكرار، ليثبت أن النص القرآني يحمل كل سمات الكلام العربي، وأن من يتصدى لفهم هذا النص لابد أن يلم بفقه العربية وأساليبها واستعمالاتها. من هنا فاض كتاب المجاز بمأثور القول من منشور الكلام العربي ومنظومه، تأكيداً لقوله بأن العرب لم يكونوا في حاجة إلى كتابه لفهم المجاز في القرآن، لأنهم أعرف بأساليب القول في لغتهم.

وذكر محمد زغلول سلام أن الفكرة التي راودت أبا عبيدة، وهو يؤلف كتابه كانت فكرة مدرسية حاول من خلالها أن يضع أمام طبقة المستعربين صوراً من التعبير في القرآن، وما يقابله من التعبير المعهود للألفاظ والعبارات إلى معاني وتراكيب أخرى اقتضاها الكلام^(١٥).

وإذا كان الفهم اللغوي يطبع تصوّره للصورة البيانية، فإن البحث اللغوي في مجاز أبي عبيدة؛ يؤكد أن النص القرآني خلق ذلك البحث خلقاً، وأن العرب رأوا في القرآن مثالا بليغاً، وطرأاً معجزاً عن التعبير نفذ إلى حسهم اللغوي بأساليبه المتضافرة، فانبثق في نفوسهم منذ عهد مبكر

يرضى بها الذي يعيش فيها^(١٥).

ومن مجاز ما يقع المعنى على المفعول وحَوَّلَ إلى الفاعل، قوله تعالى «كَمَلَّ الذي يَنْعَقُ بما لا يسمع» [البقرة: ١٧١]، والمعنى على الشاة المنعوق بها، وحَوَّلَ على الراعي الذي ينعق بالشاة.

ومن مجاز ما جاء لفظه الواحد الذي له جماع منه، ووقع معنى هذا الواحد على الجميع. قوله تعالى «يُخْرِجُكُمْ طفلاً» [الحج: ٥] في موضع (أطفالاً). وقوله تعالى: «والمَلَكُ على أَرْجَائِها» [الحاقة: ١٧] في موضع والملائكة.

ومن مجاز ما جاء لفظه لفظ الجمع الذي له واحد منه، ووقع معنى هذا الجمع على الاثنين، قوله تعالى «فإن كان له إخوة» [النساء: ١١] فالإخوة جمع وقع معناه على أخوين. وقال «والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما» [المائدة: ٣٨] موضع يديهما^(١٦).

ومن مجاز ما جاء في لفظ خبر الجمع على لفظ الواحد، قوله تعالى «والملائكة بَعَثَ ذلك ظَهْرَ» [التحريم: ٤] في موضع ظَهْرَاءَ.

وقد ينقلب المدلول إلى ضده، كما في

قوله تعالى: «من ورائهم جهنم» [الجاثية: ١٠] مجازه قَدَّامه وأمامه.

وقد تتغير الصيغة بزيادة حرف: فقول الله تعالى «فَأَمْطَرْنَا علينا حجارة من السماء» [الأنفال: ٣٢]، مجازه: إن كان شيء من العذاب فهو أَمْطَرْتُ بالالف. وإن كان من الرحمة فهو مَطَرْتُ.

وقد يتغير مدلول الاستفهام، كما في قوله تعالى: «إن الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تُنذِرهم» [البقرة: ٦] هذا كلام هو إخبار خرج مخرج الاستفهام. ثانياً: يراد بالمجاز بعض المعاني البلاغية :

إذا تذكرنا أن المصطلحات البلاغية قد عرفت النور في أجواء الدراسات القرآنية في مراحلها الأولى، فإن مدلول المجاز سينصرف بلا شك إلى مجموعة من المعاني البلاغية التي ستنمو وتنضج مع الأيام. ونجد من المعاني البلاغية التي اختفت وراء كلمة مجاز، مايلي :

أ - الالتفات :

يقول أبو عبيدة: «ومن مجاز ما جاء مخاطبة الغائب ومعناها للشاهد. قال: «ألمَ ذلك الكتاب» [البقرة: ١]، مجازه: ألمَ هذا

د - الاستعارة والكناية :

أغفل أبو عبيدة لفظة الاستعارة في كتابه وأطلق لفظة «مجاز» في معناها، كما في تفسيره لقوله تعالى: «وُثِّبَتْ بِهِ الْأَقْدَامُ» (الأنفال: ١١)، مجازه، يفرغ عليهم الصبر، ويُتَزَلَّ عليهم، فيثبتون لعدوهم، وفي تفسيره لقوله تعالى: «إِلَّا هُوَ أَخَذَ بِنَاصِيَتِهَا» [هود: ٥٦]، مجازه، إلا هو في قبضته وملكه وسلطانه. وينص على الكناية في كتابه بطرق مختلفة قريبة في مجملها من مدلول المصطلح البلاغي. قال في قوله تعالى: «كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ» [القيامة: ٢٦]. وقوله تعالى: «كُلٌّ مِنْ عَلَيْهَا فَأَن» [الرحمن: ٢٦] وقوله تعالى: «حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ» [ص: ٣٦]. إن الله كُنِيَ في الأول عن الروح من غير أن يجري ذكرها.

وفي الثانية عن الأرض. وفي الثالثة عن الشمس. ثم يأتي بمقابل لهذا المعنى عند العرب كعادته، وعلى هذا قول حاتم الطائي:

أَسَاوَى مَائِفَى الثَّوَاءِ عَنِ الْفَسَقِ
إِذَا حَشَرَجَتْ يَوْمًا وَضَاقَ بِهَا الصُّدْرُ
يعني حشرجت النفس، وقال دعبيل الخزاعي:

الكتاب. ومن مجاز ما جاءت مخاطبته مخاطبة الشاهد ثم تُرِكَت وَحُولَتْ مخاطبته إلى مخاطبة الغائب. قال تعالى: «حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفَلَكَ وَجَرَيْنَ بِهِمْ» [يونس: ٢٣] أي بكم^(١٨).

ب - التقديم والتأخير :

ورد في المقدمة، ومن مجاز المَقْدَمُ والمُؤَخَّرُ، قال: «فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ» [فصلت: ٣٨] أراد: ربت واهتزت. وقال: «لَمْ يَكِدْ يَرَاهَا» [التور: ٤٠] أي لم يرها ولم يكد^(١٩).

ج - التشبيه والتمثيل :

ترد كلمة تشبيه عند شرحه لقوله تعالى: «نَسَاكُمْ حَرَّتْ لَكُمْ» [البقرة: ٢٢٣] فيقول: كناية وتشبيه. ويقول عن الآية: «أَفَمَنْ أَسَّسَ بِنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَى مِنْ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أَسَّسَ بِنْيَانَهُ عَلَى شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ» [التوبة: ١٠٩]، مجاز تمثيل، لأن ما بناء على التقوى أثبت أساساً من البناء الذي بنوه على الكفر والنفاق، وهو على شفا جرف، وهو ما يجرف من سيول الأودية يثبت البناء عليه.

إذا كان إبراهيم مضطرباً^(٢٠). أي الخلافة.

وفي قوله تعالى: [أو على سفر، أو جاء أحد منكم من الغائط] [النساء: ٤٣] كناية عن قضاء الحاجة. وكذلك قوله تبارك وتعالى: [أو لامستم النساء] كناية عن الغشيان. ويلاحظ أن أبا عبيدة لا يحدّد عن موقف اللغويين في تفسير الاستعارات والتشبيهات المتعلقة بالذات الإلهية أو بالمعقّدة، فيكتفي بالمعنى المجازي القريب خوفاً من الوقوع في التجسيم، فقرأه يفسّر مثلاً «يد الله مغلولة» بقوله: خير الله.

ثالثاً: قد يراد بالمجاز أيضاً نكت عامة في الأسلوب العربي:

وقد عرض للإيجاز والإطناب والتكرار والإضمار وزوائد الحروف وغيرها. فمن مجاز المضمر فيه استغناء عن إظهاره: «بسم الله»، ففيه ضميره مجازه هذا باسم الله أول كل شيء... ومن مجاز المكرر للتوكيد قوله تعالى: [إني رأيت أحد عشر كوكباً والشمس والقمر رأيتهم لي ساجدين] [يوسف: ٤] أعاد الرؤية. وقال: [أولئك فأولئ] [القيامة: ٣٤]، أعاد اللفظ.

ومن مجاز الأدوات اللّوآتي لمن معان في مواضع شتى، فتجيء الأداة منهن في بعض تلك المواضع لبعض تلك المعاني. قال تعالى: «إن الله لا يستحيي أن يضرب مثلاً ما بعوضة فما فوقها» [البقرة: ٢٦]، معناه: فما دونها. وقال: «والأرض بعد ذلك دحاها» [النازعات: ٣٠] ومعناه: مع ذلك، وقال: «الذين إذا اکتالوا على الناس يستوفون» [المطففين: ٣] معناه: من الناس.

ويتضح من خلال استعمالات لفظية (مجاز) أنها تنطوي على عدّة مرامٍ حسب الأنماط التعبيرية الواردة في الكتاب، وأن التسمية لغوية وليست اصطلاحية. فالمجاز «مُعبر» لمعرفة أساليب العرب: فهو تفسير وتأويل. ويتضح هذا منذ السطور الأولى في كتاب المجاز. فقد ورد في فاتحته: قال الله جل ثناؤه: «إن علينا جمعه وقرآنه» [القيامة: ١٧]، مجازه: تأليف بعضه إلى بعض. ثم قال: «فلإذا قرآنه فاتَّبِعَ قرآنه» مجازه: فإذا ألَّفنا منه شيئاً، فضممناه إليك، فعُذِّد به واعمل به، وضمَّه إليك.

قال عمرو بن كلثوم في هذا المعنى:

منافذ على البحث القرآني، وأثارت خطورة الظاهرة اللغوية في التفسير. وبالرغم من اختلاف الباحثين حول موضوع الكتاب^(٢٤)، فإنه، انطلاقاً من الباعث على تأليفه، وبالنظر لعرضه للطرق المختلفة في الصياغة والدلالة؛ كان يتحرك نحو قضية أساسية هي إثبات عربية القرآن مع مقابلة ذلك بما تعارف عليه العرب. ولاحظ د. مصطفى الجويني أن بحث أبي عبيدة للغة القرآنية تتوزعه ناحيتين:

أ - ناحية التركيب، أي المذهب القرآني في التعبير على النمط عينه الذي كان للعرب في أسلوبهم.

ب - ناحية الأفراد أي ناحية البرهنة على خلوص عربية اللفظ القرآني، فهو شديد الحساسية من ناحية ومع كل شبهة من عربية القرآن^(٢٥).

يقول أبو عبيدة: «نزل القرآن بلسان عربي مبين، فمن زعم أن فيه غير العربية فقد أعظم القول»^(٢٦).

فالكتاب غلب عليه البحث في أساليب القرآن، متمثل بما يشبهها من أشعار العرب وأساليبهم، فجرحه هذا الاختيار إلى الحديث

فِزَاعِي حُرِّقَ أَثْمَاءُ بَخْرٍ
مِجَانِ اللَّوْنِ لَمْ تَقْرَأْ جَوِينَا
أي لم تَضْمُ في رحمة ولدنا قط^(٢٧).

ولعل هذا الاتجاه اللغوي في التفسير كان وراء ما أثاره كتاب المجاز من نقد معاصرين له - وبخاصة المحافظون منهم - لا لأنهم لمساوا فيه لوناً من التفسير بالرأي فقط، ولكنهم وجدوه وسيلة تسربوا منها لدفع منزعه الشعبي المناوئ للعرب.

فالفراء لا يرضى عن مسلك أبي عبيدة في تفسير القرآن، والأصمعي يغضب، وأبو حاتم السجستاني يرى ألا يحل كتابه المجاز ولا قراءته إلا لمن يصحح خطأ. وكذلك كان بعد ذلك موقف الزجاج والنحاس والأزهري والطبري منه^(٢٨).

فصاحب المجاز أثار حفيظة معاصريه - ومن جاء بعدهم - لأنه لم يتقيد بالمأثور عن السلف المفسرين^(٢٩)، وتعامل مع البيان القرآني كلغوي عمدته الأولى: الفقه باللغة، والنفاد إلى خصائص التعبير فيها، حتى عُدَّ الكتاب من أوائل كتب البلاغة.

ه - أهمية كتاب المجاز ومكانته :

يمكن القول إن محاولة أبي عبيدة فتحت

عن فنون القول وأثماطه؛ فكان نواة أولى للبحوث البنيانية - ولبنة أساسية في البنية الثقافية لمن سيتولى عرض قضية الإعجاز القرآني. ولا سيما أن الرجل لم يكن راوية إخبارياً جافاً، بل كان يتمتع بحسّ فنيّ تعكسه وقفاته الجمالية مع اللغة والشعر فيما خلفه من تراث^(٢٧).

وإذا كان د. فؤاد سزكين يقول عن منهج الكتاب، إن صاحبه اعتمد فيه على جسّهِ اللغوي الخاص في إعراب آيات أو أشعار، وأنه حطّم الحواجز النحوية التي وضعها النحاة أمام النصّ القرآني، فإن هذا لا ينفي عن الكتاب القيمة النحوية؛ إذ فيه من المسائل النحوية التي دارت حول الآيات القرآنية ما يؤهله عند بعضهم ليصبح مصدراً من مصادر النحو القرآني^(٢٨) فأبو عبيدة وصل بين النحو وبين النصّ القرآني شأن النحاة الذين كانوا من أوائل الدارسين الذين انتهوا إلى الاعتماد على اللغة في التفسير ما دام القرآن قد نزل بهذه اللغة للإعجاز.

ولا جدال في أن هذا الاتجاه في التفسير كان قد أصبح اتجاهًا متميزًا له متزعه الخاص وأسلوبه المتفرد، وقدرته البالغة على

التحليل الذي لا يدع النص مغلقاً أو مطويًا على نفسه دون الاستفادة من كل ما فيه من إيثار لفظة على أخرى أو حرف على حرف.

ولعل هذا يفسّر لنا كيف دافع أمثال أبي عبيدة مبدأ التحرّج في التفسير، وكيف شقّوا الطريق لحركة تفسيرية واسعة فيها بعده، كما أنهم بعملهم هذا مكّنوا من إقامة درس بلاغي يساند منهجهم التحليلي في فهم النصّ القرآني، والاستنباط منه. ومما يؤكد هذا أن الدراسة البلاغية التي ظهرت عند العرب، والتي تدرّجت حياتها فيما بعد، تعتمد كلها على النحو.

وينبغي ألا نتغافل عمّا يضطرم فيه العصر (القرن الثاني الهجري) من انصهار للأجناس، وتفاعل مع الثقافات، وتأسيس للهوية العربية ومعارفها. فقد استيقظت المذاهب والملل والنحل من غفوتها، وبدأ أصحابها يتطلعون إلى الكتاب الذي خرج به المسلمون إلى العالم لفهم مضامينه وتحقيق مقاصده. فلا عجب إذا وجدنا صاحب المجاز يصرّح أول ما يصرّح به أن القرآن نزل بلسان عربي مبين، وأن الذين أدركوا وحيه كانوا عرب الألسن فاستغنوا بعلمهم عن المسألة عن معانيه، وعمّا فيه مما في كلام

هذا المجال تأثر اللغويين، والمفسرين، والنحاة بأرائه وكتابه. فقد اعتمد على كتابه ابن فتيبة (٢٧٦هـ) في كتابيه: «المشكل» و«الغريب». والبخاري (٢٥٦هـ) والطبري (٣١٠هـ) في تفسيره. . واستفاد منه أبو عبدالله اليزيدي (٣١١هـ) في كتابه غريب القرآن، والزجاج (٣٣٨هـ) وابن دريد (٣٢١هـ) في الجمهرة، وابن النحاس (٣٣٩هـ) في معاني القرآن، والأزهري (٣٧٠هـ) في التهذيب، وأبو علي الفارسي (٣٧٧هـ) والجوهري (٣٩٦هـ) في الصحاح (٢٩) ١.هـ.

العرب مثله من الوجوه والتلخيص، وفي القرآن مثل ما في الكلام العربي من وجوه الإعراب، ومن الغريب، والمعاني.

ويمكن القول إجمالاً، إن مجاز القرآن كان منطلقاً لمدرسة في التفسير عدتها الأولى الفقه بالعربية وأساليبها. وأنه جعل النحو صلب المنهج التحليلي في تفسير النصوص والكشف عن طاقات اللغة. وأن الكتاب يمثل المرحلة الأولى في بحث قضية الإعجاز، مكتفياً بالتدليل على عربية القرآن تدليلاً عميقاً. وحسب أبي عبيدة في



الهوامش

- ١ - مجاز القرآن لأبي عبيدة: مقدمة المحقق د. فؤاد سزكين ص: ١٠-١١.
- ٢ - الفهرست لابن النديم: ٧٩. وانظر ترجمته ص: ٥٥.
- ٣ - لم يتفقد بالمتأخر، فأنار حفيظة المفسرين.
- ٤ - ورد هذا الخبر مطولاً على لسان أبي عبيدة في معجم الأدباء لياقوت ١٥٨/١٩ - ١٥٩.
- ٥ - دراسات في القرآن: أحمد خليل: ٧١ - دار المعارف مصر ١٩٧٢.
- ٦ - البيان العربي: د. طبانة دار العودة - بيروت ط ٥ - ١٩٧٣م.
- ٧ - لقد كانت ملاحقة المعنى سبباً في نشأة علوم ثلاثة، أثرت في البلاغة تأثيراً بالغاً، وهذه العلوم هي: التفسير وهدفه حصر المعنى، وأصول الفقه وهدفه استنباط الأحكام الشرعية من أدلتها التفصيلية، وعلم الكلام وهدفه إثبات أصول الدين (انظر: تأثير الفكر الديني في البلاغة العربية: د. مهدي صالح السامرائي ص: ١٢ - المكتب الإسلامي ببغداد - ١٩٧٧).

- ٨ - جاز الموضوع وجازوه سار فيه، وخلفه، وتحوّز في الكلام تكلم بالمجاز: والطريق إذا قطع من أحد جانبيه إلى الآخر (القاموس المحيط: جوز).
- ٩ - سورة إبراهيم: ٤.
- ١٠ - مجاز القرآن: ٨.
- ١١ - مقدمة المحقق للمجاز: ١٩.
- ١٢ - الفكر الديني في مواجهة العصر: د. عفت الشرفاوي ص: ٣٣-٣٤ دار العودة بيروت ١٩٧٤م.
- ١٤ - والشافعي عاصر أبا عبيدة، وفي حديثها عن اللغة صورة من التقارب، فالشافعي يتحدث عن فهم النص فهماً لغوياً مهتدياً بأسرار اللغة وطرائقها في التعبير كما صنع أبو عبيدة. واللغة عند الشافعي أشد قوة من اليونانية ومنطقها (أنظر: دراسات في القرآن: ٧٣).
- ١٥ - مجاز القرآن: ٦٤.
- ١٦ - نفسه: ٨-٩.
- ١٧ - نفسه: ٣١.
- ١٨ - نفسه: ١١.
- ١٩ - نفسه: ٣٠.
- ٢٠ - نفسه: ٣٤.
- ٢١ - نفسه: ٢-٣.
- ٢٢ - أنظر: الفكر الديني في مواجهة العصر: ٣٣.
- ٢٣ - سجد الفراء في «معاني القرآن» يحرص على أن يثبت تفسير المفسرين بجوار تفسير اللغويين.
- ٢٤ - من المحدثين عده إبراهيم مصطفى كتاباً في النحو، بينما رآه طه حسين كتاباً يتيم باللغة، وارتأه أمين الخولي كتاباً في التفسير (أنظر: مناهج في التفسير: د. مصطفى الصاري: ٩١-٩٣ منشأة المعارف بالاسكندرية ١٩٧١م).
- والحق أنه كتاب استفادت منه الدراسات النحوية واللغوية والإعجازية والتقدية إذ مهد لدراسة الصور الفنية في أشكائها التعبيرية.
- ٢٥ - مناهج في التفسير: ٨٩.
- ٢٦ - مجاز القرآن: ١٧.
- ٢٧ - مقدمة د. فؤاد سزكين حيث يشير إلى أمثلة وردت له في الشعر والشعراء لابن قتيبة وفي الأغاني. ص: ١٥. وقد ذكر طه إبراهيم في كتابه «النقد الأدبي عند العرب» أن اللغويين وطُردوا النقد الأدبي ونظموا بحوثه واستنبطوا مقاييسه ص ٥٠.
- ٢٨ - القرآن الكريم وأثره في الدراسات النحوية ص: ٢٤٣. عبد العال سالم مكرم - دار المعرفة بمصر ١٩٦٨م.
- ٢٩ - أنظر مقدمة فؤاد سزكين للمجاز: ١٧.





السُّعُودِيَّة

مرفوعاً إلى حضرة صاحب الجلالة الملك عبد العزيز آل سعود العظم

للشاعر: أديب الزهيري

تَشْكُورُ وَيْدَكَ فِي بُعْدٍ وَفِي قُرْبٍ
يَا نَارَ شَبْحٍ وَيَا أَحْشَاءَ قَالَتَهِي
كَمْ مِنْ قُرْبٍ تَرَى فِي الْأَهْلِ مُعْتَرِبٍ
كَمْ قَلْبَتْ نَفْسَهَا رَأْسًا عَلَى عَقَبٍ
وَيُوجِبُ الْيَوْمَ مَا بِالْأَمْسِ لَمْ يَجِبْ
فَلَاحَ لِي سِرُّهَا وَالشَّمْسُ لَمْ تَغِبْ
كَأَنَّهُ بَاتَ وَالْإِصْبَاحُ فِي حَقَبٍ
بُرْءُ الضُّحَى ثَغْرُهَا فِي شَهْدَةِ الْعَذَبِ
حَقَّ اسْتِقَامَ فَلَاحٍ مِتَتْ الْهُدُبُ
أَوْ أَرْجُونَ خَفَاءَ الْعِيِّ مِنْ كُتُبِ
مَنْ يَطْلُبُ الْمَجْدَ لَا يَسْلَمُ مِنَ النَّصَبِ

يَا سَاكِناً لَاحَ لَكِنْ جَدَّ مُضْطَرِبٍ
لَا الْبُعْدُ يَجْدِي وَمَا بِالْقُرْبِ مِنْ أَمَلٍ
مَا أَبْعَدَ الْقُرْبِ إِنْ جَادَ الزَّمَانُ بِهِ
جَهْلًا لَعَنُوكَ وَالْأَيَّامُ كَمْ جَهْلِيَتْ
فَتِلْكَ دِيَاكَ تَبْدِي كُلَّ مَا كُنْتَ
سَاءَ لَتْ شَمْسُ الضُّحَى عَنْ سِرِّهَا حَمَلَتْ
وَرَبَّ لَيْلٍ سَجَا حَبَاقُ الْفَضَاءِ بِهِ
قَامَتْ تَمِيلُ وَلَمْ تَهْجَعْ مُبَكَّرَةً
وَاسْتَوْضَعْتَنِي بِطَرْفِي نَجَّ حَاجِبُهُ
شَاغَلَتْهَا دُونَكَ أَنْ أَرْجُو تَشَاغُلَهَا
حَتَّى مَتَى مُقْعَدًا تَأْمَسُ عَلَى بَلَدٍ

جَامَلْتُ نَفْسِي وَمَا نَفَقْتُ كَارِهَةً

هَوْنَ الْكِرَامِ فِي الْإِسْلَامِ وَالْعَرَبِ

إِنِّي أَمْرٌ يُرْتَمَى بَيْنَ الْوَرَى ثَمَلًا
مَبَاحِثَ دَهْرِي حَتَّى شَابَ عَارِضُهُ
ضَاقَتْ عَلَيَّ سَبِيلُ الْعَيْشِ مَا تَسَعَتْ
كَيْفَ الْحَيَاةَ وَأَهْلِي كُلَّ كَاهِلِهِمْ
تَأَلَّى الْهَوَانَ نَفْسُ الْعَرَبِ حَامِلَةً
إِنْفَعًا وَمَا يَجِدُ الْإِخِيرُ مُتَجَعِّعًا
تَلَقَّى الْعَزِيزُ فِتْنَتِي كُلَّ مَكْرَمَةٍ
الْعَرَبُ تَرْنُوهُ وَاللَّهُ حَايِرُ سُهُ
لَا سَائِلًا وَلَا لَا تَبَاحِي نَوَافِلُهُ
فَالْمَرْءُ لَا ذَهَبَ أَوْ فِضَّةً سِيَّكَتُ

يَعْلُو فِرْقَتَهُمْ مِنْ سَاعِجِ الشَّهْبِ
شَيْخًا وَإِنِّي لَمْ أَهْزَمْ وَلَمْ أَشِبِ
وَرُبَّمَا ضَاقَ عَيْشُ الْمَرْءِ عَنْ رَحْبِ
وَالذَّلَّ نِيرٌ ذَمِيمُ الْعَيْشِ وَالْحَرْبِ
حَمَلُ الْأَسُودِ بَيْنَ الْبَاسِ وَالْغَضَبِ
لَيْدَنِي قَدْ بَكَرَتْهُ حَمَاءُ الْوَصَبِ
خَيْرُ الْمُلُوكِ كَرِيمُ الْمَجْدِ وَالْحَسَبِ
وَالسَّعْدُ يَرْقُبُهُ مِنْ خَيْرِ مُرْتَقَبِ
وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي الصَّدْرِ مِنْ غَيْبِ
أَجْلَالِهِ شَرَفًا عَنْهَا وَعَنْ ذَهَبِ

يَا لَذِيكَ نَارُهُ فِي الصَّدْرِ مَا بَرَجَتْ
مِنْ جَوْهِرٍ مَا فَعَلَتْ فِي أَهْلِهِ نُوبٌ
أَصْبَحْتُ أَرْتَابٌ مِنْ سَمْعِي وَمِنْ بَصَرِي

تَذَكَّرَ وَيُعْزِمُهُ فِيهَا خَافِقُ اللَّهَبِ
دَهْرًا يَوْمُهُمْ فِي سَائِرِ الْقَصَبِ
لَيْتَ الْخَوَادِثَ تَجَلَّوْا صَالِحَ الرَّايِبِ

سَقِيًّا لِنَفْسِي وَكَمْ كَانَتْ تَعَلَّلْنِي
بِمُرْهَقِ الْحَدِّ لَا تَنْبُو مَضَارِبُهُ
وَمَنْ لَجِمَ غِيْظَ بِنَارِ حَوَافِرُهُ
مُطْلَمٌ سَاهِبٌ كَالصَّبْحِ غُرَّتُهُ
أَعَشَى الْعُدَّةَ بِنَفْسٍ جَادَ مَبَاحِبُهَا

وَالْقَلْبُ يَرْتَحِي عَظِيمَ الْهَمِّ وَالْأَرْهَبِ
حَمْرَاءَ سَاعَتِ لَدَى مَسْتَوْدَعِ شَرِبِ
لَا يَكُونُ لَبْلِيلٍ مُعْنِي الْقَلْبِ
بَحْرٌ يَمُوجُ وَيَرْمِي مَزِيدَ الْعَيْبِ
وَالْمَسِيفُ يَعْثُبُ بِالْأَحْشَاءِ وَالرَّقِيبِ

صَوْنُ الْأَعَارِبِ فِي آمْنٍ وَفِي رَهَبٍ

سَيْفُ السُّعُودِي لَمْ تَدْفَعْ غَوَائِلُهُ

طَابَتْ وَفِي غَيْرِهَا بِالْأَمْسِ لَمْ تَطْبِ
إِنْجَادٌ يَعْزِبُ أَبْطَالًا إِلَى الْعَلَبِ
صَيْدٌ مَعًا وَيُرْمُ تَكَلُّلٌ وَلَمْ تَهْبِ
ثَارَتْ وَجَحَّتْ فَإِنَّ الْبَيْدَ فِي لُجْبِ
عُقْبَانُ تَنْقُضُ فِي جَوِي مِنَ السَّحْبِ
مَجْدٌ تَسْطَرُّهُ فِي خَالِدِ الْكُتُبِ
أَلِ السُّعُودِ وَهَلْ فِي الْأَمْرِ مِنْ تَجَبٍ
وَمَنْزَعُ الْعَرَبِ يَوْمَ الْهَوْلِ وَالرَّعَبِ

تِلْكَ الْأَمَانِي لِنَجْدٍ رُحْتُ أَجْمَلَهَا
لِلَّهِ بَجْدٌ بِهَا الْإِخْوَانُ قَدْ بَجَدَتْ
عَلَى سَرَايِبِ تَطْوِي الْبَيْدَ تَدْفَعُهَا
تَرَاهُمْ أَنْدَفَعُوا وَالْبَيْدُ قَدْ صَحَبَتْ
كَأَنَّهُمْ وَبِحَاجِ الْبَيْدِ يَكْنُفُهُمْ
لِلَّهِ بَجْدٌ وَمِنْ أَلِ السُّعُودِ لَهَا
فَخِرُ الْأَعَارِبِ لَا لَوْمَ وَلَا حَرْجَ
عِزَّ الْعُرُوبَةِ بَعْدَ الْوَهْنِ وَالنَّكْبِ

وَفِي الْحِجَازِ بَدَتْ فِي زَيْبِهَا الْقَشِيبِ
وَالْعِزْبَيْنِ كَرِيمِ الْخَيْلِ وَالْقَصْبِ
أَوْكُلُ بَارِقَةٍ حَدْبَاءَ بِالْمَرْسَبِ
وَرُبُّ مُلْكٍ وَتَاجٍ كَانَ مِنْ قَصَبِ
أَوْكُلُ مَا لَاحَ فِي الْعُنُقِودِ بِالْعِنَبِ
أَوْكُلُ ضَاكِكَةٍ فِي الْعُرْسِ عَنْ طَرَبِ

لَا حَتَّ بِنَجْدٍ تَبَاشِيرُ الْحَيَاةِ لَنَا
عَبْدُ الْعَزِيزِ عَزِيزُ الْعَرَبِ عَنْهُمْ
مَا كُلُّ مَنْ يَعْتَلِي خَيْلًا بِفَارِسِهَا
مَا كُلُّ مَنْ يَرْتَدِي تَاجًا غَدَا مَلِكًا
مَا كُلُّ سُنْبُلَةٍ بُرًّا وَإِنْ عَقَلَتْ
مَا كُلُّ نَادِبَةٍ تُكَلِّمُ وَإِنْ عَبَرَتْ

عَيْنَ الْخِلَافَةِ بَعْدَ الْأَذْيِ وَالتَّعَبِ
مَا دَامَ مَكَّةُ تَرْجَى مَرْبُضَ الْهَدَنِ

هَذَا أَحْيَى مُلِكِ الْعَرَبِ قَاطِبَةً
لَيْسَ الْأَعَارِبُ فِي هَوْنٍ وَفِي ضَعْفَةٍ



● بيروت - محي الزهير في ٢٧ رمضان المبارك ١٤٢٠ هـ ●

المكفوف

للشاعر د. : حسن جاد حسن

من لسا ر في الليل طال سراه
كل ليل يمضي فياليت شعري ليله السرمدي مامنتهاه
الضحى والأصيل والصبح والليل تساوت، فكلها أشباه
وضروب الألوان متفقات في سواد عمله مقلتهه
لا يرى جلوة الربيع إذا اختال ولا البدر حين يبدو سناه
لا ولا يجتلي سنا الشمس رقرقا إذا فضض الوجود ضحاه
وإذا ذهب الأصيل روابيه عدا طرفه اجتلاء رباه
وإذا الطير ردد اللحن في الدوح مضي لا يحس إلا صdah
كل مافي الوجود من فتن الدنيا لوته عن سحره دنياه
أبدأ يحتويه سجن لياليه ومافيه من سجين سواه
حين يمشي يسير مرتعش الخطو وثيبدأ تختفي الأذى قدماه
وإذا لم يجد رفيقاً وفيأ أرشدته إلى الطريق عصاه
أودع الله نفسه دقة الحس ففي حسه الدقيق هده
وجلا سمعه فلا يخطئه الهمس ونجوى النسيم في مسراه
يرهف الأذن حين لا تسعف العين خطاه فعيينه أذناه
وإذا ضل راح يفغر فاه مستغنياً، ولوحت كفاه
لو تراه محلقاً مصفى الجيد رأيت العجيب فيما تراه
لهفة للروى تثير مناه فتروم اجتلاءها عيناه
ثم يرتد شوقه حراتٍ بالشوق الأعشى، وبالمناه
ليس أشقى من فاقد نور عينيه، وأعلى مافي الفقى ناظره
أي طعم للعيش إن لم ير الدنيا، وماحظه؟ وما جدواه
ماله في حياته من عزاء أو رجاء يسليه إلا الله

هون الخطب يا أخي إن هذا زمن لم تعد تسر رؤاه
حبك العزلة التي أنت فيها حين شامت دنيا بنيه وشاهوا
إن في نفسك الجميلة دنيا من جمال يغنيك عما عداه



لك يارب في النوازل سر عي فهم العباد عن معناه
كل خطب قدرته لك فيه ياإلهي لطف يدق خفاه
قد سلبت الأعمى وأعطيت حتى صبح عدل القضاء فيما قضاه
إن تكن قد حرمته نور عينيه ففي قلبه يشع ضياه
ليس بالعين مبصر أو كفيف بصر المرء قلبه أو عماه
رب أعمى منحته منك نوراً ورفعت الحجاب حتى رآه
وسكبت الذكاء في حسه الرهف حتى أنسيته ماداه
يدرك الخاطر الخفي بحس يسمع النمل في دبيب خطاه
وأديب ماضي الرياح، براه خالق النابغين حين براه
وفريد في شعره عبقري ينفث السحر أو يفيض رقا
وصناع تجمل أثله النول على لحمة الكسا أو سداه
وشجى الألمان إن رتل الذكر أت الله تائباً من عصاه
وفتاة غطى الجمال عماها وكساها من سحره وحلاه
نعم هانت المصائب فيها وعزاء ينسى المصاب أساه



أيها الناعمون بالحدق النجل ومافاتهم غنى أو جاه
اذكروا نعمة الإله عليكم وأعينوا الأعمى على بلواه
أطلعوا صبح ليله بالأمان وأصيخوا إلى مرير نداه
وانشلوه من بحر الهادر الموج ومن لجه الذي قد طواه
واكفلوه قريبا صار يوما علما يهتدي الحمى بهداه
شر ما يقتل المواهب إغفال وداء النبوغ أن تنساه
لا يضيع الإله حسن صنيع فاغنموا شكره وحوزوا رضاه

من بحوث الأعداد القادمة

- ١ - القرآن والمنهج العلمي المعاصر «عرض كتاب» د. : محمد شوقي الفنجرى
- ٢ - كمال الدين بن يونس الموصلى «عرض كتاب» أ. : خليل ابراهيم
- ٣ - الأشكال البسيطة الابداعية والتكوينية في اللغة العربية أ. : عبدالقادر عنادى
- ٤ - حازم القرطاجنى نحوياً أ. : ابن يونس الزاكي
- ٥ - اللسانية ومنهج التفكير عند العرب د. : منذر عياني
- ٦ - دراسة جيومورفولوجية لبعض أحواض الأودية بهضبة نجد د. : محمد صبري محسوب سليم
- ٧ - المتنبي مدح الخصبي بقلم د. : حلمي محمد القاعود
- ٨ - تحقيق رسالة الزرور لأبي الحسن بن سراج ورد أبي القاسم الخنجي ابن الجد عليها د. : عبدالرحمن عبدالرؤف
- ٩ - المعناة والإبداع في نظم القصيدة النبطية د. : سعد العبدالله الصويان
- ١٠ - المواضع السعودية على الخليج العربي د. : محمد أحمد الرويثي
- ١١ - جدوى الوزن والقافية في الصناعة الشعرية د. : السعيد عبدالله
- ١٢ - نقش دائرة الملك عبدالعزيز أ. : محمود محمد الروسان
- ١٣ - مصادر ابن بسام الشتريني في كتابه اللخيرة د. : مصطفى ابراهيم حسين
- ١٤ - أخلاق عرب الرولة وعاداتهم ترجمة: د. : محمد سليمان السديس
- ١٥ - الاتصالات بين أمير حائل وشيخ الكويت د. : خالد حمود السعدون
- ١٦ - الحركة الأدبية في المملكة العربية السعودية أ. : خيرية السيد إبراهيم
- ١٧ - نظرة العرب إلى ألمانيا النازية د. : نظام عزت عباسي
- ١٨ - حول منهج الجغرافية الإسلام د. : صلاح عبد الجابر عيسى



**AL-SAFI
SQUARE
Riyadh**

The writers' views do not necessarily reflect those of the magazine.

Articles are arranged technically regardless of the writer's prestige.

**Annual
Subscriptions :**

- Saudi Arabia : 20 Riyals.
- Arab Countries : The equivalent of 4 issues price.
- Non-Arab Countries : US 6 \$.

Articles can not be returned to authors whether published or not.

● PRICE PER ISSUE ●

- Saudi Arabia	: 3 Riyals
- U. A. E.	: 4 Dirhams
- Qatar	: 4 Riyals
- Egypt	: 35 Piastres
- Morocco	: 5 Dirhams
- Tunisia	: 400 Milliemes
- Non-Arab Countries	: 1.U.S. \$

Saudi Arabia : Al-Greisy Distributing Est.,
P.O. Box 1405, Riyadh, Tel.: 4022564.

Bahrain : Al-Hilal Distributing Est.,
Manama, P.O. Box 224, Tel.: 262026.

Abu-Dhaby : P.O. Box 3778, Abu Dhaby,
Tel.: 323011.

Egypt : Al-Ahram Distributing Est.,
Al-Gataa Street, Cairo, Tel.: 755500.

Dhubai : Dar-Al-Hikma Library.
P.O. Box 2007, Tel.: 228552.

Tunisia : The Tunisian Distributing
Company 5, Nahg Kartaj.

Qatar : Dar-Al-Thakafa.
P.O. Box 323, Tel.: 413180.

Morocco : Al-Sharafia Distributing Company,
P.O. Box 683, Casablanca, 05.



EDITOR-IN-CHIEF

MOHAMMAD HUSSEIN ZEIDAN



EDITORIAL DIRECTOR

ABDULLAH HAMAD AL-HOQAIL



EDITORIAL BOARD

DR. MANSOUR IBRAHIM AL-HAZMI

ABDULLAH ABDUL-AZIZ BIN EDRIS

DR. ABDUL-RAHMAN AL-TAYYEB AL-ANSARI

DR. ABDULLAH AL-SALEH AL-UTHAYMIN

DR. MOHAMMAD AL-SULAYMAN AL-SUDAIS



EDITORIAL SECRETARY

MUSTAFA AMIN JAHIN

All correspondence should be directed to the Editor-in-Chief. Tel.: 4417020

Editorial Director: Tel.: 4414681

General Supervisor :

His Excellency Shaikh :

HASSAN BIN ABDULLAH AL-AL-SHAIKH

*Minister of Higher Education & Head of the Board of
Directors of King Abdul - Aziz Research Centre.*



Members of the Board :

- His Excellency Mr. Abdul Aziz Al-Refaei.
- H.E.Mr. Abdullah Bin Khamis.
- Dr. Ahmed M. Al-Dhubaib Deputy-Rector of King Saud University.
- H.E.Dr. Abdul Rahman Bin Saleh Al-Shebaili.
- * Deputy Minister for Higher Education .
- H.E.Dr. Abdullah Al-Masri
- * Assistant Deputy Minister for Cultural Affairs,
Ministry of Education .
- H.E.Mr. Abdul Rahman Fahd Al-Rashid.
- * Assistant Deputy Minister For Domestic Information.
Ministry of Information .
- H.E.Mr. Muhammad Hussein Zeidan.
- H.E.Mr. Abdullah Hamad Al-ho Kall
«Secretary General of King Abdul Aziz Research Centre».

Annual Subscriptions are to be directed to the Secretary General of-Addarah Tel.:4414681

Editorial Board: Tel.: 4412316 - 4412317





IN THE
NAME OF ALLAH.
THE MERCIFUL.
THE BENEFICENT



**An Academic Quarterly
Issued by: King Abdul Aziz Research Centre**

No. 3 • Year 12 • Rabi' Thani 1407 A.H. • December 1986 A.D.

**King Abdul Aziz
Research Centre**

- Established by a Royal Decree No. M/ 45 dated 5/8/1392 A.H. as an autonomous body with independent juristic identity.
- Run by a Board of Directors vested with full authority to have its objectives materialized.

Objectives:

Further studies pertaining to the history of the Kingdom, its geography, literature, intellectual and cultural heritage in particular as well as those of the Arab and Islamic world in general.

- To issue a cultural magazine carrying its name **ADDARAH.**

- In accordance with the Royal approval No. 6/12608 dated 20/5/1396 A.H. the Centre has become the home of the National Saudi Archives and Manuscripts.

P. O. Box 2943 Riyadh 11461 Kingdom of Saudi Arabia

Facsimile No.: 00/966/1/4417020



امرياض
بين الامس وامس



AD-DARAA



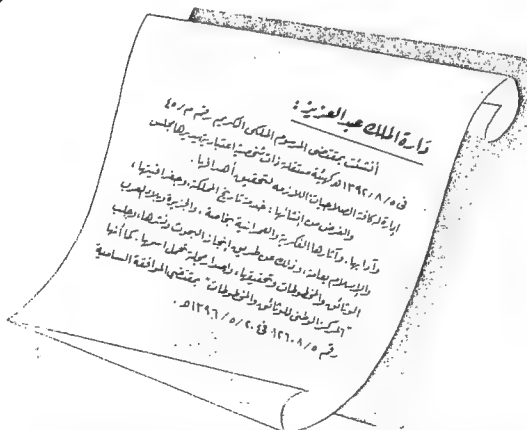
Rabi Thani 1407 A.H. December 1986 A.D.





مجلة فصلية محكمة
تصدر عن دائرة الملك عبدالعزيز

العدد الرابع • السنة الثانية عشرة • رجب ١٤٠٧ هـ • مارس ١٩٨٧ م



٢٩٤٥ الرياض ١١٤٦١ - المملكة العربية السعودية

رقم الفاكس: ٠٠/٩٦٦/١/٤٤١٧٠٢٠

أعضاء مجلس إدارة دار الملك عبدالعزيز:

مدير المؤسسة	عبدالمعز الرفاعي
معادة الأستاذ	عبدالله بن خميس
معادة الدكتور	عبدالرحمن بن صالح الشبلي وكيل وزارة التعليم العالي
معادة الدكتور	أحمد محمد الضبيب وكيل جامعة الملك سعود
معادة الدكتور	عبدالله المصري وكيل وزارة المعارف المساعد للشؤون الفنية
معادة الأستاذ	عبدالرحمن فهد الراشد وكيل وزارة الإعلام المساعد للإعلام الداخلي
معادة الأستاذ	محمد حسين زيدان
معادة الأستاذ	عبدالله همد الحقييل الأمين العام للمدارة

الإدارة والتحرير
٤٤١٢٣١٦ - ٤٤١٢٣١٧



مجلس الإشراف والإدارة
الأمين العام للمدارة
٤٤١٤٦٨١





رئيس التحرير

محمد حسين زيدان

• • •

مدير التحرير

عبدالله حمد الحفيل

• • •

هئية التحرير

د. منصور إبراهيم الخازمي

عبدالله بن عبدالعزيز بن إدريس

د. عبدالرحمن الطيب الأنصاري

د. عبدالله الصالح المشيمين

د. محمد سليمان السديس

○ ○ ○

مكاتب التحرير، «الفي»

مصطفى أمين جاهيم

مدير التحرير

٤٤١٤٦٨١ ☎

مدير التحرير

٤٤١٧٠٩٠ ☎

• آراء الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي المجلة •

* الاشتراكات السنوية *

- ٢٠ ريالاً للاشتراك السنوي داخل المملكة العربية السعودية .
- وفي البلاد العربية ما يعادل القيمة لأربعة أعداد في كل بلد .
- ٦ دولارات خارج البلاد العربية .

- ترتيب البحوث داخل العدد يتفصّل لأسباب فنية لاهلاقة لها بمكانة الكاتب ..
- لأثرة البحوث إلى أصحابها سواء نشرت أم لم تنشر ..
- ترسل البحوث سرّياً إلى محرّرين ويتم نشرها بعد النظر في صلاحيتها للنشر .

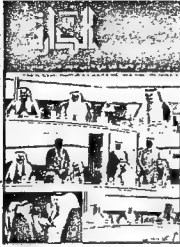
توزيع المجلة

- السعودية : ثلاثة وريالات - الإمارات العربية أربعة دراهم
- قطر : أربعة وريالات - مصر ٣٥ قرشاً - المغرب خمسة دراهم - تونس ٤٠٠ مليم
- خارج البلاد العربية : دولار للعدد

- | | |
|-----------------------------------|------------------------------------|
| • البحرين : مؤسسة الهلال للتوزيع | • السعودية : مؤسسة الجريسي للتوزيع |
| ص.ب ٢٢٤ النامة - ت ٢٦٢٠٢٦ | ص.ب ١٤٠٥ الرياض - ت ٤٠٢٢٥٦٤ |
| • مصر : مؤسسة الأهرام للتوزيع | • أبو ظبي : مكتبة المنهل |
| شارع الجلاء - القاهرة ت ٧٥٥٥٠٠ | ص.ب ٣٧٧٨ أبو ظبي - ت ٣٢٣٠١١ |
| • تونس : الشركة التونسية للتوزيع | • دبي : مكتبة دار الحكمة |
| • نجع قرطاج | ص.ب ٢٠٠٧ - ت ٢٢٨٥٥٢ |
| • المغرب : الشركة الشريفة للتوزيع | • قطر : دار الثقافة |
| ص.ب ٦٨٣ الدار البيضاء . | ص.ب ٢٢٣ - ت ٤١٣١٨٠ |



صورة الغلاف



اجتماع أعضاء اللجنة الأساسية لمؤسسة
الملك عبدالعزيز الإسلامية برئاسة صاحب
السمو الملكي الأمير سلطان بن
عبد العزيز .

في هذا العدد

- ٦ • الافتتاحية رئيس التحرير
- ٨ ○ نقاش دارة الملك عبدالعزيز ١. محمود محمد الريسان
- ٢١ • الثوائف السعودية على الخليج العربي د. محمد أحمد الرويثي
- ٤٣ ○ دراسة جيومورفولوجية لبعض أحواض الأودية بهضبة نجد د. محمد صبري مصروب سليم
- ٧٩ • تحقيق رسالة الزيندور لابي الحسن بن سراج ورد أبي القاسم بن الجد عليها د. عبدالرحمن عبدالرؤف الخانجي
- ٩٧ ○ المسائفة ومنهج التفكير عند العرب د. مفكر عياشي
- ١١٧ • حازم القرطاجني نحويًا ١. ابن يونس الزاكي
- ١٣٥ ○ مصادر ابن بسام الشنتريني في كتابه الذخيرة د. مصطفى إبراهيم حسن
- ١٥٧ • دراسة في نص : المتنبي يمدح الخصيصي د. حلمي محمد القاعود
- ١٧٤ ○ القرن والمنهج العلمي المعاصر ، عرض ككتاب د. محمود شوقي الفنجري
- ١٨٩ • كمال الدين بن يونس الموصل ١. فاضل خليل إبراهيم
- ١٩٧ ○ علم د. ون ون ..
- ٢٢٢ • ملحق خاص عن الشيخ حسن بن عبد الله آل الشيخ رحمه الله د. صلاح عبدالجابر عيسى
- ٢٥٨ ○ حول منهج الجغرافية الإسلام د. د. د.
- 5 • ترجمة ١. سعيد عبدالعزيز عبدالله د. د.

On A Curriculum for a Geography of Islam •

أرضنا صهرت... وأبقت على إنسانها

وحين غرقت بين أحلام اليقظة وبقظة التفكير أذكر لأجد موضوعاً أكتبه فأتحة لمجلة الدارة وجدتي أسأل عن هذه المفارقة بين أرض العرب كلها من الخليج إلى المحيط وبين شبه جزيرة الأناضول؛ فجيزة العرب وجزيرة الأناضول، كأنها جزيرة واحدة؛ الأرض متصلة بالأرض، ولكن ما الأسباب التي منحت الأرض العربية القدرة على أن تقهر غزاتها، لتصهر أنسألم حتى لكأنهم أبناؤها، ينسون لغتهم ويتكلمون لغتها، ويمانقون طبائعها وتقاليدها، بينما الأناضول وقد كانت فيما عرفت أرض الحثيين، حتى إذا احتل الأرض الرومان لم يبق الحثيون، فانطبت أرض الأناضول بطابع الرومان، ولا زالت القسطنطينية بما فيها من أثر روماني تدل على أن الرومان كانوا هناك، وأن الحثيين ذابوا، أما العرب فأذابوا.

وتقدم السلجوقيون كبعض ملوك الطوائف، فإذا هم يعملون الأرض التي احتلوها وعاصمتها قونية أرضاً تركية ذاب فيها الرومان بغلبة الترك ولغتهم. وساد العثمانيون فإذا هم دولة عاصمتها بورصة يحتلون أرضاً لم يبق فيها روماني، فأصبحت تركية سلطاناً ولغة.

أنفليست هذه مفارقة تدعوني أن أطالب من هم أعلم مني، أو من هم أقوى مني بأن يثيروا هذا البحث الذي أثيرته، لإيضاح الأسباب؟

وسؤال آخر، عن وصول جيش يزيد بن معاوية أيام أبيه إلى أسوار القسطنطينية يحاصرها كما وصل إليها جيش مسلمة بن عبد الملك، كلاهما حاصرها - وشهيد الإسلام أبو أيوب الأنصاري شهيد



بقلم رئيس التحرير

على ذلك. فكيف وصل جيش يزيد وجيش مسلمة عبر الأناضول كلها إلى الشمال؟ ألم يكن هناك روماتيون قد قاتلوه وقتلهم فانتصر حتى وصل إلى القسطنطينية؟ أم أن الشعب في الأناضول كان يفتح لهم الطريق ليصلوا إلى القسطنطينية؟ لا بد من الإجابة عن هذا السؤال.

إن أرض العرب غزاها الفرس والرومان والتار والصليبيون والاستعمار الحديث. قهروها حيناً ولكنها ما تفهقرت وإنما هي وبلنتها العربية قهرت وصهرت، فالمراق جاز فارس لم يبق فارسياً، واليمن ابتلعت الأحباش والفرس وبقي اليمن يمناً عربياً، والشام طردت الرومان بالفتح المسلم وبتمصّب العربي للعربي فما كان الجيش في اليرموك إلا بقيادة رومية وقلة رومية أما الكثرة فعربية. الشام طردت الرومان وطاردت اليهود لأنهم - أعني اليهود - لم يخضعوا لعملية الصهر، فكانوا قلة مغايرة لطبيعة الأرض وطابع اللغة. فأرضنا العربية كما تصهر فإنها تطرد، ومصر قهرت وصهرت غزاتها، والشمال الأفريقي كذلك.

ولعل مصطفى كمال قد فطن إلى ذلك، أو استلهمه من واقع الحال لقوة ألمانيا وضعف الأتراك أمام الألمان، فحين أخذت ألمانيا امتياز خط برلين - بغداد لم يفتن الاتحاديون إلى ما فطن إليه مصطفى كمال، فقد كتب في مذكراته عن شرط في هذا الامتياز يعطي الألمان من أول الخط إلى آخره ثلاثة كيلومترات شرق الخط وثلاثة كيلومترات غرب الخط، أي أنهم أخذوا من الأرض ستة كيلومترات شرقاً وغرباً على طول الخط كله، فقال مصطفى كمال: إن هذه الكيلومترات تسعوب ستة ملايين ألماي لهم حق السكنى بهذا الامتياز، فهذه الملايين الألمانية كافية للقضاء على الجيش التركي، فهل كانت هذه فطنة كمال؟! استوعب التاريخ حيث ذاب الحيثيون والرومان بغلبة الترك، ليزوب الترك بغلبة الألمان؟

إنها خواطر أطرحها لأجد من يتوسع، من يصوب، من يخطئ!.

١١١١
١١١١

بعض أوجه التشابه بين الخط العربي والخط اللاتيني

للأستاذ محمود محمد الروسان

النص :

النص مكتوب على لوحة معدنية بالخط البارز فقدت بعض أجزائها خاصة في الأطراف الجانبية والجزء المتبقي إبعاده 35×51 سم وسمكها ١,٣ سم كتبت بالعربية الجنوبية - المسند - تراوحت أطوال الحروف فيها ما بين ٢,٥ - ٣ سم وامتازت حروفها بالدقة والتنسيق حيث صفت الحروف بعد تسطير القطعة المعدنية إلى أسطر أفقية يسهل رؤيتها .



يتكون النص من أحد عشر سطراً ويشتمل السطر الكامل منها على ٢١ - ٢٦ حرفاً وينتهي الجزء العلوي والسفلي للنص بزخرفة عبارة عن خطوط أفقية متقطعة، أما الحافتان الجانبيتان اليمنى واليسرى فلا نعرف كيف كانت لأنها فقدت تماماً مع بعض أجزاء من النص بتقديري أنها فقدت ما يقرب من ٢١ سم من الحافتين إذا ما أكملنا الاسم الأول في السطر الأول للوحة والموجود كاملاً في السطر العاشر «شكرم ومعد/ كرب» وتحتاج إلى ١٣ سم إضافة إلى بعض الملاحظات الأخرى بالسطر الثامن مثلاً انتهى بـ «وبذ» حتى يتم لا بد من وجود الصفة والموصوف وهذا يحتاج إلى ما يقرب من ٧,٥ سم إلى جانب الأطار والزخرفة ان وجدت وبهذا يمكن أن تكون إبعادها 56×51 سم على ما أعتقد .

الموقع: عسير من المواقع الأثرية الهامة في الجزيرة العربية قد لعبت دوراً بارزاً في أيام
حكام سبأ وحير وان لم تذكر بالاسم نفسه غير أن الموقع ذاته كان هاماً أما كيفية وصول
اللوحه المعدنية إلى إحدى القلاع الحربية وهي من فترة متأخرة (تركية) فهذا ما لم نعرفه
واجتهاداً ، ربما قدمت هدية إلى قائد القلعة التركي من أحد المواطنين ثم قدمت إهداء ثانياً إلى
صاحب السمو من أحد المواطنين ثم الإهداء الأخير لدائرة الملك عبدالعزيز ، أما الموقع
الأصلي للقطعة لمذكور في السطر الخامس (ضرم) ثم ذكر لقائد آخر لرنظم خضرم ورنظم
هي من المدن الهامة في جنوب الجزيرة العربية وضرم ذكرت في نصوص عديدة أخرى ومن
أهمها نص (GI 1393)^(١) جاء فيه أن الملك أمر برصف طريقها رصفاً جيداً وبإشراف مهندس
بارع اسمه (أوس عم بن يصرع).

حالة الأثر والنص :

الأثر تعرض لكسور في الجانبين واعتقد أن ذلك تم عند محاولة خلع الأثر من المبد الذي
كانت اللوحه مثبتة على جدرانه خاصة وإننا نلاحظ أن الكسر في أربعة زوايا متشابهة ، وهذا مما
يدل على أنها كانت مثبتة بأربعة أوتاد فولاذية أو معدنية في جدار المبد وعند رفعها بطريقة
عشوائية كسرت أجزاء من اللوحه مع الأوتاد وبقيت لانه عادة ماتغرس الأوتاد غرساً في حجارة
المبد مما يصعب اخراجها إلا بالطرق الميكانيكية.

إلى جانب ذلك فإن القطعة (الأثر والنص) كانت مغطاة بطبقة من الصدأ الذي نفذ إلى
أعماق المعدن سواء في القطعة أو الحروف نفسها .

وسيقدم تقرير مفصل من قسم الترميم^(*) حول كيفية معالجة ورفع الصدأ عن القطعة
والمواد المستخدمة في ذلك حتى يكون ذلك مرجعاً لمن سيأتي بعد سنين ويعيد ترميمها إذا
استدعت الحالة .

النص كما هو :

١- (.....) ك ر ب ا ب ن و ا ب ي د ع ا ب ن ا ب ج د ا س ق ن ي و
.....)

- ٢- (.....) فرع واوع شر دالح وكم اب نا أخى لس م ا و
أ (.....)
- ٣- (.....) كم ا أم رم اوم س ال ات س ال وا وقت دم اب
ن ... (.....)
- ٤- (.....) لا ذت م ات ك رب س اوب ن ك نا لى ز ا ح و كم اس
ع ن ... (.....)
- ٥- (.....) اب م رم اوس لم م اوب ا ذت م اب بى ك رب ون س ا
وس (.....)
- ٦- (.....) با ح و كم ا أن فس س م ا و اذن س م اوب نا ش ك ر
م ا و م ... (.....)
- ٧- (.....) ك رب ا ون ب ط ع م ا و ك ل ا أول د س م ا و اق نى س م ا ذ س ف ل
(.....)
- ٨- (.....) وب ذت ا ص ن ت م اوب ذت ا ظ ه ر ن اوب ذت ا ر ح ب
ن ا و ب ذ ا ... (.....)
- ٩- (.....) وب ن ه و اى د ع اب اى ج ل ا م ل ك و ا ق ل ك و ا ق ت ب ن ا و
ب ا ش ع ب س (.....)
- ١٠- (.....) ب ر ن ط م ا و ر ث د و ا ش ك ر م ا و م ع د ك رب ا و ذ ر
(.....)
- ١١- (.....) ب ن ا م ه ن ك رب ا و م س ف اى م ا ب

الترسيم المقترح للحروف المفقودة من جانبي اللوحة :

(النهاية)

السطر الأول (البداية)

١- ش ك ر م و م ع د ك رب ا

(النهاية)

السطر الثاني (البداية)

ا و ا ل ه ه م و

٢-

النهاية

السطر الثالث البداية

٣- لح وكم	ب ن ت أ ب ي
٤- د ع ي ج د	س ع ن ي س م ؟
٥- -	و س ق ن ي و
٦- -	و م ع د
٧- -	
٨- -	و ب ذ ت
٩- -	ش ع ب ه ه م و
١٠- -	و ذ ر ي ت ه و

النص بالعربية الفصحى .

- ١- ... كرب / بنوا يدع / أب / بن / أبجل / سقنيو ...
- ٢- ... فرعو / وعشرا / احوكم / بن / أخيلسم / وأ ...
- ٣- ... كم / المرم / ومسلم / تسالرو / وقتدم / بن ...



● نقش الدارة ●

- ٤- ... كل / ذتم / تكبرس / وبذ كز / ليزا / حوكم / سعذ ...
 ٥- ... بضم / وسلم / وب / ذ ت م / يكتربوس / وس ...
 ٦- ... ب / حوكم / أنفسهم / و ا ا ذ ن ه م / وب / شكر / وم ...
 ٧- ... كرب / وبط عم / وكل / اولادهم / واقنيتهم / ذ سفل ...
 ٨- ... وبهوا يدع أب / ي ج ل / ملكوا قتين / وب / شعبو ...
 ٩- ... ن / برنطم / ورنندوا شكرم / ومعد كرب / وذ ...
 ١٠- ... بن مهن كرب / عم سفائم / ب .

التعليق :

١- شكرم: (غير موجودة في اللوحة وهي تقديرية لما جاء في السطر العاشر الكلمة الرابعة) شكرم: إذا حذفت ميم التميم أصبح شكر: اسم على شخص وهو أحد صاحبي النص ورد في السبئية والمعينية (R 3823)، والنجانية (JS 136) والشمودية (TUJ 502) وورد هذا الاسم مركباً مثل شكرال (أي شكر الاله) وعم شكر وورد على صيغة الفعل مثل يشكر وغيرها. والشكر تعني، عرفان الإحسان ونشره، مقابلة النعمة بالقول والفعل. الشكير حاء الشر والنبت الصغير، وبنو شكر: قبيلة في الأزد، وشاكر: قبيلة في اليمن.

و: حرف عطف :

معد كرب / اسم علم مركب لشخص. ورد في المعينية (R 351/2) والقنبانية (R 3566/24) والسبئية (J 558).

ومعد: تعني الغليظ، وموضع قدم الفارس وغيرها كرب / الحزن والغم. الكرب / القرب.

بنو: أداة البنية والواو هنا استخدمت للتنبيه في القنبانية وربما جاءت هنا للتعظيم وفي نقوش أخرى (بني) أي الياء هي أداة التنبيه.

أب يدع: اسم على مركب لشخص شائعة في الجنوب وردت بالسبئية (J 872/1)، المعينية (R 851) الحضرمية (R 2775/2) الشمودية (JS 553) أب: وتعني الوالد صفة للاله يدع: على وزن

الفعل بمعنى أخبر، أعلم: ناقل كلام الاله. أب يدع: اسم ولقب ديني.

بن: لفظ وضع للدلالة على النسب لربط الاسم السابق باللاحق.

أبجل: اسم على شخص: ليس شائعاً بين الأسماء الجنوبية ورد في الصفوية؟ (C 4736) وفي القتبانية (R 4957)^(١) وأبجل: عظم وقبل وبجل الشيخ الكبير ورجل بجل: حسن الوجه والأبجل: عرق وهو من الفرس البصر بمنزلة الأكل من الانسان. ولعل الاسم مركب من أب وجل أي الأب الجليل أو الاله الأجل.

سقنيو: السين أصلها - هاء - (لهجة عربية جنوبية) فتصبح هقنيو وهي بمعنى السين في القتبانية الحضرية عوضاً عن الهاء في السبته وهي من الزوائد في بداية الأفعال في لغة جنوب الجزيرة العربية. وهي بمعنى منح وأعطى وفي التنزيل: وانه هو أغنى وأقنى. والباء والواو دلالة على الجمع للتعظيم كواو بنو.

٢ - فرعو: الفرع: بواكير الثمر أو الغلال، باكورة، والفرع قمة البناء، وفرع الشهر العشر الأوائل منه، وفرع أعلى كل شيء وفارعه: أول الغنائم، والفرع: بعير كان يذبح في الجاهلية عندما تبلغ الأبل مائة وبقي في صدر الاسلام ثم نسخ وبالنسبة للنقش فهي بمعنى بواكير الثمر والغلال وهي ضريبة تقدم للإله في معبده. والواو للدلالة على الجمع (جميع الثمار).

الواو: حرف عطف.

عُشر: بضم الأول وسكون الثاني: ما يدفع من مال للمعبد أو الإله، أو عشر الثمر وغيره، أي نوع من الضريبة تدفع عن المال والغنائم للمعبد والقائمين عليه.

وضريبة العشر تؤخذ من صافي الأرباح في البيع والالتزام، والأرث الذي يورث وغيرها.

لحوكم: اللام حرف جر

حوكم: اسم معبود وهي بمعنى الحكيم القدير العاقل وعرف عند القبائل الشمالية (حكم) أو كهل أو من (حوك) إله السماء وحوكم من آلهة قتيان الخاصة ولم يرد عند غيرهم. ورد هذا

الاسم على أسماء أعلام في السبئية. (Ry GS) وفي الثمودية (JS 73) والصفوية (C 677) .

بن: وهي بمعنى من: حرف جر .

اخيلسم/ السين أصلها هاء ضمير الملكية فتصبح اخيلهم (وهي جمع خيل) بمعنى خيلهم أما في هذا النص فتعني الأملاك .

وأهيمو: (بقية الكلمة مقترحة) أي سيدهم ومعبودهم .

٣ - .. كم: حوكم (الترميم المقترح) المعبود حكم انظر سابقه .

أأمرم: الأوامر والتعليقات أوامر .

و: حرف عطف .

مسألتم: (يحذف حرف التميم) مسائل .

تسالو: سألوها .

و: حرف عطف .

قندم: قدم واهدى على اعتبار تقديم التاء على القاف .

بن: من .

٤ - ... ل: ربما بقية ابجل أو كلمة بكل: أي: من كل الذي قدموه .

ذتم: ذت: هذه أو تلك والميم للتميم ما .

تكربس: تكربه إذ ان السين عوضاً عن النسمير المتصل (هـ) . وبمعنى تقدمه .

و: حرف عطف

بنكن: وهي مدموجة والأصل فيها بن = من كل وكن = ذ أو هكذا فهي معا = منذ، تماماً مثل كلمة بنكنم . بن = من كم = ذ .

ليزأ : اللام حرف جر .

يزاً : زأى : تكبر ولزأ : أي ما يحميه به . وردت في نقش سبئ (ولوزأ) نامى ١١ (بمعنى ليدوم المقه على حماية عبده).

حوكم : انظر سابقه .

سعد :

٥ - بضرم : الباء بمعنى من وضر بمعنى الضرر .

الباء حرف جر بمعنى في وهي من العلامات المميزة لهذا النص حيث كثر استخدامها وسبقت كلمة ذات أي هنا استخدمت كباء القسم أيضاً .

ضرم : اسم موقع ورد في نصوص سابقه وردت في النص (GL. 1393) (والذي عثر عليه في جبل عويد في قعطبة) وذكر في نص آخران الملك يدع أب ذبيان بن شهر قد أمر برصف الطريق إلى ضرم بإشراف المهندس (Beitrag, S. 46) (أوس عم بن يصرع)^(١) . فهي من المدن البارزة سابقاً . وهذا دليل على أن هذه اللوحة منقولة من ذلك المكان إلى منطقة عسير في زمن قديم وليس في وقتنا الحاضر .

وسلمم : وسلامه .

الواو حرف عطف على سابقه

سلم : السلام والتحية .

وب : الواو حرف عطف ، والباء حرف جر ومن بمعنى في أو باء القسم .

ذتم : ذت : تلك ولكل ما تقدم والميم للتميم . ما .

بيكتر بونس : الباء سببية .

الباء حرف جر بمعنى في يسبب لهم الكرب .

يكتر ب : بتقرت ويقدم أو ما تقرب به وقدمه .

الواو والتون : للجمع

السين: أصلها هاء (لمجة) وهي ضمير متصل .

وس: غير تام: والمفترح وسقنيو: وقدموا.

ب:

حوكم: إله قتيان انظر مادة حوكم

انقسم: أنفس: أشخاصهم أرواحهم. والسين الثانية أصلها هاء والميم وهما للجمع.
وأذنسم: الواو حرف عطف.

اذن: الأمر والسع، هي بمعنى جنود الملك، أو الاتباع والحاشية أما هنا في النص فتعني
الاتباع والاشياع. أو من يأتذنون بإذنهم.

والسين: أصلها هاء (ضمير متصل).

والميم: الهاء والميم للجمع.

وبن: الواو حرف عطف.

بن: بمعنى من .

شكرم: الميم للتنميم وشكر اسم على على شخص صاحب النص ومقدمه (أنظر شكرم).
ومه: ... الواو حرف عطف

معد (معد) (الدال ترميم مقترح) ، معد: اسم على شخص ، انظر معد .

٧ - كرب: هي وسابقتها اسم علم مركب (معد كرب): أنظر السطر الأول.

ونبط عم: الواو حرف عطف.

نبط عم: اسم على مركب من نبط: بمعنى: حرف واستسقى الماء ، عم: سيد وإله.

قتيان: اسم علم مضاف إلى اسم الاله.

وكل: الواو حرف عطف.

كل: جميع.

أولد سم: السين عوضاً عن ائاء ضمير متصل (أولدهم = أولادهم)، من أصلهم والميم للجمع.

وأقنيسم:

الراو حرف عطف.

اقنى: خدم.

السين: أصلها هاء ضمير متصل.

الميم: للجمع أي عبيدهم.

ذسفل: المعنى العام القاع أو مقدم الجبل، والمنخفض من الأرض ووردت في نصوص أخرى بمعنى «سؤال الالهة لمنفعة» وهي في نصنا تعني نفس المعنى أي سألوا المذكورين سابقاً الاله حوكم وان سلفوا أي من ولدوهم بعد ذلك من الأولاد أو من ولده عبيدهم. فنحن نقول في الموارث الاباء وان علوا والأبناء وان سلفوا.

٨ - وبذت: الراو حرف عطف والباء للقسم ذات صاحبة، ويتعوذ بذات (بالاله).

صتم: الميم للتميم صنت: صتم أو ثتم أو بلاد منطقة أو جبل صتم أو ثتم ويتعوذ بذات (بالاله) ظهران أو باله منطقة ظهران.

وبذت: الراو حرف عطف والباء للقسم ذات: صاحبة سيده. وردت في نقوش سابقة مفصلة هكذا (وبذت) انظر (I. 1410) نقوش كهلان.

ظهران: التون للتعريف.

ظهر: الظهر: الشاهد على، الكاشف.

وبذت: انظر سابقة، ويتعوذ بذات رحبن أو باله منطقة رحبن.

رحبن: التون للتعريف.

رحب: السعة. الواسع الفسيح، الفسحة حول المعبد.

ويذ (ت): انظر سابقه.

٩ - (يجل): (الترميم المقترح للكلمة الساقطة): وهي اسم علم للملك من ملوك قتيان.

وبنهو: الواو حرف عطف.

بن: ابن آداه البنوة، والهاء: ضمير متصل والواو: لهجة، ومن الملاحظ هنا انه لم يستعمل السين عوضاً عن الهاء كما هو متبع في لهجة قتيان ولعل هنا حالات لا تضطرر فيها القاعدة وهذه احداها.

يدع آب يجل: اسم علم مذكر الأول على وزن الفعل وهي بمعنى: يعلم: يخبر أي العالم الداعي، آب: من اسم الاله من (اب وداب عم، اب شمس). وهما معا بمعنى آلاب العالم الخبير (صفة للملك).

يدع/ آب/ يجل: اسم مكون من ثلاثة ألفاظ الأول والثاني هو الاسم، أما الثالث فلقب ويعني يدع آب الجليل.

ملكو: ملك: الملك السيد والواو هنا للتعظيم إذ أن الملك هنا هو ابن يدع آب يجل غير الواضح في النص وليس يدع إلى يجل.

قتيان: قتيان اسم دولة قتيان ومملكتها.

وب: الواو حرف عطف والباء حرف جر وقسم.

شعبيو: (الميم والواو الأخيرة ترميم) والسين عوضاً عن الهاء (لهجة).

شعبت: قبيلة واتباع فتصبح شعبهم.

سطر ١٠: يلاحظ أن حروف هذا السطر مفرقة ومتباعدة وذلك لتعبئة الفراغ.

ن: ربما بن: أي بمعنى من لانهم

برنظم: الباء حرف جر ونظم: الميم للتميم رنظ: اسم مكان ربما اسم مكان القبيلة وتواجدها ولم أجد لها ذكر في المصادر التي تذكر مواقع قتيان.

ورثدو: الواو الأولى حرف عطف.

رثد: جعلوا ووضعوها في حماية الاله نظموا/ ورتبوا/ رفعوا. أئذروا.

شكرم: انظر شكر س ١ ، س ٦

و: عرف عطف

معد كرب: انظر معد كرب س ١ ، س ٦ .

وذر (يتس): (الياء، والتاء والسين ترميم مقترح): وذريتهم

بن: من

مهن كرب: مهن: الاهانة والتخريب والدمار.

كرب: معيبة، متاعب .

و: حرف عطف.

مسفايم: معتدى أو مخرب. السؤ والخراب .

الشرح :

شكر ومعد كرب ابنا أب يدع بن أبجل قدموا لمعبودهم الاله حوكم (الحكيم) القطاف الأولى من ثمارهم والعشر المرتب عليهم من أملاكهم تنفيذ للأوامر والتعليمات والمطالب التي طلبوها من سيدهم . وان كلما قدموا هذا تقرباً وليحميمهم وأملاكهم الاله حوكم بضم.

قدموها تقرباً لحوكم عن أنفسهم وأناسهم (شعبهم) ومن شكر ومعد كرب ونبط عم وجميع أولادهم وعبيدهم وأملاكهم (أراضهم) وبالاله ذات صنت وذات ظهر وذات رحب وبذات . . وابنه يدع أب نجل ملوك (ملكاً) قبان . ومن قبيلتهم برنط .

وإن شكر ومعد كرب وذريتهم يضعون ذلك في حماية الآلهة ليحموها من أي تخريب ودمار .

تعليق عام :

تعود أهمية هذا النص إلى العديد من الأمور فهو أول نص يعثر عليه في عسير ولو أن هذا

المكان ليس بالتأكيد هو الموطن الأصلي له. أما الأهمية الثانية فيعود إلى بعض الخصائص اللغوية الجديدة مثل استخدام باء القسم والسين الحضرية بدل الهاء والأهمية الأخرى ذكر اسم مدينتين وهو في الواقع إضافة جلييلة لمعجمنا الجغرافي القديم رغم ذكر ضم في نقوش أخرى.

وهناك أهمية ربما كانت ومازالت ظاهرة في معظم النصوص الجنوبية وهي أن مقدم النص يذكر جميع أفراد القبيلة بشكل عام ويخص اخوته وأولاده وعبيده.

أما الأهمية الأخيرة فهي الالتزام الديني الواضح بأن جعل كل أملاكه وماقدمه في حماية الالهة لتحميها وتدرأ شر المخربين والعابثين. ولا ننسى أن صاحب النص قد قدما عشرهم (الضريبة المقدرة للمعبد) من القطاف الأولى من الثمار وهي في الغالب أطيبها وأخيرها.

ذكر في النص اسم الملك يدع أب بنيجل وهما ملكا قتيان ويدع أب هذا هو ابن يجل بن ذمر علي بن هوف عم بن يهذهم بن سم وتر بن شهر يجل بن وتر ايل بن هوف عم بن يهنعم :

(٢) — Res 3858, Ry 530

يضع المؤرخون فترة حكم هذا الملك ما بين ٢٥٠ - ٣٠٠ ق.م وهي فترة ازدهار دولة قتيان حيث انها في ذلك الوقت كانت تحاول احتلال اراضي من دولة سبأ (١).

وبوجه عام فان هذه الفترة تعتبر من الفترات الهامة في تاريخ جنوب الجزيرة العربية حيث الازدهار والرخاء التجاري الكبير.

Nikolaus Rhodokanakis; Katabanische Texte Band 2, Wien, 1922.

(١)

قام الأستاذان عبد الرحيم حاج الأمين وعبد الناصر الزهراني باعمال صيانة هذه اللوحة وعمل قالب ونسخة منها .

(*)

ابن منظور لسان العرب اعداد يوسف خياط. دار لسان العرب بيروت (جميع معاني الألفاظ من لسان العرب).

G.L. Harding, An index and concordance of pre-Islamic Arabian names and inscriptions, Univ. of Toronto Press, 1971.

(١)

(١) جواد علي. الفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ، بيروت دار العلم للملايين ١٩٦٩ ج ٢ ، ص ١٩٠ .

Jacqueline pirenne: paleographie des inscriptions Sud Arabes, Brssel 1956.

الموانئ السعودية على الخليج العربي دراسة في التغير والتنمية

إعداد: د. محمد أحمد الرويثي

١ - مقدمة :

تعتبر الموانئ البحرية من أهم مرافق الدولة لكونها المنفذ الاقتصادي للتجارة الخارجية من صادرات وواردات ، وهذا الوصف يجعلها وثيقة الصلة بتنمية الاقتصاد القومي وكفاءة الموانئ وحسن تنظيمها وإدارتها يجعلها واجهة أمامية تعكس مدى التقدم والنمو في الظهير .



وتنمية الموانئ في أي قطاع ساحلي يخضع لأوضاع الظهير الاقتصادية والسكانية والتي هي من آثار الظروف الطبيعية السائدة في ذلك الظهير حيث يترتب عليها تباين الظهير اقتصادياً ، مما يؤدي إلى اختلاف توزيع السكان الذين يتركزون بأعداد كبيرة في مناطق ويقفون في أخرى - ويتقدمون في الثالثة ، الأمر الذي يؤدي إلى وجود نوع من القرارات السياسية الحكومية التي تحدد أي الموانئ المتشرة على الساحل يستحق التنمية والتطوير .

وتهدف هذه الدراسة إلى :

١ - إعطاء صورة واضحة عن الموانئ السعودية الواقعة على ساحل الخليج العربي باستكمال الدراسة التفصيلية التي أعدها الباحث عن الموانئ السعودية على ساحل البحر الأحمر^(١).

٢ - كشف النقاب عن مدى إمكانية قيام الموانئ السعودية التجارية على جذب حركة التجارة العالمية في الخليج العربي .

٣ - التعرف على إمكانيات الموانئ والمرافئ للمملكة الواقعة على ساحل الخليج العربي والدور الذي لعبته في دفع عجلة التنمية الاقتصادية والعمرانية مع إبراز الدور الذي يمكن أن تلعبه هذه الموانئ في دفع عجلة التنمية مستقبلاً على ضوء خطط التنمية المستقبلية.

٤ - معرفة أثر القرارات السياسية الحكومية على تنمية وتطوير موانئ الخليج السعودية . ويتكون هذا البحث من قسمين تم في القسم الأول مناقشة البيئة الطبيعية، عثلة في خصائص الموقع والموضع لهذه الموانئ .

أما القسم الثاني: فعالج تطور الموانئ على الساحل الشرقي السعودي، وأعطى البعد التاريخي وتطور الموانئ خلال القرن العشرين، إلى جانب دراسة النشاط التجاري المرتبط بها ومدى النمو والتطور الذي شهدته حركة البضائع وقياس مركزها بالنسبة لموانئ الخليج العربية . وختتمت الدراسة بإيضاح أهم نتائج الدراسة والتي ضمنت بعض المقترحات عن مستقبل هذه الموانئ .

أولاً : خصائص الموقع والموضع :

تقع الموانئ السعودية على الخليج العربي في منطقة محصورة بين خطي عرض ٢٨,٣٠° - ٢٤,٤٠° شمالاً - وخطي طول ٤٨°/٤١° شرقاً^(١) حيث يبدأ الساحل السعودي الشرقي من نقطة تقع شمال أم قصباء بجوار الحدود السعودية الكويتية شمالاً حتى مركز سلوى حيث بداية الحدود القطرية السعودية جنوباً - شكل (١) .

ويبلغ طول الساحل حوالي ٥٣٠ كم^(٢) وهو ما يعادل حوالي ٢٣ ٪ من إجمالي السواحل

السعودية البالغة (٢٣٣٠) كم وأكثر من ٣٥٪ من الطول الاجمالي - لسواحل الخليج العربية المقدرة بـ ١٥٠٠ كم^(٤) من شط العرب حتى رأس مسندم و ٢,٥ ٪ من اجمالي سواحل الوطن العربي التي تقدر بحوالي ٢٠٤٠٠ كم^(٥).

ويمكن تقسيم الساحل السعودي الشرقي إلى قسمين متميزين^(٦). القسم الأول يمتد من رأس الخفجي حتى دوحة (ظلم)، والمظهر العام له يكاد يكون خطاً مستقيماً إلا أن هذه الاستقامة تتخللها تعرجات تظهر على شكل خلجان صغيرة أو رؤوس، برزت عليها أو على مقربة منها معظم الموانئ الشرقية وعلى سبيل المثال: الدمام - رأس تنورة - الخفجي - الجبيل - دارين - القطيف .

أما القسم الجنوبي الذي يمتد من دوحة ظلم شمالاً حتى مركز سلوى جنوباً فيتميز بقلّة الرؤوس والخلجان وضحالة الأعماق المائية، الأمر الذي أدى إلى تدني أهميته في الوقت الحاضر في إقامة الموانئ، وعلى الرغم من أن أشهر موانئ المنطقة القديمة «العقير»، قامت في هذا الجزء، إلا أنها فقدت أهميتها بعد انتقال وظيفة الإدارة والحكم من الهفوف إلى الدمام مما دعم تطوير مينائها وتتميته، لقربه من مراكز انتاج البترول وتصديره. شكل (١).

ومن خلال تحليل الخريطة الجغرافية لمنطقة الساحل الشرقي وجد أنها تتميز بخصائص طبيعية إيجابية وسلبية من أهمها:

(١) من الصفات الغالبة على الساحل السعودي الشرقي لتركيبه التضاريس كثرة الخلجان (الأخوار) والرؤوس، والتي في مجملها صغيرة من حيث الامتداد حيث لا تتجاوز بضع كيلومترات. وفائدتها محدودة بالنسبة للملاحة البحرية إذا ما أخذنا في الاعتبار ضحالة المياه وقلة الأعماق. إلا أنه على الرغم من ذلك كانت تقوم قديماً بدور وظيفة المرافئ الطبيعية: Natural Harbours التي تقصدها سفن العاملين في الصيد واستخراج اللؤلؤ مما أدى إلى بروز بعض الحالات السكنية على مقربة منها حيث تشكل مستوطنات للعاملين في النشاط البحري.

والشكل (١) يوضح أهم الرؤوس والخلجان المنتشرة على هذا الساحل والتي في مقدمتها: رؤوس الخفجي والسفانية ومشعاب وتنورة ورأس أبو أريظط ورأس القرية ورأس صياح، واخلجان، (دوحات): كاروت - ظلم - سلوى .

ويمكن القول إن هذه الخلجان والرؤوس هي من مرافئ الخلجان المغمورة إلا أن ضحالة الأعماق بالقرب من الساحل - إضافة إلى وجود الشعاب المرجانية - أدى إلى قلة أهميتها كموانئ طبيعية .

وقد قامت بعض الموانئ على هذه الدوحتات والرؤوس (جدول ١) .

(جدول ١)

الوقع والوضع للموانئ السعودية على الخليج العربي^(٧)

الميناء أو المرافئ	الموقع الفلكي		الوضع الطبيعي	الوظيفة	عدد الأرصنة	مساحة الامارة كم ٢	سكان الامارة كم	الكثافة نسبة/كم
	خط العرض	خط الطول						
الخصي	٢٨.٢٤	٤٨.٣٣	جنوب رأس الخفجي	تصدير البترول	—	٧٧٤	١٣٥٥٠	١٧.٥٠
الجيل	٢٧.٠٤	٤٩.٤١	شمال الدمام ١٠٠ كم	تصدير البترول	٣٢	١٧٤٤	٨٧٢٤	٥.٠٠
رأس تنورة	٢٦.٣٩	٥٠.١٠	رأس تنورة	تصدير البترول	—	—	—	—
صنري	٢٦.٣٩	٤٩.٥٠	جزيرة تاروت	مرافئ تواريب صيد	١	٤٩٩	٣١٠٠٠	٤٨.٠٨
القطيف	٢٦.٣٣	٥٠.٠٠	جزيرة تاروت	مرافئ تواريب صيد	١	٨٢٨	٨٨٥٨٨	١٠٥.٧١
الدمام	٢٦.١٩	٥٠.٠٨	جزيرة تاروت	استيراد تجاري	٤	٣٣٨	١٢٥٣٣٥	٣٧٠.٨١
الخبر	٢٦.١٦	٥٠.١٢	خط الساحل مقابل جزيرة أم نعلان	مساند للدمام	٤	٦٤	٤٣٤١٦	٦٨٨.٣٧
العقير	٢٥.٢٤	٤٨.٣٣	خليج العقير	مرافئ صيد	١	٢٥٨٠٠	٦٨٩	١٠.٠٢

(١) الجدول من أعداد الباحث .

(٢) التعداد العام للسكان لعام ١٩٧٤ م .

وابجلاً يمكن القول إن الخلجان والرؤوس على الساحل الشرقي كانت النواة الأولى للموانئ القائمة الآن، وإن كان البعض منها مازال في صورته الأولى لمرافئ طبيعية، ومراكز عمرانية صغيرة يتجمع حولها السكان لتوفر المياه وصلاحية الأرض للزراعة، مثل موانئ العقير وصفوى والقطيف .

(٢) ترتب على انتشار الشعاب المرجانية في المنطقة المائية المواجهة لموانئ الساحل الشرقي وبارتفاعات مختلفة لا تزيد عن القدم الواحد، مع أعماق تغل عن المترين، تهديد الملاحة الشاطئية، ولكنها لعبت دوراً هاماً في حماية السفن الداخلة والخارجة إلى موانئ المنطقة حيث

قامت بدور الحواجز لصد الأمواج البحرية، والبيئة الصالحة لنمو محار اللؤلؤ الذي كان يقوم عليه اقتصاد الساحل.

٣) من الخصائص المميزة لمنطقة الساحل هذه وجود عدد من الجزر الصغيرة التي تعود نشأتها إما لفعل الإرسابات التي تقوم بها التيارات البحرية، أو بواسطة ترسبات حيوان المرجان، أو نتيجة للحركات الأرضية التي أدت إلى بروزها وانفصالها عن اليابس، ونجدها تنتشر على مقربة من خط الساحل من الشمال إلى الجنوب، وهو ما يوضحه الجدول (٢) والشكل (١).

٤) الموضع الذي تقوم عليه الموانئ السعودية الخليجية، يعد جزءاً من سهول الأحساء المطلة على الخليج العربي، والتي تمتد لمسافة ٥٣٠ كم، وتتميز باتساعها في معظم أجزائها على ٧٠ كم، إلى جانب كونها منطقة سهلية منخفضة، وسطحها شبه مستو لحدائه تكوينها، وخلوها بشكل عام من أي مظهر تضاريسي بارز ماعدا التلال الرملية المتاخمة لها من الغرب.

(جدول ٢)

يوضح أهم الجزر المواجهة للساحل السعودي الشرقي^(٨)

الرقم	اسم الجزيرة	الموقع
١	جزيرة أبو علي	شمال ميناء الجبيل
٢	جزيرة فتة	شمال شرق أبو علي
٣	جزيرة تاروت	خليج تاروت
٤	الزخنوة	مدخل خليج سلوى
٥	الخرسانية	
٦	الزخنوتية	بين رأس صاج ورأس ملوح

تنتشر في معظم أجزائها ظاهرة السبخات^(٩)، والتي من أهمها سبخة «الرياس» التي تتصل بسبخة الضبية، وتعد من أكبر السبخات في المنطقة حيث تبلغ مساحتها حوالي ٩٠٠ كم^٢ وتكون موازية للساحل. وهناك أكثر من ثلاثين سبخة إلى الشرق من الهفوف محصورة بين خطي طول ٤٠، ٣٠ - ٥٠ شرقاً وبين درجة عرض ٢٥° شمالاً، حتى شهاب الجبيل، وهذه السبخات كانت ومازالت تقف عائقاً أمام نمو وتطوير مدن وموانئ الساحل الشرقي.

ويلاحظ على هذا السهل خلوه من الأودية التي لا تستطيع الوصول إلى البحر، حيث الكثبان الرملية تعترض مسارتها، إلى جانب وفرة الموارد المائية في الأجزاء الوسطى والجنوبية منه. وترتب على تكوينه الجيولوجي - نتيجة لوجود القباب والنباتات الالتوائية - أن أصبحت المنطقة من أكبر مناطق إنتاج النفط في العالم، ونتيجة لذلك أصبح هذا القسم من المملكة مركزاً هاماً للاستقرار البشري، اعتمد اقتصاده في أول الأمر على الزراعة ثم على البترول، وحالياً يتجه نحو الصناعة كقاعدة اقتصادية، مما أوجد الاهتمام بتطوير وتنمية موانئ هذه المنطقة لتكون منافذ بحرية تخدم خطط التنمية الوطنية على المستوى الإقليمي والمستوى القومي.

(٥) من سلبيات الموضع الساحلي لهذه الموانئ، أن المياه الساحلية المقابلة تتميز بضخالتها التي حالت دون إنشاء الموانئ في الخلجان العديدة، حيث يتدرج العمق في الضحلة من الشمال إلى الجنوب ومن الغرب إلى الشرق.

ويوضح شكل (١) أن خط الأعماق ١٠م يمتد لمسافات طويلة داخل الخليج ليصل إلى ٤٥ كم، ويقرب هذا الخط من الساحل عند العزيزية في الخبر، وجنوب رأس أبو رقيط، حيث يتواجد على بعد يتراوح ما بين ١ - ٣ كم من الساحل. وهذه الصورة التي تظهر فيها الأعماق كانت عائقاً أمام قيام الموانئ التجارية الكبيرة عند خط الساحل، الأمر الذي أدى إلى إنشائها على الحافات الخارجية حيث تتوفر الأعماق اللازمة لرسو السفن المحيطة.

(٦) التيارات البحرية السائدة في المنطقة تتميز بالضعف، إلا أنها تنشط في فترات موسمية محصورة بين شهري مايو وسبتمبر نتيجة لاندفاع التيارات من خليج عمان إلى داخل الخليج العربي.

٢-١ أثر الظروف المناخية على الموضع :

ولقد ترتب على الموقع الذي تحتله منطقة الساحل الشرقي السعودي ، وقوعها ضمن المنطقة الصحراوية التي تخضع للمؤثرات المناخية القادمة من شرق ووسط وشمال آسيا ، مما أضفى عليها ملامح مميزة تظهر في عناصر مناخ المنطقة .

فالمتوسط السنوي لدرجات الحرارة يبلغ 29°م ، بينما يكون في يوليو (الصيف) 35°م ، وينخفض إلى 15°م في يناير (الشتاء) أي أن المدى الحراري السنوي يبلغ 20° ، أما معدل الدرجات العظمى فيصل إلى 42°م ، يقابله معدل الدرجات الصغرى في يناير 10°م . وعند مقارنة محطات الساحل يلاحظ أن درجات الحرارة تأخذ في الازدياد كلما اتجهنا نحو الجنوب والعكس كلما اتجهنا شمالاً . وهذه القاعدة تسري على الرطوبة النسبية حيث تتراوح ما بين (٣٨ ٪ حرص) - (٥٤ ٪ الظهران) وتزيد على (٦٠ ٪ في الهفوف ، وخلال أشهر الصيف تأخذ في الزيادة كلما اتجهنا نحو الساحل ٢٠ ٪ ، ٣٥ ٪ ، ٣٨ ٪ في كل من حرص - الهفوف والظهران - ونفس القاعدة تسري في الشتاء (يناير) ٥٢ ٪ ، ٦١ ٪ ، ٦٧ على التوالي .

أما بالنسبة للأمطار فقد وجد أنها تقل عن حاجة الحياة البشرية في أغلب أجزاء الساحل (٧٧ مم في السنة) ، وتقل كلما اتجهنا نحو الداخل (٤٩ مم) في حرص ، ولا يكاد يذكر أثرها في الأجزاء الشمالية من منطقة الساحل ، والتسجيلات المناخية المتاحة لعشر السنوات الماضية ، توضح أن أمطار المنطقة في معظمها تهطل في فصل الشتاء موزعة كالتالي (جدول ٣) .

(جدول ٣)

التوزيع النسبي لكميات الأمطار الساقطة على المنطقة

الفصل	٪ النسبة المئوية
الشتاء	٦٠
الربيع	٢٥
الخريف	١٥
الاجمالي	١٠٠

وتسود المنطقة خلال فصل الشتاء الرياح الشمالية والشمالية الشرقية، التي تؤدي إلى سقوط أمطار قليلة بسبب مرورها فوق مياه الخليج العربي، وتعرض المنطقة خلال هذا الفصل للرياح الشمالية الغربية والغربية، والجنوبية الغربية في فصل الصيف القادمة عبر صحاري الجزيرة العربية، مما يرفع درجة الحرارة في المنطقة^(١).

٣- ١ أما الموارد المائية: فقد ظلت حتى أواخر الثلث الثاني من القرن العشرين تقوم بدور سلبي في حياة سكان هذا الساحل، حيث كانت السبب المباشر في اختفاء بعضها، وتدهور البعض الآخر (العقير)، فكان الاعتماد منذ العصور القديمة على مصادر المياه المثلثة في العيون والآبار العادية، وخاصة في واحة الهفوف (٣٠ عينا) والقطيف (١٥٠ عينا).

ولضالة كمية المياه في هذين المصدرين، نتيجة التناقص الكبير في منسوب المياه الجوفية في منطقة الساحل، والذي لا يعوض فيه الفاقد لقلّة الأمطار، أدركت السلطات السعودية أهمية هذا المورد وتوفره قبل تنفيذ أي مخطط للتنمية الاقتصادية والعمرانية، فشرعت منذ أوائل السبعينات في إنشاء معامل تحلية مياه البحر في معظم مدن المملكة الساحلية وكان للساحل الشرقي النصيب الأكبر من هذا البرنامج، وقد تمثل ذلك في وجود أربع محطات كبرى طاقتها الانتاجية ٢٤٢,٦٢ مليون جالون من الماء يومياً وهو ما يعادل ١٧,١٧ مليون جالون إلى جانب توليد طاقة كهربائية قدرها ٢٣٥٠ ميجاوات، شكل (٢).

(جدول ٤)

التوزيع الجغرافي لمحطات تحلية المياه على الساحل الشرقي
(خلال الفترة ١٩٨٠ - ١٩٨٥م)

موقع المحطة	طاقة الانتاج	
	مياه جالون/مليون يومياً	كهرباء ميجاوات
		%
النفجي	٣٠,١٢	١٢,٤١
الجبيل	٩٠,—	٣٧,٠٩
الحبر	٩٧,٥	٤٠,١٨
العقير	٢٥,—	١٠,٣٢
إجمالي الساحل الشرقي	٢٤٢,٦٢	٥٨,١٧
المملكة	٤١٧,٠٥	١٠٠

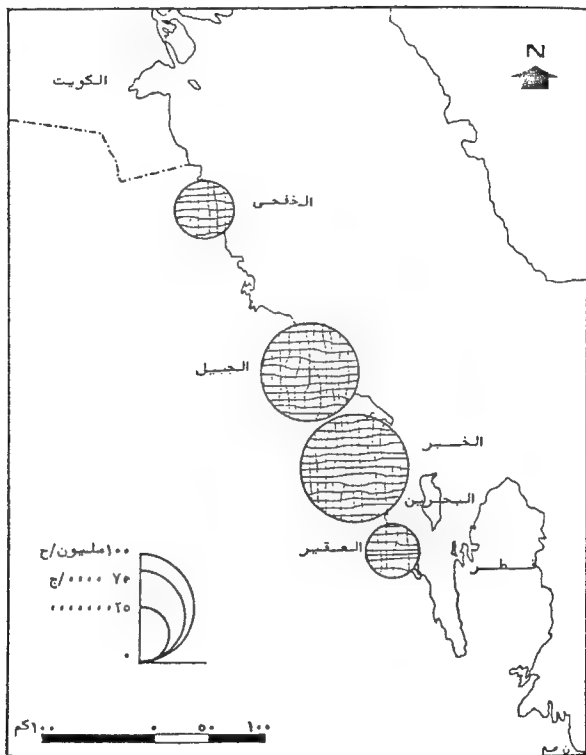
وتتوزع طاقة هذه المحطات الإنتاجية توزيعاً متفاوتاً حسب الحجم السكاني للظهير الواقع خلفها، وعلى هذا الأساس استحوذت محطات الجبيل والخبر على أكثر من ٧٧ ٪ . لتركز معظم سكان المنطقة في هذا الجزء إلى جانب امتداد أثرها إلى مدينة الرياض، وكان نصيب الخفجي ١٢,٤١ ٪ من الطاقة الإنتاجية، ويعزى هذا إلى قلة سكان ظهير هذين المينائين^(١٣).

خلاصة القول: يتضح من العرض السابق أن للظروف الطبيعية السائدة في منطقة الساحل الشرقي، أثرها الكبير في تحديد النشاط البشري على سواحلها حيث أن معظم أجزاء المنطقة تتكون من سهول جيرية ورملية لا تجود بشيء، ويستثنى من ذلك ارتباط الانسان بالوحدات التي تتوفر فيها المياه الجوفية، وما عدا ذلك فإن الحياة لا تشجع على الاستقرار، ويمكن القول بأنها السبب الذي يقف وراء قلة المرافئ ذات البعد التاريخي على الساحل الشرقي، باستثناء (العقير ودارين) بسبب قربهما من واحات القطيف والأحساء، ذات الثقل الاقتصادي الزراعي قديماً، إلا أن اكتشاف النفط غير هذه الصورة، وأوجد أهمية كبيرة لهذه المنطقة مما جعل السكان يتلاءمون مع ظروف البيئة القاسية ويثابرون في التغلب عليها.

ثانياً : تطور الموانئ على الساحل الشرقي السعودي :

١ - ٢ البعد التاريخي :

هناك صعوبة علمية في تتبع النشأة الأولى لموانئ الساحل الشرقي السعودي وذلك لعدم توفر المادة العلمية سواء في المصادر المكتبية - أو الحقل الميداني، ولا يتوفر سوى بعض الإشارات المبعثرة في بعض المصادر التاريخية والجغرافية للمنطقة، والتي توحى بأن هناك الكثير من الفرضيات البحرية القديمة والتي اندثرت - وأصبحت آثاراً منطمرة تحت المرافئ الحالية والبعض الآخر مجاور لها يحكى تاريخاً يعود إلى القرن الثالث الميلادي . وهذا ما يمكن تحديده حالياً بالفرضيات المنتشرة على أجزاء الساحل المنفرقة، والتي اصطلح جغرافياً على تسميتها «الدوحت - الخلجان - الرؤوس» مضافة إلى أسماء طبيعية مجاورة أطلقت عليها من قبل السكان المحليين. وهذا مؤشر على أن هذه «المرافئ الطبيعية» وجدت قبل أن تنشأ حولها أو مجاورة لها المراكز العمرانية المنتشرة على خط الساحل .



شكل (٢)

● الطاقة الأنماجية اليومية لمحطات تحلية المياه على الساحل الشرقي السعودي ●

والدراسات التاريخية لمنطقة الساحل الشرقي السعودي تشير إلى أنه شهد خلال العصور القديمة حتى ظهور المملكة العربية السعودية ١٩٣٢م ، بروز فرضات بحرية استخدمت لأغراض اقتصادية وعسكرية ، أفل نجم البعض منها بعد ازدهار استمر لفترات زمنية ، والبعض استمر يقاوم بين الضعف والنمو والتطور حتى الوقت الحاضر .

ففي القرن الثالث الميلادي نشطت الملاحة في الخليج ، نتيجة لنشاط أهل مدينة «جرها» وهي مدينة ساحلية كلدانية يعتقد أنها كانت تقع خلف ميناء العقير الحالي على بعد ٤٠ كم (١٣) وازداد نشاطها التجاري خلال العصرين الأموي والعباسي .

وكان يقف وراء ظهور بعض المرافئ الطبيعية في منطقة الساحل الشرقي ، بعض الأحداث العسكرية والاقتصادية - فميناء رأس تنورة ، قبل أن يصبح ميناءً بترولياً من قبل أرامكو ، ارتبط بروز شهرته كمرفأ بكثير من الأحداث العسكرية في المنطقة ، حيث مارست وظيفة محطة تزويد الوقود للسفن التركية التي تنجول في مياه الخليج ، والتي أصبحت معبراً لاحتلال القطيف من قبل القوات التركية ، وأخرها غادر منها الملك عبد العزيز إلى عرض الخليج لمقابلة بعض زعماء المنطقة في ذلك الوقت ١٩٣٥ك (١٤) .

وميناء الدمام الذي يعد حالياً ثاني ميناء تجاري على مستوى السعودية يعتقد أن ظهورها مرفأً بحرياً يرجع إلى القرن العاشر الهجري ، حيث اتخذت قلعتها من قبل البرتغاليين مركزاً حربيّاً على الساحل إلى جانب قلعتي تاروت والقطيف ، وأصبحت هذه المناطق مسرحاً للصراعات السياسية والعسكرية بين القوى الداخلية والقوى الخارجية ، وطوال هذه الفترة التي مورت على الدمام ظلت عبارة عن مرفأً طبيعي ، حوله مستوطنة سكنية يزاول سكانها أعمال الصيد والتجارة المثلثة في الشحن والتفريغ من السفن الشراعية التي تقف بعيداً في عرض الخليج ، والتي انتهت باكتشاف النفط (١٩٣٨م) في الظهر المجاور والذي يقف وراء ظهور ميناء الدمام الحديث وموانئ تصدير البترول : رأس تنورة - والخفجي والجبل .

٢-٢ تطور الموانئ السعودية الخليجية خلال القرن العشرين :

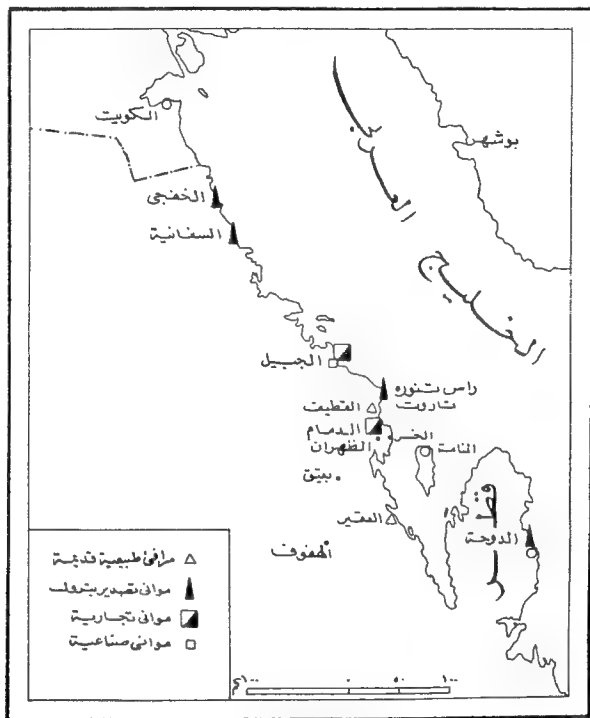
من دراسة الخريطة الجغرافية السعودية يتضح أنها تملك على ساحلها الشرقي مجموعة من

الموانئ في مقدمتها «ميناء الدمام» ، (وموانئ الجبيل والخفجي ورأس تنورة) في فئة واحدة مع فارق كبير بينها من حيث الاعتبار، ومجموعة من الموانئ الصغيرة المحدودة الأهمية في الوقت الحاضر (دارين والقطيف والخبر والعقير) وجميعها لعب دوراً هاماً ومؤثراً في الحياة الاقتصادية للمنطقة منذ العصور القديمة وحتى وقتنا الحاضر.

وأهمية هذه الموانئ أنها كانت منافذ بحرية حتى أوائل القرن العشرين في وقت انعدمت فيه طرق المواصلات ، ووسائل النقل الحديثة، كانت محصورة في خدمة ظهرها الذي يقع في نطاق ضيق لا يتعدى الواحات الصغيرة المنتشرة إلى غربها ، حيث القطيف في القسم الشمالي من الساحل ، وواحة الاحساء التي اتخذت من «ميناء العقير» مرفأ رئيسياً لها - ويصل في بعض الأوقات تأثيرها إلى منطقة نجد ، واستمرت تمارس وظيفة الميناء للمنطقة ، حتى أخذت تفقد أهميتها بعد ظهور البترول وتصديره من موانئ القسم الشمالي من الساحل . ومجالها البحري في ذلك الوقت لم يتجاوز موانئ الخليج العربي وخليج عمان وفي بعض الأوقات يمتد مجالها ليصل إلى موانئ شبه القارة الهندية . شكل (٣).

ومنذ الثلث الثاني من القرن العشرين دخلت البلاد مرحلة من الاستقرار السياسي رافقتها مرحلة من التطور والتنمية الاقتصادية والعمرانية اعتمدت على الإيرادات البترولية والتي^(١٥) نتج عنها إعادة توزيع السكان في المملكة وأدت إلى وجود هجرة من القرى والبادي والمدن الصغيرة ، إلى المنطقة الشرقية، حيث جذبتهم مشروعات التنمية في المنطقة والتي تقوم على إنتاج البترول وتصديره والتي انعكست أثاره على تنمية وتطوير موانئ الساحل الشرقي السعودي المطل على الخليج العربي ، حيث العوامل السياسية والاقتصادية تقف وراء تنميتها وتطويرها .

وقد أدركت الجهات المختصة أن التنظيم الجيد للموانئ له انعكاساته على تطور الموانئ ووظائفها ، كما أن نمو الموانئ وازدهارها يلعب دوراً هاماً في نمو وانتعاش المجال الأرضي والعكس صحيح ، كما أن للحركة التجارية بين المجال الأرضي (الطهير) والمجال البحري (التطهير) واتساعها تأثيراً كبيراً على نمو الموانئ^(١٦) ولهذا كان الهدف الرئيسي لتنمية الموانئ هو



شكل (٣)

● تصنيف الموانئ السعودية على الخليج العربي حسب الوظيفة ●

زيادة الطاقة والتسهيلات والتنظيم لمواجهة الزيادة المتوقعة في الواردات اللازمة لتنمية الاقتصاد الوطني، وتحقيق ذلك يتوقف على زيادة عدد الأرصفة بالموانئ وكذلك المعدل السنوي لمناولة البضائع بالنسبة لكل رصيف عن طريق استخدام الروافع والأجهزة الحديثة المختلفة^(١٧).

وكانت جملة الموانئ الواقعة على الساحل الشرقي السعودي تعتبر مرافئ طبيعية Natural Habours ، حيث لا تدخلها سوى السفن الصغيرة اللازمة لغرض الصيد ، أو لنقل السلع المحملة على السفن الشراعية التي تقف في عرض الخليج بعيداً عن الساحل، مما يؤدي إلى ضياع الكثير من الوقت والجهد . وعندما حدث التحول الاقتصادي في الظهير المجاور لهذه الموانئ ١٩٣٨م (من صيد وزراعة في الواحات) إلى استخراج البترول الذي رافقته حركة واسعة في الصادرات والواردات المختلفة، أصبحت الحاجة ماسة إلى إنشاء موانئ حديثة ذات وظائف متعددة.

ولهذا يمكن القول إن فكرة تطوير وتنمية موانئ الساحل الشرقي السعودي بدأت منذ أواخر الأربعينات الميلادية ، وهي من نتائج اكتشاف البترول عام ١٩٣٨م ودخوله للأسواق العالمية ١٩٤٥م ، وكانت في أول الأمر من نصيب «ميناء الدمام» الذي وجه له جل الاهتمام وذلك لكونه أكبر موانئ المنطقة الشرقية، أضف إلى ذلك أن منطقته تعد من أكبر المراكز العمرانية حجماً من حيث السكان باستثناء الهفوف وأكثرها أهمية في نواح متعددة ، فهي تحتل موقعاً وسطاً على الساحل ، إذ تعد حاضرة الجزيرة العربية وبوابتها ، وتقع عند ملتقى الطرق البرية والبحرية — وعلى مقربة من آبار البترول .

وقد اختير لتنمية «الميناء» موقعاً متوسطاً بين رأس تنورة والدمام والظهران والخبر، وهو الموضع الحالي للميناء إلى الجنوب الشرقي من مدينة الدمام ، حيث أمكن التغلب على مشكلة «صحالة» المياه بأن بُني لسانٌ بريُّ طوله (٨) كم من الشاطئ باتجاه البحر ، ثم بُني جسر فولاذي بعد اللسان طوله ٣ كم ، وبنت في نهايته قنطرة تتكون من رصيفين لرسو السفن في المياه العميقة وكان ذلك في عام ١٩٤٨م^(١٨) وسميت هذه القنطرة فيما بعد الميناء الأصلي، وافتتحت عام ١٩٤٩م — ولم تبدأ العمل رسمياً إلا في أوائل ١٩٥٠م — وربطت بمدينة الدمام

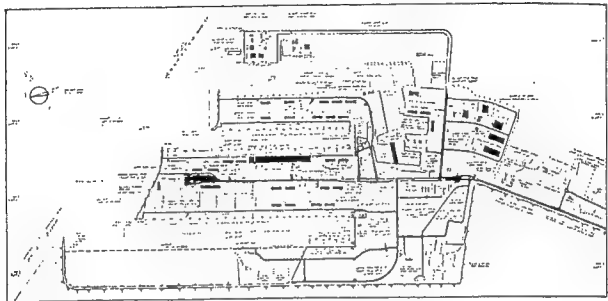
(خط الساحل) بسكة حديد بطول ١٠ كم ، وتعد هذه المرحلة الأولى لتطوير الميناء .

ونتيجة لتوسع أعمال شركة أرامكو ، وتبلور الحركة التجارية في المملكة أظهر الميناء عجزاً عن القيام بالمهام الموكلة به . الأمر الذي أدى إلى تنفيذ مرحلة التطوير الثانية عام ١٩٥٨م وتمثلت بتوسعة الطريق البري المجاور لخط سكة الحديد والذي يربط الميناء بالداخل ، إضافة إلى إنشاء المرفأ الخاص بالمراكب الصغيرة — وأهم أعمال هذه المرحلة بناء أربعة أرصفة جديدة ، أهمها رصيف «مدالي» الذي يمتد داخل البحر لمسافة ١١ كم ويضم أربعة مراسي يستطيع استقبال أربعة سفن محيطية وهو بمثابة جزيرة اصطناعية ، والذي عرف فيما بعد باسم «رصيف الملك عبد العزيز» ولم تحظ موانئ الحفجي والجبل ورأس تنورة بالاهتمام إلا في أوائل السبعينات من هذا القرن عندما توفرت الأسباب الداعية إلى ذلك . شكل (٤ ، ٥) .

وكان من نتائج البرامج والمخططات التي وضعت من أجل تطوير الموانئ أن أصبح «ميناء الدمام» في مقدمة موانئ الخليج العربي ، وفي المركز الثاني بين الموانئ السعودية بعد «ميناء جدة» من حيث الأهمية النسبية لكميات البضائع المرفوعة وقدرة الميناء بشكل يجعل من الصعب مقارنته بالموانئ الأخرى .

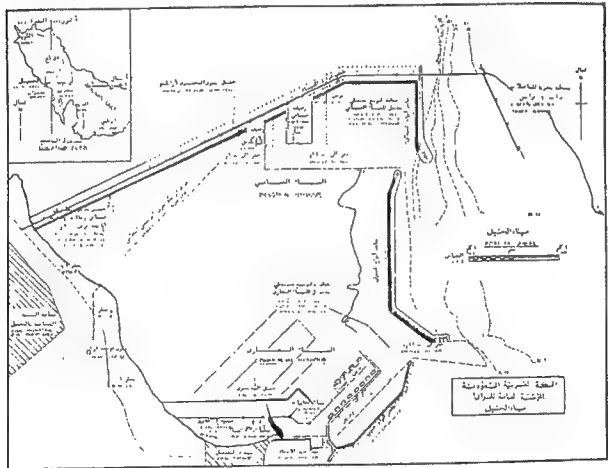
وأصبحت موانئ الجبل والحفجي ورأس تنورة تحتل المراكز التالية له بالنسبة للمنطقة ، وتعتبر من الموانئ المتخصصة في الوظيفة الصناعية بالنسبة للجبل ، وتصدير البترول لكل من ميناء الحفجي ورأس تنورة . وقد بدأت مشاريع التطوير والتنمية تتوجه إليهما منذ أن اشتد الضغط على الموانئ السعودية الرئيسية خلال السبعينات رغبة في تخفيف الضغط عليها وانعاش هذه الموانئ .

ونظراً لأن هذه الموانئ الأربعة (الدمام والجبل والحفجي ورأس تنورة) قد أصبحت أهم الموانئ السعودية على الخليج العربي ، فقد تلاشت أهمية الموانئ الصغيرة والتي حافظت على دورها التقليدي بتواضع في استقبال مراكب الصيد والنقل المحلية الصغيرة ، وساعد على ذلك قربها من الموانئ النشطة اقتصادياً مما يقلل من أهمية تنميتها ، إلا أن ذلك لم يعق تنمية المراكز



شكل (4)

● المظاهر الجغرافية - لبناء الدمام ●



شكل (5)

● المظاهر الجغرافية لبناء الجبل ●

(جدول ٥)

طاقة الموازن السعودية (بالأطنان) للفترة ١٣٩٨ هـ - ١٤٠٤ هـ (١٩٧٧/١٩٨٣ مليون طن)

السنوات	الطاقة						الزيادة
	١٩٨٣	١٩٨٢	١٩٨١	١٩٨٠	١٩٧٩	١٩٧٨	١٩٧٧
الدعام	٢٢,٦	...	٢١,٠٩	١٧,٥٥	١٦,٣٢	١٣,٠٠	١٠,٠٠
الجيل التجاري	٥,٥	...	١,٥٦	١,١٣	٠,٩٧٥	٠,٦٥٠	—
الجيل الصناعي	١,٥	—	—	—	—	—	—
الحفر	—	...	—	—	—	—	—
إجمالي الموازن الشرقية ^(١)	٢٩,٦	...	٢٢,٦٥	١٨,٦٨	١٧,٢	١٣,٦٥٠	١٠,٠٠
إجمالي الموازن الغربية	٤١,٤	...	٣٦,٦٥	٣٠,٥٢	٢٨,٤	٢٣,٦٥٠	١٧,٥
المجموع العام	٧١,٠٠	٦٤,٨٠	٥٩,٣	٤٩,٢	٤٥,٧	٣٦,٣٠	٢٧,٥

(١) باستثناء موانئ: الحففي ورواس تدرة لأنها موانئ تصدير بترول فقط. الجدول من اعداد البحث والأرقام مصدورها المؤسسة العامة للموازن السعودية ١٩٨٣-٧٧٢.

(جدول ٦)

تطور عدد الأرصفة في الموازن السعودية خلال الفترة ١٣٩٧/١٤٠٤ هـ - ١٩٧٧/١٩٨٣ م

السنوات	السنوات						نسبة الزيادة
	١٩٧٧	١٩٧٨	١٩٧٩	١٩٨٠	١٩٨١	١٩٨٢	١٩٨٣
الدعام	٢٤	٢٨	٢٧	٤٠	٤٠	٤٠	٦٦,٦
الجيل التجاري	٢	١٠	١٦	١٦	١٦	١٦	٧٠٠
الجيل الصناعي	—	—	—	—	—	—	١٠٠
الحفر	١	١	١	٤	٤	٤	٣٠٠
إجمالي موازن الشرقية	٢٧	٣٩	٥٤	٦٠	٦٠	٦٠	١٨١,٤
إجمالي موازن الغربية	٣١	٤٤	٤٥	٤٩	٥٨	٥٨	٠,٨٧
المجموع العام	٥٨	٨٣	٩٩	١٠٩	١١٨	١١٨	١٣١

الجدول من اعداد الباحث والأرقام مصدورها المؤسسة العامة للموازن السعودية ١٩٨٣/١٩٧٧.

العمرانية التابعة لهذه الموانئ الصغيرة .

٣-٢ طاقة الموانئ خلال الفترة ١٩٧٧ / ١٩٨٤ م :

ترتب على اكتشاف البترول في القسم الشرقي من المملكة عام ١٩٣٨ م ودخوله للأسواق العالمية عام ١٩٤٥ م ، حيث أصبح يمثل القاعدة العريضة لاقتصاد المملكة ، أن أخذت السياسة الحكومية تتجه نحو تركيز بعض مشروعات التنمية الاقتصادية في هذا القسم ، الأمر الذي انعكست آثاره الهامة على تطوير وتنمية الموانئ الواقعة على مقربة من مناطق الإنتاج البترولي .

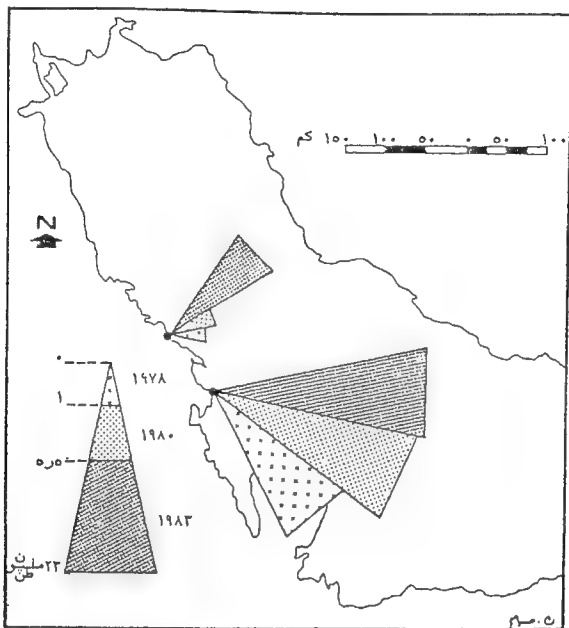
ومن تحليل بيانات الجدولين (٥ ، ٦) والشكل (٦) التي تعطي صورة واضحة عن برامج توسعة الموانئ ، تظهر الحقائق التالية :

أ - بلغ عدد أرصفة الموانئ السعودية عام ١٩٧٧ م ٥٨ رصيفاً ارتفعت إلى ١٣٤ رصيفاً عام ١٩٨٣ م بنسبة زيادة قدرها ١٣١ ٪ خلال هذه الفترة أي بزيادة سنوية ٢١,٨ ٪ . وهذا مؤشر على الدور الكبير الذي أصبحت تلعبه الموانئ في خطط التنمية حيث عن طريقها يتم توفير الاحتياجات المختلفة التي تحتاج لها البلاد ، وذلك عن طريق الاستيراد من عالم الفائض الزراعي الصناعي .

ب - ولقد كان من نصيب الموانئ السعودية الخليجية من هذه الأرصفة ٢٧ رصيفاً عام ١٩٧٧ م وهو ما يعادل ٤٦,٥ ٪ من إجمالي أرصفة الموانئ السعودية ، مقابل ثمانية أرصفة عام ١٩٦٨ م ، ارتفعت إلى ٧٦ رصيفاً عام ١٩٨٣ م وهو ما يوازي ٥٦,٧ ٪ من الإجمالي الكلي للأرصفة .

ج - وللأهمية الخاصة التي يحتلها ميناء «الدمام» لكونه بوابة السعودية الشرقية والميناء التجاري الثاني في السعودية فقد استحوذ على ٢٤ رصيفاً من مجموع أرصفة الموانئ السعودية لعام ١٩٧٧ م ، أي ما يعادل ٤١,٣ ٪ ارتفع عددها عام ١٩٨٣ م إلى ٤٠ رصيفاً .

د - وقد ترتب على زيادة عدد الأرصفة الارتفاع السريع في طاقة التفريغ الإجمالية فبلغ حجم



شكل (٦)

● تطور طاقة التفريغ في موانئ الخليج السعودية الفترة ١٩٧٨-١٩٨٣ م ●

البضائع التي استقبلتها الموانئ السعودية عام ١٩٧٧ م ، ٢٧,٥ مليون طن ، كان منها ٣٦,٣ ٪ عن طريق الموانئ السعودية الخليجية ، استحوذ عليها ميناء الدمام ، حيث لم تظهر مساهمة ميناء الجبيل في هذا العام ، أما ميناء الحفجي وميناء رأس تنورة فهما مخصصان لتصدير البترول فقط .

ارتفعت الواردات نتيجة لارتفاع عدد الأرصفة إلى حوالي ٧٠ مليون طن عام ١٩٨٣ م ،
تمكنت موانئ الخليج السعودية خلالها أن تؤمن من أرصفتها وحدها طاقة إجمالية قدرها
٢٩,٦٠ مليون طن في ذلك العام وهو ما يوازي حوالي ٤٢ ٪ من الإجمالي ، خص ميناء
الدمام ما يوازي ٣١,٨ ٪ والجبيل التجاري ٧,٧ ٪ والجبيل الصناعي ٢,١ ٪ من إجمالي
الواردات العام .

ولو أخذنا الأهمية النسبية لإجمالي الواردات عن طريق الموانئ السعودية الخليجية لوجدنا
ميناء الدمام يحتل المركز الأول حيث سجل ٧٦,٣ ٪ يليه الجبيل التجاري ١٨,٥ ٪ والجبيل
الصناعي ٥,٢ ٪ من إجمالي واردات هذه الموانئ .

ونتيجة لهذه الأهمية يمتد ظهور Hinterlands ميناء «الدمام» ليعطي القسم الشرقي ومعظم
الوسط ، حيث ترتبط به شبكة من الطرق المعبدة ، ولا ينافسه في ذلك سوى ميناء جدة الذي
يطغى تأثيره على معظم أجزاء المملكة. شكل (٧ ، ٨).

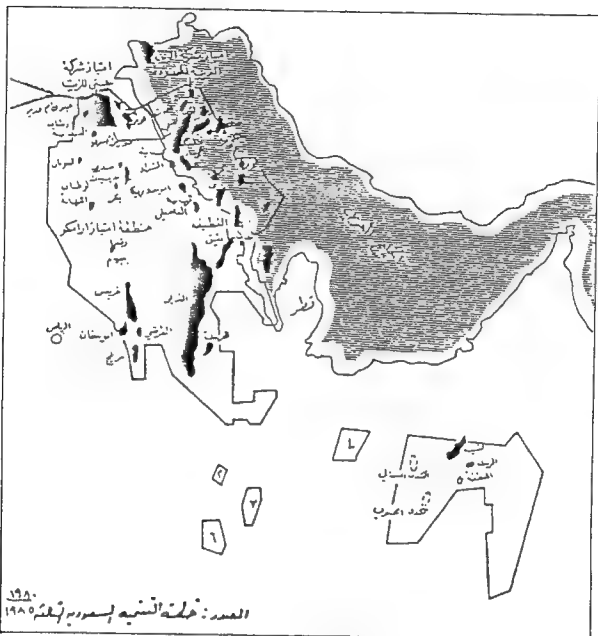
أما موانئ الجبيل والخفجي ورأس تنورة — فلا يتعدى ظهورها المراكز العمرانية المحيطة
بها ، لكون أهمية ميناء الدمام وتخصصه في الاستيراد قد طغت عليها وأسرت أهميتها حتى أن
معظمها أصبح من الأراضي الخلفية التابعة له — أضف إلى ذلك تخصص تلك الموانئ ،
بتصدير البترول ومنتجاته الصناعية .

وعملية الاستيراد التجارية تطلبت امتداد المجال البحري لميناء الدمام إلى معظم موانئ
العالم والتي يمكن تحديدها بثلاثة مجالات هي^(١٩) :

- ١ — مجال بحري أدنى : مثلاً في موانئ الأقطار المجاورة ومساهمته بحوالي ٤ ٪ .
- ٢ — مجال بحري أوسط : ويمكن تقسيمه إلى مجموعتين :

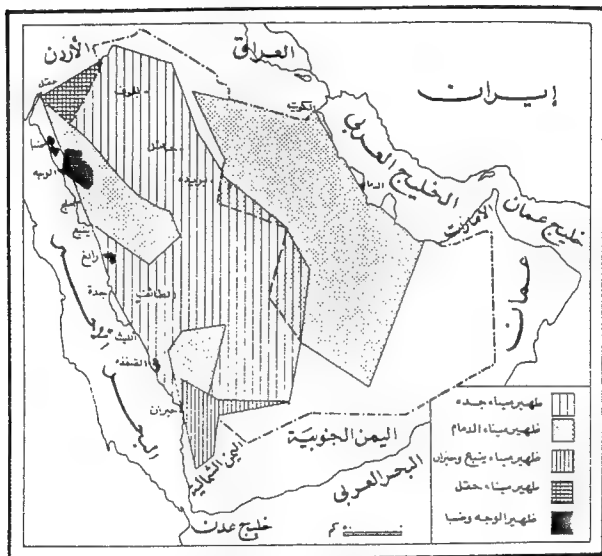
- أ — موانئ دول غرب وشرق أوروبا ويخصها حوالي ٤٢ ٪
- ب — موانئ أقطار جنوب شرق آسيا ويخصها ٢٩ ٪

- ٣ — مجال بحري أقصى : تستحوذ عليه موانئ الولايات المتحدة وكندا بحوالي ٢٢,٦ ٪
واقيانوسيا وأفريقيا ٢,٤ ٪ من إجمالي الواردات (جدول ٧).



شكل (٧)

● الظهير الاقتصادي (البترولي) للموانئ السعودية على الخليج العربي ●



شكل (أ)

● أقاليم الظهير للموانئ السعودية ●

(جدول ٧)

المجموعات الرئيسية الواقعة ضمن النظر (المجال البحري) والنسبة المئوية للمجموعة التي أسهمت بها خلال الفترة ١٩٢٦ - ١٩٨١

السنة	الولايات المتحدة وكندا	غرب أوروبا ^(١)	شرق أوروبا	العالم العربي ^(٢)	الريفيا	آسيا	أوقيانوسيا ودول أخرى	المجموع
١٩٦٨	٢٣,٦٣	٣٣,٠	١,٢٨	١٨,٧١	٢,٦٥	١٧,١٢	٣,٥١	١٠٠
١٩٦٩	١٨,٦	٣٦,٤	١,٦	١٨,٦	٤,٥	١٨,٥	١,٨	١٠٠
١٩٧٠	١٨,٠	٣٣,٨	٢,٢	١٩,٩	٤,٠	١٩,١	٣,٠	١٠٠
١٩٧١	١٧,٢	٣٣,٢	٢,١	٢٢,١	٤,٢	١٩,٤	١,٨	١٠٠
١٩٧٢	١٩,٨	٣٨,٥	٢,٠	٢١,٤	٤,٦	٢١,٤	١,٨	١٠٠
١٩٧٣	٣٠,٢	٣٢,٧	٢,٢	٢٣,٦	٣,٢	٢٢,٨	٢,٥	١٠٠
١٩٧٤	١٧,٠	٣٤,٨	١,٧	٢٩,١	٢,٦	٢٣,٣	٠,٩	١٠٠
١٩٧٥	١٧,١	٣٠,٦	٠,٨	٢٤,٦	٢,١	٢١,٢	٢,٨	١٠٠
١٩٧٦	١٩,١	٣٤,٢	١,١	٢٣,٨	١,٢	١٨,٥	٢,١	١٠٠
١٩٧٧	١٩,٢	٣٦,٨	٠,٧	١٤,٠	٠,٩	٢٠,٣	٨,١	١٠٠
١٩٧٨	٢١,٧	٤٣,٩	١,٤	٤,٠	١,٠	٢٥,٤	٢,٧	١٠٠
١٩٨١	٢٢,٦	٤٠,٦	١,٠	٣,٨	١,٣	٢٨,٧	١,٣	١٠٠

(١) وتشمل دول السوق الأوروبية - إلى جانب اليونان - إسبانيا - سويسرا - تركيا

(٢) البحرين - الأردن - الكويت - لبنان - سوريا (والشرق الأوسط)
الجدول من أعداد البحث، معتمدًا على أرقام إحصاءات التجارة الخارجية ومصدرها.

٤ - ٢ مركز الموانئ السعودية الخليجية على المستوى القومي والاقليمي والعالمي :

ونخلال العصور التاريخية التي مرت على المنطقة ، احتلت هذه الموانئ مركزاً على المستويين القومي والاقليمي ، تعرض للصمود فترة والهبوط أخرى تبعاً للظروف السياسية والاقتصادية التي اجتاحت المنطقة ، والتي استقرت بظهور السعودية على الخريطة السياسية ١٩٣٢م ، والذي انعكست آثاره على نمو هذه الموانئ وتطورها السريع .

والإحصاءات المتوفرة^(٢٠) توضح أن ميناء الدمام مازال يحتل المركز الثاني بين الموانئ السعودية من حيث استقبال السفن إذ خصه ٣١ ٪ واحتلت جدة المركز الأول ٥٦ ٪ وبنع استحوذت على ٨,٥ ٪ وجيزان ٤,٥ ٪ من أعداد البواخر الواصلة .

وإذا نظر إلى مركز الموانئ السعودية الخليجية من المستوى القومي إلى مستوى حوض الخليج العربي ، فإننا نجدتها تحتل مركزاً مميزاً وهذا ما يوضحه جدول (٨) والذي يظهر أن ميناء

(جدول ٨)
مركز الموانئ السعودية بين أهم موانئ حوض الخليج العربي
من حيث حجم البضائع وعدد الأرصفة

الميناء	المرتبة	حجم التفريغ السوي (مليون طن)	عدد الأرصفة	متوسط طاقة التفريغ لرصيف (الف طن)
الدمام	١	٢٢,٦٠٠	٤٠	٥٦٥
الجبيل	٢	٧,٠٠٠	٣٢	٢١٨
ميناء جبل علي «دبي»	٧	١,٣٣٢	٦٦	٢٠
ميناء راشد «دبي»	٥	٢,٨٢٩	٣٥	٨٠
ميناء سليلان	٦	١,١١١	١٦	٦٩
ميناء الشويخ	٣	٦,٥٩٦	١٨	٣٦٦
ميناء قابوس	٤	١,١١١	٩	١٢٣
		٤٢,٥٧٩	٢١٦	١٩٧

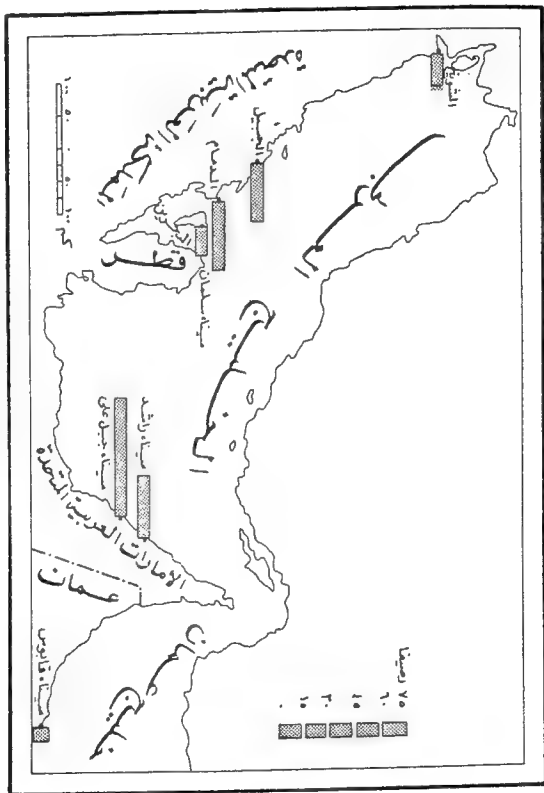
الدمام يأتي في المقدمة من حيث عدد الأرصفة (٤٠ رصيفاً) وحجم البضائع المفرغة ومتوسط طاقة التفريغ . وهذا ينطبق على ميناء الجبيل الذي احتل المركز الثاني . شكل (٩ ، ١٠) .

ولنلاحظ أن جميع الموانئ السعودية الخليجية سجلت حوالي ٧٠٪ من حجم التفريغ السنوي لموانئ الخليج العربي الغربية لعام ١٩٨٣ حيث سجلت الدمام وحدها ٥٣,١٪ كذلك بالنسبة للأرصفة ، استحوذت الموانئ السعودية الخليجية على ٧٢ رصيفاً ، وهو ما يعادل ٣٣,٣٪ من إجمالي أرصفة موانئ الخليج العربية ، نصيب ميناء الدمام منها حوالي ١٨,٥٪ من جملة أرصفة موانئ الخليج العربية .

وبالنسبة لمتوسط طاقة تفريغ الرصيف الواحد يحتل ميناء الدمام المركز الأول ، يليه ميناء الشويخ - الكويت ، والجبيل في المركز الثالث وهي تعادل مرة ونصف طاقة ميناء الشويخ ، وسبعة مرات متوسط ميناء راشد ، وتزيد على ثمان وعشرين مرة لمتوسط طاقة أرصفة ميناء جبيل على التي تقدر ب ٦٦ رصيفاً .

● مركز الدواير السعيدة بين موازيه الخليج العربي ● شكل (١٠)

(حسب عدد الارضه) لعام ١٩٨٠م



وعلى أساس متوسط عدد السفن القادمة للتفريغ فقد استحوذ ميناء الدمام وحده على ٢٣ ٪ من إجمالي عدد السفن القادمة إلى موانئ الخليج العربية والتي تقدر بـ ١٠٩٨٩ سفينة^(٣١) وهذا مؤشر على ضخامة مشاريع التنمية التي تنفذ في ظهير الميناء المجاور والبعيد على امتداد الأراضي السعودية .

نتائج الدراسة :

أوضحت الدراسة ، وجود ارتباط قوي بين طبيعة الساحل الشرقي السعودي — ونشأة الموانئ عليه ، حيث كان لظروف الطبيعة المختلفة والسائدة في المنطقة أثر في بروز بعض المظاهر الطبيعية المميزة للساحل ، والتي كان من أهمها ، اكتشاف العدد الكبير من الرؤوس والدوحت (الخلجان) والجزر القريبة من الساحل والمتميزة بالحماية الطبيعية من الرياح والأمواج ، وبالعق النسبي ، أن تكون النواة الأولى للموانئ الحالية والتي كانت تعرف بالمرفأء الطبيعية Natural Harbours وهي منتشرة على خط الساحل السعودي الشرقي البالغ طوله ٥٣٠ كم .

واعتبارات الموقع والتجارة — والظهير الاقتصادي (البرولي — الزراعي) أدت إلى بروز أهمية بعض هذه المرفأء الطبيعية على هذا الساحل ونحوها إلى موانئ Ports ذات وظائف متعددة لخدمة المنطقة ومن أهمها الدمام — رأس تنورة — الخفجي ، السفانية ، الجبيل .

وأظهرت الدراسة أن التغير والتنمية التي حظيت بها الموانئ السعودية الخليجية خلال النصف الثاني من القرن العشرين يقف وراءها استثمار البيئة المجاورة لهذه الموانئ ، والتي اعتمدت على المقومات الجغرافية للبيئة المحلية بشقيها الطبيعي والبشري ، والتي كان البعض منها سبباً وراء الصورة الحالية التي وصلت إليها هذه الموانئ ، والتي يمكن إجمالها في المقومات التالية :

١ — اقتصاديات الظهير المجاور — والذي تضم أراضيه حقول النفط السعودية التي تنتج حوالي ٩,٨ مليون برميل (١٩٨١م) وهو ما يعادل ١٧,٥ ٪ من جلة الإنتاج العالمي وحوالي ثلاث مرات ونصف من إنتاج دول الخليج مجتمعة (٢,٨ مليون برميل ، وتستحوذ على حوالي ٢٤ ٪^(٣٢) من الاحتياطي العالمي للبتروال الأمر الذي جعل لهذه المنطقة أهمية استراتيجية على المستوى العالمي ، سواء في الإنتاج أو في الاحتياطي المؤكد من البتروال . وقد ترتب على وجود

النفط في هذه المنطقة ، ومنذ اكتشافه ١٩٣٨م ودخوله الأسواق العالمية ، الاهتمام من قبل الجهات المختصة لاختيار بعض المرافئ الطبيعية المنتشرة على الساحل ، وتطويرها لتصبح موانئ ذات وظائف مختلفة تخدم الظهير المجاور ، وكان من نتائج برامج تطوير وتنمية الموانئ والتي بدى فيها منذ أوائل الخمسينات الميلادية ، ظهور «ميناء الدمام» التجاري لتلبية احتياجات خطط التنمية على المستوى المحلي والقموي ، والتي تطلبت ربطه بوسط البلاد بخط سكة حديد متصلة بمدينة الرياض العاصمة .

أما تصدير البترول فكان يقف وراء ظهور موانئ رأس تنورة والخفجي والسفانية ... الخ ، والاتجاه نحو تنوع القاعدة الاقتصادية أدى إلى ظهور ميناء الجبيل الصناعي في أوائل السبعينات ليكون أحد طرفي المجمع الصناعي الكبير الذي يوجد طرفه الآخر في الساحل الغربي بميناء ينبع الصناعي . شكل (٧) .

أما المرافئ الطبيعية الصغيرة الواقعة في القسم الجنوبي من الساحل ، فتتبع لموقعها في مناطق تميزت بضعف ظهيرها سكانياً واقتصادياً ، تأخر تطويرها على الرغم من أهميتها التاريخية .

٢ - وعلى الرغم من قسوة المناخ الصحراوي في المنطقة ، وقلة الموارد المائية ، إلا أنه يمكن القول ، بعد التقدم التكنولوجي ، بتلاشي تأثير هذه العقبة ، وخاصة عندما قامت الجهات المختصة ببناء مجموعة من محطات تحلية مياه البحر والتي كانت عاملاً مشجعاً على تطوير وتنمية هذه الموانئ ومراكزها العمرانية ، وأدت إلى قيام مشاريع اقتصادية مختلفة ، كانت عامل جذب للسكان إلى مراكز الموانئ العمرانية بأعداد كبيرة .

٣ - والتنمية الاقتصادية لهذه الموانئ واستثمارها توقف على سهولة المواصلات وصعوبتها ، حيث أمكن ربطها بمعظم مدن الداخل السعودية ، ومشكلة عدم توفر الطرق كانت سبباً في شل حركة المنطقة اقتصادياً وحضارياً ، وكانت وراء تخلف الموانئ وانعزالها ، وضعف تأثيرها على المناطق المجاورة . وتكاملت مواصلاتها البرية بإنشاء سكة حديد الدمام - الرياض في منتصف الخمسينات ، حيث كان لذلك انعكاساته بالنسبة لوظائف هذه الموانئ وتحويلها إلى وظائف مرتبطة بمزايا موقعها الجغرافي وليس مجرد وظائف معتمدة على موارد مالية من خارج المنطقة .

وأخيراً نتساءل ماهو المستقبل الذي ينتظر هذه الموانئ ؟

أوضحنا في الصفحات السابقة أن اقتصاديات الظهر المجاور سواء كانت البترولية أو الزراعية ، أو تلبية احتياجات مشروعات التنمية المحلية أو القومية تقف وراء تنمية وتطوير موانئ الساحل الشرقي «فالدمام» استقطبت كل الأهمية في مشروعات التنمية الاقتصادية بالنسبة للموانئ ، وينافسه في هذا المجال «ميناء الجبيل» نتيجة للقرار السياسي الذي جعل منها مركزاً للصناعات القائمة على البترول ومشتقاته ، وجعل من رأس تنورة والسفانية والخفجي موانئ لتصدير البترول - ونتيجة لتركز مشروعات التنمية والتطوير في موانئ القسم الشمالي والأوسط من الساحل الشرقي ومراكزه العمرانية ، بقيت الأجزاء الجنوبية من الساحل من جنوب الخبر حتى دوحة سلوى مهملة مما أفرغها من سكانها وعدم الاهتمام بتطوير موانئها الصغيرة للاعتقاد بعدم جدواها اقتصادياً في الوقت الحاضر ، لارتباطها بالظهر المجاور والذي يتوقف تطويره وتنميته على قرار سياسي بموجبه يتم وضع خطة تنمية للمنطقة ، يكون من أهدافها توجيه بعض مشاريع التنمية الاقتصادية إلى بعض موانئ الخليج السعودية الصغيرة وفي مقدمتها «العقير» .

وعن السؤال الذي يفرض نفسه ولا شك وهو ما مستقبل هذه الموانئ ؟ نجيب بالآتي :

بعد نفاد مخزون البترول من الظهر المجاور والذي يقدر بما يزيد على المائة عام؟ في ظل استمرارية الاعتماد على البترول وحده كمقاعدة اقتصادية دون النظر إلى تطوير الأنشطة الأخرى يمكن القول: إن مصير هذه الموانئ ما عدا ميناء الدمام التجاري سيؤول إلى المصير الذي لاقتة مدن التعدين وموانئها في الكثير من مناطق العالم حيث تلاشت وأصبحت مراكز مهجورة بعد توقف الحياة فيها ، مالم تتدارك الجهات المختصة صاحبة القرار السياسي ذلك - وتقوم بوضع سياسة جديدة لتنمية الساحل وموانئه إقليمياً معتمدة على عدة مميزات من أهمها ؛

١ - وضع خطة للتنمية الاقتصادية من أهدافها تحويل المنطقة المجاورة لهذه الموانئ من منطقة استهلاكية إلى منطقة إنتاجية ، معتمدة على استثمار الظهر المجاور (غيرالبترول) مع التركيز على الرعوى والزراعي والسياحي استثماراً جدياً يمكن لهذه الموانئ ومراكزها العمرانية من الاستثمار والبقاء .

٢ - إقامة مراكز صناعية في الموانئ الصغيرة وخاصة التي تمارس وظيفة تصدير البترول ، وذلك بقيام الدولة بتوجيه بعض مشروعات التنمية لهذه الموانئ ، لتكون عامل جذب للسكان ومن أهم الصناعات التي يمكن توطيدها في هذه الموانئ :

أ - صيد الأسماك وتعليقها وتجميدها للتصدير ويقترح توطيدها في «الحفحي» على مقربة من المصايد الشمالية - وفي «العقير» بجوار المصايد الجنوبية .

ب - صناعة بناء السفن على اختلاف أنواعها - وتتخذ القطيف مرفأً لها لكونه قريباً من الدمام الذي يقف عقبه أمام تحويله الى ميناء تجارى .

ج - التوسع في الصناعات البترولية في ميناء الجبيل .

وخلاصة القول إن استخدام القرارات الحكومية لتوجيه مشاريع تنمية جديدة الى الموانئ السعودية الخليجية لإعطائها وظائف جديدة إلى جانب تصدير البترول والاستيراد التجارى ، سيساعد على توطن أنشطة اقتصادية جديدة في هذه الموانئ ، الأمر الذى يؤدى الى استمرارية بقائها كموانئ ومراكز عمرانية حتى بعد تلاشى أهمية البترول وتدنّي صادراته إلى العالم الصناعى .

الهوامش :

- ١ - الرويثي ، محمد أحمد : الموانئ السعودية على البحر الأحمر ، دراسة في الجغرافيا الاقتصادية ، الرياض ، ١٩٨٤م ، ص ٢٩ .
- ٢ - Arabian Peninsula, Scale 1:2,000,000 Interior Geol. Survey, Washington, D.C. 10049, 1967 .
- ٣ - وزارة المالية والاقتصاد الوطني : مصلحة الإحصاءات العامة ، الكتاب الإحصائي السنوي ، العدد السادي عشر ١٩٨٠م .
- ٤ - متول ، محمد وأبو العلا محمد : جغرافية الخليج ، مكتبة النلاح ، الكويت ١٩٨٢م ، ص ١٢ .
- ٥ - الرويثي ، محمد أحمد : الموانئ السعودية على البحر الأحمر ، دراسة في الجغرافيا الاقتصادية ، الرياض ١٩٨٤م ، ص ٤٨ .
- ٦ - Steineke, M. Harriss, T.F., Parsons, K.R. and Berg, E.L., Geographic Map of the Western Arabian Gulf Quadrangle, GM 208B. Jiddah, 1977 .
- ٧ - الجدول من اعداد الباحث ، معتمداً على الخريطة الجغرافية للمملكة ، والتعداد العام للسكان لعام ١٩٧٤م .
- ٨ - الجدول من اعداد الباحث .
- ٩ - الفرا ، طه عثمان : ظاهرة السجلات في المملكة العربية السعودية ، مجلة الدارة ، دار الملك عبد العزيز ، السنة الثالثة ، العدد الرابع ، صفر ١٣٩٨هـ - يناير ١٩٧٨م ، ١٣٢ .
- ١٠ - استخلصت وحسب جميع الأرقام من منشورات مصلحة الأرصاد الجوية بوزارة الدفاع ، الفترة ١٩٨٤/١٩٧٦م .

- ١١ - وزارة الزراعة : قسم الميد رولوجيا - التقرير السنوي لعام ١٩٨٠ م .
- ١٢ - الجداول من اعداد الباحث ، والأرقام مصدرها خطة التنمية الثالثة ١٩٨٥/١٩٨٠ م .
- ١٣ - شاكور ، محمود : شبه جزيرة العرب ، ج ٤ ، المكتب الاسلامي ، بيروت ، ١٩٨١ م ، ص ٢٨ .
- ١٤ - المنيع ، محمد : توحيد المملكة العربية السعودية ، ترجمة عبدالله المشين ، ١٩٨٢ ، ص ٩ ، ١٨ .
- ١٥ - الرديني ، محمد احمد : الموانئ السعودية على البحر الأحمر ، دراسة في الجغرافيا الاقتصادية ، الرياض ١٩٨٤ م ، ص ٤٨ .
- ١٦ - Weigend. G.G. Some Elements in Study of Ports Geography, Geog. Rev., April, 1958, PP. 185-200.
- ١٧ - خطة التنمية الثانية ، مرجع سبق ذكره ص ٦٣٨ .
- ١٨ - المؤسسة العامة لمخطوطات حفيد الملكة العربية السعودية «ميناء الدمام» ١٩٧٥ م ، ص ٢٣ .
- ١٩ - النسن من حساب الباحث ، والأرقام مصدرها وزارة المالية والاقتصاد الوطني ، مصلحة الإحصاءات العامة ، احصاءات التجارة الخارجية للسنوات ١٩٧٦/١٩٨٣ م .
- ٢٠ - المؤسسة العامة للمواني : الاحصاءات السنوية ١٤٠٣ هـ ، الرياض .
- ٢١ - مكى ، ابراهيم : تطور نظام نقل متكامل من موانئ الخليج العربية ، بحث مقدم للمؤتمر الثالث للمواني العربية ، الرياض ١٩٨٢ م ، ٨ ، ٩ .
- ٢٢ - وزارة البترول والثروة المعدنية ، النشرة الإحصائية البترولية ، العدد (١٢) ١٩٨١ .

شكل (١)

الخريطة الجغرافية للقسم الشرقي من السعودية
الطاقة الانتاجية اليومية لمحطات تحلية المياه على الساحلي الشرقي السعودي

شكل (٢)

شكل (٣)

تصنيف الموانئ السعودية على الخليج العربي حسب الوظيفة

شكل (٤)

المظاهر الجغرافية - لبناء الدمام

شكل (٥)

المظاهر الجغرافية لبناء الجبيل

تطور طاقة التفريغ في موانئ الخليج الفترة ١٩٧٨ - ١٩٨٣ م

شكل (٦)

النظير الاقتصادي (البترولي) للموانئ السعودية على الخليج العربي

شكل (٧)

شكل (٨)

أقاليم الظهير للمواني السعودية

شكل (٩)

مركز الموانئ السعودية بين موانئ الخليج العربي حسب حجم التفريغ السنوي لعام ١٩٨٠ م
شكل

شكل (١٠)

مركز الموانئ السعودية بين موانئ الخليج العربي (حسب عدد الأرصفة) لعام ١٩٨٠ م

دراسة جيومورفولوجية

لبعض أحواض الأودية بهضبة نجد

د. محمد صبري محسوب سليم

مقدمة :

تهدف هذه الدراسة إلى توضيح الخصائص الجيومورفولوجية لأنظمة التصريف المائي بهضبة نجد باعتبار أنها من أهم الظواهر المميزة لسطح الأرض بها.

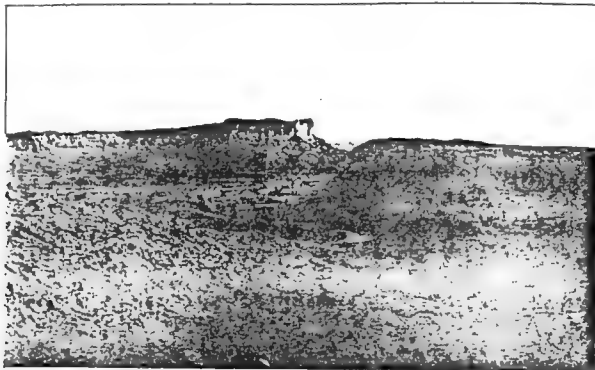


وقد اعتمدت هذه الدراسة على العديد من الملاحظات الميدانية من خلال زيارات متكررة لعدد كبير من هذه الأودية تم فيها عمل قياسات مورفومترية باستخدام الأجهزة الخاصة بذلك مثل عجلة القياس الميدانية وميزان ابني الخاص بقياس الانحدارات والبوصلة وشريط القياس وغيرها. ومن هذه الأودية مجموعة روافد وادي حريملاء (اللياطة والشعبة والشريح الأيمن وقتادة) ووادي الركية شمال بلدة القصب ووادي لبن الذي ينتهي إلى الجنوب الغربي من مدينة الرياض ووادي الغيل بمنطقة الأفلاج ووادي البرك بمنطقة الحوطة. وقد أُنِج للكاتب الحصول على مجموعة من الخرائط الكنتورية بمقياس ١ : ٥٠,٠٠٠ خاصة بتلك المناطق بالإضافة إلى الخرائط الجيولوجية والتركيبية مما ساعد كثيراً في انجاز هذه الدراسة والتي ركزت على التحليل المورفومتري لخمسة أحواض متباعدة في أحيائها ومواقعها وهذه الأحواض هي : حوض وادي الحيسية وحوض وادي لبن وحوض وادي الركية الذي يمتد على طول المنحدرات الجنوبية الشرقية لحافة طريق شمال القصب وحوض وادي مهدية وحوض وادي الشعبة.

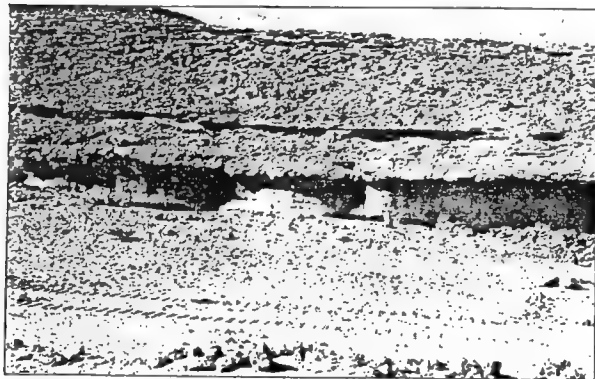
وجدير بالذكر أن من أهم الدوافع التي دفعت إلى كتابة هذا المقال ندرة الدراسات الخاصة بـ الجيومورفولوجية هضبة نجد بصفة عامة وأوديتها بصفة خاصة بالرغم من الغنى الواضح بالظواهر الجيومورفية والتي يمكن أن تكون مجالاً خصباً للدارسين والباحثين ومن هنا فالأمل كبير في أن تكون هذه الدراسة التحليلية المختصرة لأودية نجد بداية لدراسات جغرافية مفصلة لهذه المنطقة الهامة من مناطق المملكة للمساهمة في تطور استخدام الأرض بها.

الخصائص المورفولوجية العامة لأودية هضبة نجد :

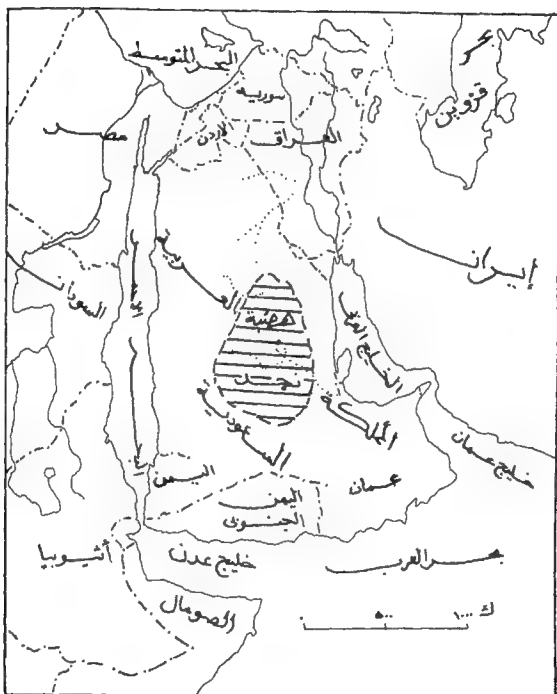
برغم عدم وجود أنهار دائمة الجريان بهضبة نجد إلا أن سطحها يتميز بتقطعه بشدة بفعل التعرية النهرية dissected by fluvial erosion ويتضح ذلك من وجود العديد من الأودية العميقة والتي مازالت قيعان الكثير منها مغطاة بطبقات صلصالية سميكة كما أن العديد من مناطق تقسيم المياه ومناطق ما بين الأودية «الضلوع» interfluvial areas قد وضح عليها مظاهر الجرم فتبدو شديدة التمزق بفعل النحت المائي للروافد والشعاب بدرجاتها المختلفة وكثيراً ما تتضح ظاهرة الأسر النهرية river capture في المنابع العليا عند مناطق تقسيم المياه (صورة فوتوغرافية رقم ١) ومن الظواهر الشائعة والتي ترتبط بالنحت المائي ظاهرة التقويض السفلي under cutting التي تقوم بها المياه لتوسيع المجرى على حساب تراجع الحافات بعيداً عن القناة المائية وتوضح الصورة الفوتوغرافية رقم (٢) هذه الظاهرة بمجرد أحد روافد وادي حريملاء (وادي الشعبة) والتي لا يمكن لغير المياه دائمة الجريان أن تكونها مما يدل على سيادة النحت المائي النهرية خلال فترات جيولوجية سابقة ترجع إلى أواخر البليستوسين وأوائل الحديث. وإذا كان الحاضر مفتاح الماضي كما نادى بذلك الجيولوجي الاسكتلندي هاتون في القرن الثامن عشر الميلادي فسوف نستعرض باختصار تفسير كارل بوتزر وفيتا فرنزي للظروف المناخية التي سادت تلك المناطق الجافة خلال البليستوسين وماتلاه من أزمنة تاريخية وذلك للمساعدة في تفسير الملامح الجيومورفولوجية للمنطقة والتي لا يمكن أن تكون نتاج مثل الظروف المناخية الحالية حيث لا يزيد متوسط المطر السنوي عن ٢٠٠ مم مع ارتفاع متوسط الحرارة السنوي عن ٣٠ درجة مئوية فوادي مثل حنيقة بطوله الكبير وحافات شديدة الانحدار نحو قاعه لا بد أنه تكون في ظروف مناخية تختلف تماماً عن المناخ الصحراوي الحالي الذي يسود المنطقة.



● صورة رقم (١) ظاهرة الأسر النهرية بمنطقة تقسيم مياه بأعالي وادي قتادة. ●



● صورة رقم (٢) ظاهرة التقويض السفلي بفعل المياه بوادي حرملاء. ●



● شكل (١) الموقع الجغرافي لمضبة تدمر ●

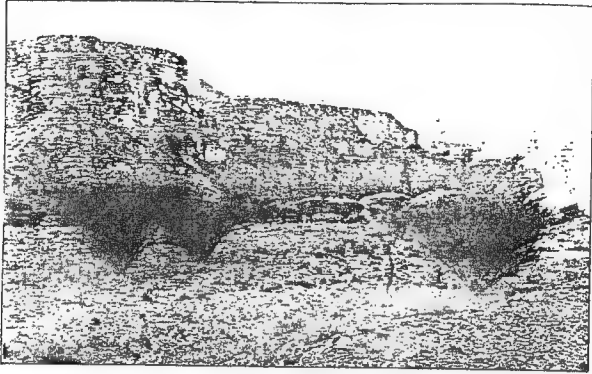
فقط ربط كارل بوتزر^(١) بين مناخ تلك البيئات الصحراوية في البليستوسين وبين الأحداث الجليدية التي مرت بالقارة الأوروبية حيث يشير إلى حدوث فترة مطر في مرحلة المندل تدل عليها آثار الرطوبة والنحت المائي تلتها فترة جفاف ودفع مقابلة للفترة ما بين جليد المندل والرس لتتبعها فترة الرس المطيرة سادت منطقة الدراسة خلالها ظروف مطر وبرودة انتهت بقدم جفاف ودفع مرحلة الغرم ويرى أن المرحلة المطيرة التي أثرت في تشكيل سطح الأرض بالمنطقة وغيرها من المناطق في نفس العروض هي التي حدثت منذ ٢٥٠٠٠ سنة حيث هبطت درجة الحرارة عن المعدل الحالي بنحو أربع درجات مع غزارة في المطر تلتها فترات حدث بها تذبذب ما بين الجفاف والرطوبة وكانت آخر فترات الرطوبة تلك الفترة ما بين ٦٥٠٠ إلى ٥٠٠ ق.م وبعد تلك الفترة فإن الظروف المناخية قد بقيت كما هي مع تذبذبات محلية ومؤثرة في مناطق محدودة ولفترات قصيرة أثرت على منسوب الماء الجوفي فخفضته وأزال التربة والنبات وقد وجه فيتا فرنزي Vita Frinzy الانتباه إلى أن الترسيب وتكون المدرجات terering في أودية الأنهار (والتي تشير إلى ظروف مختلفة أكثر رطوبة) قد حدثت في العصور التاريخية المبكرة^(٢) وعموماً فإن الظروف المناخية الحالية ليست سوى تمهيداً لفترة أكثر جفافاً ودفئاً.

وتعد هضبة نجد أكبر هضاب شبه الجزيرة العربية تحدها من الغرب الصخور الأركية المعقدة لجبال الحجاز وعسير ومن الشرق صحراء الدهناء وتمتد من النفود الكبير في الجنوب لمسافة ٨٠٠ كم بينما يبلغ عرضها ٦٥٠ كم ويصل منسوبها في الغرب إلى أكثر من ١٠٠٠ م ويقل في الشرق إلى نحو ٧٥٠ م ومعنى ذلك أن انحدار الأرض العام وميل الطبقات يتجهان نحو الشرق ببطء شديد مع انحراف نحو الشمال الشرقي شمال خط عرض ٢٤ ش ونحو الجنوب الشرقي جنوبه ويبلغ ميل الطبقات في الأغلب خمس درجات ويصل سمك القطاع الجيولوجي في بعض الأجزاء إلى أكثر من ٥٠٠٠ م وصخورها رسوبية أهمها تكوينات المانجور الرملية التي تتخللها رقائق طفلية وطينية ترسبت في بيئة يابسة خلال الفترة من أواخر العصر الترياسي حتى منتصف الجوارسي تليها إلى أعلى تكوينات المارات التي يدل امتدادها وسمكها على مدى توغل البحر نحو اليابس ويختلف سمكه من منطقة إلى أخرى تعلوها تكوينات ضمة الطفلية الجيرية تغطيها طبقات من الحجر الجيري الصلب (تكوينات طويق) والتي ترجع إلى الجوارسي الأوسط ثم تكوينات أحدث من الطفل والحجر الجيري. وتتميز الهضبة بصفة عامة ببساطة تركيبها

الجيولوجي ونذرة الصدوع والفوالق بها مما يدل على ثباتها ووصولها إلى مرحلة النضج الجيومورفولوجي على العكس من النطاق الأركي في الغرب والذي ترصعه الصدوع بخطوطها الممتدة في اتجاهات مختلفة ونظراً لظروف التجوية والانهيالات الأرضية نجد انتشار الشقوق Fissure والمفاصل Joints في أجزائها المختلفة خاصة على جوانب الحافات شديدة الانحدار الممتدة على طول الأودية مما أعطى مظهراً فزيوغرافياً يشبه أحياناً الصدوع الحقيقية يطلق عليه أشباه الصدوع parafaults.

وبصفة عامة فإن شبكات التصريف المائي في هضبة نجد تعد في أشكالها وفي أحجامها وكثافتها وأنماطها ظاهرات هيرية موروثية تعكس ظروف النمط المناخى القديم الرطب moist repalaeo climate بالإضافة إلى أنها قد تأثرت بالخصائص الليثولوجية والاستراتجرافية لصخور المنطقة وإن كانت لم تتأثر بأي صور تركيبية من صدوع والتواءات لنذرتها وعدم وضوحها بالهضبة فالأودية بصفة عامة أودية تابعة للميل العام للطبقات والانحدار العام للأرض والعديد منها أودية تالية subsequent تمتد في موازاة مضرب الطبقات كروافد لأودية أكبر حجماً تتجه عادة نحو الشرق أو الشمال الشرقي ومن هنا يمكن القول بأن عامل الانحدار وميل الطبقات من العوامل الرئيسية في توجيه هذه الأودية نحو مستويات قاعدتها الدائمة أو المحلية فتبدو أنظمة التصريف المائي في صور شبكات مركبة من الأودية ذات الدرجات المختلفة والتي تتراوح من مسارب rilles دقيقة وضحلة إلى روافد قصيرة تتدرج إلى أودية رئيسية تمتد لمئات الكيلومترات مع قطاعات عرضية تصل إلى مئات الأمتار وذلك في نمط شعري Dendritic Pattern تلتقي فيه الروافد بأوديتها في زوايا حادة تشبه كثيراً نظائرها في مناطق الهضاب الرسوبية في صحراء مصر الشرقية وغيرها من المناطق المشابهة في ظروفها البيئية.

وتتميز العديد من الروافد العليا بمظاهر الشباب من ضيق المجرى وشدة انحدار جوانبه وقطاعه الطولي وسيادة النحت الرأسى (صورة فوتوغرافية رقم ٣) كما تنتشر ظاهرة عدم التلاؤم - الضمور في مجرى القناة المائية - على طول امتداد العديد من الأودية مما يدل على حدوث ظروف مناخية مغايرة لتلك الظروف التي كانت سائدة في الماضي حيث تظهر مجاري طويلة محددة الجوانب حفرت وسط تكوينات أودية سابقة وهذه الظاهرة يمكن رؤيتها بوضوح في وادي الغيل إلى الغرب مباشرة من قرية الغيل بحافة جبل طويق بمنطقة الأفلاج حيث يبدو عليها أثر



● صورة رقم (٣) أحد الروافد العليا لوادي البرك عند التقائه بالوادي الرئيسي. ●

النحت الغطائي والجدولي أكثر وضوحاً من النحت النهري فالمطر الساقط قليل ومع قلته فإنه يسقط مدراراً يرتبط به الغسل الغطائي sheet wash والغسل الجدولي والفيضانات الغطائية كما تعمل النباتات المتناثرة على تركيز المياه في عدد لا يحصى من الجداول الصغيرة.

وفيما يلي دراسة وتحليل مورفومتري لأحواض الأودية الخمسة لمحاولة إبراز الخصائص المورفولوجية لأودية المنطقة الوسطى بصورة أكثر دقة ووضوحاً (شكل ١).

عند دراسة أحواض الأودية دراسة كمية يجب أن نحدد في البداية اتجاهات التعبير عنها من خلال تحديد مجموعة من القياسات الكمية الخاصة بالمنطقة:

أ - مساحة الحوض ومساحة قنوات المجاري المائية الرئيسية وقياس أطوال شبكات التصريف بدرجاتها المختلفة، قياس قطر حوض التصريف وطول محيطه وكثافة التصريف ومعدل التقطع ومعدل نسب التفريغ وغير ذلك.

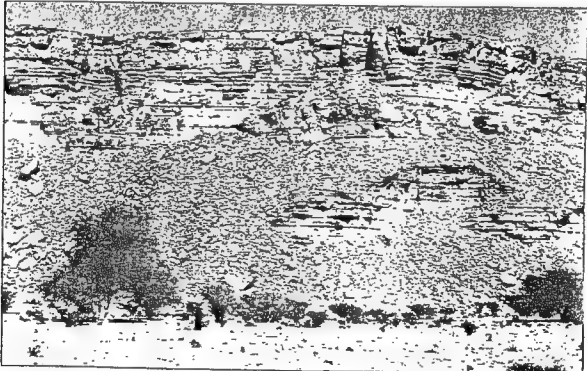
ب - وبالنسبة للشكل يتم تحديد أشكال الأحواض بتطبيق بعض المعادلات الرياضية بالإضافة إلى تحديد أنماط التصريف وغير ذلك من خصائص مثل تحديد درجة التعرج

الطوبوغرافي لقناة الوادي وتحديد مدى تأثيرها بطوبوغرافية الحوض.

جـ - وبالنسبة لتضاريس الأحواض هناك العديد من الأساليب الكمية الخاصة بتمثيلها مثل معدل التضرس والتضرس النسبي ودرجة الوعورة بالإضافة إلى تحليل القطاعات التضاريسية والمنحنيات المختلفة.

أ - المساحة ودرجات الأودية :

نظراً لأهمية مساحة الحوض وعلاقتها القوية بخصائص الشكل وكذلك بالعمليات الجيومورفية Geomorphic Processes فقد بذلت جهوداً كبيرة للبحث عن تصنيفها طبقاً لأحجامها معتمدة عادة على شبكة التصريف ودرجاتها ومن الرواد في هذه الجهود جرافليو Gravelius سنة ١٩١٤ ومن بعده هورتون Horton الذي اقترح عدداً من القوانين تتعلق كلها بتركيب الشبكات النهرية وأحواضها ويفترض فيها وجود نوع من التتابع الهندسي المنتظم في انتشار مجموعات التصريف^(١) وجاء بعده شتالر Strahler سنة ١٩٥٣ ليعدل في بعض قوانين هورتون وذلك لتجنب بعض المثالب التي ظهرت بها كما سيتضح فيما بعد



● صورة رقم (٤) حافة شديدة الانحدار بوادي البرك مع وضوح أثر طي خفيف في الطبقات. ●

ومن الرواد أيضاً شم Schumm وميلر وماكسويل وغيرهم.

وبالنسبة لقانون هورتون الخاص بعدد المجاري ودرجاتها فإنه يرى بأن أعداد المجاري للدرجات المختلفة في أي حوض تقترب من متتالية هندسية عكسية الرقم الأول فيها يمثل عدد المجاري كما أن نسبة التفرع Bifurcation ratio تعني عنده النسبة بين عدد المجاري المائبة لأية درجة لعدد المجاري للدرجة التي تعلوها وتوقع النتائج بعدد من النقاط يصل بينها خط مستقيم على ورق بياني الاحداثي الراسي فيه مدرج بمقياس لوغاريتمي يحدد عدد المجاري المائبة لكل درجة والأفقي بمقياس حسابي يوضح الدرجات، وقد عدل شتler في نسبة التفرع لكل درجتين متتاليتين نظراً لحدوث بعض التباين مما يؤدي إلى اختلاف قيمتها من درجة إلى أخرى في الحوض الواحد وذلك بضرب قيمة النسبة لكل مجموعتين متتاليتين من درجات الأودية في مجموع عددها بهاتين الدرجتين.

وبالنسبة لقانون هورتون الخاص بأطوال الأودية فإنه ينص على أن متوسط أطوال المجاري المائبة من مختلف الدرجات بحوض ما تميل إلى اتخاذ متتالية هندسية طولية رقمها الأول العدد الدال على متوسط أودية الدرجة الأولى.

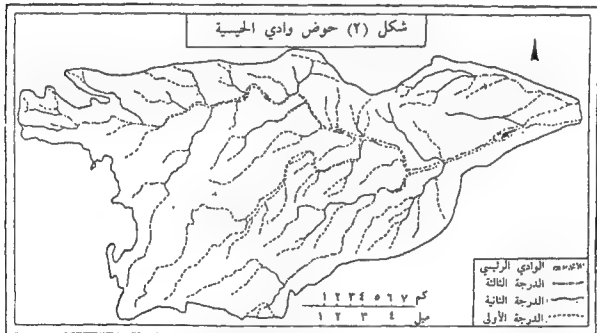
وفيما يلي تطبيقاً لهذين القانونين لهورتون على الأودية الخمسة المختارة مع الأخذ في الاعتبار تعديلات شتler عليها ومع تحليل جيومورفولوجي لنتائجها.

١ - حوض وادي الحيسية :

يلاحظ من الجدول (١) والشكل (٢) أن بحوض الوادي أربع درجات وعدد مجاري كل درجة على التوالي ٨٣ - ٤٢ - ٤ - ١ ونسبة التفرع (التشعب) بين هذه الدرجات هي بالترتيب ٧، ٣ - ٥، ٥ - ٤ وطبقاً لقانون شتler فإن معدل نسبة التفرع بحوض وادي الحيسية ٤، ٨ ومن قياس أطوال جميع مجاري الأودية بدرجاتها المختلفة أمكن التوصل إلى متوسطات أطوال الأودية التي يمكن أن نلاحظ منها أن التابع في أطوال مجاري الدرجة الأولى حتى الثانية يسير معتدلاً من ٤، ١ كم إلى ٢، ٨ كم بينما التدرج من طول الدرجة الأولى والثانية إلى الثالثة يعد كبيراً إذا ما قورن بالتدرج من الأولى إلى الثانية حيث يصل متوسط طول أودية الدرجة الثالثة إلى ٧، ٥ كم ثم يعود التدرج إلى البطء النسبي من الدرجة الثالثة إلى الرابعة

(جدول ١)
التفرع بوادي الحبيسة

درجة الأودية	طول الأودية	المعد لكل درجة	نسبة التفرع	المعد لكل درجتين	النسبة المعد	متوسط أطوال الأودية	مجموع متوسط الأودية
١	١١٨	١٣	٣,٧	١٠٥	٣٨٨,٥	١,٤٣	١,٤٣
٢	٦٢	٢٢	٥,٥	٢٦	١٤٣	٢,٨١	٤,٢٣
٣	٣٠	٤	٤	٥	٢٠	٧,٥	١١,٧٣
٤	١٠	١	—	—	—	١٠	٢١,٧٣
	٢٢٠	١١٠		١٣٦	٥٣١,٥		



(من ٧٠٥ - ١٠ كم) ويمثل الرقم الأخير متوسط طول الوادي الرئيسي في الحوض وترجع الفروقات في الأطوال إلى أن كل الروافد العليا الأولى والثانية تأتي من الحافات شديدة الانحدار إذ يصل ارتفاعها إلى أكثر من ٩٠٠ م وهي كما يظهر من الصور الفوتوغرافية المرفقة تمثل في أغلبها حافات تمثل الجوانب المنحدرة من الكويستات. مما لا يعطيها فرصة حقيقية لزيادة أطوالها بالإضافة إلى أنها تعيش مرحلة الشباب بخصائصه المعروفة وتتأثر كثيراً بنظم الشقوق والمفاصل العميقة بينما يمر الوادي في درجته الثالثة والرابعة بمرحلة النضج maturity حيث يجري الوادي وسط رواسب صصلالية ورملية حديثة فوق سطح بطيء الانحدار (أقل من درجتين) مما أعطى الوادي فرصة للتعرج وزيادة امتداد قطاعه الطولي (شكل ٣) كما يتضح ذلك من مؤشر التعرج الطوبوغرافي Index Topographic Sinuosity لقناة الوادي والذي وضعه مولر Muller سنة ١٩٦٨ م^(١) ويبلغ هنا ١,٢ مما يدل على أن درجة التعرج تزيد بنحو الخمس عن درجة الاستقامة وإن كانت هذه تزيد كثيراً في حالة الأودية التي تجري في المناطق الرطبة التي يسود بها النحت الجانبي بفعل المياه (جدول رقم ٥).

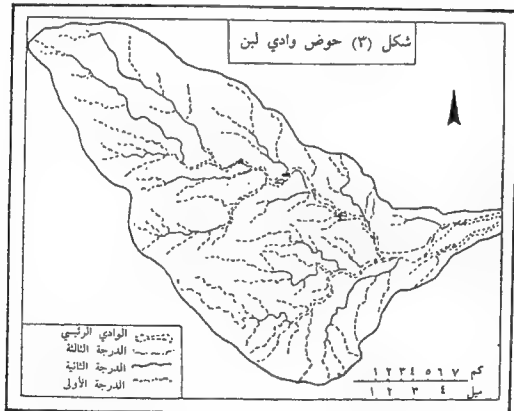
ويبلغ معدل التفتطح Texture Ratio بالحوض ١,٤٢ ومعنى هذا أن النسيج الطوبوغرافي يتميز بالخشونة بسبب سيادة الجفاف وبطء الانحدار وندرة الفوالق والصدوع (التي يمكن أن تساعد في تعدد الروافد) خاصة في جزئه الأوسط والأدنى.

وإن كانت المفاصل والشقوق قد لعبت أدواراً محدودة في زيادة عدد المجاري في الدرجتين الأولى والثانية بأعالي الحوض وتبدو الخشونة واضحة إذا ما قورنت بنسبة التقطع^(١) في المناطق الوعرة بولاية داکوتا الجنوبية بالولايات المتحدة والتي تصل إلى ٧, ٦٩ وللمقارنة تبلغ نسبة التقطع في حوض وادي سفاجة بـجبال البحر الأحمر في مصر ٨, ٤ ويرجع ارتفاع النسبة في الأخيرة رغم تشابه ظروف المناخ مع هضبة نجد إلى ارتفاع جبال البحر الأحمر وتعدد خطوط الصدوع والفوالق بها بالإضافة إلى شدة الانحدار وقصر المسافة ما بين منطقة تقسيم المياه ومستوى القاعدة Base level المتمثل في ساحل البحر الأحمر بالإضافة إلى الحركات التكتونية النشطة في صخورها الأركية المعقدة.

وتبلغ كثافة التصريف المائي Drainage Density^(٢) ١,١٩ وهي بطبيعة الحال كثافة ضئيلة للغاية إذا ما قورنت بمناطق الأراضي الوعرة بـداکوتا الجنوبية والتي تبلغ ٥, ١١٢ ويرجع ذلك

(جدول ٢)
نسبة التفرع بوادي لبن

درجات الأودية	طول الأودية	العدد لكل درجة	نسبة التفرع	العدد درجتين	النسبة العدد	متوسط أطوال الأودية	مجموع متوسطان
١	١٢٥	٧٣	٥,٩٣	٨٧	٥١٥,٩	١,٧	٥,٣
٢	٥٠	١٤	١٧	١٦	١١٢	٣,٦	٨,٩
٣	١٣	٢	٢	٣	٦	٦,٥	١٥,٤
٤	٥	١	—	—	—	٥	٢٠,٤
	١٩٣	٩٠		١٠٦	٦٣٣,٩		



إلى العوامل ذاتها التي أثرت في انخفاض معدل التقطع خاصة العوامل المناخية.

٢ - حوض لبن :

يمتد إلى الشمال الغربي من مدينة الرياض ويعد رافداً لوادي حنيفة من الجهة الغربية منحدرًا من حافة طويق (شكل ٣) ويبلغ عدد درجات أوديته أربع درجات عددها تسعون وادياً وبمجموع أطوالها ١٩٠ كم (جدول ٢) وهي على الترتيب من الأولى حتى الرابعة ٧٣-١٤-٢-١ ونسب التفرع بالترتيب ٥،٩٣-٧-٢- ونسب التفرع به ٥،٩٨ وهو معدل مرتفع عنه في وادي الحيسية كما يلاحظ من متوسط أطوال الأودية أن التدرج في الطول من المرتبة الأولى إلى الثالثة يتميز بالسرعة ثم يتباطأ من الثالثة إلى الرابعة فمتوسط أطوال الدرجة الأولى ١٧،١ كم والثانية ٣٠،٦ كم ويصل في الثالثة إلى ٦٠،٥ كم ثم يقل ليصل في الرابعة إلى خمسة كيلومترات فقط وهو يشبه كثيراً حوض وادي الحيسية لتشابه الظروف المناخية والاستراتيجية والبيولوجية بالمنطقة ككل، وإن اختلف عنه في التدرج من الثالثة إلى الرابعة لوجود أربعة روافد في الدرجة الثالثة في الحوض الأول وفي الثاني رافدان فقط وقد يرجع ذلك إلى قرب الوادي الرئيسي (بحوض وادي لبن) من مستوى قاعدته المحل المتمثل في وادي حنيفة عند مدينة الرياض.

ويبلغ معدل التقطع هنا ١،٤ وهو يماثل نظيره في وادي الحيسية كما تبلغ كثافة التصريف المائي ١،٥ وهي أيضاً منخفضة للغاية بسبب الظروف المناخية الجافة السائدة بهضبة نجد بصفة عامة وانخفاض سطح الحوض بصفة خاصة.

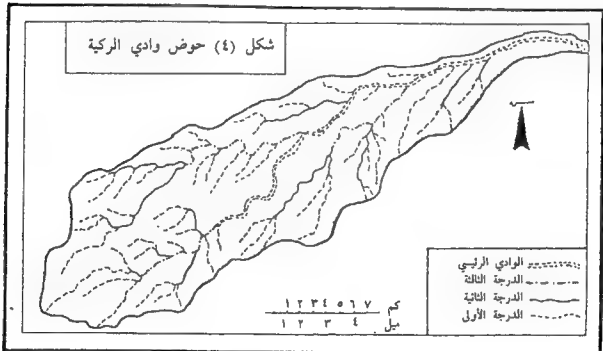
وبالنسبة لمؤشر التعرج الطبوغرافي للوادي الرئيسي فإنه يزيد قليلاً على وادي الحيسية حيث يصل إلى ١،٢٤ ويرجع السبب في ذلك إلى انخفاض السطح الذي يمتد فوقه الوادي الرئيسي بالحوض بالإضافة إلى بطء إنحداره ووصوله إلى مرحلة النضج في التطور الجيومورفولوجي.

٣ - حوض وادي الركبة :

ويمتد من الغرب إلى الشرق على طول السفوح الجنوبية الشرقية لحافة طويق شمال بلدة القصب (شكل ٤)^(١) ويبلغ عدد درجات أوديته أربع مجموع عددها ٧٢ رافداً وبمجموع أطوالها

(جدول ٣)
متوسط أطوال درجات الأودية بأحواض التصريف الخمسة

حوض وادي الشعبة	حوض وادي مهديّة	حوض وادي الركية	حوض وادي لبن	حوض وادي الحسية	درجة الوادي
٩٧	١,٨٢	١,٣٥	١,٧	١,٤٣	١
١,٦٦	١,٧	١,٤	٣,٦	٢,٨١	٢
١٠	١,٢٥	٥	٦,٥	٧,٥	٣
—	١٢,٥	١	٥	١٠	٤



١٢٦ كم ويبلغ معدل التفرع ٣,٦ ويلاحظ من الجدول ٣ أن التدرج مابين الدرجتين الأولى والثانية (١,٣٥ - ١,٤) بطيء للغاية ثم يزداد إلى ٥ في المرتبة الثالثة وهذا يدل على وجود الدرجتين الأولى والثانية في مناطق الحافات المرتفعة بجبل طويق وتأثرهما بشدة انحدارها بينما تظهر مجاري الدرجة الثالثة مع الوادي الرئيسي في منطقة سهول منبسطة لايزيد ارتفاعها عن ٧٤٠ مع تباعد واضح لخطوط الكنتور مما يشير إلى انخفاض معدل الانحدار عكس الحال في مناطق الدرجتين الأولى والثانية والتي يزيد الارتفاع بها على ٨٨٠م بالإضافة إلى شدة اقتراب خطوط الكنتور ويصل معدل التقطع إلى ١,٣٩ وهو معدل قريب جداً من الواديين السابقين بينما تبلغ كثافة التصريف به ١,٠٦ وهي كثافة منخفضة للغاية مثلاً الحال مع كل أحواض الأودية بهضبة نجد. ويبلغ المؤشر الطبوغرافي به ١,١٣ (جدول ٥).

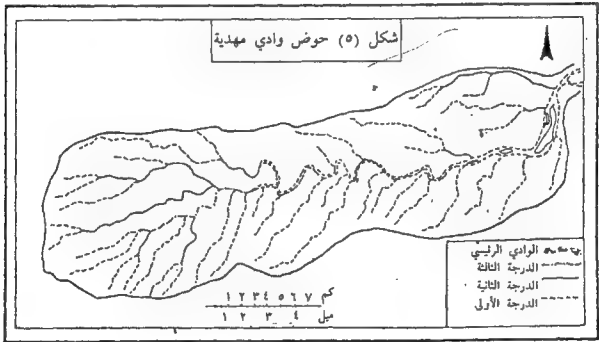
٤ - حوض وادي مهدية :

وهو أحد الروافد الغربية لوادي حنيفة حيث يلتقي به جنوب غرب مدينة الرياض فيما بين حوضي ثمار ولبن وحوضه صغير المساحة لايزيد عن ٥٧ كم (يراجع الجدول ٤) ويبلغ عدد روافده في درجاتها الأربع ١,٥٢ رافداً مجموع أطوالها ١٠٣ كم ومعدل نسبة التفرع بالحوض ٥,٧ حيث يصل عدد روافد الدرجة الأولى ٣٩ وادياً بينما تصل في روافد الدرجة الثانية إلى عشرة لينخفض العدد في الدرجة الثالثة إلى رافدين فقط، ويبلغ متوسط طول روافد الدرجة الأولى ١,٨٢ كم وهو يزيد عن مثيله في أحواض الأودية السابقة ويرجع ذلك إلى انخفاض السطح في مناطقه العليا عند المنابع مع تباعد خطوط الارتفاع مما أتاح لها فرصة للامتداد فوق صخور رسوبية قليلة الانحدار من السهل تقطيعها كما نلاحظ أيضاً أنها تزيد عن متوسط أطوال الدرجة الثانية مما يسجل شذوذاً عن القاعدة العامة وجدير بالذكر أن معظمها - روافد الدرجة الأولى - ينحدر مابين خطي كنتور ٨٩٠ إلى ٨٦٠م ويلتقي مباشرة بروافد الدرجة الثالثة (شكل ٤) وهذا يفسر سبب ارتفاع متوسط أطوالها خاصة وأن متوسط طول أودية الدرجة الثالثة ١,٢٥ وهي عبارة عن رافدين فقط يلتقيان بالوادي الرئيسي الذي يبلغ طوله ١٢,٥ كم وتبلغ نسبة التقطع بالحوض ١,٣٨ مماثلة للأودية السابقة كما تبلغ الكثافة في التصريف إلى ١,٠٨ وأما عن مؤشر التعرج الطبوغرافي فيصل إلى ١,١٥ وهو قريب من نظائره في الأودية السابقة حيث تتميز أودية هضبة نجد بصفة عامة بقلّة تعرجها وامتدادها في

(جدول ٤)

معدلات نسب التفرع ومعدل التقطع وكثافة التصريف
بالأحواض الخمسة مع بعض القياسات الأخرى

اسم الحوض	م نسب التفرع	معدل التقطع	مساحة الحوض بالكم ^٢	عدد الروافد بالحوض	كثافة التصريف	مجموع أطوال الروافد	طول قطر الحوض بالكم	طول محيط الحوض بالكم
الحبيبة	٤,٨	١,٤٢	١٨٥	١١٠	١,١٩	٢٢٠	٢٥,٥	٧٧
لبسن	٥,٩٨	١,٤١	١٢٦	٩٠	١,٥٢	١٩٣	١٨	٥٣
الركبة	٣,٦	١,٣٨	٧٢	٧٢	١,٠٨	١٢٦	٢٠	٣٧
مهديّة	٥,٨	١,٣٩	٥٧	٥٢	١,٠٦	١٠٣	١٦	٤٩
الشعبة	٢,٧	١,٤٠	٤٨,٥	٤٢	١,١٦	٥٦	١٢	٣٠



صورة شبه مستقيمة وذلك لمسافات طويلة تنحدر على جوانبها حافات شديدة لانحدار (صورة فوتوغرافية رقم ٣).

٥ - حوض وادي الشعبة :

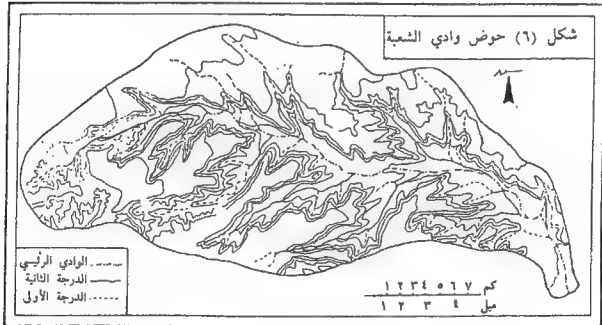
أحد روافد وادي حريملاء الذي يلتقي به إلى الشمال من مدينة حريملاء ويمجري بروافده القليلة التي تبلغ ٤٢ رافداً وسط حوض صغير المساحة (٥، ٤٨ كم^٢) ويبلغ عدد درجات أوديته ثلاث فقط بمعدل نسبة تفرع ٢،٧ وهو معدل صغير بالمقارنة بالأودية السابقة، ويبلغ مجموع أطوال روافده ٥٦ كم بمعدل ٩٧ كم لروافد الدرجة الأولى البالغ عددها ٣٢ رافداً و ١،٦٦ كم بالنسبة لروافد الدرجة الثانية والتي يبلغ عددها تسعة روافد والتدرج كما هو ملاحظ من الجدول ٣ يتميز بالبطء من الدرجة الأولى إلى الثانية ثم يسرع ما بين الثانية والثالثة حيث ينتقل من ١،٦٦ إلى ١٠ كم والرقم الأخير يمثل طول الوادي الرئيسي الذي يمتد في سهل منخفض تمتد على طول جوانبه مصاطب نهريّة واضحة تمثل مرحلة جيومورفولوجية سابقة كان الوادي فيها أكبر حجماً ثم انكمشت قناته المائية بعد أن سادت المنطقة ظروف المناخ الجاف. ويحصر الوادي الرئيسي فيما بين خطي كتور ٧٨٠ و ٧٦٠ م (شكل ٦) وتبلغ نسبة التقطع به ١،٤ وكثافة التصريف المائي ١،١٦. كما يشير مؤشر التعرج الطبوغرافي إلى أن وادي الشعبة أكثر الأودية المدروسة تعرجاً حيث يصل إلى ١،٢٥.

كما سبق من الدراسة القياسية التحليلية لنسب التفرع والتقطع وكثافة التصريف المائي بأحواض الأودية الخمسة لم يظهر تباين كبير بينها باستثناء بعض الاختلافات خاصة فيما يتعلق بمعدلات التفرع والتي ترجع إلى اختلافات محلية في المناسيب والانحدارات داخل البيئة الطبوغرافية والمناخية المتجانسة في صورتها العامة فكما ذكر فإن هضبة نجد متماثلة في ظروفها الجيولوجية حيث تتكون من صخور رسوبية في شكل طبقات تميل قليلاً في اتجاه الإنحدار العام للأرض الذي يتراوح معدله ما بين ٣ و ٥ درجات نحو سهول الأحساء في الشرق لتختفي في فاع الخليج العربي كذلك تشابه في ليوولوجتها بالإضافة إلى أن الأودية الرئيسية بها تعد أودية تابعة consequent تتبع الانحدار العام للأرض وترتبط كثيراً بالظروف المناخية الحالية بالإضافة إلى ما اكتسبته من خصائص ترجع إلى ظروف المناخ القديم في العصر المطير. كما أنها تشابه كثيراً مع غيرها من الأودية في البيئات الأخرى المشابهة كهضاب مصر الصحراوية ... وسط شبه

(جدول ٥)

مؤشر التدرج الطبوغرافي واستطالة واستدارة الأحواض مع قياسات أخرى

الحوض	م التدرج	استطالة أحواض الأودية	الاستدارة بالأحواض	مساحة دائرة مائلة في مساحة للحوض	طول قطر دائرة بنفس مساحة الحوض	طول أنصهر خط من المصب إلى المنبع	طول الوادي من المنبع إلى المصب	معدل التفرس لاكسويل	التفرس البي تبعا بالحوض	أعلى منسوب بالحوض
الحسية	١,٢٠	٦,٦٠	٨١	٢٢٦ كم ٢	١٥	٢٤	٢٩	٨,٣٦	٢,٧	٩٥٤ م
لبسن	١,٢٤	٦,٦٦	٩٠	١٠٧,٥	١٣,٦	٢٠,٥	٢٥,٥	١٨,٧	٦	١٠٢٤ م
الركبة	١,١٣	٥,٥٧	٧٥	٩٥	٩,٦	١٩,٥	٢٢	١١,١	٨,٢	٩١٧ م
مهديّة	١,١٥	٤,٤٨	٦١	٩٢,٨	٩,٢	١٦	١٨,٥	٢٠,٣٦	٤,٥	١٠٠٤ م
الشعبة	١,٢٥	٣٢	٧٠	٤٨	٣,٩	١٢	١٥	١٢,٩	٤,٤٠	٨٨٢ م



جزيرة سيناء وهضبة المعازة والعبادة بالصحراء الشرقية - فمعدل نسب التفرع بأودية الصحراء الشرقية بمصر تتراوح تقريباً من ٣ إلى ٥ ونسب التقطع ما بين ١،٤ و ٤،٨ مع الأخذ في الاعتبار لاختلافات في المنسوب ومعدلات الانحدار وغيرها^(١). ولاشك أن هذا التشابه يدل بوضوح على الأثر الواضح للمناخ السائد في تلك العروض والذي يترك بصماته واضحة فوقها.

شكل أحواض التصريف المائي للأودية المدروسة :

يتأثر شكل حوض التصريف المائي وغط شبكة التصريف التي تمتد داخله بالخصائص الأخرى لحوض التصريف مثل نوع الصخر ودرجة الانحدار بالإضافة إلى أن الشكل يؤثر على العمليات الجيومورفية خاصة فيما يتعلق بكفاءة الحوض المحتملة وشبكة التصريف المائي به، وقد استخدم هورتون سنة ١٩٣٢ عامل الشكل (١) Form Factor لتحديد أشكال الأحواض النهرية ويمكن الحصول عليه من العلاقة التالية :

$$F = \frac{A}{L^2}$$

حيث A عبارة عن مساحة الحوض Basin A و L تمثل طول الحوض كما يمكن الحصول على استدارة الحوض Basin Circularity من المعادلة التالية والتي وضعها ميلر Miller سنة ١٩٥٣ :

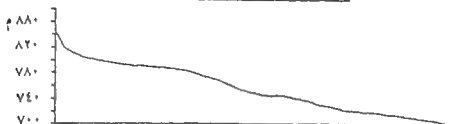
$$\text{درجة استدارة الحوض} = \frac{\text{مساحة الحوض}}{\text{مساحة الدائرة التي تساويه في طول المحيط}}$$

كذلك وضع شم Schumm المعادلة الخاصة باستطالة الحوض Basin elongation وتنتج من العلاقة التالية :

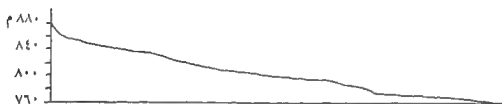
$$\text{استطالة الحوض} = \frac{\text{قطر دائرة بنفس مساحة الحوض}}{\text{طول الحوض}}$$

وقد طبقت المعادلتين الأخيرتين على أحواض الأودية الخمسة مجال الدراسة فكانت النتائج كالتالي :

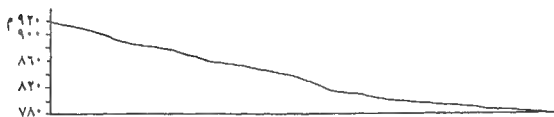
شكل (٧) قطاع طولي لوادي الركبة

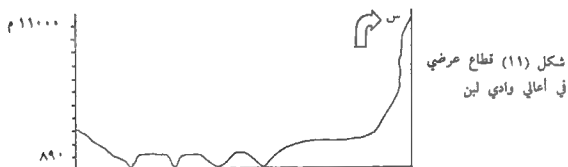
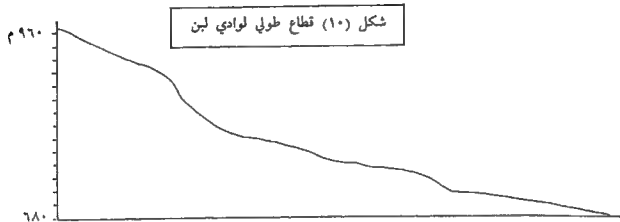


شكل (٨) قطاع طولي في وادي الشعبة

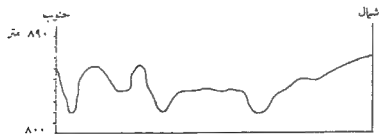


شكل (٩) قطاع طولي في وادي الحبيبة

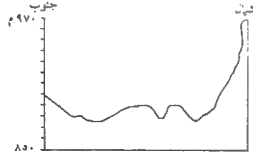




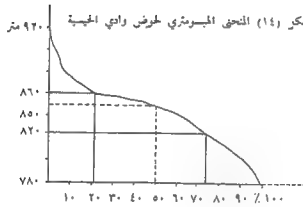
شكل (١٢) قطاع عرضي في الجزء الأوسط من وادي الحبيبة



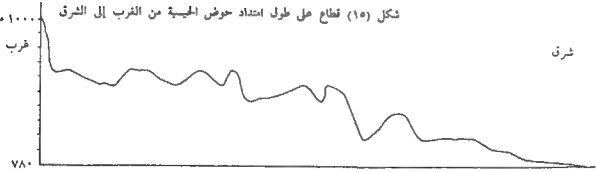
شكل (١٣) قطاع عرضي في أعالي وادي الحبيبة



شكل (١٤) المنحنى الميسومتري لحوض وادي الحبيبة



شكل (١٥) قطاع على طول امتداد حوض الحبيبة من الغرب إلى الشرق



درجة استدارة حوض الحيسية ٨١، حيث تبلغ مساحته ١٨٥ كم^٢ ومساحة الدائرة التي يماثل محيطها طول محيط الحوض ٢٢٦ كم^٢، وتبلغ في حوض وادي لبني ٩، وفي أحواض أودية الركية ومهدية والشعبة على الترتيب ٧٥، - ٦١، - ٧، ويتضح من القياسات أن وادي لبن هو أقرب الأودية إلى الشكل الدائري وإن وادي الشعبة أبعدا وبالنسبة لاستطالة الحوض «لشم» فإنها تبلغ في أحواض الأودية الخمسة على التوالي الحيسية ٦، ولبن ٦٦، ومهدية ٥٧، والركية ٤٨، والشعبة ٣٢. (يمكن الرجوع إلى الجدول رقم ٥).

وبالنسبة لأنماط شبكات التصريف المائي فقد وضع هوارد Howard سنة ١٩٦٧ فئات مميزة لأنماط شبكات التصريف المائي مثل النمط الاشعاعي Radial Drainage النمط المستطيل rectangular والنمط المتوازي Parallel Drainage والنمط المشبك Trellis والنمط الشجري Dendritic وغيرها وكل نمط منها يرتبط بنظام فزيوغرافي يميز فالنمط يرتبط بمناطق الشقوق والفوالق المتقاطعة والنمط المستطيل يرتبط بمناطق الانكسارات بينما يرتبط النمط الشجري - السائد في هضبة نجد - بالصخور الرسوبية المتجانسة التي تتميز ببطء وتخلو من الصدوع والصور التركيبية الأخرى وقد جرت محاولات عديدة لعمل وصف كمي لأنماط التصريف سابقة الذكر اتخذت اتجاهات رئيسية ثلاث يمكن الإشارة إليها هنا دون الخوض في التفاصيل وهذه الاتجاهات هي: الاتجاه الأول ويتمثل في تحليل عنصري الاتجاه والدرجات وأما الاتجاه الثاني يتمثل في تحليل زوايا الاتصال Junctions angles أو باستخدام معدلات التفرع (الشعب) والاتجاه الثالث يتمثل في محاولات استنتاج أنماط يمكن تعميمها بمنطقة البحث أو الدراسة^(١).

تضاريس أحواض الأودية :

تعدد الطرق الكمية الخاصة بقياس التضاريس في الأحواض النهرية وكان هورتون رائداً في وضع القوانين والمعادلات الخاصة بذلك فقد أوجد في سنة ١٩٣٢ م ما يعرف بمعدل انحدار الوادي Average slope وذلك بقسمة الفارق في الارتفاع بالسطح ما بين منطقة المصب ومنطقة المنبع مع قسمة الناتج على طول الوادي ثم جاء بعده كل من تيلور Taylor وشوارز Schwarzs سنة ١٩٥٢ م كثيراً. ومن المعادلات التي طبقت على الأودية مجال الدراسة معدل التضرس لشم

والذي وضعه سنة ١٩٥٦م ويمثل في الشكل التالي :

$$Rh = H / L$$

حيث L عبارة عن المسافة الأفقية لأطول امتداد يوازي الوادي الرئيسي بالحوض و H عبارة عن أقصى ارتفاع بالحوض (الفارق بين أعلى نقطة وأخفض نقطة بالحوض).

وقد ظهرت نتائج تطبيق هذه المعادلة فيما يلي :

وادي الحيسية ٨،٣٦ ووادي لبن ١٨،٧ ووادي الركية ١١ ووادي المهديّة ٢٠،٢٦ وفي شعبة ١٢،٩ مما يدل على أن أكثر الأودية في تضرسها يتمثل في وادي مهديّة يليه وادي لبن وقلها وادي الحيسية ويبدو أن السبب في ارتفاعه بوادي مهديّة يرجع إلى انتشار التلال المنعزلة وسط الحوض بارتفاعاتها الكبيرة.

وبالنسبة للتضرس النسبي في الأحواض النهرية الخمسة فهو يبلغ بالترتيب الحيسية ٢،٧ ولبن ٦ ومهديّة ٨،٢ والركية ٤،٥٣ والشعبة ٤،٤ وكما نلاحظ فإن النتائج تتمشى مع نتائج تطبيق المعادلة السابقة والتي تدل على التباين التضاريسي المحدود وبالنظر إلى الأشكال (٧ - ٨ - ٩ - ١٠) يمكن أن نلاحظ أن هذه الأودية تعيش مرحلة جيومورفوجية قريبة من التوازن حيث الانحدارات بطيئة - وإن لم تأخذ القطاعات الطولية الشكل المميز للأودية في مرحلة التعادل equilibrium - كما تقل بها نقط التقطع (نقط تغير الانحدار) باستثناء وادي لبن حيث تظهر قرب المنابع وقد يرجع وجودها إلى تكوينات صلبة في مجرى الوادي لم يستطع أن يعمق مجراه خلالها. وعموماً فإن القطاعات الميئة سابقة الذكر تدل على استقرار نظام الجريان مع حدوث عمليات ترسيب بفعل السيول وبفعل الرياح على طول امتداد الأودية كما يظهر من المنحنى الهبسومتري شكل (١٤) أن حوض وادي الحيسية - أكبر الأودية المدروسة مساحة - يعيش مرحلة التضج الجيومورفولوجي حيث يتضح منه أن نحو نصف مساحته أقل منسوباً من ٨٥٠م، وكذلك يظهر من الأشكال (١١ - ١٢ - ١٣) الخاصة ببعض القطاعات العرضية للأودية التضج الواضح وإن برزت بها ارتفاعات تمثل بقايا عمليات النحت من تلال منعزلة تظهر في مناطق ما بين الأودية.

الخاتمة :

يتضح من الدراسة السابقة لأحواض أودية هضبة نجد أن نظم التصريف المائي بها رغم كبر أحجامها وتعدد شبكاتها فإنها تعكس ظروف بيئة صحراوية جافة وان خصائصها الحالية قد استمدتها من ظروف مناخية مطيرة كانت تسود تلك البيئات الصحراوية في البليستوسين (منذ أكثر من ٢٥/١٠٠ سنة) وقد أثرت تلك الظروف الرطبة في تشكيل سطح الأرض بهضبة نجد وغيرها من المناطق في نفس العروض ونظراً لبساطة البنية والتركيب الجيولوجي بالهضبة وندرة الصدوع والفوالق بها فقد أثر ذلك على نظم التصريف المائي بها حيث أن أغلبها قد استطاع أن يجتاز مرحلة الشباب ويصل إلى مرحلة النضج الجيومورفولوجي كما اتضح ذلك من القياسات المورفومترية التي يتضمنها هذا المقال كذلك نجد العديد منها قد وصل إلى مرحلة الهرم حيث يبدو على العديد منها التمزق الشديد واتساع القنوات المائية وانتشار الرواسب المائية والهوائية على طول امتداداتها والتراجع الواضح للحافات مع انتشار ظاهرة الأسر النهرية كما يتضح من الصور الفوتوغرافية المرفقة بالمقال.



المراجع :

- ١ - طه محمد جاد: تحليل الخريطة الكنتورية بنعتم جرنولوجي، الطبعة الأولى، القاهرة، ١٩٧٨م.
- ٢ - محمد صبري محسوب سليم: المظاهر الجيومورفولوجية الرئيسة دراسة تحليلية بالأشكال والرسوم التوضيحية، القاهرة ١٩٨٣م.
- ٣ - عمرد شكر، شبه جزيرة العرب «نجد» الطبعة الثالثة، بيروت، ١٤٠١هـ - ١٩٨١م.
- ٤ - Buzer, W.K., 1976, *geomorphology From The Earth*, New York
- ٥ - Chorley, R.J., & Kennedy, B.A., 1971, *Physical Geography: A. Systems Approach*, London.
- ٦ - Gregory & Walling, D.E., 1976, *Drainage Basin Form and Process - A geomorphological approach* (Edward Arnold) London.

- Hanwell, J.D. & Newson, M.D. 1971, *Techniques in Physical Geog.* London. —٧
- Horton, H.E. 1945., *Erosional development of streams and their basins (Hydrological approach to quantitative morphology)*, Bull. Geol. Soc. American, vol. 55, pp 275 - 370 —٨
- King, C.A.M., 1978, *Techniques in Geomorphology* (Edward Arnold) London —٩
- Newson, M.D. & Hanwell, J.D. 1982, *systematic Physical Geography*, London —١٠
- Strahler, A.N. 1980, *Introduction to Physical Geog.* New York. —١١



الخرواشي :

(1) Fisher, W.B. *The Middle East*, London, 1971, p.74.

(1) Ibid, p.74.

(1) Horton, R.E. *Erosional development of streams and their drainage Basins (Hydrological approach to quantitative morphology)* Bull, Geol. Soc. Amer, vol, 56, 1945, p.291.

(١) مؤشر التمرج الطبوغرافي للوادي = VL/Air حيث VL = طول الوادي ، Air = أقصر امتداد مابين المصب والمنبع وكلما زادت النتيجة من واحد صحيح زادت نسبة تفرع الوادي.

(١) تقسم نسبة التقطع إلى ثلاث درجات أ - خشة وهي أقل من ٤

ب - متوسطة وتتراوح بين ٤ - ١٠

ج - ناعمة أكثر من ١٠

وتعني نسبة التقطع مجموع مجاري الأودية لكل الدرجات / طول محيط الخوض.

(٢) كثافة التصريف عبارة عن مجموع الأطوال الكلية للأودية في كل درجتها بالكم على مساحة الخوض الكلية بالكيلومتر المربع.

(١) لوحة القصب (الوشم) رقم ٢٤ - ٥٢٥ بمقياس رسم ١ : ٥٠,٠٠٠، المملكة العربية السعودية، وزارة البترول والثروة المعدنية، إدارة المساحة الجوية، الرياض.

(١) محمد صبري محسوب سليم، ساحل البحر الأحمر فيما بين رأس جمة شمالاً ورأس يناس جنوباً دراسة في الجغرافيا الطبيعية، رسالة دكتوراه غير منشورة جامعة القاهرة، ١٩٧٩، ص ١٩٥.

(1) Gregory, K.J & Waling, D.E, *Drainage Basin form and Process, «ageomorphological approach*, London, 1976, p.52.

(1) Ibid, p.54.

تحقيق رسالة الزُّرْزُور

للأبي الحسن بن سراج

ورَدَّ أبي القاسم بن الجحدِّ عليها

د. عبدالرحمن عبدالرؤف الخانجي

ماهي الرسائل الزرزرورية ؟

هي لون من الترسُّل الأدبي الذي يعني بالتحدُّث عن ضرب من الأدباء أشبه بالمكذِّبين. وقد استعارت هذه الرسائل في وصفها لهؤلاء الأدباء اسم «الزُّرْزُور» أو الزُّرْزِير - على التصغير - لما يمتاز به هذا الطائر من حركة ونشاط جبين مع حجم دقيق وضميل.

ونرجَّح أنَّ هذه الرسائل قد ظهرت بالأندلس في أواخر القرن الخامس وبداية القرن السادس للهجرة. ويقوى هذا الترجيح أنَّ ابن سراج، وهو أول من استثار هذا اللون من الرسائل، توفي سنة ٥٠٨هـ وعلى هذا الترجيح يكون ميلادها في عصر المرابطين (٤٨٤ - ٥٣٩هـ)، وهو عصر لم يكثر حكامه كثيراً بالأدب والأدباء مقارنة بما كان يسبغه عليهم أمراء الطوائف من تكريم. ولعلَّ ضيعة الأديب في هذا العصر تفسر لم كانت «الزُّرْزُوريات» أدخل في باب الشفاعات والوساطات حين يحمل الرسالة أديب متجعاً بها من

مكان إلى آخر وإن كان كتابها - جميعاً - قد أدركوا عصري الطوائف والمرابطين معاً .

ولأَيَقْهَمَنَّ من هذا الترجيح أنَّ عصر الطوائف قد خلا تماماً من الكدية أو رسائل الشفاعات، فهذا أمر لا سبيل إلى إقراره . فالكدية والشفاعة والوساطة جميعها موجودة ومعروفة في هذا العصر، إذ لم يحتضن كلُّ أمراء الطوائف الأدب وأهله احتضان المعتمد بن عباد ولكنهم - وعلى تفاوت في الاهتمام بأمر الشعراء والأدباء - أفردوا عناية بالأدب وأهله كانت هي الطابع العام الذي وسم عصر الطوائف .

أما الدولة المرابطية فقد قامت على قاعدة من الجهاد الديني العريض، وانطعت أول أمرها بهذا الطابع، فلم يكن (يقرب من أمير المسلمين ويحظى عنده إلا من علم الفروع، فروع مذهب مالك)^(١) ولعل رسالة الشقندي قد رسمت - على تحملها بالمرابطين - صورة طيبة لعناية أمراء الطوائف - على تفاوت بينهم - بالأدب والأدباء . وهي - بعد - لم تخل من سخوية بالمرابطين وأميرهم يوسف بن تاشفين حين تعرض لصلته بالشعر والشعراء ، بل وفهمه وتذوقه للغة العربية^(٢) . وقد جلَّ ابن بسام هذه الحقيقة في قوله (ولما صمت ذكر ملوك الطوائف بالأندلس، طوى الشعر على غره ويرى من حلوه ومره، إلا نفثة مصدور والتفاته مذعور)^(٣) . وإن كان المستشرق غرسيه غومس يرى رؤية مخالفة، فالشعر الأندلسي «لم يمت في عصر المرابطين وكل ماحدث أنه كيف نفسه بما يلائم الظروف الجديدة التي أحاطت به»^(٤) ومع ذلك يبقى شيء من الواقع في أنَّ ابن تاشفين لم يكن يحسن العربية أو يحسُّ بها ويتذوقها كأمرء الطوائف، وأنَّ رهطه من أهل المغرب - الأفارقة - كانوا أقلَّ حظاً في تقدير الشعر والاحتفاء بالأدب والأدباء من أهل الأندلس . ولا ننكر أنَّ الصورة القائمة التي رسمها الشقندي للمرابطين هي في أصلها ذات جذور تضرب في وتر النعمة العامة التي يحسها الأندلسيون تجاه المرابطين ولكنها - بعد - تصور جزءاً أصيلاً من الحقيقة .

وعلى كل، فلا سبيل إلى إنكار أنَّ شيئاً من الاهتزاز في العصر المرابطي قد مسَّ كل المقاييس والقيم التي كان ينظر بها حامة الشعر والأدب للشعراء والأدباء . هذه الهزة ترجع إلى عوامل كُثُر، من أهمها الخلل السياسي في عصر الطوائف نفسه . ثم بلغ الأمر غايته حين جعل يوسف بن تاشفين الجهاد الديني الهدف الأول للدولة، فانسحبت بميسم الاهتمام والعناية بالجهاد

انديني، وصوّح فيها الزخم الأدبي والجلال الشعري. وإذا أضفنا إلى العاملين السابقين عاملاً آخر يرتبط بالتركيب النفسي والثقافي لحكام المرابطين أنفسهم — وهو ضعف الرابطة بين الممدوح الذي لا يحسن تذوق الشعر البليغ وبين الشعر نفسه ناهيك عن الشاعر — كان الاستقراء غير بعيد من قول ابن بسام: إنّ الشعر لم يبق منه (إلا نفثة مصدور والتفانة مذعور). وقد عبر الشاعر الأعمى التطيلي عن هذا المعنى في عبارة ساخرة — تعكس إحساسه بالإحباط والغبن — حين قال: إنّ (قال مالك) قد طردت (قام زيد):

أيأ رحمتا للأديب أقوت ربوعه على أنّها للمكرمات مناسك
وللشعراء اليوم ثلّت عروشهم فلا الفخر مختال ولا العز نامك
فيا دولة الضيم أجمل أو تحاملي فقد أصبحت تلك العرى والعرائك
ويا «قام زيد» أعرضي أو تعارضي فقد حال من دون المني «قال مالك»^(٥)

أي أنّ الفقيه قد قام مقام الأديب، وأنّ الفقه والشرع قد أبعدا الأدب واللغة عن الميدان الفكري.

وبذلك نفهم لمّ ظهر الزّجال ابن قزمان في هذا العصر، وكيف عبّر عن الكدبة في أزجاله وصوّرها بروح وأسلوب عجزت عنه حتى المقامات الأندلسية فضلاً عن الرسائل الزرورية^(٦).

ونخلص إلى أنّ الرسائل الزرورية هي مساجلات بين الأدباء تبدأ بأن يرسل أديب رسالة في شأن زرور إلى أديب آخر يوصيه به خيراً، وتقوم الرسالة مقام شفاعة وتوصية له، فيرد الأديب الآخر معدداً فضائل هذا الزرّور — كما فعل الأديب الأول — ومشيئاً بفضله، ولكنه أبداً لا يبقيه عنده. فقد يرده إلى صاحبه الأول مزوداً برسالة، أو يوجّه به إلى أديب آخر وفي جعبته رسالته الزرورية. وهكذا تتسع دائرة المساجلة بدخول أدباء جدد حلبة المنازلة.

هذه الرسائل لم نعرف لها نظيراً في المشرق، سوى أنها تحاول أن تجعل الزرّور يقترب من أبطال المقامات فنراه في تحوال دائم، يلبس لكلّ حالة لبوسها. وهو يجيد في أسلوبه عن بديهة وارتجال، مع لسان ذرب ومقدرة على الخلق والإبداع. وكالبطل المقامي — هو — دوماً ناقد

وأديب وشاعر وواعظ وفقه ومعلم ومبرشد. وقد اختلفت الزروريات عن المقامات في غياب الراوي عنها كما أنَّ بطلها لم يكن مأكراً وخدعة ومستهتراً بملذاته كالبطل المقامي، وإن لم يخل من نَفَسٍ سخرية واحتيال. ولعلَّ الزروريات والمقامات قد أثرت في الأدب الاسباني في القرن السادس عشر الميلادي في ميلاد قصص الشطار والتي اقترت بطلها من أبطال المقامات والزروريات في تكديده واستهتاره بالملذات^(٧).

من هم كتاب الزروريات ؟

قادي الاستقراء الدقيق والنظر الطويل في المخطوطات إلى أنَّ خمسة كتاب أندلسيين هم الذين عاجلوا هذا اللون الأدبي من الرسائل في الأندلس. ومن عجب أنهم جميعاً قد أدركوا عصري الطوائف والمرابطين معاً، بما يقوى حدسي أنَّ ميلاد هذا اللون من الرسائل كان في العهد المرابطي، انعكاساً لضياح الأديب وخفوت صوته.

وأول كاتب استثار هذا اللون من الرسائل في الأدب الأندلسي هو :

أ - ابن سراج، سراج بن عبد الملك بن سراج أبو الحسن بن أبي مروان. وقد عاش بقرطبة أيام الدولة الجُهويرة في عصر ملوك الطوائف. ولما سقطت قرطبة في يد بني عباد وزالت دولة بني جهور صار من حاشية المعتمد بن عباد بقرطبة. وهو شاعر وناثر وأديب. ووالده النحوي المشهور أبو مروان عبد الملك بن سراج، وقد كان إماماً لأهل قرطبة في زمانه. عاش ابن سراج بعد زوال ملوك الطوائف في كنف المرابطين حوالي ربع قرن حتى توفي سنة ٥٠٨هـ^(٨).

وقد كتب ابن سراج رسالة زرورية واحدة ورد نصّها في مخطوطين هما :

- (١) مجموعة رقم ٤٨٨ - مخطوط الأسكوريال، ورقة ١٠٩ وقد صدرت الرسالة بالعنوان الآتي: (رسالة لأبي الحسن بن سراج إلى أبي القاسم بن الجدمعتنيا بالزرير).
- (٢) مخطوط الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة لابن بسام الشنتريني ج^٢، مخطوط بغداد، نسخة مصورة بالمعهد المصري للدراسات الإسلامية بمديرد، ورقة ٢٣١، وقد صدرت الرسالة بالعنوان الآتي: (وكان الوزير أبو الحسن بن سراج قد خاطب بعض

أهل العصر برقعة يشفع لرجل يعرف بالزرزيور يقول في فصل منها).
أما الرسالة الزرزورية الثانية فقد كانت رداً على رسالة ابن سراج هذه وقد كتب بها :

ب - ابن الجند: أبو القاسم محمد بن عبدالله الفهري المعروف بابن الجند. وقد أدرك ابن الجند مايربو على الثلاثين سنة من حكم المرابطين وتوفي سنة ٥١٥هـ^(٩) وقد كتب ابن الجند ثلاث رسائل زرزورية، وهي أكثر عدد من الرسائل كتب به كاتب واحد في موضوع الزرزوريات. وقد وردت نصوصها في المخطوطين التاليين :

الرسالة الأولى :

- ١) مجموعة رقم ٤٨٨ / خطوط الأسكوريال / ورقة ١٠٩ - ١١٠ ، وقد صدرت الرسالة بالعنوان الآتي: (مجاوبة الكاتب أبي القاسم ابن الجند).
- ٢) الذخيرة / ج٢ / خطوط بغداد / ورقة ٢٣١ - ٢٣٤ وقد صدرت الرسالة بالعنوان الآتي: (وانتهت هذه الرقعة إلى الوزير أبي القاسم بن الجند فعارضها برسالة قال فيها).

الرسالة الثانية :

- ورد نصها في مخطوط واحد هو :
- الذخيرة / ج٢ / خطوط بغداد / ورقة ٢٣٤ - ٢٣٦ ، وقد صدرت الرسالة بالعنوان الآتي: (وله من أخرى).

الرسالة الثالثة :

- ورد نصها في مخطوط واحد هو :
- الذخيرة / ج٢ / خطوط بغداد / ورقة ٢٣٦ - ٢٣٧ وقد صدرت الرسالة بالعنوان الآتي: (وله من رقعة شفاعة للزرزيور المذكور)
- وثالث الكتاب الذين كتبوا في فن الزرزيوريات هو :

جـ - أبو بكر محمد بن عبدالعزيز بن سعيد البطلوسي . وقد كان صاحب بلنسية أيام ملوك الطوائف وعرف بالشعر والنثر والأدب^(١٠) . كتب البطلوسي رسالة زرزورية واحدة ، ورد نصها في مخطوط الذخيرة الجزء الثاني/ مخطوط بغداد/ ورقة ٤٧١ - ٤٧٢ . وقد صدرت رسالته بالعنوان الآتي : (وعرضت عليه تلك الرسائل التي تقدمت في خبر الزرزور فكتب في ذلك رقعة منها) . وتبدأ الرسالة بقوله : (أملك أبا الحسن الأحرار وأملك الكبار...) . والإشارة هنا لأبي الحسن بن سراج وكأنّ البطلوسي يرجع برسالته إلى منشئها الأول ابن سراج .

د - ورابع كاتب كتب في الزرزوريات هو أبو عامر بن أرقم الذي عاش في عصر المرابطين ، ولم تسلم حياته - مع شاعريته - من شظف وحرمان دفع به إلى شيء من الكدية ، فكتب مقامه مدح بها الأمير تميم بن يوسف بن تاشفين^(١١) . أما رسالته الزرزورية فقد أورد نصها الفتح بن خاقان في كتابه قلائد العقيان ، ص ١٥٢ . وقد صدرت بقوله (وكتب إلى أحد إخوانه شافعاً لرجل يعرف بالزرزير) .

هـ - وآخر كاتب انتهى إليه أمر هذه الرسائل هو : أبو عبدالله بن أبي الخصال الملقب بذي الوزارتين وبكاتب أمير المؤمنين على بن تاشفين ، وهو عالم بالأخبار والحديث والسير والأشعار ، وأديب شاعر ونائر وقد شهد الحكم المرابطي حتى لفظاً أنفاسهما الأخيرة معا . فزالت دولة المرابطين سنة ٥٣٩هـ وتوفي ابن أبي الخصال سنة ٥٤٠هـ^(١٢) . تحول ابن أبي الخصال بالرسالة الزرزورية إلى ضرب أشبه بالخطبة الدينية ، فأطال الأدعية والتحميدات في أولها ، كما زاوج فيها بين الشعر والنثر .

كتب ابن أبي الخصال رسالتين زرزوريتين وردتا في المخطوط رقم ٥١٩ / الأسكوريال/ ترسل الفقيه الكاتب ابن أبي الخصال . وقد صدرت الرسالة الأولى بالعنوان الآتي : (رسالة لذي الوزارتين الأجل أبي عبدالله بن أبي الخصال في الزرزور) ورقة ٢ - ٤ .

كما صدرت الرسالة الثانية بالعنوان الآتي : (وله أيضاً في الزرزور) ورقة ٦٨ - ٧١ . وبموت ابن أبي الخصال مات هذا اللون الأدبي من الرسائل ، فلم نعرف في دولة الموحدين أو بني الأحمر كاتباً أدلى بدلوه في هذا اللون الأدبي ، وبالمثل لم نثر على رسالة زرزورية أخرى

سوى مذكرناه في هذه المقدمة .

نسختا المخطوطين والتحقيق :

اعتمد تحقيق هاتين الرسالتين على ورودهما في مخطوطين مختلفين . وفي - ايجاز - نورد أهم الملاحظات الخاصة بكل مخطوط مع العناية بما يخص الرسالتين موضع التحقيق .
المخطوط الأول والذي جعلناه أصلاً هو :

المخطوط رقم ٤٨٨ / الأسكوريال :

يضم هذا المخطوط عدداً من الرسائل والمقامات في أغراض شتى ولكتاب مختلفين من العصر المرابطي . وهو مفهرس تحت الرقم (مجموعة ٤٨٨) وموجود بمكتبة دير الأسكوريال بمدريد (اسبانيا) . وأهم ماورد فيه من رسائل ومقامات يمكن حصرها في الآتي :

(١) ترسل الفقيه أبي محمد البطلوسي ومراجعاته : ورقة ٢٥ - ٢٨ .

(٢) «رسالة كتب بها الأمير أبو يعقوب بن يوسف بن تاشفين إلى الناصر بدين الله تميم بن المعز بن باديس بالمهدية يصف فيه فتح بلاد العرب وجوازه للأندلس للجهاد» ورقة ٥٨ .

(٣) جملة رسائل إلى قبر الرسول عليه أفضل الصلاة والسلام كتب بها ابن أبي الحصال والبطلوسي ورقة ٦٢ - ٦٥ .

(٤) مقامة الفتح بن خاقان في البطلوسي ورقة ٨٠ - ٨٣ .

(٥) رسالة الانتصار في الرد على صاحب المقامة القرطبية ورقة ١٠٤ .

(٦) مقامة في ابن الرباعي ورقة ١١٤ .

(٧) مقامة لأبي الحسن المرسي في الرد على البطلوسي ورقة ١١٦ .

(٨) مجموعة رسائل متعددة في التهاني والتعازي لكتاب مختلفين .

والمخطوط مكتوب بخط أندلسي يحفل بقدر من الرشاقة والجمال والكلمات منقوطة ومشكلة سوى عدد قليل منها . والمخطوط بوجه عام سليم وخال من التلف والاضطراب .
يضم المخطوط مائة وعشرين صفحة ، كتبت بخطين أندلسيين مختلفين وقد أدى ذلك إلى

اختلاف في عدد الأسطر بصفحات المخطوط. فمن بداية المخطوط (ورقة ١) حتى ورقة (١٠٠) نجد ثلاثين سطراً بكل ورقة، وبكل سطر حوالي عشر كلمات. ثم يختلف الخط بعد الورقة رقم (١٠٠) حتى آخر المخطوط (منتصف الورقة رقم ١٢٤) إلى خط مغاير بما يجعل الورقة تضم أربعين سطراً وبكل سطر حوالي اثني عشرة كلمة. والاختلاف بين الخطين بين وظاهر إلى حد ترك آثاره على عدد الأسطر وعدد الكلمات بكل سطر.

تقع الرسالتان المحققتان في الثلث الأخير من المخطوط، الأوراق (١٠٩ - ١١٠) والرسالة الأولى هي رسالة ابن سراج وتبدأ من منتصف الورقة (١٠٩) وتقع في اثني عشر سطراً، وقد صدرت بالعنوان: «رسالة لأبي الحسن بن سراج إلى أبي القاسم بن الجدة معتنياً بالزريزير». ثم تعقبها مباشرة رسالة ابن الجدة وقد صدرت بالعنوان «مجاوبة الكاتب أبي القاسم بن الجدة» وتبدأ الرسالة من الثلث الأخير في الورقة (١٠٩) وتنتهي في منتصف الورقة (١١٠)، وتقع في حوالي ثلاثين سطراً.

وقد جعلت هذا المخطوط أصلاً، إذ ورد في الصفحة الأخيرة منه (ورقة رقم ١٢٤) ويخط مغربي معتاد أقل عناية ومجالاً عن الخطين الأندلسيين الواردين في صلب المخطوط مع خلو من الشكل والترقيم، ما يرجع تاريخ نسخه إلى عام ٦٤٣ هـ. كما ثبتت هذه الصفحة اسم الناسخ مع الختم والتاريخ. تقول: (قرأت أبعاض جميع ماتقيد فوق هذا، ومنها ما أكملته وسمعت أبعاض ذلك ومنها ما كمل بسماحه على الشيخ الفقيه الأستاذ لي علي بن عمر بن محمد بن عمر بن عبدالله الأزدي الشهير بابن الشلوين رضي الله عنه وأجاز لي ما فاتني منها مما في روايته، وناولي السفر بكلية وأباح لي رواية ما في روايته منه، والاسناد إليه فيه، والله ينفع بذلك. قاله وكتبه عبيدالله الفقير إليه محمد بن أحمد بن عبدالله بن محمد بن يحيى بن محمد بن أبي القاسم بن محمد بن عبدالله بن عبدالعزيز بن سيد الناس البعمرى، وفقه الله حامداً ربه، ومستغفراً ذنبه، ومصلحاً على نبيه محمد الكريم، ومسلماً على آله، وذلك كله في عقب شهر ذي قعدة سنة ثلاث وأربعين وست مائة).

ويعقب ذلك في السطر الذي يليه اسم الناسخ في خط أقرب إلى التوقيع وبقلم وحبر مختلفين، ثم في نفس السطر التاريخ والختم. وقد رمزت لهذا المخطوط في التحقيق بالحرف (م).

أما المخطوط الثاني الذي وردت فيه الرسالتان فهو مخطوط الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة لابن بسام الشتريني - الجزء الثاني - مخطوط بغداد. والنسخة التي اعتمدتها مصورة عن هذا المخطوط ومحفوظة بمكتبة المعهد المصري للدراسات الإسلامية بمجريد. وهي نسخة حديثة نسبياً ومكتوبة بخط نسخي عادي، وما يؤكد حداثها أنها تعني بتصويب النص بالإشارة إلى نسخ أخرى من كتاب الذخيرة. وقد رمزت لها في التحقيق بالحرف (ذ).

تبدأ رسالة ابن سراج من أول الورقة (٢٣١) وقد صدرت بالعنوان: (وكان الوزير أبو الحسن بن سراج قد خاطب بعض أهل العصر برقعة يشق لرجل يُعرف بالزريزير يقول في فصل منها).

وتقع الرسالة في ثلاثة عشر سطراً وبكل سطر حوالي ثنائي كلمات.

أما رسالة ابن الجلد التي صدرت بالعنوان: (وانتهت هذه الرقعة إلى الوزير أبي القاسم بن الجلد فعارضها برسالة قال فيها: «فتبدأ من منتصف الورقة (٢٣١) مباشرة عقب رسالة ابن سراج وتنتهي بنهاية الورقة (٢٣٤) مستغرقة ستة وخمسين سطراً.

ويتضح من التحقيق أنَّ الاختلاف بين المخطوطين ليس كبيراً، فلا تعارض أو حذف أو اضطراب يذكر بين النصين. ومع أي اعتمدت المخطوط ٤٨٨ أصلاً، إلا أنَّ مخطوط الذخيرة حفل بإضافات طيبة أثبتتها في مكانها من التحقيق.



التعليقات:

- (١) المعجب في تلخيص أخبار المغرب: ١١١ - المراكشي، تحقيق محمد سعيد الريان، مصر ١٩٤٩م.
- (٢) من طريف سخرة الشندي بأمر المرابطين يوسف بن تاشفين ما أورده في موقفين من الرسالة: أولها أنَّ المعتد بن عباد سأل وقد أنشده الشعراء مدحاً: «أيعلم أمير المسلمين ما قالوه؟ قال: (يوسف بن تاشفين) لا أعلم، ولكنهم يطلبون الخبز». والموقف الثاني: يحكى أنَّ المعتد بن عباد بعد انصرافه عن المغرب إلى الأندلس كتب ليوسف رسالة ينأى فيها عن فراقه، واستشهد بقول ابن زيدون:

بينهم ونا فيما ابتلت جوانحننا شرقاً إليكم ولاجفت مآقينا
حالت لفقدكم أيأنا فعدت مردأ وكانت بكم ببضاً لبالينا

وَالْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَكُونَنَّ مِنَ الْغَافِلِينَ

[illegible]

والأجمع سبيلاً وهو الشاهد والظاهر ولا يخفى أن الأجمع سبيلاً لما لا يخفى
ونفسه على هذا لا يخفى وإنما لا الأجمع فهو مضمناً لأن الأجمع الظاهر

[illegible]

فما قرىء عليه هذا البيت قال للقرىء: يطلب منا جوارى سوداً وبيضاً؟ قال: لا يامولاتنا، ما أراد إلا أن يليه كان يقرب أمير المسلمين نهاراً لأن ليالي السرور بيض، فعاد نهاره بعده ليلاً لأن ليالي الحزن ليال سود. فقال: والله جيد، أكتب له في جوابه إن دموعاً تجري عليه، ورؤسا توجعنا من يقبله.
(٣) راجع الرسالة في كتاب: نفع الطيب: ١٨٠ وما بعدها - المقرئ تحقيق محمد محي الدين - دون تاريخ - مخطوط الذخيرة/ ج٢ / مخطوط بغداد/ الورقة ٢٦٤.

(٤) الشعر الأندلسي: ٢٧، غارسية غومس، ترجمة حسين مؤنس، القاهرة ١٩٥٢م.

(٥) ديوان الأعمى النطيلي، ورقة ٤٣: النص منقول من كتاب الدكتور إحسان عباس، تاريخ الأدب الأندلسي، عصر الطوائف والمرايطين ٩٠، دار الثقافة، ١٩٦٢م.

(٦) راجع الفصلين الثمينين للدكتور إحسان عباس الواردين في كتابه في الفقرة (٥) أعلاه، وهما:
أ / الدولة وتشجيع الحياة الأدبية ٧١-٨٠.
ب / الحالة الإجتماعية للشاعر: ٨١-٩٢.

(٧) هذا باب طريف في الدراسات المقارنة. وقد اختلف فيه الباحثون سلباً وإيجاباً. بعضهم يرى أن المقامات العربية قد أثرت على قصص الشطار، وآخرون ينكرون مثل هذا التأثير. ومع ذلك فالقدر المتفق عليه من الحقيقة أنه شبيه بأبطال المقامات والزرزوريات ماعرفه الأدب الأسباني حوالي نهاية الربع الأول من القرن السادس عشر الميلادي في قصص الشطار Picaresca سواء عن طريق التأثير والتأثر أو لمجرد تشابه لا يستند استقراء علمي. ذلك أن بطل هذه القصص الأسبانية يسمى El Pícaro وهو كما يعرفه قاموس الأكاديمية الأسبانية: (غرض شخصية خالعة المذاكر، شيطانية هزلية، تمحا حياة غير هنية، كما يبدو في عبور المؤلفات الأدبية الأسبانية)، ومن خصائص هذا البطل كثرة الترحال، وقرأه القول اللغوي، والانتباه إلى طائفة المتسولين، مع سخرية برجال الدين، وإشارة للكسل والبطلالة والأحتيال، في براعة ومراوغة وبديهة حاضرة وذكاء لمالح. وهو - بعد - شاعر عطف وبهت شفقة واستطراف من الآخرين... وكل هذه الخصائص ليست بعيدة عن خصائص البطل المقامي أو الزرزوري.

راجع أ / النواحي الإنسانية في الدراسات الأدبية المقارنة ٤٩-٥٠ محمد غنيمي هلال، القاهرة ١٩٦٤م والدكتور هلال يرى أن المقامات كان لها تأثير مباشر في نشأة قصص الشطار.

Magamar Literature and the picaresque ب /

Novel: Jareer Abu-Haidar,

Journal of Arabic Lit., vol V 1970, PP.

1-10.

وأبو حيدر لا يرى أن المقامات قد أثرت في قصص الشطار وأن الأمر ظل قاصراً على التشابه الذي لا يرقى إلى مرتبة التأثير والتأثر في الدراسات المقارنة.

(٨) للموقف على ترجمته راجع:

١ / ثلاثه المتيان في عاسن الأعيان: ٢٣١ - الفتح بن خالان، تقديم محمد العناني، تونس، المكتبة العتيقة ١٩٦٦م.

٢ / الغرب في حل المغرب: ١١٦/١ - ابن سعيد المغربي، تحقيق شوقي ضيف، الطبعة الثانية، مصر، دار المعارف، ١٩٦٤م.

٣ / الصلة: ٢٢٦ - ابن بشكوال، القاهرة، مطبعة السعادة ١٩٥٥م.

٤ / بنية الوعاة: ٥٧٦/١ - السيوطي، تحقيق عماد أبو الفضل إبراهيم، الطبعة الأولى، القاهرة، عيسى البابي الحلبي ١٩٦٤م.

(٩) للوقوف على ترجمته راجع:

١ / قلائد المعيان: ١٢٣.

٢ / المغرب في حل المغرب: ٣٤١/١.

٣ / خريدة النصارى وجريدة العصر: ٣٥٧/٢ - العماد الأصفهاني، الجزء الثاني، تحقيق عمر الدسوقي وعلي عبدالمعظم، القاهرة، دار النهضة.

(١٠) للوقوف على ترجمته راجع:

١ / مخطوط الذخيرة / ج٢ / مخطوط بغداد / ورقة ٤٦٨.

٢ / قلائد المعيان: ١٨٦.

٣ / المغرب في حل المغرب: ٣٤٢/٢.

(١١) للوقوف على ترجمته راجع:

١ / قلائد المعيان: ١٥٠.

٢ / جذوة القنيس: ٣٦٧ - الحميدي، تحقيق عماد بن ناويط الطنجي، الطبعة الأولى، مصر - مطبعة السعادة ١٩٥٢م.

(١٢) للوقوف على ترجمته راجع:

١ / قلائد المعيان: ١٩٩.

٢ / المغرب في حل المغرب: ٦٦/٢.

٣ / بنية المناس في تاريخ رجال أهل الأندلس: ١٢١ - الضبي - القاهرة، دار الكاتب العربي، ١٩٦٧م.

٤ / الصلة: ٥٣.



● نص الرسائل ●

الرسالة الأولى:

رسالة لأبي الحسن بن سراج إلى أبي القاسم بن الجعد معتنياً بالزُّرْزِير^(١).

ياسيدي^(٢) الأعلى، وعِظْفي الأعلى، ومدخوري الأزكى، وظهري الأقوى، ومن أبقاه الله
منير الظلمات^(٣)، مشكوراً^(٤)، بكل الألسنة واللغات، كتبت^(٥) أدام الله عزك، والود صقيل
الوذائل^(٦)، مظلون الخماثل، جميل البكر والأصائل، والله يزيد أزهاره وضوحاً، وأطيّاره
صدوحاً، وضيائه^(٧) تيمناً وسنوحاً^(٨)، وصل الله علوك، وكبت عدوك، شخص
يعرف بالزُّرْزِير، أقام لدينا أيام التخسير، وزمان التبُّلُّغ بالشكير، فلما كملت ريشه^(٩)،
ونبا^(١٠) بأفراخه عوشه^(١١)، أزمع عنا قطوعاً، وعلى ذلك^(١٢) الأفق اللدن تدلياً ووقوعاً،

رجاء أن يلقي في تلك البساتين مصفراً^(١٢) وعلى تلك الغصون حباً وثمرأً، وأنت بجميل
تأنيك، وكريم^(١٣) معاليك، تضع له هناك^(١٤) وكوناً^(١٥)، وتستمتع من نعم شكره على ذلك
أغاريد ولحونا، دون أن يلتقط في فنائك حبه أو يشترط من مائك عبه :
وإذا أصرؤ أهدى إليك صنعة من جباهه فكأنها من ماله
فقلت^(١٦))

وإن رأيت، أراك الله آمالك دانية، وأعمالك مرضية ذاكية، مراجعتي بللت ريقاً،
ووصلت في المحامد مذهباً وطريقاً، لازالت آثار مجدك حسناً، وحبال ودك مثناً، وأغصان
عهديك طيبة المكاسر لذناً، بمته .



حواشي الرسالة الأولى

- (١) ذ: وكان الوزير أبو الحسن قد خاطب بعض أهل العصر برقعة يشفع لرجل يعرف بالزوزيرو يقول في فصل منها.
- (٢) م. سيدي
- (٣) م: كلمة غير واضحة، نرجح أنها الظلمات بما يستقيم معه السياق.
- (٤) ذ: تبدأ الرسالة من هنا: كتبت أحرفي هذه والود صقيل..
- (٥) الوذيلة: الوذلة، والوذلة من النساء النشيطة الرشيدة الوذلة: الخفيفة من الناس والإبل وغيرها. الوذيلة: القطعة من
الفضة والجمع وذيل، وذوائل، قال الطرماح:
يسلخدرد كالوذائل لم يَشْرَن عنها ذِي السهام
- والذوائل جمع وذيلة، وهي المرأة، والوذالة: ما يقطع الجزار من اللحم بغير قسم.
- أنظر: مادة ذل: لسان العرب.
- (٦) ذ: تيامنا وسروحاً.
- (٧) ذ: بمته: زيادة.
- (٨) ذ: من الطيور: زيادة.
- (٩) التحسير: انحسرت الطير خرجت من الريش العتيق إلى الخليل: مادة حسر: لسان العرب.
- (١٠) الشكير: ما ينبت في أصل الشجرة من الورق، وليس بالكبار والشكير من القرخ، الزغب، والشكير من الشعر والريش
والعفا والبيت:
عائت من صفاره بين كباره:
مادة شكير: لسان العرب.

- (١١) ذ: وإني
(١٢) ذ: ونيت
(١٣) ذ: عشوشة
(١٤) ذ: هذا
(١٥) ذ: نغفرا
(١٦) ذ: مكارم
(١٧) ذ: هنالك

(١٨) الزَّحْن: عش الطائر

(١٩) بياض بالنسخة (م) مقدار ثلاث كلمات.

(٢٠) الجزء من الرسالة عقب بيت الشعر وحتى نهايتها ناقص من النسخة (ذ).



الرسالة الثانية:

مجاوبة الكاتب أبي القاسم بن الجلد^(١).

حَسَنْتَ لَكَ يَا سَيِّدِي أَبَا الْحَسَنِ مَرَاتِبَ^(٢) الْأَيَّامِ، وَتَشَوَّفْتَ نَحْوَكْ غَرَائِبَ الْكَلَامِ،
وَاهْتَزَّتْ لِمَكَاتِبِكَ أَعْطَافُ الْأَقْلَامِ، وَجَادَتْ عَلَى مَحَلِّكَ أَنْطَافُ^(٣) الْغِيَامِ، وَأَشَادَتْ^(٤) بِنَيْلِكَ^(٥)
وَفَضْلِكَ أَصْنَافُ الْأَنَامِ، فَإِنْ كَانَ رَوْضُ الْعَهْدِ - أَعَزَّكَ اللَّهُ - لَمْ يَصِبْهُ مِنْ تَعَهْدِنَا طَلٌّ وَلَا
وَابِلٌ، وَلَا سَجَعَتْ عَلَى أَيْكِهِ وَرَقٌ وَبِلَابِلٌ، فَإِنَّ أَزْهَارَهُ فِي^(٦) شُرْبِ الصَّفَاءِ ثَابِتَةٌ^(٨) وَأَشْجَارُهُ
فِي تَرْبِ الْوَفَاءِ رَاسِخَةٌ نَابِتَةٌ^(٩) وَقَدْ آتَى الْآنَ لِعَقْمِ شَجَرِهِ أَنْ تُطْلِعَ مِنَ الثَّمَرِ الْوَنَاءَ، وَلِعَجْمِ
طَيْرِهِ أَنْ تُسْمِعَ مِنَ النِّعَمِ الْخَنَاءَ، بِمَا سَقَطَ لَدَيْ، وَوَقَعَ عَلَيَّ، مِنْ طَائِرِ شَهِي الصَّغِيرِ، مِجْنِي
الْإِسْمِ عَلَى التَّصْغِيرِ^(١٠)، فَإِنَّهُ رَجَعَ بِذِكْرِكَ^(١١) حِينَ، وَابْتَدَعَ فِي نُوبَةِ شُكْرِكَ تَلْحِينَاً، وَحَرَّكَ
مِنْ شَوْقِي نَحْوَكْ^(١٢) سَكُوناً، وَدَمَعْتُ^(١٣) فِي قَلْبِي لَوْدِكَ وَكُوناً، ثُمَّ أَسْمَعْنِي أَثْنَاءَ تَرْغَمِهِ
كَلَاماً^(١٤) لَوْ تَفَتَّتْ بِهِ الْوُرُقَاءُ لِأَذْنَتِ لَهُ^(١٥) الْعَنْقَاءُ، أَوْ نَاحَ بِمِثْلِهِ الْحِمَامُ لِبُكْيِ لَشَجْوِهِ^(١٦)
الْغِيَامِ، أَوْ سَمِعَهُ قَيْسُ بْنُ عَاصِمٍ فِي نَادِيهِ وَبَيْنَ أَعَادِيهِ لِحُلِّ الزَّمْعِ^(١٧) حُبَاهُ، وَاسْتَرَدَّ الطَّرِبَ
صَبَاهُ:

كَلَامٌ لَوْ أَنَّ الْبَقْلَ يَرْزِي بِمِثْلِهِ
زَهِي الْبَقْلُ وَاخْضَرَّ الْمَعْصَاةُ^(١٨) الْمُضَيَّفُ

فتلقيت فضل صاحبه بالتسليم، واعترفت بسبقه^(٢٠) اعتراف الخبير العليم، وبعد فإني أعود^(٢١) من هذا الحيوان الفريد، والشيطان المرید، فأقول لئن سمي بالزرزير، لقد صُغِرَ للتكبير، كما قيل حريقص، وسقطه^(٢٣) يحرق الحرج^(٢٤)، ودَوِيْبِيَّة^(٢٥) وهي تنهب^(٢٦) الأرواح والمُهَج، ومعلوم أنَّ هذا الطائر الصافر يفوق جميع الطيور في فهم التلقين وحسن اليقين، فإذا علم الكلام لمج بالتسيح، ولم ينطق لسانه بالقبيح ثم تراه يقوم كالْمَسِيح^(٢٧) ويدعو إلى الخير باللسان الفصيح^(٢٨)، فمن أراد^(٢٩) الانعاط لقي^(٣٠) قس إباد بمكاظ، أو مال إلى سماع البسيط والشديد، وجد عنده نخب الموصل للرشيد، فطوراً يُكيك بأشجى من مرثي^(٣١) أريد، وحيناً يُسليك بأحلى من أغاني معبد، فسبحان من جملة هادياً خطياً !، وشادياً مطرباً مصيماً^(٣٢) ! لارب سواه^(٣٣). ولما طار في^(٣٤) بلاد الغرب ووقع^(٣٥) بأكتافها وسفع^(٣٦)، وعابن مااتفق فيها هذا العام من عدم الزيتون، في تلك البطون والمثون، أزمع عنها فراراً، ولم يجد بها قراراً^(٣٨)،

لأن هذا النمر بهذا الأفق هو قوام معاشه وملاك انتعاشه إليه يقطع وعليه يقع^(٣٩). فاستخفه هائج التذكار نحو تلك الأوكار حيث يكتسي ريشه حريراً، ويحتشى جوفه بريراً^(٤٠)، ويحتشى فراخه غيراً، ويغتدى على رهطه أميراً، فخذله إليك نازلاً لديك، مائلاً بين يديك يترنم بالثناء ترنم الذباب في الروضة الغناء، فقد^(٤١) هز قوادم الجناح لعادة الاستمتاع، وحبر في^(٤٢) لمع الأسجاع ما يصلح بالانتجاع^(٤٣)، واثقاً بأن ذلك القطر الناضر ستنفحه حدائقه ولا تلحقه بوائقه^(٤٤)، لاسيما وفضلك دليله إلى ترع رياضه، وفرض حياضه، مع أنه لا يعدم في جنباك حباً نثراً، وخصباً كثيراً، وعشياً وثيراً :

فإذا ما أراد كنت رشاء^(٤٥) وإذا ما أراد كنت قليباً^(٤٦)

وبعد^(٤٧) هذا المزل العجيب جد كالليل^(٤٨) المتجاف، وبروز صفحة الشمس من الحجاب، أخطب به^(٤٩) من رسائلك بكراً وأجعل^(٥٠) نقدها شكراً، وأبذل لها من ودَى مهراً، وأمتع بها لحظي دهرأ، فإن فرجت لحظتي^(٥١) باباً، ووصلت^(٥٢) بي^(٥٣) أسبأيا، جددت للمهد شبأيا، واستوجبت من الحمد محضاً لبأيا، إن شاء الله تعالى^(٥٤)، وأقرأ مني^(٥٥) على سيدي سلاماً أعطر^(٥٦) من مسك دارين، وأكثر من رمل يبرين بحبِّي^(٥٧) مع الشمس

شروعاً، ومع النجم طروقاً، والسلام المعاد الموصول ماعضدت الفروع الأصول وألفت
الجفون النصول^(٥٨) ورحمة الله تعالى وبركاته^(٥٩).



حواشي الرسالة الثانية

- (١) (١٤) وانتهت هذه الرقعة إلى الوزير أبي القاسم بن الجلد فعارضها برسالة قال فيها.
- (٢) ذ: ضراب.
- (٣) انطاف: التطفة الماء الصافي قل أو كثر، والجمع نطاف، ونطفان الماء سيلانه.
ذ: النطاف.
- (٤) م: وجادت.
- (٥) ذ: بفضلك ونيلك.
- (٦) م: على أكمة لتوددنا.
- (٧) د: علي.
- (٨) ذ: نابتة.
- (٩) ذ: نابتة.
- (١٠) ذ: لاسم التصغير.
- (١١) ياسمك.
- (١٢) ذ: إليك.
- (١٣) فيث، فث، فهو ديث: لأن، وسهل، ومكان فيث، لين الموطىء.
لسان العرب.
- (١٤) ذ: وصف به نفسه: زيادة.
- (١٥) زيادة في (م).
- (١٦) ذ: شجرة.
- (١٧) الزرع: الدمش.
- م: السمع.
- (١٨) البغل: من النبات مالس بشجر، دق، ولا جل.
- (١٩) المضاء: كل شجر يعظم، وله شوك.
- (٢٠) نافضة في دء.
- (٢١) أعود إلى ذلك الحيوان: زيادة في دء.
- (٢٢) سقط، وسقط: ما يسقط من النار عند القذح، السقطة: العثرة والرتة.
- (٢٣) الحرج: بكسر الراء وفتحها، هو المكان الضيق كثير التجر، الحرج: الاثم.
- (٢٤) تصغير داهية.
- (٢٥) ذ: نلهم.
- (٢٦) ذ: كالصح.

- (٢٨) ذ: لسان فصيح.
(٢٩) ذ: أحب.
(٣٠) ذ: لقي منه.
(٣١) ذ: مرأى
(٣٢) مصيباً: ناقصة في «هـ».
(٣٣) لأرب سواه: ناقصة في «هـ».
(٣٤) ذ: ببلاد.
(٣٥) ذ: ورقاً في أكتافها.
(٣٦) ذ: صنع.
(٣٧) ناقصة في (م).
(٣٨) ذ: يجدها.
(٣٩) كما يتبع على العسل الذباب وتنقطع إلى العرد الضباب: زيادة في
(٤٠) البير أول ما يظهر من ثمر الأراك وهو حلو.
(٤١) ذ: وقد.
(٤٢) ذ: من
(٤٣) ذ: للاستنجاع.
(٤٤) ذ: ودائنة.
(٤٥) الرشاء: الجبل.
(٤٦) القلب: البئر.
(٤٧) والله تعالى يكفيه فيما ينويه شر الجوارح ويقيه شرم الجلبه والبرح منه: «زيادة في «هـ»».
(٤٨) كالظلام.
(٤٩) ذ: به.
(٥٠) ذ: أجعل.
(٥١) ذ: لحطيتي.
(٥٢) ذ: وصلت.
(٥٣) ذ: في مواصلي.
(٥٤) الدعاء ناقص في «هـ».
(٥٥) متى: ناقصة في «هـ».
(٥٦) أعطى: ناقصة في «هـ».
(٥٧) ذ: يحبه.
(٥٨) علي سيدي: زيادة في «هـ».
(٥٩) وبركاته: ناقصة في «هـ».



المصادر والمراجع

أولاً/ المخطوطات:

- (١) ابن بسام الشنقي: الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة. ج ٢ / مخطوط بنگداد / نسخة مصورة بالمعهد المصري للدراسات الإسلامية بملاييد.
- (٢) مجموعة رقم ٤٨٨ / مخطوط الأسكوريال - مدريد - إسبانيا.

ثانياً/ الكتب:

- (١) ابن بشكوال: الصلة، القاهرة، مطبعة السعادة، ١٩٥٥.
- (٢) ابن سعيد المغربي: المغرب في حل المغرب، تحقيق شوقي ضيف الطبعة الثانية، مصر، دار المعارف ١٩٦٤م. مجلدات.
- (٣) ابن منظور: لسان العرب، ٢٠ جزءاً، المطبعة الأميرية القاهرة (١٣٠٠ - ١٣٠٧هـ).
- (٤) إحسان عباس: تاريخ الأدب الأندلسي عصر الطوائف والمرابطين الطبعة الأولى، بيروت، دار الثقافة ١٩٦٢م.
- (٥) الحميدي أبو عبد الله محمد: جذوة المقتبس في ذكر ولاية الأندلس، تحقيق محمد بن تاروت الطنجي، الطبعة الأولى، مصر، مطبعة السعادة، ١٩٥٢م.
- (٦) السورطي، جلال الدين عبدالرحمن: بنية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، الطبعة الأولى، القاهرة، عيسى البابي الحلبي ١٩٦٤م، مجلدات.
- (٧) الضبي، أحمد بن يحيى بن أحمد: بنية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس القاهرة، دار الكاتب العربي، ١٩٦٧م.
- (٨) العماد الأصفهازي: خريدة القصر وجريدة مصر: ج ٢، تحقيق عمر الدسوقي وعلي عبدالمعطي، القاهرة، دار النهضة.
- (٩) غريب غوس: الشعر الأندلسي، ترجمة حسين مؤنس، القاهرة، ١٩٥٢م.
- (١٠) الفتح بن خافان: قلائد الغيتان في محاسن الأعيان، تقديم محمد العناني، تونس، المكتبة المتينة ١٩٦٦م.
- (١١) محمد غنيمي هلال: التمازج الإنسانية في الدراسات الأدبية المقارنة، القاهرة، المطبعة العالية ١٩٦٤م.
- (١٢) المراكشي، عبدالواحد: المعجب في تلخيص أخبار المغرب، تحقيق محمد سعيد العريان، ط. مصر ١٩٤٩م.
- (١٣) المفري: نصح الطبيب، تحقيق محمد محي الدين ط. مصر - دون تاريخ.

ثالثاً/ الدوريات:

- 1) Journal of Arabia Literature (Brill) Vol VI, 1974.



اللسانية ومنهج التفكير عند العرب

د. منذر عياشي



يبقى سؤال Russell مثيراً للغاية ، وباعثاً على الحيرة العلمية . إنه يقول : «كيف تسنى للبشرية التي تتصل بالعالم اتصالاً عابراً محدوداً ، ومن نوع خاص ، أن تكون قادرة ، مع ذلك ، على حيازة الكثير من المعارف»^(١) . إن الأمر يتعلق بالمعرفة والعلم والمنهج . ورحم الله الإمام الغزالي إذ يقول : «لو لم يكن في مجاري هذه الكلمات إلا ما يشكل في اعتقادك الموروث لتندب للطلب فناهيك به نفعاً ، إذ الشكوك هي الموصلة إلى الحق . فمن لم يشك لم ينظر ، ومن لم ينظر لم يبصر ، ومن لم يبصر بقي في العمى والضلال»^(٢) .

١ - التفكير اللساني وقضية المعرفة :

* — عندما أراد الأئمة الأوائل أن ينظروا للغة ، أدركوا أن مفهوم اللسان يرتكز على مفهوم البيان كما هو في القرآن — أسس التفكير الحضاري عندهم — فأنكشف البحث اللساني لهم ، وصار تداخلاً بين بعد روحي وآخر مادي باشتراك العقل .

يقول سهل بن هرون :

«العقل رائد الروح ، والعلم رائد العقل ، والبيان ترجمان العلم»^(٣) . تخفف هذه المقولة من حدة الحيرة في سؤال Russell وتمنح الباحث الحضاري — سهل بن هرون — أسساً خلاقة للتفكير ، إذ بها تأخذ نظرية المعرفة ، عند العرب ، كل أبعادها : الروحية والعقلية والعلمية . ويميز البيان فيها أداة لترجم العلم . وكأن محصول القول هنا تنزيل من التنزيل ، أو وحي من منطق الآية : (اقرأ) ، أي تكلم بما علمت .

تضع هذه المقولة بين أيدينا أهم مفاتيح المعرفة . إنها توقفنا على دور اللغة في استيعاب الفكر ، ونقله ، وتجعله استمراراً للعقل الإنساني وتناجه عبر اتصاله بالوجود اتصالاً لا انقطاع فيه .

لكن السؤال لا يزال قائماً ، نعني بماذا صار الإنسان قادراً على المعرفة ؟

* - يقول الجاحظ :

«وجدنا كون العالم ، بما فيه حكمة . ووجدنا الحكمة على ضربين : شيء جعل حكمة وهو لا يعقل الحكمة ولا عاقبة الحكمة . وشيء جعل حكمة وهو يعقل الحكمة وعاقبة الحكمة . فاستوى بذلك الشيء العاقل وغير العاقل من جهة الدلالة على أنه حكمة . واختلفنا من جهة أن أحدهما دليل لا يُستدلُّ والآخر دليل يُستدلُّ . فشارك كل حيوان سوى الإنسان جميع الجماد في الدلالة وفي عدم الاستدلال ، واجتمع للإنسان أن كان دليلاً مُستدلاً . ثم جعل للمُستدلِّ سبب يدل به على وجوه استدلاله ووجوه ما نتج له الاستدلال ، وسموا ذلك بياناً^(٤) . ولو استعملنا ثلاثية هيجل الجدلية منهجاً نحلل به مقولة الجاحظ هذه ، لوقفنا على أهم الخصائص المعرفية للمنظور العربي والإسلامي :

أ - الاستواء في الحكمة :

١ - القضية (These) :

«شيء جعل حكمة وهو لا يعقل الحكمة ولا عاقبة الحكمة» .

٢ - النقيض (Unithese) :

«شيء جعل حكمة وهو يعقل الحكمة وعاقبة الحكمة» .

٣ - التآليف (Synthese) :

«فاستوى الشيء العاقل وغير العاقل من جهة الدلالة أنه حكمة» .

ب - عدم الاستدلال :

١ - القضية :

«دليل لا يستدل» .

٢ - النقيض :

«دليل يستدل» .

٣ - التأليف :

«شارك كل حيوان سوى الإنسان جميع الجهاد في الدلالة وفي عدم الاستدلال» .

ج - النتيجة :

بعد القيام بهذا التوزيع الجدلي ، يمكننا أن نقف على نتيجة نهائية بها صار الإنسان مستدلاً ، أي قادراً على المعرفة :

«ثم جعل للمستدل سبب يدل به على وجوه استدلاله ووجوه مانع له الاستدلال وسموا ذلك بياناً» .

* - وينتهي سؤال Russell عند ابن حزم إلى أنه :

«لا سبيل إلى معرفة حقائق الأشياء إلا بتوسط اللغة»^(٥).

وهذا المعيار يحدد ابن حزم الأداة التي تقوم عليها أصولية العلم (Epistemologie de la science) ، وذلك بتوسط اللغة بين المتكلم والأشياء .

بيدوما تقدم أن البحث اللساني في الحضارة العربية ، تبين معرفي لموقع اللغة من المعرفة ذاتها . ولعل من المفيد أن ننهي هذه الفقرة باستنتاج خاص . فلقد ظهر لنا أن أصولية اللسان وأصولية الفكر وحدتان متداخلتان ومتميزتان في نفس الوقت :

أ - أما التداخل ، فلأن الخطاب :

١ - لا يتم إلا بين ذهنيات متطورة يستقل الإنسان بها عن سواه .

٢ - ولأن تطور الذهن لا يكون إلا بتوسط اللغة . وذلك لأننا باللغة نتحدث عن الفكر ، وباللغة نتحدث عن الأشياء ، وباللغة نتحدث عن اللغة .

ب - وأما عن التمايز فهو أيضاً ينقسم إلى قسمين : تمايز لساني ، وتمايز فكري .

١ - التمايز اللساني :

يتميز اللسان بكونه أداة . وهو كأداة .

— «دليل مايتضمنه»^(٦) .

— مستقل بنظامه .

— مُجِبٌّ بالتزام قوانينه . وقد أشار الجرجاني إلى قسرية اللسان بقوله :

«نظم الحروف هو تواليها في النطق فقط ، وليس بمقتضى عن معنى ، ولا الناظم لها بمقتضى لها في ذلك رسماً من العقل اقتضى أن يتحرى في نظمه لما ماتحراه . فلو أن واضع اللغات قد كان قال (ربض) مكان (ضرب) لما كان في ذلك ما يؤدي إلى فساد»^(٧) .

— لاعلاقة للعقل به . والغزالي يؤكد هذا فيقول :

«لا مجال للعقل في اللغات»^(٨) .

ويشرح الرازي الأمر فيقول :

«وذلك لأن العقل لا طريق له إلى معرفة اللغات البتة ، بل ذلك لا يحصل إلا بالتعليم ، فإن حصل التعليم حصل العلم به ، وإلا فلا»^(٩) .

٢ — التمايز الفكري :

يتميز الفكر بكونه مضموناً . وهو كمضمون :

— دليل على غيره .

— محتاج إلى غيره في ظهوره وغير مستقل بنفسه .

— غير مُجِبٌّ بنظامه .

— متمكن في تحصيل المعارف .

٢ — الحدث اللساني :

الأصل في الإنسان أنه متكلم ، والأصل في الكلام أنه متعدد ، والأصل في التعدد أن المجتمعات البشرية عبر تاريخها الطويل قد استخدمت — كل مجتمع بما اصطلاح عليه — إشارات وعلامات سمعية تؤدي بها الغرض لتعريف ماضي الضمير وكشف السرائر . يقول أبو حامد الغزالي :

«ولا متكلم إلا وهو محتاج إلى نصب علامة لتعريف ماضي ضميره»^(١١).

ولقد اتفق العلماء على أن الأحداث - كبيرها وصغيرها - في هذا الكون تسير وفق قانون أو جملة من القوانين لا تتعدها . واللسان حدث باعتبار قول الغزالي ، لأن المتكلم محتاج إلى نصب علامة لتعريف ماضي ضميره . فهل كشفت اللسانية العربية عن هذا الحدث ؟

١ - تعريف الحدث اللساني :

الحدث اللساني في منظومة التفكير العربي حدث أصولي . وتعتبر دراسته ، كظاهرة ، بمثابة الأمر الذي يدور على نفسه ، أو بمثابة الشيء الذي يصدر عن ذاته . يقول أبو حيان التوحيدي :

«فأما الكلام على الكلام فإنه يدور على نفسه»^(١٢) .

وإذا كان نفي البرهان عند ابن رشد يقتضي القول بالبرهان ، فعنده أيضاً أن : «نافي الكلام يلزمه الإقرار بالكلام»^(١٣) .

ولما كانت اللغة انعكاساً لنفسها ، فقد حدد ابن فارس تعريف علم الأصول اللساني بأنه : «القول على موضوع اللغة»^(١٤) .

٣ - أصولية التفكير القانوني :

إن العمل العلمي مشروع حضاري ولا يمكن لهذا المشروع أن يتم إلا إذا كانت المكونات الحضارية هي صانعة المكونات العقلية المستخدمة فيه . وإذا كان الوقوف على القانون نتاجاً تجريبياً . فإن الوقوف على مُتَصَوِّر القانون - جوهر التفكير القانوني - إنتاج حضاري . ولا أعتقد أن القانون يقع في إدراك الباحث بكل نظم وقواعده مالم يكن لمتصور القانون وجود حضاري في ذهنه أولاً . وإن شمولية الحضارة تجعل من متصور القانون شمولياً يغطي ميادين العلم كلها ، ويسمح بالتالي ، لكل علم على حدة ، أن تكون له قوانين تحيط به أو تنتجها . ويمكننا أن نجمل هذه القضية في ست نقاط أثارها الفارابي عن القانون ومتصوره :

١ - «القوانين في كل صناعة أقاويل كلية ، أي جامعة ينحصر في كل واحد منها أشياء كثيرة» .

٢ - «وتكون معدة إما لتحيط بها مذهب من تلك الصناعة لئلا يدخل فيها ما ليس منه أو يشذ عنها مذهب منه» .

٣ - «وإما ليمتنح بها مالا يؤمن أن يكون قد غلط فيه غلط» وهذا ما سماه (Les degres de falsifiabilite) مراتب قابلية الوقوع في التزوير أو الخطأ^(١٤) .

٤ - «الأشياء المفردة الكثيرة إنما تصير صنائع أو في صنائع بأن تحصر في قوانين تحصل في نفس الإنسان على ترتيب معلوم . وذلك مثل : الكتابة والطب والفلاحة والعمارة وغيرها من الصنائع عملية كانت أو نظرية» .

٥ - «كل قول كان قانوناً في صناعة ما فإنه معد بما هو قانون لأحد ماذكرنا أو جميعه» .

٦ - «وينتهي إلى تعريف القوانين بأنها :

«أشياء قليلة العدد تحصر أشياء كثيرة»^(١٥) .

ولقد قادم هذا النوع من التفكير في أصولية القانون إلى نوع من التفكير التائي بين التشكيل اللغوي والتشكيل الرياضي .

٤ - التشكيل اللغوي والتشكيل الرياضي :

إن اللسانية في مقولة التراث العربي تعتمد على أصولية التفكير في بناء مناهجها . ويظهر لنا أن العرب - توافقاً مع رؤيتهم الحضارية - قد جعلوا :

أولاً - التفكير ينصب على نفسه ليختص بطريقة يتم فيها اكتتاله بضبط مجالاته عن طريق اللغة . وإذا كان محورا هذه الطريقة هما الاتباع والابتداع ، فإن أول ما يظهر من مقولات التراث هو تسخير العقل لمعرفة الأصول .

يقول أبو اسحاق ابراهيم الشيرازي : «طريق معرفة الأصول العقل» . فإن عرفت فقد وجب اتباعها . ولذا كان يرى أنه «فرض على كل أحد أن يعلم هذه الأصول» . ولا يجوز عنده بعد ذلك اتباع العقلاء للعقلاء . «العقلاء كلهم يشتركون في العقل فلا يجوز لبعضهم تقليد بعض»^(١٦) .

ويبدوننا ، في مجال آخر ، أن الفكر الغربي قد ناقش مثل هذه القضية . فإذا كان ديكرارت يقول : «أنا أفكر ، إذن ، أنا موجود» ، فإن «لاكان» يرد هذه المقولة بمقولته الشهيرة : «إنني أفكر حيث لا أوجد ، وأوجد حيث لا أفكر» .

ثانياً — وإذا كان العرب يندفعون إلى اتباع الأصول في بناء التفكير الإبداعي ، فإنهم يندفعون باللسانية أيضاً إلى الأصول في ابتداء المنهج . وقد ظهرت اللسانية ، بالفعل ، متخيرة لمنهجها مبتدعة فيه .

رأى بعض المفكرين العرب أن المنهج الرياضي يحكم إلى الأصول ، فاعتمدوه معتبرين أن اللغة ، بموجب قوانينها ، مفتوحة ودائمة التوليد . ولقد وجدت هذه النزعة في العصر الحديث بفضل تطور الفكر الرياضي . ونراها في اللسانية بصورة خاصة عند هاريس Harris أستاذ شومسكي ، والذي وصل هو الآخر إلى ضرورة استعمال المنهج الرياضي كضابط علمي بسبب انفتاح اللغة . إنه يقول :

«إن اللغات الطبيعية لغات مفتوحة : يمكن دائماً تشكيل الجمل الجديدة والخطابات الجديدة»^(١٧) .

الرازي واحد من أولئك الذين اعتمدوا هذا المنهج . فبعد أن عرض نظريته فيما سماه بالتقليب ، نراه يسند قدرة التضاعف في الكلام إلى قاعدة التضاعف في العدد ، وذلك بموجب قانون التضاعف ، أي من الأقل إلى الأكثر ، ومن التركيب البسيط إلى التركيب المعقد . ولقد رأى أن :

«أول مراتب هذا التركيب أن تكون الكلمة مركبة من حرفين . ومثل هذه الكلمة لا تقبل إلا نوعين من التقليب كقولنا «من» وقلبه «نم» وبعد هذه المرتبة أن تكون الكلمة من ثلاث أحرف» .

ويظل ينتقل من مرتبة إلى أخرى ، إلى أن يقول :

«والضابط في الباب أنك إذا عرفت التقاليب الممكنة في العدد الأقل ثم أردت أن تعرف التقاليب الممكنة في العدد الذي فوق ، فاضرب الفوقاني في العدد الحاصل من التقاليب الممكنة في العدد الفوقاني»^(١٨) .

ويعمد ائرماني إلى بدييات التشكيل الرياضي ، وهي أصول في هذا . نعم ، ليؤكد أن «إظهار المعنى الكثير» إنما يكون «باللفظ اليسير» ، فيقول :

«الإيجاز والإكثار إنما هما في المعنى الواحد ، وذلك ظاهر في جملة العدد وتفصيله ، كقول القائل : لي عنده خمسة وثلاثة واثنان ، في موضع عشرة»^(١٩) وينتهي القاضي عبد الجبار إلى إحداث تماثل المنهج الرياضي واللغوي فيقول :

«فكل هذه العلوم لا تخرج عما ذكرنا ، وإن كانت العبارات تختلف فيه ، لأن ضرب العدد في العدد ليس إلا من باب الجمع ، لكن المراد بالضرب جمع الخمسة خمس مرات . والمراد بالجمع جمع خمسة إلى خمسة . فاللقب مختلف والمعنى متفق» .

«والعلم بالكلام وتركيبه يجري على هذا النحو لأن المتكلم يجب أن يكون عالماً بأفراد الكلام وكيفية ضمه ، ويعرف ما إذا ضم بعضه إلى بعض يكون ضرباً من الكلام ، ومنارقه لغيره . كذلك القول في تفريق بعض عن بعض»^(٢٠) .

وحدد مثل هذا التحليل عند جون لايونز John Lyons حين أراد أن يفارِب معنى generative (التوليد) عند شومسكي :

«إن استعمال المصطلح engender (ولد) عند شومسكي مشتق فعلاً من الاستعمال الرياضي» .

ويدل على ذلك بالتعبير الجبري التالي :

ب + ٢ = ٣ — ن • وبما أن كل واحد من المتغيرات (ب ، ي ، ن) تستضِع أن تأخذ قيمة لرقم كامل فإن التعبير سيولد (بموجب العملية الحسابية المألوفة) مجموعة من القيم اللامتناهية . مثلاً : إذا كانت ب = ٣ ، ي = ٢ ، ن = ٥ ، فإن النتيجة هي ٠٧ وإذا كانت ب = ١ ، ي = ٣ ، ن = ٢١ ، فإن النتيجة ستكون — ١٠ . وهكذا نستطيع القول بأن ٧ — ١٠ ، تشكل جزءاً من مجموع القيم التي ولدها التعبير الجبري»^(٢١) .

وإذا كنا قد أتينا بهذا المثال فلنكي ندل على أن العرب لم يقفوا عند حدود ماعرضنا ، بل ساروا مع التشكيل الرياضي إلى أبعد من هذا ، ولم يقفوا إلا عند (س) الحدث اللساني فالتقوا بذلك مع أحدث نظريات هذا العلم في عصرنا ، ونقصد البنيوية عموماً ، والتوليدية بشكل خاص . وهذا اللقاء يعني ، بالنسبة لنا ، أن إنسان العصر يتدرج في شتى ميادينه العلمية ، نحو تاريخ عقلنة الروح وعلمنة العقل ، أي يسير بموجب قول ابن هرون الذي وضحه في بداية هذا البحث . وهنا تكمن ، في رأينا ، الحداثة ، حيث تلتقي مقولات عصرنا مع التراث .

٥ - التعميم والحدث اللساني :

إذا كنا لا نملك تصوراً عاماً عن الأشياء ، فإننا لا نستطيع أن نملك تصوراً خاصاً عن هذه الأشياء . وإذا كنا نملك ملاحظات خاصة بشيء فإن الوقوف عندها لا يجعل منها أحكاماً عامة تحيط بالشيء . ولذلك نرى الإمام الغزالي قد جعل منهجه في البحث يقوم على أربع مراحل :

١ - مرحلة التجربة الحسية : وهي مرحلة تقوم مقام الملاحظة الخاصة بشيء . ولكنه لا يكتفي بها لسببين :

أ - لأنها حسية ، وعنده أن «ليس للحس إلا قضية في عين»^(٢٢) .

ب - لأنها فردية ، وعنده أن «المعلومات التجريبية يقينية عند من جربها والناس يختلفون في هذه العلوم لاختلافهم في التجربة»^(٢٣) .

٢ - مرحلة تكرار التجربة : والغاية من ذلك حصول العلم بالشيء مع اليقين به . فالشيء «إذا تكرّر مرات كثيرة انغرس في النفس يقين وعلم»^(٢٤) .

٣ - مرحلة التظير : وهي مرحلة يطلق فيها الباحث أحكاماً عامة وكلية انطلاقاً من تجربة حسية ومكررة ، أي انطلاقاً من تجربة جزئية ثبت اليقين فيها بثبوت صحة قانونها وعموميته وقابليته للتكرار . وهو يقترب بهذا من النظرة الوضعية Positivisme والعقلانية Rationalisme في نفس الوقت . فمن جهة يدعو إلى معرفة التكرار من الحوادث بواسطة الحس ، ومن جهة أخرى يدعو إلى بناء أحكام عامة ، أي مانسجه بالقوانين ، عن

«طريق تمثل العقل هنا . إنه يقول : «الحكم في الكل إذ هو لنعقل ولكن بواسطة الحس أو بتكرار الإحساس»^(٢٥).

٤ - المرحلة الرابعة : وهي مرحلة القياس . إنه يقول : «إذا تأملت هذا عرفت أن العقل قد ناله بعد التكرار على الحس بواسطة قياس خفي ارتسم فيه»^(٢٦).

ومع القياس ندخل ، منهجياً ، مرحلة أخرى من مراحل البحث العلمي واللساني على السواء . وفي هذا الصدد يقول Poincare :

«لكي نتنبأ يجب على الأقل استدعاء القياس»^(٢٧).

ويعلل هذه الضرورة بقوله :

«يجب أن لا نمتنع قضية المراجعة عندما تنهيا الفرصة . غير أن التجربة طويلة وصعبة ، والعاملين قلة ، بينا الوقائع التي نحتاج أن نتنبأ بها عظيمة .

وبالمقارنة مع هذا الحجم الهائل فإن المراجعات المباشرة التي نستطيع إجرائها لن تكون إلا كمية ضعيفة»^(٢٨).

ويمثل هذا التوجه نفذ الرماني إلى صلب الحدث اللساني ورأى أنه صدور اللانهايي عن النهائي عن طريق التأليف . وسنعرض له مقولتين ، الأولى ، ويقول فيها : «دلالة الأسماء والصفات متناهية»^(٢٩) . والثانية يقول فيها : «فأما دلالة التأليف فليس لها نهاية»^(٣٠) . وقد علل نظريته هذه وفسرها بقوله : «لأن دلالة التأليف ليس لها نهاية كما أن الممكن من العدد ليس له نهاية يوقف عندها ولا يمكن أن يزداد عليها»^(٣١).

لقد أشرنا في الفقرات السابقة إلى دور الحضارة في إثناء البحث العلمي وتطويره . ودلنا على هذا بما قاله الجاحظ والفارابي والرازي وغيرهم انتهاء بما عرضنا للإمام الغزالي . ونحن مافعلنا ذلك إلا لأننا نعتقد أن عملية التنظير هذه قد جاءت إلى الرماني وغيره من علماء المسلمين استلهاماً من المكونات الحضارية ، أو بصورة أدق ، استنباطاً من المكونات الإسلامية التي انعكست في أذهانهم ، وأقامت فيها مكونات عقلية ورؤى إبداعية ضرورية للبحث . ومثال موقف الرماني من اللغة نجده عند الشهرستاني وأحمد بن رشد القرطبي تجاه النصوص ،

وضرورة استعمال القياس عقلاً . أما الأول فقد قال : «إن النصوص تنتهي والوقائع لا تنتهي»^(٣٢) .

والمقصود بالنصوص جملة القواعد والأحكام الشرعية .

وأما الثاني فقد قال : «إن الوقائع بين أشخاص الأناسي غير متناهية ، والنصوص والأفعال أو الاقرارات متناهية ، ومحال أن يقابل ما لا يتناهي بما يتناهي»^(٣٣) . ولذلك وجب القياس عقلاً لمقابلة ماهو متناه من النصوص مع ماهو غير متناه من الوقائع ، كما وجب في اللغة أن القواعد متناهية والجمال الناتجة عنها غير متناهية .

ونستطيع أن نلاحظ أثر هذا التفكير بجلاء ووضوح عند منظر كبير من علماء اللسانية في العصر الحديث ، ونقصد به «شومسكي» . فلقد رأى هذا اللساني أن اللغة تقوم على مجموعة من القواعد المحدودة العدد والقادرة على توليد عدد من الجمل غير محدود أو لا نهائي . ولعلنا نلاحظ وجه الشبه الشديد بين مقالته المنظرون العرب في اللغة وفي علم الأصول الذي استلهموا منه نظريتهم ، وبين هذا المنظر للغة . وإذا كان المسلمون قد استعملوا القياس في مقابلة الوقائع وتكثيرها إلى ما لا نهاية ، فإن شومسكي قد استعمله أيضاً تحت اسم التكرار في توليد الجمل إلى ما لا نهاية . إنه يقول :

«يجب على القواعد التوليدية أن تكون نظاماً من القوانين التي تستطيع أن تتكرر بغية توليد عدد كبير من البنى»^(٣٤) .

وإذا كان شومسكي وتلاميذه يشترطون في القواعد أن تولد جملاً قاعدية فقط ، فإن هذا الشرط مضافاً إليه مصطلح التوليد يذكرنا بما قاله القاضي عبد الجبار في كتابه (المغني) : «إن مثل السبب يجب أن يولد مثل المسبب إذا وقعا على طريقة واحدة ، ولا يجوز أن يولد الشيء بالقصد وضده إذا قارنه مقصد آخر»^(٣٥) .

في الواقع ، إن أوجه الشبه والمقارنة كثيرة ، غير أننا ، للأسف ، لم نجد مؤرخاً واحداً لعلم اللغة قد تكلم عن إسهام الحضارة الإسلامية والعربية في تطوير هذا العلم .

بعد هذا الاستطراد نعود إلى الحدث اللساني فنقول بأنه صدور اللانهاشي عن النهائي ، أي صدور الجمل صدرراً غير محدودٍ بعددٍ عن قواعد محدودة بعدد . وإذا كان ذلك كذلك ، فما هي مبررات هذا الحدث الذي يرافق الإنسان طوال حياته المعلومة ؟ .

في الحقيقة ، هناك ثلاث نظريات رائدة تنافس الإجابة على هذا السؤال . أما الأولى فقد تبنتها النظرية السلوكية وعلى رأسها بلومفيلد . وأما الثانية فقد تبناها بعض المنظرين المسلمين وإما الثالثة فقد تبناها شومسكي والمدرسة التوليدية . غير أننا سنقف عند الأولى والثانية دون التعرض لمقولات المدرسة التوليدية ، وذلك لأن المجال لا يتسع لهذا .

٦ - المدرسة السلوكية Behaviorisme :

عندما كتب Bloom Field كتابه Language تبنى بشكل واضح النظرية السلوكية ، واعتبرها إطاراً مناسباً لكل عملية وصف لسانية . ولقد شرح في هذا الكتاب أبعاد نظريته معتبراً أن المعنى المتضمن في شكل لساني يعرف بأنه مجموعة من الحوادث العملية أو التطبيقية والداخلية في علاقة مع هذا الشكل . وخير مثل نعطيه لتوضيح هذه النظرية هو المثال الذي أعطاه بلومفيلد نفسه :

كان جاك وجيل يسيران على إحدى الطرق ، فلمحت جيل تفاحة على إحدى الأشجار ، وبما أنها جائعة ، فقد طلبت إلى جاك أن يأتيها بها . صعد جاك إلى الشجرة وقطف التفاحة ، ثم أعطهاها لجيل فأكلتها .

توصف الحوادث عادة على هذا الشكل ، غير أن المدرسة السلوكية تعتمد إلى وصف آخر : إن الجوع عند جيل (أي تقلص بعض العضلات في المعدة) والتفاحة التي رأتها (أي تموجات ضوئية صادرة عن التفاحة قد وقعت على عينيها) تشكل المنبه . وإن رد الفعل المباشر كان يحتم على جيل أن تذهب إلى الشجرة بنفسها لقطف التفاحة . ولكنها عوضاً عن ذلك ، أحدثت رد فعل منه أخذ شكل متوالية خاصة من الأصوات المصنوعة مع موجات الكلام . وكان هذا بمثابة بديل لحاك الذي اندفع نحو الشجرة كما لو كان هو الجائع الذي رأى التفاحة^(٣٦) .

أراد بلومفيلد أن يجعل البحث اللغوي بحثاً مستقلاً عن باقي الدراسات الإنسانية ،

ولذلك كان يرفض التعامل مع المعطيات اللغوية التي لا تخضع للملاحظة المباشرة . وقد بنى تفكيره هذا على نظرية مفادها أن اللغة سلوك مادي — مثال جاك يدل على ذلك — وهي كأي سلوك تخضع للقياس المادي . وكان في عرضه لهذه النظرية يطلب أن يفسر سلوك أي عضو من الأعضاء — حيواني أو إنساني — على أنه رد فعل من العضو على مثير أو منبه خارجي . (يذكرنا هذا بتجربة بالفوف وغيره التي أجريت على الحيوانات) . وقد أخضع كلاً من الكلام والتفكير لهذا المعيار . فالكلام ينتهي إلى سلوك مرئي ، والتفكير كلام غير مسموع ولكن يمكن أن يكشف عنه عندما تدعو الحاجة إليه . وعلى هذا الأساس أصبح الكلام تابعاً من المثيرات أو المنبهات تتلوها عدة إجابات ، ثم تتحول الإجابات فتصير منبهات تتطلب هي الأخرى جواباً أو عدة أجوبة . وهكذا دواليك حتى يتم الحديث أو الحوار ويزول أثر المثير . وقد مثل بلومفيلد في كتابه المذكور آنفاً هذه المعادلة كالتالي :

مثير ————— رد فعل عملي
مثير ————— رد فعل لغوي بديل

وعندما يتحول المثير إلى لغة تصبح المعادلة كالتالي :

مثير — رد فعل مثير — رد فعل (٣٧)

الجدير بالذكر أن بلومفيلد قد تأثر ب J.B. Watson مبتدع علم النفس السلوكي ، وعنه أخذ نظريته وطبقها على اللغة . ونتيجة لهذا أصبح الحدث اللساني عنده عبارة عن سلوك يتمثل في رد فعل على مثير خارجي يأخذ منه مبرر وجوده واستمراره .

٧ - المنظرون المسلمون :

نريد في هذه الزاوية أن نتكلم عن نقطتين : الأولى وهي الانسان في التفكير اللساني العربي . والثانية وهي مفهوم المشاركة في الحدث اللساني .

* — الإنسان في التفكير العربي .

لقد تواضع أهل العلم ، عرباً وغير عرب ، على توفر شرطين في الدراسات اللسانية :

شرط العلم ، وشرط الإنسانية . يقول Andre Martinet في تعريف اللسانية بأنها :

«الدرس العلمي للغة الإنسانية»^(٣٨).

أما عن شرط العلم فقد قال فيه John Lyons :

«يمكن تعريف اللسانية بأنها الدرس العلمي للغة . ولكن هذا التعريف لا ينصح للقارئ عن المبادئ الأساسية لهذا العلم وربما تكون الفائدة أكثر لو عرضت مستلزمات المصطلح «علمي» تفصيلياً»^(٣٩).

ثم نراه يعرض باختصار مبدأ كنا قد وقفنا عليه عندما تكلمنا عن بعض مبادئ المنهجية عند الغزالي . إنه يقول :

«يكفي أن نقول في صيغة أولية ، بأن المطلوب هو دراسة اللغة عن طريق المراقبة التي تقبل المراجعة بشكل تجريبي ، وذلك ضمن إطار نظرية عامة ومحددة للبنية اللسانية»^(٤٠).

لا يختلف أحد إذن في وجوب شرط العلم ، كما لا يختلف أحد في وجوب بناء نظرية عامة تكون بمثابة المنهج للدرس اللغوي . ولكنهم يختلفون في شرط الإنسانية ومفهومه .

لم يعتبر اللسانيون في الغرب «الإنسانية» صفة مميزة للإنسان ، تفصله عن باقي المخلوقات وتجعله كائناً مستقلاً . وإنما اعتبروها صفة مميزة للغة فقط . وهذا يعني أن استخدامهم للمصطلح «الإنسانية» قد انطوى على تمييز للغة وليس للإنسان . وقد بنوا على هذا المنظور كل تصوراتهم اللغوي ، فكانت نظرية بلومفيلد إحدى وجوه هذا التصور .

وإذا أردنا أن نحلل حقيقة هذا الموقف ، فيمكننا أن نرده إلى سببين :

١ - فرضيات داروين في الإنسان . وهي وإن كانت تنضوي على مغالطات علمية فادحة وفاضحة ، إلا أنه قد ظل قاراً عندهم أن كل المخلوقات الحية ، بما في ذلك الإنسان ، توجد ضمن دائرة واحدة هي دائرة الحيوان .

٢ - أما فيما يخص اللغة ، فقد تابعوا المقولة اليونانية :

«الإنسان حيوان ناطق» ، ووجدوا فيها ما يدعم تصوراتهم .

لقد تبين لنا منذ البدء ، وعبر مقولة الجاحظ ، تميز التفكير العربي الإسلامي فيما يخص الإنسان وتفرد . ومن الملاحظ في كل الدراسات الإنسانية العربية ، كسبب لهذا التميز أنها تركز على أصولية في البحث كونتها الحضارة . ولقد أدى هذا الارتكاز إلى كشف معرفي انتهى بالعلماء إلى اعتبار الإنسان كائناً فرداً متميز الخصائص . ومن تميزه أن قال الجاحظ فيه : «الفصيح هو الإنسان»^(٤١) . والإنسان عند إخوان الصفاء قد تفرد «بعالم مخصوص»^(٤٢) . وهو عند الشهرستاني ، على اعتباره ناطقاً ، فإن دخوله في «حد الإنسانية» أولى من دخوله في «حريم البهيمية»^(٤٣) ، ولذلك قال جملة الرائعة :

«النفس الناطقة هي الإنسان من حيث الحقيقة»^(٤٤) .

وبهذه المقولات وغيرها في الإنسان يتميز التفكير العربي الإسلامي عن الفلسفة اليونانية وحتى عن كثير من الفلاسفة المعاصرين . فإذا كانت الفلسفة اليونانية ووليدتها المعاصرة تصران في تعريفها للإنسان على حيوانيته ، فإن التفكير العربي الإسلامي يصير على إنسانية الإنسان أولاً وأخيراً . يقول فخر الدين الرازي :

«أجسام هذا العالم على ثلاثة أقسام : أحدها ما تكون خالية عن الإدراك والشعور وهي الجمادات والنباتات . وثانيها التي يحصل لها إدراك وشعور ولكنها لا تقدر على تعريف غيرها في الأحوال التي عرفوها في الأكثر وهذا تنقسم هو جملة الحيوانات . وثالثها الذي يحصل له إدراك وشعور ويحصل عنده قدرة على تعريف الأحوال المعنوية له وذلك هو الإنسان»^(٤٥) .

* — مفهوم المشاركة في الحدث اللساني :

إذا كان «بلومفيلد» قد جعل من الـ «مثير — رد فعل» أساساً لمعادلته في تحرير الحدث اللساني ، فإن الفارابي قد جعل من مفهوم «المشاركة» بين المتحاورين أساساً لتصوره ، أي أنه جعل اللسان «في حل من مراقبة أي منشط كان» كما يقول شومسكي^(٤٦) . وقد بنى نظريته هذه انطلاقةً من اللفظ كعلامة — Signifiant إلى اللفظ كدلالة — signifie ليغضي بالمشاركة كل الأنظمة العلامية La semiologie . وهذه هي عين النظرة الشمولية للتفكير العربي الإسلامي . إنه يقول :

«وأما الألفاظ فإنها علامات مشتركة إذا سمعت خطر ببال الإنسان بالفعل الشيء الذي جعل اللفظ علامة له. وليس لها من الدلالة أكثر من ذلك. وذلك شبيه بسائر العلامات التي ينعينها الإنسان لتذكره محتاج أن يذكره. فليس معنى دلالة الألفاظ شيئاً أكثر من ذلك. وكذلك الخطوط ليس دلالتها على اللفظ أكثر من ذلك»^(٤٧).

وبهذا الفكر الشمولي تحتل المشاركة المكانة الأولى بين المتحاورين. وتأخذ في نظريته مكان (مثير - رد فعل) التي قال بها بلومفيلد. فإذا ارتقينا مع هذا المفهوم بحثاً عن أسبابه وتفسيراً لهذه الأسباب، فنسجد ابن حزم بقرار أن الوجود الإنساني واستمراره مرتبط بالكلام. وقد دل على هذا بقوله:

«لا سبيل إلى بقاء أحد من الناس ووجوده دون كلام»^(٤٨).

وقد أكد الجاحظ أن:

«الحاجة إلى بيان اللسان واكدة وراثة ثابتة»^(٤٩).

٨ - دافع الفطرة ووظيفة اللسان :

يبدو لنا من هذه المقولات أن الوجود الإنساني مسند في استمراره إلى اللسان. وإذا كان الأمر على هذا، فإن الحاجة إليه، كما هي الحال عند الجاحظ، حاجة واکدة وراثة ثابتة. ولقد علمنا مما سبق أن الإنسان يعرف بتوسط اللغة، ولكننا لم نعلم بعد كيف يندفع الإنسان إلى المعرفة، ولا الوظيفة التي يتقلدها اللسان في منظومة البيان المعرفي التي يمتلكها الإنسان. وهنا نود أن نطرح سؤالين:

١ - بأي دافع يتحرك الإنسان ليعرف ما يعرف؟

٢ - لقد حدد Martinet وظيفة واحدة للغة، فقال:

«الوظيفة الأساسية لهذه الأداة، أي اللغة، هي الإيصال»^(٥٠).

والسؤال هو: هل للغة في منظور التراث العربي وظيفة واحدة أم عدة وظائف؟

* - ليس في التراث العربي ما يدل على أن الإنسان يتحرك ليعرف بموجب منشط معين أو

بموجب مثير شرطي . أن نظرية المعرفة العربية تؤكد عبر القرآن والحديث ومقولات الأصوليين المسلمين أن الإنسان مزود باستعدادات فطرية ترغمه أن يعرف ، فارتبط خلقه بمعرفته منذ البدء . ولذا فإن الكائن الإنساني بهذا المعيار كائن عارف . ولقد تبين لنا من قبل أيضاً أن الكائن الإنساني كائن ناطق بدون خيار منه ، أي أنه مخلوق ليتكلم . ويتبين لنا الآن أنه مخلوق ليعرف . وهو في الحالتين مرغم على أمره ، يلبي حاجة استعداداته المودعة في أصل خلقه . ويمكن أن نقول بأنها حاجة بيولوجية بشهادة العلم الحديث^(٥١) ، أو فطرية انطباقاً مع مقولة التراث .

أما عن المعرفة بالذات ، فإن الفارابي يرى أن الإنسان يتحرك بدافع من فطرته ، ولذلك . «تنهض نفسه إلى أنه يعلم أو يفكر أو يتصور أو يعقل كل ما كان استعداداه بالفطرة أشد وأكثر» .

ويعمل هذا الأمر بقوله :

«وأول ما يفعل شيئاً من ذلك يفعل بقوة فيه بالفطرة وبملكة طبيعية»^(٥٢) .

* — أما عن وظيفة اللغة ، فإنها متعددة الوجوه والأبعاد . ويكاد المتبع لها في مقولات التراث أن لا يقف معها على عدد . غير أن الذي يشد الانتباه بصورة خاصة مقولتان للشهرستاني والقاضي عبد الجبار تأخذ كل واحدة منها جانباً هاماً من جوانب التفكير العربي في عملية التأصيل والمعرفة .

أ — يلفت الشهرستاني الانتباه إلى أمر يصبح به اللسان :

١ — معداً لما هو له .

٢ — وموطناً ، في بعض أبحاثه يكون غناء الفكر .

وكان الشهرستاني في هذا يقرأ من خلف القرون ما يكتبه شومسكي عن هذه القضية أيضاً . أما عن النقطة الأولى فيقول :

«كل الحروف والكلمات محالها اللسان ، وكل المعاني والمفهومات محالها الجنان ، وبمجموع الأمرين سمي الإنسان ناطقاً» .

وأما عن النقطة الثانية فيقول :

«لو وجدت اللسانية منه (أي الإنسان) دون المعاني الجانبية سمي مجنوناً لا متكلماً إلا بالمجاز ، ولو وجدت المعاني الجانبية منه دون الألفاظ سمي مفكراً لا متكلماً إلا بالمجاز»^(٥٣).

أما النقطة الأولى فهي ما اصطلاح شومسكي على تسميته بالبنية الفوقية في مقابل الحروف والكلمات ، والبنية التحتية في مقابل المعاني الجنائية ، إنه يقول :

«إن البنية التحتية تحدد التأويل الدلالي ، وإن البنية الفوقية تحدد التأويل الصوتي»^(٥٤).

وأما عن النقطة الثانية فإن شومسكي يرى أن البنية التحتية ليست «إلا انعكاساً لأشكال الفكر»^(٥٥). وبموجب هذا التصور يأخذ اللسان وظيفته الأولى فيصير شاهداً على صحته من جهة ، وشاهداً على صحة العقل من جهة أخرى .

ب - وإذا يصير اللسان شاهداً على صحة العقل عند الشهرستاني ، ويصير العقل شاهداً على صحة المعنى الجنائي عند القاضي عبد الجبار فينتفي العبث عنه بمعلوم المراد منه . إنه يقول :

«إنه ليس في العقل ما يعلم معه المراد فيكون عبثاً»^(٥٦).

وبهاتين المقولتين يأخذ اللسان وظيفته الثانية ، وهي : الإخبار باللغة عن الخبر يقول الجرجاني :

«الدلالة على شيء هي لاحالة إعلامك السامع إياه ، وليس بدليل ما أنت لاتعلم به مدلولاً عليه ، وإذا كان كذلك وكان مما يعلم ببداية العقل أن الناس إنما يكلم بعضهم بعضاً ليعرف السامع التكلم ومقصوده فينبغي أن ينظر إلى مقصود المخبر من خبره ما هو ، أهو أن يُعْلِمَ السامع وجود المخبر به عن المخبر عنه ، أم يُعْلِمَ إثبات المعنى المخبر به للمخبر عنه»^(٥٧). ويذهب ابن مسكويه في تحليل الحاجة إلى الكلام مذهباً اجتماعياً ولسانياً ، ويردها إلى أصليين :

* - التعايش ، ويقول فيه «إن السبب الذي احتيج من أجله إلى الكلام هو أن الإنسان

الواحد لما كان غير مكتف بنفسه في تمتة بقائه مدته المعلومة وزمانه المقدر المقسوم احتاج إلى استدعاء ضروراته في مادة بقائه من غيره . ووجب بشرطة العدل أن يعطي غيره عوض ما استدعاه منه بالمعاونة».

* - التواصل ، ويقول فيه : «لم يكن بد من أن يفزع إلى حركات بأصوات دالة على هذه المعاني بالاصطلاح ليستدعيها بعض الناس من بعض ، وليعاون بعضهم بعضاً فيتم لهم البقاء الانساني وتكمل فيهم الحياة البشرية»^(٥٨).

فلنا إن وظائف اللسان لا تحصى ، وما هذا بغريب . وقد أدرك شومسكي هذا الأمر فقال : «إن اللغة الإنسانية، إذ تستخدم استخداماً طبعياً ، في حل من مراقبة ، أي منشط كان . وهي لاتقوم بوظيفة الإيصال فقط ، إنها بالأحرى أداة للتعبير الحر عن الأفكار ، وللتحرك بشكل ملائم تجاه المواقف الجديدة»^(٥٩).

• • •

الهوامش :

- (١) عن كتاب شومسكي Reflexions sur le language P13
- (٢) أبو حامد الغزالي: ميزان العمل. ص/١٧٥. مطبعة الجندي - القاهرة.
- (٣) البيان والتبيين للجاحظ. ص/٥٥. الشركة اللبنانية للكتاب. بيروت. حققه فوزي عطوي.
- (٤) الحيوان ج/١/ص/٣٣/طبعة ٢/ القاهرة. تحقيق عبد السلام هارون/ ١٩٦٥/
- (٥) التقريب لحد المنطق والمداخل إليه بالانفاظ العامة والأسئلة النتهية. ص/١٥٥٩/ تحقيق احسان عباس - بيروت/ ١٩٥٩/
- (٦) المغني في أبواب العدل والتوحيد ج/١٦/ص/٣٥٩.
- (٧) دلائل الاعجاز - نشر رشيد رضا - ص/٣٥/
- (٨) المستصفي في علم الأصول. ج/١/ص/١٦٥/
- (٩) الرازي - مفاتيح النيب. ج/٢/ص/١٧٦/.
- (١٠) للمستصفي في علم الأصول ج/١/ص/٤٨/
- (١١) الإمتاع والمؤانسة. ج/٢/ص/١٣١/
- (١٢) تفسير ما بعد الطبيعة. ج/١/ص/٣٥٧/
- (١٣) الصاحي. ص/٣/
- (١٤) انظر كتابه La logique de la decouverte scientifique p.112

- (١٥) الفارابي. احصاء العلوم ص/٥٨
- (١٦) النبصرة ص/٤٠١
- (١٧) Z.S. Harris: Structures Mathematique du langage P.20
- (١٨) مفاتيح الغيب. جـ/١/ص/١٤
- (١٩) النكت في اعجاز القرآن. ص/٨٠. ضمن مجموعة رسائل.
- (٢٠) المغني في أبواب العدل والتوحيد. جـ/١٦/ص/٢١٣.
- (٢١) John Loyons: Chomsky P.62
- (٢٢) (٢٣)، (٢٤)، (٢٥)، (٢٦)، المستقصى من أصل العلوم
- (٢٧) La science et l'hypothese P.159
- (٢٨) نفس المرجع ص /
- (٢٩) (٣٠)، (٣١)، النكت في اعجاز القرآن. ص/١٠٧.
- (٣٢) أخذ قول الشيرستاني عن كتاب محمد أبو زهرة «في أصول الفقه» ص/٣٠٦.
- (٣٣) بداية المجتهد ونهاية المقتصد جـ/١/ص/١٩.
- (٣٤) Aspects de la theorie syntaxique P.31
- (٣٥) المغني في أبواب العدل والتوحيد. جـ/٧/ص/١٩٥
- (٣٦) Bloom Field: Le langage P.29
- (٣٧) نفس المرجع ص /
- (٣٨) Elements de linguistique general P6
- (٣٩) (٤٠)، Linguistique general P.5
- (٤١) الحيوان جـ/١/ص/٣٢
- (٤٢) رسائل اخوان الصفاء. جـ/٣/ص/١١٥
- (٤٣) نهاية الاقدام في علوم الكلام. ص/٣٢٣
- (٤٤) نفس المرجع ص/٣٢٥.
- (٤٥) التفسير الكبير. جـ/٢٦/ص/١٨٧
- (٤٦) Linguistique cartesienne P.32
- (٤٧) شرح العبارة. ص/٢٥
- (٤٨) الاحكام في أصول الاحكام. جـ/١/ص/٢٩
- (٤٩) الحيوان جـ/١/ص/٤٨
- (٥٠) Elements de linguistique generale P9
- (٥١) J. Monod: Le hasard et la necessite.
- (٥٢) الحروف. ص/١٣٤
- (٥٣) نهاية الاقدام في علوم الكلام ص/٢٨٥
- (٥٤) Aspects de la theorie syntaxique P.32
- (٥٥) La linguistique cartesienne p. 64
- (٥٦) المغني في أبواب العدل والتوحيد. جـ/٧/ص/١٩٠
- (٥٧) دلائل الاعجاز. ص/٣٤٧.
- (٥٨) احوال والشواهد. الترجيدي وابن مسكويه ص/٦-٧
- (٥٩) La linguistique cartesienne P.32

مازلم القرطاجني فحوباً

للأستاذ : ابن يونس الزاكي

تمهيد :



عمد النحاة - صوناً للغة العربية من الضياع، وخوفاً من فُشْرِ اللحن على ألسنة أبنائها - إلى صياغة قواعدها في متون، وهي في الاصطلاح الذي درج عليه المعلمون عبارة عن مبادئ فن من الفنون تكثف في رسائل قصيرة يستظهرها الطلاب ترسيخاً لمسائل العلم في حفظهم، وهذه المتون تكون نثراً ونظماً . وقد راج النظم لسهولة حفظه، وإن كان التعقيد ألزَمَ له ، لما توجه مقتضيات الوزن من تقديم وتأخير على التكثيف .^(١)

ولا أخالني مستطيعاً - في مثل هذا المقال - استقراء كل المنظومات التي وضعت في هذا الفن، ولكنني مكثف بالتنبيه - بإيجاز - على أكثرها شهرةً وتداولاً بين طلبة العلم، لأخلص إلى منظومة المترجم له : حازم القرطاجني .

وأحسب أن من أقدم ما عرف دارسو النحو من منظومات : «ملحة الاعراب في صناعة الاعراب»^(٢) للحريري^(٣) .

أما المنظومة الثانية التي ذاع صيتها في الآفاق، فهي ألفية^(٤) ابن معطي^(٥) وقد فرغ من نظمها سنة ٥٩٥ هـ كما نبه إلى ذلك بقوله :

نظمها يحيى بن معطي المغربي .: تذكرة وجيزة للمعرب
وفق مراد المنتهي والنشأة .: في الخمس والتسعين والخمس مائة

وقد اشتهرت هذه المنظومة عند المتقدمين بـ : الدرة الألفية . وهو الاسم الذي أطلقه
ناظمها عليها في قوله :

تحويه أشعارهم المروية .: هذا تمام الدرة الألفية .
وعرفت عند المتأخرين بـ : ألفية ابن معطي اعتماداً علي مانعتها به ابن مالك في قوله :
ونقتضي رضا بغير سخط .: فائقة ألفية ابن معط
أما المنظومة الثالثة التي تداولتها الألسن منذ عصر ناظمها إلى يومنا، فهي ألفية^(٦) ابن
مالك .^(٧) وقد كُتِبَ لهذه المنظومة من الشهرة والذيع ما لم يُكْتَبَ لغيرها . وعُرفت بين دارسي
النحو باسمين اثنين : أولاً : الألفية . لقول ناظمها :

وأستعين الله في ألفية .: مقاصد النحو بها محوية
ثانياً : الخلاصة لقول ناظمها :

أحصي من الكافية^(٨) الخلاصة .: كما اقتضي غنى بلا خصاصة
أما المنظومة الرابعة التي حظيت بعناية الدارسين فهي : الفريدة^(٩) للسيوطي^(١٠) وقد
افتتحها بقوله :

أقول بعد الحمد والسلام .: على النبي أفصح الأنام
النحو خير ما به المرء عني .: إذ ليس علم منه حقاً يغتني
وهذه ألفية فيه حوت .: أصوله ونفع طلاب نوت
فائقة ألفية ابن مالك^(١١) .: لكونها واضحة المسالك
وجمعها من الأصول ما خلت .: عنه وضبط مرسلات أهملت

ولئن كان قد كتب لهذه المنظومات الذيع والانتشار حتى طبقت شهرتها الآفاق، فإن
منظومة مترجماً حازم القرطاجني قد ظلت في طي النسيان والإهمال، إذ انشغل عنها الباحثون،
فلم يولوها كبير عناية، وغفلوا عن لطائفها الفريدة، وفرائدها المفيدة .

التعريف بحازم القرطاجني :

وأراني ملزماً - قبل الشروع في بيان محتويات هذه المنظومة - التعريف بناظمها .
هو حازم بن محمد بن حسن بن محمد بن خلف بن حازم الأنصاري القرطبي^(١٢) النحوي
أبو الحسن هنيء الدين شيخ البلاغة . قال أبو حيان: ^(١٣) هو أوحّد زمانه في النظم والنثر
والنحو واللغة والعروض وعلم البيان، روى عن جماعة يقاربون ألفاً وعنه أبو حيان، وابن
رشيد، ^(١٤) وذكره في رحلته فقال: حبر البلغاء وبحر الأدباء، ذو اختيارات فائقة، واختراعات
رائقة، لانعلم أحداً مما لقيناه جمع من علم اللسان ما جمع، ولا أحكم من معاهد علم البيان ما
أحكم، من منقول ومبتدع . وأما البلاغة فهو بحرهما العذب، والمتفرد بحمل رايتهما، وأميراً في
الشرق والغرب . وأما حفظ لغات العرب وأشعارها وأخبارها، فهو حماد راويتهما، وحمال
أوقارها، يجمع الى ذلك جودة تصنيفه وبراعة الخط ، يضرب بهم في العقليات، والدراية
أغلب عليه من الرواية .

صنّف سراج البلغاء في البلاغة، كتاباً في القوافي، وقصيدة في النحو على حرف الميم .
مولده سنة ثمان وستائة، ومات ليلة السبت رابع عشر رمضان سنة أربع وثمانين وستائة . ومن
شعره:

من قال حسبي من السورى بشر .: فحسبي الله حسبي الله
كم آية للاله شاهدة .: بأنة لاإله إلا هو. ^(١٥)

وقال المقرئ: ولتزد نحن ما أمكننا حيث لم يوف السيوطي بحقه في الطبقات الصغرى لأنها
مبنية على الاختصار، ولم نقف على الطبقات الكبرى التي أحال عليها فنقول:

قال بعض المؤرخين: هو حازم بن محمد بن الحسن بن حازم الأنصاري، فجعل والد
الحسن حازماً، وجعله السيوطي محمداً، فلا ندري - يقول المقرئ - هل هذا من النسبة إلى
الجد، فيرجع ماعد السيوطي إلى وفاق، أوهما مختلفان ؟

القرطاجني: منسوب إلى قرطاجنة^(١٦) من سواحل كورة تدمير من شرقي الأندلس . وهو
خاتمة شعراء الأندلس الفحول، مع تقدمه في معرفة لسان العرب وأخبارها، ونزل إفريقية

بعد خروجه من بلده، فطار له صيته، وعمر إلى أن مات بتونس، حضرة ملوكها ليلة السبت الرابع والعشرين من رمضان من سنة أربع وثمانين وستائة .

قلت : - القائل المقرئ - وله في الرشيد أمداح كثيرة . أنشدنا في الإشادة ومدح الأمير أبا زكريان ، صاحب افريقية ، وولده أبا عبد الله المستنصر ، وله ألف المقصورة المشعورة ، وقصر محاسنها على مدحه .^(١٧)

ويحدثنا الدكتور محمد الحبيب بلخوجة عن البيئة التي نشأ فيها حازم فيقول : «نشأ أبو الحسن حازم في وسط ممتاز ذي يسار، وقضي طفولته وشبابه في عيش رغد، متقللاً بين قرطاجنة ومرسية كما تدل على ذلك مقاطع كثيرة من مقصوده . ولم يكن دائماً منقطعاً إلى لذائذ الحياة ومتعها مولياً وجهه قبلها، بل كان إلى ذلك مقبلاً على التعلم جاداً في الدرس . وقد بدأ ككل الأطفال في عصره بحفظ القرآن ، وتخرج في قراءته على شيوخ جلة من قراء بلده . ووجد من والده خبر ملقن وموجه لمعرفة العربية وتعلم قواعدها والإلمام بطائفة من قضايا الفقه والعلوم الحديثة . ولما يقع أقبل مثل معاصرتة ابن الأبار^(١٨) والمخزومي^(١٩) على دراسة العلوم الشرعية واللغوية ، وكان ذلك، يدعو إلى التردد باستمرار على مدينة مرسية القريبة منه للأخذ عن أسيانها أمثال الطرسوني^(٢٠) والعروسي^(٢١) . وهناك درس كثيراً من أمهات الكتب حتي فاق نظراءه واكتملت عناصر ثقافته فكان فقيهاً مالكي المذهب كوانده، نحوياً بصرياً كعامة علماء الأندلس، حافظاً للحديث، راوية للأخبار والأدب، شاعراً . ولم تقف به همه البحث والدرس عند هذا الحد، بل كان طموحه يدفع به إلى الاستزادة من ذلك والأخذ عن الأعلام المعروفين المقيمين بجنوبي الجزيرة . ودفعه توفقه الشديد للمعارف إلى الذهاب إلى غرناطة وأشبيلية، فجمع من الأسانيد والإجازات ما جمع، واتصل آخر الأمر بشيخه الجليل عمدة الحديث والعربية الذي عرف بالانتساب إليه : أبي عني الشلوين.^(٢٢)

وأعجب حازم بعلوم منزلة أستاذه، وأكبر اتساع معارفه، فأقبل على مطالعة ما أشار عليه به من مصنفات شيخه ابن رشد وكتب غيره من الفلاسفة أمثال الفرابي وابن سينا وقارب عدد شيوخ حازم حسب مقالة أبي حيان الألف، لكننا لسوء الحظ - يقول بلخوجة - لا نملك برنامجاً^(٢٣) ولم نوقفنا المصادر القليلة على أكثر مما وقعت الإشارة إليه منهم، فلا نقدر أن نعد في هذا السلك بأسمائهم غير والده والطرسوني والعروسي والشلوين.^(٢٤)

ويبدو أنَّ الأحداث التي أفرزها عصر حازم لم تكن مَوَاتِيه له ليستقر في وطنه ومَسْقَط رأسه، فقد حدثت أحداث أليمة كدرت عليه صفو عيشه، ذلك أنه «لم يكد يبلغ العشرين حولاً من عمره حتى أصيب في وائده الذي توفي بجرسية»^(٢٥) سنة ٦٣٢ هـ، وبعد ذلك بقليل، في السنة الموالية سقطت قاعدة الأمويين بالأندلس بيد النصارى، واحتل الأسبان قرطبة سنة ٦٣٣ هـ، وتوالى أثر تلك الفتن والمحن، وعرفت نفس المصير على التعاقب مدُن: بياسة،^(٢٦) وبلنسية،^(٢٧) وشاطبة،^(٢٨) ودانية.^(٢٩)

وانظفاً الأمل الوحيد للمسلمين بالأندلس بموت ابن هود^(٣٠) سنة ٦٣٥ هـ. ولم يكن من آثار تلك الظروف والأحداث غير فزع المسلمين وانقسام جماعتهم: طائفة منهم تكره ملك غرناطة ابن الأحمر،^(٣١) ولت وجهها نحو الأمير الحفصي بتونس وبعثت إلى أبي زكريان^(٣٢) الأول بسفارتها مبايعة ومستصرخة، وطائفة عن ملك غرناطة، شايَعَت الموحدين، وقد كان على رأسهم يومئذ الخليفة الرشيد. أما حازم، فقد اضطر ككثير من مواطنيه إلى مفارقة وطنه ومسقط رأسه مهاجراً إلى المغرب...

ويبدو أنه لم يحسن الاختيار حين قصد مراكز متخذاً منها في مهجره دار إقامة. فقد كانت الحياة بها مضطربة أي اضطراب، وهي لا تفضل من أي وجه الأندلس لما كان يتأهب من حوادث وفتن.

ولعل الاضطرابات السياسية العنيفة التي انتابت المغرب الأقصى عصرئذ لم تشجع حازماً وأضرابه على الاستقرار بمراكش، فتركها مولياً إلى تونس حيث «مَثَلَ بين يدي أبي زكريان الأول وأنشد فيه قصيدته الصادية التي أعلن فيها بيعته وطلب من الأمير حمايته واستصرخه مثل مواطنه ابن الأبار لإنقاذ الأندلس المغلوبة المنكوبة»^(٣٣)

وقد حَرَصَ حازم وغيره من العلماء المهاجرين من أوطانهم إلى تونس على إذكاء الحياة الفكرية بها، وبث النشاط الفكري بين طلبة العلم، فتألَّق نجم الأندلسيين، وصار لحازم وأضرابه مكانة مرموقة بين أهل العلم.

لكن هذا لم يكن ليُدوم طويلاً، فقد «فتن المتعصين، وأغاظ الحساد من رؤساء وعلية رجال الدولة الحفصية، لما حرص عليه هؤلاء من حماية مراكزهم الاجتماعية، ولما هاهم من

المزاحمة الثقافية والسياسية فأخذوا يمحرون ويحكون الدسائس والسعايات حول المهاجرين الأندلسيين.

وامتاز أبو الحسن - حازم - في هذا الوسط، وفرض نفسه بعلمه ومواهبه، وسار ذكره في الأفاق، ووصلته من المشرق إجازات، وتبوا منزلة الشيوخ، وكان من المسيرين للحياة العلمية في عهده، فأشفق من صراحته بعض الطلاب والعلماء أمثال اللبلي،^(٣٤) وابن عصفور،^(٣٥) وبالغ في تقديره وتعظيمه آخرون.

هكذا كانت حياة حازم حافلة بالأدب والعلم، زاخرة بالنشاط الفكري في كل مكان حلَّ به من بلاد الأندلس والمغرب وإفريقية.^(٣٦)

آثار حازم النحوية

خلف حازم، كما نبّه إلى ذلك، السيوطي^(٣٧) مؤلّفين اثنين:

١ - رسالة في الرد على كتاب المقرب لابن عصفور، أسماها: شد الزنار على جحفلة الجمار.^(٣٨)

٢ - قصيدة نحوية على حرف الميم. وهي موضوع هذه الدراسة.

وقد نظم حازم هذه القصيدة في النحو فقط، خلافاً لأشهر المنظومات، فإنها في النحو والصرف.

وأما عدد أبياتها فمختلف فيه. فقد نشرها الأستاذ عثمان الكماك في ديوان حازم،^(٣٩) ومجموع أبياتها هنالك سبعة عشر ومائتا بيت. وأما الدكتور بلخوجة^(٤٠) فيميل إلى أنّ عدد أبياتها تسعة عشر ومائتا بيت. وهي من بحر البسيط.^(٤١)

ورجح الدكتور بلخوجة أن ناظمها أراد أن يضع بها متنّاً في العلوم العربية على نحو ما صنع ابن معطى وابن مالك، ثم وقف عن انتمامها فلم يبلغ بها الألف بيت مثلها.^(٤٢)

منهج حازم من خلال منظومته :

صَدَّرَ حازم منظومته بيتين حمداً لله تعالى فيها، وصلى على النبي ﷺ على غرار ما صنع غيره من أصحاب المنظومات فقال:

الحمد لله معلمي قدر من علماً .: وجاعل العقل في سُبُل الهدى علماً
ثم الصلاة على المهدي لسته .: محمد خير مبعوث به اتسماً.

ثم انتقل بعد هذا التصدير إلى مدح أمير تونس أبي عبد الله المستنصر، فأشاد بالنعم التي أغدقها هذا الأمير على قصاد افريقية، فنعموا في حضرته بعيش رغيد. وقد استأثر هذا المدح من منظومته بأربعة وعشرين بيتاً، أولها قوله:

ثم الدعا لأمير المؤمنين أبي .: عبد الله الذي فاق الحيا كرمها
وآخرها قوله:

وَصَلْتُ مستنصراً بالله منتصراً .: على البدا واثقاً بالله معتصماً
ثم تَخَلَّص من ذلك إلى الموضوع الأصلي من قصيدته، فتحدث عن صناعة النحو، وتعرض لمباحث عديدة يمكن عرضها على النحو الآتي :

١ - حد الكلام والنحو :

تحدث في هذا المدخل عن تعريف علم النحو وعوامل الرفع والنصب والخفض ثم نبه إلى أن رافع الاسم ضربان: لفظي ومعنوي. قال:

فاسمع إلى القول في طرق الكلام وما .: علم اللسان به قد حُدَّ أو رُسِمَا
النحو: علم بأحكام الكلام وما .: من التغاير يعبرو اللفظ والكلما
وعامل الرفع قدمه ومنه إلى .: عوامل النصب والخفض انقل القدمَا
ورافع الاسم إن حَقَّقْتُ أَضْرِبُهُ .: لمعنوي، ولفظي قد انقسمَا
فالمعنوي ابتداء لاوجود له .: إلا إذا أصبح اللفظي منعياً

٢- رافعات الأسماء :

ويبين في هذا القسم ما يرفع اللفظ وهو عنده الفعل أو ما شابهة أو غدا معه في الحكم كاسم الفعل واسم المفعول وما حاكاهما. ثم ينتقل ليتحدث عن الحروف وأقسامها، فينبه إلى أن لها أحكاماً شبيهة بالفعل وما كان في حكمه من حيث إنها تدخل على الألفاظ فترفعها أو تنصبها. فمن التي تنصب اللفظ وقت اتصالها بها: **إِنَّ، وَلَكِنَّ، وَلَيْتَ، وَلَعَلَّ**، وهو المشار إليه في قوله :

ف: **إِنَّ** أن لها أخت مذكرتضعا. ∴ **ثَدِي** التشبه بالأفعال مافطما
وَعَدَ لَكِنَّ أختها، أو **كَأَنَّ** لها ∴ **وَلَيْتَ**، ثم **لَعَلَّ** المرتجى بهما
وأما الحروف الرافعة للفظ التي تدخل عليه فذكر منها: **مَا، وَلَآت، وَلَاَ**. ونبه إلى استتار اسم **لَآت** فقال:
وَمَا، وَلَآت، وَلَا للاسم رافعة ∴ وما يزال اسم **لَآت** الدهر مكتئباً^(٤٣)

٣- ناصيات الأسماء :

وقد أفرّد لهذا القسم عشرين بيتاً. ويمكن توزيعها على الشكل الآتي.

١- الأفعال المتعدية: وأشار إلى أن منها ما ينصب مفعولاً واحداً، وما ينصب مفعولين، وما يتعدى إلى ثلاثة مفاعيل. وهو المراد من قوله:

فلو التعدّي إذا أُحييت قِسمته ∴ وجدته في لسان العرب منقسماً
لناصبٍ واحداً أو ضعف ذلك، أو ∴ ثلاثة: بعضها بعضاً قد التزما
ب- أدوات النداء: تعرّض لذكر أكثرها تداولاً فقال:

وللنداء حروف وهي: **يا وأيا** ∴ **وأي** لمن قد غدا مدعوه أمماً
والهمزة انتظمت في سلكها **وهيا** ∴ **وَوَا** الندبة من قد قَادَ واخترماً
ج- أدوات الاستثناء: عدّد منها أكثرها استعمالاً، ثم نبه إلى أحوال المستثنى حين

يكون تاماً أو منقطعاً، وما يبنى على ذلك من اختلاف أحكام المستثنى باختلاف أحوال الأساليب إثباتاً وسلباً.

وينبئ في آخر حديثه عن الاستثناء إلى أن علماء النحو لم يجمعوا رأيهم على فهم مشترك فيما يتعلق بهذا المبحث:

والقول في باب الاستثناء متسع .: وقد تخالف فيه الجلة الزعماء

٤ - خافضات الأسماء :

ويتناول في هذا القسم اللفظ الذي يعتره الجر حقيقة وهو الذي سبق بحرف من حروف الجر، واللفظ الذي يكون فيه الخفض تقديرًا، وهو المضاف فيقول:

وخافض الاسم حرف للإضافة أو .: إضافة دون حرف فلتكن فهما

٥ - الفعل وأحكامه:

ويتنقل حازم من الأسماء إلى الأفعال، فيتحدث عن أحكامها رفعاً ونصباً وجزماً:

وكل فعل بضم أنت ترفعه .: فبالسكون لدى الإعراب قد جزأ
وكل معتل فعل فهو منجزم .: بالخذف من لم يقل هذا فقد وهما

٦ - الجملة الإسمية ونواسخها:

يعرض حازم في هذا المبحث بالبيان إلى كون المبتدأ أصلاً، والخبر فرعاً وحق الأصل أن يتقدم على الفرع:

أصل الكلام ابتداء بعده خبر .: كلاهما ظل فيه الرفع ملتزماً
والقول في الابتداء أبداً به وبما .: يكون أصلاً وكن بالفرع مختبئاً

ويتحدث عن دخول النواسخ على الجملة الإسمية، فيعرض لما يعترها من تغيرات إعرابية فيقول:

منظومة الشيخ أبي الحسن حازم بن محمد في النحو

علما - وجاعل العقل في سبيل الهدى علما

خير مبعوث به اتسما

فاق الحيا كرما

١٣ ان الليالي والايام مذ خدمت
١٤ لمن سعوى نجوم أو صعاد فقا
١٥ لقد رفعت عباداً للملا ففدا
١٦ أقم وزن شمس العدل فاعتدلت
١٧ فتونس تونس الأبصار رؤيتها

بالسعد ملكك أضحت أعبداً وإما
قد ضيوت لك أملاك الورى خدما
يملو قياماً ويملو قدره فيما
فلم يدع نورها ظلماً ولا ظلمها
وتنح الأمم الأسماء والامسا

١٢٣

حد الكلام والنحو

٣١ فاسمع الى القول في بطرق الكلام وما
علم اللسان به قد حده أو ربيما

٣٢ النحو : علم بأحكام الكلام وما
من التفائير يعرو اللفظ والكلام

١٢٤

تقسيم الكلام :

٣٥ ركلي قول اذا قسمته أنقسا
٣٦ فالاسم لفظ بدا (٢) أو ضعف ذلك أو
٦٥ (١) لئلا يصاب واحد (٢) أو ضعف ذلك أو
٦٦ فالنائب للقول على حدة
٦٧ والنائب للقولين في تنقي

(٣) ثلاثة : بعضها بعضاً قد التزما
كثيرة كوشى ، أو خاط ، أو رقا
مثل ظن وأعطى ، بأيا اتقيا

١٢٥

١٧٤ "لم يكن ذلك وجدانا وموجدة" ولا التفاتا وعرفانا ولا نهيا
والنصيب لم يكتنر، فاصرف الى احصائها الهما
١٣١ والنصب "بفتح" في ما ليس بلحقه
١٣٢ والحق الألف الأسماء الخمسة
١٤٣ والنصب بالكسر في ثاء المجموع فكن

مد ونون من الصنفين قد رسما
في النصب، تجل من الإلباس كل عى
لكل ما التزموا من ذلك مقلتما
١٢٩ ديوان بهادام القرطاجني - ٩

١٥٤ ونسبة بين مجهولين قد عدمت
١٥٥ وحق ما ابتدئية التقديم "عندم"
احاطة لم تقف فكراً ٧
وربما قدموا

١٣٠ مما عطف غلو التسديد من خروما
١٧٥ وجى بمشترك الأخبار منفرداً وفل : علي وعرو مصدراً قسماً
١٧٦ وخذ بما شئت من قولهم عرو : صالح صالح ، أو سألانها
١٣١

١٧٧ وحق ما ابتدئية التعريف "عندم"
١٧٨ وللبداية بالتكثير أمكنة
١٧٩ وفي تعجب أو شرط ومسألة

٢١٦ فكم مصيب عزاء من لم يصب خطأ
٢١٧ والفن في العلم أشجى بحنة علف
(انتهى ما وجد بحمد الله)
١٣٣

والناسخات لها أفعال أفئدة^(٤٤) .: وفعل نقص وحرف جمعها قسما
وبعضها رافع اسم ناصب خبرا .: كمثل كَأَنَّ وما يبابها ارتسما
وبعضها ناصب اسم رافع خبرا .: كمثل إِنَّ وما في شعبها اقتحما

٧- بيان جواز الابتداء بالنكرة:

ويعرض بالتنبيه إلى أن هنالك مواضع يجوز فيها الابتداء بالنكرة إذا استوفى المبتدأ الشروط
التي جمعها قوله:

وحق ما ابتدئ به التعريف عندهم .: وقد يكون له التنكير ملتزما
وللبداية بالتنكير أمكنة .: منهن في خبر: في العبد عَدَكما
وفي تعجب، أو شرط ومسألة .: بذلك واضح حكم اللفظ قد حكما
وفي جواب، وفي نفي، وأدعية .: بذلك واضح حكم النطق قد حتما
وفي مفاضلة الأنواع قد بدءوا .: به وما ظل بالترفضيل منقسما

٨- المسألة الزنبورية: ^(٤٥) (أو المناظرة النحوية بين سيويه^(٤٦) والكسائي^(٤٧))

ويجزم حازم منظومة بإثارة قضية نحوية شائكة، احتد فيها النزاع بين زعيمي البصرة
والكوفة: سيويه والكسائي، وهي التي اشتهرت بالمسألة الزنبورية. فقد «ذهب الكوفيون إلى
أنه يجوز أن يقال: «أظنَّ العُقرَب أشدَّ لسة من الزنبور فإذا هو إياها». وذهب البصريون إلى
أنه لا يجوز أن يقال: «فإذا هو إياها» ويجب أن يقال: «فإذا هو هي»^(٤٨) وقد عرض حازم
لأحداث هذه المسألة، فطرح أولاً موضع الخلاف بين المدرستين فقال:

فدكانت العُقرَب المُرْجاء حَسْبها^(٤٩) .: فدما أشدَّ من الزنبور وَقَعَ حَمَّا
وفي الجواب عليها هل إذا هو هي .: أو هل إذا هو إياها قد اختصما
ثم نبه إلى تخطئة الكسائي لسيويه، وتحامل أتباعه على زعيم البصرة حيث ألجأوه إلى
محكمة جائزة تحسرت لها نفسه فإت بسببها غمًا:

ونخطأ ابن زياد وابن حمزة في .: ما قال فيها أبابشر وقد ظلما

فظل بالكرب مكظوما وقد كريت .: بالنفس أنفاسه أن تبلغ الكظما
قضت عليه بغير الحق طائفة .: حتي قضى هدماً ما بينهم هدماً

ويختم حازم منظومته ببيان ما يعاني منه العلماء المبرزون حين يتألب عليهم حسادهم،
فيمكرون بهم، ويحكون لهم الدسائس، ليحافظوا على مكاناتهم، ويأمنوا على مناصبهم :
وليس يخلو امرؤ من حاسدٍ أضيم .: لولا التنافس في الدنيا لما أضيا
فكم مصيب عزا من لم يصب خطأ .: له وكم ظالم تلقاه مُظليماً
والغبين في العلم أشجى محنة عُلِمَتْ .: وأبرح الناس شجواً عالمٌ هُضِمَا

مذهب حازم من خلال منظومته :

أبان حازم من خلال ميميته عن ترجيحه لمذهب البصريين . ومن المواضع التي تجلت فيها
نزعته تلك قوله : إن المبتدأ يرتفع بالابتداء، والخبر يختلف في رافعه^(٥٠) وهو مفهوم قوله :
فالابتداء إلى الاسمين مرتفع .: به وإن كان في الثاني قد اختصا
فهذا ترجيح بين المذهب البصريين، لأن الكوفيين لم يميزوا إلا وجهاً واحداً وهو الترافع بين
المبتدأ والخبر .^(٥١)

كما نصر حازم المذهب البصري حين ذهب إلى جواز تقدم الخبر على المبتدأ وهو ما أُلحَ إليه
بقوله :

وحق ما أبتدئني التقديم عندهم .: وربما قدموا الأخبار ربّما^(٥٢)
ويتصر حازم للمذهب البصري ثالثة حين يذهب إلى القول بأن الاسم المرتفع بعد «لولا»
إنما هو مرفوع على الابتداء وخبره محذوف . وهو خلاف مذهب الكوفيين الذين يرون أن الاسم
بعد لولا إنما هو على تقدير كونه فاعلاً، ولولا عاملة فيه، نائبة نائب فعل محذوف :^(٥٣)
وبعد لولا احذف الأخبار مكثفياً .: بالفهم فيها وللايجاز مفتشاً
ومن المسائل النحوية التي أبان فيها حازم عن ميوله البصرية أيضاً، مذهبه في عامل النصب

في المنعول. فهو يرى أن الفعل وحده أو ما كان له حكمه^(٥٤) يعمل في الفاعل والمنعول جميعاً. وهو ما ينهم من قوله: وناصب الاسم:

وناصب الاسم فعل أو مشابهه. ∴ فكن لمعرفة الأشباه ملتهما وهذا خلاف مذهب الكوفيين الذين يميلون إلى أن العامل في المنعول النصب هو الفعل والفاعل معا في أحد القولين، أو هو الفاعل وحده في ثانيهما.^(٥٥)

وآخر شاهد أسوقه دلالة على نصره حازم لمذهب البصريين، هو المسألة الشائكة التي ختم بها منظومته، وهي المسألة الزنبورية.

وواضح أن حازما يرجح مذهب البصريين في تحريج هذه المسألة. ولعل في الأبيات العشرة التي ختم بها منظومته خير شاهد على ذلك. فهو يتحسر فيها على ما أصاب زعيم البصرة من تَعَفٍّ وَجَوْرٍ، وما اعتراه من غَمٍّ بسبب تلك المحاكمة الجائرة:

قضت عليه بغير الحق طائفة ∴ حتى قضى هدماً ما بينهم هدماً
حساده في السورى غَمَّتْ فكلهم ∴ تُلْفِيهِ متقدماً للقول منتقياً
والغبن في العلم أشجى محنة عُلِمَتْ ∴ وأبرح الناس شجواً عالم هُضِمَا.^(٥٦)



هوامش

- ١ - سعيد الأنصاري: من تاريخ البحر. ص ١٨٠. ط دار الفكر ط ٢.
- ٢ - قال محقق درة الغواص. ص ٨: وملحة الأعراب في صناعة الأعراب» أروجوزة شرحها بحرق الحظرمي واسمي الشرح: ونحفة الاحباب وطرفة الاصحاب» وقد طبعت الملحة مراراً في باريس وبيروت ومصر. كما طبع الشرح أيضاً في مصر مراراً. ١.هـ.
- ٣ - قلت: وقد طبع متن هذه المنظومة في المغرب كذلك، وعليه شرح وبيّن للنظام.
- ٤ - هو أبو محمد القاسم بن علي بن محمد بن عثمان الحريري. له ترجمة في وفيات الأعيان: ٦٣/٤ - ٦٨. طبعة احسان عباس، وبنية الوعاة للسيوطي: ٢٥٦/٢ - ٢٥٩. طبعة دار الفكر. ط ٢.
- ٥ - نبه الدكتور عبد الكريم محمد الاسعد في المقال الذي نشرته له مجلة الدارة. العدد ٢. ص ٩ تحت عنوان: «بين الفية ابن معط والفية ابن مالك إلى أن هذه المنظومة قد، طبعت سنة ١٨٩٥ بتحقيق زممرستين، كما ذكر لها شرحين لايزالان مخطوطين.
- ٥ - هو أبو الحسين زين الدين يحيى بن معط الزواوي المغربي النحوي المشهور. له ترجمة في البنية: ٣٤٤/٢ - ٣٤٥.

- ٦ - طبعت مراراً، وعليها شروح وحواش كثيرة. وأشهرها وأكثرها تداولاً شرح ابن عقيل. وقد أفرد الدكتور عبده الراجحي كتاباً مستقلاً عرض فيه بالدراسة لهذه الشروح وصدر بعنوان: «دروس في شروح الألفية».
- ٧ - هو جمال الدين أبو عبدالله الطائي الحلي الشافعي. له ترجمة في البنية: ١٣٠/١ - ١٣٧.
- ٨ - إن الفية ابن مالك، مستخلصة من الكافية الشافعية التي شرحها هو نفسه. وقد ظهرت محققة في خمسة أجزاء.
- ٩ - طبعت وعليها شرح مفصل للسيوطي نفسه وسماه: «المطلع السعيدة في شرح الفريدة». وقد نشر هذا الشرح نشرة علمية محققة للدكتور طاهر سليمان حمودة. وطبعته الدار الجامعية للطباعة والنشر بالاسكندرية. وعليها شرح آخر نفيس لأبي عبدالله محمد بن زكري أسماه: «المهاتم المفيدة في شرح الفريدة». وهو مطبوع طبعة حجرية في مجلدين. وعليها شرح ثالث للمدني صدر في مجلدين.
- ١٠ - جلال الدين أبو بكر السيوطي. له ترجمة في شذرات الذهب: ٥١/٨ والأعلام: ٦٩/٢.
- ١١ - قال الخفزي في حاشيته: «وللجلال السيوطي ألفية زاد فيها على هذه - يقصد الفية ابن مالك، - كثيراً وقال في أولها: «فاثقة ألفية ابن مالك». وللأجهوري المالكي الفية زاد فيها على السيوطي وقال فيها: «فاثقة الفية السيوطي». فسيحان الله المنفرد بالكمال الذي لا يدان ١. هـ: ١٢/١ ط دار الفكر.
- ١٢ - نيه بروكلمان في تاريخ الأدب العربي: ١١٣/٥ إلى أن السيوطي نسب حازماً إلى قرطبة وخطأ في ذلك.
- ١٣ - هو محمد بن يوسف بن علي بن حيان الإمام أبيه الدين أبو حيان الأندلسي الغرناطي. له ترجمة في البنية: ٢٨٠/١ - ٢٨٥، والأعلام: ١٥٢/٧.
- ١٤ - هو أبو عبدالله محمد بن عمر الفهري السبتي. رحالة صنف رحلة سبها: «مُلِّ العية فيها جمع بطول الفية في الرحلة إلى مكة وطبها». ولأستاذنا أحمد حدادي دراسة وإثبات على هذه الرحلة مطبوعة على الآلة الكاتبة في خمسة أجزاء.
- ١٥ - جلال الدين السيوطي: بنية الوعاة: ٤٩١/١ - ٤٩٢.
- ١٦ - قال البغدادي في مرآة الاطلاع: ١٠٧٨/٣: «فرطاجنة بالفتح، ثم السكون، وطاء مهملة، وجيم، ونون مشددة، وقيل اسمها: قرط، وأضيف جنة لطبيها وحسنها. بلد قديم من نواحي إفريقية، وهي عظمة شائعة البناء، أسوارها من الرخام الأبيض، وهي على ساحل البحر. بينها وبين تونس اثنا عشر ميلاً ١. هـ.
- قلت: وقد ورد في الأحاطة في أخبار غرناطة: ٢٠٨/١ النسبة إلى قرطاجنة قرطاجاني بزيادة الألف قبل النون. ولعله سهو قلم من المؤلف أو المحقق إذ لا مسوغ لزيادتها. وقد ورد في النسبة بزيادة الألف خطأ في معجم المؤلفين لروضا كحانة. ١٧٧/٣.
- ١٧ - المقرئ: ازهار الرياض: ١٧٣/٣.
- ١٨ - محمد بن عبدالله بن أبي بكر النضاعي البلنسي، أبو عبدالله. من أعيان المؤرخين وُدس. له ترجمة في فهرست نفهاس: ١٤٢/١ - ١٤٣.
- ١٩ - أبو الحسن المخزومي، شاعر وأديب من أهل بلنسية. له ترجمة في الأعلام للمزركلي: ٣٣١/٤.
- ٢٠ - أحمد بن محمد بن إسماعيل بن محمد الطريسوني. له ترجمة في البنية: ٣٦٣/١.
- ٢١ - محمد بن سعيد البصير الموصلي. له ترجمة في البنية: ١١٢/١.
- ٢٢ - عمر بن محمد أبو عبدالله الأشبيلي. كان أمام عصره في العربية. من مؤلفاته كتب في الحواسيه: التوتنة وهو مطبوع. له ترجمة في البنية: ٢٢٤/٢ - ٢٢٥.
- ٢٣ - البرنامج هو عبارة عن مدونة تضم شيوخ مؤلفها وما أخذ عنهم من الروايات. وما قرأه عليهم من الكتب. أو تضم شيوخ عالم معين تعهد غيره بجمعهم وذكر ما أخذ عنهم. ويسمى البرنامج كذلك «بمهرس، ولمعجم، وأشيحة، وأثيت، والسند، والتقييد. انظر مقدمة: برنامج المحاري، ص ٥٨ - ٦٠ بتحقيق محمد أبو الاحسان، وقارن غفرس الفهارس للكتاني: ٦٩/١ - ٧١ ط. دار الغرب الاسلامي.
- ٢٤ - حازم القرطاجي: منهاج البغناء. ص ٥٤.
- ٢٥ - مرسية: بسم أوله، ونشر لسين المهمة، وبه مفتوحة. وبهاء: مرسية لأحمد بن علي تميم مرصدة لأعلام.

١٣٥٨/٣ تحقيق علي محمد سحابي. ط ١ دور المعرفة ١.

- ٢٦- بياضة: بياض مشددة مديدة كثيرة بالأسنان من كورة جيان. مرادف الاصلاح: ٢٣٦/١.
- ٢٧- بلسية: البين المهمة مكسورة. رية خفيفة: كورة ومدينة مشهورة بالأندلس، وهي شرقي قرطبة. وتعرف بمدينة نتراب. مرادف الاصلاح: ٢٢٠/١.
- ٢٨- شاطبة: شاطئ الهمة، وثلاثه لوحدة: مدينة في شرقي قرطبة. مرادف الاصلاح: ٧٧٤/٢.
- ٢٩- دانية: بعد الألف نون مكسورة. بعدها بياض مثانة من تحت مفتوحة. مدينة بالأندلس، من أعمال بلنسية على فضاء البحر شرقاً. مرادف الاصلاح: ٥١٠/٢.
- ٣٠- هو محمد بن يوسف بن هود أبو عبادته من منوك، الطوائف. له ترجمة في الاعلام: ١٤٩/٧.
- ٣١- محمد بن الوليد بن الأحمر صاحب عرطة. كان غنية في الشجاعة وتسلف بعد أبيه وقتل سنة ٧٣٣ هـ. له ترجمة في الدور الكاشفة: ٢٧٩/٤.
- ٣٢- محمد بن يحيى بن عبدالله بن محمد من أحد من أهل سبتة. إليه انتهت الرياسة بسبتة كسلف وهم من رؤسائها. له ترجمة في الدور الكاشفة: ٢٨١/٤.
- ٣٣- حازم القرطاجني: مناج البند. ص ٩٩ (تصرف).
- ٣٤- هو أحمد بن يوسف بن علي. له ترجمة في البنية: ٤٠٢/١ - ٤٠٣.
- ٣٥- هو علي بن موسى بن محمد بن علي أبو الحسن بن عصفور. أشهر مصنفاته: المتع في التصريف. وهو مطبوع. له ترجمة في البنية: ٢١٠/٢.
- ٣٦- حازم القرطاجني: مناج البند. ص ٧٠.
- ٣٧- السيوطي: البنية: ٤٩١/١.
- ٣٨- تبعت هذه الرسالة في كشف الظنون: ١٠٢٧/٢، والاعلام للزركلي: ١٥٩/٢، ومعجم المؤلفين لرضا كحالة: ١٧٧/٣، وتاريخ الأدب العربي لبروكلمان: ١١٣/٥، ولم أقف على ذكر لها في كل هذه المراجع.
- ٣٩- ديوان حازم: ص ١٢٣ - ١٣٣. تحقيق عثمان الكماك ط دار الثقافة.
- ٤٠- حازم القرطاجني: مناج البند. ص ٨٧.
- ٤١- لعله أراد نظمها على غرار لامية الأعمال لابن مالك، إذ هما مفتتان في البحر، متقاربتان في عدد الأبيات.
- ٤٢- وهذا لا يصح نظراً لتكامل أرواها وتابها. ولعله قصد الاختصار والتركيز.
- ٤٣- وماه الرافعة هي المجازية. وهي تعمل عمل ليس بشروط ستة أوردتها ابن عقيل في شرحه على الألفية: ٣٠٧/١ - ٣٠٨. وتعمل ولا عند المجازين عمل ليس بشروط ثلاثة. أنظرها في شرح ابن عقيل: ٣١٦ - ٣١٣/١.
- وأما ولات، فاصليها: لا زيدت عليها تاء التأنيث المفتوحة وبذهب الجمهور أنها تعمل عمل ليس، والكثير في لسان العرب حذف اسمها وبقاه خبرها، ومنه قوله تعالى: «ولات حين مناص».
- ٤٤- يلاحظ أنها تعرف بأفعال القلوب معها تصرف في التسمية.
- ٤٥- أنظر تفاصيل هذه المسألة في: «الانصاف في مسائل الخلاف». مسألة ٩٩ - ج ٢/٧٠٢ - ٧٠٦ طبعة عبي الدين عبد الحميد، والبنية: ٢٣٠/٢، وقد أوردتها السيوطي مختصرة.
- ٤٦- هو عمر بن عثمان بن قنبر الحارثي إمام النحاة... صنف كتابه في النحو. لم يصنع قبله ولا بعده مثله. وقد نشره نشرة علمية محققة الأستاذ عبد السلام هارون، وصدر في خمسة أجزاء. ولسيوه ترجمة في البنية: ٢٢٩/٢. والاعلام: ٨١/٥.
- ٤٧- هو علي بن حمزة بن عبدالله أبو الحسن الكشائي إمام الكوفيين في النحو واللغة، واحد القراء السبعة المشهورين. له ترجمة في: معرفة القراء الكبار للحافظ الذهبي: ١٢٠/١ - ١٢٨، والبنية: ١٦٢/٢ - ١٦٤.
- ٤٨- أورد ابن هشام في المغني أكثر أبيات حازم في هذه المسألة فانصهر لسيوه واعتبر ما قاله الكشائي - إن ثبت - خارجاً عن القياس. أنظر المغني: ٨٩/١ - ٩٠. ط عبي الدين عبد الحميد، و: ص ١٢٣. ط الدكتور مازن المبارك وزميله. دار الفكر. ط ٥.

- ٤٩- هكذا ورد اللفظ في الديوان: ص ١٣٣. وفي اللغي: ٨٩/١ أحسبها.
 ٥٠- قال ابن الأنباري في الإنصاف: ٤٤/١: وأما الخبر فاختلنا فيه: فذهب قوم إلى أنه يرتفع بالابتداء وحده، وذهب آخرون إلى أنه يرتفع بالابتداء والمبتدل معاً، وذهب آخرون أنه يرتفع بالمبتدل، والمبتدا يرتفع بالابتداء ١ هـ.
 ٥١- عرض ابن يعيش في شرحه على الفصل لأراء الكوفيين والبصريين، وناقش بتفصيل أدلة الفريق الأول فانتهى إلى القول بفسادها وطلان الاحتجاج بها. وانظر رده مفصلاً في: ٨٤/١ - ٨٥.
 ٥٢- وهو نفس ماذهب إليه ابن مالك، في خلاصته حيث قال:

والاصل في الأخبار أن تؤخرا . . . وجوزنا التقديم إذ لا ضرر

- وقد نبه ابن عقيل في شرحه على الألفية: ٢٢٧/١ إلى أنه: «يجوز تقديمه إذا لم يحصل بذلك لبس أو نحوه». كما ذكر أن الخبر - بالنظر إلى تقديمه على المبتدل أو تأخيره عنه - ثلاثة أقسام:
 قسم يجوز فيه التقديم والتأخير، وقسم يجب فيه تأخير الخبر، وقسم يجب فيه تقديم الخبر ١ هـ: ٢٢٢/١.
 ٥٣- يقدر الكوفيون قول القائل: «لولا زيد لأكرمتك»، بقولهم: لو لم يمنني زيد من أكرامك لأكرمتك، فالتقدير عدهم انبنى على حذف الفعل تخفيفاً وزيادة «لاء» على «لوه» فصار بمنزلة حرف واحد. وانظر المسألة مفصلة في الإنصاف: ٧٠/١ - ٧٨، وفيها انحصر ابن الأنباري للكوفيين.
 ٥٤- عدد حازم بعض ما يكون له حكم الفعل فقال:

وراع اللفظ فعل أو مشابهة . . . وما غدا معه في الحكم منها
 من اسم فعل، أو مفعول، أو مثل . . . في كل ما علمت ليت يدونها

- ٥٥- ابن الأنباري: الإنصاف في مسائل الخلاف: ٧٨/١ - ٧٩.
 ٥٦- نهت إلى أنها آيات عشرة، واكتفى بذكر ثلاثة منها اختصاراً. ومن شاء الوقوف عليها كاملة فليظر ديوان حازم: ١٣٣.



المصادر والمراجع

- ١- ازهار الرياض: المقرئ. تحقيق مصطفى السقا وآخرين. منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية المغرب.
 ٢- الأعلام: الزركلي. طبعة دار العلم للملايين. بيروت. ط ٥.
 ٣- الإعلام بمن حل مراکش وأغوات من الأعلام: العباس بن إبراهيم. المطبعة الملكية. الرباط. ١٩٧٥
 ٤- الإنصاف في مسائل الخلاف: ابن الأنباري. تحقيق محي الدين عبد الحميد. نشر المكتبة التجارية الكبرى. ط ٤

- ٥ - بغية الرعاة: السيوطي. تحقيق محمد أبي الفضل ابراهيم. طبعة دار الفكر ط ٢.
- ٦ - برنامج المجاري: تحقيق محمد أبي الأجنان. ط دار الغرب الاسلامي.
- ٧ - تاريخ الأدب العربي: بروكلمان. ترجمة الدكتور رمضان عبد التواب. طبعة دار المعارف. مصر. ط ٢.
- ٨ - حاشية الحضري علي ابن عقيل ج طبعة دار الفكر. بيروت. ١٩٧٨.
- ٩ - درة الغواص: الحريري. تحقيق محمد أبي الفضل ابراهيم. ط دار نهضة مصر.
- ١٠ - الدرر الكامنة: ابن حجر العسقلاني. ط دار الجيل بيروت.
- ١١ - ديوان حازم: تحقيق عثمان الكعاك. ط دار الثقافة بيروت.
- ١٢ - شجرة النور الزكية: ابن مخلوف. نشر دار الفكر العربي لبنان.
- ١٣ - شذرات الذهب: ابن العماد الحنبلي. طبعة دار الافاق الجديدة. بيروت.
- ١٤ - شرح ابن عقيل علي الفية ابن مالك: تحقيق محي الدين عبد الحميد. طبعة دار الفكر ط ١٦.
- ١٥ - فهرست الفهارس: عبد الحي الكتاني. طبعة دار الغرب الاسلامي. ط ٢.
- ١٦ - كشف الظنون: حاجي خليفة. طبعة دار العلوم الحديثة بيروت.
- ١٧ - مراصد الاطلاع: البغدادى. تحقيق علي محمد البجاوي. ط دار المعرفة ط ١.
- ١٨ - معجم المؤلفين: رضا كحالة نشر مكتبة المثني بيروت.
- ١٩ - معرفة القراء الكبار: الحافظ الذهبي. تحقيق بشار عواد معروف وآخرين طبعة مؤسسة الرسالة. ط ١.
- ٢٠ - مغني اللبيب: ابن هشام الانصاري. تحقيق محي الدين عبد الحميد. طبعة مطبعة المدني القاهرة وتحقيق مازن المبارك، وزميله ط دار الفكر ط ٥.
- ٢١ - من تاريخ النحو: سعيد الأفغاني. ط دار الفكر. ط ٢.
- ٢٢ - منهاج البلغاء: حازم القرطاجني. تحقيق محمد الحبيب بلخوجة. ٤ دار الغرب الاسلامي ط ٢.
- ٢٣ - وفيات الأعيان: ابن خلكان. تحقيق إحسان عباس ط دار صادر. بيروت.
- ٢٤ - مجلة الدارة العدد ٢ السنة ٩.

مصادر رابن بسام الشنتريني في كتابه الذخيرة

د. مصطفى إبراهيم حسين

كتاب «الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، يعد أهم مصدر أدبي وتاريخي لعصر ملوك الطوائف بالأندلس بما تميز به من غزارة المادة العلمية وتحري المصادر المهمة والمتنوعة، مع توحيه خطة سديدة شملت أقطار الأندلس، في إطار إقليمي جغرافي محكم. وينبغي - قبل الشروع في دراسة مصادر الذخيرة - أن نسجل بعض الملحوظات ذات الصلة بمنهج ابن بسام وطريقة تعامله مع مصادره، التي رجع إليها.



وأول هذه الملحوظات، تتمثل في الظروف النفسية التي أحاطت بابن بسام، وهو يؤلف كتابه: إذ كانت «شنترين» بلده قد سقطت في أيدي الغزاة، فغادرها - مضطرباً موزع النفس - إلى «إشبيلية». يقول ابن بسام: «... وعلم الله تعالى أن هذا الكتاب لم يصدر إلا عن صدر مكلولم الأحناء، وفكر خامد الذكاء، بين دهر متلون تلون الحرباء، لا تباذى - كان - من «شنترين» قاصية الغرب مفلول الغرب، مروّع السرب، بعد أن استغذ الطريف والتلاد، وأق على الظاهر والباطن النفاذ». (١).

الملحوظة الثانية، - وهي مترتبة على سابقتها - أن طابع العجلة كان يحكم تأليف الكتاب في بعض المواضع ويحكم - أيضاً - تعامل ابن بسام مع مصادره المتنوعة. ولهذا كان يعتذر عن قلة ماتحت يده من آثار الأديب الذي يترجم له، وأنه مضطر إلى إثبات القليل، غير مترقب لفرصة العنور على المزيد من تلك الآثار (٢).

يقول - مثلاً - في ترجمة ابن القصيرة (ت ٨٠٨ هـ): «ولكن النوائب زاحمت ضيائري، وضربت وجوه خواطري. فم دفع إليّ عضواً تلقينته ووعيته، وما كانت فيه أدنى كلفة رجيته وأرجيته، ولا بأس من الزيادة إن انتهجت سبيل، ولله نظر جميل...» (٣).

ولابن بسام - في غير موضع من الذخيرة - أقوال تدل على المعنى الوارد في النص المتقدم، حتى أنه - في بعض الأحيان - يعتذر إلى قارئه عن عدم تحقيقه لنسبة النصوص، وسيرد مثل ذلك في موضعه من الدراسة (٤).

وثلاثة الملحوظات، أن كتاب «الذخيرة» لم يكن أول تجربة لابن بسام في ميدان التأليف الأدبي، فله - قبل الذخيرة - مؤلفات أخرى، أشار إليها، واعتمدها ضمن مصادره، وأحال إليها قارئه. وقد أتاحت له هذه المؤلفات قدراً حسناً من المادة العلمية، صبّها في الذخيرة. كما جعلت منه ذلك المؤلف النراسخ الخبيرة في دراسة الأدب، وأهم هذه المؤلفات:

- ١ - الإكليل المشتمل على شعر عبد الجليل.
- ٢ - سلك الجواهر من نوادر ترسيل ابن طاهر.
- ٣ - الاعتماد على ما صحّ من أشعار المعتمد بن عباد.
- ٤ - الاختيار من أشعار المعتمد بن عباد (٥).
- ٥ - نخبة الاختيار من أشعار ذى الوزارتين أبي بكر بن عمار.
- ٦ - ذخيرة الذخيرة (٦).

الملحوظة الرابعة، أن كتاب الذخيرة يمثل أوضح صورة لتيار «الأندلسية» الذي شاع بين جبهة أدباء الأندلس وعلمائها. ونعني بتيار «الأندلسية»، اعتزاز هؤلاء ببلدهم، وبعمق الانتماء إليه والولاء له، مع امتزاج هذا الاعتزاز والانتماء بإحساس غامر بالتفوق والأصالة.

ولعل من دلائل هذه «الأندلسية» الواضحة لدى ابن بسام قوله في مقدمته: «... وما زال في أفقتنا هذا الأندلسي القصي إلى وقتنا هذا من فرسان الفنين، وأئمة النوعين، قوم هم ماهم: طيب مكاسر وصفاء جواهر، وعدوية موارد ومصادر. لعبوا بأطراف الكلام المشقّ لعب الدُّجى بجفون المورق، وحدّوا بفنون السحر المنقّ، حُداء الأعشى بينات المخلّق، فصبّوا على قوالب النجوم، غرائب المنثور والمنظوم، وباهوا غرر الضحى والأصائل، بعجائب الأشعار والرسائل. نثر لو رآه البديع، لنسي اسمه، أو اجتلاه ابن هلال لولاه حكمه، ونظم لو سمعه

كثير مانسب ولا مدح، أو تتبعه جروول ما عوى ولا نبح. إلا أن أهل هذا الأفق أبوا إلا متابعة أهل المشرق، يرجعون إلى أخبارهم المعتادة رجوع الحديث إلى قتادة، حتى لو نعى بتلك الأفاق غراب، أو طن بأقصى الشام والعراق ذباب، لجثوا على هذا صنماً، وتلوا ذلك كتاباً محكماً...»^(٧).

إلى أن يقول: «... فغاظني منهم ذلك، وأنفت مما هنالك وأخذت نفسي بجمع ما وجدت من حسنات دهري، وتتبع محاسن أهل بلدي وعصري، غيراً لهذا الأفق الغريب أن تعود بدوره أهلة، وتصبح بحاره ثياداً مضمحلة مع كثرة أدبائه، ووفور علمائه... ولبت شعري، من قصر العلم على بعض الزمان، وخص أهل المشرق بالإحسان؟»^(٨).

وسوف نرى - من خلال الدراسة - أن نزعة «الأندلسية» كانت ذات أثر واضح في حث ابن بَسَّام على تهئية مصادره، وتوخي المظان التي توفر لمؤلفه مادة حسنة، مع تنوع هذه المظان: كتباً، ورواية، ومدونات، ورسائل يبعث بها مع رسله في كل صقع من الأصقاع، ليصله بشعر أو نثر أو خبر.

* * *

وبوسعنا - بعد هذا المدخل - أن نقسم مصادر ابن بَسَّام في «الذخيرة» إلى الأقسام الآتية:

مصادره من الكتب.

مصادره من الرواية.

مصادره من المكاتبات.

مصادره من المرويات.

ونحاول - فيما يلي - أن نتناول كل قسم بدراسة مفصلة.

مصادره من الكتب:

وتتنوع هذه الكتب بين كتب في التاريخ، والأدب، والبلاغة، واللغة، والجغرافيا، كما تتنوع بين كتب مشرقية، ومغربية وأندلسية. ويقف في الصدارة من هذه الكتب كتابان: أحدهما أندلسي في التاريخ، والآخر مشرقي في الأدب. فأما الأندلسي، فهو كتاب «المتين»^(٩)

لابن حيان (ت ٤٦٩هـ) وهو في تاريخ الدولة الأموية بالأندلس وفترة الحجابة إلى نهاية حقبة «الفترة البربرية»، انني أنهت حلم التمرين والعامرين، مع شطر من عصر ملوك الطوائف.

وأما الكتاب المشرقي، فهو كتاب «بتيمة الدهر» لأبي منصور الثعالبي (ت ٤٢٩هـ). وهو مدرسة جديدة في التأليف الأدبي غزت الشرق والمغرب، وأثرت فيها تأثيراً بعيداً. ونحاول فيما يلي أن نتناول كتابي ابن حيان والثعالبي. ثم نتبع ذلك بدراسة لما عداهما من الكتب الأخرى مقسمين إياها إلى: مصادر مشرقية، ومصادر مغربية، ومصادر أندلسية.

فأما كتاب ابن حيان، الذي رجع ابن بسام إليه، فهو كتاب «المتين». ولم يصرح ابن بسام باسم هذا المصدر التاريخي الأندلسي، وإنما كان يقول: «حكى أبو مروان بن حيان قال...»، أو «قال ابن حيان...». ونحو ذلك؛ فإذا أشار إلى الكتاب سماه «التاريخ الكبير». وهو وصف دقيق لكتاب ابن حيان، لأنه قد بنى ستين مجلدة، حسبما قرر ابن سعيد في كتابه «المغرب»^(١).

وقيمة كتاب «المتين» في أنه حوى معلومات تاريخية منفصلة، تضمنت تراجم لأعلام، وسرداً لوقائع وأحداث، وتسجيلات لوثائق تاريخية مهمة، تتعلق بحقب تاريخية ذات شأن عن حياة دولة الإسلام بالأندلس، تمتد من عصر الدولة الأموية إلى شطر من عصر ملوك الطوائف.

كما سجل كتاب «المتين» أيضاً مشاهدات مؤلفة ومعانيته للأحداث والمواقف والشخصيات، وتعليقاته عليها تعليق الحاذق الخبير. فابن حيان إذن «شاهد عصره».

ولم يعتمد ابن بسام — في تحريره للمادة التاريخية — على مصدر آخر غير كتاب «المتين» بل هو قد أفرده دون غيره، حيناً بالنقل، وحيناً بالتلخيص، وهذا الجانب التاريخي الذي استمدته (الذخيرة) من (المتين) يُشكل — كما سنرى — عنصراً متميزاً في كتاب ابن بسام، لأنه لم يعتمد على مادة أدبية صماء، وإنما وضع هذه المادة في إطار تاريخي. فالتاريخ هنا يضيء النصوص وينطقها بالدلالات الزمنية، ويمكن القارئ من فهمها والوقوف على مناسباتها، وعوامل تشكيلها.

وكما أسدى كتاب ابن حيان للذخيرة، فإن كتاب «الذخيرة» — برجوعه إلى كتاب «المتين»، ونقله عنه — قد حفظ لنا قدراً من مادة هذا الكتاب المفقود، وأتاح لنا فرصة الوقوف على قدر

من مادته ومنهجه ومصادره، ولولا كتاب الذخيرة - الذي حفظ قدراً كبيراً من كتاب ابن حيان - لظلت معرفتنا لكتاب «المتين» لا تتجاوز عنوانه، وبعض مذكره المؤلفون عنه كابن بشكوال، والحميدى، والضبي، وغيرهم:

* * *

أما المصدر الثاني الذي اعتمده ابن بسام، فهو - كما مر - كتاب «يتيمة الدهر»، لأبي منصور الثعالبي. وأهميته تكمن في أمرين:

١ - التأثير بالمنهج واللغة.

٢ - اقتباس النصوص.

فأما التأثير بمنهج التأليف، فيتمثل في محاكاة الذخيرة لليتمة أول مؤلف عربي، اعتمد - بشكل نهائي - التقسيم الإقليمي أساساً للدراسة الأدبية. وظل هذا المنهج مقترناً باسم الثعالبي، حتى بعد أن احتذاه من تلاه من المؤلفين، أمثال: البخارزي (ت ٤٦٧هـ) والخطيري (ت ٥٦٨هـ) والعماد الأصفهاني (ت ٥٩٧هـ).

وقد قسم ابن بسام كتابه إلى أقسام، شملت: وسط الأندلس، وغربها، وشرقيها، حذو الثعالبي، الذي قسم كتابه إلى أقسام شملت الشام، ومصر والمغرب، والعراق وماراء والنهر.

وكما أفرد الثعالبي قسماً من اليتمة لأدباء المغرب والأندلس، فقد حاذاه ابن بسام، إذ جعل القسم الرابع من الذخيرة لأدباء المغرب والشرق الطارئین على الأندلس. وقد اعترف ابن بسام بهذا الاحتذاء فقال - في تقديمه القسم الرابع من الذخيرة - : «وقد أثبت أيضاً آخر هذا القسم طرفاً من كلام أهل المشرق، وإن لم يطرؤوا على هذا الأفق، حذو أبي منصور الثعالبي، فإنه ذكر في يتيمة نقرأ من أهل الأندلس، فعارضته أو ناقضته...» (١).

ولم يقف تأثر ابن بسام بالثعالبي عند حدود «المنهج الإقليمي» بل حاذاه - أيضاً - في اللغة التي صاغ بها كتابه، وهي لغة تلتزم السجع وزخارف البديع. ومنذ اعتمد أبو منصور الثعالبي هذه اللغة الموشاة في «اليتمة»، صارت موضع احتذاء عند فريق من المؤلفين المشاركة والأندلسيين.

لقد أسس الثعالبي - إذن - مدرسة في التأليف الأدبي، لها خصائصها في المنهج واللغة،

هذا - أيضاً - تأثيرها. وهذا يمكننا أن نعد كتاب «الذخيرة» أحد الكتب التي انتسبت إلى «مدرسة اليتيمة». وهو انتساب تدل عليه وجوه الشبه إجمالاً، وإن لم تنقضه وجوه من المباشرة والمخالفة في بعض التفاصيل. فبينما يعنى صاحب «الذخيرة» بعنصر التاريخ يمزجه بالأدب، فإننا نرى عناية الثعالبي بالتاريخ تنعدم في أكثر المواضع، بحيث لا تمثل ظاهرة عامة أساسية في «يتيمة الدهر». فعنصر التاريخ - إذن - يمثل ملمحاً أساسياً في الذخيرة، على حين لا يقع هذا الموقع في اليتيمة.

وهذا شيء كان ابن بسام على وعي به، وقد أشار إليه إشارة المباشرة، فقال: «وقد وعدت - في صدر هذا الكتاب - بأن أتحلل أشعار الشعراء، ورسائل الكتاب والوزراء بما عسى أن يتعلّق بأذيالها، ويساير أفياء ظلالها: من أنباء فتن ذلك الزمان البعيد - كان - طُلُفها المفرّق لشمل الأمر في هذه الجزيرة نَسَقُها، وتُلَمّع بنيد من مشهور وقائعها... ليجمع هذا المجموع بين الشعر والخبر... فإنني رأيت أكثر ما ذكر الثعالبي من ذلك في يتيمة محدّوفاً من أخبار قائله مبتوراً من الأسباب التي وُصِلت به، وقيلت فيه، فأمل قارئ كتابه منحاها وأحوجه إلى طلب ما أغفله من ذلك إلى سواه»^(١٣).

والحق مع ابن بسام فيها ذهب إليه، إذ كان - ملحوظته تلك - على وعيٍ بالعلاقة بين الأدب والتاريخ، وهي لا تقل عن العلاقة بين الأدب والإقليم، وبذلك مزج ابن بسام بين الأدب والتاريخ والإقليم، وهو ما لم يفعله الثعالبي.

وفي موضع آخر، يعيب ابن بسام على الثعالبي شيئاً آخر، وهو أن الثعالبي لم يبرء كتابه من أشعار المهجاء، بينما احترز ابن بسام منها. يقول ابن بسام عن شعر المهجاء: «وهو ما صنأ هذا المجموع عنه، وأعفيناه أن يكون فيه شيء منه، فإن أبا منصور الثعالبي كتب منه في يتيمة ما شأنه وسمه، وبقي عليه إثم»^(١٤).

وقد أخطأ ابن بسام فيما ذهب إليه، فمؤرخ الأدب حرّى به ألا يثبت شعراً دون شعر، لأنه في موقع المؤرخ الرواية، يثبت الوقائع والنصوص والحقائق، دون تزيد فيها أو تنقص. وسوف نرى أن تثبيت ابن بسام بنفي أشعار المهجاء، قد أوقعه في تجاوز أشد خطراً وخطأً، فإنه حين نقل عن ابن حيان في كتابه «المتين» توخى ألا يصرح بأسماء أشخاص بدرت منهم بعض الشوائب، ووصفهم ابن حيان بأوصاف التنقص والذم. وهكذا أعطى ابن بسام لنفسه حق

التصرف في نصوص ووقائع تاريخية، فكان عمله فيها أغفله من نصوص «المتن» أشد غلطاً من عمله في إسقاط أشعار الهجاء . ومع هذا، فابن بسام الذي تحرّج من السباب، فنفاه من كتابه، لم يتحرج من إثبات أشعار الفحش والبذاء التي قيلت في غير معرض الهجاء . وكما سبق القول لم يقف تأثر الذخيرة باليتيمة عند حد المنهج، بل تأثرت به في «اللغة»، فلغة اليتيمة لغة مصنوعة مسجوعة وهو ما تأست الذخيرة به، لا نستثنى من ذلك مقدمتها، وقد أوقعت هذه اللغة المصنوعة مؤلف الذخيرة في الإطالة والإطناب، فالمعنى الذي تنهض الجملة الوجيزة به، تنوزعه جل طوال، ترضى من نفس ابن بسام نزوعه إلى الافتتان والتأسي بالثعالبي، الذي عدّه صاحب الذخيرة: «أسوة المؤلفين في زمانه، وإمام المصنفين بحكم قرانه»^(١٤).

قلنا: إن ابن بسام قد تأثر باليتيمة في المنهج واللغة واقتباس النصوص . وقد تناولنا جانبي المنهج واللغة، وبقي أن نتناول جانب اقتباس النصوص . ولا يتعدى ذلك الأبيات القلائل، يسوقها في مواضع محدودة، ويقدم لمقتساته بمثل قوله: «ومن أناشيد الثعالبي». وأكثر ما يكون ذلك في مقام «الموازانات الشعرية» بين أشعار أندلسية، وأخرى مشرقية، كأن ينقل — مثلاً — بيتين لابن فرج الإلبيري المعروف بالسُّميسر، وما يناظرهما من أبيات اليتيمة دون عزو، إلى غير ذلك من الأمثلة»^(١٥).

هذان الكتابان هما أهم مصادر «الذخيرة» وهما أقوى حضوراً، وأبعد أثراً من سائر المصادر الأخرى. ونحاول — فيما يلي — أن نعرض بالدراسة لسائر مصادر ابن بسام من الكتب، مقسمين إياها إلى كتب أندلسية، وكتب مغربية، وكتب مشرقية.

أولاً — الكتب الأندلسية :

وأهمها ثلاثة هي:

أ — الخدائق، لابن فرج الجياني.

ب — حديقة الارتياح في صفة الراح، لأبي عامر بن مسلمة، وزير المعتضد بن عباد.

ج — البديع في فصل الربيع، لأبي الوليد بن عامر.

ونحاول فيما يلي أن نعرف بكل من هذه المصادر، ثم نبين موقعها في «الذخيرة»، ومنهج ابن

بسام في التعامل معها.

أ - الخدائق لابن فرج الجبني (ت ٣٦٦هـ)، أحد الشعراء المتقدمين في عصر الأمويين بالأندلس.

وقد ألف جبني كتابه (الخدائق) للحكم المستنصر وهو الخليفة الأموي العالم، مترجماً فيه لطائفة من الشعراء الأندلسيين، مع مختارات لأشعارهم. وقد عارض صاحب (الخدائق) بكتابه هذا كتاب «الزهرة» لأبي محمد بن داود الظاهري، وضمن كتابه ترجمة لأخويه: عبدالله ابن محمد بن فرج، وسعيد بن محمد بن فرج.

وقد كان كتاب (الخدائق) في عي ابن بسام، وهو يخطط لكتابه ويصنع منهج، يقول ابن بسام: (ولم أعرض لشيء من أشعار الدولة مروانية، ولا المدائح العامرية، إذ كان ابن فرج الجبني قد رأى رأيي في النصفة، وذهب مذهبي من الأنفة، فأمل في محاسن أهل زمانه، كتاب «الخدائق» معارضاً لـ «كتاب الزهرة» للأصبهاني، فأضربتُ أنا عما ألف، ولم أعرض لشيء مما صنف، ولا تعديت أهل عصري، ممن شاهدته بعصري، أو لحقه بعض أهل دهري، إذ كل مرقد ثقيل، وكل متكرر ملول). ويوقفنا النص على جملة من الحقائق نوجزها فيما يلي:

١ - أن كتابي «الخدائق»، و«الذخيرة» قد عارضاً كتاباً مشرقياً، فالخدائق عارض الزهرة، والذخيرة عارض اليتيمة. وقد كانت هذه المعارضة حافزاً لحركة التأليف الأدبي بالأندلس.

٢ - أن كتاب «الذخيرة» جاء إكمالاً لحقبة تاريخية طرقتها الجبني، وبنى عليها كتابه. ولهذا حاول ابن بسام ألا يكرر ما أورده صاحب «الخدائق» وعرض له بذكر.

ب - حديقة الارتياح في وصف الراح: وهو للوزير أبي عامر بن مسلمة، وقد عاش مصانعاً للمعتضد بن عباد. فجمع له هذا الكتاب، الذي قصره على ماورد في الخمر شعراً ونثراً، على ما يبدو من العنوان، وبعض ما اختاره من صاحب «الذخيرة». وبعض هذه «الخمریات» هي من نظم ابن مسلمة، وبعضها من نظم غيره، وتدل بعض مقتبسات ابن بسام من «حديقة الارتياح» على أن ابن مسلمة كان يطارح شعراء آخرين، ويطارحه الشعراء. فمن هؤلاء ابن الأبار، وأبو علي إدریس بن الیانی.

ويدلنا حديث ابن بسام عن كتاب «حديقة الارتياح» على أن نسخة من هذا الكتاب، قد وقعت له، وأنها كانت بخط المؤلف، الذي وصفه ابن بسام بكثرة الرواية، وجودة العناية. وقد أكثر صاحب الذخيرة النقل عن كتاب «الحديقة» حتى أنه نقل عنه مقطوعات أبيات لجماعة من الأدباء المعاصرين للمعتضد بن عباد، وعقد لهذه الاختيارات فصلاً كاملاً، اعتمد فيه على كتاب «الحديقة» وحده، لأنه لم يجد لهم أشعاراً تفسح في طريق الاختيار إلا ما أثبت لهم الوزير أبو عامر بن مسلمة في عرض كتابه المترجم بـ «الحديقة»، ومن هؤلاء الأدباء: الوزير أبو الأصمغ بن عبدالعزيز، وابن الصباغ، وأبو بكر بن نصر الإشيلي، وغيرهم. فالكتاب إذن هو من قبيل كتب الاختيارات الأدبية، أكثرها في الخبر، وبعضها في وصف الطبيعة. وتبدو أهمية هذا الكتاب فيما يلي:

- ١ - أنه نموذج للون من ألوان التأليف الأدبي الذي عنى الأندلسيون به، وهو «أدب الخمر والغزل والطبيعة». وأنه كان المصدر الأوحده لأشعار شعراء المعتضد بن عباد.
- ٢ - تدل بعض نقول ابن بسام عن كتاب «حديقة الارتياح» على ولاء ابن مسلمة للأموية، وولاء صديقه ابن الأبار أيضاً الذي كان يطارحه الأشعار في رسائل جرت بينهما. أما عدد الأبيات الشعرية التي نقلتها «الذخيرة» عن الحديقة فهو مائة وثمانية وخمسون بيتاً.

* * *

ج - البديع في فصل الربيع: وهو للوزير الكاتب أبي الوليد إسماعيل بن محمد بن عامر الحميري، الملقب بحبيب العامري الإشيلي (ت: ٤٤٠هـ).

وقد وصفه ابن بسام بقوله: «كان سديد سهم المقال، بعيد شأو الروية والارتجال. أما كتاب البديع فوصفه صاحب الذخيرة بقوله: (وله كتاب سماه «البديع في فصل الربيع» جمع فيه أشعار أهل الأندلس خاصة، أعرب فيه عن أدب غزير، وحظ من الحفظ موفور.

وقد نقل ابن بسام عن كتاب «البديع»^(١٨)، فأكثر النقل، والكتاب كما تدل مادته - وهو بين أيدينا منشور مطبوع - قد ذهب في وصف محاسن الربيع، من زهر وورد، وهو يدير بين أصناف الزهور والورود مناظرات شائقة، تقوم - أساساً - على النثر، وتخللها شواهد من الشعر.

وهكذا نجد أن تلك الكتب الأندلسية الثلاثة، التي اتخذها ابن بسام مصادر ينهل منها. هي كتب في وصف الطبيعة جمعت بين الشعر والنثر، تعطى صورة لثقافتها عن اهتمام أهل الأندلس بأدب الطبيعة الحية.

ثانياً: الكتب المغربية :

١ - العمدة في صناعة الشعر ونقده، لابن رشيق القيرواني (ت: ٤٦٣هـ) وهو أجمع كتب التراث العربي في نقد الشعر ودرسه. ومن أهم المصادر التي استعان ابن بسام بها في مجال «البحث البلاغي»، إذ كان ابن بسام معنياً بالبلاغة، وقد أطلق عليها مصطلح البديع. ولسوف نرى أن ابن بسام قد وجد في عمدة ابن رشيق طلبه، ومن ثم كان ينقل عنه، دون أن يصرح في أكثر مواضع نقله، أو حتى في مقدمة الذخيرة، التي قال فيها: «... وعدت أن ألع في هذا المجموع بلمع من ذكر البديع، وأن أسد جانباً من أسبابه، وأشرح جلاً من أسائه وألقابه، وإذا ظفرت بمعنى حسن، أو وقعت على لفظ مستحسن، ذكرت من سبق إليه، وأشرت إلى من نقص عنه، أو زاد عليه...»^(١٩).

وواضح من النص المتقدم أن صاحب «الذخيرة». وقد وعد «بذكر لمع من البديع... الخ»، لم يشر هنا بأذى إشارة إلى مصدره الأساسي، الذي سوف يتكئ عليه لاستمداد مادته البلاغية التي وعد بها، كما لم يشر - أثناء نقله عن «العمدة» في مواضع من الذخيرة - سوى مرة واحدة، عند ترجمته للشاعر الأندلسي «أبو إسحاق إبراهيم بن معلى»، وهو يتناول أنواعاً من البديع، هي: الإشارة، والتلويع، والإيماء، والرمز، واللغز. ومن هذه المواضع على سبيل المثال :

أ - حديثه عن «البديهة والارتجال»، إذ يخرج به على مسار الكلام - وكأنه بحث بلاغي مستقل، ناقلاً إياه - في جملته - عن كتاب «العمدة»، الذي عقد له فصلاً كاملاً وقفه عليه. وحتى عندما يتعامل ابن بسام مع مصادر بلاغية سوى العمدة، فإن تعامله مع تلك المصادر ونقله عنها كان من خلال «العمدة» دون أن يصرح بذلك^(٢٠).

ومن هذا مثلاً قول ابن بسام عن «الالتفات»: (وأحسن ابن المعتز في العبارة عن الالتفات، حيث قال: هو انصراف المتكلم عن الإخبار إلى المخاطبة، وعن المخاطبة إلى الإخبار وقوله تعالى... «٢٢»).

وندليل على أن كلام ابن المعتز منقول عن (العمدة) لا عن كتاب «البدیع» لابن المعتز عبارة (وأحسن ابن المعتز في العبارة عن الالتفات)، فهي بتمامها عبارة ابن رشيق القيرواني، علق بها على تعريف ابن المعتز بمصطلح «الالتفات» (٢٢).

فإذا ما قابلنا سائر كلام ابن بسام بكلام ابن رشيق وجدنا تطابقاً كاملاً. فإذا قال ابن رشيق: (وأشد ابن المعتز في هذا النوع لبشار)، تابعه ابن بسام في الشاهد والعبارة.

وإذا قال ابن رشيق: (ومن ملحق ماسمته قول نصيب...)، نقل ابن بسام العبارة ذاتها، مع تحرير يسير، فقال (وما أملح قول نصيب). فإذا عقب ابن رشيق على شعر نصيب مفراً ومختلاً، أخذ ابن بسام تعقيب ابن رشيق بتمامه لم يخرم حرفاً. فإذا انتهى باب «الالتفات» عند ابن رشيق أنهى ابن بسام حديثه بقوله: «واستقصاء ذكر هذا الباب مما يضخم حجم الكتاب. وكان بين يدي ابن بسام مصادر جمّة، ومادة وفيرة غزيرة» (٢٣).

وهكذا لو استقصينا موضوع «الاستطراء» الذي أورده ابن بسام - حشواً واستطراداً - ، فإننا نجد كلامه على جملته منقولاً عن ابن رشيق في «العمدة»، وإن حاول ابن بسام هذه المرة أن يمويه في نقله وأخذه، فيسوق شواهد من الشعر الأندلسي، أو يضع لفظة مكان لفظة... وكذلك لو استقصينا سائر نصوص ابن بسام عما أسماه «البدیع»، سوف نضع أيدينا على المزيد من نقوله عن العمدة، يسوقها دون عزو، أو ينسبها إلى مصادرها الأصلية، التي لم يرجع إليها، وإنما رجع إلى «العمدة». فاستلّ نصوصها منه استلاً.

٢ - أمّوذج الزمان في شعراء القيروان: وهو أيضاً لابن رشيق القيرواني، ويضم تراجم لأكثر من مائة شاعر من شعراء مدينة القيروان، عاصمة دولة العبيديين، فالصهاجيين، وموطن ابن رشيق. وإذا كان العمدة بين ظهرائنا في طبعات مختلفة، فإن «أمّوذج الزمان» مفقود. وإن حفظت لنا المصادر الناقلة عنه قدراً حسناً منه، فقد نقل عنه ابن فضل الله

العمري في «مسالك الأبصار» قطعة كبيرة، بلغ عدد شعرائها ستة وسبعين شاعراً كما نقل عنه ياقوت الحموي في كتابيه «معجم الأدباء» و«معجم البلدان»، كذلك نقل عنه ابن خلكان في وفياته، والصفدي في الوافي، وغيرهم:

وقد نقل ابن بسام عن «الأنموذج» ترجمتين لشاعرين قيروانيين، أولهما ابن قاضي ميلة، والثاني أبو إسحاق الحصري، صاحب «زهر الآداب، وثمره الألباب». وتأتي ترجمته لهذين الأديبين المغربيين وفاءً منه بمحاذاة أبي منصور الثعالبي في اليتيمة. فإن أبا منصور الثعالبي — الذي أفرد أكثر كتابه لأدباء المشرق —، قد خص أهل الأندلس والمغرب بنصيب من كتابه، فأراد صاحب الذخيرة — إذن — أن يصنع صنيع الثعالبي، فيخص غير الأندلسيين بمكان من كتابه. يقول ابن بسام في مقدمة كتابه: «والقسم الرابع أفردته لمن طرأ على هذه الجزيرة في المدة المورخة من أديب شاعر، وآوى إلى ظلها من كاتب ماهر، واتسع فيه مجاله، وحفظت في ملوكها أقواله، ووصلت بهم ذكر طائفة من مشهوري أهل تلك الأفاق، ممن نجم في عصرنا بإفريقيا والشام والعراق...»^(٢٤).

ويقول ابن بسام — مؤكداً احتذائه — في الجزء الرابع: «... ثم عرضتُ بعد معارضته أبا منصور الثعالبي، بذكر من هنالك من شاعر مشهور، واجتلاب ما يتعلق بذلك من خير ماثور، فأشرت إلى ذكر من كان في هذا الوقت ممن طال طلقه، وأشرق أفقه»^(٢٥).

هذا هو موقع كتاب «الأنموذج» من سائر مصادر الذخيرة، أما أهمية الذخيرة فيما نقلته لنا من الأنموذج، فإنها لا تتمثل في نقلها ترجمة شاعرين، بل إن هذه الأهمية تتمثل في تحديد الذخيرة لعدد من ترجم الأنموذج لهم من الشعراء، والتحديد الزمني — إجمالاً — لعصرهم وأعمارهم، وذلك في قول ابن بسام: «إن شعراء الأنموذج مائة شاعر وشاعرة، وأكثرهم كان في المائة الخامسة من الهجرة، وتقاربت موالدهم، وتشابهت مصادرهم ومواردهم».

فهذه العبارة — على وجازتها — جامعة، كما أن ابن بسام هو المصدر الوحيد الذي حدّد لنا عدد شعراء كتاب «الأنموذج». بين سائر الكتب الناقلة عن هذا الكتاب المفقود.

وعلى هذا فليس موقع الأنموذج — من الذخيرة — أنه مجرد مصدر أفاد ابن بسام منه، بل إن الذخيرة بدورها قد غدا مصدراً للأنموذج، بنقل مادته والتعريف الشامل الوجيز بهذه المادة.

٣ - زهر الآداب - وثمرة الألباب، لأبي إسحاق الحصري (ت: ٤٥٣هـ): وقد ترجم له صاحب الذخيرة في الجزء الرابع، ضمن من ترجم لهم من غير أهل الأندلس، ونقل عن كتابه «زهر الآداب» مقطوعات من نثره، كما نقل من أشعاره وأخباره من كتاب «الأغذج» الذي قدّمنا الحديث عنه.

ولم ينتقل ابن بسام عن «زهر الآداب» إلا في موضع الترجمة لأبي إسحاق الحصري مؤلفه. كما يصف الكتاب بأنه معارضة للجاحظ، فيقول: «عارض أبا بحر الجاحظ بكتابه الذي وسمه بزهر الآداب، وثمر الألباب، فلعمري ما قصر مداه، ولا قصرت خطاه، ولولا أنه شغل أكثر أجزائه وأنحائه، ومرج يحبو حى أرضه وسمائه، بكلام أهل العصر دون كلام العرب، لكان كتاب الأدب، لا ينازعه ذلك إلا من ضاق عنه الأمد، وأعمى بصيرته الخسد» (٢٦).

وتوقفنا عبارة ابن بسام عن كتاب «زهر الآداب» على جملة من الحقائق نوجزها فيما يلي:

أ - أن كتاب الحصري معارضة للجاحظ. ومعلوم أنه - على وجه التحديد - معارضة لكتاب «البيان والتبيين»، ومعنى هذا أن كتاب «البيان والتبيين» قد غدا مدرسة لها تأثيرها خارج حدود المشرق، يتأسى بها المؤلفون.

ب - أن ابن بسام - وإن أثنى على الكتاب - فإنه قد عاب عليه غلبة كلام أهل العصر، دون القدماء من العرب. وهذا المآخذ غير صحيح، لأن الحصري لو قصر كتابه على آثار القدماء كما فعل الجاحظ، أو جعل أكثره للقدماء لكان عليه أن ينقل عن سابقه، وأن يقف عند عصور سبقت متجاهلاً حقوق عصره ومعاصريه من أدباء المشرق والمغرب. وإذا كان ابن بسام قد خص أكثر كتابه لأبناء بلده وعصره، دون القدماء من أدباء العرب، فلماذا يطالب سواه بما لم يفعله هو؟!

ثالثاً: الكتب المشرقية:

وهي قريبة من ثلاثين كتاباً. إلا أن نصيبها من الأهمية أقل - بطبيعة الحال - من مثيلاتها

الأندلسية، هذا حين نستثنى كتاب «يتيمة الدهر» للثعالبي، باعتباره الأعمود الذي احتداه ابن بسام، والمدرسة التي انتسبت الذخيرة إليها.

وواضح قلة أهمية المصادر المشرقية في كتاب «الذخيرة»، ذلك لأنه — أساساً — كتاب في أدب الأندلس، فمن البديهي — إذن — أن تقل استعانة المؤلف بالكتب المشرقية. وبوسعنا أن نصنف هذه المصادر حسب موضوعاتها على النحو الآتي :

أ — مصادر أدبية، وأهمها كتابا «البيان والتبيين»، و«البخلاء» لأبي عثمان الجاحظ (ت: ٢٥٥هـ).

ب — مصادر نحوية ولغوية، وأهمها كتابان، وهما: «الكتاب» لسيبويه، و«إصلاح المنطق» لابن السكيت

ج — مصادر عامة، ونجد منها في الذخيرة كتابين، وهما: كتاب يعقوبي في تاريخ الدولة العباسية، وكتاب سنن الترمذي.

ومع كثرة هذه المصادر، فإن أغلب المنقول عنها لا يعدو أن يكون تنقلاً قليلة، في مواضع لا تمثل الهياكل الأساسية في الكتاب.

مصادره من الرواية :

ونقصد هنا ما سمعه مشافهة من الأفواه، أو ما حفظه واستظهره من خبر أو شعر أو غيرهما من الآثار. على أن استقصاء مواضع الرواية في «الذخيرة» يوقف الدارس على أنماط مختلفة، منها على سبيل المثال^(٢٧):

أ — في مواضع ترجمته للوزير الأديب أبي مروان بن الشياخ يقول: «وأبو مروان هذا أحد من شافهته وذاكرته، وأنشدني شعره». ولا يفتأ ابن بسام بين الحين والحين يؤكد روايته المباشرة عن ابن الشياخ الشاعر، فيكرر — في سياق ترجمته — مثل قوله: «من ذلك ما أنشد منه لنفسه من جملة أبيات اندرجت له في رسالة موشحة عارض بها بديع الزمان في طريقته...». وقوله: «وأنشدني أيضاً لنفسه»^(٢٨). أو قوله: «ومن شعر ابن الشياخ ما أنشدنيه...».

مصادر ابن بسام الشعرية

ب - في موضع ترجع لابن خفاجة الأندلسي، وقد بلغت ترجمته وآثاره نحو الثلث من الجزء الثاني من المجلد الثالث. ولا تتحقق من أن أخبار ابن خفاجة وأشعاره قد وقعت له بطريق الرواية إلا مع نهاية الترجمة حين يصرح بالرواية مرتين ويلفظ الرواية الصريح وهو «أخبرني».

ويبدو أن ابن بسام قد لقي ابن خفاجة فروى عنه من فمه مباشرة، ثم افترقا، فكان الرواة يحملون إليه أشعاره بدليل قوله: «وهو اليوم بمطلعه من ذلك الأفق، يبلغني من شعره ما يطل السحر، ويمطل الزهر، وقد أثبت بعض ما وقع إليّ من كلامه...»^(٢٩).

ج - في موضع ترجمته لأبي جعفر أحمد بن الدودين البلنسي، يقول ابن بسام: «هو أحد من لقيته وشافهته، وأملى عليّ...»^(٣٠). وفي موضع آخر يقول: «وأخبرني برسائله التي رد فيها على أبي عامر بن غرسية».

وفيدنا - في سند ابن الدودين البلنسي - حرص ابن بسام على ذكر تاريخ الرواية، ويعني ذلك أن ابن بسام إلى عام سبعة وسبعين وأربعمائة - على الأقل - كان ما يزال يسعى إلى جمع مادة كتاب «الذخيرة»، وأنه كان يضطر إلى الارتحال سعيًا وراء الأدباء للأخذ من أفواههم.

كما تبدو أهمية الرواية عن ابن الدودين في شيء آخر، وهو رواية «رسالة ابن غرسية» النصراني الشعوبي، ورسائله تعد أثرًا أدبيًا هامًا في «أدب الشعوبية في الأندلس». وقد أثارت الرسالة ثائرة أدباء الأندلس المسلمين ضد صاحبها، فتصدوا للرد عليه ودحض مفترياته في ذم العرب والمسلمين^(٣١).

وقد روى ابن بسام نص رسالة ابن غرسية مع نصوص من الرسائل الأندلسية في الرد عليها، فوضع أمام الدارس مادة خصبة في كشف أبعاد التيار الشعوبي وتأثيره على الحركة الأدبية بالأندلس.

د - وربما كان «أبو بكر الخولاني» أهم راوية أخذ عنه صاحب الذخيرة، وزخر كتابه بحروياته. إذ يتكرر الأخذ عنه في غير موضع من كتاب الذخيرة، وتبدو من بعض الأسانيد صداقة وثيقة ومداخلة بين ابن بسام وأبي بكر المنجم^(٣٢).

وتفيدنا أبيات رواها للمعتمد بن عباد، أن أبا بكر الخولاني كان من ندماء المعتمد ومنجميه، ومن هنا تأتي أهمية مرويات أبي بكر الخولاني. كذلك كان أبو بكر الخولاني يتلقى - في مدح المعتمد بن عباد - قصائد من شعراء في بقاع مختلفة، فيرفعها أبو بكر إلى المعتمد^(٣٣). ولا شك أن رجلاً هذا قدره، قد رفق صاحب الذخيرة بما أفاده، وبخاصة ما يتصل بأخبار المعتمد وأشعاره، وأشعار الشعراء فيه.

وليس من وكدنا في هذه الدراسة أن نستقصى كل من روى عنهم ابن بسام، بل اكتفينا بالشاهد دون الحصر والاستقصاء.

وكما روى ابن بسام عن أشخاص حددتهم بأسمائهم، فقد روى عن مجاهيل، لم يذكر للقارئ أسماءهم، وترد عباراته على نحو قوله:

ما حكاها الرواة^(٣٤) - أخبرني من لا أرى خبره^(٣٥) - حدثني من أتق بخبره - أخبرني غير واحد من أدباء عصرنا^(٣٦) - حدثني من شهد... أو من سمع^(٣٧).

* * *

وهناك - عدا ما ذكرنا - صورة أخرى من صور الرواية نجدها في كتاب «الذخيرة»، وهي «الحفظ»، ومن الأمثلة عليها:

أ - «... لم آخذ هذا الخبر عن سنده، ولا استعنت فيه بكتاب لأحد، إنما اختلسته من ذكره أجريها، أو ألدوته إنما للذي بين أن أكتبها وأملها...».

ب - «وأنا أنشد في هذا الموضع بعض ما تعلق من ذلك بحفظي»^(٣٨).

ج - في ترجمته للأديب الأندلسي ابن عبد الجبار المعروف بالمتنبي، يقول: «وقد مت جملة مما وقع في شرك حفظي على سائر شعره»^(٣٩).

وتفيدنا العبارة الأخيرة، باعتداده بما يحفظ من أشعار الشاعر، وتقديمه المحفوظ على سواء مما عسى أن يكون مدوناً في دفتر أو كتاب.

وأشكال هذه العبارات الدالة على «الحفظ» متناثرة في تضاعيف الذخيرة^(٤٠).

إلا أنه في بعض الأحيان يعترف بعوادي النسيان^(٤١)، وبقاء البعض دون الكل في ذاكرته، ولكن ما مدى حرص صاحب الذخيرة على توثيق مروياته، والنأي بها عن الشبهات؟ أول ما يطالعنا - جواباً عن هذا التساؤل - يتمثل في حرص ابن بسام على إسناد مروياته إلى رواها. فإن كان هؤلاء الرواة مجهولين، حرص على وصفهم بما يعطي الثقة بهم كقوله «من أتى بخبره أو غير واحد أو من لا أرد خبره». فإن علت الشبهة ما يرويه، سارع إلى تبرئة عهده، وإثارة الشك حول الأثر، كتوله بشأن خبر عن ولادة بنت المستكفي: «هكذا وجدت هذا الخبر، وأبرأ إلى الله من عهدة ناقله، وإلى الأدب من غلط النقل إن كان وقع فيه»^(٤٢).

* * *

مصادره من المكاتبات:

والمراد بها - هنا - ما كان يحصله من المرويات عن طريق الرسائل. وكان ابن بسام يرسل الأدباء والرواة في أصقاع شتى من الأندلس، وأحياناً كان يبعث إليهم برسله، ويدبج رسائله بأبلغ عبارة، ليحرك هم الرواة إلى معاونته، في سبيل إنجاز عمله العلمي، الذي كان المهتمون يتسامعون بخبره في أصقاع شتى من الأندلس. ومن أمثلة هذه الرسائل رسالته إلى أبي حاتم الحارثي يستحثه فيها على إرسال شيء من نتاجه، فأبطأ أبو حاتم، فعاد ابن بسام مكاتبته بلفظ أحرجه، وحركه إلى القدوم بنفسه على ابن بسام «ونثر مبيضاته بين يدي يقيمه الحجل ويقعده، وقد صبغه كما صبغ العسجد»^(٤٣).

وإذا كان صنيع أبي حاتم هو من قبيل «المدونات» لا المكاتبة، لأنه قدم بنفسه فنثر مبيضاته، فإننا نجد في الذخيرة بعض الأمثلة من المكاتبات، منها ما ذكره في موضع ترجمته لأبي عبد الله محمد بن أبي الخصال (ت: ٥٤٠هـ). يقول ابن بسام: «كنت قد انفردت لتحرير هذه النسخة من هذا المجموع في شهور سنة ثلاث وخمسة، فلما انتهيت إلى نقل ما كان وقع إلي من ترسيل كتاب هذا الجانب الشرقي من الأندلس، لم أقع لهذا الرجل على كلام في تثار ولا نظام. ذكرته بعض الإخوان في ذلك، ونشطني أيضاً على مخاطبته هنالك، فوردت الرقعتان وهو يجتاز على حضرة إشبيلية في جملة أهل العسكر، فراجعته في كتاب طويل...»^(٤٤).

وقد أثبت لنا ابن بسام نص هذه الرسالة التي بعث بها ابن أبي الخصال، كما أثبت لنا جملة

من أشعار ذلك الأديب، التي بعث بها مع رسالته.

ويمكن - استخلاصاً من رسالة ابن أبي الخصال - أن نقف على محاولات ابن بسام المخلصة في الحصول على مادة لكتابه، وقد كان يبعث برسائله تلك مع رسله، كما يشفع رسائله برسائل الآخرين من الأصدقاء.

كما يوقفنا نص الرسالة على أن مشروع ابن بسام كان - كما أسلفنا - متعلماً مشهوراً بين جبهة من الأدباء، برغم تباعد المسافات، بل إن اسم الكتاب - وهو الذخيرة - كان معلوماً مشهوراً أيضاً، بل يبدو من نص الرسالة، أن ابن بسام كان يعرض على من كان يכתبهم من الأدباء مسودات من أجزاء كتاب الذخيرة، ولا تفسير لنا لمثل هذا الصنيع، إلا بأن ابن بسام يريد إشعار من يכתبهم بجديته في مشروعه العلمي، حفزاً لهم على معاونته.

ولكننا نلاحظ - من الاستقصاء لكتاب الذخيرة - أن مراسلات ابن بسام قليلة، وأن «المكاتب» لا تشكل بين سائر المصادر مصدراً خطير الشأن، وتعليل ذلك ليس بالأمر المتعذر، إذا قدرنا تباعد المسافات وسوء الأحوال على عهد ملوك الطوائف، وتكاسل الأدباء عن الجواب، أو محاطاتهم كما وضع لنا.

مصادره من المدونات :

ونقص المدونات هنا، ماكان يقع لابن بسام من دفاتر وميضات وأوراق، سواء كانت هذه المدونات من عمله هو، يستعين بها في جمع مادته العلمية، أو كانت - في الأصل - ملكاً لآخرين، ثم آلت إليه إعارَةً أو تملكاً، أو إهداء. وسوف نرى أن هذه المدونات - في الذخيرة - أسماء شتى، مثل: الميضات، والتعاليق، وبطائق... الخ ونسوق هنا أمثلة منها:

أ - «... وجدت في بعض تعاليق الفقيه أبي محمد علي بن حزم الشافعي بخطه عن محمد بن أبي الحسن المذحجي، المعروف بابن الكتاني المتطبب»^(٤٥).

ب - في موضع ترجمته لبني الباجي، ورواية آثارهم الأدبية يقول: «ونقلت ما أثبت في هذا المجموع من رسائل بني الباجي من قراطيس تعاليق، وبطائق وقعت إلي تفاريق، منسوبة لهم في الجملة. وربما اختلطت رسائل الابن والأب لهذا السبب، وهو الذي أصف وأشرح مما لا

بضراً ولا يقدح، لا سيما في حكاية لا يخل بها نسبتها إلى من لم يحكها، وفي نشر نسجه لا يفض من بهجتها إضافتها إلى من لم يحكها، وإنما هي مُلح متشور أو منظوم، وليست بحقائق علوم، فتتكلف في صحة الأسانيد. والفرق بين سَعِيد، وسَعِيد، والفصل ما بين عُبِيد وعَبِيد...» (٤٦).

ويحتاج النص الثاني إلى وقفة: فإن ابن بسام قد وقعت له رسائل بني الباجي (وهم من العائلات الأدباء بالأندلس) على هيئة تعاليق وبطائق مفرقة، غير ثابت فيها نسبة الرسالة إلى ابن أو أب أو أخ، إذ كل الثابت في نسبة هذه الرسائل — على جملتها — أنها لبني الباجي. ومن هنا كانت العبارة الأخيرة الواردة في النص، وهي قوله: «وإنما هي مُلح متشور أو منظوم، وليست بحقائق علوم، فتتكلف في صحة الأسانيد...».

فالعبرة توهم قارئها بأن صاحب الذخيرة متهاون في تحقيق ما ينقله من مدوناته. وليس الأمر على تلك الشاكلة. لأن ابن بسام، وقد قال ما قال، إنما افتقد وسائل تحقيق نسبة ما هذا أو ذاك من رسائل آل الباجي، فليس أمامه — إذن — إلا روايتها على الجملة دون نسبة دقيقة. ولو كان أمام ابن بسام من وسيلة للتدقيق والتحقيق ما سلك هذا المسلك.

فإذا تجاوزنا هذين النصين، صادفتنا نصوص أخرى تؤكد أهمية «المدونات» بين سائر مصادر ابن بسام، كقوله في ترجمة ابن السيد البطليوسي: «ووجدتُ له في بعض التعاليق هذه القصيدة منسوبة إليه بخط عبد الجليل بن وهبون المرسى...» وعدد أبيات القصيدة اثنتان وأربعون.

وقد كان لابن بسام وقفات أمام النص الذي ينقله عن المدونات، إذا ما وجد في ثناياه شبهة، ومن ذلك خبر أبيات شعرية لابن مهران السرقسطي^(٤٧)، فهو يذكر لنا رواية المدونات، ورواية أخرى تلقاها بالسماع. كما يحرص — في معرض ذكر الأبيات والخبر — على أن يذكر الأسانيد المذكورة في المدونة.

ومع أن الكثير من مدونات ابن بسام كانت تتمتع بقدر من الوثاقة، تكسبها قيمة تاريخية بين سائر الذخيرة، فإن ذلك لم يمنع من أن يشكو ابن بسام من رداءة خطوط النساخين وكثرة تصحيثهم وتحريفهم.

يقول في مقدمة «الذخيرة»: «... فإنما جمعت بين صعب قد ذل... من تفاريق كالقرون الخالية، وتعاليق كالأطلال البالية، بخط جهال كخطوط الرّاح، أو مدارج النمل بين مهاب الرياح، ضبطهم تصحيثاً، ووضعهم تبديل وتحريف... ففتحت أنا أقفالها، وفضضت قيودها وأغلاها...» (٤٨).

* * *

وبعد، فإن ما أوردنا من نصوص تفيد «الأخذ من المدونات» هو أمثلة وشواهد، وإلا فثمة نصوص أخرى لم يعرض لها بذكر. وكلها في مجملتها تجعل «المدونات» ذات قيمة خاصة بين سائر مصادر الذخيرة.

وأخر ما تنتهي إليه أن مصادر ابن بسام في الذخيرة كانت متنوعة، وكلها تشير إلى إخلاص ابن بسام لعمله العلمي الكبير.

● ● ●

● هوامش البحث ●

- (١) الذخيرة ق ١ ح ١ ص ١٩.
- (٢) انظر: الذخيرة. ق ٢ ح ٢ ص ٧٩١. وقد ترجم ابن بسام لاس نسخة في الذخيرة ق ١ ح ٢ ص ٢٣٩.
- (٣) الذخيرة. ق ١ ح ٢ ص ٢٣٩.
- (٤) الذخيرة. ق ٢ ح ١ ص ٤٦٧، ق ١ ح ٢ ص ٧٩١.
- (٥) ذكر ابن بسام هذه المؤلفات الأربعة في الذخيرة ق ٢ ح ٢ ص ٤٧٧.
- (٦) ذكره في الذخيرة ق ٢ ح ٢ ص ٨٣٥.
- (٧) الذخيرة. ق ١ ح ١ ص ١١، ١٢.
- (٨) نفسه.
- (٩) لاس حيان - عداء المنبر - كتاب آخر بعنوان «المنقبس»، والكتيبان مفقودان. وقد نشر الدكتور محمود عي مكي قطعة من «المنقبس» (القاهرة ١٩٧١) وقوة خا بمقدمة صافية، كي نشر قطعة من المنقبس أيضاً الدكتور عبد الرحمن خجي (بيروت ١٩٦٥). وانظر في ترجمة ابن حيان (ت ١٢٦٩ هـ) الصفة ص ١٩٥ وبعية المنقبس ص ١٨٨، كي ترجمه أيضاً الدكتور عبد الرحمن في مقدمة النسخة من المنقبس.

-

- (١٤) نفسه ق ٣ ج ٢ ص ٧٨٧.
 (١٥) نفسه ق ٣ ج ١ ص ٣١٨.
 . وانظر: ق ٤ ج ١ ص ١٢٥.
 (١٦) الذخيرة ق ٣ ج ٢ ص ٨٥٨.
 (١٧) وانظر ترجمته في المغرب ٤٤٢/٢.
 (١٨) الذخيرة - ق ١ ج ١ ص ١٥، ١٦



• المصادر والمراجع •

- ١ - الذخيرة في علمن أهل الجزيرة، بتحقيق الدكتور إحسان عباس - دار الثقافة - بيروت ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م.
- ٢ - فؤاد سزكين: تاريخ التراث العربي، ترجمة الدكتور عمود فهمي حجازي - جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية الرياض ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م.
- ٣ - إسماعيل باشا أمين: إضاح المكنون في الذيل على كشف الظنون - دار العلوم الحديثة - بيروت (د.ت).
- ٤ - ابن رشيقي القيرواني. المعمدة في ضاعة الشعر ونقده. بتحقيق محمد عي الدين عبد الحميد. بيروت (عن نسخة القاهرة) (د.ت).
- ٥ - ابن سعيد الأندلسي: المغرب في حل المغرب، بتحقيق الدكتور شوقي حنيف - دار المعارف بالقاهرة (عام ١٩٦٣م).
- ٦ - القاضي عياض، ترتيب المدارك وتقريب المسالك، تحقيق أحمد بكر محمود. دار مكتبة الحياة ببيروت دار مكتبة الفكر - طرابلس - ليبيا (د.ت).
- ٧ - المتمدن بن عباد، ديوان شعره، بتحقيق: الدكتور أحمد أحمد بدوي، وحامد عبدالمجيد. القاهرة ١٩٥١م.
- ٨ - أبو عبدالله الحميدي الروض المصنوع في خبر الأقطار، بتحقيق إحسان عباس بيروت ١٩٧٥م.
- ٩ - ابن داود الظاهري، الزهرة ج ١، تحقيق لويس نيكول وإبراهيم طوقان بيروت ١٩٣٢م.
- ١٠ - ابن سعيد الأندلسي: عنوان الرقصات والمطربات، تحقيق عبد القادر حداد. الجزائر ١٩٤٩م.
- ١١ - الدكتور حسين مؤنس، فجر الأندلس، القاهرة ١٩٥٩م.
- ١٢ - ابن حيان الأندلسي، المغتني، بتحقيق الدكتور محمود علي مكي. (القاهرة ١٩٧١م) وقطعة أخرى من المغتني بتحقيق الدكتور عبدالرحمن الحجي، (بيروت ١٩٦٥م).
- ١٣ - الحميدي، جذوة المغتني، بتحقيق محمد بن تالوت الطنجي - القاهرة ١٩٥٢م.
- ١٤ - ابن الأبار، الحلة السراء (١-٢) بتحقيق الدكتور حسين مؤنس - القاهرة ١٩٦٣م.
- ١٥ - ابن خفاجة الأندلسي، ديوان شعره، بتحقيق الدكتور السيد غلزي - الاسكندرية ١٩٦٠م.



دراسة في نص ..

المتنبي بدم الخصبى

بقلم د. حلمى محمد القاعود

القصة :



- ١- أفاضل الناس أغراض لدا الزمن
 - ٢- وإنما نحن في جيل سواسية
 - ٣- حولى بكل مكان منهم خلق
 - ٤- لا أفترى بلدا إلا على غرر
 - ٥- ولا أعاشير من أملاكهم أحدا
 - ٦- إني لأعذريهم بما أعنفهم
 - ٧- فقر الجهول بلا عقل إلى أدب
 - ٨- ومذيعين بسبروت صحتهم
 - ٩- خراب بادية غرني بطونهم
 - ١٠- يستخرون فلا أعطيهم خبري
 - ١١- وخل في جليس أنقيه بها
 - ١٢- وكلمة في طريق خفت أعربها
 - ١٣- قد هون الصبر عندي كل نازلة
 - ١٤- كم خلص وعلا في خوض مهلكة
 - ١٥- لا يعجز مضيما حسن بززه
- يخلو من الهم أخلأهم من الفطن
شر على الحر من سقم على بدن
تخطى إذا جث في استفهامها بمن
ولا أمر يخلتي غير مضطفي
إلا أحن يضرب الرأس من وثني
حتى أعنف نفسي فيهم وأني
فقر الحمار بلا رأس إلى رسي
عارين من حلل كاسين من دري
مكن الضباب لهم زاد بلا لمن
وما يطيش لهم سهم من الظني
كينا يرى أننا مثلان في الوهن
فيهندي لي قلتم أفيد على اللحن
ولن العزم حد المركب الحنين
وقتل قريت بالدم في الجبن
وهل يروق دفيناً جودة الكفن

١٦- لله حالٌ أرْجِيها وتَحْلِفْني
 ١٧- مَدَحْتُ قوماً وإن عشنا نَظُمْتُ لهم
 ١٨- تحت العجاج قوافيها مَضْمُرة
 ١٩- فلا أحاربُ مَذْفُوعاً إلى جُدُرِ
 ٢٠- غَيْمِ الجُمُعِ باليَئِذِاءِ يَصْهَرُهُ
 ٢١- أَلْفَى الكرامِ الأولى بادُوا مكارمهم
 ٢٢- فَهَنَ في الحِجْرِ منه كَلِما عَرَضَتْ
 ٢٣- قاضٍ إذا التَبَسَ الأمرانِ عَن لَه
 ٢٤- غَضُّ الشَّبابِ بَعِيدٌ فَجَرُ لَيْلَتِهِ
 ٢٥- شَرَابُهُ النُّشْجُ لا لِلرَّيِّ يَطْلُبُهُ
 ٢٦- القَائِلُ الصَّدَقُ فِيهِ ما يَضُرُّ بِهِ
 ٢٧- الفاضلُ الحَكمَ عَنِ الأولونِ بِهِ
 ٢٨- أَفْعَالُهُ نَسَبٌ لَوْ لَمْ يَقُلْ مَعَهَا
 ٢٩- العارضُ الهَتَنِ ابنُ العارضِ الهَتَنِ اب
 ٣٠- قَدْ صَبَرْتُ أولَ الدنيا وَأَخِرَها
 ٣١- كَانَهُمْ وَلِدُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ وَلِدُوا
 ٣٢- الخاطرينِ على أَعْدائِهِمْ أبدأ
 ٣٣- لِلنَّاطِلِينَ إلى إقْبَالِهِ فَسَحَ
 ٣٤- كَأَنَّ مَالَ ابنِ عبدِاللهِ مُفْتَرَقٌ
 ٣٥- لَمْ تَقْتَعِدْ بِكَ مِنْ مَزْنِ سَيَوى لَشَقِ
 ٣٦- وَلَا مِنْ اللَّيْلِ إِلَّا قُبْحَ مَنْظَرِهِ
 ٣٧- مِنْذُ اخْتَبَيْتُ بِأَنْطَاكِيَةِ اعْتَدَلْتُ
 ٣٨- وَمُذْمِرَتِ على أَطْوَادِها قَرَعْتُ
 ٣٩- أَخَلَّتْ مواهِبُكَ الأسواقَ مِنْ صَنْعِ
 ٤٠- ذَا جُودٍ مِنْ لَيْسَ مِنْ دَعْرِ عَلَى يُقَّةِ
 ٤١- وَهَذِهِ هَيْبَةٌ لَمْ يُؤْتِهَا بَشَرٌ

وَاقْتَضَى كَوْنَهَا دَهْرِي وَمَطْلُي
 قَصَائِدًا مِنْ إِنْثِ الخَيْلِ وَالْحَصَنِ
 إِذَا تُتَوَشَّدُنْ لَمْ يَدْخُلَنَّ فِي أَذُنِ
 وَلَا أَصَالِحُ مَغْرُورًا عَلَى دَحَنِ
 حَرُّ المَوَاجِرِ فِي صَمٍّ مِنَ الْفِتَنِ
 عَلَى الْخَصِيصِيِّ عِنْدَ الْقَرَضِ وَالسَّنَنِ
 لَهُ الْيَتَامَى بَدَأَ بِالْمَجْدِ وَالْمَتَنِ
 رَأَيْي يَخْلُصُ بَيْنَ الْمَاءِ وَاللَّبَنِ
 مَجَانِبُ الْعَيْنِ لِلْفَحْشَاءِ وَالْوَسَنِ
 وَطَعْمُهُ لِقَوَامِ الْجِسْمِ لَا السَّمَنِ
 وَالوَاحِدُ الْحَالَتَيْنِ: السَّرُّ وَالْعَلَنُ
 وَالظَّهَرُ الْحَقُّ لِلسَّاهِي عَلَى الدَّهْنِ
 جَدِّي الْخَصِيبُ عَرَفْنَا الْعِرْقَ بِالْغَضَنِ
 سُنُّ الْعَارِضِ الْهَتَنِ ابْنُ الْعَارِضِ الْهَتَنِ
 أَبَاؤُهُ مِنْ مُغَارِ الْجِلْمِ فِي قَرَنِ
 أَوْكَانَ فَهْمُهُمْ أَيَّامٌ لَمْ يَكُنِ
 مِنَ الْمُحَايِدِ فِي أَوْقَى مِنَ الْجَنَنِ
 يُزِيلُ مَا يَجِبَاهُ الْقَوْمُ مِنْ غَضَنِ
 مِنْ رَاحَتِيهِ بَارِضِ الرُّومِ وَالْيَمَنِ
 وَلَا مِنْ الْبَحْرِ غَيْرِ الرِّيحِ وَالسُّفَنِ
 وَمِنْ سِوَاهُ سِوَى مَالِيَسَ بِالْحَسَنِ
 حَتَّى كَأَنَّ ذَوِي الْأَوْتَارِ فِي هُذَنِ
 مِنَ السَّجُودِ فَلَا نَبْتَ عَلَى الْقَنَنِ
 أَغْنَى نَدَاكَ عَنِ الْأَعْمَالِ وَالْمَهَنِ
 وَزَهْدٌ مِنْ لَيْسَ مِنْ دُنْيَاهُ فِي وَطَنِ
 وَذَا اقْتِدَارٌ لِسَانٍ لَيْسَ فِي الْمَتَنِ

٤٢- فَمَرُّ وَأَوْبَى؛ تُطْعَ قُدْسَتْ مِنْ جَبَلٍ. بَارَكَ اللهُ مُجْرِي الرُّوحِ فِي حَضَنِ

- ١ -

يمثل شعر المتنبي للباحث معيّناً لا ينضب، على المستويين: الفكري والفني، فقد كان شاعراً موهوباً وطموحاً في الوقت نفسه، دفعت به موهبته إلى ذروة الشعر الرفيع الذي تحتذيه الأجيال، وانتق معظم النقاد القدامي والمحدثين؛ في كونه يمثل ظاهرة فنية فريدة في تاريخ الشعر العربي، فدارت حوله الدراسات والمناظرات والمناظرات قديماً وحديثاً، ومازال الباحثون يجدون في شعره ظواهر جديدة، لغوية وصوتية وموسيقية وغيرها.

وكان طموح المتنبي أو أبي الطيب أحمد بن الحسين جزءاً لا يتفصل عن موهبته الفنية، فقد ترافقا، بل تعانقا، بل تفاعلا، وصار الطموح دليلاً على الموهبة، أو صارت الموهبة دليلاً على الطموح، من خلال عمره الذي تجاوز نصف القرن بقليل (٣٠٣ - ٣٥٤هـ)، ففي هذه الفترة الزمنية المتوسطة شغل «المتنبي» الناس، وملأ الدنيا على حد تعبير الناقد العربي القديم «ابن رشيقي».

لقد رحل «المتنبي» بموهبته أو فنه إلى أكثر من مكان بعيداً عن مدينة الكوفة - مولده - وجاب الآفاق، وخالط البدو والحضر، وعاش في قاع المجتمع، ووقف على قمته أيضاً، وغنى للنصر، وشارك فيه، وكان قبل ذلك وبعده شاهداً على زمانه بالشعر، وبالفن أيضاً.

وإذا كانت أهمّ الفترات في حياة المتنبي، تلك التي توقف فيها عند بلاط الحمدانيين؛ فإن شعره في بلاد الشام بصفة عامة يمثل قمة النضج إلى حد كبير. ومن ثم، ستكون رحلتنا مع قصيدته «النونية» التي يمدح فيها أبا عبيد الله (أو عبدالله) محمد بن عبدالله بن محمد الخصبّي القاضي الأنطاكي؛ نوعاً من السباحة في عالم من النضج الفني لدى المتنبي، لا يتأثر بتقادم الزمان^(١).

- ٢ -

وعلياً قبل أن نتعامل مع النص أن نشير بإيجاز شديد إلى قضية هامة، يكثر ترددها بين الباحثين حول شعر المديح بصفة عامة، ومجمل هذه القضية أن شعر المدائح لا يعبر عن مضمون ذي قيمة كبيرة. لأنه خلو من التجربة الذاتية التي ترفع من القيمة الفنية للشعر، وأن

الشاعر المَدَّاح لا يقول شعر المَدَّاح إلا بقصد التَكْسُّب والارتزاق، ومن ثمَّ، فإن النظرة إلى شعر المَدَّاح في أحسن الأحوال تكون نظرة متواضعة، لأن الباحث - وفقاً لما تقدم - لن يخرج بشيء ذي قيمة على المستوى الفني أو الفكري. فالشاعر المَدَّاح، يصوغ شعره بما يحقق له الكسب اللازم أو الدنانير الكثيرة التي يمنحها إياه الممدوح، ويضطر عادة أن يضفي عليه ما لا يستحق من الصفات والأخلاق كي يميز له العطاء، بل يبالغ في الملامح الطيبة التي يرسمها له؛ حتى ولو لم يكن به أثر من آثار الخلق الطيب، أو الوصف الحميد.

والتناول الموضوعي للنصوص يفرض علينا ألا نعمم الأحكام في القضايا الفنية، لأن التعميم من أكبر الأخطاء وأفدحها، خاصة في مجال الفن، وإذا عرفنا أن كل نص يمثل عالماً بأكمله له معياره الفني وملاحظه التشكيلية الخاصة به، فإنه يصعب أن نسحب هذه الملامح وذلك المعيار على أعمال أخرى للشاعر نفسه أو لشاعر آخر، فضلاً عن شعراء آخرين. كذلك، فإن الاكتفاء بالحكم الشائع عن بعض النصوص الأدبية، لا يصحّ دليلاً يقينياً، يقنعنا بسلامة هذا الحكم وأصالته، ونعتقد في كل الأحوال أن التعامل مع النصوص، واستنطاقها، واكتشاف ملامحها هو الدليل الصحيح أو الأقرب إلى الصواب. ومن ثمَّ، فإن الحديث عن شعر المَدَّاح يمثل تلك النظرة التي أشرنا إليها في أول هذه الفقرة، سوف يفقدنا الكثير من المتعة الفنية في قصيدة «المتنبى» التي، نعالجها، كما يقودنا إلى حكم غير موضوعي، أو غير منصف.

وإذا عرفنا أن المَدَّاح لم تكن دائماً وسيلة تَكْسُّب وارتزاق، فإن هذا يدفعنا بالضرورة لطالعة النصّ مطالعة غير متأثرة بتلك المقولة التي شاعت عن شعر المديح والشعراء المَدَّاح، فاتهمهم بالضعف والاستجداء. ثم - وهو الأهم، هل هنالك ما يمنع عقلاً (أن يتكسّب الشاعر بشعره، ويصوغ شعراً له قيمة فنية كبيرة؟^(٢)، إن ذلك لا يمنع بالطبع، والمهم في المسألة منذ البداية وحتى النهاية أن يدرك الشاعر المَدَّاح ذاته، وأن يصفها على خارطة قصيدته، وألا يتداح في «دنيا» الممدوح، فيذوب شعره، وشخصه معاً.

وحتى لا نطيل الحديث حول مبررات القصيدة المادحة ومستواها الفني، فإن النموذج الذي نقدمه الآن، يؤكد مآزينا إليه، من إمكان وجود الشاعر الموهوب والنصّ الجيد الذي يتناول

الممدوح، ولا يهتم بعدئذ إن كان الشاعر قد أصابه حظ من النوال، أو كان يمدح لذات الممدوح.

- ٣ -

تولى أبو عبيد الله (أو أبو عبد الله) محمد بن عبد الله الخصيبي قضاء «أنطاكية»، فتوجه إليه المتنبي بقصيدته النونية، باعتبارها مدحاً له وتهنئة على توليه منصب القضاء، الذي يستحقه عن جدارة. ولو تصوّرنا أن «المتنبي» جعل «المدح أو التهنة» هدفاً الأساسي من القصيدة، لقلنا إنه هدف متواضع كان يمكن أن يعبر عنه من خلال بضعة أبيات، ويتحقّق الهدف، ويتكسّب به أو من ورائه أيضاً. ولكن النظرة العابرة للقصيدة التي تربو على أربعين بيتاً (٤٢) بالتحديد تجعل المسألة تختلف بالضرورة. فإذا كانت هنالك نظرة أكثر عمقاً ودقّة وصبراً، فإننا سندخل إلى عالمٍ ثرٍّ زاخرٍ بموج بالحركة ويضطرم بالحياة، وفي مقدمة هذا العالم نواجه «المتنبي» الإنسان أو الشاعر الذي يشاقق المجتمع والزمان، وفي خلفيته نرى من خلال صورة أقرب أن تكون باهتة - شخصية الخصيبي القاضي الذي يتصف بالذكاء والفهم والعدل! بل إننا سنجد «المتنبي» يكاد يقسم القصيدة قسمّة عادلة بينه وبين الخصيبي، فسيأثر هو بالنصف الأول من النص الذي يفيض عاطفةً وحيويّةً وثراءً، ويترك النصف الثاني للخصيبي ولكل من يشترك معه في صفاته، التي لا تميّز فيها ولا تفرّد، بل إن «المتنبي» لا ينفكّ يطالعنا بصورة وأخرى من خلال النصف الثاني الذي يعقده أو يخصّصه لممدوحه الخصيبي، ومن هنا نستشعر طغيان شخصية المتنبي وحضورها الغلاب، ووجودها في بؤرة النصّ، مما يعني أن المسألة بالنسبة للمتنبي أكثر من مجرد مدح وأكثر من عملية تكسّب، بل هي شيء آخر، أكثر أهمية وأكبر قيمة؛ لأنها تمتد في واقع الشخصية الاجتماعية التي يتعايش معها المتنبي، ويتأثر بها وتتأثر به، وهو يقودنا إلى ذلك بوضوح وصراحة منذ المطلع الذي يقول فيه:

أَقْضَيْلُ النَّاسِ أَغْرَاضٌ لَدَا الزَّمَنِ يَخْلُو مِنْ أَلْهَمٍ أَخْلَاهُمْ مِنَ الْفِطْنِ

وهذا المطلع كما نرى يطرح قضية عامة يعيشها المجتمع. وتعني أن الفضلاء، أو الصفاة - بلغة العصر - يعيشون في وضع غير ملائم، ويعانون من مرارة الواقع الذي يصطدمون به ويتشاققون معه؛ لأنه لا يحقق آمانيهم العذاب في صنع قيم ناجعة وعلاقات مثمرة، وصاروا مرمي لسهامه الطائشة التي تنال منهم، وتدميهم، بينها العامة والدمماء ممن لا قيم لهم ولا مثل

عندهم يعيشون في راحة وخلو بال، وسعادة تامة! وهذه القضية ليست قضية المجتمع الذي عاشه المتنبي ولا قضية الصفوة فيه، بل هي قضية كل مجتمع يتصارع فيه المثل والنموذج الأسمى، مع الواقع الرديء والسواد الغافل، ولذا نجد المتنبي - باعتباره مثلاً للصفوة، أو صاحب قضية كبرى في الصراع القيمي السائد - يوظف الإيقاع الموسيقي على أكثر من مستوى ليتصاعد بالصراع فناً إلى غايته. فقد اختار لقصيدته «بحر البسيط» وتفعيلاته تنيع قدرًا من الحركة والحرية في التعبير عن حالات نفسية متنوعة ومتعددة، تتلاءم مع جو الصراع القيمي الذي يثيره المتنبي، ثم إن المتنبي قد اختار قافية تعطي لهذا النوع من الصراع ملمحاً خاصاً وإحساساً متميزاً يتمثل في حالة الانكسار أو الأسى التي يشعرها الشاعر، فجاء بالنون المكسورة لتشكيل الحركات الثلاث المتابعة للتفعيلة الأخيرة (تفعيلة القافية) إحساساً حاداً بقسوة الصراع وضراوته، فنخرج بانطباع عام في نهاية البيت، وكأننا خرجنا مع الشاعر مهزومين بعد معركة حامية الوطيس.. ولكنه على كل حال لا يستسلم لذلك الإحباط فيشتأنف إشعال الصراع. ونفخ النار فيه، فنشعر باضطرامه بيتاً بعد بيت، يحمل المראה والمزید منها، خاصة حين ينظر حوله فیرى جيلاً يتساوى فيه الأشخاص: الصفوة والعامّة، فيستشعر المتميز الحساس قسوة الواقع تجاهه وعدم الاعتراف بتميزه وتفرده، بينما أفراد هذا الواقع لا يساوون شيئاً على المستوى الإنساني، وهو ما يجعل المتنبي لا يتعامل معهم إلا لضرورة، ولا يجد في صدره إلا الحقد والضغينة عليهم، ولا يجد في رؤسائهم وزعمائهم أحداً يستحق العشرة والمصادقة. فهؤلاء كالأصنام والأوثان، ومع ذلك يجد في نفسه بعض العذر لهم، لأنهم جهلاء، ويشبههم في جهلهم تشبيهاً طريفاً بالخمير التي بلا أربطة تسحب منها.. وهذا الخط الذي يتفجر غيظاً ومرارة، وطرافة أيضاً على الرؤساء والزعماء، يتلاشى حين يهبط إلى العامة أو السوق أو الصعاليك، حيث يرى مبررات تخلفهم وجهلهم أقوى من مبررات جهل وتخلف السادة، ولذا نجد المتنبي يتعاطف معهم، بل إن نبرته تصبح أكثر ليونة وطبيعية وشعبية أيضاً - وتعود إلى أبياته تلك الموسيقى الداخلية التي اشتهر بها في عدد من أبياته عبر قصائده، خاصة ما يسمى في البلاغة القديمة بحسن التقسيم، بل إننا نستشعر نوعاً من التناغم الصوتي داخل الألفاظ فيما بينها، وبين البيئة التي يتحدث عنها:

ومدفعين بسُرويتٍ صحبتهم عارين من حللٍ، كاسين من دَرَنِ

خَرَّابٌ بادية، غرثى بطونهم مكن الضباب لهم زاد بلا ثمن
يستخبرون فلا أعطيهم خبري وما يطيش لهم سهم من الظن

فهنا الإدقاع والسبروت والعري والدرن والتخريب والبادية والجوع والضباب والزاد الذي
بلا ثمن والاستخبار وسهم الظنون.. كلها مفردات تحمل في داخلها إيقاع الحياة الصعبة،
ومن خلال تركيبها الشعري كما أعطاها لنا المتنبي تنبئنا بإيقاع أكثر شمولاً وتكاملاً، وهو ما
يعطينا في النهاية إحساساً بالأسى أكثر منه إحساساً بالمرارة، كما رأينا في ذكره للملوك أو الزعماء
الذين شبههم بالأوثان.

إن التقارب النفسي بين الشاعر وهؤلاء السوق أو الصعاليك يعطيه المبرر لصحبتهم
ومعاشرتهم رغم طافهم، ويفسر الملوك والزعماء، ويفسر المتنبي هذا المبرر بطريقة
أكثر دقة ووضوحاً حين ينعطف إلى ذاته يستخرجها مكنونها الذي تحفيه، وتشعل من أجله
الصراع مع الواقع الاجتماعي من خلال البحث عن الاعتراف بالتميز والتفرد.. فهو يلجأ إلى
مجالسة من هو أدنى منه مستوى وأقل ثقافة، فيجاريه في مستواه وثقافته حتى لا يشعر جليسه
بتفوقه عليه، أو حتى يشعر بأنه يذله، «فيطبع» العلاقات معه، ويضطر في سبيل ذلك التطبيق
إلى التنازل عن أشياء هامة وعزيزة عليه، وأبرزها الحرص على سلامة اللغة وصحة النطق،
لأنه لو فعل فسوف يكون ذلك وسيلة للتعرف عليه، وهو لا يريد لأحد أن يعرفه، بل بفضل
أن يبقى برّه كما هو:

وخلة في جلس أتقىه بها كما يرى أنسا مثلاًن في الوهن
وكلمة في طريق خفت أعربها فيهندي لي فلم أقدر على اللحن

ولا أحسب «المتنبي» رغم هذه العملية «التطبيقية» التي يواجه بها «القاع» الاجتماعي مؤقناً
إلا مرحلة يعد فيها نفسه لأداء دور يتظره طويلاً، أو ينتظر هو أداءه منذ وقت طويل، وسواء
تمثل هذا الدور في البحث عن مكانة متميزة في المجتمع باعتباره مثلاً للصفوة التي ينبغي أن
تكافأ وتحظى بمكانة لا تفتقر، أو تمثل هذا الدور في استعادة حق يبحث عن استرداده باعتباره
«علوياً» يحمل في حنايا صدره أملاً قديماً كما يذهب إلى ذلك «محمود محمد شاكر»^(٣)، فإن
«المتنبي» يضع أسس أداء هذا الدور وعناصره الفعالة، التي يحددها في الصبر والعزم والإقدام

والجوهر الأصل للعدل، لرسم صورة لتعامله مع المجتمع الذي يشاققه، ويرفع ضده راية السخط والعصيان، أو عدم الرضاغة على الأقل. فالمتنبى يعرف دون رب أن المواجهة مع الواقع الصعب تقتضي عناءً وتضحيةً وبذلاً كبيراً، ويستعين في عرض هذه مقتضيات الكسمة الموروثة والخبرة المكرورة، ولذلك نراه يستخدم بمهارة بعض الأدوات التعبيرية المعينة على تأكيد ما يذهب إليه، ولو نظرنا إلى البيتين التاليين، فسوف ندرك مدى براعته في انسجام هذه الأدوات مع المضمون الذي يرمي إليه:

كَمْ غَلَصَ وَعُلَا فِي خَوْضِ مِهْلَكَةٍ وَقَتْلَةٍ قَرَنْتَ بِالدَّمِ فِي الْجُبْنِ
لَا يَعْجِبُنْ مُضِيماً حَسْرُ بَرْزِهِ وَهَلْ يَرُوقُ دَفِيناً جُودَةُ الْكَفَنِ؟

فاستخدام «كم» الخبرية، يعطينا انطباعاً مرشياً بتصميمه على مواصلة طريقته، ومواجهة الواقع أياً كانت النتائج فالنجاة والوصول إلى العلا لا بد أن تقتربا بخوض غمار المهالك والمحن، وهو ما أثبتته الأحداث على مدى التاريخ. كذلك فإن الصورة المقابلة تفيد أن كثيراً من الجبناء قد قتلوا رغم هروبهم وحرصهم على الحياة، ولنا أن ندرك وقع كلمة «الدم» في الشطر الثاني: «وقتلَةٍ قَرَنْتَ بِالدَّمِ فِي الْجُبْنِ»؛ حيث تعني أن المواجهة رغم كل شيء أكثر شرفاً وعزةً من الهروب الذي يقترب عادة بالموت المهين، أو أخط أنواع الموت! ومن هذا التصور ينطلق الشاعر في البيت الثاني من البيتين السابقين ليضع مقولته عن المواجهة من خلال صورة أخرى يرفض فيها الظلم رفضاً باتاً، وي طرح الصورة من خلال نفي وتساؤل. فالنفي المؤكد بنون التوكيد الثقيلة «لا يعجبُنْ» مظلوماً حسن منظره وملبسه، لا يعني أن قضية الظلم التي يعيشها قد انتهت وتم علاجها، بل هي قائمة، لأن المظلوم يشبه الميت الذي دفنوه في كفن فاخر. وهذا التشبيه هو موضع التساؤل الساخر أو الذي نلمح فيه روح السخرية لدى «المتنبى»: «وهل يرووق دفيناً جودة الكفن؟» فالدفين قد مات وانتهى أمره، والمسألة تستوي لديه سواء دفن في كفن متواضع أو كفن فاخر. القضية إذاً عند المتنبى تعني رفض الظلم والاضيم مهما كانت المبررات، وتعني قبل ذلك وبعده المواجهة وتقديم مقتضياتها مهما غلت وارتفعت ثمنها.

ويقدم «المتنبى» لمسةً ذاتيةً تعبر عما يكابده إزاء واقعه، رغم استعداده للمواجهة وتقديم التضحية اللازمة، فيتعجب من حاله وزمانه، وبأسلوبه المتميز في صناعة الإيقاع الداخلي أو ما

يسمى في البلاغة قديماً بحسن التقسيم؛ نراه يطرح تلك المكابدة من خلال المفارقة التصويرية :

لله حال أرجيها وتُخلفني واقتضى كونها دهري ويمطلي
ولعل المتنبي بهذا البيت يمهّد لجانب من جوانب مكابدته وعذابه النفسي، ويتخذ من هذا الجانب مدخلاً إلى موضوع قصيدته الذي لم يبلغه بعد، وهو مدح أبي عبيد الله أو عبدالله؛ الخصبي قاضي أنطاكية.. هذا الجانب يتمثل في موقف بعض مدحويه منه، فقد مدح قوماً، ولكنهم لم يقابلوا مدحه بما يستحق من المجاملة والتقدير، بل جعلوا ظنه يخيب فيهم، ويستشعر أنه أهدر قصيده لدى قوم لا يحسنون الفهم والتمييز، فتوعدّهم بالهجاء، واستعار لقصائده صورة الخيل المذكرة والمؤنثة وهي تكرر في ميدان القتال، ليعبر عن مدى قسوة هجائه المتظر أو المتوقع :

مدحت قوماً، وإن عشنا نظمت لهم قصائداً من إناث الخيل والحُصن
تحت العجاج قوافيها مضرة إذا تنوشدن لم يَدْخُلْنَ من أذن

وهذه القسوة في الهجاء التي يعدّها «المتنبي» لمن خذلوه بعد أن مدحهم، تنبع من نفس لا ترضى الدنية، ولا تؤخذ على غرة، وهو ما يعبر عنه في ذات الإطار الموسيقي المميز داخل أبياته — حسن التقسيم — مؤكداً إصراره على موقفه وصلابته مهما كانت الأحوال غير مواتية، وهو ما يذكرنا بروح «المتنبي» السائدة في النص، والرافضة للتخاذل والهوان والإغراء على حساب الشرف والكرامة والعزة :

فلا أحارب مدفوعاً على جذر ولا أصالح مغروراً على دخن
غيم الجمع بالبيداء يعهده حرّ الهواجر في صمّ من القنن

ويستعدّ «المتنبي» بعد الأبيات السابقة وقد بلغت عشرين بيتاً (ما ينسب من نصف القصيدة) ليدخل إلى موضوعه الأصلي، وهو مدح الخصبي وسوف نلاحظ أن قوة شخصية المتنبي أو حضوره، طغى على كل ماعداه، فقدم «بازمة» لموقف «المتنبي» من «
باعتباره ممثلاً للصفوة، وقدم أيضاً، صورة عامة تشمل رجال القمة، وأهل القاء رويته

لكل من الطرفين، وموقفه من القيم العامة التي تحرص عليها الأمة، وتمثل جوهر التفكير الحضاري، من خلال أدائه التميز الذي أشرنا إليه في السياق، وعلينا أن نتذكر أن نصف القصيدة الباقية، وهو الخاص بمدح الخصبي لم يخلص للخصبي وحده، بل شاركه فيه المتنبي، والقيم العامة للأمة بطريقة ما.

— ٤ —

يبدو «الخصبي» في نظر «المتنبي» صورة متكاملة لما ينبغي أن يكون عليه القاضي، وإن كان يتحدث عنه بصيغة الفعل الماضي، لإثبات كل القيم الرفيعة والمثل العليا التي تمثل خلاصة التفكير الحضاري للأمة من خلال سلوك «الخصبي» وسيرته في مجتمع «أنطاكية»، ومن ثم، يمكن القول، إن «المتنبي» مدح في شخص «الخصبي» كل ما هو مضيء ومثمر في الحضارة الإسلامية، وهذه مسألة تلمس وترأ حساساً في نفس المتنبي، الذي كان يشغله البحث عما أفرزته حضارتنا من عناصر ساطعة وناضجة، تتلاءم مع طموحه وآماله، حتى لقد بدا «الخصبي» مجرد مثال لونه «المتنبي» بالعديد من الألوان التي تمثل العديد من القيم... وهو ما يُفسر سرّ خفوت عاطفة «المتنبي» وانطفاء حرارته الشعرية في النصف الثاني من قصيدته، بينما كان متوهجاً ومنعماً بالحرارة والحياة في النصف الأول الذي تحدث فيه عن ذاته وعلاقته بالواقع المحيط به، ولعل ذلك يفسر أيضاً إضفاء المتنبي لصفات السابقين على «الخصبي»؛ فالخصبي ليس فريداً في بابه، وإن تجمعت فيه صفات الأولى سبقوا، وهو ما يعني بصورة ما اتصال الحضارة وتوثق عرى سلسلتها الطويلة:

ألقي الكرام الأولى بادوا مكارمهم على الخصبي عند الفرض والسُنن
فهنّ في الحجر منه كلّما عرّضت له اليتامى بدا بالمجد والمنن
وعملية الاتصال الحضاري هذه تمثل الشغل الشاغل للمتنبي في إطار الصراع الكبير الذي يشغله ويملك عليه نفسه ولبه، ولذلك نرى المتنبي يتوقف قليلاً عند صفات القاضي الخصبي، ثم لا يلبث أن يلوي عنقه نحو صفات أعم وأشمل تناغي همّه أو أمله الكبير. .
فالقاضي الخصبي يمثل الرجل الذكي الذي لا يلتبس عليه الأمر، وإن التبس على غيره، فهو ذكي إلى درجة تخلص «الماء» من «اللبن»، وهو رجل تقّي رغم أنه يتمتع بفتوة الشباب وحيويته، وهو رجل زاهد لا يشرب ولا يأكل إلا لما تقتضيه ضرورة الحياة ويتطلبه الجسم،

المتنبى يبحر الخصبي

فليس أكولاً ولا شرهاً ، وهو رجل صادق ، سرّه مثل علنه ، وهو رجل رقيق يفصل في الأحكام بقدرة ووحي ، ورجل يملك مثل هذه الصفات الشخصية يحتاج في نظر المتنبى إلى صفات عامة موروثه تمثل عملية الاتصال الحضاري ، وإن كانت هذه الصفات الشخصية تحمل بصورة ما موروثاً حضارياً ، فكل عربي مسلم يسعى إلى التحليّ بها ، وحمل ملاحظها .

والصفات العامة الموروثة التي يضيفها المتنبى على ممدوحه الخصبي ، ترجع إلى أجداده وأهله ، وإن كان قد حاول أن يجعل منه شخصية مستقلة عن أجداده وأهله . . فهو - أي المتنبى - يجعل أفعال الخصبي تنسب إلى أجداده ، وتعرّف الناس بأصله وجذوره : أفعاله نسب لو لم يقل معها جذّي الخصيب عرفنا العرق بالغُصْنِ بل إن «المتنبى» يضعه في دائرة الكرم من خلال نسبه ويؤكد بها بتكرار وإيقاع يميزان موهبة «المتنبى» الفنية ، فيقول :

العارض الهتن ابن العارض الهتن اب ن العارض الهتن ابن العارض الهتن
ولا أعتقد أن هذا التكرار قد جاء لمجرد «اللّعب الموسيقي» - إن صح التعبير - ولكنه أتى به ليؤكد ما سبقت الإشارة إليه من عملية التواصل الحضاري ، وليضع الممدوح في دائرة أكبر ، هي دائرة الحضارة العربية الإسلامية بعطائها الثرّ ، ومجالها الرحب . ولذا ، ما يكاد «المتنبى» يتصل بهذه الدائرة من خلال نسب الخصبي ، حتى يعود إلى الإلحاح على ذكر الأجداد الأصول ، ويغدو إلى ذكر أفضالهم ومفاخرهم وصفاتهم وملاحظهم ، وهي كلها تـمـا يشغل المتنبى على المستوى الشخصي ، ويحلم به ، أو يحلم برؤيته محقّقاً في عالم الواقع الذي بدأ نصيبته بهجائه والنيل منه :

وإنما نحن في جيل سواسية شرّ على الحرّ من سقم على بدني
حولي بكلّ مكان منهم خلّق تخطى إذا جئت في استفهامها بمن
على العكس من هؤلاء الناس ، يأتي أجداد الخصبي وأصوله ، فهم علماء ، أذكاء ، شجعان ، ويصوّره المتنبى من خلال تشبيهات طريفة ومبتكرة :

قد حيرت أول الدنيا أواخرها آباؤه من مُغارِ العِلْمِ في قرن

كأنهم ولدوا من قبل أن ولدوا أو كان فهمهم أيام لم تكن
الخاطرين على أعدائهم أبداً من المحامد في أوق من الجنين

ولعل المبالغة التي نستشعرها في صور المتنبي داخل هذه الأبيات تعود إلى رغبته العارمة في
رؤية الصورة المخالفة لواقعه التكدر، فربط الأباء بعالم تغير الدنيا، وتصوّره لوجودهم قبل
وجودهم الحقيقي ووجود فهمهم قبل أن يوجد الفهم، واستشعار الأعداد لوجودهم
 باستمرار. فيه الكثير من المبالغة أو الإحساس بها، ولكنه يوظفه باقتدار ليصل إلى مقولته عن
«المحامد» وتأثيرها الفعال في بناء القوم، وحمايتهم من أعدائهم، وبروز شخصيتهم على
الساحة الاجتماعية كأبى وأنصع ما تكون.

وهذه المبالغة أو الإحساس بها، نجدها مستمرة في حديثه المستأنف عن «الخصيي»، ولكنه
يوظفها أيضاً لينقل إلينا الصورة/الحلم للمجتمع الذي يحلم به، فهو يصوّره كريماً يجعل
الناظرين إليه يفرحون بتقدمه، وتزول الغضائفة والعبوس من جباههم، ويشبه كرمه هذا
«بالمفتق» الذي يسع أو يحتوي أرض الروم واليمن معاً، ويشبه أيضاً بالرمز الذي لا يضع
منه إلا القليل والبحر الذي لا تؤثر في مائه الريح والسفن، والليث الذي لا يؤثر في قوته قبح
منظره. . ومن خلال هذه الصور المتتابعة التي جعلت من الخصيي مصدر بهجة وسعة وندى
وعظمة وقوة. . الخ يقدمه «المتنبي» في صورة «المُعبر» الذي يحقق الصورة الحلم، فمنذ تولي
القضاء في «أنطاكية» فقد تحقق فيها العدل والاستقامة والهدوء، لدرجة أن تراضخت جبالها
واستسلمت لمنهج، وفي هذا من المبالغة ما فيه، كما أن الأسواق بفضل «الخصيي» خلت من
الصناع والعمال الذين يحترفون المهن والأعمال المتواضعة، فقد أغناهم عن العمل والجهد، وإن
كان هذا بمقاييس العصر الراهن غير مقبول، وإسلامياً أيضاً غير مقبول، وأحسبه قد تأثر بنظرة
بعض العرب إلى الأعمال البسيطة أو الحرف المتواضعة مثل الحلاق والحجام والخباز والبيّاع. .
ولكنه يريد بصفة عامة أن يدلّل على كرم مدوحه الذي أعفى هؤلاء القوم من الجهد والنظرة
المتعالية :

منذ احتيت بأنطاكية اعتدلت حتى كان ذوي الأوتار في هُدي
ومدمرت على أطواها قرعت من السُجود فلا نبت على القُن
أخلت مراهيك الأسواق من صنع أغنى نذاك عن الأعمال والمهن

وإذا كانت بعض الصور تجعلنا نشعر بالمبالغة، فإن المتنبي قد وضع صوراً أخرى في غاية الدقة والتفوق والبساطة أيضاً، مثل صورته التي يصور فيها «الخصيبي» جواداً لا يثق في الزمان، ولا يؤمل في الدنيا، فهذه صورة بسيطة، ولكنه يضعها في إطار عميق ودقيق وسهل أيضاً :

ذا جودٌ من ليس من دهرٍ على ثقةٍ ورُهدٌ من ليس في دنياه في وَطَنِ
بيد أن المبالغة أو الإحساس بها يبقى هو الطابع العام الذي يغلف القصيدة، ويبقى حتى النهاية في إطار مقبول، تبرره الصورة/الحلم التي يتوق إليها من أجل دافع جديد. ولكن المبالغة في ختام القصيدة رغم صياغته الفنية الجيدة تتحول إلى نوع من التطرف قد يجابه بالرفض غالباً، لأن المتنبي يكاد يخرج بمدوحه الخصيبي عن مرتبة البشرية المتفوقة إلى مرتبة أخرى، وذلك حين يصفى عليه صفة الهية والقداسة :

وهذه هيبةٌ لم يؤتها بشرٌ وذا اقتدار لسانٍ ليس في المتنبي
فَمُرْ وَأُمِرْ تُطْعَمُ قُدْسَتْ مِنْ جَبَلٍ تبارك الله يُجْرَى الرُّوحُ فِي حَضَنِ
ومهما يكن من أمر، فإن المتنبي استطاع أن يشغل النصّ بشخصه وهمّه وأمله، واستطاع أن يقدم صورة مدوحه رغم المبالغات والإغداق عليه بالصفات الشخصية والعائلية؛ في إطار متواضع، بحيث رأينا صورة المتنبي أطول قامة من صورة الخصيبي، وهو ما يعطينا في النهاية الإحساس بأن الشاعر، كان يكتف في قصيدته المادحة قيماً عامة ومثلاً حضارية، وصراعاً ذاتياً يدور داخل الشاعر بين الواقع والحلم.

- ٥ -

لا ريب أن هذه القصيدة تطرح أكثر من ظاهرة فنية، قد تنسحب على معظم شعر المتنبي، ولعلنا رأينا إشارة مقتضبة إلى بعضها في السياق عند تناول الأبيات، ولكننا سنكتفي بالحديث عن ثلاث ظواهر ترتبط باللغة والإيقاع والصورة.

فالمتنبي قد تعامل مع اللغة، تعامل المسيطر عليها؛ المحب لها. وهناك فارق بين من يعتبر اللغة مجرد وسيلة لتوصيل الفكرة، وبين من يعتبر بهذه الوسيلة، ويرى فيها منابع عطاء ثرّ

ومتدفق للجمال الفني.. وقد كان «المتنبى» في قصيدته متفاعلاً مع اللغة إلى درجة أن استخدم بعض الاشتقاقات أو الصيغ التي لم يسمع بها في مثل قوله: «العارض اهتن» فقد سُمِعَ «اهْتَن»، ولكن لم يسمع «اهْتَن» قبل صياغة المتنبى لها^(٤). ولعل إشاراته المتعددة في ثانيا النص إلى اللغة إعراباً وبياناً توضح لنا مدى اهتمامه باللغة وشأنها.. فهو حين يصف أهل زمانه يصفهم بعدم العقل، ويخطئ من يستخدم «من» في السؤال عنهم، لأن «من» تستخدم للسؤال عن العاقل، و«ما» لغير العاقل:

حَوَّلَ بِكُلِّ مَكَانٍ مِنْهُمْ خَلْقٌ تَخْطَى إِذَا جِثَّتْ فِي اسْتِنْهَامِهَا بَيْنَ!
بل إنه يفاخر بقدرته على البيان والإعراب، ويعرض لذلك في مجال الحديث عن تعامله مع من لا يعرفهم. ويريد أن يتقهم بالسكوت عن النطق الصحيح حتى لا يكشفوا هويته، فيقول:

وَكَلِمَةٍ مِنْ طَرِيقٍ خَفْتُ أَعْرِبَهَا فَيُهْتَدَى لِي فَلَمْ أَقْدِرْ عَلَى اللَّحْنِ
وتبدو قدرة «المتنبى» واضحة في استخدام المفردات من خلال طواعية ومهارة^(٥)، لا يستشعر معها القارئ أدنى افتعال أو تنافر أو «معاظلة» — كما كان يقول القدماء — بل إنه يحقق من داخل الجملة الشعرية ما يمكن تسميته «بالهارموني» أو التناغم بين المفردات سواء كانت فعلاً أو اسماً أو حرفاً، يساعده على ذلك إحساس فطري بقيمة ائتلاف المقاطع الصوتية المتجاورة، وهذا التناغم، لا يقتصر على الجملة الشعرية وحدها، بل ينسحب على البناء الشعري للقصيدة كلها، وهو ما يقودنا إلى الظاهرة الثانية التي ترتبط بالإيقاع في القصيدة.

فالإيقاع هنا لا يتوقف عند حدود الصياغة الخارجية للأبيات، بل إنه ينبع من داخلها ويفيض خارجها. فالشاعر قد اعتمد على تفعيلات بحر البسيط (مستفعلن فاعلن)، واستطاع من خلال كامل البسيط أن يسط مشاعره وأحاسيسه وهمومه وآماله، واختيار البسيط ليس نابعاً من مصادفة — فيما أرى — بل له علاقة وثيقة بموضوع القصيدة، وهو موضوع أقرب إلى الشجن والحديث الذاتي أكثر من قربه من الموضوع الأصلي وهو «المديح»، وقد رأينا فيما سبق كيف توهجت شخصية «المتنبى»، وسطعت، وتقاشرت دونها شخصية «الخصيبي» أو

الممدوح.. ومن ثمّ، فإن بحر البسيط أتاح له أن يعبىء قدراته وإمكاناته وموهبته الفنية، ليعبّر عن عاطفته الحادة التي تتمرد على الواقع، وتطمح إلى تغييره، بكل ما يصاحب هذه العاطفة من حالات مدّ وجزر، وصعود وهبوط، ورضا وسخط، وأمل وألم، وظهور واختفاء، وإفضاء وكتمان، وحب وكره.. ولعل ذلك كله يتوافق مع ما يصاحب بحر «البسيط» من خبن وقطع، أو مرونة تتلاءم مع موضوع النصّ..

وإذا كان «المتنبي» قد عرف كيف يمتطي صهوة «البسيط» من خلال موسيقاه الخارجية، فإن توظيف اللغة، خاصة ما أشرنا إليه من قبل عن الإحساس الفطري بالمقاطع الصوتية المتجاورة، قد حقق للقصيدة موسيقاها الداخلية التي تبدو - كما قلت - أكثر هيمنة وسطوعاً عبر الأبيات، فالمتنبي، عرف كيف يوائم بين الألفاظ، وتركيباتها الداخلية، وتجاورها في تركيبات الجملة الشعرية، وربط الجمل الشعرية بعضها ببعض، لدرجة أننا نجد لديه ظاهرة قد ينفرد بها مع أبي تمام دون غيرها من شعراء عصرهما، وهي ما عرف بحسن التقسيم، وقد أشرنا إلى ذلك في ثنايا تناول الأبيات، ولكننا نشير إلى بعض الأبيات للتفكير. انظر مثلاً قوله :

فقر الجهول بلا عقلٍ إلى أدب فقر الحمار بلا رأس إلى رسن
أو قوله :

لله حال أرجيها وتحلفني وأقتضى كونها دهري ويمطلي
أو قوله :

كأنهم ولدوا من قبل أن ولدوا أو كان فهمهم أيام لم يكن

وإذا كان «حسن التقسيم» يبدو لدى المتنبي ظاهرة موسيقية داخلية تعتمد على الطباق والمقابلة غالباً، فإنه قد جعل من «القافية» النونية دور «الماسترو» في الإيقاع بصفة عامة، فالقافية تنتهي بنون مكسورة، وتتلاءم مع جوّ الشجن وحديث النفس الذي يغلف القصيدة كلها، ووجودها لا يمثل «القفلة» الموسيقية المتماثلة أو الرتيبة، وإنما يقوم بدور التعميق لإحساس الانكسار الذي يعانيه الشاعر، والإحباط الذي يجده على أرض الواقع.. وأحسب «المتنبي»،

رغم ذكره لممدوح تتحقق فيه الصفات التي يرجوها في أهل زمانه — وهو الخصيبي — قد قدم بكائيَّة وظف لها اللغة والإيقاع بحرًا وقافية، ليُشعر متلقَّيه بإحساسه الحادَّ بالحياة أو الواقع من حوله.

كذلك فإنَّ الصورة تلعب دوراً هاماً، خاصة الصورة المعتمدة على المجاز بألوانه، في إبراز مشاعر المتنبي وعواطفه، بل تلعب دوراً أساسياً في صنع الموسيقى الشعرية للنصِّ. وإذا كانت الصورة تعتمد على المبالغة بصفة عامة، إلا أنها مبالغة مقبولة، وتتفق مع تأجيج عاطفة المتنبي وإحساسه بالانكسار أو الإحباط، ولعلَّ مقابلات المتنبي — وطباقه أيضاً — تسهم في صنع المفارقة التصويرية بين واقع يرفضه، ومستقبل يحلم به، ونظرة إلى النصف الأول من النصِّ وما حفل به من تصوير للواقع وأناسه الذين في القمة أو القاع، يوضح لنا لماذا أغدق في النصف الثاني من النصِّ الصور المبالغ فيها على «الخصيبي» وآله، وأسبغ عليهم من ملامح الكرم والبطولة والشجاعة والعلم والهيبة والذكاء والاقتدار والعظمة... الخ؟ وهذه المفارقة التصويرية العامة بين الواقع والحلم، تآزرها العديد من المفارقات الدقيقة داخل الأبيات لإظهار المعاني الجزئية. ولنقرأ مثلاً قوله:

شرابه الشح لا للرِّيَّ يطلبه وطعمه لقوام الجسم لا السُّمن
أو قوله:

الفاصل الحَكَمَ عَى الأولون به والمظهر الحقَّ للسَّاهي على الدَّهن
أو قوله:

قد صيَّرتُ أوَّل الدنيا أواخرَها آباؤه من مغار العلم في قرن
ونلاحظ أن «المتنبي» قد استعان «بالجملة الخبرية» بغزارة، وقد حملت هذه الجملة أكثر من دلالة تصويرية أسهمت بصفة عامة في توثيق المعاني التي ألحَّ عليها، وأعطت للصورة عند «المتنبي» ملامح واضحة وقاطعة.

ويعد:

فإنَّ «المتنبي» لم يكن في قصيدته مجرد واحد من المداح الذين ينتظرون النوال من الممدوح،

وإنما كان باحثاً عن شيء أكبر يرتبط بروح الأمة وقيمها، ويلمس وترأ شخصياً لديه؛ حيث كان يضمنه زيف الواقع، وانتظار الحلم الجميل الذي يغير هذا الواقع. . وقد استطاع المتنبي أن يعبر بإمكاناته وقدراته وموهبته الفنية عن همه وأمله في إطار من الفن الرفيع، والتعبير الراقى.

٢ - سواسيه: متساوون في الشر ٤ - أقرى: أتبع - غرر: خطر - مضطرب: حائد ٥ - أملاكهم: جمع ملك ٦ - أي: أقر من الفتن ٧ - رسن: حبل تشد به الدابة ٨ - مدقعين: فراء - سبروت: أرض جرداء - درن: وسخ وقدر ٩ - خراب: جمع خارب، سارق الإبل خاصة - غرني: جمع غرثان وهو الجائع - مكن: جمع مكنة وهو بيض الضب ١١ - نخلة: نخلة مدمومة ١٢ - الإعراب: التبيين ١٣ - نازلة: الحادثة والمصيبة ١٤ - تخلص: نجاة ١٥ - مضيقاً: مظلوماً - برّة: لباس حسن ١٦ - تخلفني: من الإخلاف ضد الإنجاز - المثل: تردد الغريم ١٧ - الحصن: جمع حصان، الذكر من الخيل ١٩ - الدخن: الفساد والعداوة في القلب ٢٠ - الهواجر: جمع هاجرة، البيداء: الأرض البعيدة ٢١ - بادوا: هلكوا ٢٢ - الحنجر: المنع ٢٣ - التيس: اختلط - عن: ظهر ٢٤ - غضى: طوى - بجانب: بعيد عن النظر ٢٥ - الشح: القليل ٢٧ - الدخن: الفطن الذكي - عن: عجز ٢٩ - عارض: سحب - هتن: كثير الصب ٣٠ - منار: الخيل الشديد الفتل - القرن: الخيل ٣٢ - الجنز: جمع جنة وهي ما استتر به من السلاح - المحامد: جمع حمدة، وهي ما يحمده به الإنسان من فعل ٣٥ - لشتى: اللشق: الوحل الذي يبقى من أثر السحاب - المزن: جمع مزنة، وهي السحاب. ٣٧ - احتيت: جلست عتياً للحكم - هذن: جمع هدنة وهي السكون بين المتحاربين ٣٩ - الصنع: الحافق. ٤١ - المتني: جمع منه وهي القوة - البشر: الخلق ٤٢ - حصن: جبل بأعلى نجد.

الحواشي:

(١) اعتمدنا في هذا النص على ما ورد في شرح أبي البقاء البكري لديوان الشبي المسمى «بالتيان في شرح الديوان» بتحقيق مصطفى السقا وآخرين - والمقصيدة على صفحات ٢٦٩ - ٢٢٠ من الجزء الرابع (دار المعرفة بيروت)، واعتمدنا أيضاً على ديوان المتنبي طبعة هندية - القاهرة ١٩٢٣، والمقصيدة على صفحات ١٣٠ - ١٣٤، مع ملاحظة اختلاف بعض الألفاظ في الطبعين.

(٢) هنالك رأي جيد في هذه القضية تضمنته مقالة محمد صلاح الدين فضل «رأى جديدي في أشعار المديح» (مجلة الأزهر - جمادى الآخرة ١٣٨٣هـ - نوفمبر ١٩٦٣م) وقال فيه إن شعر المديح كان متنفساً طبعياً. وطريقاً مشرقاً في المجتمع العربي القديم يحكم بنائه السياسي والاقتصادي والحضاري بصمة عامة وأنه قام بدور خطير في إحياء نائل العليا من جانب وضمان حياة إنسانية رغيدة للشعراء من جانب آخر. ص ٤٦٧.

(٣) يرى الأستاذ عمود محمد شاكر أن المتنبي علوي النسب، ويستند في ذلك إلى شعره وتعلمه في كتاب لعلويين، وأن موضوعه كانت علوية، وأن شعره في رثاء جدته خاصة يقود إلى هذا التفسير (انظر كتابه المتنبي الذي نشرته كعدهد خاص مجلة «المقتطف» عدد يناير ١٩٣٦ - ص ٤١ - ٥٤) والجزء الأول من كتابه الذي صدر باسم المتنبي عن مطبعة المدني بالمسبسة - القاهرة - ١٩٧٦م.

(٤) انظر رأي ابن القطاع في شرح المبكر ج ٤ - ص ٢١٦/٢١٧.

(٥) تناول الدكتور عبده بدوي بعض الظواهر الأسلوبية في شعر المتنبي بتفصيل في بحثه الذي نشرته مجلة بصور (المجلد الرابع - العدد الثاني - ١٩٨٤، ص ١٩٥، انظر الفقرة الرابعة المتعلقة بالانطباع على وجه الخصوص.



القرآن المنهج العلمي المعاصر

لأستاذ عبد الحليم الجندي * * عرض وتلخيص د. محمد شوقي الفنجري

عرفتها الإنسانية حتى اليوم .

ولقد أظهر الكاتب بجلاء كيف انه بفضل هذا المنهج القرآني ، ظهر على امتداد العالم الإسلامي بآسيا وافريقيا وأوروبا (الأندلس) أئمة وعلماء مسلمون جهابذة في مختلف ضروب العلم وأنشطة الحياة . وتميزوا بأنهم كانوا علماء «ربانيين» لا يستهدفون من بحوثهم واجتهاداتهم سوى وجه الحق تعالى ثم الصالح العام . وانه لم يبن المسلمون ويضعفوا ، إلا حين حادوا عن المنهج القرآني وبعُدوا عن روح الإسلام .

ولقد دلل الكاتب بما فيه الكفاية على أن

كتاب (القرآن والمنهج العلمي المعاصر) ، هو من أواخر مآصدر للمؤلف حديثاً في ختام عام ١٤٠٤/١٩٨٤ ، ونشرته دار المعارف بالقاهرة ، ويقع في «٣٥٣» ثلاثمائة وثلاثة وخمسين صفحة من الحجم الكبير . فجاء هذا الكتاب في قمة مؤلفاته الإسلامية ، إذ هو خلاصة قراءاته الواسعة واجتهاداته الكثيرة خلال نصف قرن . وهو في حقيقته موسوعة إسلامية موثقة ، وإن جمعها رابطة واحدة هي بيان المنهج القرآني والذي التزم به المسلمون في عهودهم الأولى فكانت لهم العزة والتقدم ، وصارت لهم حضارة تجاوزت كافة الحضارات التي



واستقراء المشاهدات وعلل الأشياء ، والبحث في الأرض والسماء واستعمال العقل للاعتبار ، توصلاً للإيمان والارتفاع بالنفس والسلوك والحياة إلى مستوى التقوى بدافع الخشية والرجاء في الله تعالى . فأيات القرآن — كما عبر بحق الكاتب في صفحة ٥٠ — تتنادى (تأملوا الحقائق وستقودكم الحقائق إلى الإيمان) .

وصدق الله العظيم حيث يقول (إن في خلق السموات والأرض ، واختلاف الليل والنهار ، والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس ، وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها ، وبث فيها من كل دابة ، وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض ، آيات لقوم يعقلون — البقرة / ١٦٤) ، وقوله تعالى : (وفي الأرض آيات للموقنين ، وفي أنفسكم ، أفلا تبصرون — الذاريات / ٢١) . بل ينذر القرآن الغافلين بقوله تعالى (ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والإنس لهم قلوب لا يفقهون بها ، ولهم أعين لا يبصرون بها ، ولهم آذان لا يسمعون بها ، أولئك كالأنعام بل هم أضل ، أولئك هم الغافلون — الأعراف / ١٧٩) ، وقوله تعالى : (ومن كان في هذه أعمى ، فهو في الآخرة أعمى وأضل سبيلاً — الاسراء /

المنهج العلمي المعاصر الذي نسب إلى المفكر الانجليزي فرنسيس بيكون (١٦٢٦م — ١٦٦١م) ، إنما أخذ عن علماء المسلمين حيث انتقل المنهج الإسلامي إلى أوروبا من خلال الأندلس (اسبانيا) وصقلية (إيطاليا) . ولكن هؤلاء جردوه من صبغته الربانية وأهدافه السامية ، فكان هذا الإضطراب والتخبط الذي تعانيه الإنسانية ، وكان ذاك القلق والصراع الدموي الذي يتجرع عالمنا المعاصر موارثه .

وليس لهذا العالم من نجاة أو عزة ، إلا بالعودة إلى المنهج القرآني بجناحيه التجريبي والإيماني .

المنهج القرآني :

لقد كان المنهج السائد قبل ظهور الإسلام ، هو المنهج اليوناني (منطق أرسطو) المبني على الفروض لاعلى المدركات الحسية (الاستقرائية) ، فهو منهج نظري فرضي بحث يبدأ بالعموميات «المرسلة» ليصل إلى الجزئيات ويكرر النتائج في المقدمات ، وبسببه تجمد فكر اليونان واتباعه أوقف المنهج الكنسي التقدم العلمي . بخلاف الأمر في الإسلام ، فقد جاء القرآن بمنهج التأمل في الكون والطبيعة

العلمية» فبين طريقة التسوية بين المتأثرين والفرقة بين المختلفين... فأنزل على القلوب من العلم ما تزن به الأمور حتى تعرف التأثر والاختلاف وتضع من «الآلات الحسية» ما يحتاج له في ذلك، كما وضعت موازين النقد وغير ذلك. قال الله تعالى: (والسما رفعها ووضع الميزان ألا تطفوا في الميزان) فالميزان هو العدل، وما يعرف به العدل وهو القياس القرآني المنزل ليتعرف به صحيح الفكر من باطله بالإضافة إلى أن تزن الأمور عامة «حسية» أو «عقلية».

كما ينقل في صفحة ٥٣ عن الإمام محمد عبده قوله: «فالوا إن يكون هو أول من جعل التجربة والملاحظة قاعدة العلوم العصرية ذلك حق في أوروبا، وأما عند العرب فقد وضعت هذه القاعدة عندهم لبناء العلم عليها في أواخر القرن الثاني من الهجرة، لقد نقل جوستاف لوبون عن أحد الفلاسفة الأوروبيين أن القاعدة عند العرب «جرب وشاهد تكن عارفاً»، وعند الغربي إلى ما بعد القرن العاشر من التاريخ المسيحي: «اقرأ الكتب وكرر مايقوله الأساتذة تكن عالماً».

موسوعة علمية إسلامية :

وللدلالة على المنهج العلمي في القرآن

٧٢). وينعى القرآن على من يتبعون الظن بقوله تعالى (وما لهم به من علم إن يتبعون إلا الظن وإن الظن لا يغنى من الحق شيئاً - النجم / ٢٨) . وقوله تعالى : (قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين - البقرة / ١١١).

وينقل المؤلف في صفحة ١٥٣ عن الإمام القزويني أن آيات القرآن تتواتر بالدعوة إلى النظر في السماء والأرض وسائر المخلوقات وأن (المراد من النظر التفكير في المعقولات والبحث في «المحسوسات»... وأن هذا النظر لا يتأني إلا لمن له خبرة «بالعلوم والرياضيات» وبعد تحسين «الأخلاق» وتهذيب النفس).

وينقل المؤلف في صفحة ٩٢ و ١٩٩ عن شيخ الإسلام ابن تيمية قوله (ليست العلوم النبوية مقصورة على مجرد الخبر كما يظن ذلك من يظنه من أهل الكلام ويجعلون ما يعلم بالعقل قسيماً للعلوم النبوية، وهذا خطأ. إن العلم هو علم محمد ﷺ، وعلم في ميراث محمد ﷺ. لقد بين ﷺ غنماً دوره للرسالة العظمى، العلوم العقلية التي يتم بها إيمان الناس وضرب الأمثال وكانت الفطرة بما يشتهى عليه. ولذلك أتى الخبر من السماء: القرآن والحديث، بهذا بين الحقائق لا بطريقة خبرية فقط بل «بالمقاييس

بغير دليل ، ويصاحب مجادله في طريق الاستقراء الملى بآيات الله المألقة للاحاساس الرافعة قلوب البشر من عمق الغفلة إلى مستوى العلم .

٢- الإمام أبو حنيفة سنة ١٥٠ هـ :

ونراه يجيب مجادليه في وجود الله بقوله (إذا لم يجر في العقل وجود سفينة مشحونة بالأحمال مملوءة بالأمثلة والأثقال تجري مستوية عارفة طريقها في لجة البحر ، من غير متعهد أو مجر لها ، فكيف يجوز قيام هذه الدنيا على إختلاف أحوالها من غير صانع وحافظ ومحدث لها ؟) .

٣- جابر بن حيان سنة ١٦١ هـ / ٧٧٨ :

وهو تلميذ الإمام جعفر الصادق ، ويعتبر أول كيميائي في التاريخ وإمام التجريبيين في جميع العصور ، وهو القائل (إياك أن تجرب أو تعمل حتى تعلم وبحق أن تعرف الباب من أوله إلى آخره بجميع تنقيته وعلمه ، ثم تجرب ليكون في التجربة كمال العلم) ، ويقول (اتعب أولاً تعباً واحداً ، واعلم فإنك لا تصل ، ثم تصل إلى ماتريد... وما افتخر أحد بكثرة العقاقير ولكن بجودة التدبير ، فعليك بالرفق والتأني) .

الذي هو منهج تجريبي عملي يستخرج الخصائص والصفات ويحكم إليها ، وينتقل من المعلوم اليقيني إلى المجهول المستكشف في كل أبواب المعرفة واختبارات المواد دون أن يقتصر على ما يسمى بالإجتهاد الشرعي ، حتى لقد تولد على يد الإمام الشافعي (٢٠٤/١٥٠ هـ) في القرن الثاني الهجري ما أسماه بـ «علم أصول الفقه» ، وتولد على يد الجاحظ (٢٥٥ هـ) في القرن الثالث الهجري ما أسماه بـ «علم التجربة» .

نجد الكاتب للدلالة على هذا المنهج العلمي الذي جاء به القرآن ، يتقل بنا خلال الصفحات من ١٠٣ إلى ١٦٦ بين أئمة وقادة الإسلام ، يستوي في ذلك أئمة الدين والفقه والمتكلمين ويختار منهم خمسة أمثلة ، أما أئمة العلوم التطبيقية من رياضة وكيمياء وفلك وطب وموسيقى فيختار منهم خمسة عشر عالماً . وللأهمية نشير إليهم باختصار فيما يلي ، منتقين في سطور وجيزة أهم ماعرف عنهم وكذا بعض مواقفهم متأثرين بمنهج القرآن :

١- الإمام جعفر الصادق سنة ١٤٨ هـ :

ونراه يتبع الاستقراء لاستنباط وجود الخالق من مخلوقاته ، ويستعمل دليل الشاهد على الغائب وينهى عن اتباع قول

٤ - الخوارزمي ٢٣٥هـ / ٨٥٠م :

وهو عالم الرياضة والجبر والكسور العشرية وعن طريقه عرفت أوروبا الأرقام الهندية وعلم الجبر، حتى أن اصطلاح «لوغاريتم» عرف باللاتينية عن اسمه ، ويقول كاجورى مؤرخ الرياضيات (إن القوى العجيبة في علم الحساب والجبر واللوغاريتمات تعزى إلى العرب) .

٥ - الكندي ٢٥٢هـ / ٨٧٨م :

وهو فيلسوف العرب وأستاذ اللغة العربية وعالم الهندسة والفلك والكيمياء والطبيعة والموسيقى . ويقول عنه روجر بيكون (إن الكندي والحسن بن الهيثم في الصف الأول مع بطليموس) ، ويقول عنه الإيطالي كاردانو (إنه واحد من الاثنى عشر عبقرى الذين ظهروا في العالم) .

٦ - الجاحظ ٢٥٥هـ / ٨٦٨م :

وهو أديب اللغة العربية وزعيم فرقة من فرق المعتزلة تسمى الجاحظية . ولم تشغله معاركه الفكرية من مخالطة أهل الفن ليتحدث عن تجاربهم ، بل وإن يجمع الحيوانات والطيور ويضعها في أواني زجاجية ليراقب سلوكها إذ تجتمع ، وقد يقر بطونها ليعرف ما فيها .

٧ - أبو بكر الرازي ٢٣٠هـ / ٩٢٥م :

ويسميه المؤرخون «جالينوس العرب» . ولما مرضت عينه وطلب إليه الطبيب خميسة دينار لعلاجيه . تعلم الطب وأصدر كتاب (من لا يحضره الطبيب) ليخدم العاجزين عن أجور الأطباء . وهو أول من أجرى تجارب على القردة واستعمل الخيوط المصنوعة من أمعاء الحيوانات في خياطة الجروح إذ جرب تفاعلها الكيميائي مع الجسم وامتصاصه لها . وهو أول من استنبط أثر الموسيقى لا لدفع الملل فحسب وإنما للشفاء من بعض الأمراض مع إضافة بعض العقاقير .

٨ - المسعودي ٣٤٦هـ / ٩٥٦م :

وهو مؤرخ وعالم جيولوجي وفلكي ، وأول من تكلم عن كروية الأرض ودورانها حول الشمس ودوران سائر الأفلاك في الكون . ومن فكره الثاقب اقتراح تغيير الطبيعة بوصل البحرين الأبيض والأحمر بقناة ، وهو ما حققه المصريون بعد ثمانمائة عام . وكان أول من أثبت أثر البيئة والأوضاع الاقتصادية على الإنسان والسلوك ، والعلاقة الوثيقة بينهما ، حتى اعتبره ابن خلدون «إمام المؤرخين» .

٩ - أبو الريحان البيروني ٣٥١هـ/٦٩٥م : عن عطاء الخليفة .

ويقول عنه الدكتور مصطفى نظيف مدير جامعة عين شمس في منتصف هذا القرن (ينبغي أن تستبدل بأساء روجر بيكون ومورليكوس وكيلرودي لابورا ، اسم الحسن بن الهيثم ، فعلى يده أخذ علم الضوء وجهة جديدة بمنهج الإسلاميه وهو الجمع بين الإستقرار والقياس ، وأن أمره في علم الضوء ليس بأقل من أثر نيوتن في الميكانيكا) .

١١ - ابن سينا ٣٧٥ - ٤٢٨هـ :

وقد ألف في الأدب والفقه والفلسفة والعلوم والفلك والطب والموسيقى عدد ١٠٧ مؤلفاً ، وكان يقول (كلما تحيرت في مسألة ، صليت وابتهلت إلى مبدع الكل ، حتى فتح لي إلى المتعلق وتيسر المتعسر) .

وكان كتابه الموسوعي في الطب (القانون) كما سجل وليم أوسلر هو (الإنجيل الطبي لأطول مرة من الزمان لجامعات أوروبا حتى سنة ١٧٠٠م منذ ترجمه جيرار الكريمني إلى اللاتينية في القرن الثاني عشر للميلاد ، ثم طبع أكثر من خمسة عشر طبعة بمختلف اللغات الأجنبية) . وبلغ تأثير ابن سينا في علماء أوروبا في القرون الماضية منذ القرن الثالث عشر الميلادي قول رينان (أن الخبر

وهو موسوعي المعرفة فقيه وأديب فلكي ورياضي وكيميائي وطبيعي ، وكان يرى العلم عبادة حتى أنه حين أهدى إليه السلطان جبلاً محملة فضة ، وزعها على الفقراء قائلاً إنه يخدم العلم لا المال . ودخل عليه في مرض موته أحد فقهاء عصره فسأله كيف قلت لي يوماً حساب الجدات الفاسدة (ميراث الجدة لأم) ، فلما لاحظ شفاقه عليه قال له (يا هذا أدع الدنيا وأنا عالم بهذه المسألة ، ألا يكون خيراً من أن أخليها وأنا جاهل بها) .

١٠ - الحسن بن الهيثم ٣٥٤هـ/٩٦٨م :

وهو مكتشف علم الضوء وأول من خطا نظريات اقليدس وبطليموس في أن العين ترسل أشعة بصرية ، وأخذ بنظرية أن الجسم المرئي هو الذي يرسل أشعته ، ويستخدم مصطلحات القرآن والفقه الإسلاميه فيقول في رسالته عن الضوء (هذا المعنى يفسد عند السبر والإعتبار) . وللحسن ابن الهيثم عدد ٤٧ كتاباً في الرياضيات و عدد ٥٨ كتاباً في الهندسة ، انتفع بها روجر بيكون ثم كيلر وليونارد وكورنيكس . وكان يقيم بجوار الأزهر ، متعيشاً على نسخ الكتب الهامة ويبيعها مستغنياً رغم مكانته

الألماني البرت الكبير مدين لابن سينا في كل شيء ، وأن القديس توماس الاكوييني مدين في جميع فلسفته لابن رشد) .

١٢ - الإمام الغزالي ٥٠٥هـ/١١١١م :

وقد وصفه أستاذه إمام الحرمين الجويني بأنه «بحر مغدق» وكانت ترجمات أرسطو وأفلاطون قد ذاع أمرها في الوسط العلمي من كتابات الفارابي وابن سينا فانشغل بدراسة الفلسفة اليونانية وألف فيها كتاب (مقاصد الفلاسفة) ، فلما استوثق من فسادها ألف كتابه (تهافت الفلاسفة) .

وساح في الأرض عشر سنين يبحث عن الحقيقة ليصل بالخلوة ومجاهدة النفس إلى عالم اليقين والطمأنينة ، ويؤلف في خلوته بالجامع الأموي كتابه الفريد (إحياء علوم الدين) ، ثم يعود إلى تدريس الفقه ويؤلف كتابه القمة (المستصفى) . وهو من أغزر المؤلفين إنتاجاً وعنه أثر (من لم يشك لم ينظر ، ومن لم ينظر لم يبصر ، ومن لم يبصر بقى في العمى والضلال) . وقد اجتمع في فكر الغزالي وعمله : العقل والشرع مع تنزه القلب عن أدراك الحياة الدنيا ، وهو القائل (العقل كالأساس والشرع كالبناء) .

١٣ - عبد اللطيف البغدادي

٥٥٧هـ - ٦٢٩هـ :

وهو فقيه شافعي وأستاذ لغة وبيان

وصاحب تجارب خالدة الأثر في الطب . وابتاع البغدادي المنهج الإسلامي ، يذكر له التاريخ الفضل في تصحيح أخطاء جالينوس والأطباء بعده . وقد نقد البغدادي فلسفة ابن سينا ، كما نقدها من قبله الإمام الغزالي ومن بعده ابن رشد ، ولكنه انفرد بحدة النقد بقوله (وأقوى من أضلني ابن سينا بكتابه في الصنعة ، الذي أتم فلسفته ، والتي لم تزدد بالتنام إلا نقصاً) .

١٤ - ابن طفيل ٥٨٦هـ/١١٨٥م :

وهو صاحب الكتاب المشهور (حي بن يقظان) الذي يولد في جزيرة لم يعرف بها بشراً ، فيسلك طريق العلم والحدس ، ليصل إلى أن الإنسان يحقق وجوده وينجو من الشقا ويبلغ غاية السعادة ، عن طريق اتباع الفطرة والولاء للحق تعالى وحده وابتغاء وجهه سبحانه . فيصل في النهاية إلى ضرورة الإسلام ، بتسليم الإنسان نفسه إلى الله ، وأن في العبودية لله وحده والإسلام إليه سبحانه ، جوهر السعادة وعين التحرر والعزة .

١٥ - ابن رشد ٥٩٥هـ :

وقد اشتغل في الأندلس بالقضاء والفقه والفلسفة والفلك والطب . ويعتبر كتابه

١٧ - ابن البيطار ٦٤٦هـ :

وقد ظل كتابه (الجامع لمفردات الأدوية والأغذية) مرجعاً حتى العصور الحديثة وبين منهجه الإسلامي بقوله (لقد وقع الكثير في وهم أو غلط لاعتمادهم على الصحف والنقل ، واعتيادي على التجربة والملاحظة) . ويقول أبرز تلاميذه ابن أبي أصيبعة صاحب كتاب (عيون الأنباء في طبقات الأطباء) وكان يصحبه في بعض رحلاته للملاحظة والتحقيق : (لقد شاهدت في خارج دمشق كثيراً من النبات في مواضعه) .

١٨ - النفثاشي ٦٥١هـ :

وهو عالم جيولوجي يصنف المعادن تصنيفاً يتبعه العلماء حتى الآن ، ويسجل له السبق فيما يسمى بتجربة الشعلة Element Test فيما يتعلق بحجر اللاذورد .

١٩ - ابن النفيس ٦٧٨هـ/١٢٩٦م :

وهو فقيه تخرج من الأزهر واشتغل بالطب ، وكان أول من اكتشف الدورة الدموية . ويتنقد قول ابن سينا أن في القلب ثلاث بطون بقوله (هذا قول لا يصح فالتشريح يكذب ذلك...) والقلب له بطنان فقط) ، وهذا يدل على أنه مارس

(بداية المجتهد ونهاية المقتصد) مرجعاً لنقضاء المالي والفقه المقارن في جميع العصور . وهو القائل (من اشتغل بعلم التشريع ازداد إيماناً بالله تعالى) ، ويؤكد (أن الإنسان لا يصل إلى الكمال إلا بالدرس والتحصيل والتفكير مع التزام الأخلاق والطهارة) . وقد تواترت تأليفه في الأخلاق والمنطق والطبيعة وشروح الفارابي على مختلف المسائل ، والرد على ابن سينا في تقسيم المخلوقات ، والرد على كتابي الغزالي (تهافت الفلاسفة) بكتابه (تهافت التهافت) ، وفي شرحه لارسطو يبين ما يخالف فيه أرسطو الكتب المنزلة ورده عليه .

١٦ - القزويني ٦٠٥هـ - ٦٨٢هـ :

وهو قاضي وفقيه ومفسر للقرآن وإمام في الحديث وأستاذ في الجغرافيا ومن أهم كتبه (عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات) وكذا (آثار البلاد وأخبار العباد) ، وقد بين أسباب تأليفه لها بأنه (قد حصل لي بطريق السمع والبصر ، وبطريق الفكر والنظر ، حكم عجيبة وخواص غريبة أحببت أن أقيدها) . ولقد أبرز بحق المنهج القرآني حين أوضح بجلاء أن قوام الحياة هو التعبد بالعلم ، وأن مناط العلم هو «التجربة» مع الإلتزام «الأخلاقي» .

التشريع ، في وقت شاع فيه عدم التعرض
لحرمة الجثث .

٢٠ - ابن خلدون ٧٣٢هـ - ٨٠٨هـ :

وهو فقيه وقاضي ومؤسس علم
الاجتماع ، وقد ولد بتونس ، وحبس بغاس
ليخرج من حبسه فيتولى ديوان المظالم ، ثم
السفارة باشبيلية بالأندلس ، ثم يستقر
بمصر .

وأخذ بأمره تعالى بالسير في الأرض
والاعتبار بسنن الكون ، يصدر خلال فترة
إقامته بمصر كتابه (العبر وديوان المبتدأ والخبر
في أيام العرب والعجم والبربر) وقد اشتهر
بمقدمته (مقدمة ابن خلدون) ، حيث بطلع
على الناس بفرع جديد من فروع العلم
بالتاريخ هو منهج «العبرة» بواقع المشاهدة
من أحوال الدول وأدوارها في الوجود ، لا
مجرد رواية الحوادث على ما جرت به أقلام
المؤرخين قبله . وهكذا أنشأ بمنهج القرآن في
الاستقراء والاستنباط علماً جديداً سمي
بعلم الاجتماع ، على نمط علم أصول الفقه
الذي نشأ على يد الإمام الشافعي .

ومن خلال هذا العرض الدقيق للجهود
وفكر بعض أئمة وقادة الإسلام ، بالتزامهم
بالمنهج القرآني في النظر والاستقراء ، يقدم
لنا الكاتب المستشار العالم عبد الحليم

الجندي موسوعة علمية إسلامية بلغت
الذروة . ورغم إنجازها ، فقد أحسن
المؤلف اختياراته ، فجعلنا نستشعر بعمق
عظمة الإسلام ممثلاً في هؤلاء الأئمة والقادة
الذين وعوا القرآن وأدركوا منهجه ،
فاستضاءت قلوبهم بنوره وضربوا لنا المثل
بتفكيرهم وسلوكهم ومواقفهم الإسلامية ،
وتركوا لنا كنوزاً واجتهادات وإضافات
جديدة في مختلف ضروب العلم وأنشطة
الحياة .

ولم يفت المؤلف أن يقدم لنا في صفحة
١٩١ وما بعدها ثبناً للمصطلحات
الإسلامية في مختلف ضروب العلم ، والتي
دخلت إلى اللغات الأوروبية بهجائها
ونطقها . كما كشف عن دور علماء المسلمين
في مواجهة المعطيات والمترجمات من اللغات
اليونانية والفارسية والهندية ، وكيف نظروا
إليها على ضوء مفهوم التوحيد الخالص
فقبلوا منها وردوا وصححو كثيراً من أفكار
عمالقة الفكر القديم كآرسطو وجالينوس ،
وما أخذوه من هذه المعطيات جعلوه مادة
خاماً صهروها في بوتقة منهجهم القرآني
ونظرتهم إلى بناء المجتمع الرباني والحضارة
الإسلامية العالمية .

كما لم يفته . أن يخصص باباً مستقلاً من
صفحة ٢٦٣ إلى صفحة ٣٢١ عن تطبيق

الظالم تولية منافقيه وأن يحكم الرعية لمصلحته لا لمصلحتها . ويعرض المؤلف المدقق لمسائل معاصرة يشتد فيها الخلاف كولاية المرأة للقضاء وبين اختلاف الفقهاء القدامى بشأنها وكيف جوزها في جميع القضاء الإمام ابن جرير الطبري والإمام ابن حزم الظاهري ، بينما قصرها الإمام أبو حنيفة فيما تصح فيه شهادتها فلم يمنحها من القضاء إلا في الحدود والقصاص ، في حين رفضها أغلب الفقهاء ، ولكل أدلته وأسانيده الشرعية . ثم ينتقل الكاتب بنا إلى مسائل معاصرة أكثر دقة ، ليعين لنا أن القضاء الصالحين أنفع للأمة من القانون وإن صلح وإن كان الأنفع أن يجتمع الأمران ، وأن من صيانة القضاء ألا يشترك القاضي في السياسة وفي غير شئون القضاء ، وإن جاز له المشاركة بالرأي في المسائل العامة البعيدة عن قضاياها ، فالرأي حر ، وإبداؤه واجب بخلاف المشاركات في الولايات «فنهايتها المساس باستقلال القاضي وربط له بمجلات الإدارة أو شهوات الساعة أو فرطات الساسة وما أكثرها» .

فرنسيس بيكون والمنهج العلمي
المعاصر :

أفرد المؤلف فصلاً واسعاً من صفحة

المنهج القرآني في مجال القضاء . فجاء هذا الباب على اختصاره جامعاً مانعاً ، وفيه اجتهادات وإضافات جديدة ، ليصبح بحق مرجعاً لكل باحث في هذا الخصوص . وما أدق وأروع أن يصور الكاتب القضاء في الأمة كالعدسة المكبرة لما وراءها حتى الأثر (أنظر كيف تصدر الأحكام في أمة تعرف مقدار حضارتها) ، مؤكداً أنه إذا كان التوحيد أساس الإسلام فإن العدل جماعه به استقر واستمر وانتشر ، وأن سيادة القانون أو النظام تعني في جوهرها سيادة القضاء . وما أجل أن يسلط المؤلف الأضواء على كتاب الخليفة عمر بن الخطاب إلى كل وال وقاض بقوله (واس بين الناس في مجلسك وجهك وقضائك ، حتى لا يطمع شريف في حيفك ولا يياس ضعيف من عدلك ... وإياك والغضب والقلق والضجر والتأذي بالناس) ، ويذكر لنا كيف أن الخليفة علي بن أبي طالب جعل رضى الرعية عن ولائها وقضائها علامة صلاح الحكم إذ يقول (إن أفضل قرة عين الولاية إستفاضة العدل في البلاد بظهوره في مودة الرعية وأنه ليس أدعى إلى تغيير نعمة الله وتعجيل نعمته من إقامة على ظلم ... وأنه لا يقدم في ولاية القضاء سوى الأعلام والأورع) ، وأن دلالة الحاكم

هي التي تحكم الأفهام وكيف ضلت الإنسانية طريقها قرونًا طويلة في متاهات الألفاظ الجوفاء وعبث التصورات والقيادة الزائفة لارسطو وتلاميذه .

وأظهر المؤلف المدقق أن فرنسيس بيكون قد استفاد من سلفه روجر بيكون الذي توفي عام ١٢٩٤م وكان من أبحار الفرنسكان الانجليز . وقد حصل على الدكتوراه في اللاهوت من باريس واشتغل بالطبيعة والكيمياء في دير «كوردليه» بباريس ، ثم تعلم العربية في الأندلس وأكب على دراسة الحسن بن الهيثم والكندي وابن رشد . وقد تأثر للغاية بالفكر والمنهج الإسلامي ، فتراه ينقد بشدة منهج أرسطو ، ويصرح في أكسفورد (أن وجود الفكر الأوروبي والعلم الأوروبي كان مستحيلًا لولا وجود المعارف العربية . . . لقد دعيت أوروبا فجأة إلى الحياة بعد أن ظلت في ظلمات الجهل خمسة قرون . . . وهي مدينة لها بكل تقدمها) .

ويتابع المؤلف المدقق تحقيقاته فيبين أن الراهب الألماني البرت الكبير في القرن الثالث عشر انشغل بالكتب العربية فترجم مؤلفات ابن سينا والغزالي ، ثم ألف كتابًا بعنوان (مآثر العرب) ، ويدل عنوان الكتاب على تأثير العرب في أوروبا بمثل

١٦٧ إلى ٢٣٨ عن المنهج العلمي المعاصر ، وعن الفكر الإنجليزي فرنسيس بيكون (١٥٦١/١٦٢٦م) الذي نسب إليه هذا المنهج ، حيث ندد بجلاء وقوة في كتابه (تقدم العلوم) و(المنهج الجديد) بمنطق أرسطو ، داعيًا إلى ملاحظة الطبيعة بالكشوف التجريبية لا بالمنطق العقلي على طريقة أرسطو ، منها إلى ما يصبب الذهن من تشويش عندما يدرس «الكلمات» لا «الاشياء» ، وأن مهمة الإنسان هو تفسير الطبيعة وأن سبيله إلى ذلك أن يتحول من دراسة الألفاظ إلى دراسة الأشياء ليتوصل إلى معرفة قوانين الطبيعة ، وبدلاً من أن يستخلص حقائقها مشوهة بالاستنتاج المنطقي كإرسطو ، يستخلصها كما يقول صائبة بالتجربة والاستقراء ، ويرى أن أعمال المصلحين بطولات محلبة ومؤقتة في حين أن اختراعات العلماء هي خلق وتقليد للعمل الديني ونعمة للبشرية كافة . وفي كتابه (الأورجانون الجديد) في مقابل منطق أرسطو الذي سماه تلاميذه (أورجانون) ، يتكلم فرنسيس بيكون عن أصنام أم معوقات الفكر الأربعة (أصنام القبيلة ، وأصنام الكهف ، وأصنام السوق ، وأصنام المسرح) ، وكيف أخطأ الناس حين حسبوا أن فهمهم يحكم الألفاظ في حين أن الألفاظ

وتحدث الثورة الصناعية حتى عظم أمر الاستعمار . فتنتج عن تحلف المسلمين واستعمار الأوروبيين لبلدانهم هوة سحيقة الأعماق في ضمير التاريخ الأوروبي ، أخفى فيها كنوز التراث العلمي الإسلامي . ووجد المتعلمون المسلمون أنفسهم يستوردون العلوم الإسلامية من مراجع انجليزية وفرنسية وألمانية وإيطالية وإسبانية ، ويقنعون بمحاولة إحصاء كتبهم في خزائن أوروبا ، بل يدخل فيها يستوردون من العلوم دراسات في الدين والسنة النبوية واللغة العربية !! (ص ١٨٨) .

وإذ يصحح المؤلف العالم في هذا الفصل بعض أخطاء يكون صاحب (المنهج الجديد) ، يظهر بجلاء أن مادعاه من منهج جديد ليس بجديد ، بل هو بعض من كل سبق به القرآن وعمل به العلماء العرب في كل فنون العلم . وإذ ينقل المؤلف إلى صفحة ٢٣٤ عن المستشرق الفرنسي جوستاف لوبون في كتابه (تاريخ العرب) قوله (إن العرب أدركوا بعد لأي أن التجربة والمشاهدة خير من أفضل الكتب ، وكذلك سبقوا أوروبا إلى هذه الحقيقة التي تعزى إلى فرنسيس بيكون بأنه أول من أقام التجربة والاختبار اللذين هما ركن المناهج العلمية

مايدل وصف هذا الراهب الكبير على أثره في الفكر الكنسي ، وهو أستاذ القديس توماس الأكويني .

ولقد ذاعت شهرة القديس توماس الاكبريني (١٢٢٥/١٢٧٤م - ٦٢٢/٦٧٣هـ) حيث تلقى علوم العرب من مصادرها في صقلية ، وكان يشهد في كتابه الشهير (مسائل جدلية) بأفكار ابن رشد حتى يكاد يكون مجرد ناقل عنه ، وقد عرف بمعارضته للإمام الغزالي بحجج الفارابي وابن رشد .

وبين المؤلف الموسوعي في هذا الفصل كيف أن الفتح العلمية تمت على يد المسلمين واستفاد منها العالم أجمع ، وأن مرد ذلك هو دينهم الإسلامي «واختصاصهم» بل «تفردهم» وقتئذ بالمنهج التجريبي ، الذي شرعه لهم دين يعلن حرية العقل ويوجب استعماله ويستبعد كل مايعطله ويأمر بالتعليم والتعلم واستقراء طبيعة الأشياء وواقع الظواهر الكونية ، توصلاً للحقائق التي هي ضالة المؤمن . وإنه كان من سنن الله في كونه ، أن يؤاخذ الدولة الإسلامية بظلمها وجهلها وتفترقها فترجع القهقري ، في حين تتقدم الدول الأوروبية بالعلم والعدل ، وتكشف عن العالم الجديد

الجندي عن (القرآن والنهج العلمي المعاصر) ، هو من كتب القمة الشوامخ المضيئة على مر الأيام ، والتي تتوج وتزين كل مكتبته ، وتفيد وتثرى كل قارئ .

ويكفي أن الكتاب يزيدنا اقتناعاً ويعمق إحساننا ، بأن الإسلام هو السبيل الوحيد لإنقاذ البشرية من أزمتها على الصعيد المادي والروحي ، ولتصحيح «حضارة الأشياء» لتصبح «حضارة الإنسان» .

فالحضارة المعاصرة بشقيها الرأسمالي الفردي والماركسي الجماعي ، رغم ماحقته من انجازات مادية ، فقد انتهت بالإنسان ومجتمعات تلك الحضارة إلى الصراع والتمزق والضياع ، واستبدت التكنولوجيا بسلام الإنسان وأمنه واستقراره . والإسلام وحده هو طوق النجاة ، إذ يحفل بالعنصر المادي ولكنه يضعه في خدمة العنصر الروحي ليتألف منها الوصف الإسلامي . وانه لم تشك الأمة الإسلامية فاقة أو هواناً أو ضياعاً أو جهالة ، إلا في تلك الأزمنة التي انشغل فيها أولو السلطة أو الأمر أو العلم أو القدوة بأنفسهم عن دينهم أو جماعاتهم . وصدق الرسول الكريم حين قال : صنفان إذا صلحا صلح حال هذه الأمة ، وإذا فسد فسد حال هذه الأمة ، الأمراء

الحديثة ، فالمسلمون أسبق إلى نظام التجربة في العلوم) ، فإنه يذكر بحق (لو أن جوستاف لوبون قرأ القرآن كله أو بعضه لعرف أن العرب لم يدركوا ذلك بعد لأي ، وإنما هم مأمورون في القرآن بالعلم وبمنهجه في استعمال «العقل» و«الحواس» ، أي التجربة الفعلية مع الحرية الكاملة) . ويتابع المؤلف كشف المستشرقين عن المنهج الإسلامي من كتب العلماء التطبيقيين ، فينقل عن درابر في كتابه (التزاع بين الدين والعلم) قوله : كان الأسلوب الذي توخاه المسلمون سبب تفوقهم في العلم ، فإنهم تحققوا أن «الأسلوب النظري» لا يؤدي إلى التقدم ، وأن الأمل في معرفة الحقيقة معقود «بمهاذلة» الحوادث ذاتها . ومن هنا كان شعارهم في أبحاثهم هو «الأسلوب التجريبي» وهذا الأسلوب هو الذي أدى إلى اكتشافهم علم الجبر وغيره من علوم الرياضة والحياة . وإنما لندesh حين نرى في مؤلفاتهم من الآراء العلمية ما كنا نظنه من ثمرات العلم في هذا العصر) .



خاتمة :

والواقع أن كتاب الأستاذ عبد الحليم

وتوجيهه . ان مايظل العقل وحده باحثاً عنه قروناً طويلة دون الاهتمام إليه ، يتلقاه تلقياً مباشراً وسريعاً وكاملاً من القرآن ، وفي هذا رحمة وخلاص للإنسانية وهداية للبشرية جمعاء . وصدق الله العظيم (يبين الله لكم أن تضلوا ، والله بكل شيء عليم — النساء / ١٧٦) ، وقوله تعالى (ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله — القصص / ٥٠) .

إن أصالة الفكر الإسلامي والإبداع الحضاري للمسلمين يتمثلان في أعمال الفقهاء والأصوليين ، وفي توصل أئمة الإسلام إلى قواعد المنهج العلمي التجريبي وتطبيقه في مختلف العلوم التجريبية بما أدى إلى تقدم العلوم الطبيعية والكيميائية والطبية والرياضية والفلكية وغيرها تقدماً عظيماً لم يشهده تاريخ الإنسانية المكتوب من قبل في أية حضارة أخرى سابقة أو تالية للحضارة الإسلامية .

ودعوة المؤلف منهجياً وموضوعياً ، هو أن يكون مرجعنا ومعيارنا الذي نرجع إليه ونزن به كل فكر وكل تشريع وكل نظام وكل علم ، هو القرآن والسنة ، وإنه لن تصحو أمة الإسلام وتوحد إلا بما قامت به وتوحدت ، وهو الاجتماع على القرآن

والعلماء^(١) . وفي رواية أخرى : اثنتان لو صلحا ، صلح الناس كلهم ، الأمراء والعلماء^(٢) .

لقد جاء القرآن الكريم بأمرين : «حقائق توفيقية» ، و«حقائق توقيفية» . أما الأولى فهي ما تتعلق بالاشياء وسائر مخلوقات الله تعالى ، فقد دعا المسلمين إلى النظر فيها والكشف عن أسرارها مما أنتج «العلم التجريبي» . أما الثانية فهي ما تتعلق بذات الله وأوصافه وحساب اليوم الآخر وقواعد تنظيم المجتمع ... الخ ، مما لا يستطيع الإنسان التوصل إليه في صورته الحقيقية المثل دون وحي ورسول ، فقد دعا المسلمين إليها بمنهج متطابق معها مما أنتج «العلم النظري» مثلاً في علم العقيدة وعلوم الفقه . فهذا هو منهج القرآن : حين يعمل الإنسان في عالم المادة فإنه يعمل في عالم يمكن أن يعرفه لأنه مجهز بإدراك أسرارهِ وقوانينهِ ، وحين يعمل في غير ذلك فهو يعمل في مناهة واسعة بالقياس إليه وهو غير مجهز ابتداء بإدراك حقائقها الهائلة الغامضة . ولاشك أن للعقل دوراً رئيسياً وهاماً في معرفة حقائق الغيب والتشريع ، ولكن الخطأ يكمن في محاولة العقل البشري معرفة ذلك وحده دون قيادة الوحي

هي : فهرست المسائل ، وفهرست البلدان ، وفهرست الأعلام .

وإذا كان هناك من رجاء فهو أن يتفضل المؤلف الكبير في طبعته القادمة ، حيث علمنا الإقبال الشديد على كتابه وأنه على وشك النفاذ من السوق ، فيتوسع في الفصل الخاص بأئمة وعلما الإسلام التجريبيين ، وكذا أن يذكر بالهامش مراجع الاقتباسات العديدة التي أوردها على لسان جهابذة الإسلام وقادة الفكر الإنساني ، وذلك بالإشارة إلى أسماء مؤلفاتهم التي أخذ عنها وتاريخ طبعها وناشرها وأرقام صفحاتها ، وقد يكون في ذلك بعض العسر إذ لا تقل هذه الاقتباسات الرائعة والمنقاة بدقة عن العشرات بكل صفحة ، ولكنه مجرد رجاء وأمل .

الهوامش :

- (١) أخرجه الديلمي في الفردوس ، وأبو النعيم في الحلية عن ابن عباس ، وابن عبد البر في جامع باب العلم وفضله الجزء الأول صفحة ٢٢٦ . وفي فيض القدير جزء ٤ صفحة ٢٠٩ إذا صلح الراعي صلت الرعية ، والعلما أسماء الرسل .
- (٢) أنظر الإمام العلامة أبو بكر الخوارزمي ، في مؤلفه مفيد العلوم ومبيد المموم ، صفحة ٤٠٩ من فصل السلطان ، طبعه وزارة الشؤون الدينية بدولة قطر سنة ١٤٠٠هـ / سنة ١٩٨٠م .

والسنة . والذي يجب أن نتوخاه في المنهج ، هو ألا نقبل على القرآن وفي أذهاننا فروض وأفكار مسبقة غريبة عنه ، ثم نبحث فيه عما يؤيد مافي أذهاننا من نظريات وأفكار . وأن من يقبل على القرآن الكريم وفي نفسه ابتغاء معرفة الحق وحده يهديه الله تعالى ويفتح له كنوز معرفته بقدر تقواه ، وصدق الله العظيم (اتقوا الله ويعلمكم الله - البقرة / ٢٨٢) ، وصدق الأثر النبوي (ومن يعمل بما علم ورثه الله علم ما لم يعلم) .

هذا ولا أجد خير ما اختتم به هذه الدراسة عن كتاب (القرآن والمنهج العلمي المعاصر) ، سوى ما ذكره المؤلف بقوله في صفحة ٢٣٨ (الكتاب الحالي خطاب موجه للحاضر والمستقبل معاً ، باقتدار المنهج القرآني على إبلاغ الفكر الإنساني أعلى مبالغة . ولقد آن للمسلمين الذين يتوثبون للتقدم ويشوقون إلى العلم أن يدركوا أن عندهم مفاتيحه ، وأنهم إذ يعملون به يستردون تقدمهم ولا يستوردونه) .

ولا يفوتني أن أشير إلى ما تميز به هذا الكتاب من فهارس متعددة تيسيراً للباحث ، فلم يقتصر شأن سائر الكتب على فهرست الموضوع وفهرست المراجع ، وإنما اشتمل أيضاً على ثلاثة فهارس إضافية

كمال الدين بن يوسف الموصلی

من مشاهير العلماء المسلمين
في القرن السابع الهجري ٥٥١ - ٦٣٩ هـ

للأستاذ: فاضل خليل ابراهيم

العصر، وحملوا راية العلم فيه، كمال الدين أبو الفتح^(٢) موسى بن أبي الفضل يونس بن محمد بن متعة بن مالك^(٣) العقيلي^(٤). ولد في الموصل سنة ٥٥١ هـ وتوفي فيها سنة ٦٣٩ هـ.

نشأ كمال الدين في أسرة علمية، حيث كان والده رضي الدين يونس^(٥)، أحد الفقهاء المشهورين في الموصل، وكذلك أخوه عماد الدين محمد^(٦)، الذي «كان له صيت عظيم في زمانه، وقصده الفقهاء من ألبلاذ الشاسعة للاشتغال، وتخرج عليه خلق كثير صاروا كلهم أئمة مدرسين بشار إليهم»^(٧)، أما ابنه شرف الدين أحمد^(٨)،

أسهمت الموصل^(١)، وعبر تاريخها الطويل، في وفد الحضارة الإسلامية، بإنجازات ثقافية عديدة، من خلال ظهور الكثير من العلماء، الذين درسوا علوم عصرهم، وأتقنوها، وأبدعوا فيها، وأضافوا إليها.

ومع بداية القرن السابع الهجري، أصبحت الموصل واحدة من أهم المراكز العلمية في العالم الإسلامي، وناقست في ذلك بغداد ودمشق والقاهرة، حيث ذاع صيتها، وأقبل طلاب العلم ينهلون من عطاياها الثرى.

ومن أشهر العلماء، الذين برزوا في هذا



فقد «كان كثير المحفوظ، غزير المادة، متفتناً في العلوم»^(٩).

بدأ كمال الدين رحلته العلمية من هذا البيت، حيث تفقه على والده، ثم درس اللغة العربية وآدابها في الموصل على يد يحيى بن سعدون القرطبي، وبعد ذلك توجه إلى بغداد سنة ٥٧١هـ، والتحق بالمدرسة النظامية، فدرس الأصول والخلاف في الفقه على يد إسماعيل القزويني، ودرس الأدب على يد عبدالرحمن بن محمد الأنباري^(١٠). أما دراسته للعلوم الأخرى والتي اشتهر بها فيما بعد كالفلسفة والرياضيات والفلك، فلا نكاد نعرف عنها شيئاً، ويظهر أنه قد تلقاها من علماء بغداد المشهورين - آنذاك - خارج المدرسة النظامية.

وبعد تخرجه من المدرسة، عاد إلى الموصل، وهو يحمل محصلة علمية هائلة، أشاد بها الكثيرون، وقد توزعت اهتماماته على شتى فروع المعرفة الشرعية والأدبية والعلمية الصرفة، حتى أصبح من العلماء الموسوعيين. وإن قراءة سريعة لأراء من كتبوا عنه، سواء من معاصريه أو الذين أرحوا له، تُبين لنا الدرجة العلمية الرفيعة التي

بلغها، فقد وصفه ابن أبي أصيبعة بأنه «علامة زمانه، وأوحد أوانه، وقدوة العلماء، وسيد الحكماء، قد اتقن الحكمة وتميز في سائر العلوم»^(١١). وقال عنه القزويني: «كان جامعاً لفنون العلوم، عديم النظر في زمانه، في أي فن باحثه فكأنه صاحب ذلك الفن من المنقول والمعقول»^(١٢). وبلغت هذه الآراء حد الإطراء والمبالغة الكبيرة فيه، فعندما سئل تقي الدين بن الصلاح^(١٣) - أحد معاصريه - عن شيوخ كمال الدين، أجاب: «هذا الرجل خلقه الله إماماً عالماً في فنونه، لا يقال على من اشتغل، ولا من كان شيخه، فإنه أكبر من هذا!!»^(١٤). وشارك المستشرق سارتون (Sarton) مؤرخينا، في مدحهم هذا، بقوله: «إن كمال الدين، من أعلم علماء زمانه، ومن كبار المعلمين - أو هو المعلم العظيم»^(١٥).

أما العلوم التي اهتم بها، فبأي الفقه في مقدمتها، حيث اشتهر بتبحره في المذهب الشافعي «فكان فيه أوحد زمانه»^(١٦) وهو «شيخ الشافعية في الموصل»^(١٧)، كما اتقن مذهب أبي حنيفة^(١٨). واشتهر أيضاً في الحديث والتفسير، فله فيها «يدٌ جيدة»^(١٩). ونظراً لما يتمتع به من منزلة

لكل من اشتغل بهذا الفن إفساد الاعتقاد، فكأنك تفسد عقائدهم فيك... قبل إشارته وترك قراءته»^(٢٦).

ولم يقتصر كمال الدين في علمه على الأدب والفقه، بل تجاوز ذلك إلى العلوم الصرفة كالرياضيات والفلك والطب والكيمياء. فهو كما قال عنه ابن أبي أصيبعة «يقرأ العلوم بأسرها»^(٢٧).

ففي الرياضيات، درس إقليدس والهيئة والمخروطات والمتوسطات والمجسطي وأنواع الحساب المفتوح منه والجبر والمقابلة^(٢٨)، وألف فيها، ولما ذاع صيته في هذا العلم، أخذت الرسائل تنال عليه من علماء الرياضيات المعاصرين له، يقول ابن خلكان: «كنت بدمشق، سنة ثلاث وثلاثين وستمائة، وبها رجل فاضل في علوم الرياضة، فأشكل عليه مواضع في مسائل الحساب والجبر والمقابلة والمساحة وإقليدس، فكتبها في درج، وسيرها إلى الموصل، ثم بعد أشهر عاد جوابه، وقد كشف خفيها، وأوضح غامضها»^(٢٩). كما وصلته رسالة أخرى من أوروبا أشار إليها القزويني بقوله: «ومن عجيب ما رأيت منه أن الفرنج في زمن الملك الكامل بعثوا إلى

دينية ومكانة علمية بين الناس، فقد كان «مرجع أهل الموصل وما والاها في الفتاوى»^(٣٠).

ولم يكتف كمال الدين في دراسته لأصول دينه ومذهبه، بل أطلع على الأديان الساوية الأخرى، وقرأ كتبها المقدسة وتفسيراتها، وبلغ فهمه فيها أن أهل الذمة كانوا «يقرؤون عليه التوراة والإنجيل، وشرح لها هذين الكتابين، شرحاً يعترفون أنهم لا يجدون من يوضحها لهم مثله»^(٣١).

وقد اهتم عالمنا - أيضاً - بالتاريخ «فكان يحفظ من التواريخ، وأيام العرب وقائعهم، والأشعار، والمحاضرات، شيئاً كثيراً»^(٣٢). كما بحث في اللغة العربية^(٣٣)، وأبدع في نظم القصائد^(٣٤)، فكان «له شعر حسن»^(٣٥).

أما الفلسفة والمنطق، فكان اهتمامه بهما محدوداً، ذلك لأن الناس في تلك الفترة - على ما يبدو - كانت تكره قراءتها، فقد روى السبكي «أن ابن الصلاح سأله أن يقرأ عليه شيئاً من المنطق سرا... فقال له: يافقيه المصلحة عندي أن تترك الاشتغال بهذا الفن. فقال له: ولم يامولانا؟ فقال: لأن الناس يعتقدون فيك الخير، وهم ينسبون

كثيرة من قوانين تذبذب الرقاص، حيث كان الفلكيون يستخدمونه لحساب الفترات الزمنية في أثناء رصد النجوم^(٣٣). ويقول البعض^(٣٤): انه قد سبق العالم «غاليلو» في هذا المجال.

وبالإضافة إلى هذه العلوم التي اشتهر بها، علمنا، فقد اهتم بالطب والكيمياء^(٣٥) التي كان مستغرق الوقت والعقل في حبها^(٣٦).

ولم يكن كمال الدين عالماً باحثاً فقط، بل امتحن التدريس في العديد من مدارس الموصل، منها «المدرسة الكمالية»، التي أنشأها في مسجد زين الدين^(٣٧)، و«المدرسة العلانية» التي تولى التدريس فيها بعد وفاة أخيه عماد الدين^(٣٨)، و«المدرسة القاهرية»^(٣٩) و«المدرسة البدرية»^(٤٠). ويبدو أن الفقه هو المادة الأساسية^(٤١) لمنهج التدريس في هذه المدارس، أما العلوم الأخرى التي أشرنا إليها فيما سبق فإضافية. وقد تتلمذ على يديه عدد كبير من طلاب العلم في مختلف فروع المعرفة، جاؤوه من أقطار شتى.

فمن أشهر الذين درسوا عنده، أو تلقوا

الشام مسائل أرادوا جوابها: منها طبية، ومنها حكمية، ومنها رياضية. أما الطبية والحكمية فأجاب عنها أهل الشام، والهندسية عجزوا عنها. والملك الكامل أراد أن يبعث جواب الكل، فبعثوا إلى الموصل إلى المفضل بن عمر الأبهري أستاذنا، وكان عديم النظر في علم الهندسة، فأشكل الجواب عليه، فعرضه على الشيخ ابن يونس، ففكر فيه وأجاب عنه، والمسألة هذه نريد أن نبين قوساً أخرجنا لها وترأ، والوتر أخرج من الدائرة عملنا عليه مربعاً، تكون مساحة المقوس كمساحة المربع... فكتب برهانه المفضل وجعله رسالة بعث بها إلى الشام إلى الملك الكامل، فلما مشيت إلى الشام رأيت فضلاء الشام يتعجبون من تلك الرسالة، ويشنون على استخراج ذلك البرهان، فإنه كان نادر الزمان^(٤٢).

أما في علم الفلك، فقد وصلته - أيضاً - مسائل، قام بتفسيرها وتوضيح رموزها، بعضها وردت عليه من بغداد، فحلها... ونبه على براهينها^(٤٣)، وأخرى من أحد ملوك أوروبا، «فكتب له الأجوبة عن تلك المسائل بأسرها»^(٤٤). وما ينسب إلى كمال الدين في هذا العلم، انه قد عرف أشياء

عليه مدة ثم سافرا» (٤٨).

٧ - ثاذري الأنطاكي، قرأ على كمال الدين مصنفات الفارابي وابن سينا وحل إقليدس والمجسطي (٤٩).

٨ - سويريوس يعقوب بن عيسى بن مرقس شبو، قرأ على كمال الدين المنطق والفلسفة العربية (٥٠).

٩ - بلال بن رمضان بن الحسن، قال عنه ابن المستوفي: «فقيه سمعته وأنا صبي في جامع القلعة بأربل يجادل الإمام موسى بن يونس» (٥١).

١٠ - تقي الدين عثمان بن عبد الرحمن المعروف بابن الصلاح، حاول أن يتعلم المنطق على يد كمال الدين (٥٢).

١١ - أبو العباسي شمس الدين بن خلكان، الذي قال عن نفسه: «رأيت بالموصل في شهر رمضان سنة ست وعشرين وستائة، وترددت إليه دفعات عديدة... ولم يتفق لي الأخذ عنه إلا لعدم الإقامة وسرعة الحركة إلى الشام» (٥٣).

أما بخصوص مؤلفاته، فلا نعرف الشيء الكثير عنها، وقد ردّد المؤرخون عبارات من

أحد العلوم عنه، أو زاروه أو حضروا محاضراته:

١ - أثير الدين المفضل أبو عمر الأبهري (٤٢)، على جلالة قدره في العلوم، يأخذ الكتاب ويجلس بين يديه ويقرأ عليه. وقد شاهده ابن خلكان، بعينه، وهو يقرأ عليه الكتاب المجسطي (٤٣).

٢ - موفق الدين عبد اللطيف البغدادي، الذي قال: «دخلت الموصل فلم أجد فيها بقيتي، ولكن وجدت الكمال بن يونس جيداً في الرياضيات والفقه» (٤٤).

٣ - جلال الدين البغدادي (٤٥).

٤ - أبو ابراهيم يوسف بن ياسين الدقوقي، اشتغل على يد كمال الدين بشيء من علوم الأوائل «وتفقه عليه» (٤٦).

٥ - علم الدين قيصر بن أبي القاسم ابن مسافر المعروف بتعاسيف، الذي قال: «لما أقمنا علوم الرياضة بالديار المصرية وبدمشق، تأقت نفسي إلى الاجتماع بالشيخ كمال الدين، لما كنت أسمع من تفرد به هذه العلوم» (٤٧).

٦ - نجم الدين القمرائي وشرف الدين المتاني، جاءا من الشام إلى الموصل «فاشتغلا

أهلها أرخيدس في كتابه تسبيع الدائرة
وكيفية اتحاد ذلك (مخطوط مكتبة بودليانا -
انكلترا ورقمها ٩٨٧/٨).

٩ - كتاب شرح الأعمال الهندسية (مخطوطة
مكتبة أيا صوفيا: استانبول - تركيا ورقمها
٢٧٥٣).

ويبدو أن كمال الدين كانت لديه مكتبة
عظيمة، تحتوي على كتب في شتى العلوم،
حيث كان طلابه يعتمدون عليها. فقد
طلب منه بعض زواره^(٥٩)، كتباً نادرة
لفلاسفة وعلماء معروفين، فوجدها عنده.



«الهوامش الواردة في البحث»

- (١) مدينة قديمة تقع على نهر دجلة شمال العراق.
- (٢) وهو أبو عمران عند ابن أبي أصيبعة، أنظر كتابه:
عيون الأنباء ٣٠٦/١.
- (٣) ابن خلكان: وفيات الأعيان ٣٩٦/٤، والسبكي:
طبقات الشافعية ٣٧٨/٨.
- (٤) ابن القوطي: الحوادث الجامعة ص ١٤٩.
- (٥) أنظر ترجمته، ابن خلكان ٢٥٣/٦ - ٢٥٣.
- (٦) أنظر ترجمته، المصدر نفسه ٣٨٥/٣ - ٣٨٦.
- (٧) المصدر نفسه ٣٨٥/٣.
- (٨) أنظر ترجمته، المصدر نفسه ٩٠/١ - ٩١.
- (٩) السبكي: ٣٩/٨.
- (١٠) ابن خلكان: ٣٩٦/٤، والسبكي ٣٧٨/٨،
والذهبي: المعبر ١٦٢/٥، وابن العباد: شذرات

قبيل: «وله عدة تصانيف»^(٥٤)، «وله
مصنفات في نهاية الجودة»^(٥٥). لكنهم لم
يشيروا إلى هذه المصنفات. وينفرد ابن أبي
أصيبعة في ذلك، حيث يقدم لنا قائمة
قصيرة بعنوانين هذه المؤلفات^(٥٦)، وهي:

١ - كتاب كشف المشكلات وإيضاح
المعضلات في تفسير القرآن.

٢ - شرح كتاب التنبيه في الفقه (مجلدان).

٣ - كتاب مفردات ألفاظ القانون لابن
سينا.

٤ - كتاب الأصول.

٥ - كتاب عيون المنطق.

٦ - كتاب لغز الحكمة، ويظهر أنه هو

الكتاب الذي امتنع عالمنا عن تقديمه لنجم
القمراني وشرف الدين الثاني عندما

«سألاه، أن يريها كتاباً قد ألفه في الحكمة
وفيه لغز»^(٥٧). ويُرجح أنه كتاب في

الكيمياء نظراً لما تتطلبه من كتمان وسرية
وما تتصف به من غموض في المصطلحات.

٧ - كتاب الأسرار السلطانية في النجوم.
وأضاف بروكلمان إلى هذه القائمة^(٥٨):

٨ - رسالة في البرهان على المقدمة التي

- (٤٠) المصدر نفسه والمكان.
 (٤١) ابن الفوطي: ١٤٩.
 (٤٢) ابن الوردي: ٢٤٦/٢ - ٢٤٧.
 (٤٣) ابن خلكان: ٣٩٨/٤.
 (٤٤) ابن أبي أصيبعة: ٢٠٤/٢.
 (٤٥) المصدر نفسه: ٣٠٦/١.
 (٤٦) ابن المتوفى: تاريخ أبريل ٢٢٧/١.
 (٤٧) السبكي: ٣٨٤/٨ - ٣٨٥.
 (٤٨) ابن أبي أصيبعة: ٣٠٧/١.
 (٤٩) ابن العيدي: تاريخ مختصر الدول ص ٤٧٧.
 (٥٠) يعقوب: دقائق الطب ص ١٠٥.
 (٥١) ابن المتوفى: ٨٦/١.
 (٥٢) السبكي: ٣٨٢/٨، ابن الوردي ٢٤٦/٢ - ٢٤٧.
 (٥٣) ابن أبي أصيبعة: ٢٠٤/٢.
 (٥٤) الذهبي: ١٦٢/٥ - ١٦٣، البيهقي: ١٠٢/٤.
 (٥٥) ابن أبي أصيبعة: ٣٠٦/١.
 (٥٦) المصدر نفسه: ٣٠٨/١.
 (٥٧) المصدر نفسه: ٣٠٧/١.
 (٥٨) Brockelmann: Ceeschichte..., S.I. P.85.
 (٥٩) ابن خلكان: ٣٩٦/٤.
- اللهب ٢٠٦/٥، والبيهقي: مرآة الجنان ١٠١/٤.
 (١١) عيون الأنباء: ٣٠٦/١.
 (١٢) القزويني: آثار البلاد ص ٤٦٣.
 (١٣) أنظر ترجمته، السبكي: ٣٢٦/٨.
 (١٤) المصدر نفسه ٣٨٢/٨، البيهقي: ١٠٢/٤.
 (١٥) Sarton: Introduction 2/600.
 (١٦) ابن خلكان: ٣٩٦/٤، السبكي: ٣٧٩/٨.
 (١٧) ابن كثير: البداية والنهاية ١٥٨/١٣، أبو الفداء: المختصر ١٧٨/٣.
 (١٨) أبو الفداء: ١٧٨/٣، ابن الوردي: تمة المختصر ٢٤٦/٢.
 (١٩) ابن خلكان: ٣٩٧/٤.
 (٢٠) السبكي: ٣٧٨/٨.
 (٢١) المصدر نفسه ٣٨٠/٨، وابن خلكان: ٣٩٧/٤، والبيهقي: ٣٩٧/٤.
 (٢٢) ابن خلكان: ٣٩٧/٤.
 (٢٣) السبكي: ٣٨٠/٨.
 (٢٤) أنظر نماذج من هذه الفوائد عند، ابن أبي أصيبعة ١٠٨/١، ابن تقي بري: النجوم الزاهرة، ابن كثير: ١٥٨/١٣.
 (٢٥) ابن كثير: ١٥٨/١٣.
 (٢٦) السبكي: ٣٨٢/٨.
 (٢٧) ابن أبي أصيبعة: ٣٠٦/١.
 (٢٨) ابن خلكان: ٣٩٧/٤، البيهقي: ١٠٢/٤.
 (٢٩) ابن خلكان: ٣٩٩/٤، السبكي ٣٨٤ - ٣٨٣/٨.
 (٣٠) آثار البلاد: ص ٤٦٣.
 (٣١) ابن خلكان: ٣٩٩/٤.
 (٣٢) ابن أبي أصيبعة: ٣٠٧/١.
 (٣٣) فروخ: تاريخ العلوم عند العرب ص ٢٣٠.
 (٣٤) طوقان: تراث العرب العلمي ص ٣٩٨.
 (٣٥) ابن أبي أصيبعة: ٣٠٦/١، السبكي: ٣٧٩/٨.
 (٣٦) الدلبي: الفلاكة والفلكون ص ٨٤.
 (٣٧) ابن خلكان: ٣٩٦/٤.
 (٣٨) المصدر نفسه: ٤٠٠/٤.
 (٣٩) المصدر نفسه والمكان.

المصادر والمراجع العتمدة في البحث

أولاً: المصادر الأولية:

- (١) ابن أبي أصيبعة، موفق الدين أبو اسحاق أحمد بن يوسف (ت ٦٦٨هـ) عيون الأنباء، في طبقات الأطباء (الطبعة الوعبة: ١٨٨٢م).
 (٢) ابن تقي بري، جمال الدين أبو المحاسن يوسف (ت ٨٧٤هـ) النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة (مصورة عن طبعة دار الكتب).
 ٣ - ابن خلكان، أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد (ت ٦٨١هـ) وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان (مصر: ١٩٤٨م).

أحمد الإزيلي تاريخ إربل المسمى: نبأه البلد الخامل
يمن وزد من الأمائل (بغداد: ١٩٨٠م).

- (١٤) ابن الوردى: زين الدين عمر
تنمة المختصر في أخبار الشر (النجف: ١٩٦٩م).
(١٥) اليماني: أبو محمد عبدالله بن أسعد بن علي الياضي
مرآة الجنان وعبرة اليقظان (حيدر اباد الدكن:
١٣٣٩هـ).

ثانياً: المراجع العربية:

- (١٦) طوقان، قدري حافظ
تراث العرب العلمي في الرياضيات والهندسة
(القاهرة: ١٩٦٣م).
(١٧) فروخ، عمر
تاريخ العلوم عند العرب (بيروت: ١٩٧٠م).
(١٨) يعقوب: اغناطيوس الثالث
دفقات الطيب (زحلة: ١٩٦١م).

ثالثاً: المراجع الأجنبية:

- (١٩) Brockelmann, Dr. c. - Geschichte der Arabischen Litteratur (Leiden - 1931)
(٢٠) Sartou: George - Introduction to the History of Science (Washington - 1962)

(٤) الذهبي، شمس الدين أحمد بن محمد (ت ٧٤٨هـ)
المعر في خبر من عبر (الكويت: ١٩٦٦م).

(٥) الذهبي، أحمد بن علي
اضلاكة والضلوك (مصر: ١٣٢٢هـ)

(٦) السبكي: تاج الدين أبو نصر عبد الوهاب بن علي
(ت ٧٧١هـ)

طفقات الشافعية الكبرى (عيسى البابي الحلبي)
(٧) ابن العربي، غريغوريوس أبو الفتح بن أهرن
(ت ١٢٨٦م)

تاريخ مختصر الدول (بيروت: ١٨٩٠م)
(٨) ابن العباد، أبو الفلاح عبد المحي الحلبي
(ت ١٠٨٩هـ)

شذرات الذهب في أخبار من ذهب (مكتبة القدس:
١٣٥١هـ).

(٩) أبو الفداء، تاج المأيد اسمعيل (ت ٧٣٢هـ)
المختصر في أخبار البشر (دار الطباعة الشاهانية:
١٢٨٦هـ).

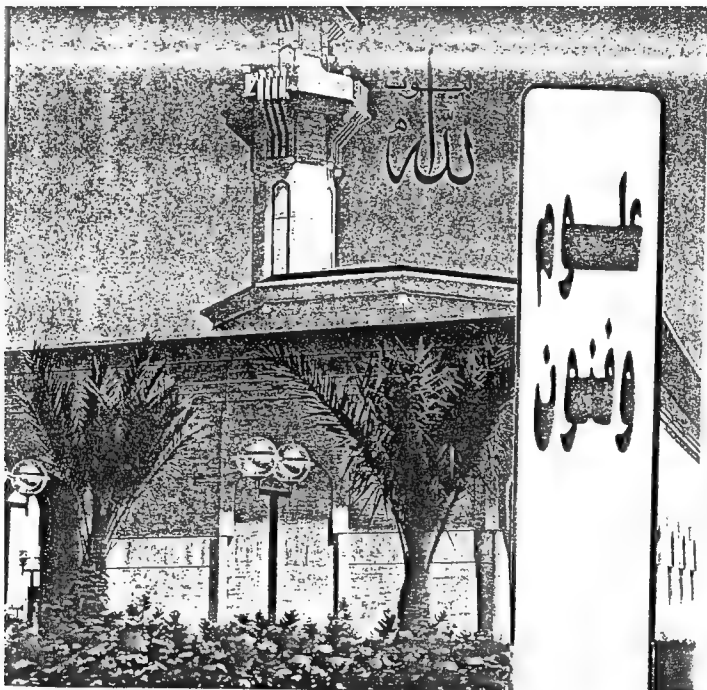
(١٠) ابن الفرطى: كمال الدين أبو الفضل عبد الرزاق -
الحوادث الجامعة والتجارب النافعة في المائة السابقة
(بغداد).

(١١) القزويني: زكريا بن محمد بن محمود
آثار البلاد وأخبار العباد (بيروت: ١٩٦٠م).

(١٢) ابن كثير: عماد الدين أبو الفداء اسمعيل بن عمر
(ت ٧٧٤هـ)

البداية والنهاية (مصر - مطبعة السعادة).
(١٣) ابن المستوفي: شرف الدين أبو البركات المبارك بن



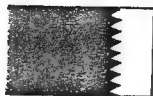


● مسجد في الرياض ●

علوم وفنون

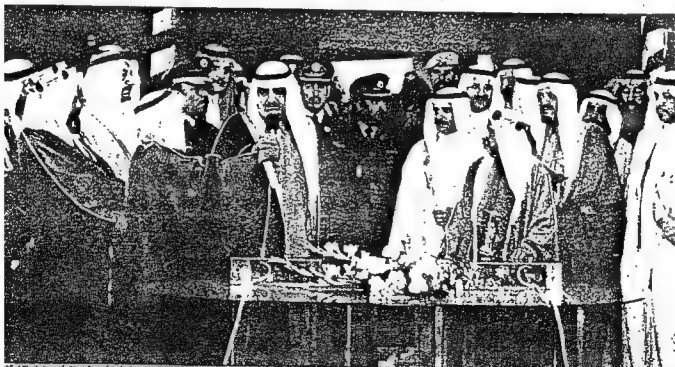
- جسر الملك فهد «السعودية - البحرين» ص ١٩٨ .
- أحداث تاريخية ص ٢٠٦ .
- تاريخ في صور ص ٢١٠ .
- كتب حديثة ص ٢١٢ .
- أخبار ص ٢١٤ .

مطبعة دار البيان جاهد



جسر الملك فهد السعودية / البحرين

تعود فكرة بناء الجسر الرابط بين شرق المملكة العربية السعودية والبحرين إلى عام ١٩٦٥م، وفي عام ١٩٦٨م اتفق البلدان على تشكيل لجنة مشتركة لدراسة إمكانية تنفيذ المشروع وتقدير حجم الميزانية اللازمة له، وفي عام ١٩٧٣م طلب الملك فيصل رحمه الله» خلال اجتماعه بالشيخ «عيسى بن سلمان» أمير البحرين أن تعمل اللجنة المشكلة



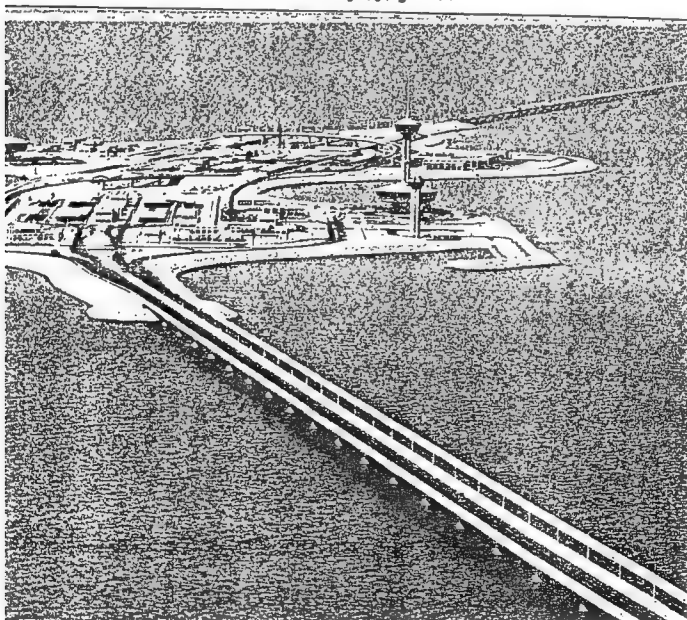
تمت الموافقة على خطة الجسر في عام ١٩٧٤م، وفي عام ١٩٧٥م تم توقيع اتفاقية الجسر بين البلدين، وفي عام ١٩٧٦م تم البدء في أعمال البناء، وفي عام ١٩٧٩م تم افتتاح الجسر رسمياً.



على تجاوز النواحي المالية والاقتصادية في دراستها وأن تنظر إلى المشروع على اعتباره مشروعاً يتصف بالطابع القومي، وفي عام ١٩٧٦م قام الملك «خالد بن عبدالعزيز» «طيب الله ثراه» بزيارة إلى البحرين اتفق خلالها مع أمير البحرين على تشكيل لجنة وزارية من البلدين للعمل على تنفيذ المشروع وذلك بعد أقل من عام على إنهاء البنك الدولي لدراسته حول هذا المشروع.

وفي عام ١٩٨١م وقع الجانبان عقد إرساء المشروع على شركة هولندية لتنفيذ القسم الأول والرئيسي وهو المسار البحري بين الساحلين السعودي والبحريني، وبدأ التنفيذ الفعلي للمشروع في ٢٩ سبتمبر ١٩٨١م، حيث تم وضع أول قاعدة للجسور في ٢٧ فبراير ١٩٨٣م،

● ولقطة من الجسر الملك فهد ، ●

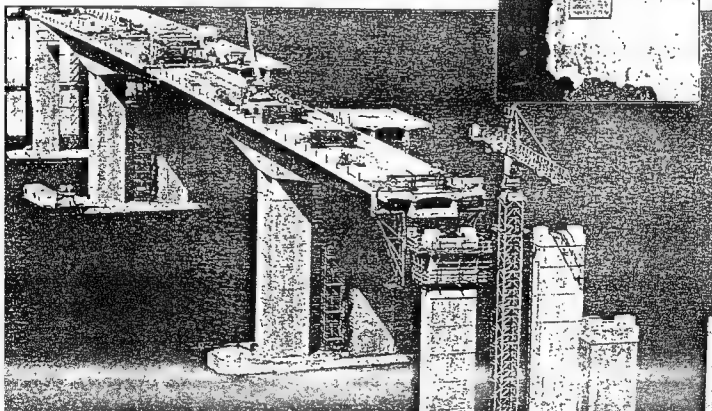


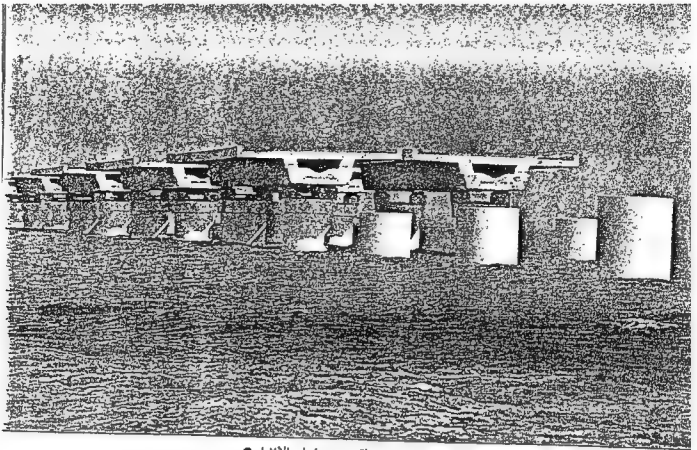
وبلغ طول الجسر ٢٥ كيلومتراً ، نصفه من الجسور ونصفه الآخر من الردميات ، ويتكون من ٧ ردميات في المناطق الضحلة تفصلها خمسة جسور في المياه العميقة .

وهناك طريق مرصوف يتكون من أربعة خطوط سير، خطان لكل اتجاه تفصلها جزيرة صغيرة بالإضافة إلى وجود خط سير آخر يعرض تسعة أقدام مخصص للطوارئ ، وقد صمم الجسر بحيث يتحمل مرور الشاحنات الثقيلة التي لا يزيد وزنها عن ٣٢ طناً ، ويشمل المشروع بالإضافة إلى الطريق البحري محطة الحدود بين البلدين والطرق الموصلة إلى الجسر في كل من المملكة العربية السعودية والبحرين حيث أنها تمثل أهمية للربط بين الطريقين ، أي الطريق البحري وشبكة الطرق الداخلية ، وقد تم بناء الجسور من قطع الأسمنت المسلح المسبق الصنع وبلغ طول القطعة الواحدة ٦٦ متراً وعرضها ١١ متراً .

● حجر الأساس .. واللوحة التذكارية ●

● الجسر .. في إحدى مراحل التأسيس ●





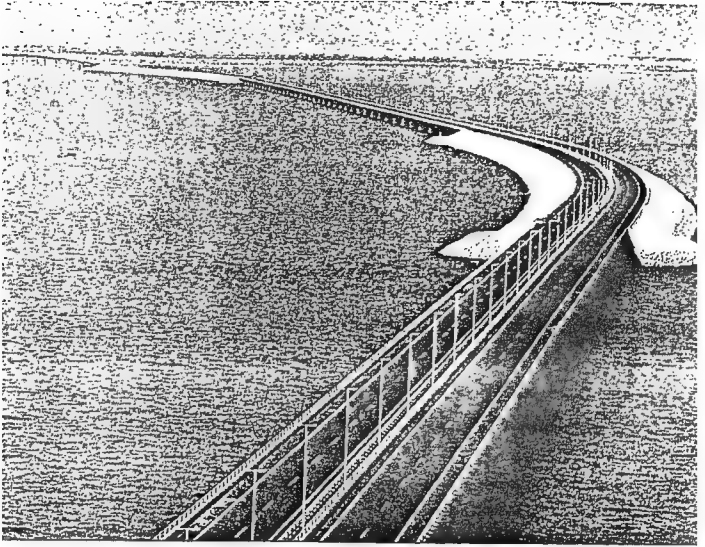
● قواعد الجسر .. مرحلة من مراحل الإنشاء ●

وقد ربط الجسر بشبكة طرق داخلية حيث هناك اتجاهاً للقادم إلى المنطقة الشرقية من البحرين باتجاه يؤدي إلى الخبر والظهران، فيما يتجه الآخر إلى طريق الرياض: الدمام السريع، ويبلغ طول الطريق في المملكة ٣٢ كيلومتراً، أما في الجانب البحريني فتم ربط الجسر بطريق رئيسي يبلغ طوله عشرة كيلومترات، ويؤدي إلى ميناء «سلمان»، وهناك ثلاثة تقاطعات رئيسية تتجه بالقادم إلى المناطق الرئيسية للبحرين، أما تكاليف الجسر فقد بلغت ٥٧٥ مليون دولار، والمشروعات الأخرى ٤٠٠ مليون دولار.

وفي يوم الأربعاء ٢٤ من شهر ربيع الأول ١٤٠٧هـ، الموافق «٢٦» من شهر نوفمبر ١٩٨٦م تم افتتاح جسر الملك فهد الذي يربط بين المملكة العربية السعودية، ودولة البحرين الشقيقتين.

وبدأ مرور السيارات الخاصة والحافلات على هذا الجسر الذي يعد ثاني جسر من نوعه في العالم، والأول في منطقة الشرق الأوسط.

أزاح خادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبدالعزيز «حفظه الله». الستار عن اللوحة التذكارية للجسر قائلاً :



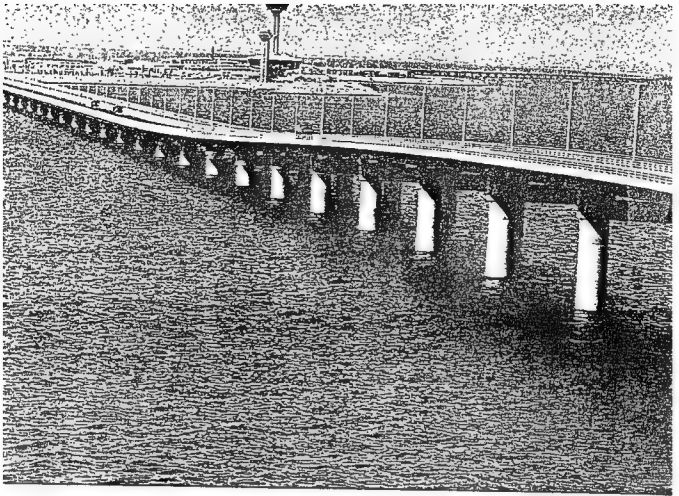
● هكذا يبدو الجسر في مرحلته النهائية ●

بسم الله الرحمن الرحيم ، وعلى بركة الله . . .

ثم تحدث قائلاً :

«لقد كان بودي أن أكتفي بما قاله أخي وحبيبي وصديقي منذ قديم وحتى الآن بنمو الأمير عيسى بن سلمان آل خليفة . . بيد أنني أريد أن أقول إن هذا الجسر هو من منجزات القرن العشرين .

ولقد سبقني بعض الإخوان إلى القول إنه ربما أن أحداً لم يكن يصدق أنه من الممكن أن يقام مثل هذا الجسر الذي كان فكرة ، وكان الاعتقاد بأن من الصعوبة بمكان تنفيذها . . إلا أنه والحمد لله هانحن نلمس ونرى بأعيننا كيف أمكن تنفيذ هذا الجسر الذي كنا قد وضعنا الحجر الأساسي له عندما كنا في مؤتمر قادة مجلس التعاون لدول الخليج العربية ، الذي عقد في



● الحياة تدب على الجسر ●

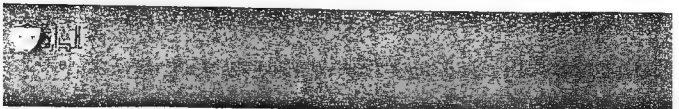
البحرين، وهكذا شاءت إرادة الله أن يفتح الآن هذا الجسر، فله الحمد والشكر» .

وأما كلمة سمو الشيخ عيسى بن سلمان آل خليفة أمير دولة البحرين فهي :

«سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين» صدق الله العظيم .

«أخي خادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبدالعزيز عاهل المملكة العربية السعودية، أصحاب السمو والسعادة.. أيها الحفل الكريم:

في تاريخ الأمم والشعوب أيام تسطر على جبين الزمن أعجاءاً تحفل بمعان سامية وقيم أصيلة هي دائماً مشاعل التوجه إلى المستقبل. وأحسب أننا نعيش اليوم واحداً من هذه الأيام الخالدة . ففي هذه اللحظات يقف التاريخ شاهداً يحكي هذا الإنجاز الشامخ الذي يسعدنا أن نطلق عليه اسم «جسر الملك فهد» .



وإني لأنتهز هذه المناسبة لأزجي إلى أخي العزيز خادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبدالعزيز عاهل المملكة العربية السعودية الشقيقة عظيم الشكر والتقدير على تشریفه لنا بزيارة البحرين تأكيداً لمدى الصلات المتميزة بين البلدين الشقيقين وما يجمعهما من علاقات على مدى الأزمان والحقب مستمدة جذوتها من الصلة الروحية التي تسري في كيان الجسد الخليجي الواحد .

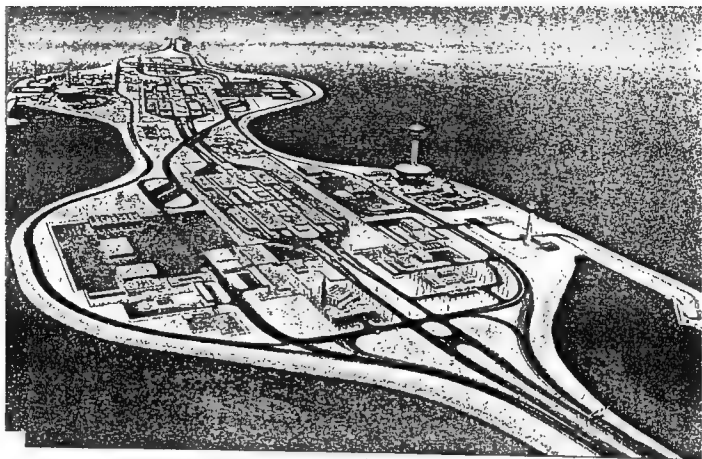
أخي خادم الحرمين الشريفين .. أصحاب السمو والسعادة :

إننا نرى في هذه المناسبة العظيمة عنواناً مضيئاً لتضامتنا بحمد قيمة التواصل الذي أمرنا الله سبحانه وتعالى به، فهو التبراس الذي ننتدي به ، وستظل على عهده ملتزمين ، ومؤمنين دائماً أبداً .

إن ما يجمع البلدين الشقيقين، المملكة العربية السعودية والبحرين هي علاقة وجود، لا علاقة حدود، تجلج في أروع صورها في هذا الإنجاز الشامخ ليربط مهبط الوحي بملتقى الحضارات، وليبرز دليلاً على وضوح رؤيتنا ونفاذها إلى الحقائق والأمانى والأهداف الواحدة. فتهتة ترف إلى شعبي المملكة العربية السعودية والبحرين، وإلى شعوب أسرتنا الخليجية والعائلة العربية وأمتنا الإسلامية . راجين الله العلي القدير أن يبننا العزم لمزيد من التضامن والتآزر بعمق صلات الود والتعاون بيننا على هدي من ديننا الحنيف، وقيمتنا، ومبادئنا الأصيلة . لتستمر شجرة العطاء دائماً وارفة خضراء تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها . والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته» .

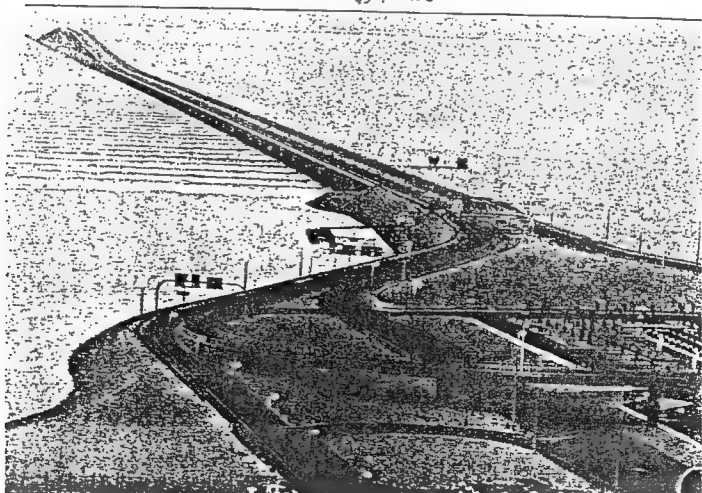
وفي يوم السبت ٢٧ جمادى الأولى الموافق ١٩٨٧/١/٢٧ بدأت في الساعة الثامنة صباحاً طلائع المغادرين براً من وإلى السعودية والبحرين عبر جسر الملك فهد .

هذا وقد استقبل المواطنون من رعايا البلدين الشقيقين بعضهم البعض بتقديم باقات الورود والهدايا المعبرة عن هذه المناسبة التاريخية التي جسدت روح المحبة والإخاء بين البلدين .

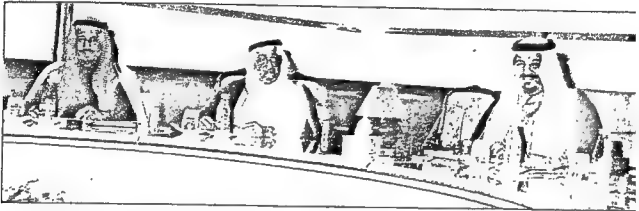


● جزيرة الجسر ●

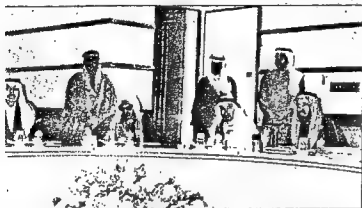
● لفطة للجسر في الماء ●



مناقشة النظام الأساسي لمؤسسة الملك عبدالعزيز الإسلامية



- أصحاب السمو الملكي الأمراء سلطان بن عبدالعزيز، وعبدالله الفيصل، وسلمان بن عبدالعزيز •
• الإثنين ١٩ جمادى الأولى ١٤٠٧ هـ، الموافق ١٩ من يناير ١٩٨٧ م،
- صاحب السمو الملكي الأمير نواف بن عبدالعزيز «عضواً»
- صاحب السمو الملكي الأمير سلمان بن عبدالعزيز «الأمين العام للجنة»
- صاحب السمو الملكي الأمير عبدالرحمن ابن عبدالله بن عبدالرحمن «عضواً»
- صاحب السمو الملكي الأميرد. / تركي ابن محمد بن سعود الكبير «عضواً»
- صاحب المعالي الدكتور/ عبدالله بن عبدالمحسن التركي مدير جامعة الإمام محمد ابن سعود الإسلامية «عضواً»
- سعادة الدكتور عبدالله العثيمين «عضواً»
• الإثنين ١٩ جمادى الأولى ١٤٠٧ هـ، الموافق ١٩ من يناير ١٩٨٧ م،
ترأس صاحب السمو الملكي الأمير سلطان ابن عبدالعزيز النائب الثاني لرئيس مجلس الوزراء ووزير الدفاع والطيران والمفتش العام، اجتماع اللجنة الأساسية لمؤسسة الملك عبدالعزيز الإسلامية الذي عقده بمبنى وزارة الدفاع والطيران بالرياض .
وقد حضر اجتماع اللجنة الأساسية لمؤسسة الملك عبدالعزيز الإسلامية كل من :
- صاحب السمو الملكي الأمير عبدالله الفيصل «عضواً»



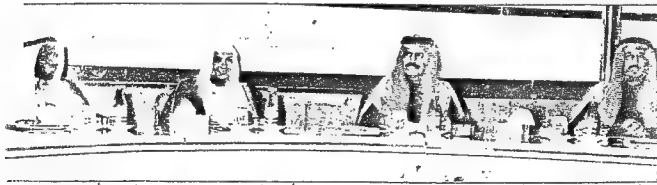
● جانب من أعضاء اللجنة ، فمن اليسار صاحب السمو الملكي الأمير نواف بن عبدالعزيز والأساتذة صالح الحصين ، والأساتذة محمد حسين زيدان ، والدكتور عبدالله النعيم ●



● صاحب السمو الملكي الأمير سلمان بن عبدالعزيز يتحدث إلى الأساتذة محمد حسين زيدان ، بعد الاجتماع ●

- سعادة الأستاذ/ صالح الحصين «عضو»
- سعادة الأستاذ/ محمد حسين زيدان «عضو»
- سعادة الدكتور/ أحمد محمد علي «عضو»
- سعادة الأستاذ/ محمد بن عبدالله الحمدان/ «سكرتير اللجنة»

وفي ختام الاجتماع، صرح صاحب السمو الملكي الأمير «سلمان بن عبدالعزيز» أمير منطقة الرياض والأمين العام للجنة، بأن هذا الاجتماع نقّش فيه مسودة النظام الأساسي، وسوف تتم مناقشة النظام في جلسة أخرى تعقد في ١٨/٦/١٤٠٧هـ إن شاء الله بحضور جميع الأعضاء، ورأت اللجنة إتاحة الفرصة لوقت أطول ليكون النقاش أوسع وأطول ولتغطي جميع نقاط النظام، ونأمل أن يقر النظام في الجلسة المقبلة، كما تأمل اللجنة أن يرفع النظام بعد ذلك إلى خادم الحرمين الشريفين «الملك فهد» لإقراره وصدور المرسوم الملكي به حتى تبدأ المؤسسة نشاطها بإذن الله تعالى.

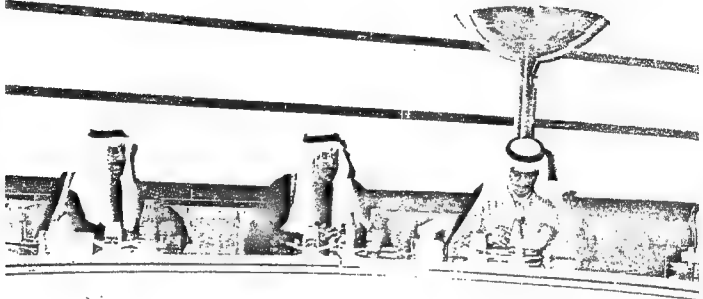


● أصحاب السمو الملكي الأمراء ، سلمان بن عبدالعزيز ، د. د. تركي ، ثم الأستاذ الدكتور عبدالله التركي ، والدكتور أحمد محمد علي ●



● أصحاب السمو الأمراء سلطان بن عبدالعزيز وعبدالله الفيصل وعبدالرحمن بن عبدالعزيز بن عبدالرحمن ●

● الإثنين ١٨ من شهر جمادى الآخرة
١٤٠٧ هـ ، الموافق ١٦ من شهر فبراير
١٩٨٧ م) اجتمع أعضاء اللجنة الأساسية
لمؤسسة الملك عبدالعزيز الإسلامية برئاسة
صاحب السمو الملكي الأمير «سلطان بن
عبدالعزیز» النائب الثاني لرئيس مجلس
الوزراء ووزير الدفاع والطيران والمفتش
العام ، وذلك في مكتب سموه بالوزارة .
وقد صرح صاحب السمو الملكي الأمير
«سلطان بن عبدالعزيز» أمير منطقة
الرياض ، والأمين العام للجنة ، أنه تم في
الاجتماع إقرار النظام الأساسي للمؤسسة ،



● أصحاب السمو الأمراء سلطان، وعبد المجيد، وده، تركي ●



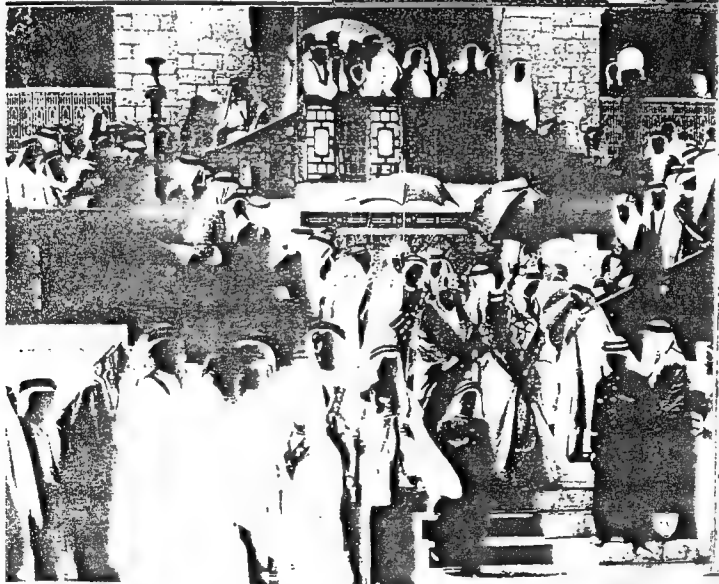
ومن ثم رفعه إلى خادم الحرمين الشريفين الملك «فهد بن عبدالعزيز» حفظه الله ، لإصدار المرسوم الملكي اللازم بعد موافقته عليه .

وأوضح سموه أن هذا النظام ، نظام شامل وعام يعني بتحقيق الأهداف التي يتوخاها خادم الحرمين الشريفين وسمو ولي عهده الأمين من إنشاء هذه المؤسسة .

● جانب من أعضاء اللجنة الأساسية يتوسطه الأستاذ/ محمد حسين زيدان رئيس التحرير وعلى يمينه الأستاذ صالح الحسين وعن يمينه الأستاذ محمد بن عبدالله الحمدان سكرتير اللجنة ●



الملء عب في د و ل



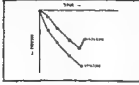


سيد العزيز في البحرين



كتب جديدة

PRINCIPLES OF PETROLEUM PROSPECTING



KIRJI MAGARA

Published by
Samany Publishing Center
Shaykh Abdullatif University
Jeddah, Saudi Arabia
1007 - 1008

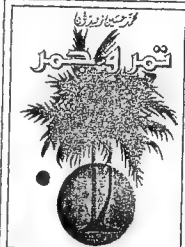
- مبادئ التنقيب عن البترول
باللغة الإنجليزية.
د. كينجي ماجارا
٢٠١ صفحة

الناشر: مركز النشر العلمي بجامعة
الملك عبدالعزيز - جدة .



- التجربة الشعرية عند ابن
الملقب
د. عبده عبدالعزيز قلقيلة.
٣٧٠ صفحة

الناشر: النادي الأدبي بالرياض.



- تمر .. وجرم
محمد حسين زيدان
٦٩٥ صفحة

الناشر: دار العلم للطباعة والنشر
- جدة .



- المربيات الاجنبيات في البيت
العربي الخليجي
د. / ابراهيم خليفة
١٢٧ صفحة

الناشر: مكتب التربية العربي لدول
الخليج - الرياض.



- الحياة في ظل العقيدة
الاسلامية .
زيد بن محمد بن هادي
المدخلي
١١٢ صفحة

الناشر: النادي الأدبي بجازان .



- أضواء .. وظلال «شعر»
د. احمد عبدالقادر المهندس
١٧٥ صفحة - الطبعة الاولى
١٤٠٦هـ

الناشر: المؤلف .



● **الحجامة الكبريتية في الطب**
تحقيق: د. عبدالله بن محمد
ابن حسين أبو داهش.
٨٨ صفحة

الناشر: المحقق.



● **دليل رسائل ابن خلدون في التاريخ**
والدكتوراه المسجلة في كلية
اللغة العربية بالرياض
حتى نهاية الفصل الأول من
العام الجامعي
١٤٠٥هـ - ١٤٠٦هـ.

إعداد: د. أحمد بن حافظ
الحكمي.



● **التكامل الاقتصادي بين دول
مجلس التعاون الخليجي**
جاسم بن محمد القاسمي
١٩٠ صفحة

الناشر: مركز الإنماء القومي -
بيروت.



● **العجاء ودوره في تطوير
الأرجوزة في العصر
الأموي.**
غانم جواد رضا
١٩٢ صفحة

الناشر: مركز دراسات الخليج
العربي بجامعة البصرة -
العراق.



● **اقتصاديات تنمية الطاقة
الكهربائية في المملكة
العربية السعودية**
د. فاروق صالح الخطيب.
٢١٦ صفحة

الناشر: مركز النشر العلمي بجامعة
الملك عبدالعزيز - جدة.



● **الدراسات العليا في كلية
الآداب خلال ثلاثة عشر
عاماً.**
١٣٩٣هـ - ١٤٠٦هـ -
٦٤ صفحة.

كلية الآداب - جامعة الملك
سعود.



انعقاد الدورة التاسعة لمراكز الدراسات والوثائق في أبوظبي

٦ - مركز دراسات الخليج العربي - جامعة
البصرة.

٧ - مركز الوثائق والأبحاث - الدوحة.

٨ - مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية
- الكويت.

٩ - مركز الدراسات والبحوث اليمنى.

كما حضر مركز الوثائق والدراسات
الإنسانية - جامعة قطر.

ومركز الوثائق والدراسات برأس الخيمة.

ومركز الوثائق بالديوان الأميري -
الكويت.

انعقدت الجلسة الأولى واختير في بدايتها
معالي الأستاذ/ أحمد خليفة السويدي رئيساً
للدورة التاسعة ومعالي الشيخ عبدالله بن
خالد آل خليفة رئيساً للجلسات كما شكلت
لجنة للصياغة.

انعقدت في أبوظبي الدورة
التاسعة لمراكز الدراسات
والوثائق في الخليج العربي والجزيرة العربية
في الفترة من ١٦ - ١٨ ربيع الأول
١٤٠٧هـ، وقد مثل الدارة كل سعادة
الأمين العام للدائرة الأستاذ/ عبدالله الحقييل
والأستاذ/ عبدالرحمن السراء مدير عام
الشئون الإدارية والمالية وقد شارك في هذه
الدورة كل من :

١ - الأمين العام للمراكز والهيئات معالي
الشيخ عبدالله بن خالد آل خليفة .
٢ - الدكتور/ مصطفى عبدالقادر التجار
المستشار العلمي للأمين العام والأمين العام
لاتحاد المؤرخين العرب .

٣ - مركز الوثائق والدراسات في أبوظبي.

٤ - مركز الوثائق التاريخية في البحرين.

٥ - دارة الملك عبدالعزيز.



● الأمين العام الأستاذ الدكتور مصطفى عبدالقادر التجار في اجتماع الدورة التاسعة ●

كلمة دعا فيها إلى بذل الجهود لمواصلة العمل على تنقية المصادر التاريخية القديمة من الأخطاء والوصول إلى المكتبة العربية والمكتبة العالمية ولاشك أن مسيرة المراكز التي بدأت منذ تسع سنوات قد شهدت وتشهد جهداً بارزاً وملموساً في مجال التوثيق والبحث العلمي وذلك بفضل العطاء الخصب للمراكز، ولقد حاولت الأمانة العامة أن تكون جسراً يربط بين المراكز والمهنيات العلمية في دول المنطقة وهو جسر نتحنى له أن يكون أكثر قوة وأن يكون قد حقق الرباط الذي يربط الجهود الخيرة التي بذلت وتبذل منكم جميعاً لتحقيق مانرنو إليه .

بدأ الاجتماع الأول بكلمة من معالي الأستاذ أحمد السويدي رحب فيها بالوفود المشاركة في هذا اللقاء وأعرب عن سعادته لانعقادها في دولة الإمارات العربية المتحدة وأشاد بدور المراكز في دعم حركة البحث العلمي المرتبطة بشئون الخليج والجزيرة العربية.

ومن هنا فإننا نتطلع للجهود العلمية لمراكزكم وإلى مايقوم به العلماء والباحثون من عمل علمي وبحوث مفيدة وماتقوم به الأمانة من جهود تنسيقية راجين أن تحقق ثمارها المنشودة كما ألقى الأمين العام للمراكز معالي الشيخ عبدالله بن خالد آل خليفة



● سعادة الأستاذ عبدالله الحقييل الأمين العام لدائرة الملك عبدالعزيز في اجتماع الدورة التاسعة - أبو ظبي ●

أقيم بهذه المناسبة واشتمل على مطبوعات ومنشورات المراكز بما في ذلك الدارة وقد حضر حفل الافتتاح ومعرض الكتاب سعادة السفير السعودي الشيخ صالح الفوزان.. ثم واصل المجتمعون اجتماعاتهم بقاعة المجمع الثقافي في أبوظبي..

وفي بداية الجلسة تم انتخاب معالي الأستاذ أحمد السويدي.. رئيس مجلس أمناء المجمع الثقافي رئيساً للدورة.. ومعالي الشيخ عبدالله بن خالد آل خليفة رئيساً للجلسات..

وقد عرض في الاجتماع مسألة انضمام

كما ألقى الأمين العام لاتحاد المؤرخين العرب كلمة تحدث فيها عن نشأة المراكز وأنها مظهر من مظاهر التعاون العلمي وهي خطوة على الطريق تحقق فيها للباحثين والدارسين والمتخصصين مكاسب علمية كبيرة وهي مظهر حضاري تعزز به المنطقة وإن اتحاد المؤرخين العرب الذي يضم المؤرخين من المحيط إلى الخليج يضع إمكاناته كافة في خدمة الأمانة العامة للمراكز سواء في مؤتمراته التاريخية أو في منشوراته ومجلته أو في علاقاته الدولية أو في هيئاته العلمية ولجانه الاستشارية..

ويعد ذلك افتتاح معرض الكتاب الذي

المطلوب. ثم دارت بعد ذلك خلال الجلسات مناقشات علمية تناولت أساليب التنسيق بين المراكز وتبادل المعلومات..

وقد اتخذ المجتمعون من خلال جلساتهم التوصيات التالية :

أولاً : تأكيد الموافقة على انضمام المراكز التالية إلى الأمانة العامة وهي :

١ - مركز الوثائق والدراسات - رأس الخيمة.

٢ - مركز التوثيق الإعلامي - بغداد..

٣ - مركز الوثائق - الديوان الأميري - الكويت..

٤ - مركز الوثائق والدراسات الإنسانية - جامعة قطر..

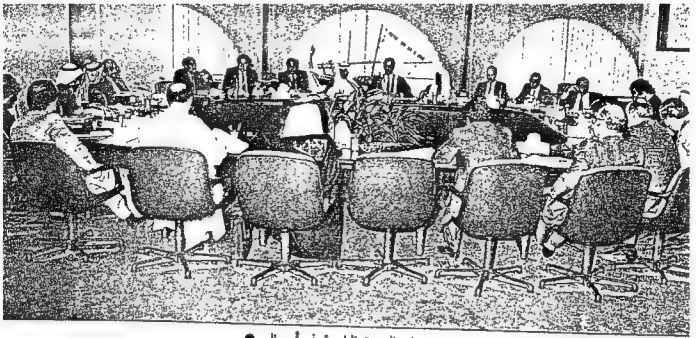
ثانياً : الموافقة على إصدار سجل سنوي للمراكز حول فهرسة الوثائق المتيسرة والجديدة لكل مركز في حدود خمسين صفحة لكل مركز..

ثالثاً : تأكيد الاهتمام بفكرة الكتاب السنوي.. حيث أنه المظهر العلمي لنشاط المراكز والأمانة العامة على أن تشمل الأبحاث موضوعات متعددة في إطار الدراسات التاريخية والاقتصادية والجغرافية والاجتماعية والوثائقية حول الخليج

مركز الوثائق والدراسات في رأس الخيمة ومركز الوثائق بالديوان الأميري في الكويت ومركز التوثيق الإعلامي في بغداد ومركز الوثائق والدراسات الإنسانية في جامعة قطر.. وقد وافق المجتمعون على الترحيب بهم وقبول عضويتهم.. وقد أبدى المسؤولون عن هذه المراكز تقديرهم وشكرهم لزملائهم ثم طلب الرئيس من مدراء المراكز تقديم عرض عن أنشطة المراكز..

وقد ألقى كل مدير مركز عرضاً عن نشاطه وقد قام الأمين العام للدارة الأستاذ عبدالله الحقييل بإلقاء عرض عن نشاط الدارة وماتم إنتاجه وما تمحظى به الدارة من اهتمام ورعاية من قبل معالي وزير التعليم العالي ودعمه المتواصل لها.. بحيث أصبحت واجهة علمية مشرقة في مواكبة النهضة الشائخة التي تسود اليوم أرجاء مملكتنا الغالية.. وتحدث عن إنجازاتها ونشاطاتها ودور المجلة في خدمة العلم والفكر والتراث..

كما نوقش موضوع جمع الوثائق العثمانية لأهمية هذا الموضوع لمنطقة الخليج والجزيرة العربية وكذا مسألة تغيير تسمية المراكز والهيئات إلى اسم مختصر يفي بالغرض



● اجتماع الدورة التاسعة في أبو ظبي ●

في الجزيرة العربية وأن تصل إلى المركز قبل شهرين على الأقل من انعقاد الدورة ويتفق عليها وأن تصدر هذه الأبحاث في كتاب سنوي أو في سلسلة من الكتب تصدر عن الأمانة العامة وتشكل لجنة تحكيم علمية لهذا الكتاب في البلد المضيف..

سابعاً : تأكيد أهمية التوصية المتخذة مسبقاً في لقاءات المراكز حول ضرورة تبادل المراكز فهارس الوثائق الموجودة لديها منعاً للتكرار واقتصاداً في المال والجهد ..

ثامناً : الموافقة من قبل المجتمعين على عقد الدورة العاشرة في نوفمبر ١٩٨٧م بالكويت وذلك بعد موافقة المسؤولين في جامعة الكويت على استضافة الدورة ..

تاسعاً : تقديم الشكر لمعالي أحمد خليفة السويدي رئيس مجلس أمانة المجمع الثقافي والسيد عبدالرحيم المحمود القائم بأعمال الأمين العام وزملائه في المركز والمجمع لما قاموا به من جهد طيب في تنظيم هذه الدورة وعلى ما وجدته الوفود من حفاوة وتكرم ..

والجزيرة العربية وأن تصل إلى المركز قبل شهرين على الأقل من انعقاد الدورة ويتفق عليها وأن تصدر هذه الأبحاث في كتاب سنوي أو في سلسلة من الكتب تصدر عن الأمانة العامة وتشكل لجنة تحكيم علمية لهذا الكتاب في البلد المضيف..

رابعاً : الموافقة على تسمية الأمانة العامة للمراكز كالتالي :

والأمانة العامة لمراكز الدراسات والوثائق في الخليج العربي والجزيرة العربية..

خامساً : التوصية بتحقيق اقتراحات مركز الدراسات والبحوث اليمني وذلك بإمكانية دراسة إجراء بحوث مشتركة عبر الأمانة العامة ..

سادساً : يستمر مركز الوثائق والدراسات

ندوة العلاقات المصرية السعودية في عهد الملك عبدالعزيز آل سعود

٥ شوال ١٣١٩ - ٢ ربيع الأول ١٣٧٣هـ

١٥ يناير ١٩٠٢ - ٩ ذو القعدة ١٩٥٣ م

أهداف الندوة

تدعيمًا للعلاقات الأخوية بين البلدين
العربين المصري والسعودي في مختلف
المجالات وفي إطار من الوحدة الإسلامية
التي تجمع بين الشعبين الشقيقين في مصر
والمملكة العربية السعودية .

واستمراراً للمؤتمر العالمي عن تاريخ
الملك عبدالعزيز بن عبد الرحمن آل سعود
وأعماله الذي عقد بمدينة الرياض في رحاب
جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية
وتحت إشرافها في الفترة من ١٨ - ٢٢ ربيع

من السبت ١٣ إلى الثلاثاء ١٦ شعبان
١٤٠٧هـ ، الموافق ١١ إلى ١٤ إبريل
١٩٨٧م استمعت ندوة العلاقات المصرية
السعودية بمدينة الزقازيق ، محافظة
الشرقية / مصر والتي ستنظمها جامعة
الزقازيق ، وجامعة قناة السويس ،
بالتعاون مع جامعة الإمام محمد بن سعود
الإسلامية بالرياض / المملكة العربية
السعودية . وقد تم اختيار الأستاذ
الدكتور / رأفت غنيمي الشيخ عميد كلية
الآداب - جامعة الزقازيق ، أميناً عاماً
للندوة .

٢ - جهود الملك عبدالعزيز في إحياء
التضامن العربي والإسلامي .

٣ - الملك عبدالعزيز والحج .

الثاني : الروابط الاجتماعية :

١ - الانتماء العربي لشعبي البلدين .

٢ - ارتباط الأسر العربية في مصر بالأسر
العربية في المملكة العربية السعودية .

٣ - أثر الحج في التقارب بين الشعبين .

الثالث : الروابط الدينية والثقافية :

١ - الاسلام محور ثقافة المجتمع في
البلدين .

٢ - دعوة التوحيد السلفية في البلدين .

٣ - التعاون بين البلدين في مجال التعليم .

٤ - أثر الجامع الأزهر في توثيق العلاقات
بين البلدين .

الرابع : الروابط السياسية :

١ - تشابه مواقف مصر والمملكة العربية
السعودية في قضايا :

أ - جامعة الدول العربية .

ب - التضامن الإسلامي .

ج - تأييد استقلال الأقطار العربية

د - تأييد قضية فلسطين .

الأول ١٤٠٦ هـ الموافق ١ - ٥ ديسمبر
١٩٨٥ م .

وتحقيقاً لتوصيات المؤتمر بعدم التوقف
عن أعماله وإنما تستمر الندوات
والمؤتمرات بما يوضح جوانب وأعمال
واتصالات الملك / عبدالعزيز آل سعود ؛
فقد بادرت جامعة الزقازيق وجامعة قناة
السويس ممثلتين في كلية الآداب بالزقازيق
وكلية التجارة ببور سعيد بالتعاون مع جامعة
الإمام محمد بن سعود الإسلامية نظراً
لسبقها في عقد المؤتمر العالمي عن تاريخ
الملك / عبدالعزيز وما حفل به المؤتمر من
أبحاث وأعمال علمية بالدعوة لإقامة ندوة
عن علاقة مصر والسعودية في النصف الأول
من القرن العشرين أي في فترة حكم
الملك / عبدالعزيز آل سعود .

وتأتي هذه الندوة تعبيراً عما يربط بين
البلدين من روابط تاريخية : دينية وثقافية
 واجتماعية وسياسية .

موضوعات الندوة :

الأول : موضوعات أساسية :

١ - الملك عبدالعزيز وتوحيد المملكة
العربية السعودية .

هـ - تأييد قضايا التحرير للشعوب الإسلامية .

٢ - معاهدة ١٩٣٦م بين البلدين .

٣ - زيارة الملك عبدالعزيز لمصر وآثارها في توثيق العلاقات بين البلدين .

الخامس : موضوعات أخرى ذات صلة بالموضوع توافق عليها اللجنة :

موعد الندوة ومكانها :

١ - شخصيات من جامعات المملكة العربية السعودية .

٢ - شخصيات من جامعات جمهورية مصر العربية .

٣ - شخصيات عامة .

يبدأ عقد الندوة بمدينة الزقازيق ثم تستكمل بمدينة الاسماعيلية بجمهورية مصر العربية وفي مباني جامعة قناة السويس وذلك في شهر شعبان ١٤٠٧هـ ، الموافق شهر

• • •

● حصل الأستاذ/ عبدالله الحقييل الأمين العام لدارة الملك عبدالعزيز على وسام المؤرخ العربى من اتحاد المؤرخين العرب وذلك بناء على قرار الجمعية العامة لاتحاد المؤرخين العرب تقديراً لإسهاماته في خدمة التاريخ العربى والإسلامي .

■ • •

● من الأحد إلى الخميس ٣-٧ جمادى الآخرة ١٤٠٧هـ قام الأستاذ أحمد ابن عبدالرحمن العمرو مدير إدارة الوثائق بالدارة ، بزيارة مركز الوثائق في دولة الإمارات العربية المتحدة ، بهدف الاطلاع على الوثائق الموجودة هناك وقد اختار مجموعات منها لتزود الدارة بها .

دائرة الملك عبدالعزيز تشارك في الاجتماع السنوي لاتحاد المؤرخين العرب



التوصيات من بينها :

- الموافقة على فكرة إقامة مؤتمر التاريخ العربي في مناهج المدارس الأمريكية .
- الموافقة على إقامة ندوة الحوار العربي الإفريقي حول العروبة والإسلام في الخرطوم .

- الموافقة على عقد ندوة عن دور المؤرخين العرب في مواجهة أساليب الصهيونية في تشويه تاريخ الأمة العربية .

- الموافقة على المشاركة في مؤتمر الوثائق العثمانية المتعلقة بفلسطين حول ملكية الأرض .

- إقرار عقد الندوة القومية العلمية لكتابة التاريخ العربي في العراق .

- الموافقة على قبول الأجهزة العلمية المهداة من حكومات كل من المملكة العربية السعودية ، والكويت وسلطنة عمان . .
ومعروف أن خادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبدالعزيز حفظه الله ، كان قد بادر بإهداء مجموعة «الدوايب الالكترونية» إلى مقر الاتحاد لحفظ الوثائق ، والأرشيف ، مما كان له أعظم الأثر في نفوس مسئولي الاتحاد ، والمؤرخين على حد سواء .

وكان الاتحاد قد ناقش موضوعات أخرى وأقرها ، من بينها تعديل النظام الأساسي للاتحاد .

عقد اتحاد المؤرخين العرب اجتماعه السنوي في ضيافة دولة الإمارات العربية المتحدة ، في الفترة من ١٠ - ١١ جمادى الأولى ١٤٠٧هـ ، وقد حضره لفيف من الشخصيات العلمية ، والفراء ، ورجال الفكر والأدب ، وممثلي الهيئات والأجهزة العلمية في الدول العربية .

وشاركت دائرة الملك عبدالعزيز في هذا الاجتماع بصفتها عضواً في الاتحاد ، وقد مثلها سعادة الأستاذ عبدالله حمد الحقييل الأمين العام للدائرة .

ووجه الاتحاد نداء إلى المؤرخين العرب والمسلمين لمقاطعة «مؤتمر معركة حطين» الذي يزعم الكيان الصهيوني التخطيط له ، وتتبنى عقده الجامعة العبرية بفلسطين المحتلة ، لأن الهدف من ورائه هو تشويه التاريخ والتراث الإسلامي ، وإن الاتحاد سينتج تنظيم ندوة تعقد إما في الأردن أو في سوريا يدعى لها المتخصصون في تاريخ الحروب الصليبية لإيضاح كافة الجوانب في هذه الحروب ، ومجابهة مواقف الكيان الصهيوني لتشويه التاريخ الإسلامي . وقد اختير سعادة الدكتور عبدالله الشبل أميناً مساعداً للاتحاد لشئون المناهج التاريخية . . كما اختير مقررًا للاجتماع السنوي هذا العام . وقد انتهى المجتمعون إلى عدد من

ملحق خاص




إلى رحمة الله يا شيخ حسن آل الشيخ

حَسَنُ آلِ الشَّيْخِ وَالدَّارَةُ ..

بقلم الأستاذ محمد حسن زيدان

رئيس التحرير

..... ومن حق هذا الإنسان ، الرجل حسن بن عبدالله بن حسن آل الشيخ  أن يكون في سجل المجلة ، بل في دارة الملك عبدالعزيز كلها ، علماً نعطي القارئ لمحات من سيرته التي لم تكن إلا بالعلم ، والعمل للعلم ، والخير دليله العلم ، بل ودليله الأصالة ورثها ويورثها ، فهذا الوزير للمعارف ، فالوزير للتعليم العالي ، فريس مجلس إدارة دارة الملك عبدالعزيز ، لم يكن في كل ذلك إلا المعلم والمتعلم ، فمن نعمة الله عليه أن كساه الله الذكاء ، والذكاء .. فقليل من الرجال من يجمع هاتين الصفتين فلربما ذكي لا يكون زكياً ، وطالما أن كان الذكي غير الزكي . فالذكاء طهارة النفس بالعفة والطيبة وعمل الخير ، وقد كان الشيخ حسن كذلك .

والذكاء طبع مسيرته بأن يكون علماً يتزود بالمعرفة لا يكتنزها ، وإنما هو يمنحها لكل طالب معرفة ، سواء كانت من ثقافته الخاصة أو من تنقيفه ، وزيراً للتعليم يرأس الجامعات .

عرفته شاباً قبل أن يجلس على كرسي الوظيفة من خلال ماكتب .. مما كنت أنشره له في



جريدة البلاد ولما طرحْتُ فكرة تقنين الشريعة ، أي لتصاغ مادة بعد مادة ، كتب عن ذلك يستوضح ولا يستوحش .. وأصبح وزيراً .. فإذا قارئ كبير وكاتب كبير يسألني :

— هل أنت متأكد أن هذا الشاب هو الكاتب بذلك الأسلوب ، قلت له :

— هل بلغ من إعجابك أن تستكثر عليه ذلك ، قال :

— لا ..

ولكن أخذتني ظنة .. أعطيتني اليقين بأنه هو صاحب الأسلوب ، هذا السائل هو محمد عمر توفيق .

ولا عجب فقد كان فقيدنا صاحب أسلوب لم يقتصر على إجادة النثر وإنما اتسع لإجادة الخير، وأتبع هذه المقدمة بمقالي التالي :

رثاء الشيخ توعية للشباب

أجل .. فرثاء الشيخ حسن بن عبدالله بن حسن آل الشيخ .. من شيمة الوفاء .. ان كتبه على قرطاس فقد كتبه هو على كل ماشرُفَتْ به وماكُلُفَتْ به .. نشلني من غيبه أظلمت به نفسي .. أعطاني بالوفاء منه وبالطيبة الحيرة أكثر ما أنا فيه ..

كان علماً .. في وجدانه نور .. أثار به السبيل للكثيرين .. ولست إلا واحداً منهم .. عرفته شاباً في ثوب شيخ وبرؤية البصر .. شيمته الوقار .. ثم عرفته شيخاً في عَزْمَةِ الشباب .. فإذا هو إنسان تخطو به مسيرة العلم .. ترَسَّم بها خطوات وزير المعارف .. أمير العلم الملك فهد بن عبدالعزيز كأنما كل شيء للمدارس والجامعات .. هو الشيء الذي رسمته الدولة بقيادة أمير العلم الملك فهد .

تلك القيادة التي أسسها ناشر العلم أول الأمر .. الإمام السلطان الملك عبدالعزيز بن عبدالرحمن .. وجاء على الأثر .. أبناؤه الملوك زادوا حين شادوا .. فكلما أخرجت الأرض خيرها بنوا على الأرض كل عطاء للخير .

إن الشيخ حسن في وزارة المعارف وفي وزارة التعليم لم يتأخر .. بل في كل لحظة كان يتقدم .. فالمبتعثون .. ما أكثرهم .. وما أحسنهم .. تكاثروا .. وكان المكثرون لهم هذا الوزير .. هذا الشيخ حسن من آل الشيخ .

عرفته صديقاً للخيرين .. لأنه كان صادقاً مع نفسه .. وكان صديقاً لمن يرتفع عن الدنيا فإذا الشيخ يسبغ عليه المزايا .. فكم من شاب اقترب منه صديق طفولة .. صديق شباب إلا وقربه حتى اقتربوا به .. يرتفعون إلى منازل صنعها لهم .. ولكن بعض الذين كبروا به .. قد استكبروا عليه .. فلم يجزع .. ولم يفكر في النيل منهم .. عفا .. يصفح .. ولا يصفح ..

كان يسمع الكلمة الناصحة .. سماعه كلمة من يرجون العون .. كنت به رئيساً لتحرير مجلة الدارة .. وكنت به عضو مجلس إدارتها .. وكنت له الشاكر الوفي .. فهو حين عرفني .. عرفني نفسي .. سمح لي لثلا يشق على بالسفر إلى الرياض من جدة .. فدعاني يميزني لتصدر مجلة الدارة في جدة .. شكرت .. ولكني أبيت .. أقول له انها مجلة الدارة .. دارة الملك عبدالعزيز «تفمده الله برحمته» .. فلا بد أن تكون المجلة في بيت الدارة .. وفي الرياض ، لأن لا أريد أن تكون «الدارة» منقسمة على نفسها .. وأصدرت المجلة في غرفة واحدة .. المكتب فيها وكذلك المنافع .. كأنما الغرفة بيت المجلة وبيت رئيس التحرير .. حرصت على الوحدة احتراماً .. وما سألت عن أي عائق ، لأن الوفاء للدارة وللشيخ يشرفني أن أكون في موضع التقدير منه .

وكم أنا مدين له بما سلف .. فأبتائي كان المتفضل على منحهم الابتعاث لينالوا العلم ..



ولم يكن .. هذا الشكر له لأنه اختصني بذلك بل كان فضله على الكثيرين ممن استأهلوا أن يكونوا أهل علم يتبوءون أعلى المراكز اليوم .

علمت أنه ولد في المدينة المنورة .. وتعلمون أنه نشأ في مكة المكرمة .. ويعلم الكثيرون من هنا وهناك أنه الرجل احتضته اليمامة، فإذا هو وزير المعارف والتعليم .. لا ينحصر في اليمامة ولا يحتجز عن الحجاز .. ولايتهم بالقصور نحو تهامة .. كأنما بصمة الكيان الكبير، المملكة العربية السعودية قد أشرقت في كل عمل ولكل أمل ..

سمع مني حين قلت له لنترك الإغراء حين نتحدث عن أي مذهب ضال .. فالحديث في ظاهره الحرب على المذهب الضار ، وفي خلفياته كثير من الضرر .. يستحوذ على بعض النفوس التي هرب منها لب المعرفة ومعرفة اللباب .. سمع ذلك فاستحسن ولعله قد اتصل بمن يملك المنع .. كأنما هو قد اقتدى بالإمام ناصر السنة .. قاهر البدعة أحمد بن حنبل «لايرد على المبتدعين لثلا ينشر أقوالهم» وإنه لفقيد .. فقدنا شخصه يرحمه الله .. ولكننا لم نفقد عمل الخير منه .. يذكره الشاكرون .. ولايجرؤ الناكرون أن ينسوا بينت شفه .. والعزاء لأبنائه وأسرته ولكل الذين تمتعوا بما فعل لهم من الخير .. فالطية كان هو بها الخير .. يذكر في الطيبين يرحمه الله .

وأخيراً... فإن شيمة الحياء فيه كانت تحمل على الاستحياء منه .

ولعل هذه السيرة فيها التوعية للشباب يحملهم العلم والوطنية والخلق على أن يكونوا مثل الشيخ حسن .



وَإِذَا الطَّيِّبَةُ اتَّقَلَّتْ

لِلشَّرِّ

بقلم: الأستاذ عبدالله حمد الحقييل
الأمين العام للدارة

قال الله تعالى: «الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون»
بهذه الآية الكريمة استهل كلمتي في رثاء الفقيد الشيخ حسن بن عبدالله آل الشيخ
وزير التعليم العالي ورئيس مجلس إدارة دارة الملك عبدالعزيز والمشرف العام على هذه المجلة
والمحب لها ، وكثيراً ما كان يسأل عنها في كل لقاء معه ، فقد كان يهتم بالدارة ويحرص على
مسيرتها وتطورها ولقد كان آخر اتصال معاليه بي هاتفياً قبل وفاته يسأل عن أحوال الدارة
ويتفقد أحوالها ويتبادل الود الكريم والأخوة الصافية وكنت أقرأ له ما يخطه يراعه من أدب





الفكر في شتى الموضوعات .

كل ذلك مما جعلني شديد الحسرة على وفاته ولكن ذلك تقدير الرب الرحيم «وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد أفإن مت فهم الخالدون كل نفس ذائقة الموت ، فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون» ..

هذا هو عزائونا في الفقيد والله مع الصابرين .. «وإذا المنيه أقبلت لا تدفع» لقد فارق الحياة وهو يكتب ويقرأ يشمل المصاييح المضيئة معرفة وعرفاناً ولقد قال الشاعر :

لعمرك ما الرزية ففقد مال .. ولا فرس يموت ولا بسمير
ولكن الرزية فقد حر .. يموت بموته خلق كثير

لقد زاملت الرجل ربع قرن في وزارة المعارف ثم في دارة الملك عبدالعزيز التي كان رئيساً لمجلس إدارتها ومشرفاً عاماً عليها والتي أعطاها جل رعايته واهتمامه ومتابعته ولقد كان موفقاً في أعماله وتوجيهاته الفكرية ، وكان عنواناً للأدب الجم والخلق الفاضل ، وكاتباً مجيداً وأديباً متمكناً ، إلى جانب ما يمتاز به من رقة الإحساس ورهافة المشاعر ، كما كان متواضعاً ومحباً للناس ولقد عمل جامداً على تطوير التعليم والرقى بمستوى الجامعات ، وإن الدارة ممثلة في مجلتها لتنمى أحد رجال العلم والأدب والفكر في هذا الوطن الغالي ، ومن أسهموا في وضع اللبنة والإطار المنهجي للعملية التعليمية التربوية في بلادنا العزيزة ولا غرو فهو من دوحة العلم والفضل ، تلك الأسرة الكريمة التي أنجبت العلماء بدءاً بالشيخ المجدد الإمام محمد بن عبد الوهاب الذي أزره الإمام محمد بن سعود عام ١١٥٨ هـ فناصر الدعوة وحماها ولقى الشيخ الحفاوة والتأييد ، فكان نصر الله الذي وعد به عباده المؤمنين «إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم» حيث ارتفعت تلك الدعوة في الأفاق وانطلق رجالها وفرسانها يحملون شعار التوحيد ويحكمون القرآن والسنة ويطبقون شريعة الله وانضوى تحتها المؤمنون ، وهفت الأئمة إلى حماة الإسلام والشريعة المحمدية الصافية النقية ومحاربة الشرك بجميع أنواعه وسد الذرائع المؤدية إليه وتطبيق الشريعة في كل أمور الحياة ..

لقد مضى الشيخ حسن إلى لقاء وجه ربه تاركاً الذكرى الطيبة وهكذا سنة الحياة :
وسا المال والأهلون إلا ودائع .. ولا بد يوماً أن ترد الودائع
والهم في هذه الحياة العمل الصالح والذكر الجميل والصدق والحقيقة :
والموت نقاد على كفه .. جواهر يختار منها الجياد

ويقول أبو ذؤيب :

والدهر ليس بعتب من يجزع	أمن المنون وربها تتوجع
ألغيت كل ثمينة لا تنفع	وإذا المنية أنشبت أظفارها
سملت بشوك فهي عور تدسع	نالعين بعدهم كأن حداثها
بصفاء المشرق كل يوم تفرع	حتى كأن للحوادث مروة
إني بأهل مودتي لفجع	ولئن بهم فجع الزمان وريه
كانوا يعيش قبلنا فتصدعوا	كم من جميل الشمل ملثم القوى
جون السراة له جدائد أربع	والدهر لا يبقى على حدثانه

وإذا كنا اليوم قد ودعنا عالماً فاضلاً من علماء الدعوة السلفية ، وفارساً من حملة راية
التوحيد ، التي ارتقت بها أعمالهم وجهودهم العلمية ، ومن أبرزهم في ذلك :

- ١ - شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب (١١١٥هـ - ١٢١٦هـ).
- ٢ - الشيخ حسين بن محمد بن عبد الوهاب (١٢٢٤هـ - ١٣٠٠هـ).
- ٣ - الشيخ سليمان بن عبدالله بن محمد بن عبد الوهاب (١٢٠٠هـ - ١٢٣٣هـ).
- ٤ - الشيخ عبدالله بن محمد بن عبد الوهاب (١١٦٥هـ - ١٢٤٢هـ).
- ٥ - الشيخ علي بن حسين بن محمد بن عبد الوهاب (١٢٥٧هـ - ١٣٠٠هـ).
- ٦ - الشيخ عبدالرحمن بن حسن بن محمد بن عبد الوهاب (١١٩٣هـ - ١٢٨٥هـ).

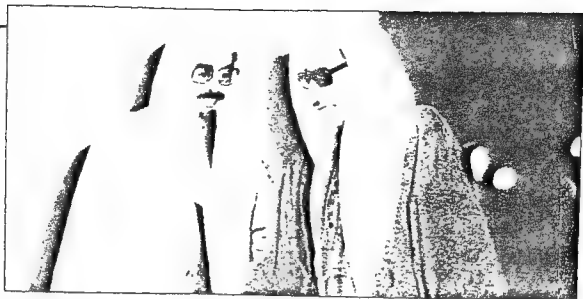


وإذا المتية أقبلت لا تدفع

- ٧ - الشيخ عبداللطيف بن عبدالرحمن بن حسن بن محمد بن عبدالوهاب (١٢٢٥هـ - ١٢٩٣هـ).
- ٨ - الشيخ اسحاق بن عبدالرحمن بن حسن بن محمد بن عبدالوهاب (١٢٧٦هـ - ١٣١٩هـ).
- ٩ - الشيخ ابراهيم بن عبداللطيف بن عبدالرحمن بن حسن بن محمد بن عبدالوهاب (١٢٨٠هـ - ١٣٢٩هـ).
- ١٠ - الشيخ حسين بن حسن بن حسين بن علي بن محمد بن عبدالوهاب (١٢٨٤هـ - ١٣٢٩هـ).
- ١١ - الشيخ عبدالله بن عبداللطيف بن عبدالرحمن بن حسن بن محمد بن عبدالوهاب (١٢٦٥هـ - ١٣٣٩هـ).
- ١٢ - الشيخ حسن بن حسين بن علي بن محمد بن عبدالوهاب (١٢٦٦هـ - ١٣٤٠هـ).
- ١٣ - الشيخ محمد بن عبداللطيف بن عبدالرحمن بن حسن بن محمد بن عبدالوهاب (١٢٨٢هـ - ١٣٦٧هـ).
- ١٤ - الشيخ عبدالله بن حسن بن حسين بن علي بن محمد بن عبدالوهاب (١٢٨٧هـ - ١٣٧٨هـ).
- ١٥ - سماحة الشيخ محمد بن ابراهيم بن عبداللطيف بن عبدالرحمن بن حسن بن محمد بن عبدالوهاب (١٣١١هـ - ١٣٨٩هـ).
- ١٦ - سماحة الشيخ عمر بن حسن بن حسين بن علي بن محمد بن عبدالوهاب (١٣١٩هـ - ١٣٩٥هـ).



رحم الله الشيخ حسن بن عبدالله بن حسن بن حسين بن علي بن حسين بن محمد بن عبدالوهاب فإنه يضاف إلى هؤلاء الأئمة الاعلام ، رحمه الله رحمة واسعة ، وتغمده بواسع فضله ورحته بما هو أهله - ووفقتا جميعاً لمحبة الله وللعمل الصالح ، والحمد لله رب العالمين .



رِثَاءٌ .. اِمْرٌ وَفَاءٌ

بقلم: الأستاذ عبد الرحمن بن عبد العزيز السراء
مدير عام الشؤون الإدارية والمالية بالدارة

قال الله تعالى «كل نفس ذائقة الموت»

سبحان ربي ... لك وحدك الخلود والدوام .. وأما الفناء فلكل موجود
ومخلوق مهما طال به الأمد وامتد به الأجل وإلى لقاء ربه رحل معالي الشيخ حسن
بن عبدالله آل الشيخ مساء السبت ١٧/٥/١٤٠٧ هـ . رحل ذلك الجبل الأشم . والبحر
الزاهر بالعطاء . والقلب الكبير الذي وسع بكرمه وعطفه العديد من ذوي الحاجات ..
 واجتمعت فيه المحاسن والمكارم فأضفاها على من عرفه ومن لم يعرفه . ولاغرو في ذلك فهو





وثناء... أم وفاء

من دوحة كريمة. أهل فضل، وعلم، ودين. عرفته.. فعرفت فيه الأخلاق العالية..
وطيبة القلب وعفة اللسان وكرم النفس.

لقد عهد إليَّ بسكرتارية مجلس إدارة دارة الملك عبدالعزيز. والتكليف أحياناً بعمل أمين
عام الدارة بالنيابة فكنت على مقربة منه خلال هذه الأعمال. واكتشفت فيه تلك الصفات
والمزايا النبيلة.

هذا بالإضافة إلى أنه قدم خدمات جليلة. وعطاءً وافراً في سبيل النهضة التعليمية وشموها
لكل جزء من أجزاء مملكتنا المترامية الأطراف.

كان حريصاً كل الحرص على تيسير السبل. وتذليل العقبات لكل راغب في العلم والمعرفة
داخل البلاد وخارجها. وبمتابعته وتوجيهاته انتشرت المكتبات العامة والمدرسية والجامعية في
أرجاء البلاد لخدمة الباحثين والطلاب والمثقفين بعامه. وعمل على فتح آفاق التعليم الجامعي
أمام الراغبين فيه وحث الطلاب على الإقدام عليه. ويسره لهم في الداخل والخارج. وكان
متابعاً للمكاتب التعليمية أثره الواضح في دقة الإشراف على أبنائنا في الخارج أن ينهل أبنائنا
من كل ألوان العلم والمعرفة. وينالوا أرقى الدرجات العلمية ويتخصصوا في أدق فروع العلوم
التطبيقية والكيميائية وغيرها. وأسهم في نشر الثقافة العامة بمؤلفاته وندواته ومشاركاته في
الصحف والمجلات وإشرافه على عدد من المجلات العلمية بما في ذلك مجلة الدارة فقد أشرف
عليها منذ إنشائها. ودعمها بتوجيهاته النيرة وعطائه الجزيل مناصراً كل فكرة هادفة لإخراج
هذه المنجلة على نحو يرضي كل قارئ ومطلع عليها حتى أصبحت بحمد الله في عداد المجلات
المتخصصة وحازت إعجاب الباحثين والدارسين داخل هذه المملكة وخارجها. ولا ننسى
ما أولاهها به من اهتمام ودعم وحرص على تحقيقها لأهدافها وللغايات التي أنشئت من أجلها.
وكان اختيار معاليه لتولي رئاسة مجلس إدارة الدارة والإشراف على ماتقوم به من خدمات
لتاريخ المملكة وجغرافيتها وآثارها الفكرية والعمرانية اختياراً موفقاً حتى أصبحت في
مصابف مراكز البحث العالمية. وكان رحمه الله حريصاً على حضور جميع اجتماعات مجلس إدارة
الدارة ولم يحصل أن تأخر عن أي اجتماع وكان آخر اجتماع برئاسته الاجتماع الثاني والعشرين.

لقد فقدت الدارة وجمعتها . وأعضاء مجلسها وموظفوها شخصية فذة أعطت الدارة شيء الكثير وكان رحمه الله أول من استبشر بإعلان خدام الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبد العزيز حفظه الله بتحويل الدارة إلى مؤسسة الملك عبدالعزيز الإسلامية ليكون لها دورها المؤثر لتعال الذي يليق به وبالإسم الذي تشرفت بلاتساب إليه .

أذكر بعضاً من ممثليه شاعر الكبير محمد بن عثمان في رثاء العلامة الشيخ عبد الله بن عبد اللطيف بن عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ رحمه الله . لأنها تنطبق على مصابنا وشيخنا معالي الشيخ حسن بن عبد الله آل الشيخ . وهي : -

بشّر ذا الخطب فثبت العيون دماً	فما يباله حطب وإن عصف
شيخ مضى طاهر لأخلاق متبعاً	طريقه المصطفى بالله معتصلاً
بحراً من العلم قد فاضت جداوله	لكنه سائغ في ذوق من ضمنا
نعم إلينا العلا والبر نضرعهُ	والعلم والفضل والإحسان والكرمنا
هذي الخصال التي كانت تفضله	على الرجال فأضحى منه علماً
لو كنت أملك إذ حانت منيه	دفعتها عنه لكن حم مأخذاً
إن الحياة وإن طال السُرور بها	لأبد يلقي الفتى من مهابها
عشنا به حقبة في غبطة فائق	عليه ماقد أتى عادداً أحمداً
ففي عليه ولحف المسلمين معي	لو أن لحفاً شفى من لاهف سداً
الله أكبر كم بالك وبأكبة	وحائر كاظم للغيب قد وجهاً
ليس البكاء وإن طال العناء به	بمراجع فائتاً أو مطفى ضرماً
والله ينزله عفواً وبرحمه	فإنه جل عذراً أرحم الرُحما
ثم الصلاة على من في مصيته	لنا العزاء إذا ما حادث عظمنا
محمد خير مبعوث وشيعته	وصحبه ما أضاء البرق مبهتاً



كلية نداء .. في رجل الوفاء ..

بقلم الأستاذ عبدالله بن محمد أباطين
مدير عام الإدارة الفنية بالدائرة

أرثى عالماً جليلاً .. ومربياً فاضلاً .. ارتدى حلة الساحة وتحلى بمكارم الأخلاق .. ؟ رجل هو الوفاء .. هو الصفاء .. وهو النقاء .



رجل والرجال قليل .. !!

عرفت الشيخ حسن بن عبدالله آل الشيخ .. منذ مايقرب من خمسة عشر عاماً ، عرفته عن قرب ، حينما انتقلت للعمل بدارة الملك عبدالعزيز ، عقب إنشائها مباشرة ، وعهد الي بسكرتارية مجلس الإدارة ، الذي كان يرأسه «رحمه الله» . وشد انتباهي للوهلة الأولى أن يكون هناك مسئول كبير على هذا المستوى من الخلق والتواضع .. الذي يندر أن نجد مثله في كثير من الرجال في عصرنا الحاضر .. ومن ذلك الحين احتل الرجل الكبير من قلبي موقعاً رجباً فسيحاً .. ثم تبعت من خلال مكاتباته .. وتوجيهاته ، واجتماعاته .. ومن خلال

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الجمهورية العربية السورية

وزارة التعليم العالي

مكتب الوزير

الرقم: _____

التاريخ: _____

للمرفقات: _____

للموضوع: _____

تخفي

السيد الرئيس استاذ عبد الله بن محراب بطي
السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ، وبعد اجبكم الصحة والسلامة
وتلقيت رسالتكم واحفظت على ما حوت وايضا اقدر لكم صراحتي
وابداء الآراء التي تعود بالنفع والفيد .. وقد اتخذت خطوات
المستمرة للحصول على الموافقة السامية وارجوا ان يتم ذلك مع عرضي
على سماع خطبتي آياتي دائما وفقكم الله

اخبركم

14/4/1436 هـ



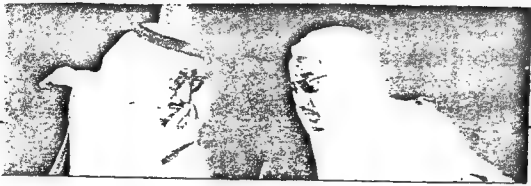
كلمة رثاء .. في رجل الوفاء ..

عرض العديد من الأمور عليه . عرفت ما يتمتع به من الساحة والبشاشة .. ورحابة الصدر .. لا يترث في تلبية ما يطلب منه .. مع كثرة الطالين .. من داخل الأجهزة التي كان يشرف عليها .. ومن خارجها .. لم أره يوماً عابساً .. ولم يوصد يوماً بابه دون قاصد .. أو صاحب حاجة .. يسهل كل صعب . ويسر كل عسير .. الناس أمامه سواسية .. وقلبه الكبير المليء بالحب فيه متسع للجميع ..

كثيراً ما كنت أعرض عليه بعض الأفكار والآراء التي أرى أنها تخدم المصلحة العامة فلم أجد منه غير التشجيع والمؤازرة ، ولما عرضت عليه موضوع دراسي العليا في الخارج .. كانت أمامي عقبة إدارية صعبة .. لكنها بفضل الله وبفضل هذا الرجل الكبير .. وبتوجيهاته النيرة ذلت . وفوق هذا كان يفرح ويتنهج لكل عمل إنساني يقوم به .. كان يقدم الكثير .. والكثير .. ولا ينتظر من أحد جزاءً ولا شكوراً .. فإذا ما تلقى الشكر من أسدى لهم المعروف .. قبله بكل تواضع واستحياء .. كان أستاذاً لجيل ومعلماً لكثير من شباب هذا الوطن العزيز . زوّد الشباب سلاح العلم والإيمان .. حتى تقلدوا زمام الأمور في كل مجالات الحياة .. وكـم صنع من رجال وأوصلهم إلى أرقى المناصب .. وسبحان الله !! منهم من شكر .. ومنهم من أنكر .. !! ومع ذلك فقلبه الكبير .. المتسامح دائماً .. يعفو ويصفح عن إنكار المتكرين وجحود الجاحدين .

لم يعرف الحقد أو الحسد طريقاً إلى قلبه الممتلئ بالحب والتسامح .

لقد اطمأنت والحمد لله ، لما رأيت أبناءه ، بدءاً من هشام . وانتهاء بأسامة .. وهم يقفون في منزلهم يتقبلون العزاء .. رجالاً في مواقف الرجولة .. وما تقتضيه من عزيمة وقوة وثبات أمام المحن والمصائب .. ففهم العزاء .. وفهم الموض .. عزاء عن أب أحب الناس .. فأحبه الناس وبادلوه حباً بحب .. وارتاعت قلوبهم هلعاً يوم وفاته .. فأقبلوا من كل مكان يشيعونه إلى مثواه الأخير .. داعين له بالرحمة والغفران .. راجين من الله أن يجعل أبناءه خير خلف لخير سلف .. حفاظاً على المكانة الرفيعة التي احتلها الفقيه .. في قلوب الناس جميعاً .. رحمه الله رحمة واسعة وأسكنه فسيح جناته .. آمين .



مثل نادر في حسن الخلق

بثلم / د. عبدالرحمن بن عبدالعزيز آل الشيخ وزير الزراعة والمياه

الحمد لله الذي لا يحمد على مكروهه سواء والصلاة والسلام على صفوة خلقه نبينا محمد وعلى آله وصحبه ومن سار على النهج القويم إلى يوم الدين . .



أعترف في كلمتي هذه اعترافاً صريحاً لا غموض فيه بمعجزي الكامل عن رثاء عمي وصديقي - حسن بن عبدالله آل الشيخ - رحمه الله رحمة واسعة . . فلا اعتراض على حكم الله وقضائه والموت حق ولكل أجل كتاب أما القلب فيحزن وأما العين فتدمع ولا نقول إلا ما يرضي الرب - «إنا لله وإنا إليه راجعون» . .

وعزاؤنا أن الجنة ستكون بعفو الله ورحمته ومغفرته مستقره بعد أن ترك الدنيا وما فيها وانتقل إلى عالم الآخرة وقلبه ممتليء بالتوحيد لا يشرك بالله شيئاً - ومن لقي الله لا يشرك به شيئاً دخل الجنة . كما جاء في الحديث . .

لقد مات والده وهو عنه راض كل الرضا وماتت والدته وهي راضية عنه كل الرضا ومات هو «والأقارب والأرحام وعدد كبير من الناس راضون عنه كل الرضا - ممن عرفه أو تعامل معه أو سمع عنه» . .

صلة الرحم كانت من أهم صفاته فلقد كان مثلاً فذاً في صلة ذوي القربى والأرحام . . وهو أيضاً من الأمثلة النادرة في حسن الخلق ولين الجانب وطيب المعشر . . كان يحرص على تخين الفرص من أجل مساعدة المحتاج بماله وجاهه ومنصبه يسهل العقبات ويذلل الصعوبات



لكل من يلجأ إليه ..

كان - يرحمه الله - قوي الإيمان بربه عميق الثقة بخالقه لديه قدرة عجيبة على التحمل والصبر . حتى في أحلك ظروف المرض ظل يصارعه أكثر من عشرين عاماً في صبر وثبات لا يشكو إلا لخالقه وعندما يلم به المرض في نوباته المتتالية المتلاحقة كان يحاول أن يلتقط أنفاس بصعوبة بالغة ليشعر زائره أو محدثه بأنه بخير وأن ما ألم به من وجع ما هو إلا عارض بسيط في طريقه إلى الزوال .

كان يقابل الإساءة بالإحسان لا يعرف الحقد إلى قلبه طريقاً ولا ينتقم لنفسه رغم قدرته .. فالففو عند المقدرة من سجاياه الواضحة .

له أسلوب متميز في تربية وتوجيه أبنائه يعاملهم كما لو كانوا أصدقاءه .. يسدي إليهم النصح والتوجيه والإرشاد بطريقة يشعرهم من خلالها بقيمتهم وقدراتهم ومواهبهم موازناً بدقة بين جوانب عاطفته المتقدة وأبوة الخانية وبين الصراحة والوضوح .

لا أعرف أنه أعرض عن الاستجابة لصاحب حاجة أو طلب ولا أعرف أنه جرح مشاعر أحد من الناس في أي وقت من الأوقات ولاي سبب من الأسباب ..

عملت تحت إشرافه وإدارته سنوات طويلة عندما كنت موظفاً في وزارة المعارف وعندما عملت عضواً في هيئة التدريس بجامعة الملك سعود وفي الأمانة العامة للجامعات وبعدها في جامعة الملك فيصل فوجدته نعم الموجه ونعم المربي ونعم الأب يعطي الثقة ويعمقها في نفوسنا ويشعرنا بالمسئولية ويحسمها في تفكيرنا وتصرفاتنا .. يعطي الود والعاطفة بلا حدود لكل من يعمل أو يتعامل معه .. كان يفعل كل ذلك في تواضع غير متكلف وثقة غير مصطنعة وأخلاق غير مستعارة ..

اللهم اغفر له وارحمه وعافه واعف عنه وأكرم مثواه ونزله ووسع مدخله ونقه من كل ذنب وخطيئة كما ينقى الثوب الأبيض من الدنس واجعله اللهم من أهل الجنة .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

له ما أخذ وله ما أبقي وكل شيء عنده بمقدار ..

رشاء حسن آل الشيخ!؟

بقلم / الأستاذ: أبو تراب الظاهري

والموت نقاد على كفه .: جواهر ينتقي منها الجياد

قال أبو تراب :

إنا لله وإنا إليه راجعون ، ورحم الله الباقي عبده الفاني ، فاضت إليه روحه ،
فنتقطعت الأحشاء عليه جزءا ، وفي سبيل الله مادهانا وعرانا ، وأعظم الله مثوبة
المصطبرين في مصابه ، من ذويه وخلائه ، ومن أعتزتهم الوحشة الكالحة ، وغشيتهم بوفاته
الغمة الفادحة ، وتلك سبيل ليس هو فيها بأوحد ، وأنما السلوة ببرد المضطجع ، وسعادة
المنقلب ، والله ما أراد وما اختار ، حين انتزعته من بيتنا يد الأقدار ، واخترته المنون ، وكل
نفس ذائقة الموت .

وما المرء إلا كالشهاب وضوئه يحور رمادا بعد إذ هو ساطع

ذهب رحمه الله مأسوفاً عليه ، مورثا الغم البقيع لمن يعرف له يداً ، فقد كان ذا عرفٍ
معروف ، ويلةً محمودة ، وجيل بسيط ، وكرامة سامقة .

مضى غير مذموم وأصبح ذكره حلي القوافي بين راث ومادح



نسأل الله تعالى الجزاء الأوفى ، والعمو الأضفى ، وأن يتغديه برحمته ورضوانه ، ويكرم نزله بجواره بإحسانه ، وأن يرفيء دمعته من لانتكُن له لوعةً بفراقه ، إذ حُطِفَ من بينهم بفتنةً وهو ملء السمع والبصر . سار على النهج القويم ، متحمل أعباءً جساماً فيما كان يُزاول من العمل في حقل التعليم وإدارته . مُستَوَزراً مُفْحِهاً ، لا يُوطأ له عقب ، فتولى حين جاءه الأجل المحتوم ، وأحدث في ساحته الارتياح ، لا أنفرها الله ممن يُمسك بعده الزمام ، وله مغفرة ربّه المرتجاة ، تبوّه غرف الجنة ، وتمكّنه في دار المقامة .

وما كان إلا كالسحابة أقلعت وقد تركت في الناس مَرعىً ومشرباً
قال أبو تراب :

ولقد كانت تربطنى بالراحل العزيز صداقة خاصة ، ومحبة وألفة ، وبيننا من الودّ المكين ما لا يوصف بالبراع ، وكانت نظراته إلى نظرات تقدير وإعجاب ، واحترام وتكريم ، وذلك حين كنت جازئ منزله بالداوودية بمكة المكرمة حرسها الله وكان هو طالب عام بكلية الشريعة ، وكنت ألقى الدروس بالحرم المكي في النحو والصرف والحديث ، واستمع لدروسي في شرح العتيدة الطحاوية في حدود عامي تسعة وستين وسبعين بعد الثلاثمئة والألف ، وتوالت الاتصالات بحكم الجوار والقرب ، وتوثقت علائق الودّ ، فلما تخرّج وتولّى المناصب كانت بيني وبينه مكاتبات ودية وعلمية ، فإذا دَعَتْنَا مناسبة واجتمعنا جرت المطارحة العلمية ، والمساءلة الأدبية ، حلوة ظريفة ، لأنه كان يمتح من المعيينين معاً - الذين والأدب - وكان صاحب قلم وأسلوب ، وخطابة وكتابة ، وآخر مجلس بيني وبينه في وزارته بالرياض قبل سنوات ، حضره أصحاب العلم والأدب ، وكان معي صاحبان لي فاضلان ، أحدهما العالم الشيخ أبو عبد الرحمن بن عقيّل الظاهري مستشار وزارة البلديات ، وثانيهما الشيخ عبد الرحمن العثمان مدير تعليم البنات الآن ، وكانت المناقشة حول الإمام الغزالي ومذهبه وعقيدته ، واتجاهه الفلسفي والتصوفي ، وأنشدته من قوله في ختام المجلس :

تركت هوى سُعدى ولىلى بمُعزِلٍ وعُدْتُ إلى مصحوب أوّل منزل

ونادتُ بـ الأشواق مهلاً فهذه منازل من تهوى رُؤيدك فانزلي
غزلتُ لهم غَزْلاً رقيقاً فلم أجذ لِعِزْلِي نَساجاً فكسرتُ مغزلي

فأعجب بها رحمه الله وقيدها دأب أهل العلم يقتنصون الشوارد ، ويقيّدون الأوابد .

قال أبو تراب :

وهكذا تنثال من ذهني الذكريات العذبة مع الصديق الصدوق الراحل حسن آل الشيخ ،
الذي كان مثلاً للوفاء ، واحترام أهل العلم ، غيوراً على سلامة العقيدة من أن تنثلم أو
تذهّده ، وكان ذا خلق طيب ، وعقل أرزن ، دميئاً مع الإخوة ، ولا غرور فإنه من نَجَرِ شهادتِ
الدنيا بصلابته ، وزكاوته ، والقرع يزهر بما يغذوه الأصل ، وجاد عليه الزئبل .

قال أبو تراب :

ومن تقديره للعلماء العاملين أنه كتب إلى والدي المحدث أبي محمد عبدالحق الهاشمي
المدرس بالمسجد الحرام ودار الحديث رحمه الله يسأله عن جملة أحاديث تصحيحاً وتعليلاً ،
لأن الوالد كان عمدةً وحجةً في الحديث في عصره ، وذلك حين انتقدت تلك الأحاديث على
دبّين الإمام ابن حزم في الفتنة الغنائية التي ماجت أيام الملك سعود رحمه الله ، ليرى رأيه فيها
فيكون الردُّ عليّ علمياً لا كما واجهني به الآخرون ، تهجماً وتجرّيحاً ، وهذا هو المنهج القويم
الذي يسلكه الواعون ، وهو الأسلوب الذي اتبعه معي في الردّ عليّ الشيخُ الجليل عبدالعزيز بن
باز وكان رده أحسن ما كتب في الباب متمساً بالرزانة العلمية والأدب الوافر وهو الذي أخذ من
والدي إجازة رواية الحديث كما فعل سلفه المفتي الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ رحمه الله ،
فوالدي من مشايخ هذين الشيخين ، وكان محترماً عندهما ، يُجَلِّانه ويكرانه وكان صاحب
السند العالي ، وله مشايخ كثيرون ، وأخذ عنه جبهة غفيرة من العلماء في العالم الإسلامي
وبالحرمين الشريفين .



قال أبو تراب :

وأصل سبب احترام الفقيد الذى أسجل بعض ذكرايت معه لشخصى هو احترام والده
رئيس القضاة الشيخ عبدالله بن حسن آل الشيخ رحمه الله ! لوالدى ، فقد كان يحبه ، ويستمع
إليه ، ويُلبي طلبته ، وهو الذى غَرَسَ نَبْتَهُ والذى بالحرمين الشريفين ، وكَلَّمَ بِصَدِّهِ الملك
عبدالعزیز رحمه الله ، الذى طَبَّقَ صيته الآفاق فى المكارم ، ومن صفاته حُبُّ العلم والعلماء ،
ثم جعل الشيخ عمر بن حسن رحمه الله للوالد منزلةً عند الملك ، وتكريماً ، وإحساناً تُذِنُ له
به ، وهكذا استوثقت الأواصرُ والعُرَى بين بيت الهاشمي وبيت آل الشيخ ، فلو كنتَ شاهدي
وأنا أدرس بالمسجد الحرام ، والشيخ عبدالعزيز بن عبدالله بن حسن آل الشيخ متَّعهُ الله
بالصحة وأسبغها عليه - يَمُرُّ وأنا ألقى دروسي قيتسم ابتسامه الحب والإعجاب لَهْزُكُ
الطرب ، والله ما أخذَ وما أبقي وجعنا الله بأصحابنا الراحلين فى فرائسه التى أَعَدَّها
للمتقين .

وكان من فضائل هذه الكياسة التى زان الله تعالى بها طبع حسن آل الشيخ أنه حينما هَبَعَنِي
الوشاة ، وأبصروا فُرْجَةً فتَوَرَّدوها ، ولحقوا غَفْلَةً فاهْتَلَوْها ، وجعلوني هُوءَ تَبْتَلَعُ ، وبلغُوا
هُنَى الملك فيصل بن عبدالعزيز وكان يومذاك نائباً أَمَرَهُم بإحضار ماكتبت حول مسألة
الغناء ، فأتوا بالجريدة التى نشرت مقالتي فتأملها رحمه الله فإذا فيها نقد أحاديث وَهْنها أئمة
سابقون ذروا اختصاص وبصيرة نافذة ، وليس فى كلامي الآ التماس العلل وتخريجهما ، فقال
نَضَرَ الله مثواه - وقد طلبوا منه جَلْدِي وتعزيرى على ملأ من الناس : هذا يُجَاجِكُمْ فَرُدُّوا
عليه ، فكانت كلمةً فاصلةً من فيصل أنهت القضية بأسرها ، وقد شاعت ، ودخلت
فيروضتها الكويت ومصر حين تكلمت عنها جرائدها ومجالاتها ، وألِفَتْ فيها كتب ورسائل ،
فجاءني وأنا بدار الأصفهاني شيخ الأدباء أحمد السباعي وكان حاضراً بمجلس فيصل يبشرني بما
قضى به ، قائلاً متمثلاً :

(أبشر بطول سلامة يامرئث)

ورحم الله أباه الشيخ عبدالله بن حسن ذا الوقار الجَمّ ، والمهابة المطنّبة فقد كان بي رؤوفاً حينما رُفِعَتْ إليه قضية قُبْلَة يد العالم والرجل الصالح وكلامى فيها ، ثم حينما وشى بي إليه حاسدون يقولون له : إنّه يحكى عن الفرق وكلامها في الإلهيات والصفات في دروسه ، فما التبس عليه الأمر ولا اشتبه لأنه يعرف عقيدتى السلفية ، وإنّما أرسل إلى مَنْ يأخذنى إليه ليوجهنى كيف يكون الدرس أمام العامة في مثل هذه المسائل ، وهو عدم التعرّض لشتى الأراء ، وعدم ايراد أدلتها لئلا يضلّ المحتار ، وتعلّق بذهن مَنْ لم يَتَمَرَّس على الخلافات شبهة تورّطه المهواة وعلم الله أنه ما قَسَا ولا مَنَعَنِي من التدريس ، وإنّما أَمَر مَنْ يُراقبني برفع ماياتى متى فوجدنى قد لَقِنْتُ وَنَقُفْتُ ، وأدركت مايرمى إليه الشيخ الكبير ذو الحنكة المستعصمة ، والتجربة المرورة ، ولاح لى المِهْمُ والأمر الآتِيهم ، وكأنّما كان الشيخ عبدالله بن حسن يعنى قوله الإمام الممتحن في سبيل الله : «لَا تُوردوا للعامة أدلة أهل الأهواء والبدع لئلا تُثَبِّت في الأذهان الغُضّة أقوالهم وَحُجَجُهم فلربما أَمَلْتها عن الجادة» .

وكذلك كان بسى رقيقاً رحمه الله حينما رفع اليه بعض العوام ورقة فيها بخطى مسألة التظليقات الثلاث في مجلس واحد ، وترجيحى فيها بين الأراء ، وكنت شديد الإباء ، وكان مُنِيف الارتقاء ، بعيد المرام ، فما نَهَرَنِي ولا قَهَرَنِي بل كبح من جماحى من حيث لا يُفَتَّنُ لمسلكه يَبْنَعِي من كتابة هذه الفتوى ، فمرتقاها كؤود ، دونه اجتراح الأثام ، وهكذا يكون الكُفّ بالحكمة والعفة ، لا الزجر بالقُدْع والرَّدْع ، حتى لايلجب للمرء سبيل .

قال أبو تراب :

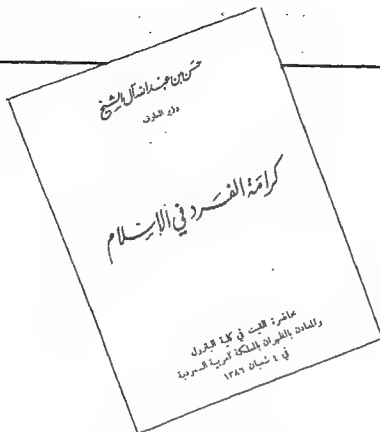
هذا بعض ماتخترته الذاكرة من فاجَرَيَات عهد قضيتْ بالداودية مشّت النظام بجوار آل الشيخ ، أذكرنيه موت هذا الراحل الغالى حسن بن عبدالله الذى تحيّر كأس الحمام ، وتجلّل لباس البلى ، وهو غاية كلّ حَيٍّ ، ومصير كل شئ ، وما كان لنفس أن تموت إلّا بإذن الله ، أحسن الله لنا العوض ، وعلينا الخلف ، ولقّى هذا النجم الذى أفلّ نعيماً مقيماً ، وثوباً جسيماً ، ومرضاة أعفى ، ومغفرة أكفى .



نبذة عن حياة الشيخ حسن بن عبد الله آل الشيخ «رحمه الله»

أستاذ الأوقاف والفتوى
مدير العلاقات العامة بالدار

- ولد بالمدينة المنورة عام ١٣٥٢هـ.
- تلقى دراسته الابتدائية بمكة المكرمة - ثم المعهد العلمي السعودي ثم التحق بكلية الشريعة بمكة المكرمة وتخرج منها عام ١٣٧٣هـ.
- درس على يد والده الشيخ عبدالله بن حسن آل الشيخ الكثير من العلوم الدينية والشرعية.
- عين أول مانخرج من كلية الشريعة عضواً في رئاسة القضاء بالمنطقة الغربية واستمر في القضاء إلى أن أصبح نائباً لرئيس القضاة.
- في عام ١٣٨٢هـ عين وزيراً للمعارف ، ثم وزيراً للتعليم العالي في عام ١٣٩٥هـ.
- رئيس مجلس إدارة دارة الملك عبدالعزيز، والمشرّف العام على مجلة الدارة.
- رئيس الندوة العالمية للشباب الإسلامي ونائب الرئيس الأعلى للجامعات، والمشرّف العام على المجلة العربية.
- له العديد من المؤلفات والكتابات في النواحي الدينية والاجتماعية والأدبية.
- ونستعرض جزءاً مما كتبه «طيب الله ثراه» لتذكّره الأجيال من بعده .



في محاضرة ألقاها في «كلية البترول والمعادن بالظهران» سابقاً «جامعة الملك فهد للبترول والمعادن» حالياً وعنوان المحاضرة «كرامة الفرد في الإسلام».

يقول «والكلمة الأخيرة أيها الأخوة... لأخوتي وأبنائي طلاب هذه الكلية الفتية وهي لكل شبابنا في المملكة العربية السعودية ، أننا نجتاز معكم مرحلة البناء الواعي لتحقيق القيادة المثل لمجتمعنا المسلم المتكامل وبفداؤكم وكفاحكم وفهمكم بعد الله سنبنى ذلك المجتمع الذي يفرض في واقعه قدرة الإسلام على قيادة البشرية، وعلاج مشاكلها. فلئن قال لنا كثيرون إن تجربة القيادة العملية للإسلام لانراها متكاملة أو ممكنة في عصورنا الأخيرة في كثير من البلاد الإسلامية فنحن نقول لهم وبأصرار: ستكون هناك في هذه البلاد بإذن الله وستشهد الدنيا من بقاعنا شباباً مسلماً يتسلق مدارج الخبرة والمعرفة، وفي القمة منها شعوره بدينه واعتزازه به وسعيه لتمكينه وتطبيقه، ولن يطول بنا الانتظار فلقد بدأت بشائر الخير تتوالى لتؤكد عمق مفاهيمكم وإدراككم للرسالة الكبرى التي أثرتنا الله بها منذ أربعة عشر قرناً ، والتي سنجد بها بإذن الله وجه تاريخنا... ونحوّل بنقائنها ووضوحها مجرى الأحداث في مملكتنا أمانته السعيدة وفي كل بلاد الله المسلمة التي تتلفت باحثة عن سبيل خلاصها مما هي فيه من اضطراب وحيرة» .



نبذة عن حياة الشيخ حسن آل الشيخ رحمه الله

حسن بن عبد الله آل الشيخ

HASSAN BEN ABDOULLAH ALELSHEIKH

المرأة..

كيف
عاملها
الإسلام!



THE
PLACE
of
WOMAN
in
ISLAM

وفي أحد مؤلفاته رحمه الله وعنوانه: «المرأة كيف عاملها الإسلام»

يقول: —

إن رسالة المرأة هي بناء الأسرة وإدارة المنزل حتى تعيش مع أسرتها في جو هاديء مريح يبعث على النشاط المطلوب لاستمرار عمل الحياة ولا يمنع من ذلك أن تعمل في مجال إحتياجها أو رغبتها في المجالات التي يمكنها أن تؤديها بلا مخالفة لطبيعة تكوينها وواقع استعدادها والتي يمكنها أن تنجح في أدائها لإتفاقها مع إمكانياتها.

إن أي خروج على الطبيعة التي خلقها الله لنا ، وأودع فينا الاستجابة لانطلاقها يعتبر تعطيلاً لحكمة الله في الخلق وسبباً للكثير من الآلام النفسية والحسية ، مؤدياً للكثير من المتاعب التي يعيشها الناس ، ولا سبيل إلى عودة السعادة وهناء الحياة وسكيتها إلا بالإذعان لحكمة الله وبديع خلقه وممارسة الحياة كما أرادها الله ويسرها.

وكتب في مقدمة كتاب عنوان المجد في تاريخ نجد الذي ألفه المؤرخ الشيخ عثمان بن بشر — وحققه وعلق عليه عبدالرحمن بن عبداللطيف بن عبد الله آل الشيخ — .

الجمهورية العربية السورية
وزارة التعليم العالي

وزارة التعليم العالي
مكتب الوزير

الرقم: ١٤٩٤/١٢
التاريخ: ١٤٠٦/١٨/٢٠
المنشورات:

المحترم

معالي وزير التعليم العالي

رئيس مجلس إدارة دار الملك عبد العزيز
السلام عليكم ورحمة الله وبركاته .. وبعد ،

تلست بعزدي من الامتنان لطلب معاليكم رقم ١/٥/١٤٠٦ و تاريخ ١٤٠٦/٧/٢٠ هـ والسنتين
المرافقتين من الاصدار الاخير من مجلة الدارة وان لا تدر لتلظكم بمواصلة تزويدي باعداد
هذه المجلة القيمة واجدد الشادة بالجهود القيمة المبذولة في اصدارها بهذا المستوى
الجهد .. متمنيا لمجلة والقائمين عليها مزيدا من الترفيق والنجاح المتصل .
ولمعاليكم طامني تحياتي وتقدمي .

وزير التعليم العالي
علي بن حسن الشاعر

وزارة التعليم العالي
مكتب الوزير
رقم ١٤٩٤/١٢
المنشورات

التاريخ مدرسة الأجيال يتعلم فيها الأحياء ما ينفعهم فيعلمونه . وما يضرهم فيجتنبونه وهو
«الجسر» الذي يصل ماضى كل أمه بحاضرها وبقدر العناية به والاهتمام بتدوينه تستطيع الأمم
أن تبني حياتها على أسس متينة وثابتة وكيف لا والحياة كلها بدورها الطويلة المتعاقبة ليست إلا
«تاريخاً» أميناً علمه من علمه، وجهله من جهله «فاليوم» يعدُّ حاضرك لكنه سيكون غداً في



نبذة عن حياة الشيخ حسن آل الشيخ رحمه الله

بسم الله الرحمن الرحيم

الجمهورية الإسلامية الإيرانية
وزارة الثقافة والفنون
مكتب الدراسات والبحوث

موضوع: نبذة عن حياة الشيخ حسن آل الشيخ رحمه الله

تاريخ: ١٤٠٦/٨/١٠

المرجع: مكتب الدراسات والبحوث

المصدر: السيرة النبوية

بسم الله الرحمن الرحيم
السلام عليكم ورحمة الله وبركاته وبعد ..
بطلبه خطاب معالي وزير الاعلام رقم ٥٣٩٢/د/١٠ وتاريخ ١٤٠٦/٨/١٠
السبب على خطابي رقم ١/٥/١٥٦٥ وتاريخ ١٤٠٦/٧/٢٠ بشأن احكام
معاليه مستعين من مجلة اذاعة العدد الاخير وقد تضمن خطاب معاليه شكره
وقد يره له لك .. آمل الاطلاع والا حاشا . ولكم تسامحي .
وزير التعليم العالي
ورئيس مجلس ادارة ادارة المطبعة عبد المحسن
حسن بن عبد الله آل الشيخ
٨/١١/٠٠
لجنة الدراسات والبحوث

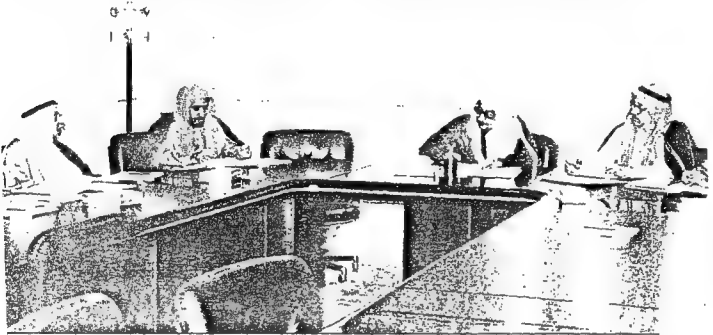
مكتبة الدراسات والبحوث
وزارة الثقافة والفنون
الجمهورية الإسلامية الإيرانية

حساب تاريخك لا يعود إليك ولا تمتلك تغيير معاليه «والساعة» التي تعيشها هي حاضرك لكنها ستكون بعد مرورها جزءاً من تاريخك تشهد لك أو عليك.

رحمه الله رحمة واسعة وأسكنه فسيح جناته



الشيخ حسن آل الشيخ رحمه الله



الأمير سعود بن عبد المحسن :

الله لصاب جلل

"...مؤ. الملك الامير سعود بن عبد المحسن نائب امير منطقة مكة
الذي غشانا بوفاة الامير فهد بن سلمان :"

فقدنا مثالا
الزاهة والاخلاق

رحمك الله
يا أبا هاشم

كبار أئمة فيها الشيخ ابن
الشيخ فهد بن عبد المحسن
يعتبر على مثل هذا
ند تحونر



يرحم الله الشيخ حسن

محمد بن مسلم المرادي

رحم الله الشيخ حسن بن محمد المرادي...
رحم الله الشيخ حسن بن محمد المرادي...
رحم الله الشيخ حسن بن محمد المرادي...

يصادك دم القلب

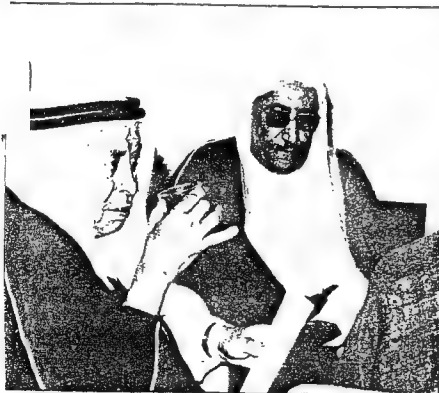
صاحب السور الذي...
صاحب السور الذي...
صاحب السور الذي...

الفقيه الضال

يرحمك الله يا والد الحصة
والزواء...
الشيخ والزيد...

الرجل المفخرة

عنه الله قلب...
وجدان من...
فقيه الأسرة...
الفكرية...
الاعمال...
والخلاص...
والإفادة...
ومليك...
وامته...



د. الزيد :

الكلمات تتقاصر عن رثاء الرجل

وله المغفرة وشايب
الرحمة والله المستعان .

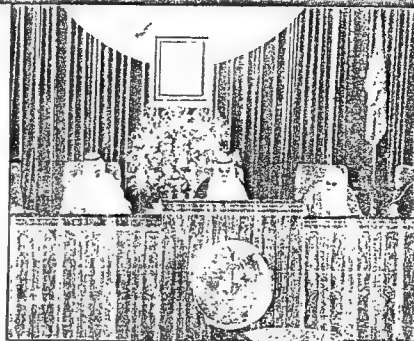
لقد كان الفقيه أمة حسنة

والتقت « المدينة » بوكيل وزارة التعليم
الدكتور عبد الرحمن الشبيل حيث
دعى الفقيه فقال :
لقد كان الفقيه رحمه الله أسرة حسنة
علمه وعمله وكان يفرح بابنائنا المتعلمين
أنهم ابتازوا من صلبه ثاميك عن تقاينه
نفس قبل كل شيء لديه وملكه ووطنه
حق الشيخ حسن آل الشيخ رحمه الله
لذا يذكره الكثرين بالشكر والاحسان
علامة مشقة : سبأ ، المغفرة ، فداء
من
وطر

مرح
هوى

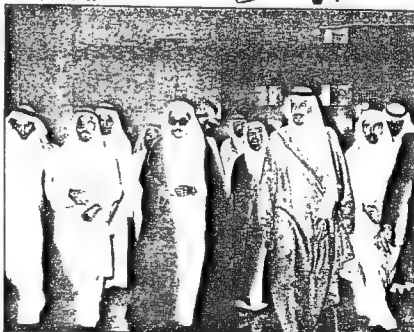
أما الأستاذ محمد
السعود رئيس
الاختبارات
الحاضرة
المنطقة

وداعاً أيها الغالي
بهم ، نودة عبداللطيف آل
كان عليه خلائهم
تبعاً على رثاء
لا

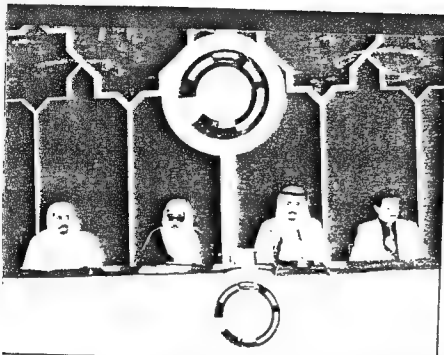


لقد كان لا
الشيخ اياد بيض
خاصه .. وكلف
الفعال والكبير لل
الشيخ الذي كان
وزيراً

كان الفقيه
بنظر للمستقبل
بشقة ونجاح



من أرحيف المجلد



فقدنا علما بارزا

والزميل الدكتور
سعيد فالح الغامدي
المحاضر في كلية الشريعة

بجامعة
بجدة فقد كان كبير
الشيخ
بالجامعة .. وجاءت
كلمات رثائه على النحو
الآتي

كان الشيخ أمة حسنة



وَحَمِّكَ اللَّهُ يَا شَيْخَ الْفَضْلَاءِ وَيَا كُلَّ الرِّجَالِ

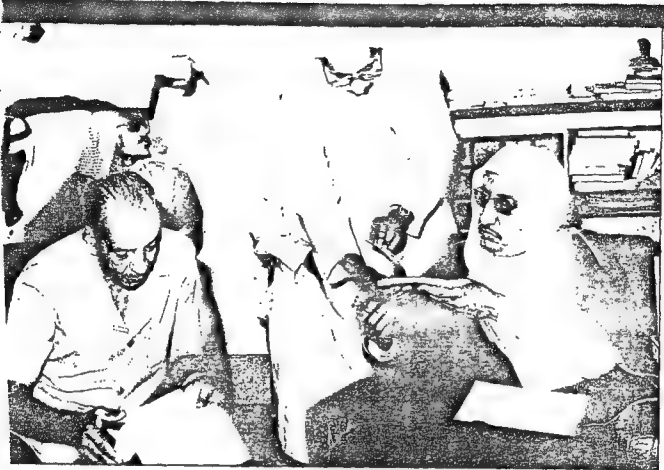
التي تتشابه مع سائرهم إلا أن الشخص الذي لا يوافق عليه إثنان أو ثلاثة من أعضاء الجمعية لا يوافق عليه هذا الشخص - وعندئذ فإنه يجمع بينه وبين باقي الأعضاء - عندئذ - إن شاء الله - ولم يتشرف بمعاينته ولكن يشهد

«جواب مشرقة في شخصية
فقيه العلم والأدب»
عبد اللطيف آل الش

ممكن تسمى زائلة الموتة تلك حادثة وحق
فأقول فيها إلا أن مصادرة شخص عزيز

بقلم / د. عبدالعزیز بن





كان الطبيب
ينظر للمستقبل
بشقة وجاه

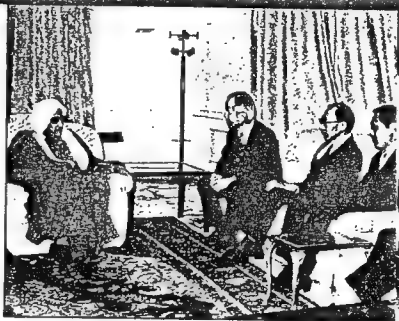
وكان ، المدينة ، هذا
اللقاء مدير جامعة الملك
سعود بالرياض معالي
الدكتور منصور التركي
حيث قال :
لقد وفقت الكلمات
حاضرة تبحث عن معنى
لتعبير واحد يرثي وفاة

الحمد لله رب العالمين

يا من عرفته منذ خمس وثلاثين سنة وانت
دين صدوق تحب الخير للناس عرفته تصل
له ولو اسأحت اليك . وعرفته عضوا
في القضاء الذي يرأسه سميحة والدك
عبد الله بن حسن رئيس القضاة
الغربية رحمه الله لم الناب الذي
لتي الديار السعودية ورئيس القضاة
بن ابنه .
يا من عرفته منذ خمس وثلاثين سنة وانت
دين صدوق تحب الخير للناس عرفته تصل
له ولو اسأحت اليك . وعرفته عضوا
في القضاء الذي يرأسه سميحة والدك
عبد الله بن حسن رئيس القضاة
الغربية رحمه الله لم الناب الذي
لتي الديار السعودية ورئيس القضاة
بن ابنه .

رحم الله حسن آل الشيخ

بالاس القريب انتقل الى رحمة مولاه محالي الشيخ الجليل
حسن عوده آل الشيخ وزير التعليم العالي . وتلاه الخبر انرا
بالقرب رحلتا صبيحا في نفس امسكته ومباركه وتلاميذه . حزنا
اعترض القلب ورنوت له الميول الدرس . حزنا
حين لوفاته .





الجميع وكان
ويساعد الكثر
جميع المجالات
ومهما يوم
يتحدث عن
الجليل الفاه
عاجزا عن الذ
معالیه رحمه
واخلاق فاه

حسن ال الشيخ كان صديقا
لجدي عبد العزيز بن ابراهيم
رحمهما الله جميعا وعائلة ال
وال الشيخ أسرة
سودها المودة

ال

الشيخ

بن عبد الرحمن ال الشيخ

الخشية قبل أن القها
يوم كنت طالبا بدار
بخلص والمودة
أراك حتى صرت

الشيخان ، اتلقى

الصرا. فيه

اب العلم والعلماء

المسجد قبل الثامنة الى لندن الهلند: ١٩٩٠
توكل السار: ١٩٩٠



حول منهج جغرافيته الإسلامية

د. صلاح عبدالجابر عيسى

مقدمة :

ارتبط تدريس «جغرافية العالم الإسلامي» كمقرر علمي في الجامعات العربية لأول مرة بجامعة الأزهر بعد تطويرها في عام ١٩٦١ (١٣٨١هـ)^(١)، ثم تم تدريسه في بعض أقسام اللغة العربية والجغرافية بالكلية والمعاهد، وظهرت مؤلفات جغرافية عديدة باللغة العربية تعالج هذا المقرر، كما ظهرت دراسات محدودة عن القضايا والموضوعات الإسلامية من وجهة نظر جغرافية. وقد أسهم الباحث في تدريس مقرر جغرافية العالم الإسلامي في أكثر من جامعة^(٢)، وذلك بعد أن استوعب ما كتب في هذا الموضوع باللغة العربية والمتاح مما كتب عنه باللغة الانجليزية والفرنسية، وقد استرعى انتباهه أن غالبية الكتابات العربية تنتهج منهجاً جغرافياً إقليمياً تقليدياً، وتغفل الجانب المنهجي التأصيلي لجغرافية الدين الإسلامي، على حين ظهرت كتابات عديدة باللغات الأجنبية تعالج جغرافية الأديان أصولياً، ويتبنى بعضها فلسفات مادية إحادية، ويقدم بعضها الآخر آراء معتدلة - لكنها قد تختلف عن وجهة النظر الإسلامية الخاصة بالأديان عموماً، وفي كل ذلك يتعرض الباحثون من غير المسلمين لتفسير بعض القضايا الإسلامية من منظور جغرافي يجهل أو يتجاهل حقائق هذا الدين السماوي الخاتم وخصائصه. وإذا كانت الجهود العلمية الإسلامية في مجال جغرافية الأديان هي جدٌ محدودة، فربما عزى ذلك إلى إحجام الأقلام عن الخوض فيه مظنة التورط في قضايا تصطدم بالقدرية أو بالتعليقات المادية الصرفة للظواهرات.

وتشدد هذه الدراسة الوصول إلى تصور منهجي لكيفية المعالجة الجغرافية للإسلام كدين
سماوي خاتم وتبيان أهم العناصر الأولى بالدراسة في الموضوع ، وتنظيمها في نسق علمي ،
يستوحي أركانه وعناصره من خصائص المنهج الجغرافي ومن خصائص الدين الإسلامي معاً .
ونعشياً مع عنوان الدراسة الحالية «حول منهج لجغرافية الإسلام» وكذلك مع أهدافها ،
يخسن تقسيم المعالجة إلى العناصر الخمسة التالية :

- بين المنهج التدريسي والمنهج الجغرافي.
- جغرافية الأديان ومناهجها.
- طبيعة الإسلام والمنهج الجغرافي لدراسة.
- منهج لجغرافية الإسلام الأصولية.
- منهج لجغرافية الإسلام التطبيقية.

أولاً : بين المنهج التدريسي والمنهج الجغرافي .

تباين التعريفات التي ترد للمنهج في المؤلفات الأصولية ، فقد ينصرف المنهج عند البعض
إلى وسيلة المعالجة العامة ، وعند آخرين إلى وسائل البحث الخاصة^(٣) ، وإن كانت الأخيرة
يمكن أن يطلق عليها تقنيات (تكنيك) البحث^(٤) ، وقد يعني المنهج الاثنين معاً . ويرى غالبية
المختصين أن اصطلاح المنهج أصبح يعني «الطريق المؤدي إلى الكشف عن الحقيقة في العلوم
بواسطة طائفة من القواعد العامة»^(٥) . كما يصح تحديد مفهوم المنهج عموماً بالطريقة ، سواء
كانت في البحث عن الحقيقة ، أو في نقل هذه الحقيقة إلى الآخرين ، والأولى في هذا الفهم
هي منهج بحث ، والثانية هي منهج تدريس ويقع المنهج الذي نعنيه في هذه الدراسة في
العنيتين معاً ، فهو يختص بالبحث في موضوع جغرافية الإسلام من جانب ، وكذلك بتدريس
مقرر علمي في نفس الموضوع من جانب آخر .

ولعلماء التربية ومناهج التدريس مفهومهم للمنهج ، وإن كانوا يركزون على المناهج
المدرسية (دون الجامعية) ، فإنهم يصطلحون على تسمية ما تقدمه المدرسة إلى تلاميذها
بالمنهج^(٦) ، ولهذا المنهج عندهم مفهومان يتصلان بقدر عطاء المدرسة للطلاب ، مفهوم

تقليدي أو ضيق ، يقتصر المنهج على مقرر المادة الدراسية أو برنامجها الدراسي ، ومفهوم حديث أو واسع يعني جميع أنواع النشاط أو خبرات التي يقوم بها الطلاب أو يكتسبونها بإشراف المدرسة وتوجيهها . سواء في داخل المدرسة أو خارجها^(٧) . ويقسم علماء التربية المنهج التدريسي إلى عدة أنواع حسب كيفية تقديم المعرفة واكتساب الخبرة لها :

منهج المواد المنفصلة - المنهج المتربط - منهج المجالات الواسعة - منهج الوحدات - منهج النشاط - المنهج المحوري .

وصحنا منها المنهج الأول ، حيث أنه أنسبها لمعالجة موضوع جغرافية الإسلام . ومن خصائص منهج المواد الدراسية تنعكس تنظيمه اخذتق العلمية للموضوع تنظيمياً منطقياً . وتركيزه على شرح المعلومات ، كما أنه سهل الإعداد والتقديم ، ورغم ما يؤخذ عليه من انفصاله عن النشاط إلا أن رجال جماعات يؤيدونه ، ويعتبرونه السبيل الأمثل لتدريس المواد في المرحلة الجامعية^(٨) . ويمكن تحسين هذا المنهج بالتأكيد على الربط بين الموضوع وغيره من المقررات ومراعاة ذلك في تنظيم المادة العلمية وهذا ما ينجح المنهج الجغرافي في تحقيقه .

وبالنسبة للمنهج الجغرافي فقد خلص هارتسهورن سنة ١٩٣٩^(٩) إلى أن الكثير من الجغرافيين أكدوا أن منهج علمهم هو دراسة الظواهرات كما هي مترابطة على سطح الأرض ، أو هو بمعنى آخر دراسة الترتيب المكاني للظواهرات على سطح الأرض ، وذلك يركز على توزيع الظواهرات والبحث عن أنماطها وعلاقاتها وتداخلها في المكان ، وقد حدد كل من تشابمان ومنشل^(١٠) خمس طرق أو عناصر للمنهج الجغرافي هي : تحليل المواقع والمواضع الجغرافية - التوزيع المكاني والنمط - العلاقات المكانية - الوظيفة الإقليمية - النظم المكانية . ومن البديهي في غياب المنهج السابق أن تتحول الجغرافيا إلى مجرد دائرة معارف كما يقول بذلك هارتسهورن .

ويبقى بعد ذلك سؤالان : من الذي يضع المنهج ؟

وما طريقة وضع المنهج ؟

وتختلف الإجابة عن السؤال الأول عند المختصين ، ففي المناهج التدريسية يرى البعض قيام الطلاب بوضعها ، والبعض الآخر يفضل المدرسين ، والثالث يسندها إلى الخبراء

والموجهين ، والرابع ينادي بمسئولية العلماء في اختيار المواد الدراسية ، والكثيرون يرون اشتراك فريق متكامل في تخطيط المناهج^(١١).

وفي مناهج البحث تتراوح مسئولية وضعها بين العلماء والفلاسفة ، فالعلماء المختصون يضعون المناهج ويعدون لها ، بينما يتابع فلاسفة المناهج ما وضعه العلماء محاولين تنسيقه في نماذج وتوجيهات عامة توضع أمام العلماء لقبولها أو رفضها^(١٢). وهذا يقود إلى الإجابة عن السؤال الثاني: إذ أن هناك أسلوبين يمكن اتباعهما في وضع تو اقتراح المنهج ، الأسلوب الاستقرائي Induction والأسلوب الاستنتاجي Deduction ويعني الأول استقرار ما كتبه المختصون من مناهج والوصول منها إلى نتائج ومنهج ، بينما يعني الثاني اقتراح منهج نظري دون الإلتفات إلى ماسبق من جهود ، وتظهر أهمية الأسلوب الأخير إذا كان الموضوع بكرة لم يطرق من قبل . وسوف أتبع الأسلوبين السابقين في معالجة واقتراح منهج لجغرافية الإسلام ، وفي كل يلزم اتباع مراحل وأسس وضع المنهج^(١٣)، ومن أهمها وضوح أهدافه التي تنبع من حاجات وأغراض كل من المتعلم والمجتمع ، وكذلك من النظام المتكامل للمعرفة البشرية ، ومنها أيضا اختيار المحتوى المناسب الذي يحقق هذه الأهداف .

نخلص مما سبق إلى أننا سوف نبنى منهج المواد المنفصلة - المقررات لموضوع جغرافية الإسلام ، ملتزمين بقواعد المنهج الجغرافي ، وذلك من خلال الاستقراء والاستنتاج معا .

ثانياً : جغرافية الأديان ومناهجها :

يتضح من مراجعة التصنيفات الحديثة للعلوم الجغرافية والكتب الأمهات في الجغرافيا البشرية أن جغرافية الأديان لم تكن فرعاً أو مقررراً جغرافياً مشهوراً لدى غالبية الجغرافيين ، بل إنها لم تلق الإهتمام الكافي حتى الآن ، فأول كتابة جغرافية مطولة ومنشورة عن الأديان لم تظهر إلا في سنة ١٩٤٨م على يد بير دي فونتين (De Fontaine)^(١٤) ، وإن كان يمكن أن نلاحظ الإهتمام الأول لهذا التخصص عند إيمانويل كانت (E. Kant) (متوفي سنة ١٨٠٤) حينما قسم الجغرافيا الطبيعية إلى خمسة أقسام منها الجغرافيا اللاهوتية (Theological) وتعني بتوزيع الأديان ، والجغرافيا الأخلاقية (Moral) ، وتعني بعادات الإنسان وشخصيته وعلاقة كل ذلك بالبيئة^(١٥).

وفي دراسته للجغرافيا الدينية للولايات المتحدة الأمريكية سنة ١٩٦١م ، أشار الجغرافي الأمريكي زلنسكي (Zelensky)^(١١) إلى الدراسات الغربية التي سبقتها في موضوع جغرافية الأديان عموماً ، وأولها ما نشره الألماني باول فيكلر (P. Fickeler) في العدد الأول من مجلة (Erdkunde) سنة ١٩٤٧م بعنوان «أساس جغرافية الأديان»^(١٢) ، وتتضمن قائمة بيبليوجرافية تحليلية للدراسات الألمانية حول جغرافية الأديان فضلاً عن بعض القضايا المنهجية في الموضوع . وفي سنة ١٩٤٨م ظهر كتاب دي فونتين سابق الذكر ، وهو عمل تجريبي قائم على بيانات غير كافية ، كما أنه يميل أكثر إلى الكتلة الانثروبولوجية ، إلا أنه يسبب في إبراز أثر الدين على مظاهر العمران وعلى الجوانب المتعددة للسلوك الإنساني ، ومع هذا لم يصنف المؤلف الديانات المختلفة ، ولم يناقش توزيعها في بياناتها وعلاقاتها المتباعدة عبر الفترات التاريخية والثقافية المختلفة^(١٣) .

ثم ظهرت في سنة ١٩٥١م دراسة محدودة للأستاذ فليور (Fleure H.J.) بعنوان «التوزيع الجغرافي للديانات الكبرى»^(١٤) ، وقدم أريك (Eric Fischer) سنة ١٩٥٦م دراسة مماثلة في لقاء رابطة الجغرافيين الأمريكيين بعنوان «ملاحظات على جغرافية الأديان» لكنها لم تنشر — ونشر ملخص لها في مجلة الرابطة (العدد ٤٦ سنة ١٩٥٦م)^(١٥) ، وفي سنة ١٩٥٧م كتب فيشر موضوعاً بعنوان «الديانات ، توزيعها ودورها في الجغرافية السياسية» ونشره ضمن كتاب «مبادئ الجغرافية السياسية» لمؤلفه هانز فايجرت (Hans W. Weigert)^(١٦) .

ويرى زلنسكي أن أهم الدراسات الإقليمية لجغرافية الأديان هي ما كتبه زافير دي بلانول^(١٧) (Xavier de Planhol) سنة ١٩٥٧م) عن «العالم الإسلامي — دراسة في جغرافية الأديان» ، وقد ترجم إلى الإنجليزية سنة ١٩٥٩م بعنوان (The World of Islam) ، والكتاب في تقييم زلنسكي — عبارة عن تصوير عام وممتاز للموضوع وإن لم يدرسه بالتفصيل كموضوع كبير ومركب ، ويؤخذ على دي بلانول تطبيقه لنظرية الحتم الجغرافي في هذا الكتاب ، وتحيزه ضد الإسلام^(١٨) .

ولم تكن كتابة دي بلانول هي الأولى من نوعها عن الجغرافيا الدينية للعالم الإسلامي ، فقد سبقتها عدة أعمال من أهمها المقالة التي كتبها رينيه لوكننت (Rene Le Conte) سنة ١٩٢٢م ، عن

جغرافية الإسلام Le Geographie de l'Islam وذلك في المجلد ٣٥ من مجلة الحركة الجغرافية Le Mouvement Geographique .

وما كتبه حسن جوهر بالانجليزية سنة ١٩٣٠ عن «تأثير العوامل الجغرافية على انتشار الإسلام» وذلك على شكل رسالة علمية قدمت إلى جامعة بريستول ، وكذلك ما كتبه حزين بالانجليزية سنة ١٩٤٢م في كتابه عن الجزيرة العربية والشرق الأقصى ، وكتابة محمد حسونة عن «الجغرافيا التاريخية الإسلامية» سنة ١٩٥٠م . ولقد ظهرت في الستينات عدة أعمال علمية في الجغرافيا الإسلامية من أهمها ما كتبه عبدالعزيز كامل عن «قيام الإسلام» سنة ١٩٦٠م^(٢٤)، وعن «وجه العالم الإسلامي سنة ١٩٦٥م^(٢٥) هذا فضلاً عن ما سطرته أقلام الجغرافيين فيما بعد عن الجغرافيا العامة والاقليمية للعالم الإسلامي .

وفي خلال فترة الستينات تطرق كتاب جغرافية الأديان إلى بعض القضايا المنهجية ولو بصورة عرضية - والمتصلة بموضوع ومجال جغرافية الأديان ذاتها ، وكذلك مناهج معالجة وتفسير العلاقة بين الدين والمظاهر الجغرافية .

وفيما يتعلق بموضوع ومجال جغرافية الأديان : أشار زلنسكي سنة ١٩٦٦م^(٢٦) إلى أن دراسة هذا الموضوع محاطة بعدة مشكلات تحدد العناصر التي يمكن دراستها ، ومن أهم تلك المشكلات عدم توافر البيانات والإحصائيات الأساسية عن الدين خاصة على مستوى العالم ، والتباين الكبير في البيانات الصادرة عن الوكالات المختلفة ، وكذلك الخلط والتداخل في البيانات المتعلقة بالدين ، وصعوبة الحصول على بعض البيانات حيث إن الدين ظاهرة متعددة الجوانب ، وبعض جوانبها روحي وشخصي لا يخضع للملاحظة أو القياس هذا فضلاً عن وجود تعريفات كثيرة ومتباينة للدين .

وبناء على ما سبق يتساءل زلنسكي حول موضوع الدراسة في جغرافية الأديان :

- هل يقتصر على دراسة تابعي كل ديانة أو عقيدة من الناحية الشكلية المادية ؟
- هل يدرس درجة عمق العقيدة الدينية ؟ وكيف يمكن قياس ذلك وملاحظة الظاهر غير المادية ؟

— هل الدين سبب وعامل لتشكيل المظهر الحضاري والثقاني ؟ أو أنه مجرد أثر أو عنصر لذلك المظهر ؟

— هل يقتصر الجغرافي على ملاحظة المظاهر المادية للدين والتي تنعكس على المظهر العمراني والنشاط الاقتصادي والعلاقات السياسية ؟

— هل يركز على المظاهر الداخلية والروحية التي تعد من أساسيات تلك الظاهرة الروحية (الدين) ؟

وقد لوحظ أن معظم الجغرافيين الذين تصدوا للكتابة في جغرافية الأديان قصرُوا اهتمامهم على إبراز أثر الدين على المظهر الحضاري ، خاصة المعماري وعلى مرفولوجية المدن والقرى والخصائص الأخرى للمظهر العمراني ، وذلك لصعوبة الحصول على بيانات دقيقة عن الجوانب الأخرى لعلاقات ظاهرة الدين .

ويرى عبدالعزيز كامل سنة ١٩٦٨م^(٢٧) أن جغرافية الأديان فرع من الجغرافيا البشرية التي تتخذ من التفاعل بين الإنسان والبيئة موضوعاً لها ، إذ أن علاقة الإنسان ببيئته تتأثر بقوة الفكر أو «الغلاف الفكري» لديه أهم مايشكل ذلك الغلاف ، كما أن الدين عموماً يوفر غطاءً متكاملًا للحياة يؤثر إلى حد كبير في تشكيل البيئة . وفي علاقات الأفراد بعضهم ببعض ، وعلاقاتهم بالبيئات الأخرى مما يؤثر على التنظيم السياسي والاجتماعي والاقتصادي ، وينعكس كل هذا على الأنماط والتوزيعات والعلاقات الجغرافية ، ويرى أيضاً أن الجغرافيا الدينية لها جغرافيتها التاريخية وجغرافيتها المعاصرة ، وواضح أن هذا الرأي الأخير ينطوي على درجة ملحوظة من النضج المنهجي في جغرافية الأديان ، فهو يحدد بصراحة انتهاءها للجغرافيا البشرية ، وموضوع دراستها المستقل وهو المظاهر المادية للحياة الدينية بشمولها ، وهذا ما أشار إليه فليكر P. Fickeler سنة ١٩٤٧م^(٢٨) من أن جميع الديانات في تطورها تخلف مظاهر واضحة لها ثباتها المكاني ودوامها الزمني بحيث يمكن دراستها جغرافياً .

أما مناهج المعالجة والتفسير الجغرافي فتراها تميل إلى اتخاذ توجيهين الأول يتبنى الحتمية والثاني يتبنى التحليل الموضوعي ، ومن أمثلة التوجه الأول الحتمي ماكتبه اريك اسحق Erich Issace سنة ١٩٦٠م^(٢٩) عن الدين ومظهر الأرض والمكان ، وهو حافل بالتفسيرات الحتمية لعلاقات تلك العناصر وقد يقضي التثبت بالحتمية إلى آراء متطرفة وخطيرة عن العلاقة بين

الجغرافيا والدين كالتى وردت عند الجغرافي الهندي جورج كوريان George Kuriyan سنة ١٩٦١م^(٣٠) فهو مثلاً يسخر من تصوير الديانات السماوية لجهنم بأنها حارة ، ويقول إن ذلك من وحي الحرارة الشديدة التي تميز مواطنها الصحراوية ، لكنها تكون بذلك محبة عند أهل المناطق الشمالية الذين تصوروا جهنم على أنها برد شديد ، كذلك فإنه يقدم تفسيرات ضالة واهية عن سبب وجود أسوار حول الجنة ، ولماذا وصفت الجنة بأنها ظل ظليل ، كما يفسر تعدد ديانات الهند بتعدد أنهارها تعتبر عطية من الإله فتصير لها قداستها وتغسل مياهها خطايا البشر العظيمة .

ولقد أشرنا من قبل إلى أن دى بلانول سنة ١٩٥٧م قد طبق نظرية الحتم الجغرافي في تفسيره لتوزيع الدين الإسلامي . والجدير بالذكر أنه إذا كان لبعض التفسيرات الحتمية وجاقتها بالنسبة لبعض المعتقدات والديانات التي ابتدعها البشر فإنها لا تصح البتة في تفسير الديانات السماوية التي تصدر في كل توجهاتها عن الوحي والتقدير الإلهي .

ومن أمثلة التحليل الموضوعي للديانات ما كتبه زلنسكى عن الجغرافيا الدينية للولايات المتحدة حيث اقتصر على تحليل بيانات العضوية في كنائس الولايات سنة ١٩٥٢م نتيجة لقلة البيانات الإحصائية والدراسات السابقة وحاول منها أن يميز تفسيرات اقليمية ومذهبية للنصارى حسب الأصول التاريخية للشعب الأمريكي وانتهى منها إلى تصور أقاليم دينية للولايات المتحدة . ومن تلك الدراسات الموضوعية أيضاً ما قدمه كن من نلسون Nelson وكلوز Lewis سنة ١٩٧٣م عن التحركات الجغرافية والسلوك الديني^(٣١) . وهي محاولة لتبين أثر التحركات الداخلية للسكان على سلوكهم الديني ، أو بمعنى آخر البحث عن العلاقة بين المسافة التي يقطعها الفرد بعيداً عن وطنه الأصلي وبين مدى التغير في سلوكه الديني . وفي نفس الاتجاه كتب هنشو Hinshaw وستوتز Stutz سنة ١٩٧٦م عن السلوك المكاني الاجتماعي الديني^(٣٢) ، بغية تحديد النمط السويكي لانتقال الأفراد إلى الكنيسة معتمدين على بيانات مجمعة عن عضوية ١٤ كنيسة في منطقة سان دييجو سنة ١٩٧٢م . ويشير الباحثان السابقان إلى أن معظم دراسات جغرافية الأديان في الولايات المتحدة ظهرت في شكل رسائل للماجستير والدكتوراه وتقوّم على مناهج تاريخية وتوزيعية بهدف تحديد مناطق الخدمات الدينية على مستوى المدينة .

ولكن الكتاب الأصولي والمنهجي الهام في «جغرافية الأديان» هو كتاب سوفر Sophor الذي

صدر سنة ١٩٦٧م بذلك العنوان (٣٣) ، وقد جاء الكتاب في خمسة فصول يعالج كل منها عنصراً أصولياً للموضوع ويمكن اعتباره مؤشراً منهجياً لتلك المعالجة ، حيث خصص الفصل الأول لتصنيف الأنظمة الدينية ، والفصل الثاني لدراسة الأسس الجغرافي للنظم الدينية متجنباً التفسير الحتمي في ذلك . وجاء الثالث بعنوان «الدين والأرض» أو أثره على الأرض متمثلاً في المظاهر السلبية والإيجابية التي تنتج عن المعتقدات والممارسات الدينية على الأرض ، وهو أكثر الفصول منهجية وتشويقاً ، وتناول الرابع التنظيم الديني للمكان معالجاً الأماكن المقدسة وأقاليمها وعلاقات تلك الأقاليم ، ودرس في الفصل الأخير توزيع الديانات وخرائط امتداداتها ومناطق التقائها ودرجة اقترابها .

وخلاصة ماسبق أنه رغم تعدد الدراسات في جغرافية الأديان وتطورها نحو النضج المنهجي والذي تمثل مرحلته الأخيرة إضافة سوفر الأصولية ، إلا أنه لم يستقر حتى الآن منهج أو إطار محدد لجغرافية الأديان يؤكد عدد الأعمال الأصولية والمنهجية التي تظهر في الموضوع ، وهذا ما سنحاوله في جغرافية الإسلام .

ثالثاً : طبيعة الإسلام والمنهج الجغرافي لدراسته :

من المنطقي أن يكون ثمة توافق بين طبيعة موضوع ما والمنهج المقترح لدراسته ولذا ينبغي قبل وضع تصور لمنهج جغرافي لدراسة الإسلام كدين ، التعرف على طبيعة هذا الدين ، وما إذا كان يتشابه مع الديانات والمعتقدات الأخرى للبشر أم أن له خصوصياته التي ينفرد بها ، ولابد حينئذ أن ينسجم المنهج المقترح مع تلك الخصوصيات .

ونستطيع أن نبرز بعض الخصائص العامة للدين الإسلامي والتي لها أهميتها في توجيه المنهج الجغرافي لدراسته وأهمها :

١ - الإسلام أحد الديانات السامية الكتابية ، ويختلف بذلك عن المعتقدات والديانات البائدة أو زعمها بعض البشر في أنه من وحي الله تعالى وعلى هذا لا يجوز أن تفسر علاقات الدين بالظواهر الجغرافية أو ارتباط بعض حقائق الدين بأسس جغرافية لا يجوز تفسير ذلك بنظرية الحتم الجغرافي أو البيئي فالله تعالى خالق كل شيء وهو سبحانه

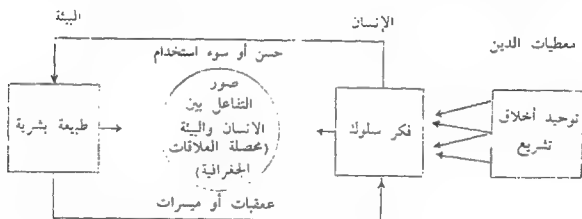
يرتب العلاقات بين الظاهرات والأشياء ﴿الله خالق كل شيء وهو على كل شيء وكيل﴾ (٣٤).

٢ - الإسلام يتميز على الديانات السماوية بأنه خاتمها جميعاً ، وبذلك جاء كاملاً وشاملاً لمراد الله تعالى من هدايته لخلق ، فبين لهم طريقاً ومنهجاً وأرسي تطبيقاً عملياً تتكامل فيه المادة مع الروح ، وأصبحت الهداية في اتباع هذا الإسلام الخاتم ﴿فإن أسلموا فقد اهتدوا...﴾ (٣٥) . وقد أشار إلى هذه الحقيقة أحد الكتاب (٣٦) المنصفين من غير المسلمين حيث صنف الديانات السماوية الثلاث ، فذكر أن اليهودية دين شعب ، والنصرانية دين روح ، والإسلام دين روح ومادة ، أي أنه دين شامل متكامل .

٣ - الإسلام أسس القواعد الشرعية لقيام بناء مادي حضاري منظم لجماعات البشر فيما يعرف باسم الدول ، فلم يكتف بترية الفرد على التكامل بين الروح والمادة فيما يرضي الله ، بل تعهد جماعات الأفراد المؤمنين منظم علاقاتهم فيما بينهم من ناحية وفيما بينهم وبين مخلوقات الكون من - ناحية أخرى ، ما يتواجد منها في محيطهم القريب أو محيطهم البعيد ، أي في سكن الجماعات المحلية أو الدول أو العالم أجمع . وقد عبر الجغرافي الغربي اسحق بومان (٣٧) عن ذلك بقوله ، إن الديانة الإسلامية على النقيض من النصرانية واليهودية (ويقصد منها كل الديانات السماوية وغير السماوية) لا تنحصر في كونها مجرد نظام أخلاقي له تأثيره على روح الإنسان ، لكنها عتيدة قوة وسلطة ، هي نظام قانوني ، ومرشد للسياسة وأساسي لقيام حكومة (دولة) .

والإنسان المسلم سواء في فرد أو جماعة يتلقى الهدى في سلوكه من دينه وينظم شئون حياته وفقاً لهذا الدين ، وتخطط الجماعة المسلمة في بوتقة إسلامية تصدر عنها في جميع تصرفاتها وأفعالها المتعلقة بالدنيا والآخرة ، وتتحدد هذه البوتقة بأن كل ما فيها إنما هو بتوجيه الله ، كما أنه يتغنى وجه الله ورضوانه (قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين) (٣٨) . أي أن الإسلام يشكل التفكير والسلوك بالنسبة للشخص المسلم ويتجه بها جميعاً إلى غاية واحدة هي في نفس الوقت مصدر التوجيه في الفكر والسلوك ، هي الله سبحانه وتعالى .

وإذا كان لب موضوع الجغرافيا هو ما تستر عنه علاقة الإنسان ببيئته ، بحيث تكون هناك ألوان من العلاقات الجغرافية - طرفاها : الإنسان والبيئة فإننا يمكننا تصور طبيعة علاقات الإنسان المسلم ببيئته ، والمحصلات الجغرافية - الناجمة عن تلك العلاقات في نموذج حديد لشبكة العلاقات الجغرافية - من وجهة نظر الفكر الإسلامي ، كما يلي :



● (شكل ١) نموذج لشبكة العلاقات الجغرافية ●

ويتألف نموذج العلاقات من ثلاثة عناصر متفاعلة هي معطيات الدين ، الإنسان ، والبيئة ، وإذا نظرنا إلى أول طرفي العلاقات الجغرافية في النموذج التقليدي وهو الإنسان نلاحظ أنه في جوهره عبارة عن فكر وسلوك ، ويعتمد الإنسان المسلم مكونات فكره وموجهات سلوكه من دينة الإسلامي الذي شملت معطياته جوانب التوحيد والأخلاق والتشريع ، وفكر المسلم وليد التوحيد والأخلاق - الإسلامية وسلوكه نتاج للأخلاق والتشريع ، وتلك هي العلاقة الوثيقة بين الدين والإنسان .

وفي الطرف الآخر نجد البيئة بمعطياتها الطبيعية والبشرية ، ولها هي الأخرى علاقاتها المتبادلة مع الإنسان ، فهي من جانب تؤثر على الإنسان ، فقد تمثل عناصرها ميسرات أو عقبات في حياته ، ومن جانب آخر يؤثر الإنسان على البيئة فهو يحاول بفكره وسلوكه أن يطوع البيئة لأمره ويفيد من إمكاناتها وعناصرها لاحتياجات حياته . وقد يترتب على تلك المحاولات حسن استخدام أو سوء استخدام لعناصر البيئة . المهم أنه تنتج لدينا

مجموعة محصلات لصور العلاقات بين الإنسان وبيئته الطبيعية تشكل في النهاية ما يمكن تسميته بالبيئة الجغرافية .

ويصبح واضحاً أثر معطيات الدين على البيئة الجغرافية ، ففي حالة تشبع الإنسان بفكر وسلوك بمعطيات الدين تكون العلاقة بينه وبين البيئة الطبيعية على خير ما يكون ، (أي حالة حسن استخدام) وإذا لم يتشبع الإنسان بمعطيات الدين فقد تسوء العلاقة بينه وبين بيئته (حالة سوء استخدام) ، وأبسط ما يقال عن هذا أن الإنسان المؤمن بمأمور باستخدام إمكانات البيئة التي سخرها له الله فيها ينفع الناس أجمعين ، بينما يبيح غير المؤمن لنفسه استخدامها فيما يضر الآخرين . فقاعدة التعامل عند المسلمين «لا ضرر ولا ضرار» .

ونتيجة لهذا الفهم لطبيعة الدين الإسلامي ولشبكة العلاقات الجغرافية برؤية إسلامية يمكن أن يتحدد لدينا مجال دراسة جغرافية الإسلام ، وهو مظاهر تفاعل الإنسان المسلم مع بيئته الشاملة ، أو محصلة العلاقات الجغرافية في البيئة الإسلامية .

أما المنهج الجغرافي المناسب للدراسة موضوع جغرافية الإسلام فيتصف بثلاث خصائص أساسية هي :

١ - أنه منهج لا يعتمد على التفسير الخمي لعلاقة الإنسان ببيئته ، ذلك أن الإنسان في الإسلام مخير في حدود طاقته الإنسانية ، وأمور أن يستخدم هذه الطاقة بإيجابية نافعة وسيحاسب على ذلك من الله «اعملوا ، فكل ميسر لما خلق له ، وكل محاسب على ما يسر له»^(٣٩) . ولذلك فالتفسير الإمكانى هو الأوفق لطبيعة الإسلام .

٢ - أنه منهج شامل للجوانب المادية الطبيعية والجوانب البشرية في البيئة الإسلامية لا يركز على أحدها دون الآخر . فإسلم مأمور بأن يتعامل مع كل العوالم ويعمل النظر والفكر بها ، ويستفيد من إمكاناتها «وسخر لكم مافي السموات وما في الأرض جميعاً منه . . .»^(٤١) وآيات الله مبثوثة داخل الإنسان وفي الكون المحيط به «سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم»^(٤٢).

٣- أنه منهج له جانبه الأصولي النظري وجانبه التطبيقي ، كما أن للإسلام في أصوله جوانب نظرية مثل : التوحيد والأخلاق ، وجوانب للتطبيق مثل التشريع ، وله في قوامه جانبه الأصولي كدين ، وجانبه التطبيقي كدولة ، وعلى ذلك لابد أن تكون لدراسة جغرافية الإسلام جانب أصولي يهتم بتقعيد عناصر الموضوع وبيان الأساس النظري لها ، وجانب تطبيقي يوظف القواعد السابق ارساؤها في واقع محسوس .

ولسوف نعرض هذين الجانبين وما يمكن أن يحتوياه من مباحث فيما يلي :

رابعاً : منهج جغرافية الإسلام الأصولية :

أوضحنا سابقاً ملامح منهج جغرافية الإسلام عموماً ، ولكن المنهج التفصيلي لدراسة الجوانب الأصولية للإسلام ينبغي أن يتفق مع عدة خصائص للدين الإسلامي لها أبعادها الجغرافية وذلك كما يتضح من الشكل التالي :

البعد الجغرافي	الخاصية الإسلامية
← توزيع الإسلام كدين له أتباع متشرون	- العالمية
← توجيه الإسلام للسلوك الإنساني في البيئة	- الالهية
← تفسير الأبعاد المكانية للشعائر الإسلامية	- العقلية مع الروحية
← الدعوة إلى الإسلام ماضيها - حاضرها - مستقبلها	- الخاتمية مع الاستمرارية

● شكل (٢) الأبعاد الجغرافية لخصائص الإسلام

وتمثل الأبعاد السابقة ركائز أساسية للمنهج الجغرافي الأصولي للدين الإسلامي . ولاستكمال البناء المنطقي للمنهج لابد أن يتوافر التقديم النظري للموضوع وترتيب العناصر والمباحث في نسق مترابط متسلسل ، وعلى ذلك يمكن اقتراح المنهج (البرنامج أو المقرر) التالي لدراسة جغرافية الإسلام الأصولية :

المبحث الأول :

مقدمة (أصولية):

عن جغرافية الأديان موضوعاً ومنهجاً وموقع جغرافية الإسلام منها ، والجهود العلمية السابقة في الموضوع وتطورها ودرجة النضج المنهجي فيها والظروف المحيطة بذلك التطور ، فضلاً عن إبراز أهمية وأهداف دراسة جغرافية الإسلام من الناحية الأكاديمية والناحية الدينية .

المبحث الثاني :

توزيع الدين الإسلامي :

وهذه دراسة للإسلام من الخارج تعني بالصورة التوزيعية الراهنة لانتشاره والنطاقات والمحاور الكبرى والثانوية للوجود الإسلامي وانتشار الأقليات وعلاقة هذه الصورة التوزيعية بتوزيع الديانات الأخرى الساموية وغير الساموية . والتوزيع عنصر جغرافي أصيل يتجه الإهتمام فيه إلى تحليل الصورة التوزيعية والظروف الجغرافية بها والمؤثرة عليها ، ومن الطبيعي أن توجد علاقات بين توزيع الدين الإسلامي وعدد من الظروف الجغرافية الطبيعية والبشرية والتي تفسر الوجود الكثيف أو المخلخل للإسلام في إحدى المناطق .

المبحث الثالث :

جغرافية الدعوة الإسلامية :

وهي بمثابة العنصر المتحرك في الدين الإسلامي والذي ضمن قيام العالم الإسلامي في الماضي والحاضر بشكل متنامي ، ويضمن كذلك استمرار الإسلام ديناً عالمياً للناس كافة . وبالرغم من أن الدعوة تكليف الهي واضح الأسلوب «أدع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن»^(٢٣) إلا أن المعرفة البشرية للدعاة (المسلمين) وقدرتهم على حشد طاقاتهم وإمكاناتهم وإلزامهم بالظروف المختلفة

للمستهدفين للدعوة وحسن اختيارهم للزمان والمكان والأسلوب الأنسب لنجاحها ، كل ذلك له دور بارز في أثر الدعوة على إنتشار الإسلام في الماضي والحاضر والمستقبل ، وتحليل ذلك هو ما ينبغي أن يدخل في اهتمام الجغرافي . ولدراسة جغرافية الدعوة بعدان : بعد تاريخي عن دورها في إنتشار الإسلام وازدياد رقعته ، وهذا يفسر جزءاً من الصورة التوزيعية الراهنة للإسلام والمبسوطة في المبحث الثاني ، وبعْد واقعي مستقبلي يهتم بتحديد الجهات التي تلزمها الدعوة الإسلامية وتحليل ظروفها الجغرافية الطبيعية والبشرية لمعرفة القدر المناسب المطلوب للدعوة زماناً ومكاناً وإمكاناً وتبين المشكلات والعقبات التي يمكن أن تواجهها وكيفية التغلب عليها ، وليس أقدر من الجغرافي للتصدي لمثل هذه الدراسة التحليلية المتكاملة .

المبحث الرابع :

توجيه الإسلام للسلوك الإنساني في البيئة :

وهو دراسة للإسلام من الداخل ، ومحاولة لتتبع ما يطبعه على سلوكيات المسلمين في تعاملهم مع عناصر البيئة والكون المحيطة بهم ، أو بمعنى آخر تأثير الإسلام على تكوين الغلاف الفكري للمسلمين ، والطريقة الخاصة التي يتفاعل بها المسلمون مع مكونات البيئة . وقد سبقت الإشارة إلى أن الإسلام - قرآنًا وسنة - قد أرسى قواعد معينة ينظم بها المسلمون حياتهم في جميع جوانبها الدينية (التعبدية) والاجتماعية (الأسرة وعلاقاتها) والاقتصادية (التملك - استخدام الأرض - التجارة - الزكاة) والسياسية (نظام الحكم والشورى) والأمنية (في السلم والحرب) والعمرائية والدولية (علاقات المسلمين وغير المسلمين) . . إلى غير ذلك من الجوانب ، فالإسلام نظام حياة متكاملة ومتفاعلة ، ومن الطبيعي أن تنعكس تلك التوجيهات الإسلامية على سلوكيات المسلمين في التفاعل مع البيئة بحيث يتميزون في ذلك عن غير المسلمين ويبدو هذا الانعكاس وهذا التميز في آثار ومظاهر مباشرة (مثل غمط عمران - نظام حكم - استخدام أرض) أو غير مباشرة (مثل تماسك الأسرة وتكامل المجتمع - ارتفاع إنتاجيته - تحضره . . . الخ) .

وعلى الباحث في جغرافية الإسلام أن يتتبع تلك المظاهر والآثار ويوصل لها في شكل قواعد

ولا بد أن يستفيد في هذا المضمار بالمصادر الشرعية للإسلام وبالسجلات التراثية لأحوال المسلمين في فترات ازدهارهم وتدهورهم ومقارنة ذلك بأحوال الأمم الأخرى ورغم أن ذلك بحث مضني إلا أنه شيق ومثمر وضروري لتأصيل جغرافية الإسلام .

المبحث الخامس :

الأبعاد المكانية للشعائر الإسلامية :

وتهدف الدراسة هنا إلى محاولة تفسير الجوانب المكانية المتعلقة بالشعائر من ناحية ، وتوظيف المعرفة الجغرافية من أجل تيسير وحسن أداء تلك الشعائر ، والملاحظ أن شعائر الإسلام أو أركانها التي تمارس كالصلاة والزكاة والصوم والحج لها أبعادها المكانية وهي وإن كانت تعبدات توقفية إلا أن للمسلم أن يستجل حكمتها ويعايش ممارستها معاشة الواعي بأسرارها ، وهنا قد يستأنس بالتحليل والتفسير الجغرافي في الإجابة على أسئلة هامة من أمثلتها :

- هل للزفروف المكانية دور في كون شبه جزيرة العرب منطلقاً للدعوة الإسلامية ؟
- ماهي الخصائص المكانية لمكة كقبة للإسلام خاتم الأديان ؟ (*) .
- ماهي الدلالة المكانية لتحديد مواقيت الحج والإحرام وحدود الحرم المكي ؟ * الخ .

أما عن توظيف المعرفة الجغرافية في دراسات حول الشعائر فمن أمثلتها دراسات تحديد قبة الصلاة ومواقيتها حسب الأماكن ، وقصر الصلاة مع السفر في الخضر والبدواة ، ودراسات تحديد أوائل الشهور العربية ، ودراسات حول أنواع الزكاة وعلاقتها بالموارد المتاحة ، وتحديد الجهات الأولى بصرف الزكاة تصرفاً شرعياً ، وما يمكن أن توجد من علاقة بين الصوم ومشكلة الغذاء في العالم الإسلامي ، والدراسات المتصلة بالحج من الجوانب الإقتصادية والإجتماعية والثقافية وحركة السكان ، ودراسات تخطيط وتحسين طرق ومسالك أداء الشعائر وتيسير إقامة وحركة الحجيج .

وفضلاً عن الباحث الخمس المقترحة لجغرافية الإسلام الأصولية قد تظهر بعض الأبعاد أو الموضوعات والإهتمامات الجغرافية الجديدة التي تعالج العلاقات المكانية لخصائص الدين

الإسلامي بمنهج أصولي ، أو التي تعالج الإشارات الجغرافية في القرآن الكريم والسنة المطهرة .

خامساً : منهج لجغرافية الإسلام التطبيقية (أو الإقليمية) :

تطوي أهمية هذا المنهج في كونه محاولة لتطبيق أصوليات المنهج السابق لدراسة الإسلام على واقع مادي ملموس هو الإسلام كدولة ، أو بمعنى آخر ككيان جغرافي له أبعاده الأرضية الطبيعية وأبعاده البشرية والإقتصادية في الماضي والحاضر والمستقبل . فالإسلام الذي له خصوصياته كدين مثل : العالمية ، الإلهية ، العقلية مع الروحية ، والحاقية مع الإستمرارية . . . وغير ذلك ، والذي يطبع كافة الثوابت والمتغيرات في حياة المسلم بطابعه كنفيل بأن يخلق شخصية حضارية متميزة للمكان الذي يقطنه المسلمون يتفرد بها عن الأماكن المجاورة بحيث يصح أن يسمى ذلك المكان باسم الإقليم الإسلامي وهذا الإقليم ليس إقليماً طبيعياً بالضرورة لكنه إقليم حضاري ، كما أنه ليس إقليم ظاهرة واحدة يقوم تجانسه عليها ، رغم أن الإسلام هو أساس تجانس الإقليم ، لكنه إقليم حضاري شامل لشمول هذا الدين مجري داخله تباينات إقليمية وتتحقق وحدة الإقليم الشامل من خلال تلك التباينات الداخلية ، وما يمكن أن يسمى بالإقليم الإسلامي هو وطن المسلمين ، وهو ما يطلق عليه حالياً العالم الإسلامي ، وهو في نفس الوقت المجال الذي تتخصص في دراسته جغرافية الإسلام التطبيقية .

ومن الأنسب أن يدرس الإقليم الإسلامي (أو العالم الإسلامي) وفق المنهج الإقليمي - ركيزة المناهج الجغرافية ، حيث تتم معالجة الإقليم في عدة إطارات وأبعاد مكانية وزمانية وأهم الإطارات المكانية أربعة هي : تحديد الإقليم (من الخارج) قيام أو تكون الإقليم (من الخارج والداخل) ، قوام الإقليم (البناء الداخلي) وأخيراً تقويم الإقليم (تكامل كلي) . أما الأبعاد الزمانية فهي ثلاثة : الماضي والحاضر والمستقبل ، وتندرج دراسة الإقليم في تلك الإطارات والأبعاد كما يتضح من الشكل التالي :

أطارات المكان أبعاد الزمان	من الخارج	من الخارج والداخل	البناء الداخلي	تكامل كلي
المستقبل				تقويم الاقليم
الحاضر	تحديد الإقليم		قوام الاقليم	
الماضي		قيام الاقليم		

● شكل (٣) اطارات وأبعاد منهج دراسة الاقليم

واضح أن دراسة الإقليم من الخارج أو تحديده تتم حسب الوضع الراهن ، أي في الحاضر ، وكذلك بنية أو قوام الإقليم وهي دراسة تحليلية ، أما قيام الإقليم أو تطور بنيتها فمماجا الماضي ، بينما تقع الدراسة التقويمية بين الحاضر والمستقبل حيث أنها دراسة تركيبيه استنتاجية للواقع ومشكلاته واسقاطاته المستقبلية .

وعلى هذا يمكن أن يتضمن منهج (مقرر) جغرافية الإسلام التطبيقية ، أو بمعنى آخر جغرافية العالم الإسلامي المباحث التالية مرتبة منطقياً .

المبحث الأول :

تحديد الإقليم (العالم) الإسلامي :

تعالج هنا المستويات والأسس والمعايير التي يمكن الاستناد إليها في تحديد العالم الإسلامي ، فعلى الرغم من وضوح توزيعه وكثرة الكتابات العلمية ، لم يتم الإتفاق العام على الحدود التي ينتهي عندها العالم الإسلامي بل ولم تناقش قضية التحديد هذه بالقدر الكافي ، ويمكن أن نميز مستويين لتحديد العالم الإسلامي : مستوى جغرافي ومستوى سياسي . ويقصد بالمستوى الجغرافي تتبع الوجود الفعلي للمسلمين بغض النظر عن الانتهاء السياسي للبقعة التي يقطنونها ،

وعلى ذلك فالعالم الإسلامي هو وطن المسلمين حيثما كانوا - في تجمع كبير متكامل ، أو في مجموعات صغيرة مبعثرة ووسيلة ذلك التبع هو الخرائط وعن طريقها يمكن تحديد نطاقات رئيسية للعالم الإسلامي ونطاقات ثانوية ومناطق للأقليات والجماعات المبعثرة كما في وسط إفريقيا والعالم الجديد .

أما المستوى السياسي فيعتد بتحديد الكيانات السياسية (الدول) التي تؤلف العالم الإسلامي ، ويستند هذا التحديد إلى أكثر من معيار فقد يكون معيار سكانياً ، وحسبه يمكن اعتبار الدولة إسلامية إذا بلغت نسبة المسلمين بها درجة السيادة (٥٠ ٪ فأكثر) أو درجة الرئاسة (أكبر نسبة بين تابعي الديانات) ، وقد يكون المعيار دستورياً بأن ينص دستور الدولة على أن دينها الرسمي - أو الأساسي هو الإسلام ، وقد يكون تنظيمياً بمعنى انتهاء الدولة إلى تنظيم دولي إسلامي يجمع ويوحد حركة الدول الإسلامية ومن أمثلته القائمة منظمة المؤتمر الإسلامي .

ومع الوضع التوزيعي الحالي للعالم الإسلامي جغرافياً وسياسياً ، لا يتضمن الاعتراف على أحد المستويين فحسب في تحديده شمولاً لكل المسلمين ولا للحقائق التوزيعة المطلوبة عنهم ، ولذا يحسن الاستناد إلى كلا المستويين الجغرافي والسياسي في تحديد العالم الإسلامي .

المبحث الثاني :

قيام العالم الإسلامي :

ويدرس فيه العمليات والمراحل المتعددة والمتميزة التي تكون عن طريقها وخلالها العالم الإسلامي ، وينبغي ألا تأخذ الدراسة شكل التبع التاريخي السردى لوقائع انتشار الإسلام ومعاركه ورجالاته ... الخ فذلك منهج المؤرخين ، وإنما هناك بعض العمليات الكبرى لقيام العالم الإسلامي ولكل منها فترة مميزة فمثلاً هناك فترة الدعوة النبوية نليها فترة الفتوح والغزوات في عهد الخلفاء والأمويين ثم فترة الإنتشار السلمي نتيجة للتجارة والاحتكاك الحضاري والطرق الصوفية ، وأخيراً توحد فترة الاقتناع العلمي بالإسلام وهي التي نعيشها حالياً . ويهتم الجغرافي بتحديد النطاق المكاني لكل فترة وكيف ساعدت ظروفه الجغرافية على

نجاح أو فشل عملية انتشار الإسلام وبيان الطرق والمساالك التي سلكها الإسلام والمحاور التي استقطبها والجهات التي فتحت له . وما يؤكد أهمية البعد المكاني لقيام الإسلام حدوث الانتشار في نمط نطاقات شبه حلقية فمرحلة الدعوة النبوية نشرت الإسلام في شبه جزيرة العرب ، ومرحلة الفتوح والغزوات فتحت منطقة الشرق الأوسط وحوض البحر المتوسط ، وواصل الإسلام انتشاره في العالم القديم في مرحلة الانتشار السلمي . أما مرحلة الإنتنازع العلمي فغطاها العالم أجمع ، خاصة أوروبا والعالم الجديد . ويستطيع الجغرافي بذلك أن يحدد دور كل عملية وكل مرحلة في قيام العالم الإسلامي ، مساحة أرضية – وكياناً سكانياً .

المبحث الثالث :

قوام العالم الإسلامي :

يتركز الاهتمام هنا على تحليل التركيب الداخلي للعالم الإسلامي في حالته الحاضرة ، وهذا يمثل صلب الدراسة الجغرافية الإقليمية . ويمكن معالجة العالم الإسلامي إقليمياً في أحد إطارين أو كليهما :

- على أساس أنه إقليم واحد .
— على أساس وجود أقاليم متميزة بداخله .

وفي كل لا بد أن تُعتمد الدراسة إلى تحليل العناصر التالية :

- * الوضع الطبيعي من خصائص أرضية ومناخية وحيرية ومائية .. الخ .
 * الكيان البشري من سكان لهم أحوالهم الاجتماعية والثقافية والديمقراطية ، ومن سكن متعدد الأنماط ... الخ .
 * البنيان الإقتصادي وأنشطته بدرجاته المختلفة ودرجة إسهامها في ذلك البنيان .
 * التركيب السياسي وأهم عناصره الخريطة السياسية للعالم الإسلامي .
 ومن المهم في دراسة العناصر السابقة أن يرتبط بتحليلها إعادة تركيبها على هيئة أنماط كبرى ، أو بمعنى آخر أقاليم ذات هويات متميزة مما يسهل المقارنة ودراسات التكامل في العالم الإسلامي .

المبحث الرابع :

تقويم العالم الإسلامي :

يمكن أن تشمل الدراسة التقويمية للعالم الإسلامي على أربعة عناصر رئيسية :

- مواطن القوة ومواطن الضعف في البنية الجغرافية الشاملة للعالم الإسلامي وتبين تلك المواطن من التحليلات السابقة لتحديد العالم الإسلامي وقيامه وعناصر قوامه ، ويعتبر حصر مواطن القوة والضعف نقطة انطلاق التخطيط المستقبلي الشامل في العالم الإسلامي .
- الوضع العالمي للعالم الإسلامي ، فالمسلمون ليسوا منعزلين في عالمهم عن عالم البشرية الأكبر بل يتفاعلون معه سلباً وإيجاباً ، ويتحدد نتيجة لهذا التفاعل الوزن الإسلامي العالمي .
- مشكلات العالم الإسلامي ، وهي تركز لما رشحه العنصران السابقان على هيئة مشكلات واضحة بعضها ناتج عن عوامل من داخل العالم الإسلامي ، وبعضها عن عوامل من خارجه وقد تكون عوامل بعضها من الداخل والخارج معاً .
- مستقبل العالم الإسلامي ، ويتأسس هذا المستقبل على ركائز من العناصر الثلاث السابقة ، ويتوجه ليستوعب جميع أفضية العالم الإسلامي وإن كانت هناك بعض الأبعاد والقضايا الأولى بالنظر المستقبلي مثل التقدم الشامل ، وانتشار الدعوة الإسلامية والتضامن والتكامل والوحدة الإسلامية .

نخلص مما سبق إلى أن المنهج الأصوبي والمنهج التطبيقي (الإقليمي) لجغرافية الإسلام يكمل أحدهما الآخر فهما يدرسان وجهي عملة واحدة هي الإسلام وجهه كدين (أصوبي) ووجهه كدولة (تطبيقي) ، ولقد حظى الإسلام كدولة بعدد وافر من الدراسات الجغرافية والتي لم تعتمد كلها على أصوليات جغرافية الإسلام مما يشير إلى أهمية التركيز المستقبلي على دراسة جغرافية الإسلام عموماً وجغرافيته الأصولية

خصوصاً . والإهتمام بذلك له سند شرعي ، فرسول الإسلام عليه الصلاة والسلام يقول ما معناه «من لم يتم بأمر المسلمين فليس منهم» .

الهوامش :

- (١) محمد فتحي عثمان ، مقدمة كتاب البلدان الإسلامية والأقليات المسلمة في العالم المعاصر ، طبع جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ، الرياض ١٣٩٩/٩٧٩ ص ٣٢-٣٣ .
- (٢) دمنعة المؤبقة مختصر ، دمنعة الأهر فرع المؤبقة في العام ١٤٠١هـ - ١٤٠٢هـ (٨٢/٨١) وجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض في عمار ١٤٠٢ - ١٤٠٣ - ١٤٠٤هـ .
- (٣) زوحر منشل ، نحر حفرة الخدينة ، ترجمة محمد السيد غلاب ودولت صادق ، القاهرة ١٩٧٣ ، ص ٣٩ .
- (٤) يرى البعض أن كلمة نحت (تكتيك Technique) تعني أدوات البحث ، وإن كان هناك من يسميها بالوسائل الفنية لنحت ، وهي المنقودة هـ سن يعمل أدوات البحث شيئاً آخر ، انظر أحمد بدر ، أصول البحث العلمي ومناهجه ، وكالة الموضوعات ، الكويت - طبعة الخاصة سنة ١٩٧٩ ص ٣٤ .
- (٥) عبد الرحمن بدوي ، مبعج نحت العلمي ، القاهرة ، دار النهضة العربية سنة ١٩٦٣ ص ٥ ، أحمد بدر ، المرجع السابق ص ٣١-٣٣ .
- (٦) الدمرداش سرحان ، مير ندر ، المناهج ، القاهرة ، الطبعة الثالثة ١٩٧٢ ص ٢ .
- (٧) (أ) نفس المرجع السابق ص ٢-٧ .
(ب) عبداللطيف مؤاد برهيد ، المناهج ، أسسها وتطبيقاتها وتقويم أثرها ، القاهرة ، الطبعة الثالثة ص ٢٧ - ٣٩ .
- (٨) الدمرداش سرحان ، مير ندر ، المرجع السابق ، ص ١٨٦ - ١٩٩ .
- (٩) Hurlstone, R., The Nature of Geography, A.A.A.G. Pennsylvania, 1939, p 120.
- (١٠) Chapman J.D. "The Status of Geography", The Canadian Geography, Vol. ٨ No. 3, 1966, p. 133.
- (ب) زوحر منشل ، المرجع سابق ص ٤٦ - ٥١ .
- (١١) وهيب سمعان ، رشدي نيب ، دراسات في المناهج ، القاهرة ، الطبعة الرابعة ٩٧٢ ص ١٥٩ .
- (١٢) عبدالرحمن بدوي ، المرجع السابق ص ٧ - ١٢ .
- (١٣) محمد لييب النجدي ، محمد منير موسى ، المناهج والوسائل التعليمية ، القاهرة ١٩٧٧ ص ٢١ - ٢٢ ، الدمرداش سرحان ومير ندر ، المرجع السابق ص ١٥ .
- (١٤) Pierre de Fontaine, Geographie et Religions, Paris: 1948
- (١٥) Dickinson, E., Robert, The Marks of Modern Geography, London, Reprint 1973, pp 10-11.
- (١٦) Zelinsky, Wilbur, An Approach to the Religious Geography of the U.S., Patterns of Church Memberships in 1952 A.A.A.G., Vol. 51, 1961, pp. 139-193
- (١٧) Fickeler, Paul, "Grundfragen de Religions Geographie", Erdkunde, vol. 1, 1947, pp. 121-144.
- (١٨) Zelinsky, op cit., p 140, p 189.
- (١٩) Fleure, H.J. "The Geographical Distribution of Major Religions" Bulletin de Société Royale de Geographie d'Egypte, Tom 24, 1951, pp. 1-18.

- Fischer, Eric, "Some Comments on a Geography of Religion" an abstract in A.A.A.G., Vol. 46, 1956, pp. 246-247. (٢٠)
- Weigert, Hans, W., Principles of Political Geography, New York, 1957. (٢١)
- de Planhol, Xavier, Le Monde Islamique: Essai de Géographie Religieuse, Paris, 1957. (٢٢)
- عبدالمعز كامل ، جغرافية الإسلام في إفريقيا ، محاضرات معهد الدراسات الإسلامية القاهرة سنة ١٩٦٨ . ص ٨ . (٢٣)
- عبدالمعز كامل ، قيام الإسلام ، دراسة في الجغرافيا التاريخية ، مطبوعات الادارة العامة للثقافة بالأزهر ، القاهرة سنة ١٩٦٠ . (٢٤)
- Kamel, A.A., The Face of the Moslem World; Bull. Soc. Géogr. d'Egypte, T. XXXVIII, 1965, pp. 129-153. (٢٥)
- Zehnsky, W., op.cit. pp. 139-141. (٢٦)
- عبدالمعز كامل ، جغرافية الإسلام في إفريقيا ، المرجع السابق ص ٤ - ٧ . (٢٧)
- Fickeler, op.cit. p. 122. (٢٨)
- Erich Isaac, "Religion, Landscape and Space," Landscape, Vol. 5, 1960, pp. 14-18. (٢٩)
- Kurryan, George, "Geography and Religion," The Indian Geographical Journal, Vol. XXXVI, 1960, pp. 46-51. (٣٠)
- Nelson, G.K. and Clews, R.A., "Geographical Mobility and Religious Behaviours," Sociological Review, Vol. 21, 1973, pp. 127-135. (٣١)
- Hinshaw, P.L. and Stutz F.P., "Socio-Religious, Spatial Behaviour," Southeastern Geographer Journal of the Southeastern Division of the A.A.A.G., Vol. XVI, May 1976. (٣٢)
- Sopher, D.E., Geography of Religions, London, 1967. (٣٣)
- سورة الزمر ، الآية ٦٢ . (٣٤)
- سورة آل عمران ، الآية ٢٠ . (٣٥)
- نضى لوق ، محمد ، الزموس والرسالة ، القاهرة (٣٦)
- Bowman, L., The New World, Problems in Political Geography, London, 1928, p. 124. (٣٧)
- سورة الأعمام ، الآية ١٦٢ . (٣٨)
- حديث شريف (٣٩)
- سورة الجاثية آية ١٣ . (٤٠)
- سورة فصلت آية ٥٣ . (٤١)
- سورة النحل - الآية ١٢٥ . (٤٢)
- * قد يجيب عن هذا السؤال دراسات الدكتور حسين كحل الدين عن مركبة مكة ومستشفى المعاني
- * من الاجتهادات في ذلك ، صلاح عبدالجابر عيسى ، ورؤية جغرافية لتوزيع الاحرام وحدود الحرم المكى ، نشره الجغرافيا - العدد الأول - محرم ١٤٠٣ - أكتوبر ١٩٨٢ كذا العلوم الاجتماعية ص ٨ - ١١ .



-
- The physical features of land, climate, vegetation and water, etc.
 - The human element: the population and their social, cultural and demographic conditions, their different housing types, etc.
 - The economic structure: where a political map of the Islamic world has prime importance.

The analysis of these elements should aim at reshaping them into major forms or, in other words, in regions of distinguished characteristics to facilitate comparisons and integration studies.

Fourth

Evaluation of the Islamic World

The evaluation study of the Islamic world can include the following basic elements:

- Points of strength and weakness in the comprehensive geographical structure of the Islamic world as a prerequisite for a future overall planning of that world.
- The international position of the moslem world - for moslems do not live in isolation but interact with the outer world they live in. The product of this interaction determines the international weight of the moslem world.
- Problems of the Islamic world - some of which may be due to external causes, others, a product of internal factors while some problems may be the result of both.
- The future of the Islamic world, which is indispensable of the working of the former three elements, should be directed to adopt all the issues of the Islamic world giving priority to problems of comprehensive development, spread of Islamic call, and promotion of moslem solidarity, integration and unity.



historical events of Islam, its spread, battles and famous figures, etc., which is mainly a concern of historians. It only cares for some decisive periods in the making of the Islamic world each of which represents a distinctive stage. The following are examples in chronological order:

- The prophet's call stage.
- The conquest stage of the Guided Caliphs and the Omayyads.
- The stage of peaceful spread of Islam through trade, cultural contacts and Suphi ways.
- The contemporary stage of worldwide faith in Islam.

The geographer has to define the spatial boundaries of each stage, how the geographical features have helped to push or hinder the Islamic drive in this or that area, which ways and routes Islam followed, the places laid open to it and the communities more persuaded by the Islamic call. The significance of the spatial dimension in the emergence of the Islamic world is more emphasized by the fact that the spread of Islam took place in a chain-like series. For example, during the prophet's call stage, Islam spread in the Arabian Peninsula whereas in the conquest stage it swept over the Middle East and the Mediterranean basin. During the third and peaceful stage, Islam continued its drive in the old world. As for the present period, its stage of action has become the world at large especially in Europe and the new world.

In this way, the geographer can define the role each stage has played in the emergence of the Islamic world on both the spatial and the population levels.

Third

The Structure of the Islamic World

The stress here lies on the analysis of the present internal structure of the Islamic world which represents a pure regional geographic study. This world can be studied as *one region* or as having *various regions*. In each, the study must analyze the following elements:

Here we have a concise statement of the last or the fifth part as it pours direct into the main theme of the writer's essay and provides the main basics in a curriculum for an applied geography of the Islamic world arranged in a logical sequence.

First

Definition of the Islamic Region (World):

This can be done on two levels: geographical and political. On the first level, we trace the real places where moslems live regardless of their political loyalties to the countries they belong.

In this sense, the Islamic world can extend to include all moslems wherever they are, whether as big masses or small scattered groups. The means for this pursuit is maps. Through maps we can define the major and the secondary regions of the Islamic world together with zones of moslem minorities and scattered groups as in central Africa and the new world.

Politically, the criterion of definition can be on the state level if moslems in each Islamic unit (state) constitute 50 percent or more of its population or the greater percentage among its religious groups. The criterion can be constitutional if the country's constitution stipulates that Islam be its official religion. It can also be organizational if the country belongs to a world Islamic league as the Organization of Islamic Conference.

With regards to the present distributional position of the Islamic world geographically and politically, the two levels should better be observed in the definition of the Islamic world.

Second

The Emergence of the Islamic World

Here, we have to study the various stages and processes through which the Islamic world came into being. The study is not meant to be a follow-up of the

ON A CURRICULUM FOR A GEOGRAPHY OF ISLAM

A Study Prepared by
DR. SALAH ABDUL JABER EISA
Partially Abridged and Translated by
MR. SAEED ABDUL AZIZ ABDULLAH

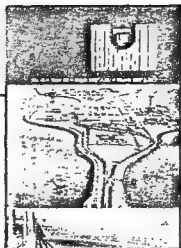


Teaching 'Geography of the Islamic World' has first been introduced into 'Al-Azhar University' in 1961 (1381 H.), then into some Arabic and geography departments in some colleges and higher institutes. A number of studies have also appeared, in Arabic, dealing with some Islamic questions from a geographical viewpoint.

The study manages to form a concept for a curriculum of a geographical study of Islam as God's Seal Religion, to demonstrate the elements more deserving of study and have them properly arranged in a scientific order based on the characteristics of both the geographic method and Islamic religion.

The author divides his study into five parts as follows:

1. Between a teaching curriculum and the geographic method.
2. Geography of religions and its curricula.
3. The nature of Islam and the geographical method for its study.
4. A curriculum for the geography of the fundamentals of Islam.
5. A curriculum for an applied geography of Islam.



*King Fahd
Causeway
Saudi / Bahrain*

جسر الملك فهد
السعودية / البحرين

The writers' views do not necessarily reflect those of the magazine.

Articles are arranged technically regardless of the writer's prestige.

Annual
Subscriptions :

- Saudi Arabia : 20 Riyals.
- Arab Countries : The equivalent of 4 issues price.
- Non-Arab Countries : US 6 \$.

Articles can not be returned to authors whether published or not.

● PRICE PER ISSUE ●

- | | |
|----------------------|------------------|
| - Saudi Arabia | : 3 Riyals |
| - U. A. E. | : 4 Dirhams |
| - Qatar | : 4 Riyals |
| - Egypt | : 35 Piastres |
| - Morocco | : 5 Dirhams |
| - Tunisia | : 400 Milliemmes |
| - Non-Arab Countries | : 1 U.S. \$ |

Saudi Arabia : Al-Greisy Distributing Est.,
P.O. Box 1405, Riyadh, Tel.: 4022564.

Bahrain : Al-Hilal Distributing Est.,
Manama, P.O. Box 224, Tel.: 262026.

Abu-Dhabi : P.O. Box 3778, Abu Dhabi.
Tel.: 323011.

Egypt : Al-Ahram Distributing Est.,
Al-Gulaa Street, Cairo, Tel.: 755500.

Dhufal : Dar-Al-Hikma Library.
P.O. Box 2007, Tel.: 228552.

Tunisia : The Tunisian Distributing
Company 5, Nahg Kartaj.

Qatar : Dar-Al-Thakafa.
P.O. Box 323, Tel.: 413180.

Morocco : Al-Sharifia Distributing Company,
P.O. Box 683, Casablanca, 05.



EDITOR-IN-CHIEF

MOHAMMAD HUSSEIN ZEIDAN



EDITORIAL DIRECTOR

ABDULLAH HAMAD AL-HOQAIL



EDITORIAL BOARD

DR. MANSOUR IBRAHIM AL-HAZMI

ABDULLAH ABDUL-AZIZ BIN EDRIS

DR. ABDUL-RAHMAN AL-TAYYEB AL-ANSARI

DR. ABDULLAH AL-SALEH AL-UTHAYMIN

DR. MOHAMMAD AL-SULAYMAN AL-SUDAIS



EDITORIAL SECRETARY

MUSTAFA AMIN JAHIN

All correspondence should be directed to the Editor-in-Chief. Tel.: 4417020

Editorial Director: Tel.: 4414681



Members of the Board :

- His Excellency Mr. Abdul Aziz Al-Refaey.
- H.E.Mr. Abdullah Bin Khamis.
- Dr. Ahmed M. Al-Dhubaib Deputy-Rector of King Saud University.
- H.E.Dr. Abdul Rahman Bin Saleh Al-Shebaili.
Deputy Minister for Higher Education .
- H.E.Dr. Abdullah Al-Masri
Assistant Deputy Minister for Cultural Affairs,
Ministry of Education .
- H.E.Mr. Abdul Rahman Fahd Al-Rashid.
Assistant Deputy Minister For Domestic Information.
Ministry of Information .
- H.E.Mr. Muhammad Hussein Zeidan.
- H.E.Mr. Abdullah Hamad Al-Hoqail
«Secretary General of King Abdul Aziz Research Centre».

Annual Subscriptions are to be directed to the Secretary General of-Addurrah Tel.: 4414681

Editorial Board: Tel.: 4412316 - 4412317



IN THE
NAME OF ALLAH.
THE MERCIFUL.
THE BENEFICENT



An Academic Quarterly
Issued by: King Abdul Aziz Research Centre

No. 4 • Year 12 • Rajab 1407 A.H. • March 1987 A.D.

**King Abdul Aziz
Research Centre**

- Established by a Royal Decree No. MJ/45 dated 1/8/1392 A.H. as an autonomous body with independent juristic identity.
- Run by a Board of Directors vested with full authority to have its objectives materialized.

Objectives:
Further studies pertaining to the history of the Kingdom, its geography, literature, intellectual and cultural heritage in particular as well as those of the Arab and Islamic world in general.

- To issue a cultural magazine carrying its name ADDARAH.
- In accordance with the Royal approval No. 5/12608 dated 20/5/1396 A.H. the Centre has become the home of the National Saudi Archives and Manuscripts.

P. O. Box 2945 Riyadh 11461 Kingdom of Saudi Arabia

Facsimile No.: 00/966/1/4417020

Bibliotheca Alexandrina



0530546